

المركز القومي للترجمة

موسوعة البلاغة

الجزء الأول

تحرير: توماس أ. سلوان

ترجمة: نخبة

إشراف وتقديم: عماد عبد اللطيف

2699

مراجعة: عماد عبد اللطيف

مصطفى لبيب



احتفت الموسوعة بتاريخ علم البلاغة؛ فقد قدَّمت نُبذًا - ربما تتسم بالإيجاز المقتضب - عن البلاغات العربية والصينية والهندية والسلافية والعبرية. كما أفردت مساحات شاسعة للمنجز البلاغي اليوناني واللاتيني، ويكاد الحديث عن هاتين البلاغتين يستغرق أكثر من ثلث صفحاتها. كذلك اختُصَّت البلاغة الأوروبية في الألفية الثانية مِن الميلاد بمداخل مستقلة، رُتِّبت بحسب الحقب التاريخية؛ فقد أُفردتْ مداخل مستقلة لكلٍّ من: البلاغة في العصور الوسطى؛ وعصر الإحياء؛ والقرن الثامن عشر؛ والقرن التاسع عشر؛ والبلاغة الحديثة؛ والبلاغة فيما بعد الحداثة.





تصميم الغلاف: جاسر ممدوح

موسوعة البلاغة

(الجزء الأول)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2699
- موسوعة البلاغة (الجزء :الأول)
- توماس أ. سلوان
- نخبة
- عماد عبد اللطيف، ومصطفى لبيب
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:
Encyclopedia of Rhetoric First edition
By: Thomas O.Sloane

موسوعة البلاغة: نشرت الطبعة الأولى في الأصل باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠١، ونشرت هذه الترجمة بالاتفاق مع مطبعة جامعة أكسفورد

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

موسوعة البلاغة

(الجزء الأول)

تحرير : توماس أ. سلوان

إشراف وتقديم : عماد عبد اللطيف

ترجمة

بدر مصطفى — عماد عبد اللطيف

حجاج أبو جبر — محمد الشرقاوي

حسام أحمد فرج — محمد فوزي الغازي

خالد توفيق — محمد مشبال

عزة شبل — مريم أبو العز

مها حسان

مراجعة

عماد عبد اللطيف

مصطفى لبيب



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

موسوعة البلاغة (الجزء الأول) / تحرير توماس أ.سلوان / ترجمة فريق عمل؛ مراجعة: عماد عبد اللطيف - مصطفى لبيب؛ إشراف وتقديم عماد عبد اللطيف
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٨٨٨ ص، ٢٤ سم
(أ) سلوان / توماس أ (محرر)
(ب) عبد اللطيف ، عماد (مراجع ومشرف ومقدم)
(ج) لبيب ، مصطفى (مراجع مشارك)
(ب) العنوان ٤١٤,٠٣

رقم الإيداع: ٨٢٥٨ /٢٠١٥
الترقيم الدولى 0 - 231 - 920 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم
بلاغة جديدة لعالم جديد

عماد عبد اللطيف

شغل حُلم تطوير البلاغة العربية مساحة رحبة من وعي أجيال متواصلة من الباحثين العرب؛ بداية من محاولات تحديث دروس البلاغة التعليمية في الأزهر الشريف على يد الإمام محمد عبده، مرورًا بتحديث مسائل العلم ومنظوراته، كما تجلت في كتابات أحمد ضيف وأمين الخولي وسلامة موسى... وصولاً إلى محاولات تحديث البلاغة بواسطة دمجها مع (أو إخفائها في طيات) النقد الأدبي وعلم الأسلوب وعلوم الاتصال والتأويليات في السبعينيات والثمانينيات، والتداولية والسيميوطيقا وعلم النص وتحليل الخطاب في تسعينيات القرن العشرين والعقد الأول من قرننا الحالي. وهي علوم أتاحت للبلاغة أن ترفل في بريق الموضة الأكاديمية، الذي يجذب الأبصار ويغوي العقول.

كان طموح تحديث البلاغة، يستند إلى وصفة تقليدية للتحديث صاغها الشيخ أمين الخولي في عبارة؛ "أول التجديد قتل القديم فهمًا". غير أن معايشة القديم شيء، وإعاشته شيء آخر. فنظرة سريعة على الإسهامات المهمة في البلاغة العربية على مدار القرن الماضي، تبرهن أن وصفة "قتل القديم فهمًا" لا تُفلح – بمفردها– في إحيائه، ولا تُنجز – وحدها– تحديثه. وبوحي من

عبارة أمين الخولي السابقة يمكن استكمال وصفة التحديث عبر فعل آخر هو "امتلاك الجديد نقدًا". إن إطلالة على اللحظة التاريخية التي نشأت فيها البلاغة العربية في القرنين الثاني والثالث الهجريين، تبرهن على الدور المؤثر الذي لعبه الاحتكاك الإيجابي بالآخر المختلِف حضاريا (الهندي والفارسي واليوناني..)؛ سواء جاء هذا الاحتكاك في شكل الإفادة من المنجز البلاغي للآخر (مثل صحيفة بشر وكتابات أرسطو..)، أو في شكل الدفاع (المعرفي) عن بلاغة الذات في مقابل انتقادات الآخر، كما رأينا في دفاع أصحاب معاني القرآن وإعجازه عن بلاغة النص القرآني، ودفاع الجاحظ عن الممارسات الخطابية للعرب في مواجهة اتهامات الشعوبيين.

في الوقت الراهن، يكاد يقترن "الجديد" بما تقدمه البلاغة الغربية في وعي كثير من الدارسين. وغالبًا ما يتخذ البلاغيون العرب أحد موقفين متعارضين من هذا الجديد. الأول يغلب عليه استلاب المفتون، والثاني يغلب عليه نبذ الكاره. ونادرًا ما يُتبنى منظور نقدي في التعامل مع الجديد البلاغي؛ بما يتيح موقفًا متوازنًا منه. فقد اعتادت عينِ المفتون أن تكون عن كلِّ عيبٍ كليلة، كما اعتادت عين الكاره أن تكون لكلِّ خيرٍ منكرة.

إضافة إلى ذلك، فإن مأزق تحديث البلاغة يتعمق حين نعترف بحقيقة أنَّ المعرفة البلاغية العربية لم تكن طوال الوقت مشغولة بالحياة العربية كما يجدر بها أن تكون. فكل معرفة لا تحرث في أرض الحياة تظلُّ معلَّقةً – كالمشنوقة– بين حبال التنظيرات. وقد عاشت البلاغة العربية، أيام مجدها، حياة شاب جسور يُصارع الواقع ويفاوضه، ويستجيب له، ويغيِّره؛ غير أن الحال انتهت بها عجوزًا محاصرةً داخل صومعة الشروح والحواشي والتعليقات، معزولةً عن فضائها الحيوي، حبيسة سجن ماضيها العتيق. وبعد أن كانت كينونة نابضة، تستمد حيويتها من سيرورة المجتمع وثراء تحولاته،

انكمشت لتصبح حروفًا وكلمات مرتعشة داخل دفات كتبٍ مولعــةٍ بالنقــل، وقاعات درسٍ مُفعمة بالتلقين.

لقد بذل البلاغيون العرب على مدار العقود الماضية جهــودًا كبيــرة لإنعاش البلاغة العجوز، ومنحِها قبلة حياةٍ، أو جرعةً من أُكــسير الــشباب. وكان عمل البعض منهم مثيرًا للإعجاب بفضل تحلّيه بسمتي العبقرية؛ أقصد البصيرة والإخلاص. غير أنَّ قطرات المطر المتقطع، نادرًا ما تُفلح فــي أن تصنع أنهرًا. وها نحن بعد أكثر من قرن ونصف على دعوة تحديث البلاغة لا نجد أمامنا إلا سلسلة متقطِّعة من الخلجان. وهو أمر يدعو للأمل بقدر ما قد يثير الأسى. إن نظرة من شاهق على خلجان البلاغة الراهنة، قد تتيح لنا تأملاً أعمق للتحديات التي تحول دون اكتمالها متدفقة في صورة أنهار. ويبدو للناظر أن بلاغتنا الراهنة تواجه خمسة تحديات كبرى:

الأول: انشغالها بالتراث البلاغي العربي وإهمالها بدرجة ما للمنجزات النظرية والتطبيقية البلاغية المعاصرة. ويتجلى هذا الانشغال في أمور منها؛ كمّ البحوث المكرسة لدراسة النصوص التراثية قياسًا بتلك المكرسة لدراســة نصوصٍ معاصرة؛ عربية أو غير عربية. إضافة إلى هيمنة مفاهيم تراثيــة للبلاغة على الإدراك الأكاديمي والشعبي للعلم، خاصة المفــاهيم الــسكاكية؛ فحين تُذكر البلاغة غالبًا ما ينصرف الذهن – الأكاديمي والعام – إلى العلوم الثلاثة المشكِّلة للبلاغة المدرسية. وقد يحتاج المرء إلى أن يُحاجج بإلحــاحٍ ليبرهن لقارئه أو محدِّثه أن ثمة "بلاغات" أخرى مغايرة.

الثــاني: انشغالها بالنصوص العليا مثل القرآن الكريم والشعر والنثــر الأدبي على حساب خطابات الحياة اليومية. لقد نشأت البلاغة فــي حــضن الحياتي؛ وعاشت طفولتها في كنف الديني والاجتماعي والــسياسي، وحــين انشغلت – قديمًا – بنصوص مثل الوصية والحكمة والخطابة والشعر، كانت

الوظائف التداولية لهذه النصوص هي حافز إنتاجها، في حين كانت الخصوصية الجمالية أداةً لتحقيق الوظائف التداولية. كانت هذه الأنواع تنتمي بالأساس إلى الحياتي، وليس إلى الأدبي. ورغم تغيُّر الزمن فإن البلاغة العربية ظلت متشبثة بنصوصها؛ بغض النظر عن تغيُّر وظائفها. وقد أدى هذا إلى استمرار التركيز على نصوص انتقلت بشكل شبه كلي من دائرة الحياتي إلى دائرة الأدبي، ومن هيمنة الوظيفة التداولية إلى هيمنة الوظيفة الشعرية (الجمالية). وكان عدم التفطن لوظيفة البلاغة بوصفها الحقل المعرفي الذي يدرس الإقناع والتأثير في الفضاء العام، أي يدرس الحياتي اليومي (ولنقل دون تحرج "الشعبي" أيضًا)، حاجزًا دون الاهتمام بنصوص وأنواع وخطابات حياة يومية جديدة، تشكلتْ – أو تكاد – بمعزل عن علم البلاغة القديمة. وكان من نتائج ذلك ظهور تحدٍ جديد، هو انعزال البلاغة بوصفها علمًا عن خطابات الحياة المعيشة، بوصفها غاية العلم ووعاءه.

الثالث: انفصال البلاغة عن مشكلات المجتمع وتحولها إلى ممارسة أكاديمية شبه منعزلة عن سياقات إنتاجها الاجتماعية والسياسية. فقد كان أبرز ملامح مشاريع تحديث البلاغة في النصف الأول من القرن العشرين هو السعي الحميم إلى توثيق العُرَى بينها وبين طموحات المجتمعات العربية الناهضة، خاصة في الثلاثينيات والأربعينيات. ومن هذه الزاوية، يمكن القول إن مشروع الخولي لتحديث البلاغة – في وجه من وجوهه – مشروع تربوي، هدفه إصلاح الذائقة الفنية للمعلمين والطلاب معًا. وكتابه فن القول (الذي يدعو فيه إلى إحلال علم للإنشاء محل البلاغة السكاكية التقليدية) هو التجلي الأبرز لذلك[١]. أما دعوة سلامة موسى لتطوير البلاغة – في كتابه "البلاغة العصرية واللغة العربية"– فكانت وثيقة الصلة بمشروعه للنهوض

---

(١) انظر، فن القول، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٦. ومناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.

بالمجتمع. فقد دعا إلى بلاغة جديدة تخدم الحياة العصرية، وتشارك في تطوير الأمم؛ بلاغة تنجز أربع غايات أساسية هي (١) الوصول إلى التفكير المنطقي السديد الذي يؤمَن فيه من الخطأ؛ (٢) تحريك الذكاء، وتدريبه بالكلمات؛ (٣) معرفة كيف نستعمل الكلمات للتفكير التوجيهي؛ (٤) معرفة كيف تُستعمل الكلمات للتحريك الاجتماعي[1]." حتى الكتابات التي كانت تنتصر للأساليب القديمة مثل كتاب أحمد حسن الزيات "دفاع عن البلاغة"، الذي يحاكم فيه لغة الصحافة في أربعينيات القرن العشرين، كانت تنطلق من فرضية غير معلنة هي الصلة الوثيقة بين البلاغة والممارسات اللغوية الحياتية في المجتمع.

لم تستطع دعوات الربط بين البلاغة والمجتمع الصمود أمام اختبار الزمن. ربما يرجع ذلك إلى أن أغلبها لم يتحول من دعوات وطموحات إلى مشاريع وخطط عمل تفصيلية. كما أن مناخ الحريات الأكاديمية والمعرفية الذي أُنجزت فيه هذه الدعوات قد تغيَّر بشكل جذري في خمسينيات القرن العشرين وستينياته؛ فبصعود الحركات العسكرية إلى سُدَّة الحكم عرفت جمهوريات العالم العربي الناشئة تقييدًا واسعًا للحريات الأكاديمية والمجتمعية، وكان من جرَّاء ذلك أن تراجعت دعوات ربط البلاغة والمجتمع، وبدأ فصل جديد من فصول التجديد؛ انشغلت فيه البلاغة بدراسة الأساليب، وعادت مرة أخرى إلى حضن التحليل الشكلي للأساليب والظواهر البلاغية، بمعزلٍ، في حالات كثيرة، عن سياقات إنتاجها واستهلاكها ووظائفها التداولية. وعلى الرغم من وجود بعض الجهود المتميزة لدراسة خطابات المجتمع، خاصة في العقدين الأخيرين، فإننا ما زلنا بحاجة إلى أن تتحول هذه الجهود إلى تيار مؤثر من تيارات الدرس البلاغي العربي.

---

(١) انظر، سلامة موسى، *البلاغة العصرية واللغة العربية*، المطبعة العصرية، القاهرة ١٩٤٥- ١٠٥.

الرابع: ضعف الاحتفاء بالطبيعة عبر النوعية لعلم البلاغة. لقد مهَّد الشيخ أمين الخولي لمشروعه في تحديث البلاغة أوائل القرن العشرين، بمحاضرات حول العلاقة بين علم البلاغة وعلوم أخرى من أبرزها علم الجغرافيا وعلم النفس، نشرها بعد ذلك في كتابه "مناهج تجديد". ويكشف هذا الصنيع عن وعيٍ مبكر بأن أيَّة محاولة لتجديد العلم، لابد أن تتضمن مراجعةً عميقة للعلاقة بينه وبين العلوم التي تتقاطع معه، أو تتداخل فيه، أو تنازعه موضوعه، أو تقدم له عُدَّة تحليلٍ وآليات مقاربة. وهي شبكة كبيرة من العلوم؛ تتضمن - على سبيل المثال لا الحصر- علوم الاجتماع والنفس والسياسة والجغرافيا والأدب واللغة والتاريخ والفلسفة والتواصل والأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا وغيرها. وربما لا يكون من المبالغ فيه القول إن كل العلوم الاجتماعية والإنسانية والفنون القولية والأدائية ذات صلة بعلم البلاغة من زاوية أو أخرى، وبدرجات متنوعة. ومن ثمَّ، فإن أية محاولة لاستكشاف آفاق تحديثية لعلم البلاغة لابد أن تشمل مراجعة علاقته مع العلوم ذات الصلة، وإدراك أنه - في جوهره - علم بينِي يحتضن معارف ومقاربات وخبرات إنسانية شديدة التنوع. من المؤكد، أن كثيرًا من الدراسات الحديثة والمعاصرة تنطلق من إدراك للعلاقات الوشيجة بين علم البلاغة وعلوم معاصرة مثل السيميائيات والتداولية وتحليل الخطاب وعلم اللغة والدراسات النقدية. غير أن هذه العلاقات لا تُدرَس - غالبًا- على نحو جلي، ولا تناقش - دومًا- بشكل تفصيلي.

الخامس: بطء تطور البُعد التربوي والتدريسي للبلاغة بنفس درجة تطور بُعدها الأكاديمي. فقد شهِد الدرس البلاغي العربي محاولات متعددة للتطوير والتجديد على مدار القرن ونصف الماضيين. ومن الطبيعي أن يتأثر تدريس البلاغة العربية في الأكاديميات والمدارس العربية بهذه المحاولات، بما ينعكس على أهداف التدريس وطرقه ومناهجه ومقرراته وأساليب تقييمه ووسائطه وغيرها. غير أن إطلالة بانورامية على ما أُتيح لي الاطلاع عليه

من كتب البلاغة التعليمية في العالم العربي المناسب بأريحية بين خليج ومحيط تبرهن على وجود فجوة كبيرة بين التطور في دراسة البلاغة وفي تدريسها. فما زالت البلاغة السكاكية بتقسيماتها التقليدية ومسائلها وشواهدها ولغتها مهيمنة على تدريس البلاغة العربية. وتكاد تتوقف محاولات تطوير تدريس البلاغة على إجراء تغييرات محدودة في المتن السكاكي؛ غالبًا ما تشمل حذف بعض التفريعات، وتقليص الشواهد، والتخفيف من حضور القضايا الجدلية، والنقاشات الخلافية، وإحلال بعض الشواهد الحديثة محل القديمة، وإدراج بعض المقدمات الافتتاحية الممهِّدة للأبواب البلاغية. ومن الجلي أنَّ البلاغة السكاكية ليست – في أفضل الأحوال- إلا توجهًا من توجهات البلاغة العربية في مرحلةٍ من مراحل تطورها، وأن أيَّة محاولة أمينة لتدريس البلاغة، لابد أن تحتفي بتوجهات أخرى في إطار البلاغة العربية وخارجها أيضًا.

تطرح هذه التحديات علي البلاغيين العرب مسئولية السعي نحو تطوير دراستها وتدريسها. وقد حاولت على مدار العقدين الماضيين إنجاز مشروع معرفي لتطوير البلاغة العربية وتحديثها، يقوم على مراجعة شاملة لمادة العلم ومنهجياته ووظائفه وجمهوره وعلاقاته بغيره من العلوم[1]. وكان أحد سبل هذا التطوير العمل على دعم الانفتاح على مقاربات ومناهج معاصرة غير مألوفة للدارسين والمتعلمين. ويتحقق هذا بالاتصال المباشر بالكتابات

---

(١) لمزيد من التفصيل النظري والدرس التطبيقي لهذا المشروع يمكن الرجوع إلى: "**تحليل الخطاب البلاغي: دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف**". (٢٠١٤). دار كنوز المعرفة. الأردن؛ و"**بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة**". (٢٠١٢). دار التنوير، بيروت- القاهرة – تونس؛ و"**إستراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي**". (٢٠١٢). الهيئة العامة للكتاب، القاهرة؛ و"**البلاغة والتواصل عبر الثقافات**". (٢٠١٢). سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة. و"**لماذا يصفق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن**". (٢٠٠٩). دار العين، القاهرة؛ "**البلاغة في المجتمع: آفاق جديدة لحقل معرفي قديم**" (قيد النشر).

الأجنبية المؤسِّسة في حقل البلاغة، وذلك أمر ربما يكون غير متيسر لبعض الدارسين ممن يجدون صعوبة في الاطلاع على المصادر والمراجع في لغاتها الأصلية. ومن هنا تظهر الحاجة الملحة إلى ترجمة بعض الكتب التي لا غنى عنها، وعلى رأسها الموسوعات ودوائر المعارف المتخصصة؛ مثل "موسوعة أكسفورد في البلاغة".

تُعد موسوعة أكسفورد الأضخم والأكثر شمولاً من بين الموسوعات الحديثة المكرَّسة لعلم البلاغة. وقد صدرت في نسختها الورقية في العام ٢٠٠١، وفي نسختها الإلكترونية في العام ٢٠٠٦. تتضمن الموسوعة أكثر من مائتي مدخل، وتقدم معلومات وافرة عن آلاف المفاهيم والمصطلحات والظواهر والكتب والمدارس والشخصيات وثيقة الصلة بالبلاغة. وتعالج مدىً واسعًا من الموضوعات التي تقع في صلب علم البلاغة أو تتقاطع معه أو تتماس به. تقدم الموسوعة صورة دقيقة ومفصَّلة وطازجة للبلاغة في ماضيها وحاضرها، موليةً اهتمامًا متميِّزًا للآفاق التي ترتادها في الوقت الراهن، وتلك التي يمكنها ارتيادها في المستقبل. وقد شارك في تأليف الموسوعة نخبة من أبرز دارسي البلاغة في العالم المعاصر وأشهرهم قاطبة. وحرص هؤلاء على إتاحة معلومات دقيقة وشاملة حول المداخل التي قاموا بتأليفها. وتيسيرًا على القراء الراغبين في مزيد من المعرفة، فقد ذُيِّل كل مدخل بقائمة من المصادر والمراجع، تتضمن تعليقات إرشادية موجزة، لمحتوى كل منها وأهميته.

تمتد الفترة الزمنية التي تغطيها الموسوعة لأكثر من ثلاثة آلاف عام؛ وإذا وضعنا حديث جورج كينيدي المقتضب عن البلاغة الفرعونية في الاعتبار، فإن هذه الفترة قد تصل إلى أربعة آلاف عام تقريبًا. ويتوازى هذا الامتداد الزمني الشاسع مع امتداد جغرافي مماثل؛ فقد مُثِّلت البلاغة في قارات العالم القديمة والجديدة، وإنْ بشكل غير متوازن. كما شارك في تأليف

الموسوعة باحثون من أقطار العالم المختلفة؛ وإنْ على نحو رمزي، نظـرًا لهيمنة الباحثين من أمريكا وأوروبا الغربية. من الطبيعي أن يُثير هذا التنوع والاتساع الكبير في مفاهيم البلاغة ومصطلحاتها ونظرياتها وإجراءاتها وغاياتها ووظائفها أسئلة إبستمولوجية حول طبيعة المعرفة البلاغية، وطبيعة تقديم هذه المعرفة. والموسوعة تُعد عملاً لا غنى عنه للمتخصصين في العلوم الاجتماعية الإنسانية بعامة، والمتخصصين في علوم البلاغة واللغة والأدب بخاصة.

تاريخ البلاغة: جدل الهيمنة والتهميش

احتفت الموسوعة بتاريخ علم البلاغة؛ فقد قدَّمت نُبذًا – ربما تتسم بالإيجاز المقتضب– عن البلاغات العربية والصينية والهندية والسلافية والعبرية. كما أفردت مساحات شاسعة للمنجز البلاغي اليوناني واللاتيني، ويكاد الحديث عن هاتين البلاغتين يستغرق أكثر من ثلث صفحاتها. كذلك اختُصَّت البلاغة الأوروبية في الألفية الثانية من الميلاد بمداخل مستقلة، رُتِّبت بحسب الحقب التاريخية؛ فقد أُفردتْ مداخل مستقلة لكلٍّ من: البلاغة في العصور الوسطى؛ وعصر الإحياء؛ والقرن الثامن عشر؛ والقرن التاسع عشر؛ والبلاغة الحديثة؛ والبلاغة فيما بعد الحداثة.

تبرهن موسوعة أكسفورد على هيمنة نزعة المركزية الغربية في التأريخ لعلم البلاغة. ويذكر توماس سلوان – محرر الموسوعة – في مفتتحها بشكل صريح أن الموسوعة "سوف تكون ملتصقة بعمق بالعوالِم الأكاديمية في أوروبا وإنجلترا وشمال أمريكا؛ وهي الأماكن التي تلقت البلاغة فيها – لقرون – دراسة متخصصة، وهي، علاوة على ذلك، الأماكن التي اكتسب فيها الاهتمام البحثي بالموضوع قوة، وأصبح نشاطًا مؤسسيًا دوليًا على نحو كامل". ومن الجلي أن عبارة سلوان تنقصها الدقة إلى حد

كبير؛ فقد تلقت البلاغة لقرون دراسة متخصصة في عـوالم أخـرى غيـر أوروبا مثل الهند والصين وبلاد فارس والعالم العربي وغيرها؛ بحسب مـا تكشف عنه المداخل الموجودة عن بعض هذه البلاغـات ضـمن موسـوعة أكسفورد نفسها. كذلك تلقت البلاغة في هذه الأماكن اهتمامًا بحثيًا قويًا على مدار قرون طويلة، نظرًا لاقترانها – غالبًا – بظواهر دينية وحياتية مؤثرة. وعلى سبيل المثال، فإنَّ نظرةً سريعة على كمّ المؤلفات المكرَّسـة للبلاغـة العربية، على مدار أكثر من ألف ومائتي عام، كفيلة بنقد الحجة التي أوردها المحرر. كذلك فإننا لا نعدم أشكالاً من التلاقح المعرفي بين هذه العوالم، حتى في فترات تاريخية مبكرة. والعلاقات المتبادلـة بـين البلاغـات العربيـة والفارسية والتركية في فترة الازدهار الحضاري العربي وما بعـدها شـاهد على ذلك. ومع ذلك، فإننا لابد أن نلتمس بعض العذر لاتجاه الموسوعة نحو غَرْبَنَة البلاغة. فكثير من الإسهامات غير الغربية – خاصة القديمة منهـا– ربما لم تُقدَّم على نحوٍ كافٍ أو جيِّد للباحث الغربي في لغته وعبـر منافـذ نشره. ومن الضروري التصدي لهذه المهمة، التي يقع العبء الأكبر منهـا على عاتق الباحثين في الثقافات المهمَّشة بلاغيًّا. إضافة إلى ذلك فإنَّ دارسي البلاغة في الثقافات المهمَّشة نادرًا ما يولون اهتمامًا للبلاغات غير الغربيَّة. وليس أدلّ على ذلك من أنَّ الدراسات العربيـة عـن البلاغتـين الفارسـية والتركية – وهما وثيقتا الصلة بالبلاغة العربية– لا تُقـارَن كمًّـا ولا كيفًـا بالدراسات العربية عن البلاغة اليونانية القديمة ولا البلاغة الغربية الحديثة. وهكذا تصبح الثقافات المهمَّشة عاملاً إضافيًّا من عوامل التهميش.

لقد كانت البلاغة طوال تاريخها ساحة لأقسى أشكال الأَثَرَة الحضارية. وقدَّمت معظم الثقافات دعاوى شبه عنصرية، تحتكر فيها البلاغة لنفسها، ولا تترك للآخرين إلا الركاكة والعيَّ والخطل. فعلى سبيل المثال، كانت مقولـة

انفراد العرب دون بقية الأمم بالبديع من المقولات الشائعة بين معظم البلاغيين العرب طوال تاريخهم، رغم هشاشة المقولة، وافتقارها إلى الدليل[1]. وعلى الرغم من أنه نادرًا ما توجد ثقافة إنسانية لا تتحيز بشكل غير عقلاني للغتها وبلاغتها، فإنه يجدر بالبحث البلاغي أن ينأى بنفسه عن التحيزات غير المبرهنة، ويحتفي بالبلاغات المغايرة، ويبذل مزيدًا من الجهد للتعرف عليها وتقديرها.

أين تبدأ البلاغة؟ وأين تنتهي؟ سؤال مُغلق وإجابات مفتوحة

تقدم موسوعة أكسفورد في البلاغة دراسات معمّقة لأبرز المفاهيم والمصطلحات والتوجهات البلاغية التقليدية. فهناك مداخل خاصة بمبادئ البلاغة أو قوانينها (الابتكار، والترتيب، والأسلوب، والحافظة، والإلقاء) وأنماط الدليل (الباتوس واللوجوس والإيتوس)، وأنواع الخطابة، والمحسنات البلاغية، والعلوم التقليدية ذات الصلة؛ مثِّل الفلسفة والمنطق والشعر والنحو والقانون والسياسة. وقد حافظ المؤلِّفون على الطابع الأصلي لهذه المعرفة الكلاسيكية، فاحتفظوا بأصول المصطلحات اليونانية واللاتينية..، ووضعوا بعضها في صدارة عناوين مداخل الموسوعة. وسوف لا يعدم قارئ الموسوعة شعورًا بالألفة نتيجة دوران مصطلحات ومفاهيم وأسماء معروفة في هذا الحقل المعرفي العتيق. غير أن قارئ الموسوعة سيغمره بين الحين والآخر شعور بالجِدَّة والطزاجة وربما الدهشة أيضًا، بفضل وجود مداخل غير تقليدية، وموضوعات وقضايا لم تؤلَف مقاربتُها من منظور بلاغي.

---

(١) انظر عرضًا لهذه المقولة لدى الجاحظ في "البيان والتبيين"، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي ١٩٨٥، جـ٤، ص ٥٥.

بقدر ما كانت بلاغات الماضي محورًا لاهتمام الموسوعة، كانت بلاغات الحاضر انشغالاً من انشغالاتها. فقد عالجت الموسوعة أنواعًا بلاغية غير تقليدية، مغايرة على نحو كبير للأنواع التقليدية التي درستها البلاغات القديمة. من هذه الأنواع: الحملات الانتخابية؛ والأجناس الأدبية المهجنة؛ والنصوص المدمجة؛ والحركات الاجتماعية؛ والاتصال التقني؛ وبلاغة العرض والإيضاح. كما خصصت الموسوعة مقالات لبلاغات المهمشين؛ فأفردت – على سبيل المثال- مدخلاً للبلاغة الأفرو-أمريكية، عالج بلاغة السود في المجتمع الأمريكي، ومدخلاً للبلاغة النسوية؛ تناول ملامح بلاغة حركات الدفاع عن المرأة في العصر الحديث. كذلك اهتمت الموسوعة اهتمامًا كبيرًا بظواهر معاصرة مثل الجماهير الغفيرة والجمهور الافتراضي وبلاغة صفحات الإنترنت وبلاغة الصورة والفكاهة والموسيقى والفن. وفي الحقيقة فإن الاهتمام براهن الدرس البلاغي في العالم إحدى نقاط التميز الأصيلة لموسوعة أكسفورد في البلاغة؛ فهي تقدم لنا معرفة فاحصة حول مسائل بلاغية راهنة، تهمُّ القارئ العربي، وتكاد تحظى من الدارسين العرب باهتمام محدود أو نادر.

من المحتمل أن يؤدي تجاور مداخل تقليدية وأخرى غير تقليدية في موسوعة أكسفورد إلى مساءلة مفهوم البلاغة ذاته. ومن المؤكد أن تصفحًا سريعًا لمداخل هذه الموسوعة سوف يُنشط احتمالات التصادم بين نماذج إرشادية عديدة للبلاغة. وحين تتصادم هذه النماذج فإننا كثيرًا ما نصادف عبارات من قبيل: "عن أية بلاغة نتحدث؟"، "هل هذه هي البلاغة كما نعرفها وكما تعلمناها"؟ "هل تغامر البلاغة بالاختفاء لصالح حقول أخرى؟ هل هذه "بلاغة" أم تحليل خطاب أم سيميائية أم تداولية أم ..؟ وهي عبارات تعكس قلق المفهوم، وتكشف عن حدوث تصادم بين المفهوم المستقر للبلاغة ومفاهيم جديدة تسعى للتفاوض معه. ويبدو هذا طبيعيًا في الإطار المعرفي

الذي تتشكل فيه المفاهيم وفقًا لنماذج إرشادية تتمتع بدرجة كبيرة من الاستقرار ودرجة أقل من المرونة، كما هو الحال في النموذج الإرشادي للبلاغة العربية. وفي الحقيقة فإن أحد أهداف ترجمة موسوعة أكسفورد في البلاغة يتمثل في تحفيزها للنقاش الأكاديمي حول ماهية هذا العلم وحدود مسائله وقضاياه وطبيعة علاقاته بغيره من العلوم.

كيف يُمكن أن تُقرأ موسوعة أكسفورد في البلاغة؟

تتألف الموسوعة من أكثر من مائتي مدخل تشتمل على مئات المصطلحات والمفاهيم. رُتِّبت المداخل في الأصل الإنجليزي ترتيبًا أبجديًا. وقد احتفظنا بالترتيب الأصلي لمداخل الموسوعة دون تغيير. ويمكن للقارئ العربي أن يقرأ هذه الموسوعة بطريقتين: (١) أن تُقرأ من المبتدأ إلى المنتهى، بوصفها سلسلة من الفصول التعريفية بعلم البلاغة على مدار أكثر من ثلاثة آلاف عام؛ (٢) أن تُقرأ بشكل انتقائي؛ حيث يتوجه القارئ نحو فصل معين يتناول مصطلحًا بلاغيًا أو ظاهرة أو مفهومًا من مفاهيمها أو مرحلة تاريخية من مراحل تطورها أو ثقافة من ثقافات إنتاجها أو نوعًا من أنواعها..إلخ. ولتيسير عملية القراءة يمكن للقارئ أن يطلع على الفهرس التفصيلي لموضوعات الموسوعة، أو أن يرجع إلى فهارس المصطلحات الواردة في خاتمتها، أو إلى قائمة مؤلفي الموسوعة وفهرس الأعلام الواردة في نهايتها.

استغرقت ترجمة موسوعة أكسفورد وقتًا طويلاً وجهدًا كبيرًا. وكاد أن يكون الجهد مضاعفًا بفضل سياسة الاختيار المدقِّق والمراجعة المتأنية التي تبنيتُها على مدار العمل. فقد اخترتُ فريق العمل بعناية شديدة من بين أفضل المشتغلين بالترجمة في حقلي البلاغة وعلم اللغة تحديدًا؛ وهم جميعًا أساتذة جامعيون في جامعات عربية وأوروبية وأمريكية، لكلٍّ منهم إسهاماته

الأكاديمية المتميِّزة في مجاله. إضافة إلى ذلك، فقد روجعتْ كل ترجمة ثلاث مرات على الأقل؛ الأولى مراجعة الترجمة على الأصل الأجنبي، والثانية مراجعة الترجمة بعد إدراج المترجم لتصويبات المراجع وتعديلاته، والثالثة مراجعة الترجمة العربية بأكملها بعد اكتمال العمل فيها. وذلك إضافة إلى العمل المتميز الذي قام به فريق المراجعة اللغوية في المركز القومي للترجمة. وفي الحقيقة فإن إدراكي المتواصل لأهمية هذه الموسوعة، ترك شعورًا أشبه ما يكون بوسوسة الكمال. ومع أنني أوقن أن كل عمل إنساني سيحفل - لا محالة - ببعض الهفوات والأخطاء، فإنني حرصتُ- قدر استطاعتي على أن لا أدفع بالموسوعة للنشر إلا بعد أن يستقر في يقيني أن هذا هو أفضل عمل يُمكن تقديمه للقارئ العربي.

شكر وعرفان

أود في ختام هذه التقدمة أن أتقدم بوافر امتناني للزملاء المشاركين في ترجمة الموسوعة، ممَّن تحملوا بصبرٍ محمودٍ عناء ترجمة مداخلها، واستجابوا بأريحيَّةٍ متناهية لتوصيات المراجعَين ومقترحاتهما. كما أشكر الدكتور مصطفى لبيب الذي حمل معي عبء مراجعة الترجمات على الأصل الإنجليزي. وأخيرًا فإن الشكر موصول للمركز القومي للترجمة الذي أخذ على عاتقه مسئولية إتاحة المصادر الأجنبية الأساسية للقارئ العربي المتعطش للمعرفة، وإلى الدكتور جابر عصفور، المدير السابق للمركز، الذي كان حماسه الشديد لترجمة الموسوعة حافزًا كبيرًا وراء إنجازها. وأخيرًا فإنني أهدي هذا العمل إلى الحالمين بتطوير بلاغتنا العربية، على أمل أن نخطو خطوات واثقة نحو إنتاج بلاغة عربية جديدة لعالم جديد.

تقديم محرر الموسوعة

توماس سلوان

في الأزمان الغابرة كان معلمو البلاغة يُلحون على أنَّ هوية البلاغة وطبيعتها يمكن تعلمها بأفضل شكل ممكن من خلال الممارسة، لا من خلال القراءة عنها. وبالطبع فإن مثل هذه التوصية تضمن لمعلمي البلاغة الاستمرار في التكسب من عملهم. ومع ذلك فإن نظريات البلاغة وإرشاداتها قصَّرت عن بلوغ هدفها، وواصلت هذا التقصير على مدار خمسة وعشرين قرنًا من الزمان. وقد كتب صمويل بتلر في عام ١٦٦٣ "إن كل قواعد مُعلمي البلاغة لا تُعلم شيئًا إلا أسماء الأدوات التي يستخدمونها". وغالبًا ما قيل عن تعليم البلاغة إنه ثاني أقدم المهن في التاريخ، ومن المحتمل أن تعليم البلاغة لم يستفد إلا القليل من الكتب؛ تمامًا مثل أقدم المهن (البغاء). لذلك فإنه يجدر بالقرَّاء أن لا يتوقعوا أن يجدوا "بلاغة كاملة" بين دفتي هذا الكتاب. فالبلاغة هي مخزن شاسع للتكتيكات التواصلية: بعضها عتيق وبائد (مثل تعبير "غير متعود مثلي على مخاطبة الجمهور unaccustomed as I am to public speaking"، الذي عُرف في التراث البلاغي بأنه مجاز من مجازات الكلام) وبعضها جديد للغاية بما يحول دون تشفيره (مثل مصطلح "الأيقونات المعبرة عن المشاعر emoticons" في البريد الإلكتروني)؛ لكن معظمها مقيَّد زمنيًا، استنادًا إلى الجمهور والمناسبة.

وبسبب قدمها الموغل والتغيرات المفاجئة للموضات الفكرية لم يكن من الغريب تمامًا أن تتعدد تعريفات البلاغة عبر القرون؛ فقد تم تعريفها بأنها: السفسطة، ملكة الفنون الليبرالية، الأقدم بين العلوم الإنسانية، الأسلوب، الخداع، التعليل الزائف، المنطق العملي، اللغة المشحونة بالانفعالات، والنثر الأرجواني، ما يقوله أعدائي، الكلام بلا نهاية (بغير حد) ad infinitum. وقد أُطلق على البلاغة مؤخرا اسم "التواصل الغرضي purposive communication"، وهي تسمية حيادية بشكل مذهل. نحن نفترض أن قـرّاء هذه الموسوعة سيكون لديهم بعض الإلمام بماضي البلاغة الزاهر، وسوف لا يصابون بالاندهاش أو الصدمة حين يكتشفون أنهم قاموا بالفعل باستخدام تقنياتها من وقت لآخر. وفي الواقع فإن قارئنا المستهدف سوف يكون قد تجاوز بالفعل الرغبة في معرفة موضوعات مثل التشبيه (الذي تم تعريفه في الموسوعة مع ذلك) إلى التساؤل حول ما قد يعنيه مصطلح تكافؤ الدلالة hendiadys، أو كيف تتعرف على "الجمهور الافتراضي virtual audience"، أو النص المُدمَج "hypertext". واستنادًا إلى تصورنا لطبيعة قراء هذه الموسوعة، فقد تركنا كل المفردات البلاغية القديمة التي يمكن تمييزها دون أدنى تغيير، وفي بعض الحالات أبقينا على الأصل اللاتيني أو الإغريقي؛ كما هو الحال في كلمة البيان *eloquentia* أو الأسطورة *mythoi*، أو حتى في حالة كلمات مثل موسوعة *encyclopedia* أو بلاغة *rhetoric*.

يعرض المخطط التفصيلي المختصر لمحتوى الموسوعة، الذي ورد في نهايتها، نظرةً عامةً سريعةً وسهلةً. ولأن الغرض من ذلك المخطط كان مساعدتنا على تخطيط هذا الكتاب والحيلولة دون تشتت مداخله فربما يكون من المفيد لأي شخص أن يتساءل: كيف يتم إدراج بعض المداخل (مثل التساؤل Questioning) ضمن الكتاب؟ أو عمّا إذا كان هناك أي اتساق في

محتوى عمل مثل هذا، أو في موضوع مثل البلاغة. ومن الواضح - كما يظهر من نظرة سريعة على المخطط - أننا نتعامل مع البلاغة بوصفها شيئًا متكئًا على الماضي. ومع ذلك، فإننا في الوقت ذاته نتعامل معها على أنها شيء له مكانة في عالمنا الراهن، وأنه غير مقصور على ثقافة بعينها من الثقافات. لقد سردنا تاريخ البلاغة منذ بزوغه في اليونان القديمة في المدخل الخاص بـ(البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric)، وهو أطول مداخل الموسوعة. لكننا حاولنا أيضًا أن نتتبع تاريخها حتى عصر ما بعد حداثي محتمل تمتد فيه الوسائط البلاغية من الخطابة إلى الإنترنت، وتشمل أنظمة تخزين البيانات وأنظمة الاسترجاع، وتصوغ ذاكرتها مفاهيم المساحة الخالية "space"، على القرص المدمج hard disk. كما اشتملت الموسوعة أيضًا على تناول حديث للبلاغة المقارنة، وهو بحث في البلاغة في ثقافات لم تتأثر على نحو كامل بميراثنا الغربي الكلاسيكي. وبغض النظر عن كون البلاغة نفسها تبرهن على تفشيها في كل مكان؛ فإن موضوعنا - مهما يكن من أمر - سوف يظل ملتصقًا بعمق بالعوالِم الأكاديمية في أوروبا وإنجلترا وشمال أمريكا؛ وهي الأماكن التي تلقت البلاغة فيها لقرون معالجة مباشرة، وهي، علاوة على ذلك، الأماكن التي اكتسب فيها الاهتمام البحثي بالموضوع قوة، وأصبح نشاطًا مؤسسيًا دوليًا على نحو كامل.

لقد تدعَّم البحث في البلاغة في أمريكا الشمالية في الوقت الراهن بخمس دوريات، وما يزيد عن ألف طالب ملتحق ببرامج الدراسات العليا في البلاغة. ومع ذلك، فإنه مما يستحق الذكر أن مدخلنا الأساسي حول الأسلوب وكل المداخل حول مجازات الكلام قام بتأليفها متحدثون من غير أبنائها.

ينتمي أكثر من ثلاثة أرباع مؤلفي الموسوعة، البالغ عددهم مائة وعشرين، إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وينتمي بقية المؤلفين - الذين

كتبوا ما يقرب من نصف المداخل - إلى النمسا وبلجيكا وكندا وجمهورية التشيك وألمانيا وهونج كونج والهند وهولندا وأفريقيا الجنوبية وإسبانيا وسويسرا والإمارات العربية المتحدة والمملكة المتحدة. الأقسام التي ينتسبون إليها هي أقسام التواصل في المرتبة الأولى واللغة الإنجليزية في المرتبة الثانية ثم تأتي أقسام الدراسات الكلاسيكية في المرتبة الثالثة والبلاغة في المرتبة الرابعة والفلسفة في المرتبة الخامسة. هناك أقسام وتخصصات أخرى تشمل اللغة الفرنسية واللغة الألمانية والقانون والأدب المقارِن والموسيقى وفقه اللغة والإلهيات وعلم الاجتماع.

يوجد في هذا الإصدار مائتا مدخل تقريبا؛ تتراوح أحجامها من مداخل غاية في القصر (حوالي ١٠٠ كلمة) لبعض مجازات الكلام إلى مداخل ضخمة كما هو الحال في مدخل البلاغة الكلاسيكية (١٦ ألف كلمة) الذي يُعد أكبر مداخل الموسوعة. كل مداخل هذه الموسوعة تقريبا تؤكد تقاليدنا البلاغية المشتركة؛ وهو ما يرجع بشكل جزئي إلى طريقة تخطيط الموسوعة.

الأنماط الثلاثة للدليل، والجوانب الخمسة للبلاغة (أو الفنون أو القوانين canons)، والغايات التقليدية للبيان والإقناع، هي البنية الأساسية لمشروعنا وللمخطط التفصيلي الذي أعددناه، وللفكر الذي صاغه المحررون، وهي في الوقت ذاته الأسس الأصيلة للبلاغة. معظم تلك الأمور تتحرك في اتجاهات لم يتوقعها أسلافنا، كما هو الحال مثلا مع البيان والإقناع. فقد أصبح البيان مرتبطًا بجمال التلفظ، وهو موضوع قد يبدو بالنسبة للقراء المعاصرين إما عدى عليه الزمن أو أنه يرتبط بالشعر وليس بالبلاغة، وهو لا يكاد - في الصفحات المكرسة له في هذه الموسوعة - يتجاوز جذوره الكلاسيكية. وفي المقابل، فإن الإقناع سرعان ما تجاوز جذوره، وارتمى في أحضان علماء الاجتماع المحدثين المتشوقين له.

كذلك فإنه في ضوء طبيعة الخبرة البلاغية سوف يجد القارئ أيضًا الكثير من التداخل بين المداخل. يبدو أن أفلاطون كان يعتقد أن أفضل بلاغة إنما هي نوع من الحب. في حين يُعرِّف أرسطو البلاغة بأنها نوع من القدرة. والمفهومان كلاهما لا يُصيغان فن البلاغة بوضوح، فلم تتسن هذه الصياغة عندهما بعد، وعلى هذا فإن كل مدخل تقريبا يُضيف جزءا إلى كل معقد. فلسوف يجد المرء مثلا أن المدخل الذي يتناول البيان يتضمن مناقشة للابتكار *invention*.

وإذا انتقلنا إلى المدخل الذي يتناول الابتكار سوف نجد تاريخا موجزا للغاية للبلاغة الكلاسيكية، حيث يبدو كل شيء إما منتميًا إليها أو مبتدئًا منها. أما المدخل الذي يتناول الإقناع – وهو الغاية التقليدية الأخرى للبلاغة – فإنه يقود المرء إلى مشاعر الجمهور، ومصداقية البلاغي، و"خصائص الرسالة" على الأقل نحو جزء من طريق العودة إلى الصيغ التقليدية للدليل، على الرغم من أنه مصحوب بظلال واهنة من البريق الحداثي للإقناع. تمت معالجة مجازات الكلام – التي تعتبر في نظر البعض الجوهر الخالص للبلاغة – في مدخل طويل يحمل نفس الاسم؛ ثم عولجت مرة ثانية في مدخل عن الأسلوب، ومرة ثالثة في مدخل عن الشعر؛ ثم مُنِحت معالجة مستقلة. ولم يتوقف الأمر عند هذا، فقد تناثرت الإحالات لأشكال المجاز؛ سواء بشكل فردي أم جماعي، في صفحات الكتاب، مشيرة إلى أهميتها على وجه اليقين، لكن أيضًا مشيرة إلى الطبيعة المتشابكة لأجزاء البلاغة. وباختصار فإن كل مدخل، يمكن أن يحيل إلى أي مدخل آخر، بما فيها المداخل الأكثر حداثة. وعندما وصلنا إلى مرحلة تحديد "الموضوعات المترابطة" (انظر الفهرس التفصيلي)، حاولنا تجنب التعامل معها ببساطة على أنها مختلطة، أو تعبير عن الاتجاه السياسي الحصيف، أو ملحق مدرسي. ولكي نحول دون توسع القسم توسعًا متضاعفًا، اخترنا موضوعات يبدو أن لديها على الأقل صلة مباشرة بهوية البلاغة، وأنه يمكن تكليف أحد الكتاب بالكتابة عنه.

شكلت البلاغة – التي اعتبرت لفترة طويلة تمتد على مدى ألفين وخمسمائة عام حرفة خاصة بالذكور البيض المتمرسين، ممنْ يستعدون للحصول على مهن في القضاء أو السياسة أو التعليم – ذات مرة القلب النابض للمقررات التعليمية، حيث ارتبطت على نحو وثيق بالمنطق والنحو. ولا يزال الارتباط بين البلاغة والمنطق قائمًا، لكن يبدو أن النحو عليه أن ينسحب مفسحًا الطريق أمام علم اللغة، وهو حقل معرفي متوغل في هذه الموسوعة، ويمنح العديد من التعريفات سمتًا معينًا في هذه الموسوعة، خاصة ميدان مجازات الكلام الذي تقاسمته البلاغة ذات مرة مع النحو.

بالطبع سوف يكون البلاغيون ممن ينتمون إلى مدارس قديمة مندهشين من قراءة أن أسلوب التوقع *prolēpsis* (توقع الاعتراضات للإجابة عنها سلفا)– على سبيل المثال – جاء تحت عنوان "permutative metataxeme". وفي الوقت نفسه – مع ذلك – فإن هؤلاء البلاغيين أنفسهم ربما يكونون ممتنين – إذا أخذنا في الاعتبار المداخل حول محاورة "فيدروس" لأفلاطون وكتاب "البلاغة" لأرسطو، وكتاب "في البلاغة" لشيشرون، وكتاب *De copia* *لإرازموس* – لملاحظة أنه يبدو أن المبدأ البلاغي لا يزال موجودًا؛ ربما جعله الأسلوب الذي خططنا به هذا الإصدار أمرا لا مفر منه، مثله مثل تقاليدنا نفسها. ومهما يكن من أمر، فلو أن حكمة هذا المبدأ تمت العناية بها في كل تجليات نزوعها نحو الانفتاح والخبرة، فإن البلاغيين –سواء أكانوا منتمين إلى المدرسة القديمة أم إلى غيرها – سوف يرحبون بتمددها الحتمي لتشمل مساهمات من البلاغة الأفروأمريكية، وعلماء التواصل، والبلاغة المقارنة، والبلاغة النسوية، والبلاغة المحايدة جنسيًا، وهي كلها بالفعل متكاملة، بطريقة قد تبدو بها كلمة "**ذات الصلة** *related*" في المخطط التفصيلي للموسوعة مجرد تدعيم. ومع ذلك، فقد تم اختيار الترتيب الأبجدي للمساهمات، كما لو أنها موضوعات لها نفس العلاقة المهمة المتساوية بالكل. هذه التراتبية التي تظهر في المخطط التفصيلي للموسوعة تحدد بالكاد موضع ما نعتبر أنه من أصولنا.

ربما يتعجب أولئك الذين يظنون أنهم يدرون ما هي البلاغة بالفعل عن السبب وراء نشر موسوعة عنها. نأمل أن هؤلاء القرَّاء سوف يتصفحون هذا العمل ويعثرون على الإجابة التي وجدها المحررون أنفسهم على تساؤلاتهم المشابهة. فهناك مداخل في هذا العمل ربما لم يكن مقدَّرا لها أن تكتب أو أن تظهر بهذا الشكل الموجز بعيدًا عن مثل هذا العمل. إذا كانت توجد بعض المقالات التي تعالج موضوعات تُعدُّ بائدة فإنه توجد موضوعات أخرى تنقل البلاغة بجلاء إلى ألفيتها الرابعة، ويتجلى فيها أن البلاغة سوف تستمر مفيدة في التحليل بقدر ما هي مفيدة في التكوين genesis؛ أعني مفيدة في تأويل الخطاب والظواهر بقدر إفادتها في إنشائها composition كذلك. وأخيرا؛ فإنه على الرغم من أن البلاغة يتم التفكير فيها غالبا بوصفها مزيجا من الاهتمامات الأدبية والسياسية، فإنه نادرا ما نُظر إلى الموضوع نفسه منعزلا، بوصفه شيئا يُحتمل أن يقف مستقلا. لقد لاحظ أحد المعلقين أن "البلاغة القديمة تتمدد عبر العديد من التخصصات المعرفية"، لكننا نؤمن أن هذا التمدد لم يصل إلى حد تقطع الأوصال، بحيث يُصبح من المتعذر معه استعادة تكاملها.

تُوجد بالطبع خصوصيات أخرى، إحداها - على وجه التحديد - هي أنه على الرغم من أن البلاغة تُعد فنا بشريًا فإنه لا يوجد أي مدخل من بين مداخل الموسوعة يتناول شخصًا ما، حتى (أرسطو Aristotle) أو (نيتشه Nietzsche). لقد استند هذا القرار إلى الجهد الذي بذلناه في تجريد البلاغة بأقصى ما نستطيع، ليس فقط من الارتباط بأشخاص بعينهم أو بتخصص ما؛ لكن كذلك من الارتباط بهذه أو تلك من النظريات أو الأزمنة أو الأماكن أو الثقافات، وإلى مواصلة البحث عن مبادئها. نحن ندرك المفارقة في ضوء ما اعتبرناه جوهر البلاغة. يكاد يقرب من الاستحالة أن تعزل علة زمنية temporal cause عن معلولاتها، أو أن تنظر بشكل جديد إلى موضوع يرتكز على تقليد قديم دون تقييد. لكننا نؤمن بأن السعي لتحقيق ذلك هو ما يميز هذه الموسوعة عن غيرها من الأعمال التي نشرت حديثًا مثل "موسوعة البلاغة

والإنشاء" *Encyclopedia of Rhetoric and Composition* التي حررتها تيريزا إنوس Theresa Enos، المنشورة عام ١٩٩٦، أو المؤلف العظيم لهاينريش لاوسبيرج دليل الكتابات البلاغية *Handbuch der literarischen Rhetorik*، *المنشور عام ١٩٦٠*.

مما لا شك فيه أنه توجد في هذه الموسوعة هفوات ونواقص وأخطاء. لكننا بذلنا قصارى جهدنا لملاحقة هذه الظواهر الخائنة بمساعدة حقيقة من كريستوفر كولينز وميرلي جونسون ومارك مونز من دار نشر جامعة أكسفورد، الذين كانوا على أهبة الاستعداد دائمًا لتقديم الدعم التقني والنصيحة. علاوة على ذلك، فقد كانت جامعة أكسفورد هي "حاضنة" هذا العمل؛ ناهيك عن التشجيع الذي أمدنا به المتخصصون في حقل البلاغة منذ البداية. فهؤلاء الذين كانوا منخرطين في الموسوعة على مضض في البداية، قد أصبحوا بالتدريج مشاركين متحمسين، وهو موقف نأمل أن نبرهن عليه.

لقد أهدى كينيث بيرك كتابه "أجرومية الموتيفات" *Grammar of Motives* (عام ١٩٤٥) على هذا النحو: "إلى إليزابيث: فبدونها لم يكن ذلك ممكنًا". وسوف أحذو حذو هذا البلاغي الكبير وأقدم تكريما مماثلا لزملائي في هيئة التحرير شادي برطش Shadi Bartsch، وتوم فاريل Tom Farrell، وهينريش بليت Heinrich Plett، ولجميع المشاركين الأجلاء. فقد كانوا بحق – وبعبارة شيشرون – عماد هذه المحاولة؛ وبدونهم ما كان لها أن تتحقق.

توماس أ. سلوان

أكتوبر ٢٠٠٠

بركلي، كاليفورنيا

ترجمة: عماد عبد اللطيف

الحجاج الموجه إلى شخص Ad Hominem Argument

يشير المصطلح إلى نوع من الحجاج يجعل شخص الإنسان لا الأدلة الموضوعية أساسًا للحجاج. ولقد اعتُبِر هذا النوع من الحجاج في كثير من الأحيان مُضلّلاً وفقًا لأعراف المنطق. لكن الدراسات الأخيرة أوضحت أنه ليس دائمًا مُضلّلاً، وأن تعريفه، وما يعتقد أنه يمثله، غالبًا ما يكتنفه الغموض. إن اسم "الحجاج الموجه إلى شخص" غامض في حد ذاته، حيث إن معناه الرئيس في الأحاديث الشائعة - وأيضًا في أعراف المنطق والبلاغة- أنه استخدام الهجوم الشخصي وسيلةً لتفنيد حجاج ما. يتبع هذا الحجاج في أبسط أشكاله النمط الآتي: فلان شخص سيئ، ومن ثمَّ يجب علينا أن نرفض حجاجه. هذا النوع البسيط من الحجاج يصح بالفعل أن يُطلَق عليه الحجاج الموجه إلى شخص، كما يُطلق عليه أيضًا، في كثير من الكتب الدراسية الحديثة في المنطق، الحجاج "البذيء" الموجه إلى شخص. وربما يكون من الجائز أيضًا أن نسمّيه الهجوم الشخصي personal attack أو الهجوم على خلق الشخص. ولكن ليس كل هجوم على خلق شخص ما يُعدُّ "هجومًا موجهًا نحو الشخص"، حيث إنه لابد من توافر الشروط التالية ليكون الحجاج نوعًا من أنواع "الحجاج الموجه إلى شخص" بالمعنى الصحيح. لابد أن يكون هناك طرفان مشتبكان في جدال، ولابد أن يقدم الطرف الأول حجاجًا، فيذكر الطرف الثاني سوء خُلُق الطرف الأول مبرّرًا وصف حجاجه بأنه حجاج سيئ. ويمكن أن نضرب مثالاً على الضد من ذلك، ففي إحدى السير الذاتية الشهيرة للمطرب فرانك سيناترا زعم الكاتب أن سيناترا كان سيئ الخلق،

ولكن هذه المقولة لم تأت لتفنيد حجاج ساقه سيناترا، ولهذا لا يمكن اعتبارها نوعًا من الحجاج الموجه إلى الشخص، كما هو مستخدم في المنطق والبلاغة.

يشغل معنى آخر "للحجاج الموجه إلى شخص" مكانًا في المنطق التقليدي والبلاغة والحديث اليومي أيضا. ولكن هذا المعنى الثانوي ليس سائدا مثل المعنى الرئيسي، إنما يشيع استخدامه إلى حد ما في الخطاب الفلسفي. تبعا لهذا المعنى يكون الحجاج من النوع "الموجه إلى الشخص" إذا ما اعتمد على موقف الطرف الآخر في الجدال. على سبيل المثال، إذا اشترك **بوب**، وهو من أنصار الحفاظ على حياة الجنين مع **ويلما**، وهي من أنصار حق المرأة في اختيار أن تحتفظ بالجنين من عدمه، في جدال حول موضوع الإجهاض، وقدّمت **ويلما** حجاجًا يعتمد على مقدمة منطقية فحواها أن حياة الإنسان مقدسة، في حين أنها–ويلما – في الواقع لا تؤمن بهذه المقدمة، وإنما تستخدمها لإقناع بوب بقبول نتيجة ما؛ لأنها تعرف أن بوب يعتقد في المقدمة. يُسمَّى هذا النوع من الحجاج في نظريات الحجاج الحديثة "الحجاج من منطلق الالتزام" "Argument from commitment" (ولتون ١٩٩٦). اعتيد أن يطلق على هذا الحجاج "الحجاج من منطلق التسليم" concessis ex argument. ولكن في الفلسفة أُطلِق عليه عادة "الحجاج الموجه إلى الشخص". والواقع أن هناك اختلافًا بين النوعين. فليست كل أشكال الحجاج من منطلق التسليم حجاجًا يتضمن هجومًا شخصيا، وليست كل أنواع الحجاج الموجه إلى شخص لتضمنه لهجوم شخصي من نوع الحجاج من منطلق الالتزام (وإن كان الكثير منها من هذا النوع كما سنرى فيما بعد). يمكننا إذن أن نتساءل عن مصدر الغموض الذى يكتنف هذا المصطلح.

الإجابة كما أوضح ناكلمانز (١٩٩٣) هى أنه يوجد – من وجهة نظر تاريخية– خطان لتطور عبارة "الحجاج الموجه إلى الشخص". كلاهما يأتى من كتابات أرسطو، وهما مشتركان في بعض السمات. كما أن كليهما يشار إليه بتعبيرات متشابهة أو بنفس التعبيرات. أحد الجذور يأتي من كتابَي "عن أساليب التفنيد والسوفسطائية" "On Sophistical Refutations" و"الموضوعات" "Topics" ويشير هذا الجذر إلى "أنواع الحجاج التى تعتمد على افتراضات سلم بها الخصم" (ناكلمانز، ١٩٩٣، ٣٨). وهذا يعنى أن المعنى الوحيد الذى أُخِذ من أرسطو، وسُمِّى بالحجاج الموجه إلى الشخص هو "الحجاج من منطلق الالتزام" أو "الحجاج من منطلق التسليم" والذى أطلق عليه بوثيس (٤٨٠-٥٢٤) اسم disputatio temptiva. أما المعنى الآخر فهو يشبه الهجوم الشخصى الذى سبق أن ذكرناه. ولقد التقط الإكوينى (١٢٢٥-١٢٧٤) هذا المعنى من بعض الفقرات في كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو، يُفرِّق فيه أرسطو بين الدليل المطلق والدليل المرتبط بشخص معين "Metaphysics" (ناكلمانز، ١٩٩٣، ٣٩). ويأتى هذا المعنى في مواضع عدة من كتابات جاليليو Galileo (١٥٦٤- ١٦٤٢) (فينوشيارو ١٩٨٠) وموضع شهير من "مقال" للوك Locke (١٦٩٠) كما أشار هامبلن Hamblin (١٩٧٠، ١٦٠). وقد نشأ هذا المعنى من معلمي البلاغة القدامى الذين فرَّقوا بين القضايا الأساسية وبين الجوانب الشخصية التى يمكن أن تحتوى عليها المناظرة. وقد ظل هذان التقليدان لمعنى الحجاج الموجه إلى الشخص منفصلين لزمن طويل، ولكن يقول ناكلمانز Nuchelmans (٤٤) إنهما دُمِجا في "الابتكار الجدلى" لرودولفس أجريكولا "De Inventione Dialectica" (١٤٧٩). ومنذ ذلك الوقت أصبح مغريًا استخدام المعنيين المختلفين للحجاج الموجه إلى الشخص على أنهما يشيران إلى نوع الحجاج نفسه أساسًا. وقد صار هذا الإغراء أصعب من أن يُقاوم، بعد أن عدَّ لوك الحجاج الموجه إلى الشخص نوعًا من المغالطة، مثله مثل الحجاج المستند إلى

سلطة غير متخصصة، والحجاج القائم على الجهل، ولكنه استخدم تعبير "الحجاج الموجه إلى شخص" بمعنى الحجاج من منطلق الالتزام.

الحل الأفضل لهذه المشكلة في الاصطلاحات، هو أن نستخدم مصطلح "الحجاج الموجه إلى شخص" بوصفه مصطلحًا فنيًا خاصًا بمجالي المنطق والبلاغة، ويجب أن يُستخدم للإشارة إلى الهجوم الشخصي. أما النوع الآخر من الحجاج فيجب أن يُطلق عليه "الحجاج من منطلق التسليم" أو يستخدم المصطلح الأكثر ملاءمة للمعنى وهو "الحجاج من منطلق الالتزام".

هل ينطوي الحجاج الموجَّه إلى الشخص على مغالطة؟

جرى العُرف في مجال المنطق على اعتبار الحجاج الشخصي نوعًا من المغالطة، ولكن أخيرا بدأ الاعتراف بمعقولية هذا الحجاج من المعنيين في كثير من الحالات (والتون، ١٩٩٨). فعلى سبيل المثال، هناك اعتراف في الحجاج القانوني بأن الهجوم الشخصي على الشاهد، وهو ما يُسمَّى بالتشكيك أو القدح في الشهود يُعدُّ حجاجًا معقولا. ومع هذا، فعادة ما يُعتبر الهجوم الشخصي في القانون لونًا خطيرًا من ألوان الحجاج. لهذا يوجد هنالك تحديد سافر للهجوم الشخصي على المدَّعى عليه، أو الشاهد، أو المحامي في المحاكمات وفقا لقواعد الأدلة. ولقد اعتُرف كذلك بشرعية الهجوم الشخصي (المعنى الأساسي للحجاج الموجه إلى شخص) في البلاغة، حيث يُعتبر الإقناع عن طريق المصداقية، أو ما يتبينه الجمهور عن شخصية المتحدث (سلبًا أو إيجابًا) نوعًا مقبولاً من الحجاج. فعلى سبيل المثال، لشخصية المتحدث أهميتها في المناظرات السياسية في النظام الديمقراطي، نظرا لأن الناخبين لا يمكنهم معرفة كل الحقائق المتعلقة بكل الموضوعات، ولهذا فهم عادة ما يدلون بأصواتهم على أساس ما يدركونه عن شخصية المرشح.

من ناحية أخرى فإن الحجاج الشخصى أسلوب إقناعى شديد القوة والخداع، وعادة ما يكون له تأثير مدمّر على الحجاج، خصوصًا إذا كانت الأدلة التى يستند إليها قليلة، أو إذا كان يعتمد على التلميح فقط دون الاستناد إلى الأدلة على الإطلاق. ولهذا فمن الصحيح في بعض الحالات اعتبار أن الحجاج الشخصي ينطوي على مغالطة. وغالبًا ما تكون الحالات التى تنطوي على مغالطة ضعيفة جدًا من ناحية المنطق، أو عديمة الصلة بالموضوع الذى تتم مناقشته، ولكنها تتبع فكرة أنه حيثما يكون هناك دخان تكون هناك نار. ويُستند الاعتماد إلى هذه الفكرة كى يَظهر المتهم مُذنبًا ومُخطئًا. ونظرًا لكون هذه الحجج قائمة على الإيحاء والتلميح، فإن الرد المفحِم عليها يكون صعبًا للغاية. ولكن مما يعجّل بمهمة التفرقة بين حالات الحجاج الشخصى المعقولة، وتلك التى تنطوي على مغالطة، أن يكون لدى الشخص الذى يُصدِر الحكم دراية بالأنواع الفرعية من هذا الحجاج.

الأنواع الفرعية من الحجاج الموجه إلى الشخص

لقد قام والتون بتقسيم الأنواع الفرعية المختلفة من الحجاج الشخصي (١٩٩٨، ٢٤٨-٢٦٤). هناك بالإضافة إلى المعنى الأساسي الذي ذكرناه آنفا، ثلاثة أنواع فرعية من الحجاج مهمة وشائعة هي: الحجاج الظرفي والحجاج المتحيِّز وحجاج تسميم البئر. في الحجاج الظرفي أو المبني على الظروف circumstantial يُهاجِم الطرفُ الأول الطرفَ الثانى بزعم وجود تناقض عملي؛ مُدَّعيًا أن أفعال الشخص تناقض أقواله، ثم يستخدم هذا التناقض المزعوم ليوحي أن الطرف الثاني منافق أو مخادع أو مشوَّش، أو أنه بأي شكل من الأشكال سيئ الشخصية، ولهذا فإنه يفتقر إلى المصداقية بوصفه مجادلاً. على سبيل المثال، السياسي الذي طالما نقد معارضيه بوصفهم مبذِّرين، من الممكن أن يُهاجَم بزعم أنه هو نفسه يتصرف، وكأنه ملك، فيسافر إلى الأماكن النائية

بصحبة عدد هائل من المساعدين، وينفق ملايين الدولارات على حفلات باذخة. أما في الحجاج المتحيز bias فيقوم الطرف الأول بالهجوم على الطرف الثانى بزعم أن للطرف الثاني منفعة شخصية تُلقي بظلالها على مصداقيته. هذا الاتهام بالتحيُّز، مثله مثل أي نوع من الحجاج الشخصي، يعتمد على إلقاء الظلال على مصداقية المجادل. الهجوم على هذا النحو يكون ذا صلة بالموضوع، ومن الممكن أن يكون مؤثِّرًا جدًا. فيما يتعلق بشهادة الشهود في المحاكمات، يكون التحقق من الوقائع بشكل مباشر مستحيلاً في بعض الأحيان، ولهذا فإن الشهادة التى تعتبِر الدليل في هذه الحالة – من الممكن أن تعتمد بشكل كبير على مصداقية الشاهد.

النوع الأخير المهم هو تسميم البئر Poisoning the well. في هذا النوع من الحجاج الشخصي، الذى يمكن اعتباره امتدادًا للحجاج المتحيز، يُزعَم أن المجادل متحيزٌ لدرجة تجعله منغلقًا وإلى الأبد تجاه أي تقييم حقيقي ومتوازن للمسألة. المثال على ذلك هو الكاردينال نيومان Cardinal Newman (١٨٠١-١٨٩٠) الذي هوجم في الساحة السياسية على أساس أنه – لكونه كاثوليكيًّا – سوف يتبنى دومًا وجهة النظر الكاثوليكية، ويغض النظر عن وجهات النظر المختلفة حول المسألة. وقد أجاب نيومان بأن هذا النوع من "تسميم البئر" منعه من أن يُعبِّر عن أي رأي سياسي، يُمكن أن يقوِّض من مكانته، حتى قبل أن يقوله.

هل كل الحجاج الفلسفي حجاج شخصي؟

لقد عدَّت معظم الافتراضات الفلسفية الحجاج الشخصي مغالِطًا بطبيعته، ولهذا كان يُصوِّر نماذج فجة لإساءة استخدام هذا النوع من الحجاج في كتب دراسة المنطق. لم يُلتفت بشكل جاد أبدًا إلى إمكانية أن تكون هذه الأنواع من الحجاج معقولة، على النحو الذى يتم به استخدامها في

الممارسات اليومية للحجاج. الاستثناء الوحيد لهذا الإهمال للحجاج الشخصى هو التقرير الذى أعطاه هنرى دبليو جونستون، الذى يجمع بين الاهتمام بالمنطق والاهتمام بالبلاغة. أخذ جونستون Johnston (١٩٧٨، ص٩) في الاعتبار حالات عادية من الحجاج الشخصى مثل تلك التى ذكرها شوبنهاور Schopenhauer (١٧٨٨-١٨٦٠). في هذا المثال يقول رجل: "إن برلين مكان مُقبِض للنفس"، فيرد عليه الآخر: "لِمَ لا تغادرها إذن؟" لقد قارن جونستون بين الاستخدامات اليومية للحجاج الشخصى من النوع الذى ذكرناه وبين استخداماته في الجدل الفلسفى. يشيع في الجدل الفلسفى هذا النوع من الحجاج الذى يأخذ فيه أحدُ المجادلين ما يعتقد أنه الرأي الذى صرَّح به أو ضمَّنه الطرف الآخر. وبعد هذا يصل منه إلى استنتاجات، ويثير تساؤلات حول هذه الاستنتاجات. يبين جونستون من خلال دراسته لفقرات من كتابات فلسفية أن هذا الحجاج الشخصي هو بالفعل مميَّز لمعظم الجدل الفلسفى. وهكذا فقد طرح جونستون إشكالية مهمة ومثيرة أيقظت الفلاسفة من سباتهم وجمودهم، فيما يتعلق بموضوع الحجاج الشخصى.

يبدو أن نوع الحجاج الذى كان يقصده جونستون أساسًا هو الحجاج من منطلق الإلتزام أو الحجاج من منطلق التسليم. وإذا كان هذا فعلاً ما يقصده، فإنه محقٌ في أن هذا النوع من الحجاج غالبًا ما يكون معقولاً، ولا ينطوى على مغالطات. كما أنه شائع في النصوص التاريخية والنصوص الحالية التى تحلل الحجاج في الخطاب الفلسفى. على سبيل المثال، في حوارات أفلاطون عادة ما يكون حجاج سقراط مبنيًّا على المواقف التى أعلنها أو أشار إليها مستمعوه. يؤدي نظر جونستون إلى الحجاج الفلسفى من زاوية الالتزام إلى إنتاج فلسفة عن الفلسفة. وفقا لهذا الرأى، تختلف طبيعة الجدل الفلسفى عن الجدل العلمى أو الجدل القائم على التجربة، وهو الذى يعتمد على الأدلة الموضوعية والخارجية، فالجدل الفلسفي يُمثِّل نوعًا من الإقناع العقلى، الذي

يعتمد على مقدمات هي ما التزم به صراحة أو ضمنا الطرف الذي يُتحاور معه. من خلال طرح الأسئلة والإجابة عنها يُحدِّد الحوار هذه الالتزامات وينقحها، بصورة ناقدة تستقصى الأسباب المستند عليها. إذا أخذنا الأمر من هذه الوجهة، فإن الحجاج الفلسفى يكون مبنيًّا على شخصية المجادل المستهدف إقناعه عقليا. إذا نظرنا إلى الحجاج الفلسفى على هذا النحو، سوف نجد أن له جانبًا متعلقًا بالحجاج الشخصي يجعله يختلف عن الأنواع الأخرى من الحجاج التى يمكن أن تلتبس به.

Bibliography

Finochiarro, Maurice A. *Galileo and the Art of Reasoning*. Dordrecht, Netherlands, 1980.

Hamblin, C. L. *Fallacies*. London, 1970.

Johnstone, H. W., Jr. *Validity and Rhetoric in Philosophical Argument*. University Park, Pa., 1978.

Nuchelmans, Gabriel. "On the Fourfold Root of the *Argumentum ad Hominem*." In *Empirical Logic and Public Debate*. Edited by Erik C. W. Krabbe, Rene Jose Dalitz, and Pier A. Smit, pp.pp. 37–68. Amsterdam, 1993.

Walton, Douglas. *Argumentation Schemes for Presumptive Reasoning*. Mahwah, N.J., 1996.

Walton, Douglas. *Ad Hominem Arguments*. Tuscaloosa, Ala., 1998.

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

البلاغة الأفرو- أمريكية African-American Rhetoric

يحتوي هذا المدخل على أربع مقالات:

- المدخل
- البلاغة التحررية
- الوعي المزدوج
- القومية السوداء

يقدم المقال الأول مدخلا عامًا مختصرًا للمشكلات التي واجهها الأمريكيون الزنوج في معرض تأسيسهم لتراث بلاغي أفريقي أمريكي خاص، بينما يناقش المقال الثاني إسهامات دعاة التحرر في البلاغة التحررية، ويحاول المقال الثالث أن يستكشف تاريخ مصطلح الوعي المزدوج واستخداماته، بينما يناقش المقال الرابع الأهداف الناشئة للقومية الزنجية واستراتيجياتها كما تتجلى في بلاغة عدد من قادة الأفارقة الأمريكيين.

المدخل

عندما نتكلم عن تراث بلاغي أفريقي أمريكي فإننا نتكلم عن مشاكل الكلام. فمن الناحية التاريخية كانت مهمة الخطباء السود هي تعليم أقرانهم السود **كيفية** الكلام عندما لا يفترض منهم أن يتكلموا. ولذلك فقد ظلت البلاغة الأفرو- أمريكية في صراع مع مفارقة كبيرة لفترة طويلة، فلكي تصبح البلاغة الأفرو- أمريكية تراثًا خاصًا مستقلاً كان عليها أن تتغلب على قوى عنصرية عنيفة ترمي لإسكاتها. لقد استطاعت هذه البلاغة الناشئة أن تملأ فراغ الصمت الأمريكي بخصوص لاأخلاقية العبودية. كما تمكنت من أن تشكل ضميرًا أفريقيًا أمريكيًا خاصًا بوعي تام. عندما يفكر المرء في الخطابة السوداء يجب عليه أن يتصور تاريخا ثقافيًا كانت مجرد فكرة أن يتكلم الأسود أو يكتب فيه فكرة مستهجنة. لقد قامت مؤسسة العبودية واستمرت بفضل قوانين صارمة ضد أنواع السلوك والطقوس العامة التي قد تسهل ظهور البلاغة الأفرو- أمريكية، وذلك كله في محاولة للحفاظ على السود في مكانهم. ففي جنوب الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية كانت حتى فكرة الظهور العام للأفريقي الأمريكي فكرة غير واردة ومتناقضة منطقيا. أما في الشمال فقد واجه الخطباء الأفارقة الأمريكيون في تلك الفترة الضرب والقتل لأنهم يحاولون ممارسة حرية التعبير، باعتبارها في حالتهم ليست حقا بل تجاوزا. ولذلك عندما نحاول التفكير في البلاغة الأفرو- أمريكية فعلينا أولا أن نفكر في كل الطرق التي حاولها المجتمع الأمريكي العام (الأبيض).

على النحو ذاته ينبغي علينا لكي نتحدث عن التراث البلاغي الأفرو-أمريكي أن نستكشف الصمت الأمريكي الغريب فيما يتعلق بشرور العبودية. يمثل تاريخ العبودية في أمريكا أزمة أخلاقية تبلغ حدتها أنها لا تزال تتطلب بحثًا واستقصاءً على الرغم من انتهائها منذ زمن. لقد كانت فترة استعباد الأفارقة في أمريكا بالنسبة لباحثين سود مثل ألكسندر كرامل ودي بوا دليلاً عمليًا على الفساد الأخلاقي لفضائل العصر الفيكتوري (زامير ١٩٩٥). فقد كان عجز أمريكا عن كبح تجارة الرقيق بالنسبة لدي بوا فسادًا ينخر في قلب الحضارة الإنجليزية الأوروبية. علاوة على ذلك فلم يحظ هذا الفشل بنصيب في الخطاب الأمريكي السائد بشكل مباشر. بل على العكس من ذلك فقد كان الحديث النظري الغائم عن مبادئ عامة كالمساواة (كوندي ولوكانتيس ١٩٩٣) والحديث عن المسائل القانونية الكثيرة والكثيفة في كل ولاية على حدة عاملا مساعدًا في إخفاء الخطأ. ولذلك لم يكن ممثلو السود محاصرين بحكم الغوغاء واعوجاج حكم القانون فحسب، بل إن الفساد الأخلاقي العام استفحل وازداد برفض المجتمع الاعتراف به كحالة فساد. أي أن الفساد الأخلاقي الأمريكي كبر وعظم بالصمت الذي أحاط به.

ولكن الصمت كثيرًا ما يكون مدعاة الكلام والحديث العام؛ لأنه يمكننا من التساؤل حول قدرة الحديث العام والخطابة على التصدي للمسائل الأخلاقية والعدالة الاجتماعية، ولذلك فدائما ما تجد الخطابة العامة عند السود تسأل تلك الأسئلة وتسعى للإجابة عنها. فقصة التراث البلاغي الأفرو- أمريكي لا ترصد ظهور الأساليب والدين والممارسات الأفرو- أمريكية (أسنتي ١٩٨٧) وأفولها فقط بل أيضا تشير إلى نقص أخلاقي أمريكي واضح. يشير هوستون بيكر (١٩٨٧) إلى سمات خطابية أفريقية أمريكي تشد انتباهنا بعبقرية شديدة إلى هذا الصمت من خلال التلاعب والخداع. تطورت البلاغة الأفرو- أمريكية

عن طريق الإشارة إلى الدراما الأخلاقية ليتأملها المجتمع لتصبح تجسيدًا لما أسماه أمانويل ليفناس "نداء الضمير" (هيد وروفو ٢٠٠٠). كما اقترح مرجري بريس (١٩٨٥) أن فعل استنطاق هذه الهوة الأمريكية الصامتة عمل يرمز لنوع من السحر الأسود. ويمكننا أن ننظر للبلاغة الأفرو- أمريكية كفعل من أفعال المقاومة للعنصرية وتجديد المجتمع على أنها صوت سحري من داخل فضاءات الإنكار والإهمال الأمريكية. إن تصور تلك البلاغة على أنها صوت سحري يمثل نداءً للضمير الأمريكي هو إبراز قدرة تلك البلاغة على الابتكار والفعل الأخلاقي. يوضح هذا المنظور أننا يجب أن نفهم البلاغة الأفرو- أمريكية كظاهرة تحول في أمريكا.

ترصد مصنفات الخطابة الأفرو- أمريكية الطريقة التي حاولت الخطابة الأفرو- أمريكية من خلالها أن تغير الممارسات الأمريكية العنصرية والمتحيزة ضد المرأة، كما تعكس أيضا كيف أن الخطابة السوداء كانت واعية بذاتها وتأملية. دعم الخطباء السود المشروع المضاد للعبودية وهم في الوقت نفسه يقدمون مبررًا لوجود الخطابة الأفرو- أمريكية - كجزء لا يتجزأ من الخطاب التحرري - من خلال فعل الخطابة العامة نفسه الذي مارسوه، يأخذ خطباء كثيرون مثل سيقوس بسفيل وريتشارد ألن ووليام هاملتون وماريا ستيوارت وشارلز مينوكس وهنري هيلاند وجرنت ووليام ويلز براون وفريدريك دوجلاس الفعل المتناقض لخطابة السود في حد ذاته على أنه واحد من أساليبهم البلاغية. ولذلك فالفصاحة الأفرو- أمريكية مشكلة وفاعلة في هذا السياق، ففي منتصف القرن التاسع عشر ألقت قوة دوجلاس كخطيب فصيح بذور الشك في قلوب الكثير من مستمعيه البيض الشماليين فيما يخص مصداقية جذوره في العبودية. لقد نظر الكثيرون للفصاحة عند السود على أنها علامة لمحاولة الخطيب محاكاة البيض.

من الناحية التاريخية جلب الحديث باسم السود دفاعًا عن حريتهم وكرامتهم هذه المفارقة بشكل مباشر. فإن اعتبرنا الخطباء السود خطباء مفوهين؛ فإن كثيرًا من الناس يفسرون مهارتهم تلك بقربهم المزعوم من الثقافة البيضاء. في هذه الحالة من الفصام الثقافي، كان هناك إنكار كامل وإسكات للخصوصية السوداء blackness. وعلى ذلك يتم إنكار وجود أية أرضية لتراث بلاغي أفريقي أمريكي لانعدام السبب. ولذلك فإن حركات التحرر وحق النساء في الانتخاب وحركات العمال وحركات الإقلاع عن الشراب كانت كلها مجتمعة معيوبة بفعل هذا الشكل من العنصرية. لقد قبل القائمون على تلك الحركات من البيض على مضض أن يسمحوا باشتراك الخطباء السود في اجتماعات حركات الحقوق المدنية وحقوق المرأة لأنهم كانوا يتصورون أن المحاضرين البيض أقدر على توصيل هموم هذه الحركات من غيرهم. ولذلك كان من اللازم للخطباء الزنوج أن يتعاملوا مع هذه المعضلة البلاغية؛ بأن يقدموا حجة قوية تصب في صالح الحركات التي يتكلمون من أجلها، وأن يطرحوا انتقاداتهم الأخلاقية لنفس تلك الحركات (فونر وبرانهام ١٩٩٨).

إذا نظرنا إلى البلاغة الأفرو- أمريكية في كليتها لوجدناها في الحقيقة تطويعا رائعا وخياليًا لملتقى صاخب من الضرورات الملحة المتغيرة والمتفاعلة. لقد أتاحت فترة إعادة الإعمار في الولايات المتحدة على سبيل المثال عملية غير مسبوقة من تمثيل السود في جنوب البلاد. كما أتاحت ظهور جدل متنامٍ حول مكان كل هذا العدد من العبيد المحررين في البلد. يقول كيرت ويلسون (١٩٩٨) إن الجدل بشأن الحقوق المدنية في عامي ١٨٧٤ و١٨٧٥ يجسد الأفكار المتناقضة حول ماهية الدور الذي يلعبه العرق في السياسات الأمريكية. وتشير أيضا تحليلات مشابهة لهذا التحليل إلى أن

قوى الإصمات الأمريكية كانت دائما بالمرصاد لأي ظهور لصوت أفريقي أمريكي. فقد حاول مناهضو إلغاء الفصل العنصري أن يمنعوا هذا الجدل الصاعد عن طريق إنكار الواقع المرير للعنصرية. ولذلك كان على الخطباء السود أن يتحدوا هذا الفراغ بتقديم سرد مؤثر لحياتهم اليومية وعنها.

لا يستطيع أحد اليوم أن ينكر قوة تأثير أنماط السرد الأفرو- أمريكية تلك، ولكنها بشكل خاص مكنت نهضة هارلم في عشرينيات القرن العشرين من أن تقدم منظور السود الشعبي للطبقة الأدبية الأمريكية. يجب أن ننظر إلى هذه الانبعاثة الفنية التي ظهرت في أعقاب الحرب العالمية الأولى - والتي تسمى أيضا بالحركة الزنجية الجديدة New Negro Movement - جزئيًا على أنها حملة حقوق مدنية قامت لتبين خصوصية سوداء حديثة وتبني قومية أفريقية أمريكي خاصة. وعلى الرغم من أن هناك اختلافًا كبيرًا بين الباحثين حول التأثيرات المتنوعة التي أشعلت تلك النهضة، وحول ما إذا كانت شخصيتها الفنية تؤهلها لأن تستحق تسمية النهضة؛ فإن أي شخص يهتم باستعراض البلاغة الأفرو- أمريكية يجب أن يدرس كيف كانت تحاجج كتابات الزنوج ويدرس ذلك باهتمام بالغ. يجب أن يدرس كيف استطاع كُتّاب زنوج مثل جيمس ويلدون جونسون وألان ليروي لوك وجيسي فوسيت ودي بوا - على سبيل المثال لا الحصر- أن يتعاملوا بحذر مع الجذور الثقافية للحركة ليطوروا هارلم Harlem بوصفها رأس مال عرقيًا خاصًا وموردًا أساسيًا من موارد ابتكار البلاغة الأفرو- أمريكية.

كانت عمليات إعادة تعريف ماهية الزنجي والأمريكي وتفسيرهما عملية مركزية في سياق مهمة اختراع تلك البلاغة. استطاعت نهضة هارلم أن تقتنص لحظة تصاعد في الفعالية والنشاط عند السود، واستطاعت أيضا

أن ترصد حالة من عزة النفس والأمل في أن تحقق أمريكا وعودها بالمساواة أمام القانون، والتي تأجلت كثيرا. ولما كانت نهضة هارلم من الناحية المكانية قد قامت في أكثر مناطق الشمال كثافة بالسكان السود، فقد مثلت تلك النهضة عاطفيًا وجغرافيًا الأمة داخل الأمة التي شخصها قبل ذلك بسنوات كثيرة وفي سياق مختلف وتحت ظروف مختلفة كل من مارتين روبنسون ديلاني وبوكر واشنطن. لقد أشار رأس المال العنصري من ناحية إلى وجود شكل من القومية يمثله بوضوح شخص مثل ماركوس جريفي والمؤسسة العالمية لنهضة الزنوج، ومن ناحية أخرى أشار "الزنجي الجديد" لميروي لوك إلى أيديولوجية مركبة واستراتيجيات بلاغية معقدة سعت لإعادة تشكيل كل من الهوية العرقية والهوية الأمريكية. يمثل الجدل العام حول كيفية تقديم الفن الأسود لهذه الأنماط من التقابلات مصدرًا ثريًا من مصادر دراسة الدور التاريخي الذي لعبه العمل الثقافي الأفرو- أمريكي في صياغة تحد أخلاقي للدستور الأمريكي الخالي.

ولكن بمجرد أن اعترف الناس بنهضة هارلم بشكل واسع، حوّل الكساد العظيم Great Depression (١٩٢٩ - ١٩٤١) أنظار أمريكا البيضاء من صفحات السواد (الثقافية) إلى ورق العملة الخضراء (الدولار) وإلى الشر الأحمر (المد الشيوعي). لقد كان للقلق الذي سببته الأزمة الاقتصادية الطاحنة والحرب العالمية الثانية والمد الشيوعي أثر كبير في تشتيت انتباه أصحاب البلاغة الأفرو- أمريكية لعقود طويلة. لقد ألقى فنانون ومثقفون وناشطون من أمثال ماركوس جريفي وفيليب راندولف ودي بوا ولانجستون هيوز وبول روبنسون بخطابات قوية ومؤثرة فيما يخص العلاقة بين العِرق والعمل، وفيما يخص الدور الذي يجب على السود أن يلعبوه خلال الحرب وفيما يخص كيفية سيطرة الإمبريالية العالمية على قارة أفريقيا.

لقد بدأ الأمريكيون من أصل أفريقي بعد الحرب العالمية الثانية خاصة في البحث عن عمل، وعن هامش أكبر من حرية الحركة، عبر الجماعات البشرية المكونة للولايات المتحدة وعبر الأمة في شكلها الجغرافي. لقد كانت فكرة الفصل مع الحفاظ على المساواة في تصورهم تقف حجر عثرة في وجه التطور الاقتصادي والاجتماعي للأمريكيين من أصل أفريقي. قال تورجوت مارشال في محاضرة بجامعة ديلارد في نيو أورلينز عشية انتصاره على توبيكا كانزاس، في قضية الفصل العنصري المشهورة باسم "برون ضد الإدارة التعليمية" (١٩٥٤) "إن قوانين الفصل العنصري كالقوانين السوداء في أعقاب مرحلة إعادة الإعمار Black Codes of the Post - Reconstruction تخفي الفشل الأخلاقي للأمة تحت غطاء قانوني. وفي هذه المرة أيضا ألقت البلاغة الأفرو- أمريكية بتحد أخلاقي في وجه الصمت الأمريكي المميز. لا يرمي هذا النوع من الأداء البلاغي إلى شرح القوانين السيئة، بل يمضي أبعد من ذلك، ففي إعادة اختراع التمييز العنصري مرات كثيرة ولا حصرية على أنه وباء يصيب كل جماعة بشرية أمريكى نداء لضمير أمريكا عابر للتاريخ".

بدون شك، يشكل نداء صحوة الضمير الأمريكي الأفريقي هذا بأشكال مختلفة ويلون بألوان كثيرة عبر الأجيال، فقد خرج من خشبات مسارح قاعات الاجتماعات وساحات الكنائس كما تواتر في صحافة السود، وقدمه دي بوا في شكل روحي في "أرواح البشر السود *The Souls of Black Folk*" عام ١٩٠٣، ولكن رالف أليسون حوّل هذا الشكل الروحي إلى جسم بدون وجه في "الرجل غير المرئي *Invisible Man*" سنة ١٩٥٢. ولكن نغمة هذا النداء في فترة الستينيات المضطربة أخذت شكلا أخلاقيا مكثفا مباشرا ذا طابع مواجه (سكوت وسميث ١٩٦٩). [انظر، **Social Movements**.] لقد ملأ وجه الكراهية الجنوبية البغيض شاشات التليفزيون الأمريكية عندما أشعل

رفض روزا باركس الانتقال من مقدمة الحافلة لمؤخرتها وتجاهل شكواها حركة مقاطعة المواصلات العامة في مدينة مونتجمري بولاية ألاباما. ولكن في مقابل ذلك عمل هجوم كلاب كونر وخراطيم المياه والعصي الغليظة كموارد بلاغية ومكبرات صوت لأصوات حركة الحقوق المدنية. لقد حول مالكولم إكس النداء الذي تكلمنا عنه سلفًا إلى وعيد في "الصوت (الانتخابي) أو صوت الرصاصة Ballot or the Bullet" الذي قدم للجمهور في شكل حماسي متوقد. وواجه ستوكلي كارميكل أمريكا بقبضة مرفوعة في "القوة السوداء Black Power"، ونظم مارتن لوثر كنج الابن صلاة عامة وقومية لكل روح أمريكي قادها بكلمات رائعة وخطب رنانة مثل "رسالة من برمينجهام" و"أمتلك حُلمًا I Have a Dream".

لقد كان عقد الستينيات عقدًا مكلفًا. فقد كان العنف دائما من التبعات التاريخية للبلاغة الأفرو- أمريكية؛ فالكلام معناه المخاطرة بالحياة، ولكن في الستينيات ظهرت المفارقة مرة أخرى، وبحسب كلمات أودري لورد الدقيقة، فإن الصمت أيضا شكل من أشكال الموت. ولذلك ففي الوقت الذي أصبح فيه كل من مالكوم إكس وإيدجر إيفيرس ومارتن لوثر كنج شهداء السود، احترقت مدن بأسرها. وحلت بلاغة الغضب والانفصال محل بلاغة الوحدة والتعالي على الماضي. دافع النمور السود عن أنفسهم ضد "البيض"، وسقط بعضهم ضحايا لزخات رصاص الشرطة وسياساتها القمعية. لقد كشفت ممارسات البلاغة الأفرو- أمريكية - التي كلفت السود حياتهم وأنقذتها - الصمت الأخلاقي الأمريكي وعرته بجلاء.

إن كان من المنطقي أن نقول إن القرن العشرين كان شاهدًا على نبوءة الأفارقة الأمريكيين وتضحياتهم، فمن المتوقع أن يُنضج القرن الحادي والعشرين بعض تلك النبوءات (ويست ١٩٩٩). يبدو أن هذا العمل قد بدأ

بالفعل في خطابة الأب لويس فرخان - على سبيل المثال - حيث يُضطر الأفارقة الأمريكيون إلى إعادة النظر في العلاقات التاريخية الأمريكية من أصل إنجليزي واليهود، بل يُضطر بعض المتابعين إلى النظر بدقة أكبر في انغماس المجتمع الأفرو- أمريكى في بلاغة عنصرية (ماك فيل ١٩٩٤). كما يمكن رؤية تلك النبوآت والإحساس بها في تخفيف الأب جسي جاكسون لحدة لهجته في بلاغة الحملة الرئاسية وفي مجهوداته الدبلوماسية الخارجية الحثيثة والحساسة في الوقت نفسه. أصوات الخطاب الأفرو- أمريكى تزداد حيوية في خطوتها وعلوها خاصة إذا ركزنا على الأصوات التي تخرج من الثقافة الفنية الشعبية الأمريكية (جورج ١٩٩٨، وروز ١٩٩٤، وواتس ١٩٩٧). ولكن على الرغم من الاختلافات الواسعة بين تلك التوجهات المختلفة فإنها ظلت حيوية جدا ومهمة في كونها نداءات للضمير الأمريكي.

مصادر ومراجع

Asante, M. K. *The Afrocentric Idea*. Philadelphia. 1987.

Baker. H. *Modernism and the Harlem Renaissance*. Chicago, 1987.

Condit, C. M., and J. L. Loucaites. *Crafting Equality: America's Anglo - African Word*. Chicago, 1993.

Foner, P. S. *The Voice of Black America*, vol. 1. New York, 1972.

Foner, P. S. *The Voice of Black America, 1797–1971*. New York, 1972.

Foner, P. S., and R. Branham. *Lift Every Voice: African American Oratory, 1787–1900*. Tuscaloosa, Ala,19898.

Gates, H. L. *The Signifying Monkey: A Theory of Afro - American Literary Criticism*. New York, 1988.

George, N. *Hip Hop America*. New York, 1998.

Hyde, M., and K. Rufo. "The Call of Conscience, Rhetorical Interruptions, and the Euthansia

Controversy." *Journal of Applied Communication Research* 28 (2000), pp.pp. 1–23.

Locke, A. *The New Negro: An Interpretation*. New York, 1925.

Lorde, A. *Sister Outsider*. Trumansburg, N.Y., 1984.

McPhail, M. L. "The Politics of Complicity: Second Thoughts about the Social Construction of Racial Reality." *Quarterly Journal of Speech* 80 (1994), pp.pp. 343–357.

Pryse, M. "Zora Neale Hurston, Alice Walker, and the Ancient Power of Black Women." In *Conjuring: Black Women, Fiction, and Literary Tradition*, edited by M. Pryse and H. J. Spillers, pp.pp. 1–25. Bloomington, Ind., 1985.

Rose, T. *Black Noise: Rap Music and Black Culture in Contemporary America*. Hanover, N. H., 1994.

Scott, R. L., and D. K. Smith, "The Rhetoric of Confrontation." *Quarterly Journal of Speech 55* (1969)،pp.pp. 1–8.

Watts, E. K. "An Exploration of Spectacular Consumption: Gangsta Rap as Cultural Commodity". *Communication Studies*, 48 (1997), pp.pp. 42–58.
West. C. *The Cornel West Reader*. New York, 1999.
Wilson, K. H. "The Contested Space of Prudence in the 1874–1875 Civil Rights Debate." *Quarterly Journal of Speech* 84 (1998), pp.pp. 131–149.
Zamir, S. *Dark Voices: W.E.B. Du Bois and American thought, 1888–1903*. Chicago, 1995.

تأليف: Eric King Watts
ترجمة: محمد الشرقاوي
مراجعة: عماد عبد اللطيف

البلاغة التحررية Abolitionist rhetoric

يصرح هربرت أفتكر في مقدمة كتاب "المذهب التحرري *Abolitionism*" (بوستون ١٩٨٩) بأن دعاة التحرر السود كانوا "أول دعاة التحرر وأكثرهم بقاءً". ولكن المؤرخين نادرًا ما سلّموا للسود بهذا السبق، على الرغم من أن بعض قادة تلك الحركة السوداء مثل فريدريك دوجلاس قد تمتعوا باهتمام واسع منذ بداية حركة التصحيح التاريخية في الستينيات. كانت إسهامات دعاة التحرر السود - بالنسبة لدارسي البلاغة والتاريخ الأمريكي - إسهامات عميقة. بل إن بلاغتهم في حقيقة الأمر شكلت مركز العمل الأمريكي ضد العبودية، لقد كانوا أول من تحدث بشكل واضح عن نفاق ادعاء التحرر الأمريكي بل إنهم استطاعوا إقناع الأمريكيين البيض بترك فكرة التدرج في التخلص من العبودية والاستعمار. كما ساعدوا في تحويل أفكار التحرير إلى حركة اجتماعية عن طريق لعب دور الناشطين والنقاد من الداخل. وفي إطار ذلك أصروا على أن الحرية ليست انتهاء العبودية وحدها، بل هي إثبات المساواة الكاملة أيضا. ورعى دعاة التحرر السود بالتوازي مع دفعهم لتلك الأنشطة ظهور مجتمع أسود مستقل. لقد كان موقف دعاة التحرر في أمريكا في القرن التاسع عشر موقفا معقدًا جدًا؛ فقد كانوا دخلاء يميزهم عرقهم وهمهم السياسي عن باقي الناس، ولكنهم في الوقت نفسه تعمدوا تبني بعض السمات الثقافية البريطانية والأمريكية من منطقة نيو إنجلاند ومنطقة الغرب الأوسط. لا يجب أن يفهم شخص أن هذا معناه أنهم تخلوا عن ماضيهم الأفريقي، بل إن دعاة التحرر السود هؤلاء أقروا بتراثهم الثقافي الفريد. ففي

منتصف القرن التاسع عشر كانت القومية موتيفة خطابية مميزة وتبنى بعض الناس - مثل الراديكالي مارتين ديلاني - فكرة أن الملونين لن يتمتعوا بأي قدر من الحرية إلا عندما يهاجرون إلى أفريقيا.

لقد كان دعاة التحرر السود فخورين بأصولهم الأفريقية، ولكن معظمهم مع ذلك كانوا يرون أنهم أمريكيون من أصول أفريقية. عبَّر هنري هيلاند جرانت عن هذه الهوية بقوله: "فكِّروا في هذا المجد الدائم الذي يطوق رأس أفريقيا القديم، ولا تنسوا أنكم مواطنون أمريكيون ولدتم في أمريكا، ولذلك فلكم كل الحقوق التي لأكثر الأحرار حرية" (خطبة لعبيد الولايات المتحدة الأمريكية، ١٦ أغسطس ١٨٤٣). أثرت تلك الازدواجية التي أشار إليها جرانت في بلاغة دعاة التحرر السود، فقد تبنى الخطباء الأفارقة الأمريكيون الأنماط الخطابية السائدة في عصرهم، وعلى الرغم من أن الكثير منهم لم يتعلموا تعليما نظاميًا كاملا فإنهم كانوا مهرة في المحاكاة والتطويع، ونحتوا لأنفسهم بذلك مكانًا في التراث البلاغي. ألقى ويليام آلان، الأستاذ بكلية نيويورك المركزية خطابًا في ٢٢ يونيه عام ١٨٥٢، ادَّعى فيه أن شيشرون وديموستين وهنري كلاي ودانيل ويبستر كانوا نماذج للفصاحة، ولكن جرانت وفريدريك دوجلاس نافسوهم على تلك المكانة. علاوة على ذلك، فقد طوع دعاة التحرر السود بعض سمات التراث الأمريكي وتبنوها. فقبل إنشاء الجمعية الأمريكية المناهضة للعبودية في عام ١٨٣٣ سعى السود للحصول على حريتهم بتبني مبادئ الثورة الأمريكية، فعلى سبيل المثال في ٢٨ مايو ١٧٧٤، أرسل بعض السود عريضة إلى توماس جيج، حاكم مستعمرة ماساتشوستس مصرين على أنه ليس لأى كان الحق في العبث بالحقوق الطبيعية لأي إنسان ولد حرا، وكذلك كتبَ الفلكي العصامي بينجامين بانيكر رسالة رائعة إلى توماس جيفرسون بتاريخ ١٩ أغسطس ١٧٩١، مقتبسا من إعلان الاستقلال الأمريكي، ومعنفا

جيفرسون على عدم تطبيق مبادئه على الملونين في الولايات المتحدة. وفي نداء الناشط ديفيد ووكر لمواطني العالم الملونين (بوسطن ١٨٢٩) أدان العبودية في جنوب الولايات المتحدة ومجتمع المستعمرات الأمريكي ونفاق المسيحيين البيض، وخلص إلى أن السود لديهم أسباب للثورة أكثر من ما كان لدى مؤسسي الدولة. على الرغم من أن نداء ووكر هذا كان تحريضيًا عنيفا جدا بالنسبة لأغلبية دعاة التحرر فإنه قوبل بترحاب واسع في المجتمعات السوداء. وفي الحادي والعشرين من سبتمبر عام ١٨٣٢ قالت ماريه ستيوارت إن البيض طالما تحدثوا بصوت عال عن المساواة في الحقوق والمميزات لدرجة أن أرواحنا هي الأخرى تشبعت بنفس الأريج.

تتجلى تعقيدات الهوية السوداء في نشوء البلاغة التحررية السوداء. ففي السادس من يونيه عام ١٨٣١، اجتمع أفارقة أمريكيون من خمس ولايات في مدينة فلادلفيا لتأسيس حركة مؤتمر وطني لمواجهة مجتمع الاستيطان الأمريكي والعبودية، وقدمت جريدة حديثة لهم الدعم في مسعاهم هذا، وهي جريدة **المحرر** *The Liberator*، لصاحبها ويليام لويد جاريسون، الذي أدار ظهره للتحول التدريجي جزئيًا بسبب مجهودات دعاة التحرر السود المقنعة. لقد دعمت جريدة **المحرر** حركات التحرر من العبودية بشكل سريع وآني، ودعمت كذلك المساواة الكاملة للمواطنين من العبيد السود المحررين، ولذلك تبنى الأفارقة الأمريكيون تلك الجريدة بحماسة كبيرة. فقد شكلوا حوالي ثلاثة أرباع المشتركين فيها، وبدون ذلك الدعم المبكر ما كان لمنبر الفكر التحرري المؤثر هذا أن يستمر في العمل. كذلك رحب السود بإنشاء جمعية نيو إنجلاند المناهضة للعبودية في عام ١٨٣٢، وشهد العام التالي – أي عام ١٨٣٣ – إقامة الاتحاد الأمريكي لمناهضة العبودية. وبذلك بدأت حقبة جديدة من التعاون الوثيق بين دعاة التحرر السود والبيض. في ثلاثينات

وأربعينات القرن التاسع عشر تبنَّى قادة مثل ويليام ويبر وجيمس فورتين وتيودور ريت قيم المرحلة الإصلاحية؛ فقد قال ويبر في خطابه الرئاسي أمام جمعية الملونين لمحاربة السكر في فيلاديلفيا في الثامن من يناير عام ١٨٣٤ إن التحيز العنصري سوف ينتهي من هذا العالم عندما يحقق السود في كل مكان مستوى أخلاقيًا رفيعا. وأردف قائلا إن إحياء العرق الأسود والارتقاء به كفيل بأن يعصف بالعبودية في هذا البلد. أما الأب اللوثري دانيل بين – الذي أصبح بعد ذلك واعظًا في الكنيسة الإنجيلية الأفريقية – فقد قلب موضوعات الإصلاح رأسا على عقب، عندما قال إن العبودية تسببت في الانحدار الأخلاقي لدى السود والأوروبيين البيض.

وعندما تسبب دور المرأة في حركات التحرير والإصلاح الأخلاقي في انقسامات مختلفة في تلك الحركات في أربعينيات القرن التاسع عشر أثبت السود استقلاليتهم، ولكنهم في الوقت نفسه استمروا في الاتحاد مع مُثل المجتمع الأمريكي ككل. ففي السادس عشر من أغسطس من عام ١٨٤٣ ألقى هنري هيلاند جرانت خطابًا أمام المؤتمر الوطني للمواطنين السود، وكان الحضور مكونًا من السود المحرَّرين حديثًا، ولكنه مع ذلك تكلم إلى الذين لم يتحرروا بعد، قال: "على الرغم من أنكم وأننا جميعًا نرغب في التحرر، وعلى الرغم من أننا كلنا لا نريد سفك الدماء؛ فإنه ليس هناك أمل كبير في تحقيق ما نريده كلنا بدون سفك الدماء، فإن كان لدمكم أن يسيل فلينسفك كل الدم في وقت واحد." وفي نهاية خطبته قال: "فليكن شعاركم هو المقاومة والمقاومة والمقاومة، فلم يسبق لأي شعب مقهور قط أن تحرر بدون المقاومة." وكما كان الحال بالنسبة لنداء ووكر، فإن خطبة جرانت كانت كاشفة ومثيرة للجدل في الوقت نفسه، فقد ادعى أن الأفارقة الأمريكيين لا يستطيعون الاعتماد على غيرهم في إنهاء العبودية. وفي الوقت نفسه كانت أفكاره معتادة ومعروفة، فقد كانت دعوته في خطبته لحمل السلاح مأخوذة

من نصوص الثورة الأمريكية، وتذكرك بها، فقد قال مثلا: "مت رجلا حرًا أحسن لك من أن تعيش عبدًا". لم تنشر تلك الخطبة إلا في عام ١٨٤٨ إلا أن إلقاءها بدأ تحولا كبيرًا في بلاغة التحرر عند السود. فقد جمع دعاة التحرر السود في الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر بين العمل المباشر والتصعيد السياسي. فقد حررت السكك الحديدية تحت الأرض كل العبيد الذين تمكنت من تحريرهم، وفي الوقت نفسه تكلم المحاضرون السود أمام السياسيين المناهضين للعبودية مطالبين بتشريع لتحرير العبيد ودعم مبادرات الحقوق المدنية. وأدانوا تدعيم قانون العبيد الهاربين (١٨٥٠) وسياسات السيادة الشعبية وقرار دريد سكوت سيئ السمعة (١٨٥٧). عبر فريدريك دوجلاس في خطابه "تحرير الهند الغربية" (١٨٥٧) عن رأي أقرانه أحسن تعبير عندما قال: "يوضح كل تاريخ تطور الحرية الإنسانية أن كل التنازلات التي قدمت في سبيل مطالبها النبيلة حدثت بعد عراك جاد؛ فالقوة لا تتنازل عن شيء بدون مطالبة، لم تفعل ذلك قط، ولن تفعله أبدًا."

لما نشأت حركة التحرر السوداء وتطورت، احتل المتحدثون باسمها مكان الصدارة في الخطاب التحرري. فقد استخدموا هويتهم كأمريكيين وأفارقة في الوقت نفسه ليصبحوا أنجح المبشرين بتلك الحركة. راح أوائل المحاضرين السود من أمثال جون لويس وجهيل بيمان وهنري هايلاند جرانت وصمويل رينجولد وارد وتشارلز لينوكس قثموند يتحدثون في كل مكان ويلقون محاضرات شغلت كل وقتهم. وبحلول نهاية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر أدرك دعاة التحرر أن الشهادات الحية على العبودية مؤثرة في جمهورهم كل التأثير، فأصبح سوجورنر تروث وهنري بيب وويليام ويلز براون وهنري بوكس براون وويليام كرافت وإلين كرافت من أكثر الشخصيات شهرة. السبب في نجاح بلاغتهم كان أنهم هم أنفسهم أمثلة حية على بشاعة العبودية وإمكانيات الأفارقة الأمريكيين حال تحررهم. وأدت

شهادات العبيد الهاربين إلى ظهور جنس أدبي مميز، وهو قصص العبيد. من بين أشهر تلك الأعمال الأدبية كتاب هاريت آن جاكوب "حوادث في حياة فتاة في العبودية *Incidents in the Life of a Slave Girl*" (بوسطون ١٨٦١) وكتاب فريدريك دوجلاس "قصة حياة فريدريك دوجلاس" (بوسطون ١٨٤٥) وكتاب "قيدي وانعتاقي *My Bondage and My Freedom*" (نيو يورك ١٨٥٥). هناك قصص مماثلة أخرى كثيرة، انظر مثلا "تاريخ ميري برينس" (لوندون ١٨٣١) و"قصة ويليام براون" (بوسطون ١٨٤٧) و"قصة حياة هنري بيب ومغامراته" (نيو يورك ١٨٤٩) وانظر أيضا كتاب ويليام كرافت وإلين كرافت "العدو ألف ميل في سبيل الحرية" (لندن ١٨٦٠). أسهمت تلك الكتابات المشهورة في صناعة شخصيات عامة زنجية استطاع دعاة التحرر السود أن يستخدموها أحسن الاستخدام. [انظر، Persona]. لقد كان الكلام والكتابة من الأعمال الشجاعة، فلم يواجه العبيد السابقون مستمعين عدوانيين وعدائيين فحسب، بل كانوا تحت خطر دائم بالعودة إلى العبودية. واجه كل من ماريا ستيوارت وسارة دوجلاس وفرانسيس إلين وكار هيربر وميري آن شاد كاري عقبات إضافية. فبوصفهن نساءً سودًا، كان عليهن جميعا أن يتعاملن مع وصمة أن تلقي امرأة خطابًا عامًا، كما كان عليهن أن يخففن من عار عرقهن ليعترف العالم بهن كنساء كاملات.

على الرغم من أن الدور الخطابي للأفارقة الأمريكيين قد أسهم كثيرًا في حركة تحرير العبيد فإنه واجه قيودًا أيضًا. فقد كان الكثير من دعاة التحرر البيض منتمين لعائلات غنية من الطبقة المتوسطة في نيو إنجلاند، وهي عائلات استفادت كثيرًا من اقتصاديات العبودية. علاوة على ذلك فإن بعض البيض الذين كانوا يكنون احتقارًا شديدًا لمؤسسة العبودية كانوا هم أنفسهم يعتقدون أن السود جنس أحقر على الرغم من كونهم من دعاة التحرر. ولذلك قاوموا اشتراك الأفارقة الأمريكيين في تلك الحركة كقادة أو حتى كناشطين

مستقلين، وكثيرًا ما تحدثوا بصوتهم هم نيابة عن المتحدثين السود. لم يشجع أحد فريدريك دوجلاس على تولي دور قيادي في ذلك العمل. كما نصحه الناس أن يترك بعضا من "حديث المزارع" في محاضراته. هناك حادثة أخرى تمثل لهذا الانحياز الخفي بطلتها هي خطبة سوجورنر تروث الشهيرة "ألست امرأة؟" النسخة المنتشرة لهذه الخطبة موجودة في كتاب الناشطة البيضاء فرانسيس جيج بعنوان "قصة سوجورنر تروث" (باتل كريك ١٨٧٨). كتاب جيج في الحقيقة درامي جدًا فلغته عامية جدًا، ولكن هناك نسخة أخرى لخطبة سوجورنر تروث ظهرت في مجلة "بوق ضد العبودية" في ٢١ يونية ١٨٥١، وتبدو لغته رصينة جدا حيث يبدأ بإنجليزية فصيحة جدا كما يلي: "أريد أن أقول بعض الكلمات حول هذا الموضوع، أنا من دعاة حرية المرأة، ولكن عندي عضلات كالتي عند أي رجل، وأستطيع أن أعمل كما يعمل أي رجل. لقد حرثت الأرض وجمعت وحصدت وقطعت وكسرت وهل يستطيع أي رجل أن يفعل أكثر من ذلك؟" وعلى الرغم من أن النصين يحملان نفس الموضوعات والأفكار فإن أسلوبهما مختلف تماما، مما يوحي بأن جيج حوَّرَت النص بطريقتها الخاصة ليصبح أكثر تلقائية من وجهة نظرها فالخطاب لأمَة سابقة. وللأسف ينكر مثل هذا التغيير أن يكون دعاة التحرر السود قد بذلوا جهدا في سبيل عملهم الإبداعي وكتابتهم. لقد كانت رسالة تروث هي أن بينها وبين مستمعيها تشابهات أكثر مما بينهم من اختلافات.

لقد أدرك دعاة التحرر السود أن أقرانهم من البيض ينظرون إليهم في بعض الأحيان على أنهم "الآخر"، ولذلك فكثيرًا ما تحدث بلاغتهم مجتمع دعاة التحرر نفسه. قال تيودور ريت في خطابه أمام جمعية ولاية نيويورك لمناهضة العبودية في العشرين من سبتمبر عام ١٨٣٧، إن زملاءه البيض "يجب عليهم أن يمحوا من صدورهم حبل التبعية.. وأن يسمحوا لكل فرد بممارسة عمله وأن يحرقوا هذه الأفكار المسبقة، أو يحدوا منها، وأن ينظروا للإنسان الملون في كل مكان على أنه إنسان، في الكنيسة، وعلى المسرح،

وفي السفينة، وفي الحانة، وفي كل مكان آخر. وفي تلك الحالة تتلقى العبودية الضربة القاضية." كان دعاة التحرر السود ينظرون إلى العبودية على أنها نظام طبقي يحد من حرية كل إنسان ملون، ولذلك فقد أعلنوا أنهم أنفسهم في حالة من الاستعباد. وعلى ذلك فليس من الغريب أنهم اعترضوا عندما انحلت الجمعية الأمريكية لمناهضة العبودية عام ١٨٧٠، فطالما حافظ التمييز على وجود طبقات عرقية فإن عمل الجمعية موجود لم يزل.

ربما تكون خطبة فريدريك دوجلاس بعنوان "ما هو الرابع من يوليو[١] بالنسبة لعبد؟" والذي ألقاه في الخامس من يوليو عام ١٨٥٢ أشهر خطاب لدعاة التحرر السود، وعلى الرغم من أنه لا يعكس جل هذا الخطاب التحرري فإنه يبين كيفية اصطناع الهوية السوداء لنفسها. الخطاب يضع دوجلاس في موقف المنبوذ من المجتمع المدني الأمريكي، وبعد ذلك يضع الخطاب صاحبه في ضمن مجموعة من الناس تؤمن بأن كل الناس خلقوا سواسية. يقول دوجلاس إن جماعته تلك تضم مؤسسي أمريكا. يحاول هذا الترتيب لأن يشير إلى أن الأمريكيين الأوروبيين مغتربون عن تاريخهم، فلما كانوا يدعمون العبودية التي هي ضد الأسس التي قامت عليها دولتهم فإنهم ومجتمعهم المدني لا يعملون بحسب تعاليم آبائهم المؤسسين. وبذلك يصبح دوجلاس - وليس أقرانه من البيض - الوريث الشرعي لجورج واشنطن وبنيامين فرانكلين وتوماس جيفرسون، وبهذه الحركة يصبح مواطناً أكثر مواطنة منهم. يبين اقتباس دوجلاس الرائع هذا عبقرية دعاة التحرر السود في تصدير خطاب مفاده أنهم يجسدون روح الجمهورية الأمريكية ومبادئها (انظر مدخل السخرية، Irony). فهم ليسوا مجرد دعاة للتحرر من العبودية بل هم التعبير الحي الملموس للتجربة الأمريكية.

---

(١) عيد الاستقلال الأمريكي. (المترجم)

مصادر ومراجع

Andrews, William L., and Henry Louis Gates, Jr., eds. *The Civitas Anthology of African American Slave Narratives*. Washington, D.C., 1999.

يتضمن الكتاب نصوصًا أصلية وتعليقات على قصص الزنوج.

Bell, Howard Holman. *A Survey of the Negro Convention Movement, 1830–1861*. New York, 1969.

يقدم الكتاب وصفًا لمؤتمرات الزنوج التي أسهمت في حركة التحرر.

Blackett, R. J. M. *Building an Antislavery Wall: Black Americans in the Atlantic Abolitionist Movement 1830 - 1860*, Baton Rouge, La., 1983.

يقدم وصفا متكاملا لعلاقة التحرر الزنجي ببريطانيا.

Foner, Philip S., and Robert James Branham, eds. *Lift Every Voice: African American Oratory, 1787 - 1900*, Tuscaloosa, Ala., 1998.

يقدم نصوص الخطب التي كتبها السود، ونصوص محاضراتهم التعليمية.

Goodman, Paul. *Of One Blood: Abolitionism and the Origins of Racial Equality*. Berkeley, 1998.

يقدم تحليلا لطيفًا لأصول حركات التحرر الزنجية.

Pease, Jane H., and William H. Pease. *They Who Would Be Free: Blacks' Search for Freedom, 1830*—1861, New York, 1974.

يقدم مناقشة ممتازة لنشوء حركة التحرر.

Quarles, Benjamin. *Black Abolitionists*. New York, 1969.

تفسير ممتاز لحركة التحرر من وجهة نظر الأفارقة الأمريكيين.

Ripley, Peter, ed. *The Black Abolitionists Papers*. 5 vols. Chapel Hill, N.C., 1985–1992.

مرجع مهم للكتابات الأصلية؛ بما فيها خطب ومراسلات ومقالات صحفية، ويتضمن المجلد الثالث والرابع والخامس نصوص دعاة التحرر الأمريكيين الزنوج؛ حيث يقدم المجلد الثالث (ص٣ - ٦٩) تأريخاً للوعي بالفكرة.

Yee, Shirley J. *Black Women Abolitionists: A Study in Activism, 1828–1860.* Nashville, 1992.

يركز على دور المرأة الزنجية في حركة التحرر.

تأليف: Kirt H. Wilson

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

Double – consciousness الوعي المزدوج

الوعي المزدوج فكرة صاغها ويليام إدوارد بورجارد دي بوا Du Bois ليصف بها الصراع الاجتماعي والنفسي الذي خاضه الأفارقة الأمريكيون في بداية القرن العشرين من أجل أن يصبحوا جزءًا من الثقافة الأمريكية. كان دي بوا (١٨٦٨ – ١٩٦٣) مثقفا وناشطا أفريقيًا أمريكيًا، كما كان منظرًا كبيرًا في المسائل العرقية في المجتمع الأمريكي في النصف الأول من القرن العشرين. وأسهم دي بوا إسهاما فاعلا في بناء مجالات علم الاجتماع في الولايات المتحدة كمجال بحثي أكاديمي، وكان واحدا من مؤسسي الرابطة الوطنية لأجل رفعة الملونين *National Association for the Advancement of Colored People*.

يعكس الوعي المزدوج كما يقول دي بوا: "فكرة أن تنظر لنفسك دائما من خلال أعين الآخرين، وأن تقيس روحك بمازورة عالَم ينظر إليك متسليًا بمزيج من الاحتقار والشفقة. نشعر دائما بازدواجيتنا – أمريكيين وزنوجًا – بروحين، بفكرين، بصراعين داخليين، لا يجتمعان ونموذجين متصارعين، وكل ذلك في جسد غامق واحد لا يبقيه واحدا كاملا دون تفتت سوى قوته المكينة" (١٩٨٢ ص٤٥). تعتبر المناقشة التي قدمها دي بوا عن الوعي المزدوج في كتابه "أرواح السود" (١٩٠٣) واحدة من أكثر النصوص اقتباسا من بين كتاباته الواسعة. وظلت جهود تلك الفكرة محل جدل أكاديمي واسع، كما تلقي الطرق الكثيرة التي تم بها تفسير تلك الجذور نفسها الضوء على السبل المتعددة والمعقدة التي يتعامل بها الباحثون مع الثقافة الأفريقية والأمريكية والفكر الأفرو– أمريكى منذ صاغ دي بوا المصطلح كرد فعل لتفاعل مسألة الهوية العرقية والاختلاف بين الأعراق. وكان اهتمام دي بوا

الأساسي – والذي ظل خيطا يجمع كل تفسيرات الفكرة – منصبًا على التوتر بين الذات الاجتماعية والذات الفردية المحورية للأفارقة الأمريكيين في الولايات المتحدة والصراع من أجل أن يكون الإنسان أسود وأمريكيًا في الوقت نفسه. يقول: "إن تاريخ الشعب الأمريكي هو تاريخ هذا المسعى وهذا الشوق لتحقيق الرجولة الواعية بذاتها، ولدمج هذه الذات المزدوجة لتصبح ذاتا واحدة أحسن وأصح" (١٩٨٢ ص٤٥). وكان لهذه الفكرة أثرها البالغ على الفكر الأدبي والبلاغي الأفرو- أمريكي في النصف الثاني من القرن العشرين كما أثر في فكر الكثير من المنظرين والنقاد المهتمين بالتاريخ والفلسفة والدراسات الثقافية.

على الرغم من أن دي بوا كان الأمريكي الأول الذي يكتب مناقشاً فكرة الوعي المزدوج فيما يخص المسائل العرقية فإن التعبير كان رائجا ومتداولا في الكثير من المناحي الخطابية في بدايات القرن العشرين. يقول ديكسون بروس (١٩٩٢) إن المصطلح "كان له تاريخ طويل قبل أن ينشر دي بوا مقاله عام ١٨٩٧، وهو المقال الذي ظهر لأول مرة في مجلة "الأطلنطي". يقترح بروس أن دي بوا تأثر بالاستخدام المجازي لهذا المصطلح الذي أنتجه مزج بين الرومانسية الأوروبية والتسامي الأمريكي وبوجود المصطلح الطبي المعروف الازدواجية في الشخصية الذي أصبح جزءًا من الخطاب التقني والشعبي في مجال علم النفس. كما عبَّر استخدام رالف والدو إمرسون المجازي للمصطلح عن التوتر العميق القائم بين الذات الحقيقية والذات المثال والنزاع بين التطلعات الروحية للفرد والمتطلبات العملية للمجتمع. ويدعي بروس أيضا أن دي بوا بالإضافة إلى تأثير إمرسون تأثر بالنظريات السيكولوجية الموجودة في عصره، والتي كانت تستخدم نفس المصطلح من عام ١٨١٧، على الأقل. كما يقول إنه من المحتمل أن يكون دي بوا قد تأثر بمعلمه ويليام جيمس، أستاذ هارفارد. وفي مقابل بروس يقول

أدولف ريد (١٩٩٧) - الذي كان شرحه لأفكار ازدواج الهوية الأوسع في تفسير تأثيرها على المثقفين الأفارقة الأمريكيين - إن استخدام دي بوا للمصطلح كان خاصا بالتجربة الأفرو- أمريكية. ويقول إن استخدام إمرسون للمصطلح ينبع من تجربة الجنس الإنساني عموما كما يقوم على افتراضات ميتافيزيقية تهتم بما هو أزلي وتترك كل ما هو واقعي وقتي. أما استخدام جيمز للمصطلح، فعلى الرغم من أنه أكثر تعقيدا من الاستخدامين السابقين، فإنه لم يكن أكبر تأثيرًا من استخدام إمرسون. ويعتقد ريد أن استخدام جيمز للمصطلح يختلف اختلافا كبيرًا عن استخدام دي بوا على الرغم من بعض التشابهات الشكلية. "رأى جيمز الذات المنقسمة تلك على أنها ظاهرة نفسية وروحية وصوفية، أما بالنسبة لدي بوا فقد كان المصطلح اجتماعيًا وتاريخيًا" (ص١٠٥). ويقترح ريد أن "الثنائية" كانت فكرة حاضرة بقوة في أوساط زملاء دي بوا من الأوروبيين الأمريكيين، كما كانت "إشكالية" ظهرت في أنماط خطاب مثقفي الفترة الطليعية المهتمين بتلك الظواهر الثقافية مثل التشرذم الاجتماعي والتمدن الزائد والهوية الجنسية. على الرغم من أن أمثال تلك الظواهر كانت أيضا مما يشغل دي بوا فإن مشروعه الثقافي كان أكثر من مشروع أكاديمي. فقد ركز المشروع بالأساس على تشخيص الظروف الاجتماعية المادية التي تحدد الوعي الأفرو- أمريكي وثقافته وتواصله.

يقول ريد إن هذا التركيز كان له تأثير قوي على المثقفين الأفارقة الأمريكيين الذين كانت لهم أجندات بحثية ونقدية متنوعة ومتباينة في بعض الأحيان. ولاحظ ريد أن الكثير من المثقفين اختاروا استخدام دي بوا للمصطلح على مدار القرن العشرين على الرغم من أنهم ينتمون لمشاريع أيديولوجية ثلاثة هي: "(١) مشروع دمجي وعلاجي بدأ من عشرينيات القرن العشرين حتى منتصف ستينياته؛ و(٢) مشروع قومي وعلاجي بدأ منذ الستينيات حتى الثمانينيات؛ و(٣) مشروع عرقي أكاديمي واحتفالي منذ تلك

الفترة وحتى الآن" (المرجع السابق ص٩٢). ركز الكتاب الذين استلهموا أفكار دي بوا منذ العشرينيات إلى الستينيات على ازدواج الوعي باعتباره تعبيرًا عن نزعة مماثلة قاومتها ثقافة بيضاء مسيطرة. أما الكتاب الذين استلهموا نفس الأفكار في الفترة القومية والعلاجية منذ الستينيات وحتى الثمانينيات فقد نظروا لازدواجية الوعي هذه على أنها صفة مستغرقة للسود كلهم، وعلى أنها حالة عقلية يجب محاربتها وتدميرها. استلهم باحثون أفريقيون أمريكيون كثيرون منذ الثمانينيات فكرة ازدواج الوعي كحالة تشخيص واقعي وحقيقي لحقيقة الحياة الاجتماعية للسود في أمريكا.

على الرغم من أن هذه المشاريع الأيديولوجية الثلاثة لها مشاربها المختلفة فإنها كلها تعتقد أن فكرة ازدواج الوعي المحورية في أجندة دي بوا البحثية، هي مفهوم نظري أفريقي أمريكي خاص وفريد، كما أنها تعكس حالة خاصة بالتجربة الأفرو- أمريكية. ويقول ريد إن قراءة ازدواجية الوعي بهذه الطريقة تشوش السياق التاريخي والثقافي الذي أطلق فيه دي بوا هذا المصطلح، كما أنها تركز عليها بطريقة تخفي حقيقة علمية مهمة، وهي أن نفس تلك الفكرة اختفت من كتابات دي بوا المتأخرة، بل إنها لم ترد بعد ذلك في كتاب "أرواح السود". يدَّعي ريد أن الفكرة كانت موجودة في الكثير من الاتجاهات الأكاديمية الاعتيادية في فترة حياة دي بوا، كما أنها كانت تعكس تفكير دي بوا في مسائل الهوية العرقية، راجعها هو نفسه بعد عام ١٩٠٣ بقليل، ولكن ريد يختتم مناقشته بأن "رد الفعل لفكرة ازدواج الوعي كان عنصرًا كاشفا للخطاب الثقافي المعاصر عند السود" (المرجع السابق ص١٢٦). تعكس ازدواجية الوعي الارتباط الكبير بين الخطاب الأفرو- أمريكى والفكر الفلسفي لتلك الجماعة العرقية من ناحية، والصراعات والتناقضات التي شكلت التجربة الأفرو- أمريكية تاريخيًا من ناحية أخرى؛ أي أنها تعكس كيف جسدت البلاغة الأفرو- أمريكية كلاً من الأساسي

والوجودي. على الرغم من أن فكرة ازدواجية الوعي موجودة مرة واحدة فقط في كتاب "أرواح السود" - كما يقول ريد - فإنها كانت ذات تأثير كبير على العقلية الأفرو- أمريكية المعاصرة بشكل عام، وعلى مناطق النظرية البلاغية والنقد بشكل خاص. تبين فكرة ازدواجية الوعي بالنسبة لريد القلق العرقي عند المثقفين الأفارقة الأمريكيين، وهو القلق الذي يظهر في السياقات السياسية والأدبية والنفسية. واعتمد البلاغيون أعمال دي بوا لتحليل الأبعاد الخطابية لهذا القلق ولتصور إمكانياته التوليدية والتحويلية.

يظهر تأثير دي بوا الواسع بشكل واضح في الدراسات البلاغية والأدبية للفكر الأفريقي الأمريكي، وتحليلات هذا الخطاب المنشورة منذ الستينيات بشكل ضمني أو صريح. واعترف الكثير من الباحثين بتأثير دي بوا على البلاغة الأفرو- أمريكية؛ بل يصنفونه في سياق خطابي متجذر في النقد السياسي والعمل الاجتماعي، وليس في سياق الكتابات التصالحية ومحاولات التراضي. وصف آرثر سميث دي بوا بأنه "أكثر مصادر المسائل العلمانية إنتاجا في بلاغة ثورة السود" (١٩٦٩ ص٤٧). كما قيم كل من جيمز جولدين وريتشارد ريكي (١٩٧١) تأثيره وفصاحته تقييما نقديًا مقابلين ما بين فلسفته وخطابه وفلسفة معاصره وزميله بوكر واشنطن وخطابه في غير ما موقع في كتابهما، على الرغم من أنهما يعتقدان أن الرجلين كليهما "من دعاة المماثلة". اتبع بلاغيون آخرون نفس هذا الخط البحثي. فتجد أن توماس هاريس وباتريك كينيكوت (١٩٧٢) بدآ نقدهما لبلاغة واشنطن بملحوظة اقتبساها من دي بوا. كما قدم روبرت تيريل وميكل ليف (١٩٩٥) تحليلا لدي بوا باعتباره كاتبا إشكاليًا في معرض معالجتهم النقدية لواشنطن وبلاغيين أفارقة أمريكيين آخرين. ويعتبر برايان ماكجي (١٩٩٨) أن التمعن في بلاغة دي بوا حول "الآخر" نقطة بداية أيَّة محاولة للتنظير لفكرة الآخر

عمومًا. أما كيرت ويلسون (١٩٩٩) فيقرأ كتاب دي بوا "أرواح السود" بوصفه رد فعل بلاغيًا للحتمية الطبيعية السائدة في القرن التاسع عشر، وذلك في معرض محاولته تنظير المفاهيم الخطابية للهوية العرقية. وناقش ويلسون بشكل مفتوح فكرة ازدواجية الوعي عند دي بوا قائلا إنها في الحقيقة إرهاصة للنقد ما بعد البنيوي للفردية، إلا أنها لا تقودنا إلى إهمال الوكالة بشكل تام (ص٢٠٧).

دراسة ويلسون واحدة من الدراسات القليلة المنشورة في المجال، التي تشتبك مع فكرة ازدواجية الوعي بشكل فاعل فيما يخص استحقاقاتها البلاغية. قالت جينيفا سميذرمان (١٩٧٧) بشكل عابر إن ازدواج الوعي يتجلى في "ظاهرة الشد والدفع" في المجتمع الأمريكي الأسود، أي الدفع باتجاه الثقافة الأمريكية البيضاء وجذب الذات في الوقت نفسه بعيدًا عنها (ص١٠ - ١١). ويرجع أرون ديفيد جريسون (١٩٩٥) إلى فكرة ازدواج الوعي عند دي بوا في معرض مناقشته الهوية الأفرو- أمريكية وتكوينها. كما يقدم ستيفن براون (١٩٩٨) مناقشة مطولة لازدواجية الوعي في تحليله لنشوء المدينة الأمريكية الحديثة في بداية القرن العشرين. يرى براون أن ازدواجية الوعي "لا تصف حالة وجودية معينة فقط بل أيضا تقدم وسيلة لتخيل منظور معين للعالم وبنائه والتعبير عنه. ولذلك فهي تجسد نفسها على أنها حالة عقلية وممارسة لفعل القراءة" (ص٧٦). يستلهم برون فكرة دي بوا كما استلهمها ويلسون لكي يكشف الإمكانيات النظرية والنقدية للبلاغة المعاصرة التي ابتعدت عن مجالها التقليدي في دراسة الحديث والخطابة. ولكن سميذرمان وجريسون يقرآن ازدواجية الوعي في سياق الثقافة الأفرو- أمريكية عرقية التوجه، وهو توجه يجمع بين مشروعهما وبين اهتمامات الباحثين الأدبيين البلاغية [انظر، Criticism].

يقول جريسون مثلا إن اثنين من كبار الباحثين الأدبيين الأفارقة الأمريكيين، وهما هوستون بيكر وهنري لويس جيتس، "منغمسان في المراوحة والازدواجية الكامنة في الثنائية التي كتب عنها دي بوا عام ١٩٠٣ ورددها الكثيرون بعد ذلك" (ص١٨٧). على الرغم من أن هذا التحليل يدعم مشروع جريسون للتعافي العرقي فإنه لا يتعامل مع مدى اعتماد بيكر وجيتس وغيرهما من الباحثين الأدبيين الأفارقة الأمريكيين على أفكار دي بوا. وقد دعا الكثير من الباحثين الأدبيين أثناء تلك الفترة التي تكلم عنها ريد سلفاً باعتبارها الفترة "القومية البلاغية" - إلى "موت" ازدواجية الوعي وميلاد إحساس فريد بالذات عند السود. فتجد أن هويت فولر مثلا يقول إن بعض المنظرين الأدبيين الأفارقة الأمريكيين "شعروا أن الأدب الأسود الجديد يرمي إلى محو تأثير الصورة البيضاء من خلال تدمير ازدواجية الوعي عند السود - أي إشكالية أن يكون المرء أسودًا وأمريكيًا في الوقت نفسه" (١٩٧٢ ص٣٢٩). يوافق بيكر على الفكرة السابقة ويقول إن فكرة "الازدواجية" عند دي بوا "تنزوي بسرعة" بفعل ظهور الوعي القومي عند السود (١٩٧٢ ص١٧). وفي الفترة التي سماها ريد بفترة "الاحتفال بالعرق" استمر المنظرون الأدبيون الأفارقة الأمريكيون في استلهام فكرة ازدواجية الوعي وتأثيرها على الهوية الأفرو-أمريكية. شدد هنري لويس جيتس (١٩٨٧) على الدلالات المجازية لفكرة دي بوا باعتبارها "صورة بلاغية للازدواجية تشكلت في الخطاب الأسود في بداية الأمر" وأيضا على أنها أداة أدبية. وكذلك استلهم المنظر الأدبي ميكل أوكوارد ازدواجية الوعي بوصفها صورة بلاغية للتعبير عن الجمع بين الروح والمادة في الفكر الأفريقي الأمريكي، وأيضا على أنها إرهاصة للتوتر الخطابي بين الراوي والبطل في رواية "العين الزرقاء" لتوني موريسون. على الرغم من أن باربرا جونسون انتقدت الانحياز الذكوري عند دي بوا؛ فإنها تؤمن بأهمية فكرة ازدواجية الوعي كعلامة على التمايز العرقي (انظر ريد ص٢٢١). وقد

أثرت فكرة ازدواجية الوعي والازدواجية عموما على الكثير من المنظرين الثقافيين الأفارقة الأمريكيين في مجالات التاريخ والفلسفة والنظرية الثقافية بالإضافة إلى تأثيرها على المنظرين الأدبيين والنقاد.

يقترح المؤرخ الشعبي الأفرو- أمريكي لورانس ليفين (١٩٧٨) أن فكرة الازدواجية عند دي بوا ترفع من قلق الأفارقة الأمريكيين من الاندماج في الحقب التي تلت إعادة البناء ورفضهم له (ص١٥١). ويرى الفيلسوف كوريل وويست (١٩٨٢) دي بوا مؤسسًا لمشروع فلسفي أفريقي أمريكي متمايز، كما يوسع مفهوم ازدواجية الوعي لتصبح "ثلاثية" و"أزمة ثلاثية في إدراك الذات" تعكس مضمون هوية السود ووجودهم في المجتمع الأمريكي (ص ٣٠). يوسع المنظر الثقافي بول جيلروغ تحليل ويست ليقترح أن ازدواجية الوعي تعكس مبدأ أساسيًا في الفكر الأفريقي في الشتات. ويفسر فكرته تلك بقوله إن ازدواجية الوعي تفك الاشتباك بين "ديناميكية القهر العنصري والعدوانية الجوهرية للأفارقة في الشتات"، ويقول إن الفكرة "كان لها تأثيرها البعيد في تحليل الأفارقة الأمريكيين لعمل دي بوا" (ص ٣٠ وص١٣٦). أكد ريد على ملحوظة جيلروي عندما قال إن أفكار ازدواجية الوعي والثنائية، لم تكن مجازية بالنسبة لدي بوا، بل كانت تمثل محاولة لتفسير الظروف التاريخية الواقعية والآنية التي كانت تشكل حياة الأفارقة الأمريكيين في بداية القرن العشرين. ويبين استلهام هذه المحاولة من قِبَل العديد من الباحثين في عدد من المجالات أن فكرة دي بوا لا يجب أن تنحصر في إطار حالة نفسية أو صورة أدبية، أو أن تكون دلالة على التوتر العرقي، بل يجب أن ننظر إليها على أنها دليل على مسألة هرمنيوطيقية نقدية؛ أي على أنها ابتكار بلاغي ليس قادرًا على وصف أرواح السود اجتماعيًا ورمزيًا فقط، بل قادر على خلقها أيضا.

مصادر ومراجع

Baker, Houston A., Jr. *Long Black Song: Essays in Black American Literature and Culture*. Charlottesville, Va., 1972.

Browne, Stephen H. "Du Bois, Double - Consciousness, and the Modern City." In *Rhetoric and Community: Studies in Unity and Fragmentation*. Edited by J. Michael Hogan, pp.pp. 75–92. Columbia, S.C., 1998.

Bruce, Dickson D., Jr. "W. E. B. Du Bois and the Idea of Double Consciousness." *American Literature* 64, (1992). pp.pp. 299–309.

Du Bois, William Edward Burghardt. *The Souls of Black Folk*. New York, 1982. First published 1903.

Fuller, Hoyt. "The New Black Literature: Protest or Affirmation." In *The Black Aesthetic*. Edited by Addison Gayle, Jr., pp.pp. 326–348. New York, 1972.

Gates, Henry Louis, Jr. *Figures in Black: Words, Signs and the 'Racial' Self*. New York, 1987.

Gilroy, Paul. *The Black Atlantic: Modernity and Double Consciousness*. Cambridge, Mass., 1993.

Golden, James L., and Richard Rieke. *The Rhetoric of Black Americans*. Columbus, Ohio, 1971.

Gresson, Aaron David, III. *The Recovery of Race in America*. Minneapolis, 1995.

Harris, Thomas E., and Patrick C. Kennicott. "Booker T. Washington: A Study of Conciliatory Rhetoric." In *Language, Communication, and Rhetoric in Black America*, edited by Arthur L. Smith, pp.pp. 124–140. New York, 1972.

Levine, Lawrence, W. *Black Culture and Black Consciousness: Afro - American Folk Thought From Slavery to Freedom*. Oxford, 1978.

Reed, Adolph, Jr. "Du Bois's 'Double Consciousness': Race and Gender in Progressive - Era American thought." In *W. E. B. Du Bois and American Political Thought: Fabianism and the Color Line*, pp.pp. 91–125. New York, 1997.

Smith, Arthur. *Rhetoric of Black Revolution*. Boston, 1969.
Smitherman, Geneva. *Talkin and Testifyin: The Language of Black America*. Boston, 1977.
Terrill, Robert, and Michael Leff. "The Polemicist as Artist: W. E. B. Du Bois' 'Of Mr. Booker T. Washington and Others.' " In *Argumentation and Values: Proceedings of the Ninth SCA/AFA Conference on Argumentation*. Edited by Sally Jackson, pp.pp. 230–236. Annandale - on - Hudson, N.Y., 1995.
West, Cornel. *Philosophy Deliverance!: An Afro - American Revolutionary Christianity*. Philadelphia, 1982.
Wilson, Kirt H. "Toward a Discursive Theory of Racial Identity: *The Souls of Black Folk* as a Response to Nineteenth - Century Biological Determinism." *Western Journal of Communication* 63 (1999), pp.pp. 193 - 125.

تأليف: Mark Lawrence McPhail

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

القومية السوداء Black Nationalism

القومية السوداء مصطلح عام يجمع كل حركات العودة لأفريقيا وكل المجهود لاستقطاع جزء من مساحة الولايات المتحدة لتكون أرضًا سوداء مستقلة، ومحاولات بناء أحزاب سياسية كل أعضائها من السود وكل المحاولات الثقافية والفنية المختلفة لتبني الثقافة الأفرو- أمريكية والأفريقية كمصدر للفخر القومي العرقي والتضامن بين أبناء الجنس. إن تاريخ القومية السوداء تاريخ مستمر على الرغم من أنه مليء بالاختلافات حول الأهداف الاستراتيجية. ولكن تلك البلاغة في العموم مفعمة بالاعتقاد بأن الثقافة البيضاء المتسلطة في الولايات المتحدة فاسدة من أساسها، وبأن الاندماج في مثل هذه الثقافة خطر وقاتل للذات، حتى لو كان هذا الاندماج ممكنا. وعلى ذلك فإن بلاغة القومية السوداء موجهة للأفارقة الأمريكيين فقط دون غيرهم. ولا تطالب البيض بالتغيير، بل إنها تطالب السود بإعادة تقييم علاقتهم بالبيض وثقافتهم لأنها مؤمنة أن توجهات البيض نحو السود وثقافتهم لن تتغير. ولاقت بلاغة القومية السوداء رواجا خاصا عند القطاعات الأكثر فقرًا من المجتمعات الأفرو- أمريكية؛ أي تلك الجماعات الأكثر بعدا عن الثقافة السائدة في الولايات المتحدة.

تراوح الوضوح الثقافي لبلاغة القومية السوداء عبر الزمن بحسب درجة وضوح العنصرية المضادة للسود. ففي ١٨٢٩، على سبيل المثال نشر ديفيد ووكر صاحب محل صغير للملابس المستعملة في بوسطن مقاله "نداء إلى المواطنين الملونين في العالم"؛ لأنه كان ناقمًا على خطط الهجرة التي

قادها البيض في جمعية المستعمرات الأمريكية. تنبأت مقالته التي نشرت في شكل كتيب وبشكل تنبؤي استشرافي بنهاية سيطرة الثقافة البيضاء وحث العبيد المسلحين على الثورة، إلا أن المقال لم يتبن أي دعوة للعودة لأفريقيا؛ لأن ووكر كان يريد أن يحتل الأفارقة الأمريكيون مكانهم الطبيعي والمستحق في الولايات المتحدة.

لقد كانت تنازلات ١٨٥٠، وقانون كانزاس نيبراسكا ١٨٥٤، وقرار دراد سكوت ١٨٥٧، تطورات مطردة في قهر البيض، ومهدت لظهور تصاعد مطرد في نزعة الاستقلال عند السود. وكان مارتين ديلاني - الذي سماه البعض بالأب الحقيقي للقومية السوداء - في بداية نشاطه من دعاة الاندماج في المجتمع الأمريكي، ومحررًا مشاركا لجريدة فريدريك دوجلاس "النجم الشمالي". وفي عام ١٨٥٢ نشر ديلاني كتابه "حالة الشعب الملون في الولايات المتحدة وتطوره وهجرته ومصيره" على الرغم من أن هذا الكتاب كان يدعو للهجرة لشرقي أفريقيا فإن ديلاني كان دائما غير واثق من مثل هذا الاقتراح. واستعاد ديلاني كالكثير من زملائه من المثقفين الأفارقة الأمريكيين بعض الأمل في مستقبل أفضل لحياة السود في الولايات المتحدة في فترة إعادة الإعمار التي تبعت الحرب الأهلية.

دخلت القومية السوداء في مرحلة نهضة بنهاية مرحلة إعادة الإعمار والتصاعد في القمع العنصري الأبيض المتزامن مع نهاية تلك المرحلة. ولكن أكثر القوميين السود أهمية أثناء تلك الفترة كان القس هنري ماكنيل تيومر. وكانت رسالته التي نشرها بمثابرة وصبر في جنوب الولايات المتحدة تتضمن نزعة نحو القومية الثقافية من ناحية والعودة لأفريقيا من ناحية أخرى. وتصور برنامجا للهجرة يسيطر السود عليه سيطرة كاملة. ولكن تلك الخطة فشلت منذ بدايتها بسبب الجمهور التقليدي للبلاغة القومية؛ أي بسبب

الذين لا يستطيعون تدبير نفقات مثل تلك الرحلة الباهظة. كانت المسألة العملية عقبة متكررة في طريق تطور الفكر القومي عند السود حتى ظهور منظمة أمة الإسلام.

وفي بواكير القرن العشرين بدأت بعض سمات القومية تظهر في بلاغة بوكر واشنطن وناقده الأشهر دي بوا. وأعلن واشنطن في خطاب معرض أتلنتيا عام ١٨٩٥، أن العرقيات قد تبقى منفصلة اجتماعيًا ولكنها يجب أن ترتبط اقتصاديا. فسر بعض الناس هذا الفكر على أنه تنازل في مجال الحقوق المدنية، بينما فسره آخرون على أنه انفصالية اقتصادية من قبل السود؛ بهدف الإطاحة بالمؤسسات الجنوبية على المدى البعيد. قرأ ديبوا في كلمات واشنطن تخليًا عن القضية منتقدًا إياه على أنه يمثل توجهًا قديمًا نحو المماثلة والتطويع. أما بالنسبة لدي بوا نفسه فقد ألقى خطابا عام ١٨٩٧ بعنوان "الحفاظ على الأعراق"، وقد كان الخطاب تفسيرًا علميًا ودفاعا عن قومية السود الثقافية. وانشغل كل من واشنطن ودي بوا في مبارزة بلاغية علنية لم تنته حتى وفاة واشنطن عام ١٩١٥، إلا أن الاثنين كانا يرغبان في تثقيف السود ولم يرغبا في غرس حمى القومية الانفصالية بين جماهير السود.

ساهمت زيادة الاحترام والحرية والفرص في المدن الشمالية منذ بداية القرن العشرين وحتى عشرينيات نفس القرن في إعادة توجيه نزعات هجرة السود لتحدث "الهجرة العظيمة" للسود من الجنوب، ولتصبح المدن الشمالية مركز الفكر القومي عند السود في الولايات المتحدة. وفي عام ١٩١٦ سافر جريفي من بلده الأصلي بجاميكا إلى نيويورك حيث بدأ باستغلال النزعات القومية لدى الأفارقة الأمريكيين حديثي العهد بالمدن، وأُعجب جريفي ببوكر واشنطن وقلده وسافر من جاميكا للولايات المتحدة خصيصا لمقابلته، إلا أن

بلاغته لم تكن مثل بلاغة واشنطن؛ لأنها احتوت الأمرين معا، أولهما أن ثقافة البيض السائدة في الولايات المتحدة كانت فاسدة حتى النخاع ولا يمكن إصلاحها، وثانيهما فكرة رومانسية جدا عن الثقافة الأفريقية. تشبه بلاغة جريفي بلاغة تيرنر أيَّما شبه بسبب الهجرة العظيمة، ولذلك كان جمهور جريفي ومعجبوه مثل جمهور تيرنر ومعجبيه. لقد كان جريفي دون شك خطيبا مفوها قاد مظاهرات وفعاليات كثيرة ومبهرة في هارلم، وأسس ما يزيد على سبعمائة فرع لمؤسسة تطوير السود العالمية، ورفع توزيع مجلة "عالم السود" حتى أصبحت أكبر جريدة أفريقية أمريكي . ولكن جريفي (كما كان الحال مع تيرنر أيضا) بالغ في تقدير الموارد المالية والقوة السياسية لجمهوره. فقد شن بعض الأفارقة الأمريكيين من ذوي العلاقات والصلات القوية حملة كبيرة ضد جريفي تنادي برحيله، وهي الحملة التي كانت مسؤولة ولو جزئيًا عن ترحيل جريفي عن البلاد عام ١٩٢٧ على خلفية إدانته في قضية احتيال مرتبطة بمحاولته تمويل خط ملاحة سفن بخارية تحت اسم "النجم الأسود".

ستتجنب منظمة أمة الإسلام (Nation of Islam) مشاكل تيرنر وجريفي عن طريق تصوير نفسها كمنظمة قومية ترفض أن تشترك في أي مخططات هجرة. وقدمت بدلا من تلك الأفكار نزعة روحانية استشرافية تدعو للانفصال الثقافي والحضاري عن المفاهيم المؤسسة لثقافة البيض المسيحية. قامت منظمة أمة الإسلام على أنقاض حركة جريفي وباقي المؤسسات القومية التي ظهرت في وقت ما، وانتشرت في أوساط الأفارقة الأمريكيين المقيمين في ديترويت في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. وكان تقديم شكل ما من أشكال الإسلام على أنه عنصر مهم من عناصر قومية السود من خلال إحدى تلك المجموعات؛ وهي مجموعة "المعهد العلمي الموري" لنوبل

درو علي. بل إن بعض المصادر تدعي أن السيد فارود والمعروف بو السفارود أو فارود محمد كان قائد إحدى تلك الجماعات المتشرذمة التي ظهرت بعد وفاة علي عام ١٩٢٩.

علَّم فارود أتباعه الذين كانوا يتكاثرون بسرعة شديدة خليطا من الإسلام والمسيحية وعناصر من أفكار جريفي القومية وبعض أفكار الماسونيين الأحرار، وبعض النبوءات التي أوحت بنقاء العنصر الأسود وأوحت بأن البيض نتاج خطر لتجربة جينية، كما أوحت بأن الله هو المخلص من العنصرية الذي سيدمر الجنس الأبيض في يوم من الأيام. كان أيجا بول من ساندرفيل بجورجيا أحد الأتباع المتحمسين بشكل خاص وهم كثر، وكان قد وصل لتوه من الجنوب. منح فارود بول اسم كريم، ثم منحه اسم محمد، وانطلق الرجلان معا ليبنيا منظمة أمة الإسلام. وبعد أن اختفى فارود في ظروف غامضة عام ١٩٣٤؛ تحكم محمد في معظم مقدرات منظمة أمة الإسلام، ونقل مقرها الرئيسي من ديترويت إلى شيكاغو.

وعلى الرغم من أن محمد تزعَّم منظمة أمة الإسلام حتى وفاته عام ١٩٧٥، فإن مالكوم إكس كان المسؤول الرئيسي عن بناء منظمة أمة الإسلام، والانتقال بها من جماعة صغيرة ومغمورة إلى منظمة معترف بها على المستوى الوطني. كما كان مسؤولا عن توصيل قومية السود إلى وعي البيض. أصبح مالكوم عضوا في منظمة أمة الإسلام عندما كان في السجن ورقاه محمد لمرتبة قيادية عالية جدا بعد أن خرج من السجن بفترة وجيزة عام ١٩٥٢. لقد كانت بلاغة مالكوم تحت سيطرة محمد بشكل كامل، كما كان الحال بالنسبة لجميع الدعاة المسلمين من السود. وتكونت خطب مالكوم التي ألقاها أمام مصليه والراغبين في التحول أساسا من تكرار تعاليم فارود التي نقلها له محمد. وكان هذا النوع من النبوءات القومية السوداء على نهج

ديفيد ووكر مناسبا جدا لمستمعي مالكوم من السود أبناء الطبقات الفقيرة المنخفضة حضريًا.

وعندما لاقت مجهودات محمد في توسيع منظمة أمة الإسلام نجاحا كبيرًا بدأ يتكلم متوجها بالحديث لأنواع أخرى من الناس أكثر وأكثر، وظهرت تعليقاته في الصحف وكان ضيفا في المقابلات والبرامج الإذاعية، وغطت محطات التليفزيون المحلية والقومية أنشطته، بل وصل به الأمر في مرحلة من المراحل لأن يصبح في المرتبة الثانية بعد السيناتور باريجولدواتر كخطيب مطلوب في الجامعات الأمريكية. ومع أن مالكوم كان يتدرب في بعض الأحيان على تقديم بعض رؤى منظمة أمة الإسلام التنبؤية والاستشرافية لهذا الجمهور المكون في غالبيته من أبناء الطبقة المتوسطة من البيض؛ فإنه كان يُضمِّن تلك الخطب نقدا اجتماعيًا وسياسيًا حادا. ولكن مالكوم ترك منظمة أمة الإسلام في مارس عام ١٩٦٤ بعد أن سئم من سياسة منظمة أمة الإسلام في عدم المشاركة (فقد كان أبناء الجماعة ممنوعين حتى من الإدلاء بأصواتهم في الانتخابات) وبعد أن صُدم من اكتشافه خيانة محمد الزوجية وبعد الضغط المتزايد من داخل منظمة أمة الإسلام بسبب إضاعة وقت كثير في الحديث للبيض. معظم اهتمام النقاد ببلاغة مالكوم كان منصبًا على أعماله بعد أن ترك منظمة أمة الإسلام. ويرجع السبب في ذلك جزئيًا إلى أهمية تلك البلاغة في استمرارية نشوء قومية السود وتطورها.

أُلقيت إحدى أشهر خطب مالكوم وأوسطها في تلك الفترة "التصويت أو الرصاص" عدة مرات في الفترة ما بين انفصاله عن أمة الإسلام وحجه لمكة المكرمة في أبريل عام ١٩٦٤. انفصلت هذه الخطبة كلية عن أنماط خطاب منظمة أمة الإسلام التي تسلم كل القوة لله، وقدم للمستمعين نقدا للفساد العرقي المعاصر ونموذجا لكيفية التعاطي معه. وغطى الخطاب أيضا المشهد

الداخلي والخارجي على حد السواء، حيث يصف المشهدين بأنهما أسيران لسيطرة البيض. لقد قدم مالكوم دائما لمستمعيه نماذج لكيفية التعامل مع هذا القهر، بطرق ليست مقبولة بالمرة في ثقافة البيض المهيمنة. ثم خط برنامجا "لقومية السود" يستتبع تفكيرًا متمهلا وعميقًا وحصيفًا بشأن اختيار أنجع رد فعل من بين كل ردود الأفعال المتاحة. ولذلك تعتبر تلك الخطبة أهم إسهام من إسهامات مالكوم إكس في تاريخ قومية السود، فلا يطالب بأرض منفصلة كما فعل الأب تيرنر، كما أنه لا يقدم نسقًا من الاعتقادات يختلف كلية مع أنساق معتقدات الثقافة المهيمنة. ولكنه يدعم مستمعيه - كما فعل محمد من قبله - في سعيهم لنقد ثقافة البيض المهيمنة والاشتباك معها بطريقة لن يتمكنوا من الوصول إليها إلا بعد أن يفصلوا فهمهم لكيانهم وهويتهم عن معوقات تلك الثقافة المهيمنة.

اغتيل مالكوم إكس في ٢١ فبراير عام ١٩٦٥، ولم يظهر منذ اغتياله أي قائد قومي أسود ليحتل مكانه وينافسه عليه. فالكثير من الناس ينظرون مثلا إلى "القوة السوداء Black Power" على أنها خليفة مباشرة لبلاغة مالكوم إكس، كما أن هناك تشابهات تضع كلا من مالكوم إكس والقوة السوداء في قلب تراث القومية السوداء كرفض معايير البيض وإحياء الثقافة الأفريقية والأفرو- أمريكية لتكون مصدرًا للفخر العرقي. وبعد استخدام ستوكليكارميكل لعبارة "القوة السوداء" في صيف عام ١٩٦٦ وإسهابه في الكتاب الذي نشره عام ١٩٦٧ بالاشتراك مع تشارلز هاميلتون، أصبحت "القوة السوداء" تصف في تلك الحالة شيئًا مختلفا تمامًا عمًا كان مالكوم إكس يدعو له. تشتمل فكرة كارميكل وهاميلتون على تعريف الجيتوهات التي يعيش فيها السود على أنها مستعمرات، ويحثان قراءهما على أن يطوروا مؤسسات اقتصادية واجتماعية انفصالية تنطلق من هذا التعريف. ولذلك فكثيرًا ما يبدو أن "القوة السوداء" تنتمي لتراث بوكر واشنطن أكثر مما تنتمي لتراث مالكوم إكس. فهي ليست

دعوة للوصول إلى تقييم مستقل لأمريكا البيض ولكنها برنامج للإصلاح الاجتماعي.

نصَّب محمد لويس فارخان خليفة لمالكوم إكس في منظمة أمة الإسلام، ولكن والس بن محمد – الذي كان صديقا مقربًا من مالكوم إكس – تمكن من السيطرة على منظمة أمة الإسلام بعد وفاة والده عام ١٩٧٥، حيث غير اسم الجماعة وحولها للإسلام المتعصب. احتج لويس فرخان على تلك الإصلاحات، وترك منظمة والس ليعيد بناء منظمة أمة الإسلام، ويستعيد تعاليم محمد. تمسك فرخان بتراث قومية السود، واستراح له أكثر من مالكوم إكس، واستمر في الحديث لجمهور من السود في معظمه، كما استمر في تقديم أنماط من الخطاب التعبوي الذي يحض على الفخر العرقي والحماسة. يبين دعمه للأب جيسي جاكسون في الانتخابات الرئاسية الأمريكية عام ١٩٨٤، والمسيرة المليونية لواشنطن عام ١٩٩٥، أن فرخان ومفاهيم قومية السود التي يمثلها لا تزال قوية في الولايات المتحدة ولها أتباعها. وعلى الرغم من أن مؤسسة والس محمد التي أصبح اسمها "المجتمع المسلم الأمريكي" بعد أن كان "البعثة الأمريكية المسلمة" أكبر من مؤسسة فرخان؛ فإن فرخان هو الذي يرمز للقومية السوداء اليوم أروع رمز.

مصادر ومراجع

Clegg, Claude Andrew III. *An Original Man: The Life and Times of Elijah Muhammad*. New York, 1997.

هي سيرة كبيرة لإلجا محمد تحتوي على ملخص واف لأفكار منظمة أمة الإسلام المبكرة.

Cronon, E. David. *Black Moses: The Story of Marcus Garvey and the Universal Negro Improvement Association*. Madison, Wis., 1969.

تلخيص عقلاني بسيط وتحليل لماركوس جريفي.

Garvey, Marcus. *The Philosophy and Opinions of Marcus Garvey, or Africa for the Africans*. Compiled by Amy Jacques Garvey. 2d ed. 2 vols. in one. Totowa, N.J., 1967.

هي أكبر مجموعة من مقولات جريفي وخطبه.

Hall, Raymond L. *Black Separatism in the United States*. Hanover, N.H., 1978.

على الرغم من أنه لم يعد يُطبع فإنه متاح في مكتبات الجامعات بشكل كبير، وهو مفيد في عرض أفكار القومية السوداء بشكل موسع.

Lewis, David L. *W. E. B. Du Bois: Biography of a Race, 1868–1919*. New York, 1993.

هي أفضل سيرة لدى بوا وتحتوي على سجل بمجادلاته العامة وسجاله مع بوكر واشنطن.

Lincoln, E. Eric. *The Black Muslims in America*. 3d ed. Grand Rapids, Mich., 1994.

نُشر لأول مرة عام ١٩٦١، وكان أول عمل كبير يدرس منظمة أمة الإسلام، وقد صاغ فيه لينكولن مصطلح "المسلمين السود"، ويحتوي على تاريخ مبسط للفكر القومي عند المسلمين السود في الولايات المتحدة.

Malcolm X. *Malcolm X Speaks*, edited by George Breitman. New York, 1989.

نشر في البداية في عام ١٩٦٥، وهي أوسع مجموعة لخطب مالكوم إكس ومقولاته انتشارًا في سنواته الأخيرة. كما تحتوي على خطبة "التصويت أو الرصاص".

Malcolm X, and Alex Haley. *The Autobiography of Malcolm X*. New York, 1965.

Moses, Wilson Jeremiah. *The Golden Age of Black Nationalism, 1850–1925*. Hamden, Conn., 1978.

نفدت طبعته، ولكنه متاح في مكتبات الجامعات، وهو دراسة تاريخية متميزة عن قومية الزنوج.

Moses, Wilson Jeremiah. *Classical Black Nationalism: From the American Revolution to Marcus Garvey*. New York, 1996.

يجمع نصوصًا من الخطب الكبيرة والوثائق المشفوعة بمعلومات أساسية في شكل أنطولوجيا.

Redkey, Edwin S. *Black Exodus: Black Nationalist and Back - to - Africa Movements, 1890–1910.*

نفدت طبعته، ولكنه متاح في مكتبات الجامعات، وهو مصدر ممتاز للقومية السوداء أثناء فترة ما بعد الإعمار.

Ture, Kwame (Stokely Carmichael), and Charles V. Hamilton. *Black Power: The Politics of Liberation*. New York, 1967.

Turner, Henry McNeal. *Respect Black: The Writings and Speeches of Henry McNeal Turner*, edited by Edwin S. Redkey. New York, 1971.

نفدت طبعته، ولكنه متاح في مكتبات الجامعات، وهو المجموعة الكاملة الوحيدة لبلاغة تيرنر.

Van Deburg, William L., ed. *Modern Black Nationalism: From Marcus Garvey to Louis Farrakhan*. New York, 1997.

يحتوي على مقتطفات من الخطب المهمة، والوثائق مصحوبة بمعلومات أساسية في شكل أنطولوجيا.

Walker, David. *Appeal, in Four Articles; together with a Preamble, to the Coloured Citizens of the World, but in Particular, and Very Expressly, to Those of the United States of America*. Rev. ed. New York, 1995.

تأليف: Robert E. Terrill

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الأمثولة (القصة الرمزية أو الكنائية) Allegory

هي صورة بلاغية تبنى بواسطة عملية إحلال دلالي. ويمكن فهمها على أنها تغاير لفظي أو تغاير نصي. تختلف الأمثولة عن الاستعارة في أن الإبدال لا يتم في لفظة واحدة بل يتم في عدد من الألفاظ. على الرغم من أن تعريف كينتليان الشهير للقصة المجازية على أنها استعارة مستمرة continua metaphora (القرن الأول، كتاب Institutio oratoria)، فإنه يعترف ضمنيًا بالطبيعة النصية لهذه الصورة البلاغية. ويعبر عنها توماس ويلسون في كتاب "فن البلاغة" (١٥٥٣) بشكل أوضح عندما يعرفها على أنها "استعارة ممتدة عبر جملة كاملة أو كلام تام" (ورقة ٩٣).

على الرغم من التراث الموغل في القدم الذي تتمتع به الأمثولة بوصفها وسيلة تعبيرية، فإن أصولها كصنف بلاغي ترجع إلى العصر الروماني القديم. يذكر شيشرون في De oratore "في الخطابة" (عام ٥٥ قبل الميلاد) نوعًا خاصًا من الترجمة يتكون من "سلسلة من الكلمات المرتبطة بعضها ببعض بشكل يمكِّن من فهم معنى مغاير لما يقال لفظًا"، لكنه لا يطلق على هذا الشكل تسمية الأمثولة. ولكننا يمكن أن نجد هذا الاستخدام الاصطلاحي للكلمة عند كينتليان: "الأمثولة التي نترجمها إلى اللاتينية كـ inversio إما أن تقول ألفاظها شيئًا وتعني شيئًا آخر، أو تقول ألفاظها شيئًا وتعني نقيضه تمامًا" (ص٤٤). يتصور كينتليان أن النوع الأول كثيرًا ما يستخدم لضرب المثل، بينما يستخدم النوع الثاني للتهكم لأنه يحتوي على سخرية (ص ٥٤ – ٥٩).

هناك تمييز مستقر بين الأمثولة النقية وتلك المختلطة. وفي حين أن كل العناصر في الأمثولة النقية تفهم بمعناها المجازي، فإن بعض تلك السمات الأساسية في النص تحتفظ بمعناها الأصلي في الأمثولة المختلطة. قدم كينتليان المثال التالي للقصة المجازية المختلطة، وهو: "كنت دائما أظن أن ميلو Milo سيثير عواصف ورياحًا أخرى، في بحار الاجتماعات السياسية المضطربة على الأقل" (ص ٤٨). تمثل هنا الإشارة اللفظية الحرفية للسياسة استخداما لفظيًا بمعناه يساعد المخاطب في لملمة مقاصد المعنى. إن الأمثولة المختلطة عموما تفي بغرض الوضوح إلا أنها تخاطر بأن تكون مملة. أما بالنسبة للقصة المجازية النقية فهي أجمل وإن كانت تخاطر بالوقوع في أسر الغموض أحيانا. فإن لم يستطع المتلقي أن يفهم إشاراتها فإنها تصبح لغزا، ولذلك صاغ كينتليان القاعدة التالية: "إن كانت الأمثولة غامضة جدا فهي أحجية ولغز، ومثل تلك الأحاجي في رأيي هي مثالب لأن الوضوح فضيلة" (ص ٥٢).

الأمثولة وفك شفرة الأمثولة Allegory and allegoresis

يعبر مصطلح allegory عن عملية تركيب شفرة المعنى في الأمثولة، أما مصطلح allegoresis فيشير إلى عملية فك شفرة هذا المعنى. ظل تفسير الأمثولة ممارسة عتيدة في الخطاب الديني منذ بواكير الحضارة الإنسانية. يمكن أن نجد أمثلة عديدة على فك شفرة الأمثولة في الكتاب المقدس، انظر مثلا تفسير يوسف لحلم الفرعون في العهد القديم (سفر التكوين ١، ٤٠ – ٤١)، وانظر أيضا تفسير القديس بولس لشخوص العهد القديم وأحداثه كأنماط تمهد للإنجيل. على الرغم من أن الأمثولة وفك رموزها في الحالة المثالية يتكاملان في تشكيل خلفية ثقافية مشتركة فإن المعنى المقصود من أي نص وإمكانية إسقاط معاني القصة الرمزية عليه بعد ذلك، لا يتماهيان بالضرورة (لاوسبرج ١٩٩٨ القسم ٩٠٠). وعلى ذلك فإن الاستخدامات المجازية لنصوص التراث مثل الأساطير القديمة وملاحم هوميروس والكتاب المقدس

متباينة بل متناقضة في الكثير من الأحيان. كانت مشكلة كفاءة تفسير القصة الرمزية في العصور السابقة بالنسبة للنقاد الأدبيين مصدر قلق واسع. فعلى سبيل المثال، كانت رواية هيرمان ملفيل "موبي ديك" (١٨٥١) مفتوحة لقراءات مجازية مختلفة ومعرَّضة لها بما في ذلك؛ القراءة الدينية والنفسية والسياسية. وإذا نظرنا للمسألة في ضوء القراءة المجازية السياسية لوجدنا مثلا أن جموح أهاب المدمر يمثل توازيًا مع التوسع الجغرافي المحموم للولايات المتحدة في القرن التاسع عشر. وإذا وضعنا في اعتبارنا أن التفسيرات الأدبية عادة ما تشمل ترجمة معنى لمعنى آخر؛ فإن تساؤل الناقد الأدبي الأمريكي نورثروب فراي (١٩١٢ - ١٩٩١) عمَّا إذا كانت كل تفاسير النصوص يمكن اعتبارها تفاسير مجازية بشكل من الأشكال، هو تساؤل في محله (انظر كتاب تشريح النقد Anatomy of Criticism عام ١٩٥٧ ص٨٩ - ٩١).

أدخل القديس أوجستين (٣٥٤ - ٤٣٠) فك شفرة الأمثولة للعالم المسيحي المبكر بإشارته لآيتين من الكورينثيين ٣,٦ "الرسالة تقتل ولكن الروح تعطي الحياة". وأصبح فك شفرة الأمثولة في القرون التالية نظامًا تقعيديًا في التفسير بشكل كبير (فريتاج ١٩٩٢ ص٣٤٢). وفي العصور الوسطى أسهم السعي لإيجاد تفسير مجازي للإنجيل في قيام نظام المعاني الأربعة الذي اشتمل على (١) المستوى الحرفي أو التاريخي، و(٢) المعنى المجازي الأليجوري، و(٣) المعنى الأخلاقي، و(٤) المعنى السامي. شرح نيكولاس الليري المتوفى عام ١٣٤٩، هذه المعاني في بيتين منسوبين إليه؛ إذ يقول:

يعلمنا الحرف الفعل،

وتعلمنا الأمثولة ما يجب أن نؤمن به،

وتعلمنا الأخلاق ما يجب أن نفعله،

ويعلمنا المعنى العلوي ما هو مآلنا" (رولينسون ١٩٨١ ص٧٨).

فمدينة أورشليم مثلا تمثل المدينة التاريخية، وهذا هو المعنى الحرفي، وتمثل كنيسة المسيح، وهذا هو المعنى المجازي، وتمثل الروح الإنسانية، وهذا هو المستوى الأخلاقي، وتمثل المدينة السماوية، وهذا هو المستوى السامي.

الأمثولة في عصر النهضة

في مرحلة عصر النهضة - التي وُصفت بمرحلة مركزية الأمثولة (فليتشر ١٩٧٣ ص٤٣) - كانت الأمثولة نسقًا ثقافيًا شاملا (انظر بليت ١٩٧٩ ص٣١٠). وأصبحت الأمثولة موضة بعد إحياء الأفلاطونية الجديدة في مدرسة فلورنسا، وارتبطت بعدد من النظريات والمجالات العلمية التي تقوم على الافتراض العلمي الذي يقضي بأن الكون مليء "بالتشبيهات السرية". ويمكننا أن نشير في هذا السياق إلى فكرة أن الطبيعة تمثل نصًا مجازيًا كتبه الله، ويجب أيضا أن نشير إلى نظرية التوازي بين العالم الواسع والعالم الضيق، وإلى التراث الألكيمي القديم بتمثيلاته للعناصر الطبيعية والأجرام السماوية، وإلى فكرة سحر الطبيعة التي تبناها هنري كورنيليوس أجريبا (١٤٨٦ - ١٥٣٥) وإلى الطب البيراقليسي. وبعد اكتشاف مخطوطة يونانية باسم "الهيروغليفية" لهورابولو عام ١٤١٩ أصبح مصطلح الأليجوري والهيروغليفي مستخدمين لنفس المعنى (انظر ديكمان ١٩٧٠). فقد يعني استخدام كلمة "هيروغليفية" الطبيعة المجازية لنص ما، أو تمثيلا تصويريًا ما، أو رمزا فرديًا مثل Monas Hieroglyphica (1564) لجون دي (١٥٢٧ - ١٦٠٨ الذي عزا له مؤلفه سمات سحرية. تعتبر نظرية فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) في الأمثولة فاصلا كبيرًا بين عصر النهضة وعصر العقل. صنف بيكون "الشعر المجازي" بوصفه واحدًا من ثلاثة أنواع شعرية أساسية في كتابيه "تطوير العلم" (١٦٠٥) وأيضا في De Augmentis

Scientiarum (1623 وعزا لها وظيفتين متناقضتين؛ وهما التمثيل والتضمين (انظر الأعمال الكاملة ٤، ص ٣١٧). على الرغم من أن بيكون كرر فكرة عصر النهضة حول أن الأساطير القديمة كانت مليئة بمعرفة فلسفية سرية في كتابه De Sapientia Veterum (1609) فإنه تعامل مع تلك الفكرة كوسيلة تعليمية أولا وقبل كل شيء. ويقف بيكون في موقع مغاير لهنري رينولدز الذي كان ينظر للأساطير القديمة باعتبارها نصوصا مقدسة في كتابه Mythomystes (1632)، وانتقد رينولدز بيكون لتوجهه البراجماتي.

الممارسات المجازية

من بين النصوص التي كان لها تأثير واسع على أدبيات الأمثولة اللاحقة، هناك على الأقل قصيدة برودينتيوس الفلسفية المسماة (405 – 340) Psychomoachia. ومن بين أفضل أمثلتها في أدب العصور الوسطى كان Roman de la Rosa (1230 – 1275) وPiers Plowman (1332 – 1400) لويليام لانجلاند والكوميديا الإلهية لدانتي الأليجيري (١٣٠٧ – ١٣٢١). ومن بين الأنواع الأدبية الأخرى التي كان لها أصولها في العصور الوسطى كان للمسرحيات الأخلاقية تأثير كبير في تطور الدراما الإنجليزية. أشهر الأمثلة هو العمل المنشور تحت اسم Everyman (حوالي ١٥٠٩ – ١٥١٩)، وبدون اسم لمؤلفه. وهو عمل يحتوي على شخصيات تجسد مبادئ معنوية غير ملموسة كالفضيلة والشر، يتصارع في هذا العمل الشر مع الفضيلة للاستحواذ على الروح الإنسانية. ويبين العمل بهذه الطريقة الإغواءات التي يتعرض لها البشر وإمكانية خلاصهم من الخطيئة. ومن بين أفضل أمثلة عصر النهضة في مجال الأعمال الأدبية الرمزية، قصيدة إدموند سبنسر الملحمية (1596 - 1590) The Feerie Queene التي كتبها مؤلفها تكريما للملكة إليزابيث الأولى. وصف سبنسر في رسالة مقدمة الكتاب الوظائف الرمزية لقصيدته، وتكلم عنها باعتبارها "قصة رمزية مستمرة". الدور الأساسي

الذي لعبته الأمثولة في عصر النهضة واضح أتم الوضوح في تزايد شعبية أنواع أدبية وأشكال فنية ميّزتها الأساسية أنها ذات طبيعة رمزية. تعد كتب الرموز التي تجمع ما بين التمثيل التصويري والنصي (Emblematum Liber عام ١٥٣١ لأندرياس ألكياتوس وكتاب فرانسيس كوارلز Emblems عام ١٥٣٥) والمنحوتات واللوحات النحاسية العديدة كتلك التي أنتجها روبرت فلود، وأخيرًا عروض ماسك البلاط التي كانت تجمع بين النص والموسيقى والرقص كتلك العروض التي ألفها بين جونسون؛ تعد هذه كلها من أوسع تلك الفنون انتشارا.

على الرغم من أن الأمثولة أصبحت هدفا للحركة المناهضة للبلاغة في القرن السابع عشر، والتي شكلت النزعة العقلانية التجريبية دوافعها الفلسفية، ودعمتها الحركة البيوريتانية روحيًا فإنك كنت تستطيع أن تلمس جاذبيتها المستمرة للعديد من الأعمال الرمزية المهمة. من بين الأعمال الأدبية التي كانت القصة الرمزية حاضرة فيها بقوة نص جون بانيان النثري The Pilgrim's Progress (1678) الذي يصف طريق المسيحي نحو الخلاص بطريقة رمزية. وثمة مثال أدبي آخر هو قصة جون دريدن الرمزية السياسية Absalom and Architophel (1681). أما فيما يتعلق بالفلسفة فيمكننا أن نشير إلى مقدمة كتاب Leviathan (1651) لتوماس هوبز التي ترصد مع الفصل الأول من الكتاب فكرة الكاتب حول الكومنولث بطريقة رمزية. وظلت الأمثولة في القرن الثامن عشر مهمة جدا بوصفها أداة للسخرية والنقد السياسي، ومن بين أشهر الأمثلة على مثل تلك الأعمال رواية جوناثان سويفت رحلات جليفر Gulliver's Travels (1726).

توازى إهمال يوهان فولفجانج فون جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) الأمثولة لصالح الرمز المفرد في كتابه Maximen und Reflexionen (1809 – 1829) مع الانحسار العام في النظرية البلاغية الذي شهدته أواخر القرن الثامن عشر

وأوائل التاسع عشر. وتبع الشاعر الرومانسي الإنجليزي صامويل تايلور كولريدج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) جوته في كتابه The Statesman's Manual (1816) عندما قابل بين الأمثولة والرمز الفرد معتبرًا الرمز أداة شعرية أفضل من القصة الرمزية. نظر الناس في ذلك الوقت إلى الرمز باعتباره "يدمج الأزلي المطلق في الوقتي". ونظر الناس للقصة المجازية باعتبارها تمثل "ترجمة للأفكار المعنوية للغة تصويرية" (انظر الأعمال الكاملة، المجلد السادس، ص ٣٠). ولكن الأمثولة على الرغم من تلك الادعاءات ظلت تحتل مكانا رفيعا في كل من النظرية الأدبية وفي الأدب كممارسة. من بين أفضل الأمثلة على الأمثولة في الممارسة الأدبية قصة جورج أورويل "مزرعة الحيوانات" (١٩٤٥) وكتاب توماس بينشون قوس قزح الجاذبية Gravity's Rainbow (1973).

مصادر ومراجع

Bacon, Francis. *The Works of Francis Bacon*. Edited by James Spedding, Robert L. Ellis, and Douglas D. Heath. 14 vols. (1858–74). Reprint, Stuttgart, 1961–1963.

Coleridge, Samuel Taylor. *The Collected Works of Samuel Taylor Coleridge*, edited by R.J. White (1816). Reprint, London, 1972.

Dieckmann, Lieselotte. *Hieroglyphics: The History of a Literary Symbol*. Saint Louis, 1970.

Fletcher, Angus. *Allegory: The Theory of a Symbolic Mode*. 3d ed. New York, 1967.

Fletcher, Angus. "Allegory in Literary History." In *Dictionary of the History of Ideas*, edited by Philip P. Wiener, vol. 1, pp.pp. 41–48. London, 1973.

Freytag, Wiebke. "Allegorie, Allegorese." In *Historisches Wörterbuch der Rhetorik*, edited by Gert Ueding، vol. 1, pp.pp. 330–392. Tübingen, 1992.

Haug, Walter, ed. *Formen und Funktionen der Allegorie: Symposion Wolfenbüttel 1978*. Stuttgart, 1979.

Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study*. Translated by Matthew C. Bliss, Annemiek Jansen, David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson.

Leiden, 1998. English translation of *Handbuch der literarischen Rhetorik*, first published in 1960.

Lewis, C. S. *The Allegory of Love*. Oxford, 1936.

MacQueen, John. *Allegory*. London, 1970.

Madsen, Deborah L. *Rereading Allegory: A Narrative Approach to Genre*. New York, 1994.

Murrin, Michael. *The Veil of Allegory: Some Notes Toward a Theory of Allegorical Rhetoric in the English Renaissance*. Chicago, 1969.

Plett, Heinrich F. "Konzepte des Allegorischen in der englischen Renaissance. In *Formen und Funktionen der Allegorie - Symposion Wolfenbüttel*, edited by W. Haug, pp.pp. 310–335. Stuttgart, 1979.

Rollinson, Philip. *Classical Theories of Allegory and Christian Culture*. London, 1981.

Whitman, Jon. *Allegory: The Dynamics of an Ancient and Medieval Technique*. Oxford, 1987.

تأليف: Richard Nate

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

Allitration الجناس

هي ظاهرة صوتية يتكرر فيها صائت واحد في بداية كلمات متتابعة، مما ينتج تسلسلا لكلمات متتابعة يشبه بعضها بعضا صوتيا. انظر المثل التالي لتكرار صوت G في بداية الكلمات:

Upon a great adventure was he bond

That greatest gloriana to him gave

That greatest Glorious Queene of Feerie land

To winne him worship, and her grace to have

(Edmund Spenser, The Feerie Queene, 1590)

كان مربوطا بمغامرة عظيمة

أعطتها له جلوريانا العظيمة

أعظم وأروع ملكة لبلاد العجائب

لكي يتعبد فيها ويحصل على لطفها

(إدموند سبنسر من ملكة العجائب، عام ١٥٩٠)

وتُستخدم تلك الوسيلة أيضا لتضفي على النص لمسة قِدَم ما. الجناس أداة أسلوبية كانت منتشرة في الشعر الجرماني القديم وتقليداته. كما تستخدم تلك الوسيلة لتوفر تركيزا معينا على الشعارات، وتسهل تذكرها كما هو الحال في شعار السيناتور الأمريكي ويليام آلان الذي أطلقه عام ١٨٤٤: Fifty - four Forty, or Fight[١]. (انظر: Figures of speech; Gorgianic figures).

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

(١) شعار استخدمه الرئيس الأمريكي جيمس بولك في انتخابات ١٨٤٤، في ظل الصراع بين بريطانيا وأمريكا على منطقة أوريجون. ويشير الرقم ٥٤-٤٠ إلى خطوط الطول والعرض، التي يرى الأمريكيون أن نفوذهم لابد أن يشملها. (المراجع).

الغموض Ambiguity

يتضمن الاستخدام اليومي لمصطلح الغموض التركيز على فقدان اليقين. ووفقًا لقاموس أوكسفورد للغة الإنجليزية، فإن ما هو "**غامض**" «يتحرك في اتجاهين» في آن واحد، في حين أن "**الغموض**" هو حالة الإقرار بعدة تفسيرات أو تعليلات مقبولة ظاهريًّا في آن واحد، أى أنه يسمح بوجود معان مزدوجة « تتحرك في اتجاهين». ويتعلق الغموض مبدئيًّا بالبلاغة كصفة مميزة للخبرة الإنسانية وكفاءة الرموز بشكل عام. إن غموض الخبرة والغموض الرمزي معًا يجعلان البلاغة – التي عرَّفها كينيث بيرك Kenneth Burke على أنها استخدام الرموز «لحث الكائنات التي تستجيب للرموز بطبيعتها على التعاون» (١٩٦٩أ، ص ٤٣) – ممكنة وحتمية. وتعتمد صناعة المعنى البلاغي، كما ذهب بيرك، على «مفارقة الجوهر»:

إن كلمة "**جوهر**"، التي تستخدم لتعيين ما يكون عليه الشيء، مستمدة من كلمة تستخدم لتعيين حالة ما لا يكون عليه الشيء؛ أى أنها، وإن كانت تستخدم لتحديد ما هو: *داخل* الشيء(محتواه)، و*متأصل* فيه، فهى تشير من الناحية الإيتمولوجية (أصل وتطور الكلمة) إلى ما هو *خارج* الشيء، بل ما وراءه. أو بتعبير آخر: تشير الكلمة في أصولها الإيتمولوجية إلى صفة مميزة *لسياق* الشيء، حيث إن ما يدعم شيئًا أو يوضّحه، يكون جزءًا من سياقه. وسياق الشيء، سواء كان خارجه أو يتجاوزه، أي مغاير لما يكون *مما ليس* عليه الشيء. (١٩٦٩ب، ص ٢٣).

تنطبق مفارقة الجوهر أيضًا على كل من الخبرة والرموز، مما يعني ضمنًا أن أوجه الغموض المتبادلة يجب أن تشترك لإنتاج معانٍ مقبولة اجتماعيًّا تستطيع تعزيز التعاون بين الناس. وهكذا فإذا كانت البلاغة تعتمد بشكل أساسي على تفاعل غموض الخبرة والغموض الرمزي لدفع الناس إلى تفسيرات مشتركة، فإن استراتيجياتٍ عديدةً محددة ومقنعة بشكل خاص تعتمد بشدة على الغموض أصلاً لها. وبعد تفصيل علاقة البلاغة بالمحرك العام الذي يربط الغموض الخِبري والغموض الرمزي، يستعرض هذا المقال العديد من تلك الاستراتيجيات.

الغموض الخِبري والغموض الرمزي

Experiential and Symbolic Ambiguities

كان السوفسطائيون اليونانيون في القرن الخامس (ق. م.) هم أول من أقرَّ رسميًّا بالغموض الخِبري [انظر: *السفسطائيون* **Sophists**] وقد خلصوا إلى أنه إذا استحال على البشر أن تكون معرفتهم يقينية (على الرغم من حاجتهم المستمرة إلى اتخاذ القرارات)، فإن أفضل البدائل العملية هو إعداد خطباء مهرة ليجادلوا بكفاءة في جميع جوانب القضية المحتملة. وفي عالم غير محدد بطبيعته، استنتج السوفسطائيون أن هذا النهج الذي اصطُلح على تسميته رسميًّا بـــ *dissoi logoi*(*)، يقدم فرصة أفضل لاتخاذ قرارات مختبرة ومشتركة بشأن الأمور العارضة أكثر من اتباع فرد يدعي معرفة معينة (غير صحيحة بالضرورة)، أو اتخاذ قرار بطريقة عشوائية.

(*) تعبير يوناني يعني « كلمات مختلفة»، ويهدف إلى معرفة المنطق فـــي الجانـــب الآخـــر من الحجة.

وإذا كان أرسطو Aristotle (٣٨٤ – ٣٢٢ق. م.) قد اعتمد فى كتابه «البلاغة» على رأى السوفسطائيين فإنه مع ذلك قال بضعفه [انظر البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric] وقد ميز بين عوالم الضروري واليقينى والمستحيل، وبين عوالم العارض وغير اليقينى والمحتمل؛ وتلك الأخيرة هي الميدان الصحيح للبلاغة (١٣٥٧ أ؛ ١٣٥٩ أ – ١٣٥٩ ب). يقول أرسطو إن هدف البلاغة هو الحكم على القضايا القائمة والمحتملة ذات الاهتمام المشترك (١٣٧٧ب). وقد اتبع توماس ب. فاريل Thomas B. Farrell (١٩٩٣) أرسطو إذ قال: «إن المعنى الجوهرى لمواد البلاغة – المحتملة أو العارضة؛ ما يمكن عمله بطريقة أو بأخرى – يُستمد من المنهج المميز للبلاغة فى التعامل مع المظاهر. وهكذا تقدم التساؤلات البلاغية صورة مرحلية للمعنى، ولكنها متعلقة به بشكل خاص، وذلك فيما يخص مجموعة متغيرة من المظاهر» (ص ص ٢٧ – ٢٨). ويعتقد أرسطو أن الخيار الأفضل أو الأكثر احتمالاً يكون عادة أسهل في إثباته بلاغيًّا وكذلك في تصديقه. لذلك «فمن الطبيعى» إقناع عامة الجماهير بتفضيل هذا الخيار (١٣٥٥أ) بشرط أن يُحاجِج المدافعون عن الخيارات المختلفة بشكل عادل وأن يكونوا على نفس القدر من المهارة البلاغية. تهدف البلاغة في النظريات الكلاسيكية، إلى تسهيل الوصول إلى اختيار ذي معنى، حتى وإن كان مؤقتًا أو لحظيًّا، بين الاتجاهات المختلفة التي يحركها الأمر المحتمل. وهكذا يصبح الغموض الخبري دعوة إلى البلاغة وتبريرًا لتدريسها، وليس عذرًا للتردد.

والرموز أيضًا بطبيعتها غامضة، كما أنها تخضع لمفارقة الجوهر مثلها فى ذلك مثل الخبرة الإنسانية. إن الرمز بشكل دال هو كل ما «يحل

محل» مشار إليه غير نفسه؛ واللغة هى المثال الواضح، وإن لم يكن الوحيد. بحكم التعريف. فإن الرموز هي شيء آخر غير ما تمثله. ولم يكن الاحتمال الإيجابي الذي تخلقه المسافة الحتمية بين الرمز وما يرمز إليه دائمًا موضع ترحيب من جانب علماء البلاغة. فمنذ العصور الكلاسيكية وحتى نهاية القرن التاسع عشر، كان يُنظر للغموض في حد ذاته نظرة محدودة على أنه خطأ أسلوبي يمكن تفاديه أو على أنه وسيلة مضللة؛ حيث كان الوضوح والدقة دائمًا هما غاية البلاغة، والغموض يعني غيابهما (تاشيرو Tashiro، ١٩٦٨). وجاء الغموض كصفة لتعيين مجموعة كاملة من المغالطات البلاغية (برويلز Broyles،١٩٧٥، ص ١٠٨). [انظر المغالطات Fallacies]. ومع ذلك بدأ بعض العلماء في القرن العشرين في تقدير الإمكانية الكامنة للغموض. وعلى سبيل المثال، كما يذكر سابير Sapir (١٩٣٤)، فقد أقر الرمزيون بحتمية الغموض الرمزى، لكنهم عينوا درجته النسبية بالتمييز بين **رموز «الإشارة»** (التي تقل فيها المسافة بين الرمز والمشار إليه، وتتيح رخصة أقل تفسيرًا)، **والرموز«المكثّفة»** (التي تتيح تفسيرات متعددة مشحونة بالانفعالات، وغير متوافقة ومتزامنة في كثير من الأحيان). وفيما بعد فنّد إ. أ. ريتشاردز I. A. Richards، في كتابه The Philosophy of Rhetoric (نيويورك، ١٩٣٦)، بشكل مقنع نظرية القرن الثامن عشر القائلة بأن كل كلمة لها استخدام وحيد "صحيح" أو "صالح"، واقترح بدلاً من ذلك كون السياقين الاستطرادي والموقفى للكلمة يزيلان الغموض الرمزي لها عندما يشكّل معناها.

وقد طوّر س. ك. أوجدن C. K. Ogden في كتابه (The Meaning of Meaning، لندن، ١٩٢٣)، نظريةً مركبة للارتباط بين الكلمات والأفكار والأشياء المشار إليها، وهى نظرية يقتضيها التقاطع بين الغموض الخبري والغموض الرمزي.

وطوّر وليم إمبسون William Empson في كتابه Seven Types of Ambiguity (١٩٥٣، ص ١)، الموقف الإجمالي القائل بأن "أي تعديل على اللفظ – وإن كان طفيفًا – ويعطي مجالاً لردود فعل بديلة لنفس الجزء من اللغة – يشكِّل غموضًا، حتى عندما لا يدرك الشخصُ أن استخدام الرمز الخاص به له أكثر من معنى. ويحتج إمبسون بأنه يمكن وصف الرمز بأنه "غامض" إذا جعل أيَّ شخص آخر "في حيرة" (ص X). لم يستخدم إمبسون هذا الافتراض لينفي إمكانية المعنى المشترك، وإنما ليبرر الإمكانية القوية للغموض الرمزي للسياقات الأدبية. قد احتج التفكيكيون، مثل جاك دريدا Jacques Derrida في (Writing and Difference، ١٩٧٨) أخيرًا – وبشكل أقل تقليدية – بأن كلاً من الغموض الخبري والغموض الرمزي يستلزمان عمليات نفي نصية تتجاوز تلك التي يلخصها بيرك بمفارقة الجوهر؛ حيث يقترح التفكيك أن النصوص تنفي نفسها وتنفى ما تؤكده الرموز المكونة لها ظاهريًّا عن الخبرة غير المحددة، في حين أنها تؤكد بدلا من ذلك على معانٍ تبدو للوهلة الأولى أنها ترفضها.

وقد احتدم النقاش بشأن تلك التحديات للمكانة التقليدية للغموض في نظرية البلاغة. فدافع البعض عن كون التجديدات النظرية تعكس التكافؤ البلاغي للغموض، مغيرة إيّاه من رذيلة رمزية إلى فضيلة قاطعة. وعلى سبيل المثال، فقد عارض م. هـ. أبرامز M. H. Abrams أن يكون نص إمبسون قد شجع "كثرة القراءة: التفسيرات الإبداعية، والمبالغ فيها، والمتناقضة في ذاتها أحيانًا والتي تقوم بانتهاك قواعد اللغة الإنجليزية وتتجاهل الضوابط على الإشارة، التى يمارسها السياق [الاستطرادي]" (١٩٧١، ص ٩). لقد أدى قبول الغموض إلى الاهتمام باستخدام الرمز خارج فن الشعر بشكل خاص (فاولر Fowler، ١٩٨٧). وقد تبنى بعض

مفكرى القرن العشرين صراحة النظريات الكلاسيكية ومفاهيم ما قبل القرن العشرين للتأكيد على "الغموض" كوصف ازدرائى لأعمال معينة فى الدفاع العام (تاشيرو، ١٩٦٨). وفى محاولة لإقامة وسيط بلاغي في هذا السياق المثير للنزاع – حاول روجر هافورد Roger Hufford في طرحه «لأبعاد فكرة تعريف الغموض» (١٩٦٦) أن يجعل مقياسًا ما للغموض في الخطاب العام مقبولاً عن طريق وضع شروط يكون وجوده بموجبها أخلاقيًا. بالنسبة لهذه الكتابة، يكاد علماء الاتصال يجمعون على أن درجة ما من الغموض الخبري والرمزي لا يمكن تجنبها – رغم أنهم غير متفقين على ما يُشكِّل تلك الدرجة – وأن علماء البلاغة يمكن أن يكونوا مسئولين عن استغلالهم الاستراتيجي للغموض في أعمال بلاغية معينة (هافورد، ١٩٦٦؛ أيزنبرج، ١٩٨٤). ولم يفعل نُقّاد **ما بعد الحداثة** شيئًا لإنكار هذا الفهم أكثر من مجرد تعديله، من خلال التأكيد على الافتراضات التي تتفق مع النص السابق: إن التجربة الإنسانية مجزأة وغامضة أيضًا، وإن أي تفسير رمزي لها يكون غير مكتمل ومؤقتًا ويمكن معارضته.

من بين واضعي النظريات في القرن العشرين، قام كينيث بيرك (١٨٩٧ – ١٩٩٣) بنقد أهمية الغموض الخبري والرمزي بشكل أكثر شمولاً كأساسيات للبلاغة. [انظر **البلاغة الحديثة Modern rhetoric**]، وقد شرح بيرك في كتابه Rhetoric of Motives كيف أن الحالة الإنسانية للانقسام، عندما يتم تناولها عن طريق معالجة بلاغية لإستراتيجية للغموض – يمكن أن تعزِّز الوحدة أو "**وحدانية الجوهر**" consubstantiality (١٩٦٩، ص ٥٥) [انظر: **التماهي Identification**].

في التماهي الخالص لن يكون هناك أى صراع؛ وبالمثل، لا يكون هناك أي صراع في حالة الانفصال المطلق، حيث إن الخصمين لا يمكنهما

القتال إلا من خلال الأرض المشتركة التى تجعل حدوث الاتصال بينهما ممكنًا؛ وبالتالي توفر الشرط الأساسى لتبادل الضربات. ولكن إذا قمت بوضع تحديد للهوية والانقسام معًا بشكل غامض، فلن يمكنك أن تعرف على وجه اليقين أين ينتهى أحدهما ويبدأ الآخر، وتصبح هناك دعوة ملحَّة إلى البلاغة. (ص ٢٥).

يوفر الغموض "الوسيط المشترك" الذي يساعد على وجود تفسيرات متباينة لحدوث centingency مُدرَك أو اقتضاء بلاغى، وهى مشكلة تبدو مع وجود ذلك الإلحاح، الذي يمكن تخفيفه إذا أقنع المتكلم المستمعين (بيتزر، ١٩٦٨). ويسمح الغموض الخبري بشكل كبير، للمتنافسين بدحض بعض التفسيرات المقترحة والدفاع عن البديل الأفضل الذى ينطلق فى اتجاه مختلف (أولسون، ١٩٨٩)، وكذلك يدفعهم إلى مراجعة تقييم التفسيرات أو إعادتها اعتمادًا على تغير الظروف (أولسون، ١٩٩٣). وتعتمد إمكانية تعزيز خصائص بلاغية مختلفة - بدون خداع أو نفاق - على النطاق التفسيري الذي يوفره الغموض الخبري والرمزي معًا.

استكشف بيرك ببراعة في كتابيه Language as Symbolic Action (١٩٦٦) وGrammar of Motives (١٩٦٩)، الطرق التي تدعم بها الرموزُ الشبكةَ اللفظية المتوافقة داخليا، والتي يفهم الناس من خلالها الأحداث الغامضة، وكذلك العلاقة الغامضة بين الرموز والأشياء المعنوية والمادية المشار إليها. وتتدخل القدرات التفسيرية للمتكلم بالضرورة في عمليتي اختيار خبرة غامضة وتفسيرها باعتبارها مشكلة تستحق المعالجة (فاتز، ١٩٧١). يستخدم الناس البلاغة إذن لتعزيز التماهي عن طريق تسمية التجربة المشتركة وتحديدها بطرق تتحكم فى الخبرة المشتركة؛ بما يدعم اتجاهات وأفعالا معينة. وتشكل الخبرة بذلك مدى مصداقية استخدام الرمز، وتحدد ذلك

على الرغم من كونها غير محدَّدة المعنى فى ذاتها. إن اختيار جوانب الخبرة الغامضة وانعكاسها وانحرافها باستخدام الرموز يساعد بشكل حتمى فى الربط بين الاتجاهات أو الدوافع المختلفة (بيرك، Language، ١٩٦٦، ص ٤٥؛ Philosophy، ١٩٧٣، ص ١، ٢٠). وقد أشار موراي إديلمان Murray Edelman (١٩٧١) إلى أن الخبرات المشتركة تكون غامضة للغاية لدرجة أن "المواقف" تكون إلى حد كبير من صنع اللغة المستخدمة لوصفها"، وهو فى ذلك يتفق مع المنظور الدرامى لبيرك (١٩٧١، ص ٦٥). ويتضمن وصف الأحداث بشكل رمزي "العامل السحري... المتضمَّن في كل لغة؛ فمجرد تسمية شيء أو موقف يتحتم أن يتم تمييزه بكونه كذا وكذا، وذلك بدلاً من كونه شيئًا آخر" (بيرك، *الفلسفة*، ١٩٧٣، ص ٤). وعلى سبيل المثال، قد تفرض جريمة قتل أوصافًا متعارضة مثل: "جريمة قتل بدم بارد"، و"حادث"، و" دفاع عن النفس" و"العدالة" و"تضحية فدائية" أو "استعداد للآخرة" – وكل منها يتضمن تقييمًا مختلفًا وطريقة تصرف مختلفة.

الاستراتيجيات البلاغية Rhetorical Strategies

تُعد «خطب الإقناع مجالاً مشروعًا لتفعيل الغموض» باعتباره نقطة التقاء لاستراتيجيات بلاغية محددة (هافورد، ١٩٦٦، ص ٥). ولأن تفسير بيرك "للإقناع" يبنى مجال الغموض على نطاق واسع، فسوف أعتمد عليه سعيًا للاكتمال: "حيثما يكون هناك إقناع، تكون هناك بلاغة. وحيثما يكون هناك «معنى» يكون هناك «إقناع»" (*Rhetoric*، ١٩٦٩أ، ص ١٧٢). ومضمون ذلك أن جميع الاستراتيجيات الرمزية تعتمد بمهارة على الغموض لتحقيق أداء مقنع. ومع ذلك، فمن الواضح جدًّا أن استراتيجيات معينة تستغل همزة الوصل تحقيقًا للغموض الرمزي والخبري بوصفهما مصدرًا بلاغيًّا. وعلى سبيل المثال، لا تعيِّن رموز التكثيف – وهى مفهوم استراتيجي اقترحه

ديفيد زارفسكى David Zarefsky على أساس تفسير سابير للرمزية - مشارًا إليه واضحًا، ولكنها تُفيد فى "تكثيف" مجموعة من الدلالات والمعاني المختلفة فى رمز واحد، قد تختلف إذا كانت هناك محاولة لشرحها بشكل محدد "(١٩٨٦، ص ١٠ - ١١). ولأنها لا تزال في مستوى عالٍ نسبيًا من التجريد، فإن رموز التكثيف، مثل العَلَم أو الحلم الأمريكى، يمكن أن تضم انفعالات متنوعة وتخلق هوية حتى بين أولئك الذين تكون المعاني المحددة لهذه الرموز غير متوافقة لديهم. وبالمثل، فإن البلاغة غير الاستطرادية، مثل النصب التذكارى لقدامى المحاربين فى فيتنام، تعزز الهوية حتى عندما تستدعي تأويلات متنوعة (فوس Foss، ١٩٨٦، ص ٣٣٧).

وتعتمد الوثائق الاستطرادية التى تهدف إلى توحيدِ مجموعةٍ عبرَ الزمن، على الرغم من الاتجاهات المتباينة للأعضاء، على استيعابِ قيمٍ تنافسية بشكلٍ مقنع فى مستوى مجرد إلى حد كبير. وعلى سبيل المثال، تعتمد العديد من الاتفاقات الدبلوماسية مثل دستور الولايات المتحدة على الغموض لتوفير المرونة دون التضحية بالوحدة (هافورد، ١٩٦٦، ص ٤). كما أن المجاز البلاغى، ولا سيما السخرية، والفكاهة والتورية، يعتمد على مقدار من الغموض يساعد على نجاحها الأدائى أو خلق جوهر وحدتها المشتركة (هافورد، ١٩٦٦، ص ٥). [انظر **الفكاهة؛ السخرية والتورية** **Humor; Irony; and Paronomasia**.]

تعمل استراتيجيات الجدال، مثل الاتصال والانفصال، من خلال تمويه الحدود التفسيرية الغامضة. فيحاول الاتصال ربط الأشياء المشار إليها، والتى كان يُنظر إليها سابقًا على أنها غير متصلة بشكل دال، وبالتالي فإنه يخلق سياقًا تفسيريًا تقييميًا جديدًا للمسألة المطروحة؛ أما الانفصال فإنه يقسِّم ما يتم تفسيره استراتيجيًا، حاليًا، على أنه وحدوي، إلى أجزاء مختلفة تفرض

تقييمات متباينة (س. بيريلمان C. Perelman، ل. أولبريخت تيتيكا - Olbrechts Tyteca، The New Rhetoric، نوتردام، ١٩٦٩). وتعمل استراتيجيات التعالي والتحول بشكل مشابه، إذ يُغيّران من نطاق الحدود التفسيرية للظاهرة ومحيطها؛ مما يؤدى إلى إعادة تعريف المعنى (بيرك، Grammar، ١٩٦٩ب).

ويشير التناقض باعتباره أحد المفاهيم التى قدمها بيرك، إلى وجود أدلة تؤكد بشكل استراتيجي على أن الأمور التى "تبدو وكأنها غير متعلقة ببعضها، وتمر على أنها متسقة، تكون فى الواقع متعلقة وغير متسقة، وبالتالي تستدعى نوعًا من الإصلاح لتجنب سلوك النفاق (بيرك، Permanence، ١٩٨٤). [انظر **مفهوم التناقض** **Perspective by incongruity**]. وهناك طريقة أخرى للتوظيف البلاغى للغموض وهى إنكار وجوده، إذ يمكن التأكيد على عدم غموض قضية فى حين أنها ليست كذلك فى الواقع؛ وذلك لإقناع المستمعين لدعم الخطيب على أنه زعيم ذو رؤية واضحة وحازمة بما يكفي لتوجيههم بصورة فعالة لإصدار ردود فعل واضحة ومطلوبة (إديلمان، Politics، ١٩٧١، ص ص ٨٠ – ٨١). وأخيرًا، يمكن للخطيب إبراز الغموض، ثم يقول إنه من المستحيل حله بشكل مرض، ولو بصورة مؤقتة. ويسهم هذا الأسلوب فى عرقلة الاتفاق على حكم ما أو نمط تصرف مقترح (بيريلمان، ل. أولبريشت تيتيكا،١٩٦٩، ص ١٢٢). ويجب أن يتّبع القراء – المهتمون باكتشاف استراتيجيات بلاغية إضافية باستخدام الغموض – نصيحةَ بيرك لإجراء فحص دقيق "ليس فقط للكلمات التى تتجنب الغموض، ولكن تلك التى تكشف المواقع الاستراتيجية التي ينشأ عندها الغموض بالضرورة (Grammar، ١٩٦٩ب، ص ١٨).

قائمة مصادر ومراجع

Abrams, M. H. "Ambiguity. " In *A Glossary of Literary Terms*, 3d ed., pp. pp. 8–10. New York, 1971 .

Bitzer, Lloyd F. "The Rhetorical Situation. " *Philosophy and Rhetoric* 1 (1968), pp. pp. 1–14 .

ينكر الغموض المشروع فى المواقف البلاغية ويرى أن الموقف البلاغى يقتضى رد الفعل المناسب له وأن نجاح الخطيب يعتمد على "القراءة" ومواجهة هذا الادعاء بدقة. قارن بـــــ فانتز.

Broyles, James E. "The Fallacies of Composition and Division. " *Philosophy and Rhetoric* 8 (1975), pp. pp. 108–113 .

Burke, Kenneth. *Language as Symbolic Action: Essays on Life, Literature, and Method*. Berkeley, 1966 .

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. First published in 1950. Berkeley, 1969a .

Burke, Kenneth. *A Grammar of Motives*. First published in 1945. Berkeley, 1969b .

Burke, Kenneth. *The Philosophy of Literary Form: Studies in Symbolic Action*. 3d ed. Berkeley, 1973 .

Burke, Kenneth. *Permanence and Change: An Anatomy of Purpose*. 3d ed. Berkeley, 1984 .

Derrida, Jacques. *Writing and Difference*. Translated by Alan Bass. Chicago, 1978. English translation of *L'écriture et la différence*, first published 1967 .

Edelman, Murray. *Politics as Symbolic Action: Mass Arousal and Quiescence*. New York, 1971.

على الرغم من تحيزه المعرفى الكبير، فإنه يناقش بشكل مفيد الاستراتيجيات الرمزية لتشكيل الإدراك وتنظيم الفعل المتفق عليه فى المواقف السياسية الغامضة.

Eisenberg, Eric M. "Ambiguity as Strategy in Organizational Communication. " *Communication Monographs* 51 (1984), pp. pp. 227–242.

يدافع عن الغموض كبديل مشروع وأخلاقى للوضوح فى الاتصال المؤسسى ويستكشف استخداماته التى يمكن الدفاع عنها.

Empson, William. *Seven Types of Ambiguity*. 3d ed. Norfolk, Va., 1953.

معروف على نطاق واسع على أنه العمل الذى يمثل علامة فى القرن العشرين وهو يدافع عن الاستخدامات الأدبية المشروعة للغموض وينظمها.

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993 .

باستخدام مزيج من الحجة النظرية ونقد النص يستعيد هذا المصدر البلاغة الكلاسيكية لتعزيز العقل المعاصر العملى والمشاركة الوطنية.

Foss, Sonya K. "Ambiguity as Persuasion: The Vietnam Veterans Memorial. " *Communication Quarterly* 34 (1986), pp. pp. 326–340.

يبحث بشكل نقدى فى الملامح الرمزية التى من خلالها يثير النصب التذكارى ردود الفعل العاطفية والتقدير لدى الزوار على الرغم من التنوع الكبير فى تفسيراتهم لمعناه.

Fowler, Roger. "Ambiguity. " In *A Dictionary of Modern Critical Terms*, rev. ed., pp. pp. 7–8. New York, 1987 .

Hufford, Roger. "The Dimensions of an Idea: Ambiguity Defined. " *Today's Speech* 14 (April 1966), pp. pp. 4–8 .

يحاول إصلاح "الغموض" على أنه استراتيجية إقناعية مشروعة (مقابل كونه استراتيجية فلسفية) ويميز بين الاستخدامات الأخلاقية وغير الأخلاقية التى تقوم على ما إذا كان اهتمام الخطيب براحة السامع "هدفًا بارزًا" أم لا.

McKeon, Richard. "Creativity and the Commonplace. " *Philosophy and Rhetoric* 6 (1973), pp. pp. 199–210 .

يتتبع جهود "إصلاح" معنى الإبداع البلاغى منذ العصور الكلاسيكية وحتى الوقت الحاضر؛ ويستنتج أن مثل هذه المحاولات لا يمكنها أن تنجح لأنه بمجرد استقرار معنى المفهوم لا يصبح "إبداعيًا" وأن قبول الغموض النظامى المنتج للإبداع.هو أكثر دقة ويساعد على الاكتشاف بشكل أكبر.

Olson, Kathryn M. "The Controversy over President Reagan's Visit to Bitburg: Strategies of Definition and Redefinition. " *Quarterly Journal of Speech* 75 (1989), pp. pp. 129–151 .

يرى أن الغموض القائم على التجربة يجعل التشخيصات البلاغية المقبولة المتنوعة للأحداث ممكنة ويظهر أدوار الجمهور المختلفة والنشطة فى تعزيز أو رفض التعريف.

Olson, Kathryn M. "Completing the Picture: Replacing Generic Embodiments in the Historical Flow. " *Communication Quarterly* 41 (1993), pp. pp. 299–317.

يختبر الأهمية الكامنة للمسافة والحافز التاريخي فى إعادة التفسير المقنع للأحداث الغامضة.

Sapir, Edward. "Symbolism. " In *Encyclopaedia of the Social Sciences*, edited by Edwin R. A. Seligman, vol. 14, pp. pp. 492–495. New York, 1934 .

Tashiro, Tom. "Ambiguity as Aesthetic Principle. " In *Dictionary of the History of Ideas: Studies of Selected Pivotal Ideas*, vol. 1. Edited by Philip P. Wiener, pp. pp. 48–60. New York, 1968 .

يفهم الغموض على نطاق واسع بما يكفى لتبرير نسبة العلاقات اللانهائية للوجودية ونظرية المعرفة عبر عدة قرون من التجربة الغربية. ويتضمن مناقشة الولاءات المتحولة بين الحقيقة المطلقة والنسبية التى توضحها التعبيرات الثقافية ونقد العديد من المختارات من الفن التشكيلى والفن التمثيلى.

Vatz, Richard E. "The Myth of the Rhetorical Situation. " *Philosophy and Rhetoric* 6 (1973), pp. pp. 154–161 .

يتبنى موقف أن التجربة الإنسانية مترابطة لدرجة أن معانى التجارب يمكن تفسيرها بشكل مشروع بالقليل من الحدود التفسيرية أو حتى بدونها. قارن بـــــــبيتزر.

Zarefsky, David. *President Johnson's War on Poverty: Rhetoric and History.* University, Ala., 1986 .

يحلل بشكل نقدى الخطاب العام للإدارة الأمريكية فيما يخص حربها ضد الفقر لتوضيح كيف يمكن للتطورات البلاغية القائمة على التجربة أن تتفاعل معًا لتشكيل السياسة.

تأليف: Kathryn M. Olson

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

الاستفاضة أو الإسهاب Amplification

للاستفاضة أو الإسهاب متغيران، نوعي وكمي: ومن ثم فهناك نوعان؛ استفاضة رأسية واستفاضة أفقية. أما الاستفاضة الرأسية *Vertical* amplification فتخدم الغرض النوعي الذي هو رفع الموضوع محل الحديث وتكبيره. يذكر كينتليان (Institution Oratoria 90) أربع صور بلاغية تساعدنا في تحقيق الاستفاضة، وهي: incrementum, comparatio, ratiocination, congeries. قدم لنا هرني بيتشام (١٥٩٣ ص١٦٧) توضيحا لعمل تلك الصور: "في المدح يمكن أن تقول على الرجل الشريف إنه قديس؛ أو تسمي البنت الجميلة ملاكًا؛ أو تطلق على المطرب الجيد اسم صوت سماوي". [انظر، Auxēsis].

تشير الاستفاضة الأفقية amplification dilatation إلى تضخيم فكرة أو توسيع نص عن طريق مضاعفة وتنويع عناصره كالأماكن والظروف؛ بغرض تكبير التأثير البلاغي للنص. تشير الاستفاضة في هذا المعنى الأوسع إلى وحدات نصية مثل الغرض (الحب في الشعر مثلا) والأحداث (كالثأر في التراجيديا مثلا) والشخصيات (كالمهرج في الكوميديا مثلا) والجنس الأدبي (كالرسالة في روايات المراسلات مثلا). تتحقق الاستفاضة بتفكيك العبارة أو النص إلى عناصره أو تقطيع الكل المتكامل إلى ظواهر ملموسة أصغر، والعملية هي عملية توسيع باستخدام تفاصيل متنوعة. كانت الرسالة التي كتبها إراسموس بعنوان De duplici copia verborum ac rerum، والتي تعاملت ليس مع رصانة الكلمات (البيان) فحسب، بل مع رصانة الأفكار (الابتكار) أيضًا، أهم

الأعمال التي تعاملت مع هذا النوع من الاستفاضة، وكانت تلك الرسالة أيضا بداية تراث ممارسة بلاغية استمرت فترة طويلة. بعد أن كانت تلك الرسالة مكتوبة خصيصا لأجل مدرسة القديس بولس في لندن طبعت منذ عام ١٥١٢ في طبعات متعددة في كل مكان في أوروبا. يربط إراسموس الذي يبرر طريقته في إيجاد وفرة من الكلمات والأفكار بالإشارة إلى كينتليان institution oratoria (12.1) بين الإطناب والتنويع. في الكتاب الأول من رسالته يصف تقنيات كثيرة للتنويع كالمترادفات في الفصل الحادي عشر، والتضمين في الفصل الثالث عشر، والتقابل في الفصل الرابع عشر، والشرح في الفصل الخامس عشر، والاستعارة في الفصل السادس عشر، والأمثولة في الفصل الثامن عشر، والمقارنات في الفصل الخامس والعشرين، والتضخيم في الفصل الثامن والعشرين. استخدم إراسموس هذه الصور البلاغية ليصنع ١٤٧ تنويعة على عبارة: "أسعدتني رسالتك كثيرا". وعدد إراسموس أسماء الكثير من الكتاب الكلاسيكيين الذين استخدموا الإطناب ليصلوا إلى أسلوب مزخرف. نقيض أسلوب الاستفاضة هو الاختصار، ونقيض الأسلوب المزخرف هو الأسلوب البسيط الذي يسعى لتحقيق التماثل الكامل بين المحتوى والأسلوب [انظر، Copia].

تحاول طرائق الاستفاضة الرأسية والأفقية المختلفة التأثير في عاطفة المتلقي وعقله، ولا يفصل بيتشام (١٥٩٣ ص١٢١) فصلا واضحًا بين نوعي الاستفاضة، ويصف تأثيرها كما يلي: "هي مليئة بالنور والوفرة والتنوع مما يمكن الخطيب من تعليم الأمور والإخبار عنها بوضوح، ويبالغ بقوة، ويلخص وينهي بقوة". تبين صياغة تلك العبارة السابقة نفسها طريقة الاستفاضة في شيء واحد، وهو الاستفاضة ذاتها. والهدف هنا كان الاستحواذ على اهتمام القارئ. [انظر أيضًا: Ēthos; Figures of Speech; Pathos].

مصادر ومراجع

Cave, Terence. *The Cornucopian Text: Problems of Writing in the French Renaissance.* Oxford, 1979.

Eramus of Rotterdam, Desiderius. *On Copia of Words and Ideas* (De Utraque Verborum ac Rerum Copia). Translated from the Latin with an Introduction by Donald B. King and H. David Rix. Milwaukee, 1963.

Peacham, Henry. *The Garden of Eloquence* (1593). Edited with an introduction and commentary by B. - M. Koll. Frankfurt, 1996.

Sloane, Thomas O. "Schoolbooks and Rhetoric: Erasmus's *Copia.*" *Rhetorica* 9.2 (Spring 1991), pp.pp. 113 - 129.

Sloane, Thomas O. "Copiousness." In *On the Contrary: The Protocol of Traditional Rhetoric*, Chap. 3. Washington, D.C.. 1998.

تأليف: Heinrich F. Plett

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

تكرار النهاية والابتداء Anadiplōsis *(باللاتينية: reduplication)*

هو ظاهرة تركيبية تتكرر فيها الكلمة الأخيرة أو الكلمات الأخيرة في عبارة ما أو في جملة ما أو في بيت شعري ما في بداية العبارة أو الجملة أو البيت التالي لجمع الوحدتين النصيتين معا. قد يركز هذا على كلمة محورية كما هو الحال في المثال التالي:

"I will life my eyes unto the hills, from whence cometh ***my help. My help*** cometh from the Lord ..." (*Ps(s)*. 121.1.2).

سأسكِن عيني في الجبال التي يأتي منها **دعمي، ودعمي** يأتي من الرب.

يمكن للجمع بين عناصر متناقضة دلاليًا أن يصنع تأثيرًا فكاهيًا، كما هو الحال فيما يلي:

"So shall you share all that he doth possess, / By having him making yourself *no less*." / "*No less!* Nay bigger; women grow by men" (Shakespeare, *Romeo and Juliet* 1.3.93–95).

إذن هل ستشاركينه كل ما يمتلكه بالفعل، بأن تجعليه يخلقك على صورته ***لا أقل***، أنا ***لا أقل*** و لا أكبر؛ فالنساء تنمو بالرجال".

شكسبير (روميو وجولييت، الفصل الأول، المشهد الثالث ٩٣ – ٩٥).

انظر أيضًا (Figures of speech; Gorgianic figures; Gradatio; Style)

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

جناس الصدارة Anaphora

المقابل اللاتيني لها هو Relatio، وقد أطلق عليها بوتنهام في كتابه "فن النثر الإنجليزي" (The Arte of English Poesie 1589) أداة الإحالة. وتتكون من تكرار كلمة أو أكثر في بداية جمل متتالية أو عبارات متلاحقة أو أبيات متتابعة. وبالتالي تزداد أهمية الكلمات المكررة. انظر المثل التالي:

"Wha will be a traitor knave? / Wha can fill a coward's grave? / Wha sae base as be a slave? / Let him turn and flee!" (Robert Burns, *Scots Wha Hae*)

ما الذي سيكون عليه حال قاطع طريق؟

ما الذي يمكن أن يملأ قبر جبان؟

ما الذي يُعد جوهر عبد؟

دعه يرتد على عقبيه وليهرب!

وقد يكون لتكرار بعض المورفيمات غير ذات الصلة أثر فكاهي على النص، كما هو الحال في المثال الآتي:

"Four other Oysters followed them, / *And* yet another four; / *And* thick and fast they came at last, / *And* more, and more, and more" (Lewis Carroll, *Through the Looking Glass*, 1872).

تبعتهم أربعة سرطانات بحر

وتبعتها أربعة آخرون

وسريعا ومعا جاءوا

وأكثر

وأكثر

وأكثر

(لويس كارول، من خلال المرآة الطويلة، ١٨٧٢). (انظر: Figures of speech; Poetry; Style; Symplocē).

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الإقلاب Anastrophē (**باللاتينية**: Inversio، **وبالإنجليزية** Reversal)

هو باللاتينية Inversio وهو عملية انحراف عن الترتيب السليم نحويًا للكلمات، يحدث بين كلمتين أو أكثر؛ بحيث تحل واحدة من الكلمات محل أخرى (بيدي، ص ٦٧٢ - ٧٣٥). يعد إقلاب ترتيب الاسم والصفة من أشكال أنواع الإقلاب شيوعًا، كما هو الحال في المثل الإنجليزي التالي:

"speak from your lungs military[١]" (تكلَّم من الواثقة أعماقك).

وهو مثل من شكسبير، وإقلاب مواقع الفاعل والمفعول به مثال آخر شائع، كما في: " ثم إن أحدًا لم أخطئ بحقه Then none have I offended"[٢]. والمثال مقتبس أيضا من شكسبير، من مسرحية يوليوس قيصر (الفصل الثالث، المشهد الثاني، سطر ٣٩). وعلى الرغم من أن الإقلاب خطأ نحوي فإنه يساعد في بعض الأحيان؛ كما يشير كينتليان في (Institutio oratoria) لجذب انتباه جمهور مشتت. وكثيرًا ما يستخدم الإقلاب ليتناسب به سجع كلمة مع باقي كلمات جملة ما، وكثيرًا ما يؤدي إلى إبطاء سرعة انسياب الكلمات والأفكار.

انظر: (**Figures of speech; Hysteron prōteron**)

---

(١) الترجمة للمراجع، وأصل ترتيب الجملة هو: تكلم من أعماقك الواثقة.
(٢) الترجمة للمراجع، وأصل ترتيب الجملة هو: ثم إنني لم أُخطئ في حق أحد.

مصادر ومراجع

Arbusow, Leonid. *Colores rhetorici*. Göttingen, 1963.

Beda Venerabilis. In *Rhetores latini minores*, edited by C. Halm. Leipzig, 1863.

Plett, Heinrich F. *Systematische Rhetorik*. Munich, 2000.

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الصوت الواحد والمعنى المختلف Antanaclasis (باللاتينية Reflexio)

ذكر بوتنهام في كتابه The Arte of English Poesie (1589) ص ٢٠٧) أنها تكرار كلمة بمعنى مختلف، وسماها دوبيوس (باريس ١٩٧٠) بـ metasememe، وهي كأن تقول مثلا: "يدفن الموتى موتاهم" "and let the dead bury their dead" (*Mt.* 8.22).[١] الكلمة المكررة لا يجب أن تكون متماثلة في الشكل أو في الكتابة أو حتى ذات صلة صرفية كما هو الحال كثيرًا في مسرحية تاجر البندقية لشكسبير، وهي وسيلة مفيدة للتمييز بين المعاني بحيث تظهر أغراض المنافس أو العدو الخفية. ينقد الكلاسيكيون هذه الوسيلة لأنها تفرط في إظهار الذكاء على حساب الدقة. (انظر: Figures of speech).

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

(١) الموتى في الكلمة الأولى تعنى المفجوعين (برحيل أحبائهم)، وفي الثانية تعني الميتين بالفعل.

الإبدال Antisthecōn (باللاتينية: Littera pro littera)

يطلقَ عليه أحيانا "إبدال حرف بحرف"، ويشير إلى عملية إبدال حرف بآخر أو صوت بآخر داخل الكلمة. قد يكون هذا الإبدال خطأ أو لهجة أو أسلوبًا، كما هو الحال في كلمتي: "veller - weller" عند تشارلز ديكنز. وقد تُنتج تلك العملية في بعض الأحيان استخدام شكل أقدم من اللغة، كما هو الحال في استخدام إدموند سبينسر في الفيري كوين لكلمتي: "mote - may". كما قد تبين تأثيل بعض الكلمات، أو تُسهّل إنتاج التورية، كما هو الحال في استخدام كلمة "شمس sun" التي تحمل نفس الشكل الصوتي لكلمة "ابن son" في مسرحية هاملت في الفصل الأول المشهد الثاني. وضع ريتشارد تشيري عمليات التباديل والتوافيق في حروف الكلمة الواحدة داخل تلك الظاهرة في رسالته "أطروحة حول المخططات" Treatise of Schemes (1550). [انظر أيضًا: Figures of speech].

مصادر ومراجع

Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study*. Translated by Matthew T. Bliss, Annemiek Jansen, David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson.

Leiden, 1998. English translation of *Handbuch der literarischen Rhetorik*, Munich, 1960.

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التقابل الدلالي Antithesis (باللاتينية: contrapositum, Contentio)

عادة ما يحاول الكاتب جمع مجموعة كبيرة ومتنوعة من الظواهر الخطابية التي تقوم أساسا على الربط بين وحدتين معجميتين على الأقل ليتقابل المعنى فيهما حتما أو احتمالا. ويحاول الكتاب استخدام هذه الظواهر داخل نفس القسم من النص أو داخل أقسام مختلفة منه. ولما كانت تلك الظاهرة موجودة عند أرسطو في كتاب "حول الخطابة"؛ فإن التوصيفات التي قدمها العلماء على مدار التراث الكلاسيكي عادة ما تتباين في درجة شرحها وتفسيرها، ولكن هناك كتابين من بين كل كتب التراث الكلاسيكي يقدمان أحسن تجميع لسمات تلك المجموعة من الصور البلاغية وهما Rhetorica ad Herennium، وكتاب كينتليان Institutio Oratoria. يمكننا أن نلخص هذه الظواهر كما قدمها هذان الكاتبان في:

١- اعتبار النص أو قسم منه على الأقل إطارًا يتم تطوير التقابل في داخله،

٢- استمرارية طيبولوجيا التقابل بين الوحدات المعجمية، وهي طيبولوجيا تأتي من مجال اللهجات الكلاسيكية. [انظر، Dialectic]. وهي أنماط التقابل، أولا، بين مفردات العلاقات العائلية كالأب والابن، وثانيًا بين المتضادات كالسعادة والحزن والخير والشر والحب والكره والحرارة والبرودة والجنة والنار، وثالثا بين مفردات الفقد كالموت والحياة والبصر والعمى والعقل والجنون. هذه الأنماط هي التي حددها أرسطو في تصنيفاته (١١ب - ١٤ا). يجب أن نذكر أن معظم هذه التقابلات في الوحدات المعجمية تمثل أساس التقابل

كظاهرة بلاغية مرتبطة ارتباطا وثيقًا بالتوجهات المكونة للتراث الشعري الغربي ومدارسه وحركاته.

٣- طرح سلّم من درجات مختلفة للتعقيد التركيبي في استخدام ظاهرة التقابل داخل أي عبارة، ويقوم هذا السلم على عدد أزواج المتقابلات المستخدمة في كل حالة. يمكن أن نضيف السمات الشكلية التالية لتلك العناصر:

٤- وجوب استقاء الوحدات المعجمية المتقابلة في ظاهرة التقابل من نفس التصنيف النحوي، وهو ما يبين وجود نفس المورفيمات الاشتقاقية كمحدد للاستخدام.

٥- وجوب أن يحمل تركيب الجمل التي تظهر فيها الوحدات المعجمية المتقابلة نفس الوظيفة النحوية.

٦- وجوب وجود الوحدات المعجمية المتقابلة في نفس المكان في متواليات العناصر التي تنتمي إليها، مما يتماهى مع قوانين التناسق والتناغم العاملة في الخطاب الشعري والنثر الفني الذي يقوم على التوازي والتضاد كأساس لتوزيع العناصر في النص. [انظر: Chiasmus; ،Parallelism]. وانظر أيضًا: Figures of speech; Gorgianic figures; Thesis and antithesis].

مصادر ومراجع

Lanham, R. A. *A Handlist of Rhetorical Terms*. Berkeley, 1991.

Lausberg, H. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. pp.pp. 787–807. Munich, 1960.

Mayoral, J. A. *Figuras retóricas*. pp.Pp. 262–274. Madrid, 1994.

Morier, H. *Dictionnaire de poétique et de rhétorique*. Paris, 1981.

تأليف: José Antonio Mayoral

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

(Detractio Initii باللاتينية) Aphaeresis حذف الصوت الأول

هي ظاهرة صوتية يُحذف فيها الصوت الأول في الكلمة، وكثيرًا ما تستخدم لتحقيق مقتضيات الموسيقى الشعرية أو القافية. انظر مثلا:

"You shall find / Some that will thank you, making just report / Of how unnatural and bemadding sorrow / The King hath cause to plain" (Shakespeare, *King Lear* 3.1.36–39).

فقد حذف شكسبير الحروف الثلاثة الأول من كلمة complain، لتصبح الكلمة plain. كما يمكن استخدام الحذف لإضافة مسحة عامية على مسار الحديث؛ كما هو الحال عند شكسبير أيضا في مسرحية هاملت who should 'scape whipping?. [انظر أيضًا، Figures of speech]. فقد كُتبت كلمة escape بدون حرف العلة (e) في مفتتحها.

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

القطع أو الحذف (الصوتي) Apocopē (باللاتينية: Detractio Finis)

هي ظاهرة بلاغية يتم فيها حذف صوت في نهاية الكلمة؛ إما لغرض الوزن أو القافية أو الموسيقى الشعرية. انظر:

First kill *th'* enormous giant, your Disdain, / And let *th'* enchantress Honour, next be slain" (Donne, *The Damp*).

أولاً: اقتل العملاق الكبير الذي تحتقر (تحتقره)

ودع الساحرة الشريفة تكون الضحية التا (التالية)

(دون، اللعنة)

علاوة على ذلك يمكن لهذا الخطأ المقصود في النقط أن يضيف لمسة لهجاتية للحديث؛ خاصة إن كان مستخدما مع ظواهر أخرى، كما هو الحال في:

"What are these. / So wither'd and so wild in their attire, / That look not like ***th'*** inhabitants ***o' th'*** earth, / And yet are **on't**?" (Shakespeare, *Macbeth* 1.3.39–42).

من هؤلاء؟

غريبةٌ ملابسهم ووحشية

لا تبدو كملابس سكان لارض (الأرض)

ولكنهم عل (عليها)؟

(Shakespeare, Macbeth، الفصل الأول المشهد الثالث).

[انظر أيضًا: Aphaeresis; Figures of speech; Syncopē].

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التشكك Aporia (باللاتينية: Addubitatio)

أطلق عليه بوتنهام في كتابه The Arte of English Poesie (1589) "الشك"، وهي وسيلة براجماتية أسلوبية توهم بعدم قدرة المتكلم على التحدث بثقة حول موضوع معين. وكثيرًا ما تستخدم تلك الطريقة كوسيلة لاصطناع التواضع؛ وخاصة في حالات تلاوة نص خطابي أو قصيدة ملحمية. انظر المثل التالي: "من أي شيء أشكو في بداية حديثي، أو من أين أبدأ؟ وإلى من ألجأ للمساعدة؟" (شيشرون Pro Sexto Roscio Amerino 11.29). ولكن إن كان موضوع النص يتخطى إمكانيات اللغة، فإن التشكك يستخدم لتأكيد عظم هذا الموضوع. انظر مثلا: "من له أن يُعرِّف العالم بالسبب الخفي؟ لا أستطيع يا مولاي الملك أن أخبرك، ولن تحصل على إجابة لسؤالك قط". (انظر واجنر تريستان وإيسولدا، الفصل الثاني المشهد الثالث). [انظر أيضًا: Figures of speech].

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الانقطاع (البلاغي) Aposiōpēsis (باللاتينية Interruptio)

هو وسيلة براجماتية تبين انقطاعًا مفاجئًا في الخطاب عن طريق حذف نهاية جملة أو عبارة ما، كما لو كان المتكلم أو الكاتب غير قادر أو غير راغب في الاستمرار. ولهذه الوسيلة جانبها العاطفي فهي قادرة على توصيل انطباع بأن المتكلم في حالة عاطفية لا تسمح له بالاستمرار في الحديث، كما كان الحال عند مارك أنتوني أثناء خطبته الجنائزية: "تحمّلوني، فإن قلبي في هذا النعش مع قيصر، ويجب أن أتوقف حتى يرجع إلي" (شكسبير، يوليوس قيصر، الفصل الثالث، المشهد الثاني). كما أن تلك الوسيلة قد تستخدم للتعبير عن الخجل المصطنع من التعبيرات الفاحشة أو حتى من الابتذال اليومي. انظر مثلا: "أستطيع أن أقول إن أختي لا تهتم بأن يقترب منها رجل- **لن أقول ما إن كان عمي توبي قد أكمل جملته** أم لا" (ستيرن تريسترام شاندي). (انظر: Figures of speech).

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الالتفات Apostrophē (باللاتينية: Aversio)

هو أسلوب بلاغي يبين انقطاعًا وقتيًا في الخطاب بغية التواصل مع مخاطَب غير المخاطَب الأصلي؛ سواء أكان حقيقيًا أم خياليًا؛ حيًّا أم ميتًا؛ حاضرًا أم غائبًا؛ إنسانيًا أم غير إنساني. وغالبًا ما يكون هذا التواصل بنبرة متحمسة. من مميزات هذا الانقطاع اللغوي التحول من نمط خطابي إلى نمط خطابي آخر، كأن ينتقل المتكلم مثلا في حديثه من النمط الحكائي إلى النمط الوصفي. [انظر، Figures of speech; Style].

مصادر ومراجع

Lanham, R. A. *A Handlist of Rhetorical Terms*. Berkeley. 1991.

Lausberg, H. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. pp.Pp. 762–765. Munich, 1960.

Mayoral, J. A. *Figuras retóricas*. pp.P. 113. Madrid, 1994.

Morier, H. *Dictionnaire de poétique et de rhétorique*. Paris, 1981.

تأليف: José Antonio Mayoral

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

البلاغة العربية Arabic Rhetoric

يغطي المصطلح العربي (*بلاغة*) البلاغة والبيان والفصاحة، أو نقاء اللغة واكتمالها. ومنذ استخدامها المبكر قبل الإسلام لم تتخل البلاغة أبدا عن احتوائها للأسلوب والمحتوى، ووضوح المخاطبة address وإيجازها بهدف تحقيق أقصى فعالية تواصلية. والجذر اللغوي للبلاغة يتضمن كلا من بلوغ الغاية والتأثير (حمادي صمود، ١٩٩٤، ص ١٠٠ - ١١٣). في حين أن نشأة المصطلح الغربي "يرتبط بالمعاني السياسية للمناظرة والحوار" (سميث، ١٩٩٢، ص ٢٤٣)، وتطوره للدلالة على علم البلاغة العربي يرتبط على نحو وثيق بالإسلام بوصفه ديانة وثقافة في سياق عربي على وجه الخصوص. فمنذ القرن التاسع للميلاد أصبح شعر عصر ما قبل الإسلام وخطب هذا العصر ميدانا للبحث من قِبَل فقهاء اللغة، وعلماء الدين، والنحويين، وذلك بهدف المحافظة على التراث القديم، وتعزيز التأثير والسيطرة على الثقافات التي اصطبغت بالإسلام، ومقاومة التبعية الثقافية. [انظر مدخل المديح Panegyric]. كان غرض البحث هو الحجاج والمناظرة على نطاق واسع. إثر ذلك تطورت الجهود بانضواء البلاغة تحت لواء شروح القرآن لمواجهة المخالفين، وسرعان ما نما هذا الجهد ليكوِّن مدونة ضخمة من الكتابات حول الشعرية والبلاغة، كان غرضها الأساسي - بمفردات الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ، ٨٦٨ م) - هو أن تحِوُل دون استحواذ المخالفين على "العقول الغضة والضحلة"، والأمر نفسه حفز علماء وبلاغيين آخرين على الانخراط في مشاريع مشابهة؛ ووفقا للجاحظ فإنه لو لم يكن ذاك هو الحال ما تكلف مشقة إجلاء الواضح، وإبراز المرئي، والمحاجاة بالدليل.

لقد أصبح الشغل الشاغل لهؤلاء العلماء والنحويين والنقاد، هو إنتاج تأويلات لأكثر الآيات تجسيمًا وتشبيها في القرآن الكريم، والمحاجحة بأنها آيات معجزة لا يمكن الإتيان بمثلها. لكن هذه الجهود لم تكن أبدًا متجانسة أو سلسة. وقد آمن بعض أعضاء جماعة المعتزلة من المتكلمين - وخصوصًا النظَّام - بمبدأ الصرفَة، الذي يقول بأن لغة القرآن يمكن محاكاتها من قِبَل البشر لكن الله صرفهم عن ذلك. في حين حاجج معتزلة آخرون بأن القرآن لا يمكن محاكاته بشكل مطلق. ولإحداث توازن بين هذه المواقف، احتُج بأنه "إذا تعارض النص الظاهر مع العقل، يكون دور التأويل هو تجاوز هذا التعارض لصالح الدليل العقلي"، وذلك على نحو ما يؤكد الشريف المرتضى (ت٤٣٦ هـ) (صمود، مرجع سابق، ص ٤١). وقد أصبحت هذه الموضوعات القوام الأصيل للنظرية العربية حول البلاغة والثقافة. لكن الانشغال الدقيق بشروح القرآن لم يتطلب تأويلا للأسلوب المجازي فحسب، بل تطلب أيضًا اهتمامًا بصناعة الكتاب، لمقاومة التحريف، وإنعاش التراث، والحيلولة دون النسيان، والحفاظ على الهوية، وضمان الانتشار. وقد لخص الجاحظ هذا التحول إلى عملية الكتابة من خلال مدح الكتاب لكونه مُتاحًا "بأن يكون مقروءًا في كل مكان، ومستذكرا دائما"، ما دام "قليل الثمن ويسهل الحصول عليه" (الجاحظ، البيان والتبيين، أي مصدر، جزء ١، ص ٨٠، ٤٧١). ويعني هذا التحول أن القراءة والفهم تفرض متطلبات بعينها على البلاغة، وتحولّها - إذا استخدمنا صياغة هانز جورج جادامر (١٩٨٢، ص ١٢٣) - "من فن صناعة الكلام إلى فن متابعة الخطابات بالفهم؛ أي تحويل البلاغة إلى علم للتأويل hermeneutics". [انظر مادة hermeneutics].

التراث

لقد ترك التقسيم الثنائي بين القدماء والمحدثين أو الأدبي والعلمي بصمتَه على البلاغة العربية وتوجهاتها. لقد قال الجاحظ إن المعاني مطروحة على الطريق (نقلا عن "أبو ديب"، ١٩٩٠، ٣٥٤)، وهكذا حظي الأسلوب بوصفه حرفة أو بيانًا *elocutio* بالاهتمام الأقصى. وقد كتب أبو عبيدة (توفي في ٢٠٩ هـ، ٨٢٥/٨٢٤) كتابه (مجاز القرآن)، وتوسع في مفهوم المجاز ليصبح (كل انحراف عن المعيار) ص ٣٦٢، وتبعه ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ - ٨٨٩م) - من بين آخرين - بكتابه (تأويل مشكل القرآن)، الذي يربط قضية المجاز باللغة العربية، ويقوم بإدراج الكثير منها تحت عنوان مجازات.

يتجاوز مفهوم المجاز عنده الاستعارة بمفهومها المحدد، ليشمل مجازات تقوم على التجاور والتقابل التركيبي، والحذف والحشو والإطناب وذلك بمصاحبة العدول النحوي[1]. اشترك النحويون في هذا الجهد؛ فقد صك ابن جني (ت ٣٩٢هـ؛ ١٠٠٢م) مصطلح *العدول* ليشير إلى الانحراف عن الحقيقي أو الحرفي، وهي مسألة استكملها الزمخشري (ت ٥٣٨هـ؛ ١١٤٤م) لاحقًا في كتابه الكشّاف (القاهرة، ١٩٤٨، الجزء الثالث، ص ١٣٣)، عندما صك مصطلح *اللحن* ليعني به توجيه الكلام لكي يجذب انتباه المخاطَب بواسطة القصص والألغاز والسخرية وما شابه. لكن تفسيرات المجاز ركزت مع ذلك، على المعاني غير الظاهرة، كما يؤكد عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ؛ ١٠٧٨م). ويحاجج إسحاق ابن وهب (ت ٣٣٥ هـ - ٩٤٧/٩٤٦م) ضد مواجهة فائض من الكلمات، في كتابه "البرهان في وجوه البيان" "بأن العرب لجأوا إلى المجاز"، وهي فكرة تبناها ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ؛ ١٠٦٣م) أيضًا في كتابه *العمدة*. وفي القلب من مناقشات

---

(١) خروج الاسم عن صيغته الأصلية تحقيقًا أو تقديرًا، (نقلا عن كافية ابن الحاجب).

البلاغة، دفع هذا الثراء المجازي المدهش الفيلسوف العربي الفارابي (ت ٣٨٩هـ) للمحاججة بشأن المسألة مستخدمًا مفردات اجتماعية بنيوية "إذا استقرت الألفاظ على المعاني التي جعلت علامات لها.. صار الناس بعد ذلك إلى النسخ والتجوز في العبارة بالألفاظ فعُبّر بالمعنى بغير اسمه الذي جُعل له أولا" (الفارابي، ١٩٧٠، نقلا عن: صمود، ١٩٩٤، ص ٤٠٥)[١]. ويلخص الفارابي هذا الاتجاه بأسره مبينًا أنه توسع في العبارة بتكثير الألفاظ وتبديل بعضها ببعض وتحسينها. فيبتدي حين ذلك في أن تحدث الخطبية أولا ثم الشعرية قليلا قليلا"[٢].

نظرا لأن معظم الإسهامات حول الأدبي والمجازي نشأت في إطار التفاسير القرآنية، فإنها اعتمدت على البيئة الثقافية بمجملها بوصفها سياقًا، ليس فقط في تلك القراءات المتعلقة بالإعجاز القرآني بالمقارنة بشعر المحدثين، على نحو ما يحاجج الباقلاني (توفي في ٤٠٣ هـ، ١٠١٣ م) على سبيل المثال؛ ولكن في التحليل المعمَّق للبيان أيضًا. وبالنسبة للجاحظ فإن البيان – الذي يتداخل مع البلاغة والخطابة – يتطلب استخدامًا محددًا للخطاب، يتناسب مع بيئة بعينها، في حين أنه يضع في ذهنه الأغراض التي يسعى البيان لتحقيقها. من ثم فإن "سياسة البيان أصعب من البيان[٣]".

فالخطابة بالنسبة لمعتزلي مثله ضرورية لإقناع الآخرين والتأثير فيهم. لكنها ليست متاحة للجميع، لأن "رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحيها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاءها تخير اللفظ" (البيان والتبيين،

---

(١) النص الوارد في الأصل الإنجليزي غير واضح في ترجمته. وقد نقلت النص عن حمادي صمود، كما نقله مؤلف المدخل. (المترجم).

(٢) الفارابي، كتاب الحروف، ص ١٤١، بتحقيق محسن مهدي. (المراجع).

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ١٧٩. والنص الأصلي في كتاب الجاحظ هو "سياسة البلاغة أشد من البلاغة"، وهو قول منسوب لسهل بن هارون. (المترجم).

ج١، ص ٤٤). وفي المواضع التي يُعنى فيها الجاحظ خاصة بالبيان أو أنماط التمثيل في التعبير البياني، فإنه يختزل البلاغة إلى البيان، لأنه -كما يتضح من استخدامه لبحث بشر بن المعتمر المعتزلي - يركز على الحجاج بهدف إتاحة المعرفة وإتاحة الفرصة للآخرين للتشارك في الفهم (ج١، ص ٤٣، ٧٦).

على الرغم من أنه ليس من اليسير تنظيم آراء الجاحظ فإنها أصبحت من المعرفة المشتركة بين التوجهين المتناميين في البلاغة والبيان: التوجه الأدبي الخالص من ناحية، والمدرسي (الاسكولائي) من ناحية أخرى، بسجلات registers محددة، ومخططات لاستثارة عواطف الجماهير *pathos*. في بعض الأحيان كان لناقد مثل عبد القاهر الجرجاني إسهام في التوجهين كليهما. ينتمي إلى التوجه الأول -من بين علماء كثيرين - كل من الشاعر والناقد ابن المعتز (توفي ٢٩٦ هـ، ٩٠٨ م)، وأبو هلال العسكري (ت ٤٠٠ هـ وحوالي ١٠١٠ م)، وابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ، ١٠٦٣ م)، والجرجاني في كتابه أسرار البلاغة، وأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ م)، وابن الأثير (ت ٦٣٨ هـ، ١٢٣٩ م). يمكن للتوجه الاسكولائي أن يشمل قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ، ٩٦٨ م)، وابن وهب، والجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز، والخطابي (ت ٣٨٨ هـ، ٩٨٨ م)، والباقلاني، والرماني (ت ٣٨٦ هـ، ٩٩٦ م)، والشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ، ١٠١٦ م)، والرازي (ت ٦٠٦ هـ، ١٢٠٩ م)، والسكاكي (ت ٦٢٦ هـ، ١٢٢٨ م)، والقزويني (ت ٧٣٩ هـ، ١٣٣٨ م)، والتفتازاني (ت ٧٩٢ هـ، ١٣٨٩ م)، إضافة إلى عدد كبير من العلماء وفقهاء اللغة.

لقد أعطى (كتاب البديع) لابن المعتز قوة دافعة للاهتمام الحثيث بالاستراتيجيات البلاغية ومعايير التخاطب، خاصة "مجازات الكلام والأدوات الأسلوبية"، بمعية موضوعات "كانت أقرب إلى النحو منها للنظرية الأدبية"،

كما يلاحظ بونباكر (1990, p. 390) بحق. لقد كان كتاب (البديع) خلاصة آراء قدمها آخرون أمثال عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ، ٧٧٠ م)، وخلف بن الأحمر (ت ١٨٠ هـ، ٧٩٦ م)، ويونس بن حبيب (ت ١٨٢ هـ، ٧٩٨ م)، وثعلب (٢٩١ هـ، ٩٠٤ م)، والأصمعي (ت ٨٢٨ م)، (انظر بونباكر Bonebakker, 1990, p. 405).

الأهمية الفعلية لكتاب (البديع) تكمن في توقيته وتنظيمه وصياغته للمبدأ البلاغي ومكانته بعيدًا عن النطاق الواسع متعدد الاختصاصات الذي قدمه الجاحظ. فقد أُعطي البيان في كتاب (البديع) الأفضلية، وحظي النص بتقدير أكبر مما حظي به السياق (صمود، ١٩٩٤، ص٣٨١). لقد ظهر الكتاب عندما اشتد الخلاف حول شعر المحدثين، واستخدامهم المعقد للغة المجازية. كان هناك جدل حامي الوطيس حول المطبوع والمصنوع من الشعر، خاصة فيما يتعلق بشعر أبي تمام (ت ٢٣١هـ - ٨٤٥م). لقد انتقد البعض تجديدات أبي تمام، بينما احتج آخرون بأن البديع الموجود في شعره ليس غريبًا على التراث، بما فيه القرآن الكريم. وكتب النقاد بحوثًا شكلت مبادئ البلاغة والنقد منذ ذلك الوقت، وأسست توجهًا نحو الوساطة والموازنة. في هذه الكتابات - التي قدمها من بين علماء آخرين القاضي عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ، ١٠٠١ م)، وابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ، ٩٣٤ م)، والآمدي (ت ٣٧٠ هـ، ٩٨١ م)، والحاتمي (ت ٣٨٨ هـ، ٩٩٨ م) استُخدمت الأدوات البلاغية بكثافة لتحقيق الإغراب والتعجب. وعلى الرغم من أن ابن المعتز وتابعيه استخدموا سلطة الكتابات الأقدم، خاصة القرآن الكريم، لكي تدعم الجديد؛ فإن حجتهم مُحفزة على التجديد، حيث أصبحت البلاغة حقلا للبحث.

لم يُضمَّن البديع –الذي نشأ عبر الاستخدام المتعمَّد مبدأً للفن (هاينريش Heinrichs, 1973, p. 25) – بوصفه زخرفة بلاغية بشكل منظم في علم البلاغة أو البيان حتى ظهور كتاب "تلخيص المفتاح" للقزويني، الذي قدم فيه تلخيصًا منظمًا لكتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي، وأضاف البديع إلى مكونيه الآخرين: علم المعاني (التصورات والتراكيب والمعاني) وعلم البيان (أنماط التمثيل والتعبيرات البيانية). بصياغة أخرى، يمكن القول إن الرازي والسكاكي والقزويني –من بين علماء آخرين – جعلوا من إسهام عبد القاهر الجرجاني حول البلاغة أكثر تنظيمًا وفائدة وقابلية للفهم.

لقد كتب عبد القاهر الجرجاني (أسرار البلاغة) كمؤلَّف تصنيفي للأسلبة المجازية، حيث يشير المجاز إلى التشابهات المجازية بين الأشياء، منعزلة عن الأدوات غير المجازية المتضمنة بالفعل في كتابات الأسلاف التي تحظى بالتقدير مثل كتاب قدامة "جواهر الألفاظ". فمجازه المرسل ينبع من التجاور في بنيته العميقة، لكنه يقوم كذلك على عدم التماثل بين عناصر منفصلة، في علاقة تساندية؛ في حين أن الكناية تقترح، من بين المجازات الأخرى، وجود صلة خفية، "معنىً للمعنى" لا يمكن الوصول إليه من خلال القراءة السطحية. ويحدد الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز (1969, pp. 262–263) رابطًا أو وسيطًا يقود إلى المعنى الخفي، الذى لا يمكن أن يصل إليه التعبير اللفظي غير المعضد. تفترض حجته وجود استجابة للقارئ؛ فالجرجاني –وفقًا للتحديد الذي وضعه ريتر – أنجز "نقدًا جماليًا مبررًا بحجاج سيكولوجي". يبرهن الجرجاني –من خلال تمييزه بين التشبيه والتشبيه التمثيلي بهدف تحسين نظريته للمجاز في بُعديها اللفظي والعقلي – على أن الخطاب يستمد بيانه من عناصره المجازية، بما فيها التعليل المتخيَّل phantastic etiology مع استجابة قارئه، نظرًا لأن الشكل المجازي يجد "علة مصطنعة خيالية fictitious للحقيقة في الواقع" (هاينريش

Heinrichs, 1998, p. 657). الاستعارات التي تحل محل الاستعاري (انظر، الجرجاني 1954, p. 21) شدت اهتمام الجرجاني أيضًا إلى اهتمامه الأساسي المتوجه نحو "أسرار" البيان.

على الرغم من توافق عبد القاهر الجرجاني مع مفهوم الجاحظ للبيان بوصفه "إشارة لطيفة لمعنى خفي"، ومع مفهوم قدامة لأعذب الشعر بوصفه "أكذبه" (بونباكر Bonebakker, 1956, p. 36)؛ فإنه يقوم ببحوث وتحليلات تتجاوز البلاغة العامة إلى مجالات التفاعل النفسي. وفي الواقع فإن كلا من قدامة وابن المعتز أسَّسا حقلا معرفيًا للتحليل الأسلوبي "تنتج عنه زخارف صناعية إضافية" (بنبكر Bonebakker, 1956, p. 46)، وقد أثار الجرجاني في أسرار البلاغة أسئلة حفزت الاهتمام بالمجازات في الخطاب، وأعطى دفعة في كتابه *دلائل الإعجاز* لعلم الدلالة بوصفه لا غنى عنه للبلاغة في هذا الكتاب الأخير. يحلق الجرجاني فوق المشهد، ويعيد توجيه كل الخلاف حول مجاز القرآن نحو نظريته للنظم، حيث العلاقات البنيوية هي التي تُبرز المعنى وليس المفردات.

لقد قدم أسلاف الجرجاني ومعاصروه –خاصة الرُماني والباقلاني والخطّابي– إسهامات دالة. يقسِّم الرماني البلاغة إلى عشرة أجزاء تشمل: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتقسيم.. إلخ، بينما يتأمل الباقلاني النظم في ضوء الأنواع الشعرية. كان الأقرب إلى عبد القاهر الجرجاني هو الخطابي الذي يفكر في النظم بوصفه وضعًا للألفاظ في مواضعها. لكن الجرجاني (1372 h. ; p. 96) يعتقد أن الترابط الداخلي هو بعد دلالي؛ فالألفاظ "تأخذ صيغة محددة بوصفها خادمًا وتابعًا للمعنى.

ينطوي مثل هذا الاهتمام بالتحليل النصي على تحول عظيم نحو الاهتمام بالكتابة. وبذلك فرضتْ البلاغة مكانة خاصة بها، مستقلة عن البيان.

ويجدر بنا ألا نستغرب أن أحد معاصري عبد القاهر الجرجاني هو ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ، ١٠٧٢ م) يحدد البيان بوصفه مستوى "نعت للألفاظ وتصوير لها"، بينما "البلاغة هي نعت للألفاظ والمعاني" (١٩٣٢)[١]. وقد حاجج أبو هلال العسكري (ت ٤٠٠هـ - ١٠١٠م؟) من قبل بأن البيان خاصية للمتكلم لا الكلام" (١٩٧١).

القرن العشرون

لقد دفع كم التعقيد في علم البلاغة المثقفين العرب في القرن العشرين إلى البحث عن المؤثرات الهللينية، استنادا إلى وجود تعليقات وإشارات إلى البلاغيين والفلاسفة اليونانيين. لقد بذل طه حسين وأمين الخولي وشكري عياد وعبد الرحمن بدوي وقتًا وجهدًا ليتتبعوا أثر هذه التأثيرات؛ وتحت هيمنة التراث الغربي، تجاهلوا التراث الهندي والفارسي (انظر، صمود 1994, p. 75-81؛ وبينبكر 1990, p. 408). ومع ذلك، فإن الجاحظ (ج٣، ص ٢٧ - ٢٨) قد انتقد بالفعل ما فهمه على أنه افتقاد اليونانيين لمنجز بلاغي يوازي منجزهم الفلسفي. ويحاجج فون جرونباوم (1986, p. 983)، استنادًا إلى دراسة بنبكر عن كتاب قدامة "نقد الشعر"، أن الحضور اليوناني -إذا استثنينا قدامة - أضعف من أن يبرر النقاش حوله؛ نظرًا لأن أفكار أرسطو ظلت غريبة على مسلمي العصر الوسيط. لقد أغرى كتابا أرسطو "في الشعر" و"الخطابة" علماء مثل الحاتمي (ت ٣٨٨ هـ، ٩٩٨ م) -على سبيل المثال - باتجاه عقد المقارنات وتتبع المؤثرات في شعر المتنبي، كما تحاول رسالة الحاتمي البرهنة على ذلك. وبوجه عام، فإن أعمال أرسطو- كما يشير هاينريش (1998, p. 654) - ظلت محصورة في نطاق الفلاسفة لفترة طويلة،

---

(١) هناك لبس بين الفصاحة والبيان عند كاتب هذا المقال. فابن سنان يميز في هذا النص بين الفصاحة والبلاغة. (المترجم).

بينما لم يولها المنظِّرون الأدبيون أي اهتمام". وبنباكر أكثر يقينًا بأن منظِّري الأدب "كانوا يتعاملون مع مقولات أدبية مغايرة تمامًا لتلك التي ناقشها أرسطو".

ما تزال الكتب المدرسية للبلاغة العربية متمسكة بأنماط التصنيف البلاغي كما قدمها القزويني والسكاكي وهذا دليل على الطبيعة الخاصة للبلاغة العربية. فبمعية كتاب الكشاف للزمخشري، استمرت هذه المؤلفات في إمداد الكتب المدرسية الرائجة – مثل كتاب البلاغة الواضحة لعلي الجارم وأحمد أمين – بالمنهج والنسق والأمثلة. في مفارقة ساخرة، وبغض النظر عن الجهود التي بذلها العلماء العرب في بواكير القرن العشرين لعقد صلات مع البلاغة اليونانية؛ فإن البلاغة العربية صنعت إنجازها من خلال اللجوء المتصل إلى التراث؛ ونشر بعض مخطوطاته، وإعادة تحرير بعضها اللآخر. لقد قام العلماء بدراسات بلاغية مكثفة في توجهات البلاغة المدرسية والأدبية واللغوية، ربما بدافع تحدي الحداثة أو مواجهة حالة التلاعب التي تمارسها الخطابة، وكما لو كانت تتحدى الاندماج في التواصل الجماهيري والجدل السياسي أو الطبقي بشأن الضرورة والملاءمة. وما بين الخطابة المكرسة لوسائل الإعلام والبلاغة المكرَّسة للجماعات الثقافية الراسخة تستعيد الكثير من الحجج التليدة صلاحيتها وملاءمتها.

قائمة المصادر والمراجع

Abū Deeb, Kamal. "Literary Criticism." In *Abbasid Belles - Lettres*, edited by Julia Ashtiany, et. al., pp. pp. 339–387. Cambridge, U. K., 1990.

يقوم بتقديم تغطية للنقد الأدبي، مع انحياز للمدرسة الشكلية.

Al - Askarī, Abū Hilāl. *Kitāb al - Ṣinā atayn* (Book of the Two Crafts, i. e., Poetry and Prose). pp. P. 14. Cairo, 1971.

Bonebakker, S. A. *The Kitāb Naqd al - Šir of Qudāma b. Ğa - far*. Leiden, Netherlands, 1956.

للمقدمة بعض الأهمية، نظرا لأنها تضع النص (الترجمة الأصلية) في سياق النقد الأدبي.

Bonebakker, S. A. "Ibn al - Mu tazz and Kitāb al - Badī." In *Abbasid Belles - Lettres*, edited by Julia Ashtiany, et al., pp. pp. 388–411. Cambridge, U. K., 1990.

تحاول هذه القراءة شرح مغزى الكتاب، وهي دراسة مدققة وموثقة جيدًا.

Al - Fārābī. *Al - Hurūf*. edited by Muhsin Mehdi, pp. p. 141. Beirut, 1970.

Gadamer, Hans - Georg. *Reason in the Age of Science*, translated by Frederick G. Lawrence, 1981; Cambridge, Mass., 1982.

Grunebaum, G. E. von. "Arabic Literary Criticism in the 10th Century." In *Themes in Medieval Arabic Literature*, edited with a foreword by D. S. Wilson, preface by S. Vryonis, Jr. London, 1981.

تحليل جيد، مع ميل المؤلف المعروف للمقارنة مع ثقافات أخرى خاصة الأدب اليوناني.

Grunebaum, G. E. von. "Balāgha." In *Encyclopedia of Islam*, new ed., edited by A. R. Gibb, et. al., pp. pp. 981–983. Leiden, 1986.

هذه واحدة من المساهمات الرئيسية الموجزة حول الموضوع.

Heinrichs, W. P. "Literary Theory: The Problem of Its Efficiency." In *Arabic Poetry: Theory and Development*, edited by G. E. von Grunebaum and Otto Harrassowitz. Wiesbaden, 1973.

تثير هذه المساهمة تساؤلات عديدة، ولها معرفة وثيقة بالنقد العربي.

Heinrichs, W. P. "Rhetoric and Poetics." In *Encyclopedia of Arabic Literature*, edited by Julie Scott Meisami and Paul Starkey, vol. 2, pp. pp. 651–662. London, 1998.

تحليل مدقق واسع الاطلاع، ينحاز إلى التراث الأدبي.

Ibn Jinnī. *Al - Khaṣā"iṣ*. Beirut, n. d.

Al - Jāḥiẓ. *Al - Bayān wa - al - Tabyīn*, edited by Abd al - Salām Hārūn, 4 vols. Cairo, n. d.

Al - Jāḥiẓ. *Rasā"īl* (Epistles), edited by Ḥassan al - Sandūbī, pp. p. 119. Cairo. 1933.

Al - Jāḥiẓ. *Al - Ḥaywān*, edited by Abd al - Salām Hārūn. Cairo, 1969.

Al - Jurjānī, Abd al - Qāhir. *Dalā"il al - I jāz*. Cairo, 1372 h. ; also edited by A. M. Khafājī. Cairo, 1969.

Al - Jurjānī, Abd al - Qāhir. *Asrār al - Balaghā* (Mysteries of Eloquence), edited by H. Ritter. Istanbul, 1954. Also edited by A. M. Khafājī. Cairo, 1972.

Al - Khafājī, Ibn Sinān. *Sirr al - Faṣāhah* (Secret of Eloquence). pp. Pp. 3–4. Cairo, 1932.

Kratchkovsky, Ignatius, ed. *Kitāb al - Badī of Abd Allāh Ibn al - Mu tazz*. London, 1935.

Al - Sakkākī. *Miftāḥ al - Ulūm*. Cairo, 1937.

Ṣammūd, Hammādī. *Al - Tafkīr al - Balāghī inda al - Arab* (Arab Rhetorical Thought). 1981; reprinted Tunis, 1994.

Smyth, William. "Rhetoric and Ilm al - Balāgha: Christianity and Islam." *Muslim World* 82. 3–4, (July–October 1992), pp. pp. 242–255.

محاولة للمقارنة بين الاختلافات وتحديدها، ربما يكون مفيدًا لغير المتخصصين.

Smyth, William. "The Making of a Textbook." *Studia Islamica* (Paris) (1993), pp. pp. 99–115.

مسح عام يتضمن قائمة جيدة بالموضوعات الأساسية لغير المتخصص.

تأليف: Muhsin J. al - Musawi

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

الحجاج Argumentation

الحجاج هو تقديم براهين بواسطة البشر لتبرير معتقداتهم وقيمهم وللتأثير في أفكار الآخرين وأفعالهم. الاهتمام الأساسي لهذه الدراسات هو عقلانية الادعاءات التي يتم تقديمها في الخطاب ووجاهتها. ويعتمد هذا بالمقابل على ما إذا كانت الادعاءات يتم تبريرها أو أنها تتكئ على دليل أو استدلال مقبول في حد ذاته، ومن ثم تكوّن برهانًا عقليًا صالحًا للدعوى. [انظر الاستدلال: **Inference**]. يتضمن الحجاج مكونًا معياريًا أو قيميًا قويًا، كما تتضمن دراسته بعدًا تربويًا قويًا، على الرغم من وجود دراسات وصفية عديدة تقوم بالتعرف على ما يعتقد الناس أنه براهين عقلية صالحة للدعاوى المطروحة في سياقات ومواقف متباينة.

يتسم مجال دراسات الحجاج بالاتساع. يمكن تصوير الحجاج بأنه نمط معين من الخطاب أو منظور يمكن تطبيقه على أي خطاب، من خلال التركيز على بُعد تقديم البراهين العقلية. المقاربة الأولى ربما تميز الحجاج عن أنواع مثل الوصف والسرد التي لا تتعلق بشكل مباشر بصنع ادعاءات وإعطاء براهين. على خلاف ذلك فإن المقاربة الأخيرة ربما تتيح التعرف على أبنية برهانية ضمنية في القصص أو في اختيار العناصر في وصف ما، بل ربما حتى تقوم بفحص "النصوص" غير اللفظية أو غير الخطابية بوصفها تدريبات على صنع الادعاءات والدفاع عنها. على نحو مشابه فإن وحدة التحليل في الحجاج ربما تتراوح من عناصر الحجاج الفردي وصولا إلى

الجدل الاجتماعي الذي يتطور عبر الزمن. تفحص دراسات المستوى "الأصغر" الادعاءات الفردية، وتصف كيف تعمل، وتقيِّم قوتها. أما دراسات المستوى "الأوسط" فتفحص تجميع عدد من الادعاءات في وحدة أكبر كخطبة أو مقال. وأخيرًا تستكشف دراسات المستوى "الأكبر" ديناميات الخلاف الذي يشترك فيه كثرة من المدافعين، ويُحتمل أن يمتد عبر الزمن.

مع ذلك، فإن هذا الوصف ذاته لا يُفلح في وصف مدى تنوع دراسات الحجاج. فهناك اختلافات حول الإيمان بوجود سمات جوهرية للحجاج، والمنظور الذي تُدرس من خلاله. يميز دانيل ج. أوكيف (١٩٨٢) بين "صنع حجة making an argument"، و"المشاركة في حجاج "having an argument"، فالأولى تصميم لنوع من النصوص، أما الثانية فهي نوع من التفاعل. وقد تولَّد من هذا العمل التمييز بين الحجاج بوصفه منتَجًا والحجاج بوصفه عملية. وقد اقترح "جوزيف وانزل" (١٩٩٢) Joseph Wenzel تقسيما ثلاثيًا مؤثرًا هو: الحجاج بوصفه منتَجًا وإجراءً وعملية. ويشير كون الحجاج إجراءً إلى الأعراف المنظمة مثل تلك التي يختص بها الحجاج في قاعات المحاكم، أو المناظرات في المجالس التشريعية، في حين أن كون الحجاج عملية تحدد نشأة الخلافات وإدارتها وحلها في التفاعل العادي غير الرسمي. وقد أصبح التمييز بين المنتَج والعملية والإجراء شائعًا. لقد تم الوقوف بوضوح على منظور رابع في عمل دال هامبل (١٩٩٢) Hemple الذي تعامل مع الحجاج بوصفه عملية معرفية تحدث داخل الأفراد قبل التفاعل. لكن هذا التوجه لم يجتذب نفس القدر من الاهتمام الأكاديمي الذي حظيت به المقاربات الثلاثة التي حددها "وانزل".

لقد تم تصنيف الحجاج كذلك بوصفه يمثل منظورات المنطق والجدل والبلاغة. ويبدو هذا مخططًا تصنيفيًا نافعًا لكنه لا ينسجم مباشرة في تصنيف

"وانزل" للمنتج والإجراء والعملية. فالنصوص - على سبيل المثال - يمكن أن تكون نتاجًا للجدل أو البلاغة أو المنطق. وبالنسبة لهذا الأمر، فإن مصطلح المنطق Logic يتضمن تقاليد المنطق الصوري وأعمال المناطقة غير الشكلانيين الذين تقبلوا مفاهيم إجرائية قريبة من الجدل. [انظر، الجدل Dialectic والمنطق Logic].

الحجاج بوصفه مُنتَجًا

حتى وقت قريب هيمنتْ دراسات النصوص على حقل دراسات الحجاج، سواء أكانت ادعاءات فردية أم وحدات أكبر من الخطاب. وقد تم التمييز بين الخطاب الحجاجي والخطاب السردي والخطاب الوصفي والخطاب الاستعراضي، استنادا إلى حقيقة أن الخطاب الحجاجي يصنع ادعاءات للمخاطَب ويسعى لتبريرها. لقد كانت الدراسات النصية تسترشد أساسًا بمعايير المنطق، والوظيفة المبدئية لمثل هذه الدراسات كانت تقييم ما إذا كانت الحجج صالحة أم غير صالحة. وكان معيار الصلاحية يتحدد بما إذا كانت النتائج لازمة للمقدمات. لم يكونوا يعنون بذلك أن النتائج صحيحة، بل يعنون أنه إذا كانت المقدمات صحيحة فإن النتيجة يجب أن تكون كذلك. والشكل المنطقي النموذجي هو القياس الصوري، حيث توجد سلسلة من الادعاءات الافتراضية، بمقدمات محددة تؤدي إلى نتائج. [انظر، Syllogism]. لو أن شكل الحجاج غير صحيح، بما لا يستتبع النتيجة، فإن القياس الصوري يصبح غير صالح. ومن ثم فإن الصلاحية هي اختبار للشكل لا تتعلق بمحتوى الحجاج. الأنماط الأساسية للأقيسة هي الأقيسة الحملية[1] categorical

---

(١) الأقيسة الحملية هي التي تتكون من ثلاث قضايا حملية وثلاثة حدود، ويشترط أن تكون إحدى القضيتين على الأقل موجبة. والقضية هي الجملة الخبرية التي تتكون من موضوع ومحمول. (المراجع).

(تحتوي على قضايا عن المقولات)، والشرطية conditional (تتضمن قضايا إذا - إذن)، والشرطية المنفصلة disjunctive (تتضمن قضايا إما - أو ونتائج حول حضور أو غياب أحد البدائل). لقد تم اعتبار القياس الصوري نموذجًا للحجاج، وتم وصف الحجج الأقل نسقية أحيانًا بأنها "شكلانية تطبيقية applied formalism". وكان الافتراض هو أنها تطمح إلى الوصول لمعايير القياس الصوري دون أن تحقق ذلك.

انتقدت جموع من الباحثين فى أثناء القرن العشرين المكانة المتميزة التي يشغلها القياس الصوري في دراسات الحجاج. كان من بين هؤلاء النقاد، من بين آخرين، الفيلسوف ستيفن تولمان Stephen Toulmin وشيم بيرلمان Perelman Chaim وعالِما المنطق سي إل هامبلين C. L. Hamblin ودوجلاس والتون Douglas Walton. وكان موقفهم الأرسخ هو أن القياس نموذج إرشادي paradigm غير مناسب للحجاج. فهو يصف حالة غير نمطية للغاية من البرهنة؛ تحدث في إطار نظام مغلق تعيد النتيجة فيه بالكاد ترتيب المعلومات المتضمنة في المقدمات ويقترح هؤلاء النقاد أن البرهنة على أمور الشأن الإنساني لا يمكن - ولا يجب - أن تنحو تجاه هذا المعيار. ففي حين أن المنطق الصوري استنباطي فإن معظم أمثلة البرهنة تكون استقرائية تصنع (وتبرِّر) قفزة استدلالية مما هو معروف بالفعل إلى النتيجة التي يرغب المرء في تأسيسها. وقد اقترح تولمن (١٩٥٨) بنية بديلة للحجاج تشتمل على عناصر احتمالية لا يقينية. فبالإضافة إلى المعطيات والبيِّنة warrant (وهي المقدمة الأساسية في القياس الصوري)، والدعوى claim، أضاف الصلاحيات والطعون والأسانيد. وبهذه العناصر الإضافية، تعامل مع قوة الحجة بوصفها مسألة تباين في درجة القوة. لقد استُخدم نموذجه على نطاق واسع في تعليم الحجاج، على الرغم من أن بعض النقاد أكدوا أن أي

نمط أو مخطط تمثيلي للحجاج هو تشويه لعمليات الاستدلال والبرهنة التي تحدث بشكل طبيعي. وقد اقترح بيرلمان (١٩٦٣) أن قاعدة العدل هي أكثر معايير الصلاحية أساسية: فالكائنات المتشابهة بشكل جوهري يجب أن تعامل بنفس الطريقة. وقد ركز مناطقة غير صوريين مثل هامبلين (١٩٧٠)، ووالتون (١٩٩٥) على أنماط الحجاج التي يعتبرها المناطقة الصوريون مغالطات. فالعديد من أنماط البرهنة تلك هي معقولة تماما بالنسبة للمناطقة غير الصوريين. وكونها تنطوي على مغالطات أم لا إنما يتوقف على ما هو أكثر من صورة الحجاج فحسب؛ فهو يُدرج أيضًا مسلمات مؤسِّسة للسياق الذي تُستخدم فيه. لتحديد ما إذا كانت الحجج صالحة أم لا؛ فإن عملهم يأخذ في الاعتبار التجربة الإنسانية، والاختلافات في المعنى، موضوعات الاستخدام اللغوي أكثر من مسائل الشكل.

لقد تشكك الباحثون في البلاغة أيضًا في ملاءمة القياس الصوري ليكون النمط المركزي للبرهنة. فبالنسبة إليهم، يسعى الشخص الذي يقوم بالحجاج ليس إلى تكرار ما هو معروف بالفعل بل إلى نقل المخاطَب من نقطة بداية الحجة إلى قبول الموقف الذي يرغب في دعمه. وقد دعا علماء البلاغة من ثَمَّ إلى الاهتمام ليس بالقياس الصوري بل بقياس آخر وثيق الصلة به، هو القياس المضمر enthymeme، كما هو موصوف في عمل أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد). فالقياس المضمر يستمد مقدماته -سواء أكانت ظاهرة أم ضمنية - من المعتقدات المقبولة لدى الجمهور، وهو ليس مجرد قياس صوري يفتقد أحد المقدمات [انظر مادة القياس المضمر **Enthymeme**]. هذه المعتقدات تشكل صلب المعرفة الاجتماعية للجمهور، وتؤطر اختبار صلاحية الحجج البلاغية. والافتراض هو أن المتكلم البليغ يتجادل مع جمهور ما، ولا يمكن أن يؤسس حجة صالحة إلا من خلال التعاون مع هذا الجمهور. [انظر المعرفة الاجتماعية **Social knowledge**].

الحجاج بوصفه إجراءً

بدأت دراسات الحجاج بوصفه إجراءً بافتراض أن الحجاج يختلف عن الأنماط الأخرى للتعبير عن عدم الموافقة (مثل ألوان السخرية، والنعوت السلبية) باستحضار قواعد أو معايير تنظم ممارسة الخطاب. فعلى المستوى الأكثر أساسية، فإن وجود خصم بذاته يفرض معايير على الحجاج. نظرا لكون حجة المرء معرضة للتدقيق والتفنيد بواسطة الخصم الذي يحاججه فإن المرء تكون لديه كل المحفزات على الدفع بحجج قوية قاهرة: فالحجج الضعيفة أو المبنية على مغالطات يُحتمل أن لا تصمد أمام تدقيق المتحاوَر معه. وأحيانًا تُنتقد السمة التنافسية للحجاج لأنها تقوض من احترام الآخرين ومن الحساسية بين الأشخاص؛ لكن هذه لن تكون الحالة إذا ما اعترف المتحاجون بأن الطبيعة التبادلية لعلاقتهم –بوصفهم مدافعين عن حججهم ومفندين لحجج الآخرين في الآن نفسه – تمكنهم من تنظيم تنازعاتهم، وتضيف إلى قيمة خطابهم.

توجد في بعض المواضع قواعد موضوعات أكثر شفافية. وربما كان الحجاج القانوني والعلمي المثال الأكثر وضوحًا، لكن يوجد في جميع المهن أنماط راسخة لتحديد الدليل والبرهنة من خلاله. [انظر مادة السياسة Politics، مقال عن مجال الحجاج الشخصي والتقني والعام]. كذلك توجد أعراف إجرائية تسترشد بها الأوضاع التشريعية والكثير من المناظرات العامة. لا يتضمن هذا أمورا سطحية مثل التقسيم المتساوي للوقت بين المتحاجين فحسب، بل تتضمن أيضًا أمورا أكثر جوهرية مثل إلزام المتحاجين بإقامة الدليل على صحة ادعاء ما، وتحديد ما يُعد صرفًا عن هذا الإلزام. إن الغرض من التنظيمات الإجرائية هو نفسه الغرض من بناء الصلاحية في المنطق الصوري: أعني تعزيز إمكانية الوصول إلى نتائج حسنة، وتقليل مخاطر قبول النتائج غير الحسنة.

والمبرر وراء أي إجراء محدد هو إما أنه قد حقق هذه الغايات عبر الزمن، أو أنه يُحتمل – بسبب طبيعته – أن يحققها.

لقد تم تطبيق منظور الحجاج بوصفه إجراءً في السنوات الأخيرة على الحجج غير الصورية بدرجة أكبر. فعلى يد علماء من جامعة أمستردام – بقيادة فان إيمرين van Eemeren وجروتندورست Grootendorst – تم تطوير مقاربة عرفت بالجدليات الفاعلة pragma - dialectics. يتكئ عمل هذا الفريق على نظرية أفعال الكلام، التي تفترض شروطاً "للباقة felicity"، أو حالات لابد أن تنجز لتلفظ ما يمكن اعتباره فعل كلام من نمط معين: مثل التهديد أو الوعد على سبيل المثال. من خلال تطبيق هذه المقاربة على المناقشات الحجاجية قاموا بتحديد معايير يعتقدون أنها تساعد على تأسيس الكيفية التي يتوافق فيها الخطاب مع ظروف الخطاب المثالي لحل الخلاف القائم. ويتراوح هذا بين قاعدة أن الأطراف المشاركين في مناقشة حجاجية يجب عليهم ألا يمنعوا الآخرين من تعزيز شكوكهم حول منطلقاتهم وإعلانها، وقاعدة أنه لا يُسمح لأي طرف أن يستخدم صيغاً formulations غير واضحة بشكل كاف، وأن الشخص يجب عليه أن يؤول صيغ الطرف الآخر بأقصى درجة ممكنة من الحذر والصحة. هذا الإطار من القواعد يمكن أن يوظَّف كأداة تقييم لمحلل الحجاج أو كإطار إرشادي للمتحاجين أنفسهم. [انظر: أفعال الكلام، والتلفظات].

يُعد عمل دوجلاس والتون وثيق الصلة هنا. فتحليل والتون لأنواع مختلفة من المغالطات الشكلية يضرب بجذوره في افتراض أن البشر ينخرطون في حوارات متباينة الأنماط والوظائف، مثل حوارات طلب المعرفة ومحاورات الإقناع. إن ما يحدد كون حجة ما تنطوي على مغالطة بشكل حقيقي أو أنها صادقة هو سياق الحوار الذي تُستخدم فيه. ومن ثم فإن التعرف

على نمط الحوار الذي ينخرط فيه المتحاجون يساعدنا في استيضاح المواصعات الإجرائية المنظمة لاستخدام الحجاج في حوارات من ذلك النوع.
[انظر، المغالطات]

الحجاج بوصفه عملية

نشأ التركيز على الحجاج بوصفه عملية منذ سبعينيات القرن العشرين، بشكل أساسي في دراسات التواصل بين الأشخاص interpersonal communication. والتركيز هنا هو حول الكيفية التي ينخرط بها الناس العاديون في الحجاج اليومي– الفاعلون الاجتماعيون الغفل "naïve social actors" كما يتم وصفهم عادة في الأدبيات – لإدارة خلافاتهم والسعى لحلها. يستمد العلماء بياناتهم الأساسية من كلام يحدث بشكل طبيعي، ويوجد فيه تعارض ظاهر. يتطور التعارض عندما يدافع شخصان أو أكثر عن قضايا يرون أنه لا يمكن التوفيق بينها. يستكشف العلماء بواسطة تحليل نصوص محادثات مكتوبة كيف يتسع التعارض أو يضيق، وما إذا كان يتم حله وكيف يكون ذلك. وتعد سالي جاكسون Sally Jackson وسكوت جيكوب Scott Jacobs العالمان الأكثر ارتباطا بالتحليل المحادثاتي للحجاج. وقد قام شارلز ويلارد Charles Willard (1989) استناداً لنظرية صاغها بنفسه بالتنظير لتطبيقات النظر للحجاج بوصفه نمطاً من التفاعل بشكل أساسي. يوجد تقارب وثيق بين التحليل المحادثاتي والجدليات الفاعلة pragma - dialectics. وفي مشروع جماعي شرع فان إيميرن وجروتندوست وجاكسون وجاكوب (١٩٩٣) في إعادة بناء حجج جاءت بالطبع من خلال التحليل المحادثاتي، وتقييم هذه الحجج بواسطة تطبيق معايير الجدليات الفاعلة.

ركز أحد تطبيقات منظور الحجاج بوصفه عملية على كيفية تأهيل الأطفال اجتماعيًا المواضعات أفعال الكلام الحجاجية؛ بصياغة أخرى كيف

يفهمون طبيعة الدعاوى والاستدلالات، وما الذي يشكل تداولاتهم الحجاجية الخاصة. ومن بين العلماء الذين تابعوا هذا الخط من البحث باربرا أوكيف وباميلا بينويت O"Keefe and Benoit (1982). ووفقا لدراساتهم فإن المهارة الحجاجية وجدت لتترابط مع معرفة المرء العامة المتطورة عن اللغة، والتفاعل والبنية المحادثاتية. [انظر أيضًا حقول الحجاج **Argument fields**، والمنطق **Logos**].

قائمة مصادر ومراجع

Benoit, William L., Dale Hample, and Pamela J. Benoit eds. Readings in Argumentation. New York, 1992.

يعيد نشر المقالات الرئيسية حول نظرية الحجاج التي ظهرت في الأصل في دوريات أكاديمية.

Brockriede, Wayne. "Where is Argument?" Journal of the American Forensic Association 11 (Spring1975), pp. pp. 179–182.

يحدد الخصائص المميِّزة للخطاب الحجاجي.

Cox, J. Robert, and Charles A. Willard, eds. Advances in Argumentation Theory and Research. Carbondale, Ill., 1982.

مقالات أصلية تفحص منظور الحجاج، وحالة البحث في هذا الحقل المعرفي.

Ehninger, Douglas. "Argument as Method: Its Nature, Its Limitations, and Its Uses." Communication Monographs 37 (June 1970), pp. pp. 101–110.

يطور فكرة أن الحجاج هو إجراء منظم ذاتيًا.

Hamblin, C. L. Fallacies. London, 1970.

Hample, Dale. "A Third Perspective on Argument." In Readings in Argumentation, edited by William L. Benoit, Dale Hample, and Pamela J. Benoit, pp. pp. 91–115. New York, 1992.

Jackson, Sally, and Scott Jacobs. "Conversational Argument: A Discourse Analytic Approach." In Advances in Argumentation Theory and Research, edited by J. Robert Cox and Charles A. Willard, pp. pp. 205–237. Carbondale, Ill., 1982.

Jackson, Sally, and Scott Jacobs. "Structure of Conversational Argument: Pragmatic Bases of the Enthymeme." In Readings in Argumentation, edited by William L. Benoit, Dale Hample, and Pamela J. Benoit, pp. pp. 681–706. New York, 1992.

O"Keefe, Barbara J., and Pamela Benoit. "Children"s Arguments." In Advances in Argumentation Theory and Research, edited by J. Robert Cox and Charles A. Willard, pp. pp. 154–183. Carbondale, Ill., 1982.

O"Keefe, Daniel J. "The Concepts of Argument and Arguing." In Advances in Argumentation Theory and Research, edited by J. Robert Cox and Charles A. Willard, pp. pp. 3–23. Carbondale, Ill., 1982.

Perelman, Chaim. The Idea of Justice and the Problem of Argument. Translated by J. Petrie. London, 1963.

Toulmin, Stephen. The Uses of Argument. Cambridge, U. K., 1958.

يشتمل على تقديم لنموذج تولين الذي يوفر بديلا للقياس الأرسطي.

van Eemeren, Frans H., Rob Grootendorst, Sally Jackson, and Scott Jacobs. Reconstructing Argumentative Discourse. Tuscaloosa, Ala., 1993.

يربط منظورات الجدليات الفاعلة بتحليل المحادثات.

van Eemeren, Frans H., Rob Grootendorst, Francisca Snoeck Henkemans, et al. Fundamentals of Argumentation Theory: A Handbook of Historical Backgrounds and Contemporary Developments. Mahwah, N. J., 1996.

بحوث عامة للمقاربات الرئيسية الراهنة لدراسات الحجاج مع تركيز خاص على الجدليات - التداولية وما يرتبط بها من نظريات.

Walton, Douglas. A Pragmatic Theory of Fallacy. Tuscaloosa, Ala., 1995.

يبرهن على أن كون العديد من صيغ الحجاج هي مغالطات يرجع إلى السياق الذي تستخدم فيه.

Wenzel, Joseph W. "Perspective on Argument." In Readings in Argumentation, edited by William L. Benoit, Dale Hample, and Pamela J. Benoit, pp. pp. 121–143. New York, 1992.

Willard, Charles Arthur. A Theory of Argumentation. Tuscaloosa, Ala., 1989.

يشرح فكرة أن الاستعارة نوع من التفاعل، تتم دراسته كعملية.

Williams, David Cratis. and Michael David Hazen, eds. Argumentation Theory and the Rhetoric of Assent. Tuscaloosa, Ala., 1990.

مقالات مجمَّعة تتناول ما يمكن أن يُعد دليلا على الاستدلالات في الحجاج.

David Zarefsky

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

حقول الحجاج

حقول الحجاج هي تقسيمات فرعية للحجاج البلاغي، وفقا لطبيعة الموضوع أو السياق [انظر، الحجاج]. تقوم هذه الحقول على افتراض هو أنه وجود معايير مختلفة تسم ممارسة الحجاج وتقيمه في الحقول المختلفة. ويقف مفهوم الحقول في مقابل مفهوم الاعتقاد belief الذي غالبًا ما يتم التفكير فيه بوصفه سمة نوعية للمنطق الصوري؛ والذي يشير إلى أنه توجد معايير كلية لتقييم قوة الحجة. تنامى في أثناء القرن العشرين اعتقاد لدى البلاغيين بأن السعي وراء معايير صورية كونية أدى إلى استحالة تقييم الحجة في الواقع العملي للأمور البشرية، حيث لا يمكن تحقيق نقاء المنطق الصوري. [انظر: المنطق] وبدلا من قصر حدود إمكانية تطبيق الحجاج على الأنظمة الصورية المغلقة، وإحالة المسائل البشرية إلى مسائل لا يمكن تعقلها unreasonable، رأى العلماء أن أنظمة تقييم الحجاج المؤسسة على السياق، تُعد بديلا جذابًا.

ارتبط مصطلح "الحقول" بعمل ستيفن تولمن Stephen Toulmin. فقد كتب في كتابه "استخدامات الحجاج" *The Uses of Argument* (1958, p. 14) "سوف نقول إن حجتين تنتميان إلى نفس المجال حين تكون البيانات والنتائج في الحجتين كلتيهما من نفس النمط الحجاجي". ففي كل حقل معين توجد معايير مقبولة لتقييم الحجج، تُستمد من ممارسات هذا الحقل. ومن خلال جعل الحقول حكَمًا على ممارساتهما البرهانية الخاصة، أشار تولمن إلى الأرضية التي تتوسط بين الصحة الصورية الكلية والنسبية الكاملة.

ثبت، مع ذلك، أن تمييز حقل حجاجي ما هو إلا ممارسة محبطة، لأنه يوجد القليل من الفهم لطبيعة ما يُعد معطيات ونتائج من نفس "النمط المنطقي"، أو لا توجد معطيات ونتائج بهذا الخصوص أصلا. وهكذا فإن الكتابات حول هذا الموضوع متخمة بمجهودات لوصف الحقول بطرق مختلفة، وبحالات دراسة تدَّعي تحديد الحقول الحجاجية المميزة. في حين أن هذا العمل يؤكد ثراء السياق في فهم وتأويل الحجج، وهو لم يؤسس الاستخدام المخصوص لمفهوم الحقول بوصفها مقولات يمكن أن تحل محل الحجج.

لم يطور "تولمن" فكرة الحقول أكثر من ذلك في كتابه الصادر في ١٩٥٨، لكنه في عمل لاحق هو "الفهم الإنساني (1972) *Human Understanding*" يتعامل مع الحقول بوصفها مشروعات عقلية "rational enterprises"، ويساوي على نطاق واسع بينها وبين الأنظمة المعرفية الأكاديمية. وعلى النقيض من عمله المبكر الذي تضمَّن أن الأنماط المنطقية "logical types" كانت أشكالا قضوية prepositional forms يبدو أنه الآن يقترح أن الحقول ليست مشغولة بالحجاج ولكن بالبشر. وبذلك قام بتحويل مركز الاهتمام من أنماط النص أو الاستدلال إلى أنماط النشاط أو الإجراء. وقد حذا الكثير من الكتاب حذوه.

في كتاب "الفهم الإنساني" يؤكد "تولمن" فكرة أن ممارسات التعليل في الأنظمة المعرفية "المحْكمة" مثل الفيزياء النووية تختلف عنها في الأنظمة المعرفية المشتتة مثل التاريخ، وعنها في الأنظمة المعيارية مثل النقد الأدبي، وعنها في المناطق "غير القابلة للتنظيم المعرفي" مثل الفن. سوف يظهر، في هذه القراءة، أن الموضوع الذي يدور حوله الحجاج يحدد الحقل الذي ينتمي إليه، لأن المفكرين في الحقول المعرفية المختلفة يضعون افتراضات مختلفة ويُعلِّلون بطرق متباينة. ومع ذلك، فإن ثمة تصورا مغايرا قد يربط الحقول لا

بمعارف أكاديمية بعينها بل برؤى للعالم وأطر فاعلة عابرة للحدود المعرفية. وبذا يمكن على سبيل المثال، رؤية الحجج الماركسية أو السلوكية أو الفرويدية أو النسوية بوصفها من نفس النمط المنطقي بغض النظر عن المحتوى أو الفروع المعرفية التي تبزغ منها، ويمكن على سبيل المثال رؤية بعض التنويعات في الاقتصاد السياسي على أنها من نفس النمط المنطقي.

ثمة مدخل آخر لتصنيف الحجاج إلى حقول من خلال وضعها في مجموعات وفقا لغرض المتحاجين. فالمتحاجون الذين يشتركون في نفس الغرض سوف ينتجون خطابًا مغايرًا للخطاب الذي يُنتجه المتحاجون لغرض مختلف. وعلى سبيل المثال، فإن المتحاجين الذين تكون غايتهم حل المشكلة سوف يتحاجون بشكل مختلف عمن تكون غايتهم الإقناع، أو عمَّن تكون غايتهم استكشاف أفكار جديدة. تشبه هذه الرؤية لحقول الحجاج إلى حد كبير تصنيف دوجلاس والتون Douglas Walton (1999) لأنماط الحوار.

يميز والتون - على سبيل المثال - بين الحوار الإقناعي (الذي يشمل النقاش النقدي)، والحوار التفاوضي والجدالي (الحجاج لأجل الحجاج ذاته). يُسلِّم هذا المدخل بأن الغرض ربما يكون البوابة الحاسمة للموقف البلاغي، ولنمط الحوار الذي ينتج عنه. ومع ذلك، فقد وجهت محاولات تصنيف الحقول تبعًا للغرض بصعوبات. فالمتحاجون غالبا ما تكون لديهم أغراض متعددة، واختزالها إلى غرض واحد هو أمر غير واقعي وغير مخلص للسياق معًا. فالنقاش ذو المغزى يحدث بالفعل بين أفراد لديهم أغراض مختلفة اختلافًا شاسعًا. وعلى سبيل المثال، فإن الكثير من المحاججات السياسية تؤدي إلى إحداث توافقات بين المتحاجين ذوي الغايات المتباينة الذي يصلون إلى نفس النتيجة لأسباب مختلفة. قد لا يستطيع المتحاجون دوما معرفة أغراضهم الذاتية، وحتى لو عرفوا أغراضهم؛ فإن المحلل أو الناقد قد لا يتمكن من معرفتها.

هل كل الحجج توجد في حقول؟

تبرز هذه الأمثلة الثلاثة للتصنيف صعوبات الانتقال من مفهوم عام يدَّعي أن الحجج يمكن أن تتنوع بحسب السياق، إلى مهمة محددة لتحديد أي الحقول يشمل الحجة والمتحاجين في حالة معينة. والسؤال الذي ربما كان أكثر جذرية هو ما إذا كانت كل الحجج تقع في حقل واحد أو أكثر من حقل، أو ما إذا كانت توجد بنى تعليل لا تنتمي إلي حقل ما. يُطرح هذا السؤال بقوة عندما يطلب شخص ما أن يفحص حججًا تُستخدم على نطاق شديد الاتساع، ويُخاطَب بها جمهور عام. هل الحجة الموجهة للجمهور العام حقل منفصل، أم أنه توجد فروق كيفية بين الحجج الموجودة في المنتدى العام وتلك المستقرة في سياقات أكثر محدودية لحقل معين؟ لقد طُرح هذا السؤال بحدة في مواجهة دراسة "شارلز آرثر ويلارد" Willard (1990) ودراسة ج. توماس جودنايت Goodnight (1982). فالمجال العام بالنسبة "لويلارد" هو فضاء تحدث فيه الحجج، ويتسم بالافتراض المتبادل بين الحقول؛ وهو خطاب تواجه فيه بنى البرهنة لأحد الحقول بنى البرهنة لحقل آخر. المثال الذي عادة ما يستشهد به "ويلارد" هو التفاعل الذي ينتج عندما يشتبك أنصار مذهب الخلْق وأنصار مذهب التطور معًا، عبر الحدود الفاصلة بين كل حقل.

في المقابل يقيم جودنايت Goodnight تقابلا بين الحجة العامة والحجة المرتبطة بحقل معين. وفي الواقع، فإنه يتجاوز مفهوم حقول الحجاج ليتكلم عن فضاءات الحجاج. فالحجج توجه إلى أشخاص ينضوون غالبًا تحت مظلة الفضاء العام؛ وتلك التي تحدث داخل مجال محدد تتجمع في فضاء تقني (يناقش جود نايت كذلك الفضاء الشخصي للحجاج). [انظر مدخل السياسة، مقال حول الفضاءات الشخصية والعامة والتقنية للحجاج]. وبالنسبة "لجودنايت" فإن اللجوء للخبراء المتخصصين قد يعطي للمرء أرضية لعمل الحجج

وتثبيتها داخل حقل معين (في الفضاء التقني)، ولكن لا وجود لمثل هذه التفضيلات في الفضاء العام. وفي الواقع فإن الفضاء العام هو المكان الذي يشترك فيه المواطنون على قدم المساواة. المغزى، في الفضاء العام، لا يُستمد من أي ملمح خاص للحجاج المعروف بين الخبراء، لكن من التقييم العام و"المعرفة الاجتماعية" المتراكمة لدى المواطنين. وعلى الرغم من أن المشابهة عصية على الاكتمال، فإن تمييز جودنايت يشبه تمييز استدعاه بيرلمان وأولبريخت - تيتكا في كتاب البلاغة الجديدة بين تصورين مثاليين للجمهور: الخاص والعام.

يتكون الجمهور الخاص من البشر الذين يتشاركون إطارًا شائعًا ما، أيًّا كان تعريفه. أما الجمهور العام فقد صوِّر على أنه تجمع من كل البشر العاقلين، وليس كل من سيقبلون تقييمات معينة بشأن حقل معين. وعلى نحو مشابه، فإن الحجج في الفضاء العام-وفقًا لجودنايت - لابد أن تتعالى على الحدود التي يضعها الناس في الفضاء الخاص. وما يُحدد العقلانية في الفضاء العام، من وجهة النظر هذه، هو المخزون التراكمي للثقافة من المعرفة والخبرات. هذه "المعرفة الاجتماعية"، تصبح -بدلا من أن تكون منطقًا صوريًا أو لحقل نوعي بعينه - المعيار لتطور الحجاج والنقد. [انظر: المعرفة الاجتماعية].

إن اهتمام "جودنايت" الأساسي هو تحول العلاقة بين الفضاء العام والتقني. ويرى أن الفضاء التقني يُخفي الفضاء العام. بمعنى أن الخطاب الذي يجدر به أن يشتمل على الفضاء العام الواسع، يقوم بدلا من ذلك بتعريفه بوصفه مسألة تقنية تجب مناقشتها في حقل محدد وكان لهذا تأثير في استبعاد أصوات مهمة من المناقشة وتوظيف منظور مقيِّد لتقييم الحجج. وهذا خطر وبخاصة عندما يكون موضوع الحجاج معقدًا، مثل القوة النووية، أو الاقتصاد أو السياسة الخارجية.

الاختلاف بين "جودنايت" "وويلارد" لا يشبه الاختلاف بين المذهب الليبرالي التقليدي والمذهب الجمهوري المدني، وهو يثير على الأقل بشكل غير مباشر سؤالا مؤداه: "من الذي يختار من يتخذون القرار who decides who decides" بشأن المعايير المثالية التي يجب أن تلتزم بها الحجج البلاغية. سوف تذهب وجهة النظر الليبرالية إلى أن هذا سؤال إمبيريقي، يحدده التصادم بين الأنصار المتعارضين في أجواء تسويقية غير منضبطة، يُفترض فيها تكافؤ الفرص. وفي المقابل، فإن وجهة النظر الجمهورية المدنية، سوف تتمسك بأن الافتراضات القبلية a priori تقوم بدورها فيما يتعلق بشأن الحاجة إلى الفضائل العامة لمواجهة النقائص الفردية.

هل الفروق بين الحقول مهمة؟

الافتراض الذي يوجد فيما بين الحقول – سواء أظُنَّ أنها تتكون فقط من المجال التقني أم من الحجج بأكملها – هو أنه، وجود تباينات في بُعد أو أكثر من الأبعاد الدالة للتفاعل أو الخطاب الذي ينتجه. هذه التباينات يمكن أن تتعلق بالبنية الكامنة وراء الافتراضات، وتشمل ما يؤخذ على أنه مسلم به، وما يتم نبذه للاعتراض عليه، وما يجب إثباته. كما أنها يمكن أن تتعلق بالتفضيلات بين أنواع الأدلة – سواء أكانت شهادات المتخصصين، أم معطيات تجريبية تحمل قوة أكثر برهانية على سبيل المثال. أو قد تتباين الحقول استنادًا إلى النمط المفضل من البرهنة، مثل التطبيق الاستنباطي "للقوانين المفسِّرة covering laws" في مقابل التعميمات الاستقرائية. أو يمكن أن يتعلق التباين بمستوى الثقة المطلوبة لكي تقبل نتيجة ما، مثل التباين بين "القابلية الشديدة للدليل"، و"كونه دالا على مستوى 0.01". وما لم يظهر أن الحقول تختلف في بعض الجوانب بخلاف التعريف فقط، فإن تطابق الحقول –خاصة الحقول المؤسسة على موضوع الحجاج – قد تكون متمايزة بدون تباين. ومع ذلك،

توجد في الأدبيات الموجودة محاولات لتعريف الحقول أو تحديد موضع حجج معينة داخل حقل ما أكثر من التقييمات المقارنة لكيفية تباين الحقول.

على نحو مماثل، فإنه من الصعب الاستدلال على الحقل من خصائصه والعكس بالعكس. لو أن التمييزات بين الحقول أكثر أهمية من معرفة أن شخصًا ما في حقل القانون، على سبيل المثال، عليه أن يجعل من الممكن التنبؤ بخصائص الحجج القانونية وتمييزها من الحجج في مجال مختلف. وعلى نحو مغاير فإن المرء لابد أن يكون قادرًا - من خلال خصائص حجة معينة - على التنبؤ بالحقل الذي توجد فيه. لكن هناك أدلة محدودة للغاية بأن هذه هي الحالة بالفعل. فالحجج المستندة إلى القضايا السابقة، وشهادات الشهود، والتشابهات والاختلافات، وهي الأمثلة النمطية للحجج القانونية، غالبًا ما توجد في حجج خلافية غير قانونية أيضًا.

ولو أن الاقتراح هو أن هذه الحقول تختلف في معايير الصحة وليس في مكونات الحجة فإن نفس المشكلة سوف تظهر. فعلى الرغم من أنه من المقبول على نطاق واسع أن صحة الحجج تعتمد على السياق كما يفسره الناس، فإنه توجد محاولات قليلة لربط هذه المعايير بالحقول (أو بمقولات أخرى للحجة تتجاوز الحالات الفردية). فاقتراح أن تحليل التكلفة والربح - على سبيل المثال - هو المعيار المناسب لتقييم حجج السياسة العامة، يستدعي اعتراضًا على مستويين. فهو ليس المعيار المناسب **لكل** حجج السياسة العامة، ولا المعيار المقصور كلية على حجج السياسة العامة. تنشأ نفس المشكلة مع معايير أخرى مفترضة لحقل مستقل (وليس مجرد موقف محدد).

فقد استخدم مكرو McKerrow (1980) مصطلح **جماعات الحجاج** *argument communities* بنفس المعنى تقريبًا الذي يستخدم به الكتاب الآخرون مصطلح حقول. لكن هناك اختلافًا مهمًا، على الرغم من أنه ربما يكون

هامشيًا. فالحقل ربما يتم التفكير فيه على أنه موجود في العالم الطبيعي، في حين أن الجماعة هي بوضوح مؤسسة بواسطة البشر. وعلى الرغم من عبارة تولمن المبكرة بأن الحقول تتباين بواسطة "النمط المنطقي" لحججها، فإن الحقول ليست بالفعل مقولات منطقية أو عقلية. فهي مؤسسة بواسطة البشر في مواقف جدلية وبلاغية، وهي من ثم اجتماعية وثقافية أساسًا. ولأن الناس يتمنون أن يقنعوا الآخرين؛ فإنهم يعترضون على مذهب النسبية الصرفة. ويعترفون بالحاجة إلى نقطة انطلاق عقلية يمكن للآخرين أن يشتركوا فيها. ولأن الناس تعترف بعدم كفاية المنطق الصوري في ميدان الأمور العملية، فإنهم يسعون وراء معيار ذاتي بيني وليس معيارًا موضوعيًا.

هذه المبادئ الأساسية تم تدعيمها بدراسات حالة لمواقف حجاجية فعلية، تشرح فائدة مفهوم الحقول الحجاجية وجاذبيته. لكن نظرية الحقل لم تتطور كثيرًا، فيما وراء هذا المستوى التأسيسي للفهم.

قائمة المصادر والمراجع

Farrell, Thomas B. "Knowledge, Consensus, and Rhetorical Theory." *Quarterly Journal of Speech*, 62 (February 1976), pp. pp. 1–14.

يميز بين المعرفة التقنية والمعرفة الاجتماعية.

Goodnight, G. Thomas. "The Personal, Technical, and Public Spheres of Argument: A Speculative Inquiry into the Art of Public Deliberation." *Journal of the American Forensic Association* 18 (Spring 1982), pp. pp. 214–227

يميز طبيعة المحاجاة في كل فضاء .

McKerrow, Ray E. "Argument Communities: A Quest for Distinctions." *Proceedings of the [First] Summer Conference on Argumentation*, pp. pp. 214–227. Falls Church, Va., 1980.

Rowland, Robert C. "The Influence of Purpose on Fields of Argument." *Journal of the American Forensic Association* 18 (Spring 1982), pp. pp. 228–245.

يقترح وجوب تعريف للحقول من خلال غرض المتحاجين.

Toulmin, Stephen E. *Human Understanding*, vol. 1. Princeton, 1972.

يستكشف كيف تتنوع عملية تحصيل المعرفة بين الحقول المختلفة.

Toulmin, Stephen E. *The Uses of Argument*. Cambridge, U. K., 1958. Pleads for a nonformal sense of argument and develops a model for it.

Walton, Douglas. *One - Sided Arguments: A Dialectical Analysis of Bias*. Albany, N. Y., 1999.

يقدم الفصل الثاني من الكتاب تصنيفًا دقيقًا لأنماط المحاورة.

Willard, Charles Arthur. "Argument Fields and Theories of Logical Types." *Journal of the American Forensic Association* 17 (Winter 1981), pp. pp. 129–145.

يعتبر الحقول كيانات سوسيولوجية والأنماط أشكالا منطقية.

Willard, Charles Arthur. *A Theory of Argumentation*. Tuscaloosa, Ala., 1990.

يطور القضية باتجاه مفهوم اجتماعي للحجاج.

تأليف: David Zarefsky

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

الترتيب Arrangement

يحتوي هذا المدخل على مقالين؛ أولهما مقال يصف النظرية التراثية، وممارساتها في الخطابة منذ أرسطو، مرورًا بالرسائل الهللينية، وصولا إلى شيشرون ومن بعده. ويناقش المقال الثاني الأفكار الحديثة عن الترتيب، ويتناول مكانة الشكل في بناء الخطاب وتحليله، ويركز بشكل خاص على استراتيجيات الترتيب في تأليف النصوص، وعلى المدرسة الشكلية في النقد.

النظرية التراثية حول الترتيب

غالبا ما تبدأ دراسة البلاغة الكلاسيكية بتقديم الأسس الخمسة الأساسية للبلاغة؛ وهي الابتكار والترتيب والأسلوب والذاكرة والإلقاء. إن الدخول إلى حقل الدرس البلاغي عبر تقسيمه إلى مكونات صغيرة مركزية يكشف بشكل مباشر عن الأهمية الحاسمة للتصنيف والتقسيم في هذا العلم، كما تبين بشكل مباشر أهمية الترتيب في البلاغة الكلاسيكية. احتفظ الترتيب بأهميته عند منظري البلاغة وممارسيها على طول الخط لأن وظائفه وفوائده كثيرة في العصر الكلاسيكي وما بعده.

الترتيب في البلاغة اليونانية

بحلول القرن الخامس قبل الميلاد، تطورت البلاغة لتكون علمًا رسميًا، وأصبح واضحا في تلك الفترة أن الترتيب يستطيع أن يكون مصدرًا لقوة الإقناع. بمعنى أن المجهودات المبكرة لبناء لغة تستطيع تدعيم الإقناع تكشف

أن الترتيب يمكن أن يستخدم كوسيلة للتأثير بالحجاج. تقول الأسطورة إن "كوراكس" "وتيسياس" اكتشفا الحجاج كعلم؛ لأنهما قدما توجها منظما للحجاج في القضايا المدنية في سيراكيوس في القرن الخامس قبل الميلاد (إينوس ١٩٩٣). ولكن كل الأخبار المتاحة تؤكد أن واحدا من أقدم سمات البلاغة كان تطوير "كوركس" فكرة الاحتمالات وأنماط ترتيب الخطب. وإن كان لنا أن نصدق هذه القصص المبكرة فإن هناك اعترافًا واضحًا بالعلاقة بين صناعة حجج ممكنة، وأنماط الترتيب لبناء تلك الحجج الممكنة.

على الرغم من أن أفلاطون (٤٢٩ - ٣٤٧ قبل الميلاد) كان واحدًا من أكبر نقاد البلاغة فإنه اعترف بأهمية الترتيب في البلاغة. ففي "فيدروس" جعل شخصيته المحاورة لسقراط تناقش مزايا البلاغة ليتعرف على شرعيتها كعلم يستحق الدراسة. وفي هذه المحاورة مع سقراط أن البلاغة يجب أن تهتم بالترتيب إن كان لها أن تنجح في اختبار كونها فنًا أو علمًا صحيحًا. بالنسبة لسقراط فإن الترتيب سمة لغوية طبيعية ومهمة. يعتقد أفلاطون أن الخطاب يجب أن يتم ترتيبه ككائن حي طبيعي في شكل جسم ومكونات. ولكن أفلاطون يظن أن هذا النمط الطبيعي من الترتيب لا يهدف إلى ترتيب جمالي ومعقد للأفكار بل يرمي إلى تسهيل تحليل العلل الأساسية وجوهر الأشياء وتجميعها.

تحدى أفلاطون شرعية البلاغة السوفسطائية جزئيًا بسبب قلة استخدامها للترتيب كوسيلة فاعلة في صياغة الحجة. [انظر: Sophists]. إلا أن أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) ظن أن الترتيب يتلاقى مع الحاجات البرجماتية للبلاغة السوفسطائية، بوصفها وسيلة عقلية للحكم على الحجة من خلال العمليات العقلية. [انظر: Judgment; Phronēsis]. تأتي مناقشة أرسطو للترتيب في نهاية كتاب "حول الخطابة"؛ أي في الكتاب الثالث، حيث يقول إن

أي خطاب يحتاج إلى قسمين اثنين فقط؛ أولهما طرح موضوع؛ وثانيهما تقديم دفوع، هنا يدَّعي أرسطو أن الحجة البلاغية تتشابه مع نظيرتها الجدلية التي تتطلب تحديد مشكلة وعرضها. لكن أرسطو يضيف أن طبيعة البلاغة تتطلب أربعة مكونات على الأقل: المقدمة وطرح للموضوع والدفوع والخاتمة. وأدرك أرسطو أن المتلقي هو الذي يحدد درجة معقولية الحجة، وبالتالي مدى وضوحها. وإن كان للمتلقي أن يصدر حكمًا إيجابيًا، فإن الخطيب يجب أن يرتب خطابه بالتماشي مع عقليات المتلقين وأذواقهم.

الأفكار الهللينية والرومانية عن الترتيب

أصبحت مبادئ الترتيب، التي طورتها البلاغة اليونانية مبكرا، جزءا من التعليم العالي في أواخر العصر القديم؛ أي من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الخامس بعد الميلاد. هناك كتابان للبلاغة يعكسان وجهة النظر السائدة عن الترتيب في مناهج التعليم الهلليني، وفي المدارس الرومانية البلاغية المبكرة؛ هما كتابا البلاغة في الإسكندرية *Rhetorica ad Alexandrum* حوالي عام ٣٤٠ ميلاديا، والبلاغة في الحرانية *Rhetorica ad Herennium* في ٨٦ – ٨٨ ميلاديا. ينزع الكتابان إلى دراسة ممارسة الإقناع شفاهيًا وكتابيًا التي أصبحت مشهورة في العصر الهلليني وتمكنت من الساحة من خلال التعليم في الأمبراطورية الرومانية. التركيز في الكتابين على إعداد الطالب للوظيفة العامة، وهو ما يتضح من خلال تعاملهما مع الترتيب. [انظر: Declamation].

كتاب البلاغة في الإسكندرية كتاب تقني عن البلاغة، ومن كماله أنه يعطينا نموذجا كاملا للبلاغة السوفسطائية لتكون نصًا عمليًا. وهو كتاب مهتم أساسًا بالتطبيق المباشر لمبادئ البلاغة في المسائل المدنية، وهو في ذلك

مختلف عن نظيره الروماني لأن كتاب البلاغة في الحرانية كان متوجّها إلى المدارس الكلامية. يتعامل كتاب البلاغة في الإسكندرية مع ثلاثة أنماط من البلاغة المدنية وهي البلاغة القضائية والسياسية والاحتفالية. [انظر: **Deliberative genre; Epideictic genre; Forensic genre**]. تتعامل الأنواع الثلاثة مع الترتيب ولكن النوع الأول هو أكثر الأنواع اهتماما بالترتيب فالبلاغة السياسية في شكلها التقليدي تركز على مقدمة ثم الموضوع ثم أدلة النفي والإثبات وتلخيص عادة ما ينتهي بعبارة عاطفية. تختلف أقسام الترتيب الأربعة عندما نتكلم عن النوعين الآخرين من البلاغة، ففي البلاغة الاحتفالية مثلا هناك تركيز كبير على اختيار الموضوع في المناسبات الاحتفالية، أما في البلاغة القضائية فالتركيز على إثبات الأدلة والتنبؤ بالحجج المضادة وتفنيدها. التغييرات التي تطرأ على الترتيب في كتاب البلاغة في الإسكندرية تنبع أساسا من النظرة الأشمل للبلاغة المدنية، وهو ما يختلف عن العادة التي جرت في أواخر العصر الروماني بالربط بين شكل التركيب والحالة البلاغية الدقيقة في كل قسم من أقسام الخطاب.

يمكننا في الحقيقة أن نفترض أن كتاب البلاغة في الإسكندرية كتاب عملي، كُتِبَ بنيّة طرح التوقعات الإجرائية للموضوعات البلاغية وطريقة عرضها، بما يسمح للموظف المدني بالتطبيق المباشر. أما الكتاب الأحدث فهو ذو طابع تربوي وليس تطبيقيًّا، ويركز بالخصوص على كيفية دعم الترتيب للإبداع ويطور الحجة. أما كتاب البلاغة في الحرانية فهو كتاب معقد جدًا، وتقعيدي للغاية. يقول "هاري كابلان" في مقدمة ترجمته للنص إن الكتاب يعكس تعاليم البلاغية الهللينية، ويهتم بالمدارس الكلامية، ويركز على دراسة النماذج. وهو باختصار فن يوناني في ثوب روماني ويجمع بين الروح الرومانية والتعاليم اليونانية. يقول كاتب البلاغة في الحرانية المجهول إن

الابتكار أصيل في الأجزاء الستة للخطاب البلاغي، كما يقدم الكاتب تحليلاً مفصلاً لهذه الأجزاء الستة ليبين كيفية تحوير بنية الحجة بهدف الابتكار. يقول كابلان إن هذا الترتيب يختلف عن النسق الذي ابتكره أرسطو في كتاب البلاغة، وهو أقرب لنسق الفلاسفة اللاحقين الذي تضمن مكاناً للتفنيد.

هناك سمة مهمة أخرى في مسألة الترتيب في كتاب البلاغة في الإسكندرية، وهي سمة تضمين مفهوم يوناني هو فكرة إدخال نقطة الخلاف الرئيسية في بنية الحجة، وخاصة في القسم الخاص بطرح الفكرة. يناقش الكتاب تعديلات نسق الترتيب في الكتاب الثالث تحت عنوان بلاغة المداولة، ولكن المناقشة في هذا الكتاب في الحقيقة تتمة لمناقشة مطولة تمت في الكتاب الأول. [انظر: Stasis]. يشير الكاتب في الحقيقة لأهمية المرونة عن طريق استلهام طريقتي الترتيب الأساسيتين؛ الأولى هي الالتزام بالأجزاء الستة المقدمة في معرض شرح البلاغة في الكتاب الأول، والثانية هي طريقة موقوتة؛ أي الترتيب الذي يراعي سياق الموقف وظروفه الخاصة. في الشكل الثاني للترتيب يجب تطويع نظام البلاغة للظروف، ولذلك نرى في كتاب البلاغة في الحرانية نموذجًا تقعيديًا جدًا، ولكنه منفتح ليسمح بالتعديلات، بل وبإهمال بعض أنساق الترتيب إن كان ذلك مفيدًا.

قدم شيشرون (١٠٦ – ٤٣ ميلاديا) الخطيب والسياسي والبلاغي الروماني الكبير لنا ما أصبح أكثر أنماط الترتيب شهرة في الغرب في عمله الأول عن البلاغة وهو "في الابتكار" *De inventione*. حث شيشرون القراء على تجاهل ما قال عنه في عمله الأول بأنه نمط كتابة الأطفال. وعلى الرغم من هذا الطلب فإن كتاب شيشرون أصبح كتابًا دراسيًا أساسيًا للبلاغة في معظم فترات العصور الوسطى. واستمرت تعليقاته بخصوص الترتيب حيَّة طول عصر النهضة، حيث لم يقتصر عملها على الحجاج، بل امتد أيضا

ليصبح دليلا في فن كتابة الرسائل. وضع شيشرون نسقا للترتيب مكونا من سبعة أجزاء وليس ستة. الجزء السابع الزائد عنده هو "الاستطراد الاختياري optional *digressio*"، وهو جزء اختياري نتعرف عليه في الباب الأول من الكتاب. تبين القراءة البسيطة لكتاب شيشرون أن داخل كل جزء، هناك تقسيمات تحتية مصممة لتساعد الخطباء على بناء حجج وصياغتها. ولكن كما قلنا سلفًا فإن شيشرون كتب هذا الكتاب في شبابه، ثمَّ عدَّل تصوراته، وأنساق ترتيبه تعديلاً كبيرًا في كتابه اللاحق عن أقسام الخطابة الذي أتمه عام خمسين ميلاديا. في الكتاب اللاحق أظهر شيشرون مرونة كبيرة جدا في بناء الخطبة المكتوبة لتتوافق مع السياق (انظر في ذلك الفصل التاسع). تؤكد تعديلات شيشرون على أنساق الترتيب إيمانه بأن مهمة هذه الأنساق هي دعم ابتكار الخطاب وصياغة الخطب، وهي فكرة طورها كينتليان كثيرًا في مرحلة لاحقة.

تتضح علاقة الترتيب بالابتكار في أعمال شيشرون البلاغية الأخرى. أكثر أعمال شيشرون تفصيلا عن الابتكار هو "توبيكا" (حوالي ٤٤ ميلاديا). تبين الفقرات الافتتاحية لهذا العمل أن أي نظام للخطاب يجب أن ينظر بعين الرعاية للابتكار، ويناقش "الأماكن" بغية الوصول لهذا الهدف (توبيكا ص٩٧ - ٩٩). كان شيشرون ينظر للترتيب على أنه أساسي في البلاغة طول حياته، ولما كان يؤمن بأن الابتكار يكمن في الترتيب فقد قال إن الأفكار يجب أن لا تكون مناسبة للموقف فقط، بل يجب أن تكون مناسبة لمكانها في الخطاب أيضا. فقد كان ينظر للابتكار على أنه ظاهرة تحدث في مجال ما، وهي تقدم ترتيبًا خاصًا لبناء الأفكار. وعلى هذا فقد كانت أنساق الترتيب عند شيشرون بشكلها المحدد والموقع في أماكن ترمي إلى بلاغة معبرة ومتفاعلة.

تتجانس أفكار شيشرون عن التداخل بين الابتكار والترتيب مع أفكار باقي البلاغيين الرومان وخاصة كينتيليان (٣٥ - ٩٥ ميلاديا). أما تعليقاته عن الترتيب في كتاب "مؤسسة البلاغة" فهي شديدة الأهمية بحيث تشغل القسم الأكبر من الكتاب الرابع والخامس والسادس. اقتبس كينتيليان أفكاره عن الترتيب من مصادر أساسية؛ هي النظرية البلاغية اليونانية؛ بخاصة أعمال أرسطو وسقراط ونظرية النموذج الروماني والممارسات الرومانية، أي شيشرون. وفي مقدمة الكتاب السابع يدعي أن الابتكار بدون الترتيب لا يجوز. ولما كانت فكرة كينتيليان عن الابتكار في الترتيب متجانسة مع فكرة شيشرون، فقد أصبحت علامة مميزة لكتاباته عن البلاغة. قدم كينتيليان على سبيل التدليل على فكرته مقارنة بين علاقة الترتيب بالابتكار وتشييد مبنى إذ قال إنه لولا الترتيب المسبق الماهر التنظيم لتحولت أفضل المواد الخام إلى ما هو أحقر من تراب. أفكار كينتيليان حول التنظيم والترتيب اعتيادية في بعض المناحي، فتجده مثلا يكرر التركيز على وجود نمط تنظيمي مكون من خمسة أقسام هي: الاستهلال والعرض والسرد والتدليل والتفنيد والخلاصة.

يعتقد كينتيليان كما كان يعتقد شيشرون قبله في نموذجه أن الترتيب يجب أن يكون مرنًا ليتجاوب مع السياق، وتوجهات المتلقين. كينتيليان واضح جدا في تصوره بأن الابتكار يمكن أن يكون خلاقًا فقط، عندما يكون منظمًا. ولكن الترتيب في حد ذاته يجب أن يكون مرنًا، فكينتيليان في الحقيقة مرن في تصوراته عن الترتيب؛ لدرجة أنه يقول إن أي قسم من الأقسام الخمسة يمكن إهماله باستثناء التدليل. ويرى أن التداخل بين الابتكار والترتيب قوي لدرجة أيهما لا يعمل بدون الآخر، لأن الاثنين معا مسؤولان عن صياغة الأفكار والعواطف والتعبير عنها.

تصحيح مسار الترتيب الكلاسيكي في العصور الوسطى وعصر النهضة

استمر تراث الترتيب الكلاسيكي إلى ما بعد العصر الكلاسيكي كانت مبادئ الترتيب الكلاسيكية في العصور الوسطى أساس الكتابات التالية التي أصبحنا نسميها فن كتابة الرسائل. [انظر: Ars dictaminis]. كما أن أنماط الترتيب التي كانت أساسًا للحجاج الشفاهي والكتابة الأدبية استمرت حتى عصر النهضة؛ حيث ضمنت الطرق الشكلية المنمَّطة المبنية على المبادئ الكلاسيكية أن يبقى الترتيب سمة بلاغية مسيطرة. فعلى سبيل المثال كانت مبادئ الترتيب الكلاسيكية واضحة جدا في الرسالة التي كتبها "السير فيليب سيدني" في أواخر القرن السادس عشر "في الدفاع عن الشعر". قد يكون السبب في استمرارية أنماط الترتيب الكلاسيكية لفترة طويلة هو وضوح منافعها واستمراريتها عبر الزمن وفي مختلف الثقافات. فقد كان الترتيب مُعينًا للذاكرة في حالة الحاجة للخطابة الشفاهية، كما كان الترتيب مفيدًا في تيسير التفاهم بين الخطيب والمخاطب عن طريق بناء الخطاب بشكل يتوافق مع الأنماط التقليدية، وأساليب التعبير الموروثة لدى المستمع والقارئ، كما كانت له وظائف مدنية وفقهية؛ لأنه كان نموذجًا للبلاغة التداولية والعرضية. أما بالنسبة لعصر النهضة الذي لم يكن يفرق كثيرًا بين البلاغة والشعرية، ولم ير بينهما تمييزًا كبيرًا؛ فقد رأى في الترتيب عاملا كامنا في فن التعبير الحضري المنمَّط. ولذلك ظل الترتيب سمة بلاغية مستمرة وأساسية في المناهج الكلاسيكية وفي البلاغة المعدلة في العصور الوسطى وعصر النهضة.

انظر: Medieval rhetoric; Nineteenth - century rhetoric; Renaissance rhetoric.]، وانظر أيضًا: [Classical rhetoric.]

مصادر ومراجع

Ad C. Herennium de Ratione Dicendi (Rhetorica ad Herennium). Translated by Harry Caplan. Cambridge, Mass., 1954.

معالجة ممتازة لكتاب *Rhetorica ad Herennium* تحتوي على النص اللاتيني، وترجمة إنجليزية له، ومقدمة للبلاغة الكلاسيكية، وببليوجرافيا قديمة، وإن كانت قيّمة طبعًا، وتحليلا ممتازا للنص.

Aristotle. *On Rhetoric: A Theory of Civic Discourse*. Translated by George A. Kennedy. New York, 1991.

ترجمة ممتازة لكتاب *Rhetoric* لأرسطو.

Aristotle. *Problems*. Books 22–38. Translated by W. S. Hett. *Rhetorica ad Alexandrum*. Translated by H. Rackham. Cambridge, Mass., 1937.

تضع سلسلة لوب كتاب أناكسيمينيس *Rhetorica ad Alexandrum* في مجموعة أعمال أرسطو، وتوجد مقدمة وتلخيص مفيد للسلسلة ومعهما النص اليوناني والترجمة الإنجليزية.

Cicero, Marcus Tullius. *De inentione-De optimo genere oratorum- topica.* Cambridge, Mass., 1949. Translated by H. M. Hubbell.

يحتوي على النصوص اللاتينية والترجمة الإنجليزية مع مقدمة مفيدة.

Cicero, Marcus Tullius. *De oratore.* Books 1-2. Translated by E. W. Sutton and H. Rackham. Revised edition. Cambridge, Mass., 1948. First published 1942. *De oratore. Book 3. De Fato – paradoxa stoicorum-De partitione oratoria.* Translated by H. Rackham, 1942.

تحتوي هذه المجلدات على النصوص اللاتينية والترجمات الإنجليزية، وتقدم للقارئ فلسفة شيشرون في البلاغة في كتاب *De oratore*، وبعض التعليقات الفنية حول موضوعات مثل الترتيب.

Enos, Richard Leo. *Greek Rhetoric Before Aristotle*. Prospect Heights, Ill., 1993.

مقدمة لظهور البلاغة اليونانية مع بعض التعليقات المفيدة حول الأفكار المبكرة بشأن الترتيب.

Enos, Richard Leo. *The Literate Mode of Cicero's Legal Rhetoric*. Carbondale, Ill., 1988.

دراسة لتطبيقات شيشرون لنظريته في البلاغة في حججه القانونية، مع معالجة مفصلة لوجهات نظره حول الحجاج وممارساته فيه.

Murphy, James J. *Rhetoric in the Middle Ages: A History of Rhetorical Theory from Saint Augustine to the Renaissance*. Berkeley, 1974.

شرح ممتاز لتحويل التراث الكلاسيكي في البلاغة لفن البلاغة في العصور الوسطى، هذه المعالجة المفصلة لفن الرسائل مفيدة في فهم تطورها من النظم الحجاجية الكلاسيكية.

Plato. *Phaedrus*. Translated with an Introduction and Commentary by R. Hackforth. Cambridge, Mass, 1972.

يقدم معلومات مفصلة عن حياة أفلاطون، وتفسيرًا لنقده للبلاغة.

Quintilian, Marcus Fabius. *The institutio oratoria of Quintilian*. Translated by H. E. Butler. 4 vols. Cambridge, Mass., 1920–1922.

يقدم النص اللاتيني مصحوبًا بترجمة إنجليزية، كما يقدم نبذة عن كل فصل من الفصول الاثنى عشر؛ ليعين القارئ؛ بالإضافة إلى كونه خلفية مهمة عن كينتيليان بما في ذلك الرسالة التي أرسلها لناشره Trypho.

Schiappa. Edward. *The Beginnings of Rhetorical Theory in Classical Greece.* New Haven, 1999.

حجة قوية تتحدى الادعاءات التقليدية حول نشوء البلاغة، ظهورها كعلم في اليونان لا يبدأ بممارستها ولكن بالحديث عنها بنظرية.

Vickers, Brian. *In Defence of Rhetoric.* Oxford, 1988.

مسح جيد لتاريخ البلاغة مصحوب بمناقشة لكتاب *dispositio* في كل الكتاب.

تأليف: Richard Leo Enos

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الترتيب الحديث Modern arrangement

يهتم الترتيب بكيفية تحديد أقسام نص ما؛ سواءً أكان مكتوبًا أم شفاهيًا أم مرئيًا، وكيفية ارتباط بعضها مع بعض، في نمط تراتبي، وكيفية تنظيمها بحيث يراها المتلقي بشكل معين أو بترتيب خاص. من وجهة نظر بلاغية - وبالتركيز على الخطاب - يمكن التعامل مع الترتيب على أنه عامل يمكن التحكم فيه للتأثير على رد فعل المتلقي تجاه نص ما. بمعنى أن نفس المادة يمكن أن يكون لها وقع ما أو قوة إقناع ما تتغير بتغير شكلها على الصفحة أو على شاشة الكمبيوتر. على الرغم من أن الترتيب كان واحدا من الأقسام الخمسة في البلاغة الكلاسيكية فإنه لم يتلق نفس الاهتمام الذي تلقاه الابتكار والأسلوب في الإحياء البلاغي في القرن العشرين. ونادرًا ما يستخدم مصطلح "الترتيب" أو مرادفه اللاتيني disposition أو اليوناني taxis، وكثيرًا ما يستخدم مصطلح "الشكل" أو مصطلح "البنية" أو مصطلح "التنظيم" عند مناقشة مسائل الترتيب. يتطلب التركيز على الترتيب اتخاذ قرار بشأن ماهية المادة التي سيتم ترتيبها، وماهية الأقسام التي يجب تحديدها، وكيفية تحديد الحد الفاصل بين الأقسام المختلفة داخل نص ما في وسائط مختلفة وفهمه. وبمجرد تحديد أقسام التحليل أو وحداته يمكن مناقشة تنظيمها وحجمها النسبي وعلاقتها بعضها ببعض. فما البدائل المتاحة لوصف أقسام النص وترتيبها؟ سنستخدم في المناقشة التالية كلمة "نص" ليس فقط للتعبير عن الخطاب المكتوب أو المطبوع أو المسموع بل أيضا للتعبير عن النصوص المرئية غير اللفظي وتسجيلات الفيديو وأيضا للتعبير عن النصوص التي تمزج بين علامات مختلفة.

التبرير بالمحتوى

يمكن التفكير في ترتيب نص ما من زاوية كيفية تقسيم محتواه إلى موضوعات وكيفية تواليها والمساحة المخولة لكل منها (هذا في النصوص المرئية واللفظية) أو الوقت المخوّل له (في النصوص السمعية) ومن زاوية طبيعة العلاقات التراتبية (الأصل والفرع) والتوازي. هناك عادة منطق لأنماط ترتيب محتوى النصوص، منطق يُفترض أن يكون طبيعيًا أو تقليديًا للتعامل مع موضوع ما. فالوصف اللفظي لمكان مادي ما - على سبيل المثال - له عادة تنظيم استراتيجي ما للتفاصيل الموجودة في المجال البصري محل الوصف كأن يكون من اليمين لليسار أو من المقدمة للخلفية؛ بُغية إعادة تشكيل الترتيب الذي سيستوعب المتلقي به المنظر. كما أن السير الذاتية بدورها تتبع الترتيب الطبيعي؛ أي الترتيب الزمني للأحداث في حياة صاحب السيرة، حتى ولو بدأت السيرة الذاتية بلحظة درامية أو مهمة في حياة الشخص العملية.

تمثل العناوين والعناوين الجانبية في أي نص ترتيب النص بوصفه متوالية منظمة، بحيث يقدم الكاتب بعض الأقسام على أنها أعم من بعضها وأشمل. في الماضي كان انشغال بلاغيين من أمثال إراسموس - في القرن السادس عشر - بالمنهج وتوالي الأقسام المتفرعة، نابعًا من اهتمامهم بالوصول إلى الطريقة المثلى لترتيب المادة بشكل يقوم على تقسيمات أصيلة. مثل تلك التقسيمات حتى لو ظهرت على شكل روابط إلكترونية على موقع على الإنترنت ستبدو تقليدية جدا، فمقال في موسوعة عن دولة ما سيتضمن أقساما متوقعة عن جغرافية هذا البلد وتاريخه واقتصاده وثقافته، هذه الأقسام ستتوالى بنفس الطريقة في كل الموسوعة، وبالتالي سيُفرض نفس الترتيب على كل المقالات المشابهة. أما بالنسبة لكيفية تصور أن موضوعًا يختلف

عن آخر لما يسمح له بأن يستقل بعنوان جانبي خاص به، ويوضع في مكان معين من الترتيب، فمن الواضح أنها مسألة تحتاج لقدر من اتخاذ القرار من قِبَل القائمين على النص من مؤلفين أو محررين أو مصممي الموقع الإلكتروني. إلا أن هناك أنماطا اجتماعية تحدد تلك القرارات وتقننها. وعلى ذلك فإن طريقة تحديد مادة ما وتقسيمها وتنظيمها يمكن أن يُلقي الضوء على أنماط صياغة المعلومات في ثقافة ما.

التبرير بالأفعال أو بالآثار

يمكن وصف ترتيب نص ما كمتوالية أفعال يقوم بها الكاتب بشكل مقصود أو غير مقصود أو على أنه متوالية من التأثيرات التي يتسبب النص بها على المتلقي، وهي في نظرية speech acts مسألة أفعال الكلام. [انظر: Speech acts, utterances as]. فإرسال "خطاب رفض" في التجارة مثلا يحمل معنى الرغبة في الحفاظ على علاقة طيبة بالعميل حتى في حالة عدم الاستجابة للطلب. يستخدم الخطاب مجموعة من أفعال الكلام للوصول لهذا الهدف. فقد يبدأ الخطاب مثلا بالتقرب للمخاطب عن طريق إثبات أن الشكوى أو الطلب الأصلي منطقي ومشروع، وبعد ذلك يقدم الخبر السلبي متبوعا ببعض الاستدراكات الإيجابية في نهاية الرسالة كتقديم تخفيض لو كان المخاطب زبونًا أو تمنيات طيبة لو كان المخاطب طالبًا لوظيفة.

كما يمكن أن نصف ترتيب نص ما بحسب سلسلة التأثيرات التي يفترض أن يمارسها على المتلقي، كأن يخيفهم مثلا في البداية ثم يطمئنهم. وعندما يستخدم الكاتب استراتيجية السؤال والإجابة فإن المتلقي يندهش ويتساءل أولاً، ثم يستريح بإجابة مفاجئة ولطيفة في الوقت نفسه. عادة ما تبدأ القصص عن الطبيعة بتلك الطريقة؛ وخاصة، أن كانت موجهة للأطفال كأن يسأل الكاتب مثلا "كيف يشرب الفيل؟" فمفتتح النص يطرح السؤال، والنص

ذاته يجيب. أما الحجج التي تقترح سلسلة أفعال، فلها ترتيب ثابت فهي تبدأ عادة بخلق حالة توتر أو خوف حول مشكلة ما ثم يقدم الأمل في الحل المقترح وينتهي باستلهام تعليقات وأفعال.

التبرير بالسمات الشكلية

يمكن أيضا وصف ترتيب نص بحسب وضع العديد من صفاته الشكلية وتنظيمها كالترتيب بحسب الخط المستخدم وحجمه مثلا والخلط بين الحوار والنثر العادي والجمع بين الفقرات ذات الأحجام المتشابهة أو الترتيب بحسب النصوص المظللة من عدمه، كل هذه سمات شكلية يمكن الترتيب على أساسها في نص مطبوع. أما في النصوص المسموعة فمن الممكن الترتيب بحسب اختلافات شكلية من عينة الوقفات أو الاختلاف في نبرة المتحدث. [انظر: Delivery]. يصبح الترتيب بحسب السمات الشكلية مهمًا حين يكون النص مرئيًا بالكامل؛ كما هو الحال في الصورة الفوتوغرافية أو عندما يكون خليطًا بين المرئي واللفظي؛ كما هو الحال في إعلانات الصحف والمجلات مثلا، أو عندما يكون النص خليطًا بين المرئي والمسموع واللفظي كما هو الحال في المواقع الإلكترونية.

يمكن أيضا تحديد أقسام النص المختلفة بحسب الشكل عن طريق اللغة المستخدمة. تحبذ النظرية البلاغية الكلاسيكية أن يكون لكل قسم من الأقسام الستة للخطاب مستويات أسلوبية مختلفة وصور مختلفة وطرق توصيل مختلفة. أما النظريات الأسلوبية المعاصرة، فتصف تلك الاختلافات بأنها اختلافات في اللهجة؛ أي اختلاف بين العامية واللغة الاصطلاحية، أو كما يقول العالم الروسي "ميخائيل باختين" اختلافات في أنواع الحديث الأولية. [انظر: Style]. والتغييرات في أنواع الحديث الأولية هذه هي تغييرات في أنماط حديث تميز أنشطة لفظية مختلفة؛ مثل الأوامر العسكرية أو المراسلات

الودية (انظر *Speech Genres and Other Late Essays* لأوستن ١٩٨٦). قد يعكس التغيير في أنواع الحديث الأولية أو في اللهجة وعي الخطيب باختلاف الجمهور المتلقي. وعلى ذلك فإن خطبة في نشر العلوم مثلا قد تكرر نفس الفكرة في لهجات أو أنماط لغوية مختلفة بما لا يغير المادة ولكن يضيف إلى مدى استيعاب المادة. أما فيما يخص مدى أهمية نقلة الأسلوب، ومكان حدوثها، وتواليها؛ فهي مسائل لها علاقة بالترتيب.

السمات اللغوية الشكلية في الترتيب، قد تعكس أيضا ما وراء الخطاب؛ أي إنها قد تكون لغة عن اللغة تحتوي على الحيل التي يستخدمها الكتاب والخطباء في تنظيم نصوصهم. وعبارة "وأخيرا" نموذج للغة الشارحة التي تبين للمتلقي مكان المتكلم في نصه. من بين الأمثلة الأخرى مثلا العبارات التي تفيد التحول؛ مثل "نتحول إلى"، وعبارات الاستهلال مثل "نبدأ بـــ". هناك معادلات مرئية لهذه المفاتيح اللفظية كتحديد الصورة مثلا. وحتى في حالة غياب أي نمط تحديد مشترك قوي يجمع بين الخطيب والمتلقي فإن ترتيب النص يتضح من خلال تلك الوسائل.

بينما يمكن وصف استراتيجيات الترتيب القائمة على تنظيم المحتوى وأفعال الكلام وتأثيرها والسمات الشكلية بشكل مستقل، فإن نظريات الترتيب عادة ما تهتم بتوافق التقسيمات القائمة على التبريرات الثلاثة تلك، بغض النظر عن الهدف من النظرية إن كان وصفيًا أو تربويًا. وعلى ذلك فإن توالي السمات الشكلية قد يعكس توالي المحتوى أو الفعل ويقويه. فكثيرًا ما يعتمد فعل التفسير على فك شفرة استراتيجية ترتيب ما بحسب استراتيجية أخرى. وفي حالة السوناتة - على سبيل المثال - عادة ما تستخدم التقسيمات الشكلية الناتجة عن القافية داخل الأربعة عشر سطرًا، لتحديد حركات المحتوى؛ مثل مراحل تطور الفكرة، كما يفهم المتلقي التقسيمات الشكلية التي

نميزها بعناوين جانبية أو بروابط إنترنت، على أنها أقسام مختلفة من المادة. وكذلك فالأقسام التي نحددها بأفعالها يمكن أيضا أن تكون موسومة بتحولات في المحتوى واختلافات في التنسيق. فإذا نظرنا لخطاب الأخبار السلبية الذي يلعب دور ثلاثة أفعال في الوقت نفسه فقد نجده يفصل بينها جميعا في فقرات مختلفة. وفي النص الذي يحتوي على أصوات مختلفة يمكن للكاتب أن يعطي كل صوت مساحته الثابتة التي يُميزها عادة بمساحة فارغة في بداية الفقرة أو حجم الخط أو نوعيته أو تظليله. اهتم كينيث بيرك (١٨٩٧ - ١٩٩٣) من بين كل بلاغيي القرن العشرين بالتداخل بين الشكل والمحتوى والفعل. وأشار إلى أنه عندما يتوقع المتلقي أن يلتزم النص بنمط شكلي معين بغض النظر عن مصدر التوقع فإن المتلقي سيقتنع بالمادة التي تتسق مع الترتيب أكثر من غيرها. في البلاغة الكلاسيكية ترتيب مرافعة المحكمة كان يتكون من متوالية من ستة أقسام هي: المقدمة وسرد الحقائق والفصل وإثبات الحالة وتفنيد حجج الخصم والختام. وكان الفصل بين الأقسام قائمًا على تأثير كل منها المتوقع على الجمهور. وما يزال نمط الترتيب التقليدي هذا صالحًا حتى اليوم، ويتجسد في النصيحة الدائمة بأن كل خطبة أو كتابة يجب أن يكون لها مقدمة وجسم وخاتمة تحتوي على حجج الكاتب بشكل مؤثر. تعتمد خيارات ترتيب الحجة في كتب البلاغة الكلاسيكية والحديثة المبكرة على قوتها وإمكانياتها في إقناع المتلقي. وكانت تلك الكتب تنصح الخطيب بأن ينظم حججه تصاعديًا أو تنازليًا بحسب قوتها، أو أن يضع أضعفها في الوسط ليبدأ كلامه ويختتمه بالحجج القوية. بينما تعتمد فكرة قوة حجة ما على قياس قوتها مع نوع خاص من المتلقي، فقد تساءل البلاغيان البلجيكيان "حييم بيريلمان" و"أولبريخت تيتكا" عمًا إذا كانت قوة حجة ما يمكن تقييمها بشكل مستقل. وقالا إن قوة أي حجة بالنسبة للمتلقي يمكن أن توجد من خلال موقعها، فقد حاول الباحثون في علم النفس وعلوم التواصل أن يجدوا أسسًا علمية لاستراتيجيات

الترتيب المختلفة، وصمموا تجارب لقياس قوة أنماط ترتيب معينة، مثل البداية بالحجة القوية والختام بها. لكن المتغيرات الكبيرة والمعقدة في سياقات التواصل الإنساني تجعل من المستحيل التوصل لنتيجة مقنعة وقابلة للتعميم في هذا المجال.

تفرض وسائل الإعلام الحديثة مثل الصحف المطبوعة والراديو والتليفزيون والإنترنت تعقيدات جديدة في دراسة الترتيب؛ لأن ترتيب المعلومات والحجج وترتيب وصول بعض الإعلانات للمتلقي مسألة يصعب التنبؤ بها؛ خاصة بسبب مشاكل الحدود الفاصلة التي تكلمنا عنها سلفًا. يركز منظر التواصل "مارشال ماكلوهان" (١٩١١ - ١٩٨٠) على القطيعة التي أحدثتها وسائل التواصل الجماهيري الحديثة مع الترتيب الخطي المباشر للخطاب الشفاهي والكتابي، من خلال تقديم الرسائل كلها في الوقت نفسه أو بأسلوب الموزاييك. على الرغم من أن تصنيفات "ماكلوهان" ليست مستخدمة الآن فإنه أيضا من الصحيح أن المستهلكين للإعلام قد يرون أكثر من عنوان صحفي واحد أو يشاهدون أكثر من خبر على التليفزيون أو يقرأون إعلانات على موقع للإنترنت أو يسمعون أجزاء من برنامج إذاعي ثم يشكلون رأيا من شتات الانطباعات والمعلومات التي حصّلوها. ولذلك فكثافة التعرض لرسالة ما، والتشبع بها، قد تؤدي إلى نتيجة أكبر من الترابط بين أجزاء رسالة ما، وهو الترابط الذي يتحقق من خلال ترتيبها بمهارة حذقة.

جلب علينا الإنترنت وصفحاته أكبر قدر ممكن من التخمين والتفكر في أنماط أحدث من الترتيب. أولا يقدم الخلط بين السمعي والبصري واللفظي والمرئي في نفس الصفحة خيارات ترتيب فريدة وخاصة بهذا الوسيط، كما أن وجود الروابط يخلق أنماطًا متعددة الأبعاد multidimensional ومتعددة المستويات في الترتيب. كما أن إمكانية الانتقال من خيار لآخر ذهابًا وعودة

تعطي مستخدم صفحات الإنترنت تحكما أكبر في توالي النصوص. هناك اهتمام علمي حديث بنظريات الترتيب في حالة هذه التكنولوجيا، ولكن هناك اختلافا في مدى حداثة بعض تلك الترتيبات.

الترتيب والنوع Genre

يمكن العثور على تعليقات حول الترتيب وطول النصوص وتواليها وعلاقة أجزائها بعضها ببعض في التحليل النقدي لكتابات متفردة. تحليل "ستانلي فيش" لدراسة حالة قدمها فرويد باسم "الرجل الذئب" - على سبيل المثال - يشير إلى التأثير البلاغي الكبير لخطاب "فرويد" المتأخر بخصوص معنى الحلم (دورهام ١٩٨٩). ولكن الملاحظات المنهجية حول الترتيب يمكن أن تكون في مناقشات الأنواع وأنماط النصوص المتكررة كالكلمة الافتتاحية وأخبار التليفزيون والكوميديا، ومن الممكن أن تكون استراتيجية ترتيب معينة هي السمة المميزة لنوع معين سواء أكانت الأقسام مرتبة بحسب المحتوى أم التأثير أم السمات الشكلية أم كلها معًا. بمجرد ما تتحدد استراتيجية الترتيب النمطية لنوع ما، يُصبح من الممكن مناقشة كيفية عمل الأمثلة المنفردة في تجميع العناصر إضافة أو حذفًا أو تغييرًا.

يوضح سرديات ما وراء النوع metagenre "narrative" كيف أن التنويعات على ترتيب تقعيدي معين يستطيع أن يعكس الموقف البلاغي لنص من النصوص. النص بشكل عام هو سرد مادامت أقسامه حلقات أو أحداثا؛ بغض النظر عن كون تلك الأحداث فعلية أو نفسية. يدخل التاريخ والسير والأخبار والأفلام والروايات في هذا التصنيف الواسع. استراتيجية الترتيب الأساسية في السرد هي التسلسل الزمني، ولكن الأحداث التي تشكل بنية السرد سواء أكانت حقيقية أم روائية لا يتحتم أن ترِد بحسب زمان حدوثها.

والإمكانية الأساسية لإعادة ترتيب نفس السرد بطريقة مختلفة موجودة في التمرينات البلاغية في كتب البلاغة الكلاسيكية، وهي تمرينات على سرد القصص الخرافية، حيث يتوجب على المتدرب أن يأخذ قصة بسيطة ويعيد حكايتها بطرق جديدة بحيث يبدأ مرة من البداية، وأخرى من الوسط، وثالثة من نهايتها. تعكس أخبار الصحف نوعا آخر من ترتيب السرد، وهو نمط مكثف جدًا من سرد الأحداث يتبعه سرد أكثر تفصيلا لتلك الأحداث. ومع ذلك فحقيقة أن ترتيب الأحداث يمكن إعادة بنائه بأشكال مختلفة، هو أمر يوضح أن إعادة ترتيب الأحداث له أهداف بلاغية. ومع أن أنواعا أدبية أخرى كالرواية والفيلم توصف بمحتواها، أو تُعرف بشكلها؛ فإن الأنواع البلاغية كالخطب الجنائزية والتوثيق والمرافعات عادة ما توصف بحسب أفعال الكلام أو التأثير المرجو. ازدهر البحث في مجال الأنواع البلاغية في السبعينيات من القرن العشرين متأثرًا بنقد "كاثلين جاميسون" (١٩٧٥) التي وسعت مفهوم الموقف البلاغي عند "بيتزار" (١٩٦٨) ليشمل الأنواع السابقة بالإضافة إلى المحددات البلاغية التقليدية. فحتى إذا ما واجه الخطيب موقفا جديدا فإنه سوف يتبنى أشكالا من التواصل أو أنواعا من التواصل تم استخدامها قبل ذلك، ويطوعها لسياقه الآني. ولكن الحالات التي ذكر فيها مثل هذا السلوك لا تشمل مناقشة للترتيب واستراتيجياته كما هي في النوع المستعار. [انظر: Hybrid genres].

أثبت مفهوم النوع أنه مفيد في دراسات سيكولوجية القراءة أو استهلاك النصوص بشكل عام. كثيرًا ما يميز المنظرون بين استراتيجيات الفهم التي تبدأ من أدنى، عندما يكون فهم بنية النص الكلية من خلال أجزائه وبين استراتيجيات الفهم من أعلى بسبب الاعتماد على نموذج سابق في عقل

القارئ. أثبت الباحثون النفسيون أن المناقشة حول النوع تساعد في فهم النص. فمعرفة القارئ أو المشاهد أو المستخدم بالنوع وبأنماط ترتيبه التقليدية تشكل خلفية معرفية ترتَّب في الكثير من الأحيان زمنيًا أو تراتبيًا وتسمى سيناريوهات أو مخططات. تُسمَّى الأشكال واسعة الانتشار - مثل تقديم المتحدث مثلا أو أسلوب النشرة الجوية - بالمخططات الرسمية، ومن شأنها أن تساعد القارئ في التعاطي مع مفاهيم جديدة.

الترتيب والأنواع الوظيفية

قام باحثون يركزون على التواصل المهني والفني بأبحاث مثيرة عن الأنواع ومخططات الترتيب الرسمية. الهدف من هذه الأبحاث هو تعليم الطلاب والمهنيين إنتاج نصوص معينة خاصة في مجال العمل وفي السياقات التي تقدر الوثائق بسبب فاعليتها ووضوحها. فعادة ما تكون النصيحة بشأن كتابة الأنواع العملية كالسيرة الذاتية والتقارير وخطط العمل في شكل نموذج ترتيب مثالي يملؤه الكاتب بمحتوى يتناسب كل مرة مع غرض كتابته الآني.

من بين أكثر الأنواع اعتيادية في ترتيبها، نوع كتابة تقارير البحث العلمي التي تتبنى عادة الترتيب التقليدي التالي: المقدمة ثم المنهج والمادة ثم النتائج ثم المناقشة. درس الباحثون في مجال تاريخ العلوم وبلاغة العلوم تطور هذا الشكل وإطاره المعرفي، وهو الشكل الذي يعكس الترتيب المثالي للتنظيم التجريبي. ذلك على الرغم من أنه نموذج ينتقده البعض لأنه يتجاهل التعقيدات الكبيرة في البحث العلمي، كما أن هناك أبحاثا كثيرة حول الترتيب الداخلي النموذجي لأقسام المقال البحثي؛ وخاصة في المقدمة التي يقول عنها جون سويلز (١٩٩٠) وآخرون إنها تنزع لاتباع خطوات ثابتة لتحقق الغاية البلاغية المرجوة؛ وهي خلق مجال بحثي والحفاظ عليه.

الترتيب في مستويات أدنى من مستوى النص الكامل

في حين ركزت البلاغة الكلاسيكية على ترتيب النص كاملا؛ فإنها لم تهمل أيضًا الوحدات النصية الأصغر، وترتيبها الداخلي. فتجد مثلا أن حجة واحدة في خطبة قد تأخذ شكل epicheirēme؛ أي الحجة الخماسية المكونة من خمسة أقسام هي: الادعاء والعلة والتعليل والتفنيد والتلخيص. وحاول بعض البلاغيين المحدثين ومنظري الكتابة أن يحددوا وحدات شكلية أصغر من النص قد تظهر في أي نوع وتحمل أي معنى.

يمكن وصف نماذج التطوير modes of development التقليدية التي كانت من أساسيات كتب تعليم الكتابة والتي أصبحت محل انتقاد شديد الآن على أنها استراتيجيات ترتيب تشمل وحدات صغيرة داخل النص وليست محدودة بنوع كتابي معين أو بموضوع خاص. النماذج الشاملة تتضمن أنماطًا مثل الحكي المرتب بالتوالي والتصنيفات المنسقة بتعدد أقسام أو تصنيفات أو قوائم في قائمة أكبر، والتحليل المرتبط بتقسيم الموضوع والوصف الذي يقوم على ترتيب بعض التقسيمات بصورة مكانية، والتعليل الذي يقوم على تقديم العلة والمعلول والمقابلة والمقارنة. ويمكن وصف استراتيجية ترتيب نص مفرد كمتوالية من مختلف نماذج التطور التي يستخدمها.

رشح العالم النفسي الأسكتلندي ألكسندر بين (١٨١٨ - ١٩٠٣) في أواخر القرن التاسع عشر الفقرة paragraph لأن تكون ثاني أكبر وحدة بنيوية بعد النص الكامل (*English Composition and Rhetoric*، enlarged edition, London, 1901). وحدد مبادئ لبناء الفقرة كجملة الموضوع والتركيب المتوالي والتنسيق المعلم. واصل المنظرون في مجال الكتابة في القرن العشرين هذا العمل بتحديد أنواع الفقرات وترتيبها الداخلي. وعلى ذلك، يمكن وصف ترتيب نص ما على أنه متوالية وحدات يعبر عنها توالي

الفقرات باستخدام طرق مختلفة. يعتبر كتاب "أنساق النثر Designs in Prose" (١٩٨٠) محاولة أخرى لتحديد الوحدات الكتابية بطول الفقرة. التصور الأساسي هنا هو أنك تستطيع أن تفرض على نصوص مختلفة في طولها استراتيجيات الترتيب نفسها، وعلى ذلك تستطيع أن يكون عندك في نص بطول جملة واحدة مقارنة ومقابلة تستطيع أن تطبقها على نص بطول فقرة، وعلى نص آخر أطول من ذلك.

هناك نظرية أخرى في الترتيب تهتم بتنظيم "المعلومات القديمة والجديدة" و"الموضوع والتعليق" على مدار مجموعات من الجمل. يمكن التحقق من التنظيم في نصوص مكونة من عدة جمل بناءً على ملحوظة أن الجمل في اللغات الهندو - أوروبية تنزع لوضع المعلومات القديمة أو المعروفة أو المعلومات التي يعرفها المتلقي في بداية الجملة كما تنزع لوضع المعلومات الجديدة أو الخبر الجديد في نهاية الجملة. ولذلك يستطيع نص ما أن يحتفظ بنفس الموضوع على مدار عدد من الجمل، يعني هذا أن جملة قد تحتوي على نوع من المعلومات وتحتوي جملة أخرى على نوع آخر من المعلومات.

الترتيب في البلاغة المرئية

الترتيب في شكل نص مكون من وحدات ثابتة وليس من توالي مؤثرات في وقت معين يصبح واضحا في صنع المرئيات وتفسيرها؛ مثل الصور التوضيحية والصور الفوتوغرافية والرسومات وشاشات الكمبيوتر. أسهمت مساحة المعرفة الواسعة حول سيكولوجية الإدراك وفسيولوجيته في دراسة ترتيب النصوص المرئية. هناك مبادئ ثابتة حول حدود ما يمكن أن تدركه العين وحول حدود ما يمكن للفرد المدرك أن يستوعبه من مجال بصري بحسب توقعاتهم. في الوقت نفسه هناك اعتقادات ثقافية تغذي تناسق الأجزاء فيما هو مرئي؛ فتضيف إليه معنى، كما هو الحال في الثقافة الغربية؛

حيث نفهم الدائرة حول الرأس على أنها علامة قداسة، كما أن الخط الصاعد من اليسار لليمين يعني ارتفاع القيمة. تجادل باحثون كثيرون حول تطبيق مبادئ الترتيب المأخوذة من النصوص المكتوبة على النصوص المرئية.
استخدم "جونتر كريس" "وليو فان لوفين" في كتابهما *Reading Images: the Grammar of Visual Design* (London, 1996) أنماط قياس من أنساق الترتيب اللفظي لتحديد استراتيجيات الترتيب الخاصة بالجوانب المرئية، يطبق كريس وفان ليوفان مبدأ ترتيب المعلومات؛ القديم ثم الجديد، الذي تكلمنا عنه سلفا، على الترتيب المكاني في الصورة المرئية، وقد افترضا أن السمة المرئية في يسار الصورة هي التي تمثل المعلومة القديمة أو المعروفة أو العادية وما يرد على يمين الصورة هو المعلومة الجديدة أو النتيجة أو المعلومة غير المعروفة. انظر أيضًا: **[Hypertext]**.

مصادر ومراجع

Becker, Alton. "A Tagmemic Approach to Paragraph Analysis." *College Composition and Communication*, (1965) 16, pp.pp. 237–242.

تحديد للأنماط المتكررة من ترتيب الفقرات؛ كما هو الحال في نمط TRI (الموضوع Topic، القيود Restriction، التوضيح Illustration).

Bitzer, Lloyd, F. "The Rhetorical Situation." *Philosophy and Rhetoric* 1.1 (1968), pp.pp. 1–14.

Bolter, Jay David, and Richard Grusin. *Remediation: Understanding New Media*. Cambridge Mass., 1998.

يقول إن وسائل الإعلام الحديثة القائمة على الإنترنت تستخدم نماذج ممتدة من تلك الوسائل التقليدية، وهي ليست جديدة كلية.

Burke, Kenneth. *Counter - Statement*. New York, 1931.

يحتوي العمل الأول لبيرك على ثلاثة أنواع من الأشكال أو الترتيبات؛ هي التقليدي والتكراري والتطوري، هناك إشارات لنفس المفاهيم في الأعمال اللاحقة.

Campbell, Karlyn Kohrs, and Kathleen Hall Jamieson, eds. *Form and Genre: Shaping Rhetorical Action* Falls Church, Va., 1978.

مقال افتتاحي للمحررين يحدد الأنواع البلاغية، ولكن مناقشات المقالات التالية تشير للترتيب بشكل عرضي.

Clark, Herbert H., and Susan E. Haviland. "Comprehension and the Given - New Contract." In *Discourse Production and Comprehension*. Edited by Roy O. Freedle. Norwood, N.J., 1977.

دراسة لافتراضات وعمليات عقلية تُستخدم لفهم متواليات من الجمل.

Dillon, George. *Constructing Texts*. Bloomington, Ind., 1981.

يحتوي الفصل الثالث على مناقشة للترتيب فيما يتعلق بأنساق المعلومات أو الافتراضات المرتبطة بما يجلبه القارئ للنص.

Hovland, Carl I., Irving Janis, and Harold H. Kelley. *The Order of Presentation in Persuasion*. New Haven, 1957.

وصف كلاسيكي لدراسات تجريبية أجراها علماء نفس بشأن موقع الحجج وقوتها الإقناعية النسبية.

Jamieson, Kathleen. "Antecedent Genre as Rhetorical Constraint." *Quarterly Journal of Speech* 61, (1975).

يحاجج بأن البلاغيين في المواقف البلاغية الجديدة استخدموا الأنواع القديمة التي كانت مستخدمة في نفس المواقف.

Jamieson, Kathleen. *Eloquence in an Electronic Age*. New York, 1988.

يحاجج بأن البنية غير الرسمية في المحادثة حلت محل الحجج الرسمية في الحوارات السياسية المتلفزة.

Landow, George P. *Hypertext 2.0: The Convergence of Contemporary Critical Theory and Technology*.

يقول إن الحجج المباشرة في النصوص الأدبية المفردة ستحل محلها شبكات النصوص المستمرة.

Larsen, Richard. "Toward a Linear Rhetoric of the Essay." *College Composition and Communication* 22 (1971).

تطبيق لنظرية أفعال الكلام في الترتيب؛ أي رؤية النص باعتباره سلسلة من الأفعال التي ترمي لهدف ما.

McLuhan, Marshall. *The Gutenberg Galaxy: The Making of Typographic Man*. Toronto, 1962.

يتكلم عن الاختلافات بين وسائط مباشرة وغير مباشرة.

Meyer, Bonnie J. F. *The Organization of Prose and Its Effects on Memory*. Amsterdam, 1975.

هو توجه لغوي نفسي للتنظيم الهيراركي للمعلومات داخل أي نص.

Pitkin, Willis. "Discourse Blocs." *College Composition and Communication* 20 (1969), pp.pp. 138–148.

محاولة لتعريف وحدات الترتيب بحسب وظيفتها الخطابية (التنظيم أو التكميل أو التضمين أو الاشتمال).

Snyder, Ilana. *Hypertext: The Electronic Labyrinth*. New York, 1997.

مناقشة لكيفية تغير ممارسات القراءة والكتابة في سياقات التناص.

Swales, John M. *Genre Analysis: English in Academic and Research Settings*. Cambridge, U.K., 1990.

يحتوي على تلخيص مفيد للتوجهات الخاصة بالنوع الكتابي، ومناقشة مفصلة للترتيب النمطي للأقسام في أي تقرير علمي أكاديمي، وخاصة في المقدمات.

VandeKopple, William. "Some Exploratory Discourse on Metadiscourse." *College Composition and Communication* 36 (1985), pp.pp. 82–93.

يحتوي على دراسة لأنماط متعددة ممكنة لما وراء الخطاب، بما في ذلك طرق تقديم الترتيب.

Van Dijk, Teun. *Macrostructures*. Hillsdale, N.J., 1979.

يناقش، من منظور علم اللغة النصي، كيفية احتواء النصوص على أطروحات في مستوياتها العليا.

تأليف: Jeanne Fahnestock

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

فن الكتابة Ars dictaminis

فن كتابة الرسائل هو نوع من بلاغة العصور الوسطى أسهم في تقديم معلومات وخبرات في كتابة الرسائل والوثائق المشابهة. فيما بين عامي ١٠٧٧ و١٠٨٥ كتب ألبريك من مونتي كاسينو Alberic of Monte Cassino أول كتب العصور الوسطى البلاغية التي احتوت على تعليم صريح لفن كتابة الرسائل. ولكن بعد مرور جيل واحد أخذ كل من "أدالبرت السماري" "وهيجو البولوني" أفكار "ألبرك" خطوة للأمام بأن كتبًا كاملة عن فن كتابة الرسائل مقيمين نظريتهما على بلاغة شيشرون التقنية والشروح التي أعقبتها. [انظر: Classical rhetoric]. أسست كتب أدالبرت وهيوجو وأقرانهما في بولونيا في القرن الثاني عشر جنسا أدبيا انتشر في عموم أوروبا، وكُتبت فيه مئات الرسائل في آلاف المخطوطات. وإذا أخذنا في اعتبارنا عنصر الاستمرارية والتأثير لوجدنا أن فن كتابة الرسائل يُعد أنجح تطويعات العصر الوسيط للبلاغة الكلاسيكية.

تجمع أي رسالة تقليدية في الموضوع - وعادة ما يكون اسمها "فن الرسائل" - عددًا كبيرًا من المفاهيم التي تخص الترتيب والأسلوب، وأمثلة توضيحية كثيرة أو نماذج للمحاكاة. [انظر: Arrangement: Traditional arrangement; Imitation; Style]. يعكس التعليم الكتابي في هذه الكتب التصور الأساسي لكتابة الرسائل على أنها فن رسمي ونص مكتوب ومسموع في آنه. إن فهم الرسالة بوصفها شِبه خطبة يمكن رؤيته من خلال معالجة الأجزاء المكونة لها، بحسب القالب الذي صاغه شيشرون في تحليله للخطب القضائية.

وبحلول النصف الثاني من القرن الثاني عشر حدد البلاغيون خمسة أقسام للرسالة: التحية وإثبات حسن النية باستخدام أساليب مختلفة - منها الحكم مثلا - وسرد الوقائع والطلب والتلخيص والقفلة. القسم الأول الخاص بالتحية هو وحده الخاص بفن الرسالة، أما الأقسام الأربعة الباقية فمأخوذة من تقسيم شيشرون للخطب. تتكون نظرية العصور الوسطى عن الرسائل من الجمع بين الأقسام الخمسة هذه، ولما كان التواصل عن طريق الرسائل يعمل في سياق اجتماعي هيراركي فإن القسمين الأول والثاني أكثر الأقسام اهتماما في كتب فن الرسائل. فالقسمان الأولان يضمنان سماع الرسالة ودخولها المدخل الصحيح، وكانت التحية محكومة بنسق دقيق من المبادئ الثابتة. أما إثبات حسن النية في الرسائل الموجهة لأشخاص أعلى في السلم الاجتماعي أو متساويين فيه فهو فرصة طيبة لاستعراض الظروف التي ستروى الطلب المقدم. أما الأقسام الثلاثة الباقية فلا تتطرق لها الكتب بنفس التفصيل؛ ربما لأن محتواها متنوع للغاية، وربما أيضا لأن الناس لا تنظر لها على أنها ذات أهمية بلاغية كبيرة. تناقش بعض الكتب أنواع الرسائل والظروف التي يسمح فيها بالاستغناء عن قسم من الأقسام الخمسة، وتشير أيضا العناصر الأسلوبية المقدمة في هذه الكتب إلى النموذج الخطابي الملهم، فقد أصبحت العبارات المسجوعة التي كانت عنصرًا بلاغيًا كبيرًا في الخطابة جزءًا مهمًا من فن الرسائل في القرن الثاني عشر. ويمكن قول نفس الشيء عن الصور البلاغية وتقسيم الجمل الذي كان من بين أهم السمات السمعية للخطبة.

كانت كتابة الرسائل قبل ظهور فنها تعلم عن طريق أنماط تمثيلية ومجموعات من الرسائل النموذجية، وتحفظ لنا رسائل كثيرة هذا التراث من التقليد. ولكن التحية على وجه العموم كانت تدرس من خلال الأمثلة أكثر من تعليم الفكرة، وهو ما يفسر المساحة الكبيرة المخصصة لهذا القسم في كتب

تعليم فن الرسائل. وتحتوي الكثير من الكتب على نماذج كثيرة للحِكَم التي يمكن أن تستخدم في القسم الثاني من الرسالة، ولكن يندر وجود أمثلة مستقلة للأقسام الثلاثة الأخرى. وما يوجد أكثر في تلك الكتب هو نماذج لرسائل كاملة، غالبا مع الرد عليها. وكثيرًا ما كانت تلك المجموعات من الرسائل - مثل مجموعة بيتر الفيني - تستخدم ككتب لتعليم فن الرسائل.

وكان استجلاب سياق نظري بلاغي قوي لهذا التوجه التعليمي رد فعل طبيعي للحاجة لموظفين أكثر تأهيلا ومهارة. وفي شمال إيطاليا حيث ظهر الصراع بين البابا والإمبراطور والتوسع التجاري وتطور أشكال الحكم، كانت الحاجة غير المسبوقة لكتبة مهرة للعمل في وظائف، تبدأ من المسئول عن السجلات المحلية، وصولاً إلى السكرتير البابوي، والمستشار الإمبراطوري. وساعد ظهور بولونيا كمركز للدراسات القانونية في ازدهار فن كتابة الرسائل في تلك البقعة، وفي ازدياد سطوة كتابها على العلم في القرن الثاني عشر والثالث عشر مثل "برنارد البولوني" و"جيدو فابا". على الرغم من أن العلاقة بين الدراسات القانونية وفن كتابة الرسائل لم تكن قوية في كل مكان فإن كتابة الرسائل استمدت قوتها في كل أوروبا من فعاليتها العملية في تدريب الموظفين؛ الذين لولاهم لما استقام حكم مدني أو ديني. وحين أصبحت القوة الاقتصادية والاجتماعية في العصور الوسطى أكثر تعقيدا واعتمادا على النصوص، استجاب معلمو تلك الفترة لهذه التطورات من خلال تقديم مادة تعليمية أكثر مرونة لتعليم فئات الدارسين كيفية تداول النصوص المكتوبة والوثائق. وكان فن كتابة الرسائل مفيدًا في تلبية تلك الاحتياجات بشكل جعله يستمر كمادة دراسية لمدة قرن بجانب مواد أخرى حلت محلها بمرور الزمن. [انظر: Humanism، وانظر أيضًا: Epistolary rhetoric؛ Medieval rhetoric].

مصادر ومراجع

Anonymous of Bologna. "The Principles of Letter - Writing (1135 ce)." Translated by James J. Murphy. In *Three Medieval Rhetorical Arts*. Edited by James J. Murphy, pp.pp. 1–25. Berkeley, 1971. English translation of the first part of a seminal treatise, probably written at Bologna by "Master Bernard".

Camargo, Martin. *Ars Dictaminis, Ars Dictandi*, vol. 60, *Typologie des sources du moyen âge occidental*.

Turnhout. Belgium, 1991. Defines the genre and sketches its history.

Faulhaber, Charles B. "The *Summa dictaminis* of Guido Faba." In *Medieval Eloquence: Studies in the Theory and Practice of Medieval Rhetoric*. Edited by James J. Murphy, pp.pp. 85–111. Berkeley, 1978.

يحلل أكثر الرسائل تأثيرًا على هذا الفن، والتي كتبت في بولونيا بين ١٢٢٨ – ١٢٢٩.

Murphy, James J. *Rhetoric in the Middle Ages*. Berkeley, 1974.

يدرس "فن كتابة الرسائل"، وهو أفضل مسح في اللغة الإنجليزية، وفيه تلخيص لحوالي ٢٦٨ رسالة.

Patt, William D. "The Early *Ars dictaminis* as Response to a Changing Society." *Viator* 9 (1978), pp.pp. 133 - 155.

يقول إن فن كتابة الرسائل لم يُخترع فجأة، ولكنه تطور من التراث التربوي المتاح كاستجابة لتغيرات ثقافية مهمة.

Transmundus. *Introductiones dictandi*. Text edited and translated with annotations by Ann Dalzell.

التحرير والترجمة الإنجليزية لرسالة مهمة في بدايات القرن الثالث عشر كتبها، راهب كليرفوا الذي كان قبل ذلك موثقًا بابويًا.

Witt, Ronald. "Medieval *Ars dictaminis* and the Beginnings of Humanism: A New Construction of the Problem." *Renaissance Quarterly* 35 (1982), pp.pp. 1–35.

يصف الطبيعة المعقدة والمتغيرة للبلاغة في إيطاليا من أواخر القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر، عندما استمر فن كتابة الرسائل في الممارسة والتعليم خاصة في أوساط الإنسانيين الذين قضوا عليه في النهاية.

تأليف: Martin Camargo

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الفن Art

لم تهتم البلاغة الكلاسيكية بالفن التصويري إلا قليلا وبطريقة غير مباشرة، وعندما يكون له ذكر فإنه يُذكر كفن مساعد لما هو منطوق؛ أي إنه من أجل توضيح المسائل البلاغية يتم الرجوع لمسائل تصوير يُفترض أنها أوضح بشكل عام. الإشارة للمسائل التصويرية أو الصور العقلية أو لطريقة إنتاج الصور وإدراكها أو تقديمها تنتمي للجانب التفسيري، وليس للجانب التحليلي من البلاغة. ولذلك تجد شيشرون مثلا في معرض تفسيره لفكرة المناسبة يذكر القارئ بتعليقات أبيليه Apelles على الرسامين "الذين لا يعرفون لحظة اكتمال عملهم"، كما يذكرهم بتعليقات تيمانثيوس على قرار سيثوس بأن يرسم رأس أجاممنون متشحا في التضحية بإفيجينيا "لأن هذا الحزن الكبير لا يمكن أن تصفه ريشة هذا الرسام" (انظر شيشرون، الخطيب، ٢١ ص٧٢ - ٧٤).

في مناقشة كينتليان لمكانة الذاكرة في فن الخطابة، يقدم لنا الكاتب عرضًا لدور كل من الصور الذهنية والتصوير بالرسم، الذي غالبًا ما يكون في شكل رسومات صُنعت بغرض التركيز على الصور الذهنية والاحتفاظ بها. التركيز في هذه الحالة ليس على الصورة بل على الصورة الذهنية التي يراها كينتليان في هذا السياق بوصفها طريقة من بين طرق متعددة تبحث عن الصورة الذهنية وتحددها. وفي معرض شرح كينتليان للوصف التصويري لشيء ما بدلا من الوصف بغية التعريف، نجد أن الكاتب يقدم

تحليلا مفصلا لكيفية أن القراءة أو الاستماع تضفي إحساسا بمشاهدة الموصوف بالعين بفضل الصور البلاغية والاستعارات المستخدمة. وبالتالي يتحول السامع أو القارئ إلى مشاهد لعرض مسرحي. [انظر: **Descriptio**]. وهنا أيضا يستلهم الخطيب الصورة الذهنية ولا يستلهم الصورة المادية الملموسة. في مجالات أخرى تعمل الصورة الحسية - وليس الصورة الذهنية- كنقطة انطلاق للكلام، كأن يحاول الشخص مثلا أن يخمن النتيجة النهائية للصورة التي أمامه من مجرد خطوط أولية، أو أن يستطيع الشخص تخمين مسار الحكي من مجرد بضع كلمات في بداية القصة. ولكن حتى تحليل كينتليان للدور الفعال الذي تقوم به حركات الخطيب ساعة الكلام في الإقناع يقوم على المعرفة المسبقة بتلك الحركات من خلال الصور الصامتة.

بالإضافة إلى الإشارات الواضحة لتلك الصور المادية أو الذهنية على أنها عناصر من الحياة اليومية هدفها توضيح بعض المفاهيم البلاغية، كانت بعض المصطلحات المستخدمة في البلاغة الكلاسيكية في أصلها استعارات مقتبسة من الخبرات البصرية العادية (انظر باكسندال ١٩٦٦ ص١٧). ولكن فهم المرئي هنا أيضا كان مفترضًا سلفًا ولم يكن منطقيًا.

عموما لم تتشعب البلاغة الكلاسيكية لتصبح فنًا تصويريًا، فلم يكن من الممكن تقبل بعض الإشارات العابرة للصورة الذهنية والصورة المادية واقتباس الاستعارة من الفنون التصويرية بشكل جاد حتى القرن الخامس عشر أو حتى التفكير فيها، لأن القرن الخامس عشر شهد بداية انهيار الفصل الشديد بين الفنون الجميلة والفنون اليدوية. كان الرسام حتى تلك الفترة مثل النجار والحداد والنساج وباقي حرفيي الفنون اليدوية، ولكنه في القرن الخامس عشر أصبح يطمح لأن يكون من ضمن الفنانين. منذ أيام أفلاطون استقر في يقين الناس أن الخطيب والرسام يمتلكان صنعةً تُعلَّم، وصنعة الخطيب يمكن أن

نجمعها عقليا مع كل ما يؤثر في المستمع، ويقنعه بصحة القضية. ولكن صنعة الرسام مثل صنعة الحداد أو النساج تنتهي بصنع شيء نافع. لقد كان هذا بالطبع هو الحال، ولكن لما كان الرسم فن محاكاة، أصبح من الصعب ضمه للخطابة أو للتراجيديا. [انظر: Imitation]. أما فن الخطابة فقد كان فرعًا من الفنون الجميلة مثل النحو والجدل والموسيقى والحساب والهندسة والفلك منذ العصور الكلاسيكية القديمة. ولكن عندما ارتفعت مكانة النحات أو الرسام لمكانة الفنان، تمكنت صنعتهما من الانتقال من مجال العامل بأجر، لمكانة مجاورة للفنان المبدع في الفنون الرفيعة. [انظر: Trivium].

إذا وضعنا الأمور في مثل هذا السياق فإن رسالة في الفن مثل رسالة ليون باتيستا ألبرت (١٥٤٠) لم تكن مجرد محاولة توضيح أن الرسم لم يكن مجرد فن يمكن تعليمه وتعلمه عن طريق مفاهيم خاصة. فقد تم هذا بشكل جيد في العديد من الرسائل التي كتبت عن هذين الفنين في سياق الفنون اليدوية بدون الإسهام في رفع المكانة الاجتماعية للفنان الحرفي. الجديد في رسالة ألبرت أنه قدم للمرة الأولى محاولة جادة لوصف صنعة الرسام على نموذج وصف صنعة الخطيب. ولكن لما كان ألبرت قد صنع فنا للرسم لا يقوم على معايير الفنون والصناعات اليدوية بل على معايير الخطابة التي هي أحد الفنون الرفيعة، فقد انفصل الرسم عن المعايير القديمة لتصنيفه، وبذلك يمكن أن نستخدم معه مصطلح "التحول التصنيفي". افترض ألبرت أن الصور تستطيع أن تحرك الناس وتقنعهم كما تستطيع الخطابه، ولذلك من الممكن أن نطور أدوات وصفية لنظرية الفن تقارب أدوات الخطابة. ومنذ كتاب ألبرت أصبح من الممكن أن نتكلم عن بلاغة الفن بمعناها الحرفي، وأن نسأل في الفن أسئلة نسألها في البلاغة مثل: ما معنى الإقناع الفني؟ وما الأنشطة الفنية التي قد يقوم بها الرسام لينتج عملا فنيا يقدر على الإقناع؟ ولذلك تطمح أية

رسالة عن الفن - قادرة على الإجابة عن هذه الأسئلة - إلى أن تحقق هدفين: أولهما وضع الفن في إطار مفهومي للمثقفين، وبحسب أحدث النظريات المتاحة في حينه، وثانيا تأطير الفن بطريقة تجعله مستحقا لمكانة رفيعة مثله في ذلك مثل أي فن من الفنون الرفيعة. إذا ما ركزنا على الهدف الأول - وهو هدف نظري - بحت فإننا يجب أن نضع رسالة ألبرت في سياق العديد من المحاولات المعاصرة له، والتي سعت إلى التنظير للموسيقى والفن والأدب تحت عباءة البلاغة الكلاسيكية. وإذا ما ركزنا على الهدف الثاني - وهو هدف عملي - لوضعنا الرسالة في سياق القرن الخامس عشر والسادس عشر، وسياق الجدل الدائر حول تصنيف الفنون. وهو الجدل الذي يمكن نرمز له بواسطة اسم رسالة ليوناردو دافينشي القصيرة عن الفن "الباراجون" (١٤٨٢ - ١٥٠٠).

البلاغة الكلاسيكية موجودة في كل مكان في رسالة ألبرتي، ولكن المفهومين اللذين يوضحان اتجاه تطوير أي بلاغة للرسم هما مفهوما الابتكار والترتيب. الابتكار في البلاغة الكلاسيكية وفي تصور ألبرت نشاط أساسي لأي خطيب أو رسام، وجزء أصيل من البلاغة بوصفها فناً. [انظر: Composition; Invention]. أما الترتيب فيشير في الحالتين إلى طريقة جمع الوحدات النصية أو التصويرية من مكوناتها الصغيرة وإلى أسلوب الجمع. يقول ألبرت "طريقة الرسم هي من خلال جمع أجزاء في عمل فني" (انظر باكسندال ١٩٨٦ ص١٣٠). ولكن الترتيب أيضا يشير إلى طريقة تحليل الأجزاء الكبيرة وتفكيكها لمكوناتها الصغيرة.

إن نقل فكرة الترتيب من البلاغة لبلاغة الفن مسألة منطقية فالخطيب والرسام بحاجة لمنطق وفن ومثابرة وخصوصية إن كان لهما أن ينجحا، ولذلك فعليهما أن يعرفا الأمور الأساسية. كان الناس ينظرون للرسام كالخطيب على

أنه مصور محترف للقصص المقدسة (باكسندال ١٩٨٨ ص٤٥) يمكنه أن يحقق تصورات داخلية لهذه الصور في شكل متواليات من الصور الذهنية للقصة التي يرسمها. [انظر: Commonplaces and commonplace books]. وعلى ذلك فيمكن تحليل محاولة الرسام في التصوير بنفس الطريقة التي يمكن بها تحليل طرح الخطيب لمناطق ذاكرته. ومن هنا جاء التشابه المفترض بين ابتكار الخطيب وابتكار الرسام. [انظر: Memory].

أما بالنسبة لنقل مفهوم الترتيب من البلاغة إلى بلاغة الفن فهو أمر أقل طبيعية. ويبين القصور المفهومي ليس في محاولة ألبرتي لبناء مثل هذه البلاغة، بل في أية محاولة من هذا النوع. ولما كان ألبرتي يرغب في تحديد معادل تصويري لتقسيم الوحدة الخطابية اللفظية لعبارات وجمل وكلمات؛ أي لمَّا كان يرغب في نقل أنماط الترتيب من الخطابة للرسم، فقد اقترح سلسلة مكونة من الفراغ والعضو والجسم والقصة والصورة. ويمكن أن ننظر إلى الاقتراح الذي يقضي بأن يكون تقديم القصة باستخدام الأجسام البشرية بدلا من التماثيل، والحكي بدلا من الوصف، هو أهم عمل للرسام على أنه اقتراح نابع من النموذج البلاغي نفسه. لم يتصور ألبرتي في تقديمه لتلك السلسلة أن هناك مشكلة في أن الحركة من الأسفل إلى الأعلى؛ أي من الفراغ إلى جزء الجسم، أو الحركة من فوق لتحت، أي من الجسم للفراغ اعتمادا على وجهة النظر التي تتبناها سواء أكانت وجهة نظر الرسام أم وجهة نظر منظر الفن؛ لم يتصور ألبرتي أنها تمثل انتقالا تصنيفيا من الدال إلى المدلول أو العكس. حدث انتقال مشابه مع الحركة من تحت لفوق؛ أي من القصة إلى الصورة أو مع الحركة من فوق لتحت من الصورة إلى القصة. السلسلة البلاغية - كما تصورها ألبرتي بالاتساق مع التراث - متجانسة بشكل كامل، وعلى الشخص أن ينزل درجة للأسفل لمستوى الأصوات الذي لم يتناوله البلاغيون الكلاسيكيون كثيرًا لكي يستطيع أن يجد عناصر لا يمكن فهمها دلاليا، ويمكن

مقارنتها بالخطوط في الرسم. يقترح هذا الطرح أن نقل النموذج البلاغي لفن الرسم ينجح فقط إذا كان محدودًا بمحتوى الصورة وإلى امتداد العناصر التنظيمية من جزء الجسم إلى الجسم إلى القصة. وتحليل ما يحدث في طرفي القائمة أي السؤال عن مدى عمل الفراغ في الصورة يجب أن ينتظر قيام علم سيميوطيقا مقارن كامل وموسع يتعامل مع النص اللفظي والنص التصويري من منظور مقارن.

إلى جانب النقل الموسع لعناصر الإطار المفهومي من البلاغة الكلاسيكية إلى الرسم على طريقة رسالة ألبرتي، قدمت البلاغة الكلاسيكية أيضا ما أُحب أن أُسميه النقلات الكلية. حدثت تلك النقلات من خلال الإشارة إلى الخبرة البصرية التي تكلمنا عنها سابقًا؛ أي من خلال الممارسة المعروفة في البلاغة الكلاسيكية من استخدام الإشارة للمرئي، بغية توضيح مسائل متعلقة بالفنون اللفظية. لا تحتوي هذه الممارسة بالطبع على ما يعيق استبدال الدال بالمدلول، ولذلك عندما حدث هذا النقل أصبح من الممكن استخدام التحليل البلاغي المتاح والجاهز لأشكال الصرف القادرة على تحقيق صورة، كأداة تحليلية لتحليل نصوص أخرى. هذه نصوص لا يعتقد فقط أنها نصوص وصفية بغرض التدليل والإثبات، بل هي أيضا الآن نصوص تصف أعمالاً فنية تصويرية؛ كما هو الحال بالنسبة لكعب أخيل في قصيدة جون كيتس "في الفازة اليونانية"، مما يعني أنه شيء يشبه صورة عقلية لعمل تصويري يفترض أن يكون قد مارسه قارئ لهذا الوصف. هذا التحول في فهم النص - الذي يمكن إرجاعه إلى البرامج التعليمية في القرن الثاني الميلادي - لا يقود بالضرورة لتطوير بلاغة فنية أو حتى تطوير بلاغة وصف فني، فكان واجب الخطيب المبتدئ هو وصف تمثال لشيشرون بغرض خلق صورة لشيشرون.

هناك سياق آخر كانت فيه محاولات عصر النهضة لبناء بلاغة فنية تقوم على تحاليل قائمة فعلا فيها، إشارات لخبرات مرئية. هذا السياق هو سياق الصورة كعمل قائم، وليس كصورة عقلية. ويمكن أن نجد هذا السياق في الجدل الموسع حول المعنى الدقيق لعبارة ما لهوراس، وفي الجدل بشأن المقارنة بين الصورة والقصيدة في كتابة الشعر الوصفي. كان هوراس بريئًا في تقديم تلك العبارة للمقارنة بين المواقع المختلفة لمشاهدين مختلفين يفرضها اختلاف أنماط التصوير والمواقع المختلفة لقراء مختلفين تفرضها أنواع مختلفة من الشعر. ولكنه لم يقصد المقارنة بين سمات القصيدة واللوحة المرسومة نفسها. وتفتح صيغة هوراس هذه مجالا آخر لمناقشة الخواص الدلالية المشتركة بين القصيدة والصورة، فيما يتعلق أولا بالخواص الوصفية المفضلة في الصورة، وثانيا في سياق بناء بلاغة للفن إذا ما قرئت مع عبارة أخرى مشهورة لسيمونيديس الكيوي ذُكرت في كتاب بلوتارك أيضا، وهي عبارة أن "الشعر صورة تتكلم، والصورة شعر صامت".

هناك فكرة أن أي نص في سياق التحليل البلاغي يحتوي على وصف يجب أن يمتلك بعض السمات التصويرية، كما يجب أن يكون قابلا للتداول؛ ليسمح بتحديد السمات الشعرية في التعبير التصويري وتحليلها. ولذلك هناك إصرار على وجود الجانب القصصي كسمة من سمات الفن التصويري. ولذلك أيضا استخدم عصر النهضة مصطلح "القصة" في قاموس خطاب فن التصوير. وربما كان إصرار ألبرتي على وجود القصة كسمة أساسية راجعًا في بعضه للحوار الدائر في وقته حول هذا الموضوع.

كما أصبح من الممكن استخدام الإشارات البلاغية الواضحة للتشابه بين الفن اللفظي والفن التصويري بشكل جدلي في سياق المناقشات الدائرة في عصر النهضة عن المزايا النسبية للفنون (انظر كتاب الباراجون لليوناردو دافينشي). وبشكل مقارن كذلك في البحث في التشابه بين الفنون،

خاصة في القرن الثامن عشر (الفنون الإخوة). كانت مهمة الباراجون غير المعلنة أن يرفع من المكانة الاجتماعية للفنون التصويرية لتصل لمكانة الشعر، وأن يتحول الرسم والنحت من مجال الفنون اليدوية إلى مجال الفنون الجميلة. ولكن هذا الجدل عقب كتاب هوراس "في الشعر التصويري" أصبح غير ذي محل في فهم الفنون بسبب إصرار "ليسينج" علي وجوب فهم الرسم باعتباره فنًا مكانيًا بينما يتوجب فهم الشعر باعتباره فنا مرئيًا. ولذلك لما استقر هذا الفصل رجعت الفنون التصويرية مرة أخرى من مجال البلاغة البحتة التي لم تستطع أن تطور فكرة التنظيم غير المكانية الضرورية لوصف المساحات في أعمال الفن التصويري، على الرغم من أنها كانت تمتلك فصلاً واضحًا بين أنواع مختلفة من الترتيب اللامكاني؛ كالترتيب الطبيعي والترتيب الاصطناعي للأحداث التي يرغب الخطيب في سردها.

إذا ما وضعنا محاولات عصر النهضة وعصر التنوير لتطوير بعض عناصر بلاغة فنية استنادًا إلى نموذج البلاغة الكلاسيكية في سياقها التاريخي، لوجدنا أنها نتاج مرحلة تتسم بالتنظير حول الفن عموما، والفنون المرئية خصوصا ولوجدنا أيضا أن المرحلة لم تكن تمتلك أدوات فصل سيميوطيقية كفء بين الفنون من حيث الوسائط الفنية المختلفة من رموز وأنظمة. [انظر: Renaissance rhetoric]. وكلما تم تحديد عناصر البلاغة الفنية، يجب أيضا افتراض وجود تشابه بين النشاط الذهني للخطيب أو الشاعر والنشاط الذهني المماثل للرسام، أو افتراض وجود دلالات مشتركة بين الفنون اللغوية والفنون التصويرية، وافتراض أيضا إمكانية تطبيق المفاهيم الأسلوبية نفسها في الحالتين، وأيضا افتراض تشابه أغراض التواصل بين الفنين. [انظر: Style; Sublime, the]. كان التنظير الذي تكلمنا عنه بالإضافة إلى ذلك يرمي إلى تدريب الخطيب والرسام ويجب هنا أن نركز على أن الهدف الأساسي لم يكن الوصول إلى نظرية للنص اللفظي أو

التصويري، بل كان التركيز على الخطيب والرسام وعلى تدريس أنشطتهما يعني مسائل مثل العلاقة بين الصوت والكلمة في حالة الخطيب، وتعامله مع اللغة، والعلاقة بين السطح الفارغ والخطوط من ناحية والأعضاء والأجسام والقصص من ناحية أخرى في حالة عمل الرسام في السطح التصويري، وهي الذي كلها مسائل يمكن تجاهلها. كانت هذه المسائل داخلة في نطاق علم الجمال، لم يكن قد تطور في حينها، ولم تكن في نطاق فن تعبيري أو تصويري، كانت تلك المسائل ستصبح مطروحة للنقاش عندما لا يعود التركيز على تدريب الخطيب أو الرسام ويصبح التركيز على النص اللفظي أو النص التصويري فقط. ولكن لما ظهرت سميوطيقا الفن في النصف الثاني من القرن العشرين في شكلها الكامل حدثت تلك النقلة. وحدث مع تلك النقلة إدراك أن الهدف من بلاغة الفنون البصرية كما فهمها منظرو الفن في عصر النهضة من أمثال ألبرتي يمكن أن يتحقق في شكل مكون عملي داخل سيميوطيقا فنية شاملة من خلال جوانب السيميوطيقا المعنية بالمرسل والمستقبل في الفن.

هناك مسألة أخرى لا يمكن أن تتضح إلا بعد أن يتم الفصل الواضح بين الوسيط اللفظي المستخدم في الفنون التعبيرية، والوسيط التصويري المستخدم في الرسم؛ هي مسألة الفرق بين بلاغة الفن وبلاغة النقد الفني، الذي يقع في نطاق البلاغة كلية؛ لأن نصوص النقد الفني يحتوي على أطروحة تقدم وصفًا أو تقييمًا لأعمال الفنون البصرية، وتقترح طرقا معينة للنظر والرؤية، وتنصح بتجنب طرق أخرى، لذلك فيمكن هنا أن نطرح أسئلة تتعلق بالإقناع ووسائل تحقيقه بشكل مباشر بدلا من طرحها بشكل غير مباشر، أو بطريقة تنطوي على نقل ملغز ومشكل لمبادئ التحليل البلاغي من الفن اللفظي للفن المرئي.

[انظر: Criticism; Persuasion; Classical rhetoric; Color]

مصادر ومراجع

Barasch, Moshe. *Theories of Art: From Plato to Winckelmann*. New York, 1985. See especially chapters 3 - 5.

Baxandall, Michael. *Giotto and the Orators: Humanist Observers of Painting in Italy and the Discovery of Pictorial Composition 1350–1450*. Oxford, 1986. First published 1971.

Baxandall, Michael. *Painting and Experience in Fifteenth Century Italy: A Primer in the Social History of Pictorial Style*. 2d ed. Oxford, 1988. First published 1972.

Blunt, Anthony. *Artistic Theory in Italy 1450–1660*. Oxford, 1964. First published 1940.

Chambers, David. "'A Speaking Picture': Some Ways of Proceeding in Literature and the Fine Arts in the Late - Sixteenth and Early - Seventeenth Centuries." In *Encounters: Essays on Literature and the Visual Arts*. Edited by John Dixon Hunt. pp.pp. 28–57. London, 1971.

Dolders, Arno. "Ut Pictura Poesis: A Selective, Annotated Bibliography of Books and Articles, Published between 1900 and 1980." *Yearbook of Comparative and General Literature* 32 (1983), pp.pp. 105–124.

Farago, Claire. *Leonardo da Vinci's Paragone: A Critical Interpretation with a New Edition of the Text in the Codex Urbinas*. Leiden, 1992.

Gent, Lucy. *Picture and Poetry 1560–1620: Relations between Literature and the Visual Arts in the English Renaissance*. Leamington Spa, U.K., 1981.

Hagstrum, Jean H. *The Sister Arts: The Tradition of Literary Pictorialism and English Poetry from Dryden to Gray*. Chicago, 1987. First published 1958.

Heffernan, James A. W. "Speaking for Pictures: The Rhetoric of Art Criticism." *Word & Image* 15.1 (1999), pp. 19–33.

Kemp, Martin. "From Mimesis to Fantasia: The Quattrocento Vocabulary of Creation, Inspiration, and Genius in the Visual Arts." *Viator* 8 (1977), pp.pp. 347–398.

Kristeller, Paul O. "The Modern System of the Arts: A Study in the History of Aesthetics." In *Renaissance Thought and the Arts: Collected Essays*. First published 1965 as *Renaissance Art*. Princeton, 1980.

LeCoat, Gerard. *The Rhetoric of the Arts, 1500–1650*. Bern, Switzerland, 1975.

Lee, Rensselaer W. "Ut pictura poesis: The Humanistic Theory of Painting." *The Art Bulletin* 22 (1940), pp. 197–269. Reprint *Ut Pictura Poesis*. New York, 1967.

Scholz, Bernhard F. "*Ekphrasis* and *Enargeia* in Quintilian's *Institutionis oratoriae libri xii*." In *Rhetorica Movet. Studies in Historical and Modern Rhetoric in Honour of Heinrich F. Plett*. Edited by Peter L.Oesterreich and Thomas O. Sloane, pp.pp. 3–24. Leiden, 1999.

Spencer, John R. "Ut rhetorica pictura. A Study of Quattrocento Theory of Painting." *Journal of the Warburg and Courtauld Institutes* 20 (1957), pp.pp. 26–44.

تأليف: Bernhard F. Scholz

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التوازي الصوتي Assonance

هي ظاهرة صوتية تتكون من تشابه متوازٍ في تكرار أصوات اللين، كما هو الحال في قصيدة إملي ديكنسون "سمعتُ طنين ذبابة عندما متّ" "*I* heard a fly buzz when *I* d*i*ed" (١٨٩٦)؛ وهي ظاهرة كثيرًا ما تستخدم لتطعيم النص بلمسة غنائية. (انظر أيضًا: Alliteration).

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الفصل (حذف العاطف) Asyndeton

ظاهرة لفظية وصفها بوتنهام في كتاب "فن الشعر الإنجليزي" (١٥٨٩) بأنها "لغة مفككة"، وهي عبارة عن سرد عبارات أو كلمات مفردة في شكل متوالية، من خلال حذف الروابط بينها؛ لتعطي تأثير المتوالية المنغمة، تهدف للوضوح والخصوصية المطلقة لكل لفظة من لفظات المتوالية. ولذلك يمكن أن تستخدم في اللغة العسكرية مثلا كما قال قيصر "جئت، رأيت، قهرت" أو في الاندفاعات العاطفية مثلا كما هو الحال في "أحبك بشكل تعجز الكلمات عن وصفه، أعز علي من العين والمكان ../ولا أقل من الحياة بوداعة وصحة وجمال وشرف" كما هو الحال في مسرحية "الملك لير" لشيكسبير في الفصل الأول المشهد الأول. (انظر: Figures of speech; Polysyndeton; and Style).

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الجدل الأتيكي-الأسيني Atticist–Asianist controversy

استخدم المصطلحان الأتيسي والأسيني لقرون متعددة بداية من القرن الثالث قبل الميلاد في جدل انصب حول الأيديولوجية والهوية الأدبية كما كان منصبا على الأسلوب واللغة. نشأ المصطلحان في العالم اليوناني واقتبسهما الرومان في المرحلة الحرجة من تاريخهم الثقافي؛ ولذلك يصعب أن نجد وحدة بين طرفي جدل استمر لقرون طويلة وثقافتين مختلفتين.

في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد ظهر في روما جدل محتدم بين كتاب وخطباء حول كيفية تصنيف المصطلحين. هذا الجدل الروماني البحت دار حول مصطلحات مأخوذة من اللغة اليونانية بقواعد صرفية يونانية مثل الكثير من سمات الثورة الأدبية والفكرية الرومانية. واشتد الجدل حول التركيب الصرفي للكلمة "أتيك" التي تشير إلى أسلوب بسيط غير مزخرف، ولكن وظيفتها الأهم تقييمية، استخدمها الأتيكيون للتدليل على التطويعات الرومانية لأعمال كبار كتاب التراث اليوناني الكلاسيكي خاصة ليسياس وديموستين وزينوفون وإيزوقراط. أما أتيكا نفسها فهي إقليم في اليونان تقع فيه مدينة أثينا. مضاد كلمة الأتيكية هو الأسينية، وهو مصطلح يمكن تعريفه بالسلب، فهو يعني كل السمات السلبية التي يجب أن يتجنبها كل أتيكي. كان شيشرون أشهر خطباء عصره، هو مركز هذا الجدل، ولذلك فقد كانت الأتيكية الرومانية جزئيا رد فعل أدبي طبيعي على أسلوب معروف ورفيع وصفه كينتليان بالكامل. فقد كانت جمل شيشرون طويلة ومعقدة وتتسم باهتمامها بالتوازن والسجع والتأثيرات البلاغية، وتأتي معظم

خبرتنا عن هذا الجدل العنيف من أعمال شيشرون "الخطيب" و"بروتوس" المكتوبين عام ٤٦ قبل الميلاد، واللذين يناقشان الأسلوب ويردان على منتقديه. يقول شيشرون - ومعه بعض الحق - إنه من السخف أن نحدد الأتيكية بأسلوب واحد؛ لأن الأتيكيين عرفوها بأسلوب ليسياس البسيط وغير المتكلف، لأنه توجد أساليب وطرق متعددة عند خطباء أثينا. يبدو أن جزءًا من امتعاض شيشرون ينبع من إحساسه بأن الأتيكيين الرومان ينوون إنكار حقه في لقب ديموستين الرومان. لما كان الناس ينظرون لديموستين على أنه رمز البلاغة اليونانية، فإن شيشرون لن يحصل على هذا اللقب لو ثبت أنه غير أتيكي. الاسم الذي ارتبط بالأتيكيين هو اسم ليسينيوس كالفيوس Catullus (٨٢ - ٤٧ قبل الميلاد) الذي كان صديقًا للشاعر كاتالاس Catullus. وهي ليست صدفة لأن الاثنين تزعَّما الحركة الجمالية الأدبية الكليماكية Callimachean التي كانت ترفض التعبير المتضخم والفخيم، وتقبل على الإلهام الرشيق؛ أي الأسلوب الإبداعي المنمق القصير.

من المفترض أن الجدل الروماني كان يستلهم جدلا سابقًا بين المدارس البلاغية الهللينية. لكن للأسف عندنا فقر في المصادر اليونانية منذ القرن الرابع قبل الميلاد ووقت شيشرون، مما يصعب مهمتنا في فهم كنه الجدل، ومدى القوة النسبية لمصطلح الأتيكية والأسينية. ولكن بعد نهاية القرن الرابع قبل الميلاد يبدو أن اليونانيين نظروا إلى الحقبة الكلاسيكية بوصفها ذروة التألق اللغوي والأدبي؛ وأن الخروج عليها يُعدُّ انهيارا، وأدى تأسيس تراث كلاسيكي أدبي إلى ظهور معايير أسلوبية ولغوية أثرت على باقي تاريخ اللغة اليونانية كله تقريبًا، وتزامن غياب الثقة هذا مع فقدان الاستقلال السياسي اليوناني بعد الغزوات المقدونية. ولذلك فمن الممكن أن يكون لمصطلح الأتيكية جذوره في التراث الهلليني التعبيري الذي كان أساطين الخطابة الكلاسيكية رموزه، وأنه كان يعبر عن الإصرار على التمسك بالأساليب فترة

من اللغة اليونانية نأت في التاريخ وقواعدها ومفرداتها. فضرورة استخدام اليونانية السليمة موجود في كتاب البلاغة عند أرسطو، وكرره الفلاسفة المشاؤون، وفي المراحل المبكرة كان التركيز على الوضوح؛ حيث لزم لتحقيقه استخدام قواعد وألفاظ وأسلوب سليم. اختيار المفردات بطبيعة الحال مسألة ضبابية وغامضة بين الأسلوب والمفردات، وربما كانت الحركة الأتيكية في العصر الهلليني تتسم بتركيز عال على الاتساق الأسلوبي.

أما المذهب "الأسيني" المضاد Asianism، فهو أصعب في التفسير. فهناك بعض الأدلة التي تقول إنه بنهاية القرن الرابع نشأ تراث بلاغي مختلف في شرق المتوسط، قلل هذا التراث إلى حد ما من سطوة الكلاسيكية، وشجع قدرًا أكبر من الإبداع والتجديد في الكتابة. كان المصطلح حتى ذلك الوقت ذا طبيعة جغرافية، وكان أشهر الدعاة إليه هو هجيسياس المجنيسي من ليديا. ولكن بحلول القرن الأول قبل الميلاد أصبح معنى الأتيكية والأسينية يدل على الأسلوب الذي يتبعه المتكلم بدلاً من مكانه الإقليمي. وكان المصطلحان كذلك من وجهة نظر أسلوبية خاليان من كل محتوى وصفي مفيد لتقنيات خطيب بعينه. ذكر شيشرون تقنيتين بلاغيتين خاصتين يقول إنهما أسينيتان (حيث كان يتكلم عن اللغة اليونانية وانتقل فجأة للكلام عن اللاتينية)، كانت الأولى دقيقة ومكثفة بينما كانت الثانية عاطفية وسريعة. ولكن وجهة نظر شيشرون في الأسلوب الأسيني غامضة؛ فعلى الرغم من أنه لا ينتقدها صراحة، كما لا يدعم الأتيكية مباشرة فإن معظم الخطباء الذين يطلق عليهم الأسينيون هم ممن انتقدهم الخبراء لغلوهم. يرجع جانب كبير من الاعتراض إلى سبب أيديولوجي ينبع من تراث طويل من النظر لآسيا الوسطى والشرق كمستودع للقيم المضادة للكلاسيكية، فهي أقاليم فاسدة

وبربرية ومائعة. أسهم هذا التوجه في القضاء على مصطلح الأسينية لأنك لا تحب أن تطبقه على نفسك، ولكن هذا لا يعني أن الأسلوب الأسينى - كما عرفه شيشرون ومثّله - فَقَدَ كل تأثير في تطور النثر بعد ذلك في روما.

أما العالم اليوناني فقد شهد فيه التطلع إلى الأسلوب الأتيكي دفقة جديدة في الفترة المعروفة بالحقبة السوفسطائية الثانية (٦٠ - ٢٣٠ ميلاديا)، حيث كانت القدرة على إنتاج يونانية المعلمين الأوائل علامة دامغة على التعليم الذي لا غنى عنه في المكانة الاجتماعية والقوة السياسية. [انظر: Classical rhetoric; Style].

مصادر ومراجع

Cicero, Marcus Tullius. *Brutus* and *Orator*. Text and translation by G. L. Hendrickson and H. M. Hubbell. Loeb Classical Library. Cambridge, Mass., 1939.

Fairweather, Janet. *Seneca the Elder*. Cambridge, U.K., 1981. Contains a useful review of the Roman sources in section IV. 1, "Asianism, Atticism, and the Style of the Declaimers," pp.pp. 243–303.

Flashar, H. *Le Classicisme à Rome aux Iers siècles avant et après J. - C.* Geneva (Entretiens Hardt 25). 1979.

مجموعة من تسع مقالات بالإنجليزية والفرنسية والألمانية كتبها كبار كتاب المجال.

Kennedy, George A., ed. *The Cambridge History of Literary Criticism*, vol. 1, *Classical Criticism*. Cambridge, U.K., 1989 انظر .E. Fantham, "The Growth of Literature and Criticism at Rome', pp. 220–244, and D. C. Innes, "Augustan Critics," pp.pp. 245–273.

Wilamowitz - Moellendorf, U. von. "Asianismus und Atticismus." *Hermes* 35 (1900), 1–52. Reprinted in his *Kleine Schriften*, vol. 3, pp.pp. 223–273, Berlin, 1969).

مناقشة كلاسيكية، تراجع التفسيرات السابقة وتعدلها.

تأليف: Stephen C. Colvin

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الجمهور Audience

يتألف هذا المدخل من ثلاث مقالات

رؤية عامة

الجماهير الغفيرة

الجماهير الافتراضية

يقدم المقال الأول رؤية عامة للجمهور بوصفه عنصرا مؤسِّسًا للممارسة البلاغية وأداة لها. ويستكشف المقال الثاني الجماهير الغفيرة من عصر اليونان القديمة وروما إلى الأيام الحديثة، التي تشيع فيها طرق تواصل تصل إلى جمهور لا يجتمع بالضرورة في مكان واحد. ويناقش المقال الثالث الجماهير الافتراضية ومغزى الجمهور الضمني الموحد والمتداخل بواسطة تكنولوجيا الحاسوب.

نظرة عامة

لقد كان الجمهور على مدار زمن طويل محور التراث البلاغي. وعادة ما تشير تعريفات هذا المصطلح إلى شخصٍ حقيقي أو إلى مجموعة من الأشخاص التي ترى أو تسمع أو تقرأ حدثًا أو عملا ما. أحد المسلمات الأساسية في البلاغة هي أن الخطاب يؤلَّف في ضوء هؤلاء الذين سيسمعونه أو سيقرأونه. يعتقد الكثيرون نتيجة لذلك بأن البلغاء يجب أن يفكروا بعمق في احتياجات جماهيرهم فى أثناء تحدثهم أو كتابتهم. مع ذلك فإن الكيفية التي يجب عليهم أن يسلكوها لفعل ذلك، كانت موضوعًا لبعض المناظرات.

تاريخ الجمهور

لقد كان تكليف الكتاب والمتحدثين بـــ"مراعاة الجمهور" تكليفًا جليلا، يعود زمنه إلى ما قبل القرن الخامس قبل الميلاد. ففي القرن الرابع قبل الميلاد لاحظ سقراط (في محاورات أفلاطون) – على سبيل المثال – أنه على المرء أن يتفهم طبيعة الجمهور إذا أراد أن يكون متكلمًا ماهرًا. [انظر: البلاغة الكلاسيكية]. وفي حين كان أفلاطون (٤٢٨ – ٣٤٧ قبل الميلاد) ومعاصروه مهتمين على نحو كبير بالبلاغة الشفهية فإن العلماء المعاصرين يؤكدون أن البلغاء الذين يبدعون أنماطا أخرى من الرسائل (المقروءة، غير اللفظية، المرئية، متعددة الوسائط، الافتراضية) يجب عليهم أيضًا أن يأخذوا الجمهور في الاعتبار. وقد احتجوا بأنه إذا وجد أي ملمح من ملامح البلاغة والإنشاء يمكن أن يؤخذ على أنه أمر بديهي فإنه سيكون الجمهور؛ فهو كيان يرتبط بعوامل عديدة تشترك في المناسبة البلاغية، تضم موضوع الكلام subject matter، والابتكار، والاستراتيجيات الحجاجية، والترتيب، والقياس المضمر enthymemes، والموضوعات الجدلية، والأنواع، والأخلاق، والأسلوب، والوسيط، وحتى علامات الترقيم الموضحة للمعنى (بورتر، Porter, 1992).

كان الجمهور في العصور الكلاسيكية تجمعًا ماديًا يوجد في مكان محدد. وعلى الرغم من أن المنظرين المعاصرين وسعوا التعريف لكي يُراعوا الجماهير المتعددة التي تعيش تجربة تلقي نصٍ ما (أي الأفراد الذين يشهدون خطبة في زمن فعلي، وكذلك هؤلاء الذين يقرأون أو يسمعون أو يشاهدون نسخة مسجلة من نفس الخطبة)، فإن الجمهور القديم كان مرتبطًا بشكل أساس بالمستمعين الذين يشهدون حدثًا أو مناسبة خطابية. هذه المجموعات كانت أصغر بكثير وأكثر شعبية من الجماهير الحديثة، والتي غالبًا ما تكون –نتيجة لتطور تكنولوجيا التواصل – مشتتة ومتشظية

ومخصوصة. كان موضوع اهتمام الجماهير القديمة يتنوع وفقًا للطبقة الاجتماعية والمكانة الاجتماعية؛ فالجماعات المتعلمة كانت تلتقي حول الأعمال الموسيقية والأدبية، والجماهير الأوسع الباقية كانت تلتقي في حلبات القتال والسباقات والألعاب والهزليات وألعاب السيرك.

التطور الاصطلاحي

ظهر مصطلح الجمهور Audience لأول مرة في اللغة الإنجليزية في القرن الرابع عشر الميلادي، ويشير استخدامه الأصلي إلى الاستماع. تشتق جذور المصطلح المعجمية من سياقات التواصل وجهًا لوجه، والتفاعلات التي كانت تُنظَّم بشكل تراتبي hierarchically وفي الواقع فإن حيازة الجمهور كانت تعني حيازة مستمعين، وهو ما اعتبر مصدرًا للسلطة. نمت الكلمة عبر الزمن لتمثل جماعة من المستمعين، بما فيهم قراء أو مشاهدين لمؤلفين محددين، أو متحدثين، أو أعمال منشورة. وباختراع وسائل الإعلام الإلكترونية في القرن العشرين، توسعت الكلمة لتشمل الأفراد الذين يتعاملون مع الراديو والأفلام والإنترنت عن بُعد. يمكن أن تقود المصطلحات المحددة التي استخدمت للإشارة إلى الجمهور إلى الارتباك. فقد استخدمت كلمتا الجمهور والقرّاء -على سبيل المثال - بشكل عام لتشير إلى الأشخاص الذين يقرأون نصًا مكتوبًا (أي القارئ الحقيقي المتعين). مع ذلك فإن هذين المصطلحين في أوقات أخرى يحملان معاني أكثر تحديدًا. ففي بعض الحالات قد تشير كلمة "قارئ" إلى الشخص أثناء فعل القراءة، مستجيبًا لعمل مكتوب (أي قراءة القارئ أو قراءة الجمهور)، في حين يمكن أن يشير مصطلح "جمهور" إلى: (١) الكيان المتخيل الذي يستخدمه الكاتب أثناء تأليف نص ما؛ (٢) شيء ما يضعه الكاتب في الخطاب نفسه؛ (٣) خليط من (١) و(٢). وعبر الزمن استخدمت مصطلحات أخرى لتشير إلى الجمهور مثل المستقبلين، مفككي الشفرة، المستخدمين، المستهلكين، الجماعات، المنتديات.

المصطلحات الناشئة

لقد ركز الاهتمام البحثي أيضًا على ما لا يُعد جمهورًا. فقد أدت الجهود المبذولة لصياغة تعريف صحيح للمصطلح إلى إطلاق تسمية "جماهير" على جماعات محددة بخصائص معينة، واستبعاد كل جماعات المستمعين الأخرى auditors. فالجماعات التي لم تتحقق فيها هذه المعايير أُطلق عليها تسميات مثل "الغوغاء mobs" أو "الجماعات الصغيرة" أو "الحشود" أو "التجمعات aggregations" أو ما شابه ذلك، وتم استبعادها بوصفها أشياء من دائرة تحليل الجماهير. ثمة ملامح استُخدمت في الماضي للتمييز بين الأنواع المختلفة من الجمهور تتضمن ما يأتي - وإن لم تقتصر عليها -:

الجماعية *plurality*؛ حين يجتمع مستمعان أو أكثر معًا ويصبح كل منهما مصدر تحفيز للآخر،

الحجم *size*؛ عدد الأفراد الذين يستقبلون رسالة ما،

التجانس *homogeneity*؛ أي المدى الذي يصل إليه اشتراك أفراد جماعة ما على أرضية خبرات وتوجهات وعادات وأفكار وسمات أخرى مشتركة؛

سمات أخرى لمشاعر الجماهير، أي مدى وعي أفراد الجمهور ببعضهم البعض، واستجاباتهم فيما بينهم؛

التنظيمية؛ أي حالة أو سياق المستمعين؛

الاستعدادات التمهيدية؛ أي درجة استعداد المستمعين للرسالة؛

المشاركة؛ التركيز العام للانتباه؛ أي مدى حضور الأفراد نفس الرسالة.

الاستقطاب *polarization*؛ حينما يفترض أفراد الجمهور توجهًا استماعيًا، ويتعاملون مع المتكلم بوصفه منفصلا ومعزولا عن موقفهم الخاص.

الجمهور بوصفه محطًا للأنظار

تَعتبر العديد من الجماعات الأكاديمية الجمهور هو مركز عملها؛ وذلك مثل حقول البلاغة والإنشاء ونظرية القراءة والنظرية الأدبية والنقد الأدبي، والبلاغة والفلسفة؛ وحقول أخرى تنتسب إلى دراسات التواصل والأداء الشفاهي والمناظرة، والفروع المعرفية للفيلم والمسرح والراديو والتليفزيون والصحافة والتواصل الجماهيري، والإعلان؛ إضافة إلى مقاربات نقدية تشمل الدراسات النقدية والدراسات الثقافية، والاقتصاد السياسي، وحقول تطبيقية مثل التواصل الآلي والسياسة العامة، والقانون، والتسويق، وإدارة الأعمال.

وليس من المثير للدهشة – بالنظر إلى الاهتمام واسع المدى بهذا المفهوم – أن تتم صياغة مفاهيم المصطلحات بطرق متباينة. فقد نظر العلماء في الماضي – على سبيل المثال – إلى الجمهور تارة بوصفه مجرد زمرة من الأشخاص، وتارة أخرى بوصفه جماعات تعاونية؛ تارة بوصفه كيانات سلبية وتارة أخرى بوصفه مشاركين إيجابيين في صنع المعنى؛ تارة بوصفه أعضاء جماعة متشابهة بشكل جذري، وتارة أخرى بوصفه أعضاء جماعة يتسمون بالتفرد، تارة بوصفه يشغل فضاءً ماديًا وتارة أخرى بوصفه يوجد بشكل أساسي في خيال المؤلف، تارة بوصفه شيئًا يُكتب لأجله، وتارة أخرى بوصفه شيئًا يظهر من خلال عملية الكتابة؛ تارة بوصفه شيئًا تجب تغذيته، وتارة أخرى –من وجهة نظر ما بعد حداثية – بوصفه شيئًا تجب مساءلته. علاوة على ذلك، فإن دائرة معارف أخرى تخص علوم التواصل هي "دائرة المعارف الدولية لعلوم التواصل *International Encyclopedia of Communication* (Oxford, 1989)" لم تتضمن أي مدخل خاص بالجمهور، وإنما تشجع القرّاء على استشارة مقالات متنوعة تضم المداخل الآتية: سلوك الحشود، التوزيع الكثيف، وسائل الإعلام التفاعلية، بحوث التواصل الجماهيري، تأثيرات وسائل التواصل

الجماهيري، نماذج التواصل، الإقناع، النظرية الإدراكية الاجتماعية، ثقافات التذوق، الجوانب القياسية لبحوث المستهلكين، بحوث التقييم، مقاييس الرأي، استطلاعات الرأي، قياسات جمهور وسائل التواصل المطبوعة، أنظمة التقييم rating، الراديو والتليفزيون، والاهتمام المجتمعي بوضع الأولويات، والتأثيرات الاحتفالية، وتحليل التعهدات، والمؤشرات الثقافية، والتسلية، والترفيه، وقادة الرأي، والتواصل السياسي، والتسييس، والرأي العام، وتأثير الرواج غير المتوقع، والعنف. ويلاحظ أندرسون، في سياق تعليقه على هذا التنوع في المعاني، أن أكثر تعريفات مصطلح الجمهور تتضمن المعايير الآتية: التعرض exposure، المحتوى، التأويل، العلاقات، الفردي والجمعي.

وعلى الرغم من أن التراث البلاغي اعتنى منذ أمد بعيد بمفهوم الجمهور، فإن هذا المقال سوف يقيِّد نفسه بدراسة الأشكال المعاصرة المتبلورة من أنماط الجمهور وأساليب الانخراط. ولتقديم خريطة بالمساهمات حول الموضوع فإن هذا المدخل سوف يدرس كلا من العمل الذي أجري داخل التراث البلاغي (اللغة الإنجليزية، دراسات الإنشاء، التواصل الكلامي، أعمال استجابة القارئ، أعمال ما بعد الحداثة والنظرية النقدية)، وداخل الحقول المجاورة (التواصل الجماهيري، التواصل الآلي، العلوم السياسية، التسويق). سوف تساعد الأفكار المستمدة من جميع هذه الحقول في صياغة الحالة الراهنة لدراسات الجمهور.

الاهتمام بالقرّاء

في بواكير القرن العشرين بدأت الأقسام المتخصصة في الكلام speech departments ثم أقسام اللغة الإنجليزية في الاعتناء بالدراسات والبرامج البلاغية التي قد تمرن الطلاب على التواصل. كان من نتيجة هذه البرامج – بالإضافة إلى الأعمال التي قدمها الفلاسفة ونقاد الأدب ومثقفو تلك الأيام –

أن بدأ البلاغيون المحدثون في تحويل اهتمامهم من المتحدث أو الكاتب إلى السامع أو القارئ. [انظر مادة النقد Criticism]. وحظي الجمهور باهتمام جديد في خمسينيات وستينيات القرن العشرين نتيجة ظهور "البلاغة الجديدة" وهي مقاربة ناصرتها مجموعة من المنظرين في دراسات الكلام والفلسفة والإنشاء واللغة الإنجليزية، أحيت مبادئ من النظرية البلاغية الكلاسيكية (بشكل أساس تلك التي ترتبط بأرسطو)، وقامت بدمجها برؤى مستمدة من الفلسفة الحديثة وعلم اللغة وعلم النفس (انظر البلاغة الحديثة modern rhetoric).

أنماط الجمهور

تجاوزت هذه الحركة تحليل شكل الخطاب ومحتواه إلى الاهتمام بعناصر فلسفية واجتماعية، وقادت نحو اهتمام مركزي بالجمهور. فيقترح بيرلمان Perelman وأولبريخت – تيتيكا Olbrechts - Tyteca (١٩٦٩) على سبيل المثال أن الحجاج بأكمله يجب أن يتكيف مع الجمهور، وأن يتكئ على المعتقدات التي يقبلها هذا الجمهور. ويصف المؤلفان في هذا النص ثلاثة أنماط من الجمهور: الذات بوصفها جمهورًا (المجادلة مع النفس أو مساءلتها)، جمهور كلي (جمهور مثالي)، جمهور محدد (جمهور واقعي). يعتمد المؤلفان في تمييزهما بين الجمهور الكلي والجمهور المحدد –وكلاهما يحظى بأهمية عظيمة لدى منظري البلاغة – على مفاهيم إيمانويل كانط حول الاقتناع conviction (أي الحكم المستند إلى الموضوعية، الصالح لكل كائن عاقل)، ومفهوم الإقناع (الحكم المستند إلى خصائص الموضوع). ثم وسعا هذين المفهومين من خلال ربط الإقناع بالفعل، والاقتناع بالذكاء. يقترح بيرلمان وأولبريخت – تيتيكا أن الجمهور المحدد –الذي يمكن تمييزه من خلال السمة والإقناع والفعل – معرض للإقناع، في حين أن الجمهور الكلّي –الموصوف بالموضوعية والاقتناع والكفاءة – فإنه يتمسك بقناعاته. يعترف المؤلفان بأن

الجمهور الكلّي هو على السواء مثالي وتجسيد للعقل التقليدي؛ ومع ذلك فهو غير واقعي؛ لأنه لا يوجد أبدًا في الواقع. يستطيع البلغاء أن يخلقوا كينونة للجمهور الكلّي لكي يقنعوا جمهورا محددًا (الذي سوف يشبه الجمهور الكلّي في بعض الصفات، لا في جميعها)، في حين يظل موجهًا بافتراضاته. وهكذا فإن بناء الجمهور الكلّي يمكن أن يُستخدم في مساعدة البلغاء على التمييز بين الحجج الجيدة (الحجج المعقولة) التي ربما تقبلها الجماعة الموضوعية، والحجج الرديئة (أي الدعاوى المخادعة)، التي لا تقبلها هذه الجماعة. [انظر: Conviction، و Persuasion]

الاهتمام بالمؤلفين والنصوص

في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين حوّل كل من الباحثين التعبيريين، الذين كانوا مهتمين بالكتابة بوصفها اكتشافًا للذات وبتطوير "صوت المؤلف authorial voice"، والباحثين في فلسفة الجمال الذين كانوا مأخوذين بالانشغالات الأسلوبية - انتباههم إلى المؤلفين وإلى النصوص معتقدين بأن الفنانين الأنقياء والحقيقيين يبدعون لأنفسهم لا للآخرين. وتبعًا لذلك أصبح من المقبول لدى أنصار هذا المعسكر أن يتركز البحث الأكاديمي على المؤلفين أو النصوص المثيرة للاهتمام أو على كليهما؛ على حساب الجمهور. ومع ذلك، فإن بعضهم أصبح في نهاية القرن العشرين مهتما بشكل متزايد بالجمهور، وبوجه خاص الباحثون الذين ينتمون إلى المنظورات الآتية: نقاد استجابة القارئ ممن يرون الجمهور بوصفه فاعلا في بناء معنى النص، والبنيويون الاجتماعيون constructionists ممن يرون أن الواقع أو الحقيقة يتم خلقها بواسطة المؤلف والنص والقارئ، وعلماء التواصل الجماهيري والدراسات الثقافية الذين يقيسون تأثير وسائل الإعلام على الجماهير، وعلماء التواصل الآلي telecommunications الذين يفحصون حجم الجماهير الافتراضية ومداها،

وعلماء ما بعد الحداثة ممن يدعمون مفاهيم جديدة للجمهور بوصفه جماعة أو منتدى. تعزز هذه الجماعات أفكارًا متنوعة حول الجمهور، لكن أحد النواتج الأساسية للبحوث الحالية هو أن العلماء تخيلوا الجمهور قويًا وليس مجرد متلقي receptacle للبلاغة. وعلى الرغم من فكرة أن الجمهور يتسم بالقوة لا تحظى بقبول كلي، فإن هذا المنظور أثار مناقشات دقيقة وواعية بذاتها وذات مغزى حول طبيعة الجمهور ومدى فاعليته agency.

العلاقة بين المتحدث والجمهور

يحظى تحليل الجماهير بأهمية لدى علماء البلاغة الشفاهية والكتابية ودارسيها. فيما يتعلق بالبلاغة الشفاهية، فإن مخاطبة الجمهور public speaking كان هو البرنامج الأساس في أقسام التواصل الكلامي خلال القرن الماضي. [انظر مخاطبة الجمهور، والكلام Speech] ويُعد تحليل الجماهير –أي عملية فحص المعلومات المتعلقة بالمستمعين المتوقَّعين للكلام – مكونًا في مقررات هذا البرنامج، وينظر إليه الكثيرون على أنه مفتاح نجاح المتحدث. تعتمد الكتب المدرسية لهذا البرنامج على نصائح تأكدت قيمتها عبر الزمن تتمثل في تشجيع المتحدثين المبتدئين على وضع تيمات شائعة يمكن أن تُغري معظم المستمعين؛ وأن يحاولوا فهم طبيعة المستمعين لكي يدركوا عواطفهم، وأن يجلسوا مكان المستمعين. وبشكل أكثر تحديدًا، تلح هذه الكتب المدرسية على أن كيفية صياغة العلاقة بين المتحدث والجمهور تحدد نجاح الكلام، ويشجعون على طرح أسئلة حول الجمهور تشمل أسئلة عامة (إلى أي حد يكون الجمهور مستعدا لاستقبال الرسالة؟ ما طبيعة الجمهور الذي تتم مخاطبته؟ كيف يُدرك الجمهور مصداقية المتحدث؟) وأسئلة ديمغرافية (كيف ينتمي المتحدث للجمهور فيما يتعلق بالمؤشرات الاجتماعية مثل العمر أو النوع أو الهوية الأسرية، أو التوجهات الجنسية sextual، أو العرق، أو الأصول الإثنية، أو

الطبقة الاجتماعية، أو المنظورات الفلسفية والسياسية، أو المنطلقات الدينية) وأسئلة خاصة بالرسم البياني النفسي[١] *psychographic* (كيف يرتبط المتحدث بالجماهير فيما يتعلق بالتوجهات والقيم وأسلوب الحياة والأيديولوجيا؟). وبصياغة أخرى؛ فإن الأسئلة التي يتم الإلحاح عليها في برامج الكلام المعاصرة لا تختلف عن تلك التي كان يطرحها البلغاء اليونانيون والرومانيون.

تأثير الجمهور على المتحدث

على الرغم من أن معظم وجهات النظر تتشبث بأن المتحدثين الأخلاقيين يضعون الجمهور في الاعتبار أثناء إنشاء الرسائل؛ فإن الباحثين المحدثين وضعوا أخلاقيات هذه العملية موضع التساؤل (بورتر Porter, 1992). فقد تشكك البعض على سبيل المثال فيما إذا كان أي كلام speech محدد يمكن أن يخاطِب بشكل كاف التنوع الموجود في الجماهير الفعلية. ويسأل العلماء أسئلة من قبيل: هل يجب أن يؤثر الجمهور على مقاربة المتحدث للموضوع؟ هل يجدر به أن يحدد حركتها determine it؟ أين يجب أن يبدأ الاهتمام بالجمهور في سياق عملية تطوير الرسالة؟ في حين أن هؤلاء المتسائلين حول أخلاقيات تصميم الرسائل للجمهور لا يمثلون أغلبية، فإن انشغالهم جذب الاهتمام إلى المدى الواسع الذي حققه انتشار تشجيع تحليل الجماهير في التراث البلاغي.

التماهي والتعاون

مثَّل عمل الناقد الأدبي والمنظر كينيث بيرك Kenneth Burke (1897– 1993) تحديًا آخر للرؤى المسيطرة حول الجمهور؛ خاصة في مفهومه عن

(١) الرسم البياني الذي يمثل القوة النسبية لمختلف سمات الشخصية.

التماهي *identification* [انظر، التماهي]. يقترح بيرك - بالاعتماد على فكرة أرسطو عن "المشترك common ground" - أن الإقناع يحدث عندما يقوم البلاغيون بخلق روابط مع جمهورهم، والتحدث إليهم بلغة الجماهير نفسها. ومع ذلك، فقد دفع بيرك بفكرة المشترك أو التماهي إلى آفاق أبعد من تلك التي توقف عندها أرسطو؛ لأنه آمن بأن عملية التماهي تُغيِّر المتحدث بالفعل. ففي حين أنه تم الاعتقاد قديمًا بشكل تقليدي بأن المتحدثين يجب أن يتعلموا الكثير عن جمهورهم. وذلك ببساطة لكي يقنعوهم، فقد آمن بيرك بأن عملية التماهي تسمح للمتحدثين بأن يتعلموا من جمهورهم؛ فبالنسبة إليه ليس الإقناع ذا اتجاه واحد (من المتكلم إلى المستمع) لكنه "عملية تفاعل أخلاقي moralizing process" يتغير خلالها البلغاء في أثناء اقترابهم من أفعال جماهيرهم ومفرداتهم ومعتقداتهم وكتاباتهم. الإقناع، إذن، في ذهن بيرك ليس ببساطة عملية خطية، لكنها نشاط تعاوني يصبح فيه المتحدث والمستمعون "كيانًا واحدًا one in being" (أو متحدين في الجوهر consubstantial؛ ١٩٥٠). تم توظيف مفهوم التماهي في تعليم الإقناع وفي دراسته، ويرى البعض التماهي على أنه التمهيد الأساسي للإقناع.

الجمهور في أثناء عملية الإنشاء

لقد فكر منظرو الإنشاء، مثلهم مثل زملائهم الذين يدرسون التواصل الشفاهي، في المدى الذي يجب أن يتوجه إليه الاهتمام بالجمهور في أثناء تأليف النصوص، وحديثًا تساءلوا عمًا إذا كان يحدث هذا بالفعل. [انظر إطلالة على مدخل الإنشاء composition] والنصيحة التقليدية في هذا المجال - كما هي في مجال مخاطبة الجمهور - هي "ضع الجمهور في الاعتبار"، وقم بتعديلات للتكيف مع المستمعين، والمناسبة والاستجابات المرغوبة (بوث Booth, 1963). يؤمن أنصار هذه الرؤية أن الوعي بالجمهور وتفهمه يمكن

أن يؤدي إلى تحسين كفاءة النثر المنتَج، وتذكير الكتَّاب بأن ينقلوا شيئًا للناس بطريقة سوف تجعلهم بالفعل يقرأونه. مع ذلك، فإن تحليل الجمهور أصعب على الكتاب منه على المتحدثين؛ فبينما يُنظر إلى جمهور البلاغة الشفاهية بوصفهم كيانات ثابتة يستطيع المتحدثون تحليلها وملاحظتها والتكيف معها، فإن جمهور النصوص تقل إمكانية التنبؤ به بشكل كبير. ومن ثم فإن معلمي الإنشاء يواجهون تحديات عديدة في أثناء تدريس الإنشاء؛ بما فيها تشجيع الطلاب على (١) تجنب الكتابة للقراء الظاهرين والحاليين (معلميهم وزملائهم في الفصل)، (٢) الإحجام عن افتراض أي ألفة مع قرائهم أو أي معرفة خاصة بهم؛ (٣) الكتابة لجمهور متعلم عريض، وأخيرًا (٤) تخيُّل جمهور يتجاوز الجمهور الديمغرافي demographic audience لكي يوجه عملية الإبداع (بارك Park,1986).

مع ذلك، فإن المنظرين لم يدافعوا بالكلية عن الكتابة من أجل الجمهور أو عن الكتابة والجمهور في الذهن. وعلى سبيل المثال، كان المدافعون عن البلاغات الجمالية والتعبيرية عديمي الثقة في الجمهور. ويركز هؤلاء الباحثون على المؤلف (على حساب الجمهور)، مدافعين عن فكرة أن الفنانين الحقيقيين أو الخلصاء يُبدعون لأنفسهم وليس للآخرين. لقد نظر التعبيريون، خاصة في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، إلى الكتابة بوصفها وسيلة لاكتشاف الذات، وفضلوا أن يقوم الكتاب بتطوير أصواتهم الخاصة بدلا من أن يُبدعوا نصوصًا تُرضي الأعراف السياسية والاقتصادية السائدة في عصر ما. يمكن أن نجد آثارًا للحركة الجمالية في القرن العشرين وتأثيراتها في تشجيع الكتابات الإرشادية في الإنشاء والنصوص للمؤلفين بأن يُسعدوا أنفسهم ويُرضوها، وكذلك لدى نقاد الأدب الذين يُفضلون التركيز على المؤلفين أو النصوص المثيرة للاهتمام بدلا من الانشغال بالكيفية التي سوف يقارب من خلالها القرَّاء هذه الأعمال أو يستجيبون لها.

يؤمن نقاد آخرون بأن استشراف ما يحبه الجمهور أو يبغضه يمكن أن يعوق عملية الكتابة؛ لأنه يشل نزاهة الكاتب ويعرضها للخطر (إلبو Elbow, 1987)، وأحيانا يشجع الكتَّاب على الاعتماد على الصور النمطية stereotypes لجماعات ديمغرافية معينة. إن أحد البدائل التي يمكن أن تحل محل الاعتماد على هذه الصور النمطية أثناء الكتابة هو أن يتم تصوير الجمهور على أنه قادر على لعب أدوار مختلفة في سياق قراءتهم للنص، والوعي بأن هذه الأدوار ليست محكومة دوما بالخصائص المحدِّدة التي كانت لدى هؤلاء القرَّاء قبل شروعهم في القراءة. إن الاعتقاد بأن الكتَّاب يتغيرون أثناء الكتابة يبدو منطقيًا؛ فربما يكتشفون أن المعلومات التي لديهم عن الموضوع قليلة للغاية، أو ربما تتغير توجهاتهم نحو الموضوع. وعلى نحو مشابه، فمن المعقول أن القارئ قد يتغير فى أثناء قراءة نص ما؛ فمن الممكن أن يثير موضوع معين اهتمامهم أو يرعبهم أو يسليهم. من هذا المنظور يُفضل أن نتصور أن الجمهور يقرأ النص ويلعب دورا معه، بدلا تركيز الانتباه fixate على القارئ الموجود في ذهن الكاتب قبل الكتابة أو على الذي يقرأ الكتاب بالفعل بعد نشره (لونج Long, 1990). ومن المهم حين نتصور الجمهور قارئًا للنص أن نلاحظ أن القرَّاء يختلفون بطبيعتهم في قدرتهم على التفاعل مع النصوص (فالقرَّاء الناضجون المتعلمون أفضل من الأطفال أو القرَّاء الأقل تعليما في الإمساك بمفاتيح النصوص)، وأن قراء الأعمال الأدبية يُحتمل أن يلعبوا عددًا أكبر من الأدوار مقارنة بقراء الأعمال غير الأدبية (خاصة حين تركز الكتب غير الأدبية على آراء مُتمسَّك بها بعمق).

الموقف البلاغي

الجمهور مكوِّن رئيس في مقال لويد بيتزر Lloyd Bitzer الرائد: "الموقف البلاغي The Rhetorical Situation 1968"، الذي يتأمل فيه طبيعة تلك

السياقات التي يُنتج فيها الكتاب والمتحدثون بلاغتهم. [انظر مدخل الموقف البلاغي Rhetorical Situation]. يقترح بيتزر أن الموقف البلاغي يستدعي بالضرورة طبيعة الجمهور وميوله، والمقتضيات التي تُلزم الكاتب بالدخول في الموقف، وغرض الكاتب أو غايته، وكل ما قيل من قبل عن الموضوع، والحالة العامة للعالم خارج السياق الأكثر تحديدًا للموضوع المتناول. ويتمسك بيتزر بفكرة أن البلاغة تتطلب دومًا جمهورًا، ويؤكد أن الجمهور البلاغي (أي الجمهور القادر على أداء دور وسيط التغيُّر الذي ينتجه الخطاب) يختلف عن أنماط أخرى من الجمهور (مثل الجمهور العلمي الذي يتكون من أشخاص قادرين على تلقي المعرفة، أو الجمهور الشعري الذي يتألف من أشخاص قادرين على المشاركة في تجارب جمالية يُحدثها الشعر). يشدد بيتزر على أن البلاغة توجد في سياق ما، في وضع تاريخي وثقافي وزمني يؤثر على كيفية فهم المتحدثين والمستمعين للخطاب. ولأن البلاغة لم تكن أبدًا متعلقة بالخطاب في المطلق فإن مفهوم الجمهور مفهوم مركزي للموقف البلاغي.

لقد تم توظيف الموقف البلاغي لمساعدة الطلاب على تعلم كيفية القيام بالنقد البلاغي. فالحضور في موقف الكلام يشجع الطلاب على طرح سلسلة من الأسئلة، تشمل أسئلة بيتزر: (١) هل كانت استجابة المتحدث للموقف البلاغي "مناسبة"؟ هل استجاب المتكلم على نحو ملائم لمقتضى متطلب بعينه؟) (٢) أسئلة متضمنة في مدخله منها: ما الموضوع الذي قاد إلى الحديث؟ ما المناسبة المحدَّدة للفعل البلاغي؟ لماذا كان هذا موضوعًا؟ ما النقطة المحددة التي توقف عندها الحديث؟ ما الآراء والحجج المتعارضة التي سيطرت على الموضوع؟ منْ كانوا المدافعون بين الخصوم counteradvocates الظاهرين أو الضمنيين؟ كيف أمكن حل الموضوع أو إنهاؤه بواسطة البلاغة؟ (٣) **أسئلة تتعلق بالجمهور المباشر والثانوي لنص ما منها:** هل

استجاب الجمهور في الموقف بشكل سليم؟ هل كان الجمهور مستعدًا للاقتناع من خلال الحجج؟ ما الخصائص الديموغرافية للجمهور؟ ما الذي كانت عليه قيم الجماهير واحتياجاتهم وتحيزاتهم وغاياتهم ومخاوفهم ومشاعرهم؟

الجمهور المقصود

ركز إدوين بلاك (1970) Edwin Black أيضًا على الجمهور، لكنه بدلا من فحص ما إذا كان الكلام يناسب الجمهور، يقوم بالأحرى بتقييم الأحاديث ليستكشف نوع الجمهور المتضمَّن في الخطاب. ويلاحظ أن أيديولوجيا الجمهور سوف تتبدى في لغة النص، وأن تمثيل هذا الجمهور الضمني يمكن أن يتم الحكم عليه أخلاقيًا من منظور بلاغي، ويجب أن يحدث هذا. يبحث فيليب واندر (1984) Wander أيضًا عن الجماهير في النصوص؛ خاصة عن الجماهير المنفية المغتربة في اللغة، والمنفية في التاريخ، وفي الصمت. يقترح واندر أن الجماعات، التي أقصيت عبر التاريخ بعيدًا عن الخطاب، تميل إلى التصرف بوصفها غير فاعلة في الحياة السياسية، ويتم التمييز ضدها في الجماعة السياسية body politic. (أي التمييز المؤسَّس على "بشر منفيين" ينتمون إلى أعراق أو أجيال أو أعمار أو أنواع أو تفضيلات جنسية أو قوميات معينة). يؤمن واندر مثله مثل بلاك بأنه في هذه الحالة يجب على البلغاء أن يُعززوا من الأحكام الأخلاقية حول الجماعات التي تُركت خارج النصوص، وحول التبعات التي تترتب على مثل هذه الممارسات.

نقد استجابة القارئ

يرى النقد استجابة القارئ الجمهور أو القارئ بوصفه نقدًا قويًا، ويتضمن زمرة من النظريات النقدية التي بدأت في الظهور في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، وإنْ كانت تضرب بجذورها في أعماق التاريخ

(مثل كتاب "الشعر" لأرسطو، في القرن الرابع قبل الميلاد فيما يخص استجابة التطهير لجمهور المسرح التراجيدي). [انظر نظرية الاستقبال **Reception theory]**. غالبًا ما يرتبط عمل نقاد استجابة القارئ بشخصيات بارزة بعينها (فولفانج إيزر: فعل القراءة، بالتيمور، ١٩٨٠، والقارئ الضمني، بالتيمور، ١٩٨٤؛ وستانلي فيش: هل يوجد نص في هذا الفصل؟ كمبريدج، ماس.، ١٩٨٠؛ نورمان هولاند: قراءة لخمسة قراء، نيو هيفن، ١٩٧٥؛ وجوناثان كوللر: الشعرية البنيوية، إيثاكا، نيويورك ١٩٧٦)، كل من هذه الكتابات يُحاجج بأن الجمهور يلعب دورًا محوريًا في بناء المعنى النصي.

لقد طوَّر هذا الفرع من فروع النقد الأدبي قائمة مفردات للتمييز بين الأنماط المختلفة لحضور القراءة؛ تضم: "القارئ الضمنى implied reader" لفولفانج إيزر؛ "جمهور الكاتب writer's audience" (فكرة والتر أونج للأدوار التي يمكن أن يتبناها القارئ الفعلي أو يعترض عليها)، "الجماعة التأويلية interpretive community" (تصوُّر ستانلي فيش حول أن جماعات القرّاء تطور أعرافًا داخل نظام أو حقل ما توجِّه كيفية تأسيس المعنى وتأويله)؛ "تيمات الهوية identity themes" (فهم نورمان هولاند للتأويل على أنه وظيفة للهوية)؛ و"الكفاءة الأدبية" (فكرة جوناثان كوللر عن أجرومية للأدب تتسم بالفطرية شأنها شأن قدرة الشخص على الكلام بلغته وفهمها). أو ربما يكون من المضلِّل وصف نقد استجابة القارئ بأنه مدرسة أو حركة، نظرًا لأن النقاد طوروا آراءً متمايزة ومتناقضة في بعض الأحيان. ومع ذلك فإنه من الإنصاف التأكيد على أن هذه المقاربة توحدها مجموعة من الأسئلة المشتركة، مثل: إلى أي مدى "يحتم" النص المكتوب فعل القراءة؟ ما الذي يحدث للقراء أثناء فعل القراءة؟ كيف تُشكل أنساق المعرفة والفهم المتجاوزة

للنصوص الحدث الفني في عقل القارئ؟ كيف يتم صنع المعنى في عملية القراءة؟ وما غاية ذلك؟ تُشكِّل مثل هذه الأسئلة البؤرة المركزية في نقد استجابة القارئ، وتشدد على جهود منظريه في سبيل جذب انتباه خاص لأدوار القرَّاء أو المستمعين التي تستدعيها النصوص، وكذلك للكيفية التي تقوم بها هذه الأدوار بتشكيل ردود فعل الجمهور أو توجيهها.

لقد شقت بعض إسهامات نقاد استجابة القارئ طريقها نحو دراسات الإنشاء وإرشادات الإنشاء. فالمعلمون – على سبيل المثال – يشجعون طلابهم على أن يضعوا في الاعتبار الجمهور بوصفه "في الخارج هناك" (أي بوصفه جماعة من البشر الفعليين)، وأيضًا بوصفه "في الداخل هنا" (أي بوصفه تأسيسًا لنص متعين). تظهر تلك المفاهيم أيضًا في الكتابات العلمية؛ في شكل نقاش أكاديمي حول هل يمكن مخاطبة الجمهور أم استدعاؤه؟ يفرق إد ولانسفورد Ede and Lunsford (1984) في مقالهما حول هذا النقاش بين القرَّاء بوصفهم حقائق ملموسة يجب أن يتوجه لهم الخطاب (الجماهير الحقيقية) والقرَّاء بوصفهم تأسيسات نصية يجب على القرَّاء الفعليين أن يتفاوضوا، وربما يتحدوا معهم (الجماهير الضمنية). يقترح المؤلفان أن منظور "الجمهور المخاطَب" يضرب بجذوره في أعمال علم النفس الإدراكي، والتواصل الكلامي، وممارسات إدارة الأعمال (التوقعات التي تأتي من جماعات خارج الأكاديمية؛ وتشمل أخصائيي التسويق، والسياسيين، وأخصائيي إدارة الأعمال). يعتقد مناصرو ذلك المنظور أن الجماهير الفعلية يجب أن تقاس، وأن الإقناع يتحقق من خلال تكييف الرسائل مع جماعات محددة. تعثر وجهة نظر "الجمهور المستدعى" على منطلقها في التحليل النصي، وتحاجج بأن الكتَّاب لا يستطيعون معرفة جماهيرهم بنفس الطريقة التي يستطيع بها المتحدثون معرفة مستمعيهم. يُحاجج المدافعون عن هذا المنظور بأن الكتاب المبتدئين يجب أن يفحصوا

الكيفية التي أوجد بها الكتاب الآخرون الجماهير بواسطة مؤشرات في النص؛ وأن يصلوا إلى إضفاء طابع ذاتي على مفهومهم للقارئ. بالنسبة لإد ولانسفورد فإنهما يُفضلان الجمع بين وجهتي النظر هاتين؛ ويطرحان مقاربة تضع في الاعتبار كيف يُدير الكاتب في أثناء فعل الكتابة أدوارا مختلفة للكاتب – القارئ، ويؤسس جمهورًا "في النص"، بالإضافة إلى مخاطبة الجماهير "هناك في الخارج".

الجمهور في نماذج التواصل

يتجلى الجمهور بوصفه مفهومًا أساسيا في نماذج التواصل الأولية؛ فمعظم هذه النماذج تسلم بوجود أربعة كيانات أساسية هي المتكلم والمستمع والرسالة والإرسال. [انظر مادة اتصال Communication] والجمهور على وجه التحديد تم تحديد سماته في تعريفات محورية في بحوث التواصل. فقد شجع هارولد لاسويل Harold Lasswell على طرح سؤال هو: من يقول ماذا لمن وبأي قناة وبأي تأثير؟ وقد طور كلود شانون ووارين ويفر Shannon and Weaver نموذجًا خطيًا للتواصل؛ يصور مصدرًا يُشفر رسالة أو يبدعها، ويرسلها عبر قناة إلى مستقبِل يقوم بدوره بفك شفرتها وإعادة إبداعها. ويميز نموذج دافيد بيرلو Berlo بين أربعة عناصر هي المصدر والرسالة والقناة والمستقبِل (المرقم)، التي تلازم موضوعات مثل التشفير وفك الشفرة، وكذلك العوامل الشخصية التي تؤثر في التواصل.

الجمهور بوصفه أفرادًا

لقد نظر علماء التواصل الجماهيري كذلك إلى الجمهور بوصفه محوريًا في حقلهم، ومحوريًا كذلك لفهم صناعة وسائل الإعلام والحياة العامة والثقافة الشعبية. وهم يعتقدون أن وسائل الإعلام الحديثة ما كان لها أن تحوز

القوة الاقتصادية والثقافية التي تتمتع بها اليوم بدون المستقبلين، الذين يُشار إليهم كذلك بوصفهم أسواقًا أو مستهلكين (انظر: James Ettema and D. Charles Whitney, *Audiencemaking: How the Media Create the Audience*, (Thousand Oaks, Calif., 1994). يؤمن الكثير من علماء التواصل الجماهيري بأن حقلهم الدقيق قد تأسس لكي يُعرّف القائمين بالتواصل على طبيعة من يتحدثون إليهم. وتفضل البحوث المبكرة حول وسائل الإعلام تشكيل رؤية للجمهور بوصفه أفرادًا منعزلين يسهل التلاعب بهم بواسطة وسائل الإعلام (مدرسة فرانكفورت). مع ذلك، فقد شرع العلماء بحلول خمسينيات القرن العشرين في اقتراح أن أفراد الجمهور كانوا مقاومين للرسائل الوسيطة نظرًا لأن منظور "التأثيرات المحدودة limited effects" أصبح النموذج الإرشادي المهيمن على الحقل المعرفي. وقد وضعت بحوث أكاديمية حديثة النموذج الإرشادي للتأثيرات المحدودة موضع المساءلة، مقترحين أنه يقلل من شأن التأثير الفعلي لوسائل الإعلام، بالإضافة إلى أنه يبالغ في تقدير قوة الجمهور واستقلاليته. ولقد انقسم علماء وسائل الإعلام المعاصرون أيضًا حول ما إذا كان يجب النظر إلى الجماهير الكبيرة بوصفها فاعلة أم سلبية. فعلى سبيل المثال، شبَّه الباحثون مشاهدة التليفزيون بسلسلة من الأنشطة التي تتطلب جهدًا من الأفراد يتراوح بين المحدودية والضخامة. فهؤلاء الذين يرون أن مشاهدة التليفزيون مساوية لأحلام اليقظة يقترحون كون المشاهدين سلبيون نسبيًا، أما الباحثون المراجعون لذلك revisionist الذين يؤمنون بأن المشاهدين يؤدون فعلا سياسيًا بواسطة قراءة النصوص على نحو معارض فهم يحاججون بأن المشاهدين فاعلون.

تشجع التطورات في تكنولوجيا التواصل ووفرة منافذ الإعلام على مراجعة الفرضية القائلة بأن وسائل الإعلام تشكل حضورًا مماثلا في حياة البشر. ولأن الأفراد لديهم على نحو متزايد الفرصة لخلق بيئة إعلامية فريدة

لأنفسهم (من خلال برمجة الكابل cable programming، والأقمار الصناعية، والإنترنت) فسوف تتضاءل احتمالية أن غالبية القرّاء سوف يقرأون نفس المقال الإخباري أو يشاهدون نفس البرنامج التليفزيوني في أي يوم محدد؛ وهو نموذج يدفع البعض للتساؤل عما إذا كانت وسائل الإعلام تفقد قدرتها على خلق "وسيلة تبادل coin of exchange" موحَّدة بالنسبة للجمهور. بالإضافة إلى ذلك، فإن الاتجاه نحو التشظي يمكن أن يُغيِّر من أنماط المحتوى التي تظهر في وسائل الإعلام. في حين تفترض منافذ الإعلام التقليدية وجود جمهور عريض وتطور في المحتوى وفقًا لذلك، فإن منافذ الإعلام الجديدة المنافسة ربما تطور برامج أكثر خصوصية لتستحوذ على جمهور، في خطوة ربما تقود إلى نوع من التشتت الاجتماعي. ويؤمن الكثيرون بأن العلماء عليهم نتيجةً لهذا التشظي أن يكونوا أكثر شفافية فيما يتعلق بمكان الجمهور (سواء أكان افتراضيًا أم غير ذلك) في أعمالهم الأكاديمية.

الجمهور بوصفه مؤسسات

في حين يفحص معظم دارسي التواصل الجماهيري التأثير الذي تمارسه وسائل الإعلام على الأفراد، استكشف جيمس ويبستر وباتريشيا فالين (١٩٩٧) James Webster and Patricia Phalen التأثيرات التي يمارسها الجمهور الضخم على المؤسسات. وقد طورا مفهوم الجمهور المتجرئ *presumed audience*؛ أي الجمهور الذي يضع ضغوطًا على المنتديات والشخصيات العامة. لأن المؤسسات في النظرة العامة تدرك أنها مراقبة، فإن هذه المؤسسات تحاول أن تتنبأ بالمواقف التي يحافظ عليها هذا الجمهور المجترئ و/أو تقوم برد فعل عليها. ويقترح ويبستر وفالين أن المشاهدين الأفراد يعون هم أيضًا الجمهور المتجرئ، لأنهم يعرفون أنهم حين يشاهدون حدثًا إعلاميًا كبيرًا فإنهم يكونون جزءًا من جمهور أوسع يمارسون طقسًا مشتركًا. هذا الوعي يزيد من بعض النواحي من جاذبية هذه الأحداث بالنسبة

للمواطنين ولوسائل الإعلام كليهما؛ فالمواطنون تتاح لهم الفرصة لكي يصبحوا جزءًا من جمهور أوسع يشهد حدثًا ثقافيًا عاما، أما وسائل الإعلام فيتوفر لها جمهور كبير الحجم، يحقق ربحًا عظيمًا.

بحوث التواصل الراهنة

حظي الجمهور باهتمام متجدد في أواخر ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، من طلاب الثقافة الشعبية الذين تبنوا منظورًا نقديًا لمعاني هذا المفهوم، منفتحًا على ما هو سياسي غالبًا. تضع الأعمال الحديثة موضع التساؤل كلا من الافتراضات التي تم تبنيها من قبل (مثل الفكرة الأولية حول الجمهور الغفير)، والمنهجيات التي وظفها علماء التواصل الجماهيري (مثل استخدام بيانات المسوح لقياس الجماهير). لقد انتقد الكثير من النقاد حالة بحوث االتواصل الجماهيري، مؤمنين بأن العمل الكمي في هذ الحقل مضلِّل إلى حد كبير، لأن أفراد الجمهور ليسوا حقائق طبيعية الحدوث يمكن قياسها، بل هم بالأحرى إبداعات اجتماعية للخطاب. تفند لين أنج Ang (1996) – على سبيل المثال – المسلَّمة القائلة بأنه يمكن مراقبة الجمهور ووصفه وتصنيفه وتنظيمه وشرحه بطريقة تجريبية على نحو صحيح. وتؤمن – عوضًا عن ذلك – بأن مثل هذه البحوث تنتج خلاصات محددة ثقافيًا وتاريخيًا تنبع من المواجهات الخطابية بين الباحثين وموضوعات بحثهم، وليست منتجات يمكن تعميمها على تجمعات أخرى؟

صياغة مفهوم الجمهور بوصفه جماعة

انبثقت مفاهيم جديدة للجمهور من بحوث ما بعد الحداثة، تشمل الجمهور بوصفه ثقافات فرعية، وجماعات مؤوِّلة، وعوامًا متذوقين. تفترض هذه المنظورات أن استخدام البليغ للكلام والكتابة ليس أصليًا؛ لكنه مأخوذ من النصوص التي توجد في الجماعات المتنوعة التي يعيش (أو تعيش) فيها.

ومن ثمَّ فإن الأنماط الخطابية في هذه الجماعات هي التي تبني البليغ. وفي إطار هذا النموذج التفاعلي فإن الحقيقة والمعرفة دومًا تكون محلية واحتمالية، ومتخلقة عبر البلاغة التي تُعد اجتماعية وسياقية دومًا. إن صياغة مفهوم الجمهور بوصفه جماعة، يوفر أرضية مشتركة بين المنظورات التي ترى أن الجماهير تتسم بالتجانس (مثل الجمهور الكلِّي)، وتلك التي ترى كل أعضاء الجماهير بوصفها متفردة ومستقلة وشخصانية. ويُقدم هذا النموذج أيضًا طريقة لتحديد سمات الجماهير على نحو عام، بينما يقوم في الوقت ذاته بالتوفيق بين الاختلافات التي توجد داخل الجماعات أو فيما بينها. المدافعون عن هذا المنظور يستحسنونه لأنه يعترف بالتباينات التي توجد بين الأنماط المختلفة من الجماعات؛ ومع ذلك فإن نقاد هذا المنظور يتحدَّونه لأنه يمكن أن يكون كابحًا وقاهرًا؛ لأن بعض الجماعات معروفة بأنها مهيمنة وغير متسامحة إزاء الأقليات أو المعارضين لها dissenters.

ديمقراطية الرأي العام

اهتم المنظرون الديمقراطيون كذلك بالجمهور (وبمصطلح الشأن العام المرتبط به *public*)، ومُدت لهم يد المساعدة - منذ القرن الخامس قبل الميلاد حين أسَّس الكلام الإقناعي الدعاوى المقدمة للمحاكم المدنية، وحدَّد بنفس القدر السياسة العامة - في إدارة القوانين وفي تمكينهم من توفير الدعم للقادة أو إزاحتهم. [انظر المقال الذي يقدم إطلالة على **السياسة** Politics]. يوافق الكثيرون على أن الديمقراطية تتأسس على الرأي العام؛ وهو مفهوم يصعب تعريفه تمامًا مثل مصطلح الجمهور. توجد أسئلة أساسية حول منْ وما الذي يشكل "العام"؟ وما هي أفضل طريقة لقياس أفكاره وانفعالاته. إحدى محاولات قياس أفكار الجمهور الواسعة الانتشار هي استطلاعات الرأي؛ وهي ممارسة اكتسبت شرعية مؤسساتية في ثلاثينيات القرن العشرين،

وأصبحت وسيلة شائعة لقياس الرأي، على الرغم من أنها تتعرض في الوقت الراهن للمساءلة. لقد طرح البعض حجة أن الرأي العام يتم صوغه وتنظيمه دومًا بواسطة نفس الأدوات التي تدَّعي أنها تقيسه. ليس ثمة أداة محايدة على هذا النحو؛ وعلى سبيل المثال فإن المسوح تشجع المجيبون على النظر في أسئلة ربما لا يعرفون أي شيء عنها؛ كما أن تنويعات صياغة بنود المسح تشجع بعض الاستجابات وتحبط البعض الآخر؛ كذلك تعطي المسوح صوتًا لبعض الأفكار، وتخرس أفكارًا أخرى. وبناءً على ذلك، ذهب البعض إلى أن استطلاعات الرأي العام تعطي لما هو قوي أصلا (Susan Herbst, *Numbered Voices*, Chicago, 1993).

على الرغم من أن نقد الاستطلاعات السياسية قد أصبح موضة – على نحو ما فعل "بيير بورديو" عندما لاحظ أن الرأي العام لا يوجد على الرغم من أن تأثيراته حقيقية – فإن علماء السياسة وجدوا أن الرأي الجمعي له تأثير فعلي على شكل الحكم polity. يقترح البحث المنجز في هذه المجال أن دور الرأي العام يتغير من موضوع إلى آخر، وأن تأثيره يبلغ مداه في المستوى المحلي حيث يكون ضغط الجماعات فوريًا تمامًا. وبوجه عام، فإن المسئولين المنتخبين يحاولون تجنب القرارات التي تتعارض مع بيانات الاستطلاعات. ويبدو أن المواطنين يتأثرون هم أيضًا ببيانات الرأي العام، فقد لوحظ أن العامة يميلون – بشكل مبدئي على الأقل – إلى قبول القرارات التي تدعمها بيانات الرأي العام.

تحليل الجمهور

تركز أقسام إدارة الأعمال والعلاقات العامة على تحليل الجمهور أيضًا. وثمة عبارة شائعة في الكتب المدرسية في الكتابة التكنولوجية مفادها أن تحليل الجمهور والتكيف معه أمر حاسم في نجاح الكتابة؛ خاصة فيما يتعلق بإرشادات

الاستخدام. [انظر التواصل التقني technical communication]. تذكر هذه الكتب المدرسية أيضًا أن الكتابة التقنية -من زمن ليس ببعيد - كانت تؤدَّى بعد تطوير المنتج، وتقريبًا بوصفها فكرة لاحقة. أما في الوقت الراهن فإن هذه الرسائل غالبًا ما تُصنع بالتزامن مع صناعة المنتج. ينشغل علماء التسويق في دراسة الأنشطة التسويقية المترتبة على ظهور الجمهور المتشظي على الإنترنت، ويدربون طلابهم على فهم ديمغرافية الجمهور لكي يتمكنوا من تقديم خدمات استشارية دقيقة. وبدلا من أن يصبح الوعي بالجمهور أقل أهمية في اقتصاد المعرفة (الرقمي) الجديد الراهن؛ فإن العديد من الباحثين يذهبون إلى أن هذا الوعي أصبح ملحًا بدرجة أكبر؛ خاصة أن مؤسسات الأعمال -من منظور التسويق على الأقل - يجب أن تتنافس مع بعضها البعض لأجل الاستحواذ على اهتمام المستهلكين. وبقدر ما تشق الاختراعات التكنولوجية طريقها إلى ربات البيوت فإن علماء إدارة الأعمال يؤمنون بأن متخصصي الإقناع يجب أن يصبحوا أكثر حذقًا في ممارسة أنشطة التسويق.

التكنولوجيا

علاوة على ذلك فإن ظهور هذه التكنولوجيا في المنازل والمدارس والجامعات والمكتبات يثير قضايا جديدة تخص العلاقة البلاغية بين مرسلي الرسائل الإلكترونية ومستقبليها. فبالنسبة للكتابة، يمكن أن تُرسل الرسالة مباشرة، وبتكلفة محدودة، إلى مستقبل واحد أو مستقبلين كثر، مع حشد من الخصائص المرئية والمسموعة (مثل لون النص وحجمه، وكم وكيف الروابط العليا Hyperlink، والملحقات المسموعة أو المسموعة - المرئية)، ولهذا الأبعاد جميعًا تأثيرات على المستقبِل أو الجمهور. تحظى الجماهير، من ناحيتها، بفرص غير مسبوقة للانخراط في العديد من فرص التواصل عبر

الحاسوب *computer - mediated communication*، نظرا لأنه يصبح بإمكانهم الاستجابة للرسائل البريد الإليكترونية والمواقع التفاعلية على الشبكة الدولية؛ والانخراط في المحادثات الإلكترونية، والمنتديات، وإرسال الرسائل إلى هيئات تحرير النشرات الإلكترونية. في نهايات القرن العشرين، كان العلماء في المراحل الأولى من دراسة أعراف التواصل عبر الحاسوب (cmc). وكانوا يركزون على موضوعات مثل مجهولية المصدر (فحين تغيب المحددات الاجتماعية في التواصل عبر الحاسوب، يتزايد التواصل العنيف، مثله مثل تكييف الذات)؛ والمساواتية egalitarianism (حين تغيب المحددات الاجتماعية يشعر المستقبلون بأنهم أحرار في الإسهام بالأفكار، وأقل خضوعًا لهيمنة من يستحوذون على السلطة، وتقل حالة التنافس)؛ والاهتمام بالاستقبال (يُنظر إلى التواصل عبر الحاسوب بوصفه وسيطًا هزيلا يعرض محددات أقل، وعدم يقين وغموض أكبر، بالقياس لوسيط غني مثل التواصل وجهًا لوجه، الذي يقدم تغذية راجعة وعمليات تحديد متعددة). في حين أنه يوجد الكثير مما تجب معرفته عن الجمهور في الفضاء الفائق، فإن الكثيرين يعتقدون أن هذا الجمهور أكثر نشاطًا من ذلك الذي وجد في المدينة اليونانية *polis*.

الخاتمة

الخلاصة أن المناسبة البلاغية تتضمن دومًا جمهورًا، وقد كان الجمهور في قلب اهتمام المنظرين البلاغيين، والنقاد، والفلاسفة، وممارسي البلاغة عبر القرون. يعتقد الكثيرون أن الوعي بالجمهور وفهمه ينطوي على قوة تمكن من عمل فرق دال في نوع النثر الذي يتم إنتاجه، بمثل ما يجعل الإحساس بالجمهور البلغاء واعين بقوة الكتابة والكلام الفعال ومرونتها ونتائجها. وفي الواقع فإن النجاح في حقول متنوعة (الكتابة، القانون، الدين، السياسة، التسلية، التعليم) يعتمد على التواصل مع جمهور ما لسبب بسيط:

ومن المحتمل بدرجة أكبر أن يقوم الأفراد بإنجاز أغراضهم العامة المتعلقة بإقناع جمهور ما لو أنهم تعرفوا على احتياجاته وصاغوا مناشدة أو رسالة مألوفة لديهم.

لقد نما مفهوم الجمهور عبر الزمن من كونه عبارة عن مستمعين لكلام معين إلى كونه معبرًا عن مصطلح مهم لعديد من الحقول المعرفية والتكنولوجيات وإدارات الأعمال والممارسات. لقد أثار توسع مفهوم الجمهور - مقترنًا بتنوع تجلياته - نقاشًا عبر الحقول المعرفية الفرعية؛ يُحيل إلى الأسئلة المشتركة ويعزز التطورات النظرية المستقبلية، ويكشف كيف غدا الجمهور الآن - كما كان منذ قديم الأزل - حقلا بالغ الأهمية للفكر والممارسة البلاغية.

قائمة المصادر والمراجع

Anderson. James. "The Pragmatics of Audience in Research and Theory." In *The Audience and Its Landscape*, edited by James Hay, Lawrence Grossberg, and Ellen Wartella, pp. pp. 247–262. Boulder, Colo., 1996.

Ang, Ien. "Wanted: Audiences. On the Politics of Empirical Audience Studies." In *The Audience and Its Landscape*, edited by James Hay, Lawrence Grossberg, and Ellen Wartella, pp. pp. 247–262.

Boulder, Colo., 1996. A critique of empirical approaches to the audience.

Bitzer, Lloyd. "The Rhetorical Situation." *Philosophy and Rhetoric* 1 (1969), pp. pp. 1–15.

Bizzell, Patricia, and Bruce Herzberg. The Rhetorical Tradition: Readings From Classical Times to the Present. Boston, 1991.

Black, Edwin. "The Second Persona." *Quarterly Journal of Speech* 56 (1970), pp. pp. 109–119.

Booth, Wayne. "The Rhetorical Stance." *College Composition and Communication* 14 (1963), pp. pp. 139– 145.

Bordieu. Pierre. "Public Opinion Does Not Exist." In *Communication and Mass Struggle*, edited by Armand Mattelart and Seth Siegelaub. New York, 1979.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. New York, 1950.

Campbell, George. In *Philosophy of Rhetoric*. Edited by Lloyd Bitzer. Carbondale, Ill., 1963.

Ede, Lisa, and Andrea Lunsford. "Audience Addressed / Audience Invoked: The Role of Audience in Composition Theory and Pedagogy." *College Composition and Communication* 25 (1984), pp. pp. 155– 171.

مقال ممتاز حول النقاش المتعلق بما إذا كان الأفضل فهم الجماهير بوصفها مادية وقابلة للتعيين أم فهمها بوصفها تشكلات لنص معين.

Elbow, Peter. "Closing My Eyes as I Speak: An Argument for Ignoring Audience." *College English* 49 (1987), pp. pp. 50–69.

يشجع إلبو الكتّاب الجدد على تجاهل الجمهور حتى مرحلة مراجعة كتاباتهم.

Golden, James L., Goodwin F. Berquist, and William E. Coleman. *The Rhetoric of Western Thought*. 5th ed. Dubuque, Iowa, 1992.

Kirsch, Gesa, and Duane H. Roen, eds. *A Sense of Audience in Written Communication*. Newbury Park, Calif., 1990.

ستة عشر مقالا تفحص الجمهور من اعتبارات تاريخية ونظرية تجريبية. انظر مقال رسل لونج Long "The Writer"s Audience: Fact or Fiction?" (pp. 73–84) الذي يقدم تحليلا للعلاقة بين الكاتب والجمهور، ومقال تيريزا إنوس Enos "An Eternal Golden Braid: Rhetor as Audience, Audience as Rhetor" (pp. 99–114) لتطبيق مفهوم التماهي على عملية الكتابة.

Long, Russell. "The Writer"s Audience: Fact or Fiction?" In *A Sense of Audience in Written Communication*, edited by Gesa Kirsch and Duane H. Roen. pp. pp. 73–84. Newbury Park, Calif., 1990.

McQuail, Denis. *Audience Analysis*. Thousand Oaks, Calif., 1997.

لاحظ علماء الإعلام أن الكثير من الارتباك الذي يحيط بكلمة "الجمهور" ينشأ من حقيقة أن اسمًا مفردًا استخدم لوصف كيان يتنوع ويتعقد بشكل متنامٍ، وينفتح على العديد من الصيغ النظرية.

Ong, Walter, S. J. "The Writer"s Audience Is Always a Fiction." *Proceedings of the Modern Language Association* 90 (1975), pp. pp. 9–21.

Park, Douglas. "The Meanings of Audience." *College English* 44 (1982). pp. pp. 247–257.

Park, Douglas. "Analyzing Audience." *College Composition and Communication* 37 (1986). pp. pp. 478– 488.

Perelman, Chaim, and L. Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation*. Notre Dame, Ind., 1969. English translation of *Traite de l''argumentation*, first published in 1958.

Porter, James, E. *Audience and Rhetoric: An Archaeological Composition of the Discourse Community*. Englewood Cliffs, N. J., 1992.

يقدم مسحًا تاريخيًا لمقاربات مفهوم الجمهور، ويدافع عن وجهة النظر الاجتماعية للجمهور بوصفه "جماعة خطاب".

Wander, Phillip. "The Third Persona: An Ideological Turn in Rhetorical Theory." *Central States Speech Journal* 35 (1984). pp. pp. 197–216.

Webster, James G., and Patricia F. Phalen. *The Mass Audience: Rediscovering the Dominant Model*. Mahwah, N. J., 1997.

Sharon E. Jarvis

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

الجماهير الغفيرة Mass audiences

مصطلح "غفير mass" أحد أكثر المصطلحات إثارة للخلاف في اللغة الإنجليزية (ويليام، ١٩٨٥). فهو مصطلح قد يحمل دلالة سوء الاستعمال وأن تصبح عزيزًا ومقدرًا معًا. فمنذ الثورة الفرنسية، أصبحت "الجماهير masses" بؤرة الآمال الراديكالية، والقلاقل الليبرالية، والمخاوف المحافظة بشأن السياسة الديمقراطية. يمكن لمصطلح "الجماهير الغفيرة *mass audience*" أن يعكس هذه الأحكام الضمنية بخصوص الكم الاجتماعي والكيف الثقافي. وعلى الرغم من أن البعض حاجج بأن المصطلح قد عفا عليه الزمن (نظرًا لأن الجماهير أصبحت متشظية بشكل متنامي، بعد أن دخلت في عصر التجمعات المحدودة a narrowcast age)، أو أن المصطلح فاسد أخلاقيًا (نظرًا لأنه يتعامل مع الجمهور ليس بوصفه كائنًا فاعلا بل بوصفه سلعة). أيًا تكون نواقص هذا المصطلح فإنه يشير إلى حالة مهمة ومستمرة من الخطاب الإنساني: يكون فيها الانتباه الجمعي شديد الاتساع مما يجعل من المستحيل وجود تخاطب شخصي أو تعارف متبادل بين أعضاء الجمهور. وبغض النظر عن التنوع الملفت للجماهير الغفيرة؛ فإنها تشكل جميعًا تجمعات ضخمة من الغرباء المتوجهين نحو بؤرة اهتمام مشتركة.

الجمهور القديم المتشتت والمحتشد

على الرغم من أنه يُعتقد أحيانًا أن الجماهير نتاج فريد للتوسع الهائل في التواصل بواسطة وسائل الإعلام الجماهيرية في القرن العشرين مثل

الصحف والسينما والإذاعة؛ فإن ظهور مصطلح الجماهير يرجع إلى بداية النظرية البلاغية والممارسة البلاغية. بالطبع كان التجمع الجسدي هو الوضع التقليدي لأي نوع من أنواع الجماهير. وكان لدى اليونان وروما القديمة أنواع عديدة من تجمعات الجماهير الغفيرة؛ في المحاكم والجمعيات السياسية والمسارح. فقد كان بمستطاع حوالي ستة آلاف مواطن أن يتجمعوا في الإكلسيا *ekklēsia* أو الجمعية الآثينية. وعلى الرغم من أن كل مواطن كان لديه نظريًا الحق في الكلام (*isēgoria*)، فإن حفنة قليلة هي التي كانت تتكلم بينما يستمع الآخرون، وهي خاصية غير منسجمة مع الجماهير الغفيرة. كان للمسارح قدرات استيعابية أكبر، وإن كانت التقديرات الدقيقة غير مؤكدة. فقد كان مسرح ديونيسوس Dionysos الأثيني بعد إعادة بنائه في عام ٣٣٠ بعد الميلاد يستوعب تسعة عشر ألف شخص تقريبًا. وقد قيل بأن مسرح إفيسوس Ephesus كان يستوعب خمسة وخمسين ألف شخص، وهو نفس المعدل التقريبي الذي كان يستوعبه الكلسيوم الروماني Roman Coliseum، لكن الجمهور الأضخم في العالم الكلاسيكي كان سيرك ماكسيموس الروماني Roman Circus Maximus وهو استاد بيضاوي الشكل استخدم لسباقات العجلات، وكان يتسع لما يقرب من مائة وخمسين ألفًا من المشاهدين. لقد كان جمهور المستمعين (كما هو الحال في المسرح أو الخطابة) أقل بالضرورة من جمهور المشاهدين؛ نظرًا لحدود الكفاءة الصوتية بالنسبة لصوت غير مكبَّر. فالجمهور دومًا هو نتاج للهندسة الاجتماعية، وقد كان المهندس المعماري أحد من صاغوا شكل الجمهور في العصور القديمة.

نادرًا ما تتجاوز الجماهير -حتى في العصور الحديثة - الحدود التي وصلت إليها في العالم القديم. وعلى الرغم من أنه يُحتمل أن يملأ مليون متظاهر منطقة Mall في واشنطن العاصمة أو ميدان ترافالجار Trafalgar في

لندن، فإنه ربما كان من الأفضل إدراك مثل هذه المسيرات بوصفها مسيرات لحشود البلغاء لا حشود الجماهير؛ نظرًا لأن غاياتهم هي إرسال التواصل لا استقباله. ربما كان أكبر التجمعات عبر التاريخ هو ما حدث في ميدان تيانانمين في بكين Beijing's Tiananmen Square، منذ حركة الرابع من مايو May Fourth عام ١٩١٩ وعبر الثورة الثقافية، انتهاءً بانتفاضة الديمقراطية في ١٩٨٩. ومن الشيق –وإن لم يكن من الموثوق به – أن التوراة تقدم لنا مؤشرات على الجماهير الغفيرة البائدة. فسفر "العدد" يخبرنا (في الفصل الأول) أن كل الجماعات التي تؤلف القبائل الإسرائيلية الاثنتي عشرة احتشدوا في اليوم الأول من الشهر الثاني، وكان مجموعهم 603.550 ذكرًا فوق سن العشرين سنة. أيًا كانت صحة هذا العدد، فإن هذا الحشد يبدو معسكرًا للجيش أكثر منه جماعة محتشدة لسماع الخطب أو مشاهدة المسرح؛ على الرغم من أن سرديات سفر الخروج عادة ما تصور معسكر إسرائيل بوصفه جمهورًا من المتفرجين على الأحداث المشهدية التي وقعت فوق جبل سيناء. وربما يوجد أكبر تخيل ما قبل حداثي لحشد مجتمع في الفردوس المفقود لميلتون (١٦٦٧). "حشد هائل من الجماهير" يتكون من ملايين الملائكة الهابطين من السماء يتجمعون في بينديمونيوم Pandemonium ليصيخوا السمع إلى البيان الساحر للشيطان (2:555). ويخبرنا ميلتون بأنه نظرًا لأن الأجساد الروحانية الشفافة لا تشغل أي مكان، فإنه لم يكن هناك أي زحام أو قيود على التجمع. إن حلم وجود جمهور غير محدود هو –على الأقل – أقدم بكثير من وسائل الإعلام الجماهيرية الحديثة.

تقدر العصور القديمة أيضًا الجمهور المتفرق لا المحتشد فحسب. يعرض سقراط في محاورة فيدروس Phaedrus لأفلاطون صورة سلبية لهم. فهو يشكو بأن الكتابة ترسل الأفكار تباعًا إلى العالم كالأيتام لكي تواجه قراءً

مجهولين غير مجهزين. وبينما يتعامل سقراط مع الجمهور المشوش والكلام ذي النهاية المفتوحة على أنهما خطيران، وقد احتفى مفكرون قدماء آخرون بشعبيتهم وانتشارهم العالمي. فقد طورت المدرسة الرواقية والمسيحية مفاهيم التضامن الكوني بين جميع الكائنات الإنسانية، باستخدام حجج مدنية (المواطنة العالمية) ولاهوتية (القرابة المقدسة) على التوالي؛ وهي مفاهيم تعكس التطور التاريخي للإمبراطورية متعددة اللغات وللأشكال الاستعمارية من التواصل. يوجد مثال لطيف في **سفر دانيل التوراتي** (١٠٤) المؤلَّف في القرن الثاني قبل الميلاد؛ والذي يصور -وبما ينطوي على مفارقة تاريخية- الملك نبوخذ نصر على أنه يرسل مرسومًا "لكل البشر، ولكل الأمم واللغات التي توجد في كل الأرض". يوجد تصور مشابه للرسائل التي توجه "إلى من يهمه الأمر" في حكاية ناثر البذور في البشارات الإنجيلية في العهد الجديد (Peters, 1999). ومن ثم فإن فكرة الكلام الكوني الذي يشمل كل المستقبلين تتسم بالقِدَم.

يوجد شيء ما يوتوبي فيما يتعلق بمخاطبة جماهير عبر بقاع العالم سواء قديمًا أو حديثًا؛ إذا وضعنا في الاعتبار تنوع اللغات البشرية وصعوبات التوزيع. والاستبصار المؤسِّس للنظرية البلاغية هو أن التواصل مقيد دومًا بواسطة الخصوصيات (أرسطو، الخطابة، 1355b14)[١]؛ وأية محاولة للوصول **للكل** سوف تصل فقط إلى **البعض**. إن الجمهور الكلّي بالنسبة إلى بيرلمان وألبرخت - تيتيكا (١٩٥٨)، هو مبدأ تنظيمي أكثر منه إنجازًا. والجهد المبذول لاستحضار جمهور غفير (كلي) يُنتج في أحسن الأحوال خليطًا من الجماهير المنفصلة (الخاصة). إن الخطاب الموجه إلى

(١) نص عبارة أرسطو في الخطابة في هذا الموضع هي أن "مهمتها ليست الإقناع بقدر ما هي البحث في كل حالة عن الوسائل الموجودة للإقناع". المراجع.

مشاعر البشر *ad humanitatem* لا يمكنه أبدًا أن يصل إلى الناس جميعًا، وحتى لو أمكنه أن يُلهم أو ينظم خيال المتكلم، فإن الخطاب الجماهيري أو المنتشر عمومًا لا يقتضي ضمنيًا تلقيًا جماهيريًا على الدوام.

مع تطور وسائل التواصل الجماهيري الحديثة، تم اكتشاف التنوع الداخلي للجماهير الغفيرة من جديد. وثمة نزوع في تاريخ وسائل الإعلام الحديثة نحو عزل بعض أفراد الجمهور لأغراض استراتيجية (غالبًا - وليس دومًا - ما تكون مالية). لقد خفتَ الحماس المتعلق بـ"الأخبار للجميع news for all" الذي هيمن على الصحافة الأمريكية في منتصف القرن التاسع عشر، بسبب اكتشاف تمَّ في بواكير القرن العشرين مؤداه أن بعض القرَّاء مرغوبين من الناحية الاقتصادية بدرجة أكبر من قراء آخرين (ليونارد، Leonard, 1995). وعلى نحو مشابه، فإن التوجه الموجود في برامج التليفزيون الأمريكي وإعلاناته منذ ستينيات القرن العشرين هو نحو الجمهور المتشظي إلى شرائح وليس الجماهير الأممية (تورو Turow, 1997). وهنا أيضًا تستبق النظرية البلاغية التطورات الحديثة. لقد كان سقراط يحاجج بأن المتكلم الجيد، مثل الطبيب الجيد، لا يجدر به أن يتصرف دون تمييز للجمهور، لكن عليه أن يُفرد أنواعًا بعينها من المستمعين بالاهتمام (فيدروس *Phaedrus* 271b–272b). وغالبًا ما كان رواد القرن العشرين في البحث الاجتماعي الإمبيريقي حول الجماهير الغفيرة يرحبون بدعوة سقراط لأخذ تنوع أنماط الجمهور في الاعتبار (مثل ميرتون Merton, 1946). وهكذا فعلى الرغم من أن الحلم بجمهور متضمَّن بأكمله هو حلم قديم، فإن ذلك ينطبق أيضًا على الفكرة الأكثر عمقًا القائلة بأن أي جمهور غفير فعلي يمكن فهمه بوصفه مؤلفًا من جماعات فرعية متمايزة.

الجماهير الغفيرة الحديثة

تواصل الحشود احتفاظها بالأهمية في العصور الحديثة، على الرغم من أن النمو الضخم حدث في أشكال الجمهور غير المتحدة في المكان. مع أن الجماهير المتزامنة للإذاعة والتليفزيون –التي يمكنها أن تنتشر عبر نطاق زمني، وعبر أمة، وفي بعض الأحيان عبر الكوكب بأكمله – هي أمثلة نمطية للجموع المتباعدة متشاركة الاهتمامات، فإن وسائل الإعلام المطبوعة كانت رائدة في هذا السبيل بشكل جيد قبل ظهور وسائل الإعلام الإلكترونية.

لم يكن تأسيس جماعات متناثرة مثل "الزملاء العلميين غير المرئيين"، و"المجتمعات المتخيلة" القومية من بين أقل النتائج التاريخية للصحافة المطبوعة (أندرسون Anderson, 1991). لقد أبقت ثقافة مخطوطات العصر الوسيط على الأشتات المتباعدة بين الباحثين اليهود والنصارى والمسلمين، لكن الطباعة – مقترنة بمحو ضخم للأمية – فتحت الباب أمام تغير كمي ضخم. ولعدة قرون كانت عامية التوراة في شمال أوروبا وأمريكا منطلقًا للتواصل مع ملايين المصلين في صباحات كل أحد. وأن يتم تلقي "الرسالة" بمثل هذه المشاكسة (البروتستانتية) يصور ببساطة الفجوة الموجودة بين الخطاب والاستقبال من خلال التأويل. إن التصور الراهن للجمهور الافتراضي –فكرة جماعة إنترنتية لا يوحِّدها الاتصال المباشر بل التوجيه المشترك – قد تم استباقه في ثقافة الطباعة إن لم يكن في ثقافة المخطوط. ومع أن الطباعة تجسد بوضوح ملامح محورية للجماهير الغفيرة فإن نشأة جماهير غفيرة متناثرة بالمقياس الحديث لم تتحقق إلا في أواخر القرن التاسع عشر.

لقد كان قراء الصحف حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر هم – على نحو كبير – من النخب، حتى الصحافة الشعبية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين كانت توزع في حدود عشرات الآلاف من النسخ على

الأغلب. ومن المحتمل أن يكون عبور حاجز المليون شخص قد حدث للمرة الأولى في تسعينيات القرن التاسع عشر في مدينة نيويورك، أثناء حروب التوزيع المشتعلة بين جرائد هيرزت وبوليتزر Hearst and Pulitzer. وبحلول ثلاثينيات القرن العشرين أصبح من الممكن إحصاء عدد جماهير الراديو بعشرات الملايين في الأمم الصناعية. وبحلول الستينيات أصبح من الممكن وجود جماهير كلية متزامنة كما هو الحال مع البث التليفزيوني للهبوط على القمر، أو مع الأحداث الرياضية الاستثنائية، أو مع "أحداث إعلامية" أخرى (دايان وكاتز Dayan and Katz, 1992).

يطرح الجمهور الغفير للبث الإلكتروني صعوبات متعلقة بالمفاهيم. فعلى الرغم من أن ثمة ميلا للاعتقاد بأن الوسائط الإعلامية الإلكترونية جعلت الجمهور الغفير ممكنًا، فإن الراديو والتليفزيون بمعنى ما كانا علامة على فناء هذا الجمهور، لا من حيث الحجم بل من حيث أشكال المخاطبة والاستقبال. لقد أصبح البث شكلا ثقافيًا يُستقبل فرديًا على نحو ساحق. ونظريًا، كان يمكن للبث أن يأخذ مسار السينما في التلقي الجمعي (وهو اختيار فضّله صناع السياسات في عشرينيات القرن العشرين في ألمانيا على سبيل المثال). تفترض برامج الإذاعة صيغًا شخصية للتخاطب، وأساليب صوتية ثرية، وأشكال تحادث تجعل الجماهير مرتاحة للأشخاص الذين دعوهم لبيوتهم. لقد انزوت الأساليب القديمة للخطابة التي تتوجه إلى حشود عامة غير شخصية. في ثلاثينيات القرن العشرين، كان مستمعو الراديو في بريطانيا وفي أماكن أخرى مدعوين لإدراك أنفسهم ليس بوصفهم أفرادًا يوجدون في بانديمونيوم عاصمة الفردوس المفقود لملتون، أو جمهورًا من المحتشدين، بل بوصفهم جمعًا من الأصدقاء أو أفراد عائلة (Scannell, 1991). فنحن نجد الجمهور الغفير هنا محصلة لمجموعات صغيرة لا متناهية العدد. الجمهور الغفير ليس هو بالضبط جمهور حشود.

من الواضح أن الإدراك الذاتي لجمهور المنزل للراديو أو التليفزيون غير مكتمل. وتعرض تقنيات التصانيف بالنسبة للمدير أو الباحث رؤى مختلفة. ثمة غياب للتواصل بين ملايين المشاهد المحلية التي تتلقاها البرامج والوسائل التقنية التي ترسلها وتقيسها وتمولها. ليس الجمهور فحسب هو ما يخبرْه الناس؛ إنه كيان صناعي يُثمَّن بعشرات البلايين من الدولارات. لقد عُرف الكثير عن السلوك الجمعي للجمهور؛ من أنماط المشاهدة الموسمية واليومية إلى تنوعات العمر والنوع والعرق والمنطقة الجغرافية في الإنشاء (Webester and Phalen, 1997). إن بيزنس البث التجاري يبيع الجمهور للمعلنين، وتلك منتجات تشكلها تقنيات بحثية. عندما قال رايموند ويليامز (1983) "لا توجد حشود، بل فقط طرق لرؤية الناس على أنهم حشود"، كان يقصد نقد العادات غير الديمقراطية في التفكير، لكنه قدم كذلك وصفا ماهرًا للتأسيس المعرفي للجماهير الغفيرة. فالإحصاءات "بوصفها طريقة للرؤية" يمكن أن تجعل الجمهور ميسورا على الفهم. إن ما كان يمثله المهندسون المعماريون بالنسبة للتجمعات القديمة، هو ما تمثله أبحاث الجمهور بالنسبة للبث الحديث: كبير مهندسي هندسة الجمهور.

إن حشد الجمهور هو ممارسة من ممارسات السلطة؛ وبحوث قياس الجمهور يمكن أن توظف كشكل من أشكال التحكم الاجتماعي (Cany, 1991). وثمة أدوات عديدة لضبط سمات البث للجماهير الغفيرة: الملموس في مقابل المجرد، الجزء في مقابل الكل، المحسوس في مقابل المعقول، الخبري في مقابل الصناعي. فجمهور البث هو وحدة كلية تقدم وجهًا مغايرًا تمامًا للمشارك العادي والخبير المراقب.

بالإضافة إلى التجمعات، والعامة المتبعثرين، والجماهير متناهية الصغر المجمعة، والكيانات الإبستمولوجية، يمكن الكتابة عن الجماهير

الغفيرة بشكل تأملي في هيئة نصوص. فالمشاهدون والمستمعون والقرَّاء غالبًا ما يُدعون بوصفهم مشاركين حيويين مع قرنائهم البعيدين. وتقدم العديد من برامج البث أنواعًا متعددة من الجماهير الداخلية.

التغطيات الرياضية، على سبيل المثال، غالبًا ما تُظهر متفرجين في مكان المباراة، ومشاهدين يتابعونها على التليفزيون في المنازل أو البارات أو صالات عرض عبر البلاد. وتسجيلات الضحك laugh tracks في البرامج الكوميدية تنطوي على نموذج معياري لاستجابة الجمهور؛ ويقوم جمهور الاستوديو بوظيفة مشابهة في برامج التوك شو. يوضح تغلغل الاستراتيجيات التي تقدم وسائل الإعلام بوصفها مواقع للاهتمام الجماعي بالجماهير الداخلية أن فكرة التجمع لم يعف عليها الزمن بواسطة وسائل الإعلام الحديثة؛ بل بالأحرى ما تزال تستدعي سلطتها بفعالية.

وفي النهاية، فإن الجماهير الغفيرة يمكن أن تُبعثَر عبر الزمن كما تتبعثر عبر المكان. فالملايين زاروا أماكن مقدسة مثل المزارات المقدسة في مدينة القدس أو قبر لينين، على الرغم من أن أعدادًا قليلة من البشر يتاح لها الدخول إليهما في كل مرة. مثل هذا الجمهور تجمعه نقطة مكانية، ولكن يبعثره الزمن، وهو العكس تمامًا من جماهير البث، التي تتبعثر في المكان لكن يجمعها الزمن. وكما في البث، فإن ما ندعوه بالجماهير الغفيرة المتسلسلة صغيرة تجريبيًا، لكنها هائلة الحجم إذا نظرنا إليها بشكل تراكمي. ويبدو هذا الشكل مهيمنًا على الجمهور الغفير الناشئ حول الإنترنت، باستعارته الجغرافية "زيارة مواقع الإنترنت". تركز الصحف القرَّاء في جزء واحد في يوم واحد، على الرغم من أنها تندثر للأبد؛ فالجمهور المتناثر مؤقتًا يتطلب أشياء باقية. فالكتب والأفلام وشرائط الفيديو والسيديهات الجديدة ربما تبعثر الجماهير عبر الأسابيع أو الشهور، اعتمادًا على النوع والتسويق

والشعبية، ومرة أخرى تندثر نظريًا للأبد. قد يتراكم حول القامات الثقافية الخالدة مثل هوميروس وشكسبير جماهير غفيرة عبر القرون أو حتى عبر الألفيات. وكما يذكر هارولد آدامز إنيس Innis (1951) فإن وسائل الإعلام التي تجمع البشر عبر الزمن عموما تتمتع بمكانة أكثر قداسة من تلك التي تجمع الناس عبر المكان، وليس من المصادفة أن الأماكن المقدسة والأعمال الكلاسيكية تقدم الأمثلة الأقرب تناولا على الجماهير الغفيرة المتبعثرة عبر فترات زمنية طويلة.

قائمة المصادر والمراجع

Anderson, Benedict R. O"G. *Imagined Communities: Reflections on the Origins and Growth of Nationalism*. 2d ed. New York, 1991.

يقترح ربطاً بين تاريخ وسائل الإعلام المقروءة ونشأة الوعي القومي.

Ang, Ien. *Desperately Seeking the Audience*. London, 1991.

نقد للقياسات الإحصائية ومستويات الجماهير الغفيرة بوصفهما تجليا للسيطرة الاجتماعية والتسويق السلعي.

Dayan, Daniel, and Elihu Katz. *Media Events: The Live Broadcasting of History*. Cambridge, Mass., 1992.

تحليل للآثار الاجتماعية المترتبة على الأحداث التليفزيونية الحية التشاركية التي تتضمن جماهير غفيرة.

Innis, Harold Adams. *The Bias of Communication*. Toronto, 1951.

عمل كلاسيكي حول الزمن والمكان بوصفهما مكونين للتواصل الإعلامي.

Leonard, Thomas. *News for All: America"s Coming of Age with the Press*. New York, 1995.

معالجة حيوية لتاريخ الصحافة الأمريكية.

Merton, Robert K. with Marjorie Fiske and Alberta Curtis. *Mass Persuasion: The Social Psychology of a War Bond Drive*. New York, 1946.

عمل كلاسيكي يعتمد على كلٍّ من النظرية الاجتماعية والنظرية البلاغية.

Perelman, Chaim, and Lucie Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation*. Translated by John Wilkinson and Purcell Weaver. Notre Dame, Ind., 1971; first published in 1958.

معالجة كلاسيكية للجمهور الكوني.

Peters, John Durham. *Speaking into the Air: A History of the Idea of Communication*. Chicago, 1999.

تاريخ فكري لنظرية التواصل من أفلاطون إلى ظهور الراديو.

Scannell, Paddy, ed. *Broadcast Talk*. Newbury Park, Calif., 1991.

مقالات تقترح أن البث لا ينطوي على مخاطبة للجمهور بل على أنواع فرعية من الاستراتيجيات اللغوية.

Turow, Joseph. *Breaking Up America*. Chicago, 1997.

تحليل لتشظي الجمهور في الإعلانات الأمريكية منذ سبعينيات القرن العشرين.

Webster, James G., and Patricia F. Phalen. *The Mass Audience: Rediscovering the Dominant Model*. Mahwah, N. J., 1997.

هذا هو العمل النموذجي ويشتمل على معالجة معمقة للبحث الاجتماعي في الجماهير الغفيرة.

Williams, Raymond. *Culture and Society*. New York, 1983, first published 1958.

عمل كلاسيكي حول الفكر الاجتماعي البريطاني في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

Williams, Raymond. *Keywords*. Oxford, 1985. Dictionary of terms central to social analysis and cultural criticism.

قاموس للمصطلحات المركزية للتحليل الاجتماعي والنقد الثقافي.

تأليف: John Durham Peters

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

الجماهير الافتراضية

الجماهير الافتراضية جماعات من الناس الذين يتلقون ويرسلون رسائل عبر أنظمة التواصل الإنترنتية؛ وتشمل قوائم التوزيع الإلكتروني، وجماعات أخبار مستخدمي الإنترنت، وأنظمة هيئات تحرير النشرات الإلكترونية، والشبكة الدولية للمعلومات. وفي حين أن الاستخدام المهيمن للتواصل عبر الحاسوب هو إرسال الرسائل الإلكترونية بين الأشخاص، فإن الرسائل التي يتم تداولها عبر هذه القنوات البديلة تصل إلى العديد من البشر في الوقت نفسه. يقدم هذا التطور تطبيقات فريدة لتشكيل الجمهور والديناميات البلاغية. تتسم الخصائص الإلكترونية لهذه الوسائط الإعلامية بالأهمية؛ نظرًا لأنها ذات دور عظيم فيما يتعلق بالطريقة التي يغيِّر التواصل عبر الإنترنت طبيعة الجمهور من خلالها، مقارنة بجماهير الخطب أو الوسائط الإعلامية الجماهيرية التقليدية.

تتألف قائمة التوزيع الإلكتروني من ملف حاسوبي يحتوي على عناوين البريد الإلكتروني لعدد هائل من الأشخاص المشتركين في قائمة بعينها. عندما ترسل رسالة إلكترونية إلى عنوان القائمة، يتم بعث تلك الرسالة آليًا عبر البريد الإلكتروني إلى كل المشتركين؛ إما فوريًا أو في مجموعات يومية (أو في شكل خلاصة "digest"). قد يتراوح عدد المشتركين من جماعة صغيرة إلى آلاف الأفراد عبر العالم.

جماعات مستخدمي الإنترنت الجديدة تشبه قوائم البريد الإلكترونية؛ فيما عدا أن المرء لا يحتاج إلى أن يكون مشتركًا دائمًا لكي يقرأ الرسائل. وتتكون أخبار مستخدمي الإنترنت في جوهرها من بروتوكول لإرسال الرسائل وإلحاقها، في إطار مقولات متعلقة بالأحداث الجارية، مثل تلك التي يتم ترحيلها بين أنظمة الحاسوب الحاملة لمستخدمي الإنترنت من أجل تغذية على نطاق عالمي. في هذه الحالة، يتم إرسال الرسائل حول الموضوع، وترحيلها إلى الحواسيب الموزَّعة؛ حيث يتم تخزينها لفترات زمنية متنوعة. وتبعًا لذلك ربما يجيب القرَّاء عن رسائل سابقة (محافظين على "سير المحادثة")، أو ربما يدشنون موضوعًا فرعيًا جديدًا. ونظرًا لأن جماعات مستخدمي الإنترنت غير مركزية بطبيعتها النوعية (على العكس من قوائم التوزيع، التي يمتلكها أو يصونها كيان محدد يمتلك قائمة الاشتراك)، فإنها عشوائية بدرجة ما. ولا يستطيع المرء التحكم في التواصل في إطار هذه الجماعات؛ إلا من خلال فرض عقوبات غير رسمية (انظر، McLaughlin Osborne. and Smith, 1995) أو من خلال النظام الإداري بواسطة إنهاء اشتراك شخص ما في جماعات الأخبار في الموقع بأكمله.

أنظمة تحرير النشرات الإلكترونية هي من أقدم وسائل تبادل التعليقات مع الآخرين عبر الشبكات الحاسوبية. من حيث الزمن سبقت الإصدارات الأولى منها أسلاف الإنترنت الحالية من خلال السماح للأفراد بالتواصل عبر خط التليفون والموديم[١] modem بحاسوب مملوك ملكية خاصة. هذه الأنظمة –التي كانت شائعة بين ذوي الهوايات – تطورت إلى جماعات ضخمة مثل رابط منطقة سان فرانسيسكو المسمَّى الرابط الإلكتروني للأرض بأكملها

(١) الموديم: أداة تحول الإشارة من شكل معين إلى شكل قابل للاستخدام في جهاز مختلف. (المراجع).

(Whole Earth Electronic Link)، الذي اكتسب شهرته بواسطة الصحفي وكاتب المقالات هاورد راينجولد Howard Rheingold، في عام ١٩٩٣ بوصفه "المجتمع الافتراضي Virtual Community". ربما يمكن اعتبار الشبكة الدولية للمعلومات –في الوقت الراهن – نظامًا اتصاليًا نشطًا. وفي حين أنه يجدر النظر إلى معظم تطبيقات الشبكة بوصفها منشورات وليست تفاعلات فإن هذه النظرة عُدلت بواسطة تطويرات جديدة متعددة، تشمل (١) تزايد رخص وسهولة قدرة أي شخص على عمل موقع شخصي؛ وهو ما يضع بالضرورة وسيطًا للنشر الجماهيري، يمكن تغييره باستمرار، في أيدي العديد من البشر، (٢) تطور الملامح الشبيهة بالدردشة وهيئات تحرير النشرات داخل مواقع الشبكة الدولية للمعلومات، حيث يستطيع الزائرون تبادل التعليقات.

إن الفرق الأكثر درامية بين الجمهور الافتراضي والجمهور التقليدي هو تفاعليته الممكنة. ففي حين يستطيع أفراد جمهور الخطبة أو النص المطبوع أو الإذاعة –نظريًا – أن يحاولوا الرد بالكلام أو الكتابة أو التواصل بالبليغ الأصلي أو مالك الوسيط (الناشر أو شركة الإذاعة)، فإن المتلقي في هذه الحالات أقل امتيازًا من البليغ الأصلي وربما لا يُعطَى الفرصة للرد أو لا يؤبه برده. أما في حالة التواصل عبر الحاسوب فإن كل قارئ هو كاتب. فنفس الوسائط التي تسمح للشخص بأن يستهلك رسائل الآخرين، هي ذاتها التي تسمح له بأن يرسل رسائل لنفس الجمهور. إنه أمر سهل على نحو متساو، ولا تزيد التكلفة أو تقل بحسب ما إذا كان المرء يتصل بفرد واحد أو بجمهور بأكمله. كل رسالة تظهر في طابور المستقبلين، وليس ثمة شخص أكثر أو أقل شهرة من شخص آخر إلا إذا كان المرسل على معرفة باسم المرسل أو ببريده الإلكتروني. كل متلقٍ واعٍ بالمتلقين الآخرين، وقد يتواصل معهم. يُخالف هذا

الشكل من أشكال التواصل وسائط التواصل الجماهيري التقليدية والمألوفة، التي تقدم تواصلا من فرد لآخر (وجهًا لوجه، أو كتابة أو عبر التليفون)، أو تواصلا من فرد واحد لجمع من الأشخاص، حيث ينقل البليغ أو الكاتب أو الإذاعي الرسائل إلى جمهور المستقبلين التقليديين. هذه الصيغة الجديدة من التواصل يُشار إليها بوصفها اتصالا من جمع إلى جمع، حيث يكون كل متلقٍ بليغًا بالقوة، والجمهور يتواصل مع نفسه، ومن المحتمل بذلك أن يتفوق في تكراره ودرجة صوته على أي رسالة أصلية.

وأحد الأبعاد الإضافية للتواصل عبر الحاسوب هو أنه لا توجد أي علامات فورية دالة على مكانة مرسل الرسالة أو خبرته. ويميل هذا – بحسب بعض المنظرين – نحو إضفاء طابع ديمقراطي democratize على التواصل. ويعني هذا أنه، نظرًا لأن المرء لا يحتاج إلى طلب حق الكلام أو شراء فضاء للتحدث، ونظرًا لأنه لا يوجد إدراك مباشر للمرء بوصفه مختلفًا بأي شكل حتى تتم قراءة نصه؛ فإن الكتّاب لا يتعرضون للكوابح الشائعة في التفاعل وجهًا لوجه –التي ترجع إلى انخفاض المكانة الاجتماعية، أو الموقع السلطوي، أو حالة الأقليات – ومن ثم فإنهم يشعرون بالحرية في التعبير عن أنفسهم. ومن منظور القارئ، فإن أي شخص يقوم بإرسال الرسائل يُحتمل أن يكون في نفس درجة أهمية أي شخص آخر. وعلى الأقل فإنه لا يمكن إصدار أحكام قيمية حول صلاحيات الكاتب انطلاقًا من الظروف الخارجة عن النص.

إن مصداقية المرء، بالأحرى، يمكن تأسيسها فقط داخل الرسائل ذاتها. وكما يحاجج ويليام ميتشل Mitchell، العميد السابق للعمارة في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا (MIT) فإن القرّاء (والكتاب) يقومون بعمل أحكام اجتماعية وتقييمات للمصداقية تأسيسًا على المكانة الضمنية للعنوان البريدي الذي

يظهر مصحوبًا بالرسالة: ويحاجج ميتشل بأن عنوانًا مثل "dean@mit.edu" له إيحاءات تختلف عن "wjm@mit.edu" وربما يكون للاحقة "mit.edu" إيحاءاتها الخاصة(١).

كما يحاجج أيضًا الباحثين Jolene Galagher، وLee Sproull، و Sara Kiesler – فإنه نظرًا لأنه لا توجد أي مؤشرات خارجية على صلاحيات الكاتب، كما لا يدل الحضور الجسدي على الإخلاص التام للمناقشة؛ فإن الكتاب أنفسهم يجب أن يرسخوا بأنفسهم أهمية إسهاماتهم. وهم يقومون بادعائهم الشرعية (بالكشف عن الموضوعات الجارية، والأمور المشتركة، والاحتياجات)، والصلاحيات (وهم أنفسهم يحظون بخبرة في موضوع المناقشة). ثالثًا، كشف البحث التجريبي عن أنه –بسبب الافتقاد النسبي للمعلومات الشخصية المنقولة في التواصل عبر الحاسوب فإن الإشارات الفرعية عن المكانة الاجتماعية أو عضوية الجماعات – التي يتم نقلها بواسطة المشاركين الافتراضيين أو تضمينها في السياق الاجتماعي الذي يحدث فيه التفاعل – تميل إلى المبالغة في قيمة ما يدركه القرَّاء الذين يقومون بـــ"عزو مبالغ فيه overattributions" للعلامات الاجتماعية المبعثرة نسبيًا. هذا الإدراك المغالى فيه قد يزيد من التوترات والعلاقات بين الجماعات الداخلية والخارجية. وقد يؤدي كذلك إلى إساءة تقدير وتشويه للرسائل التي يبدو أنه من غير الملائم أن تفترض دورًا للكاتب (حتى لو كان الافتراض زائفًا). وأخيرًا، فعلى الرغم من ندرة المؤشرات غير اللفظية التي تُعين هوية الأشخاص على الإنترنت، فإن مستخدمي الإنترنت يتعرفون على بعضهم بعضا عبر التفاعلات المتكررة عبر الزمن، في إطار انتماءات

---

(١) الإيميل الأول يصرح بالموقع الذي يشغله الشخص وهو عمادة الكلية، أما الثـــاني فيـــذكر الحرف الأول فقط من اسمه الثلاثي.

افتراضية مستمرة، ربما تتوالد خلالها المكانة، وعبرها تتكون الصداقة على نحو شائع. [انظر مدخل التماهي Identification].

ثمة فرق آخر بين الجمهور التقليدي والافتراضي هو المدى الزمني المتاح لاستجابات المتلقين. ففي حين يُحتمل أن تكون الاستجابة (الحية) لأحد أفراد الجمهور للمتكلم البليغ لحظية، يتذكرها على الأكثر هؤلاء القريبون مكانيًا منه على نحو مباشر، أو يتم تسجيلها بشكل ما - لو أن الحدث البلاغي محفوظ - فإن الاستجابة المكتوبة لأحد أفراد الجمهور الافتراضي ربما يتم توزيعها على نحو مختلف. فالتعليق الذي يُكتب على الحاسوب فيما يتعلق بمثير محدد -مثل أي شيء يتم تشاركه عبر الإنترنت - يمكن إعادة إرساله إلى القراء، في نفس السياق أو خارجه، لأي شخص آخر. علاوة على ذلك، فإن الكثير من أنظمة التواصل يتم حفظها (بعضُها يُحفظ إلى أمد غير معلوم مثل الأخبار القديمة Dejanews التي يتم تقديمها على موقع **www. dejanews. Com**، وهو أرشيف لرسائل الجماعات الإنترنتية)، ويمكن أن يتم البحث عنه بواسطة آخرين ليس لديهم أى معرفة بالحافز البلاغي الأصلي. إن استجابات الجماهير تتسم بالدوام النسبي، والثبات وإمكانية العزل عن السياق. ونادرا ما يُحتمل في أي مكان آخر أن يشغل أحد أفراد الجمهور المستجيبين نفسه بالخطورة التي يوجدها مثل هذا الدوام. إن السمة الأخيرة للجمهور الافتراضي هي أن الأفراد يحتشدون من كل مكان في العالم، لا على أساس الجغرافيا بل على أساس الاهتمامات المشتركة، ما داموا يتشاركون لغة واحدة (حتى الآن على الأقل؛ فهناك جهود تبذل كذلك لتطوير أنظمة ترجمة فعالة). بعبارة واحدة، فإن الاهتمامات المشتركة تقدم تماسكاً وخبرة أكبر، وبأعداد أكبر من تلك التي تقدمها جماعة غير إلكترونية عادية. في الناحية المقابلة، فإن احتمال تنوع العضوية يكون أكبر داخل الجماعات

الأصلية، التي ربما تضم آلاف الأعضاء في أرجاء قارات عدَّة. كلٌّ من هذه الملامح يمكن أن يكون ضارًا أو نافعًا. فعلى سبيل المثال، فإن جمهور جماعات مستخدمي الإنترنت الذي يركز على الموضوعات السياسية يتسم بالضخامة الشديدة، والتحضر، لكنه غالبًا ما يتيح سبيلا للتشتت والعدائية نظرًا لأن الناس ينقسمون بحماس حول الموضوعات. ومع ذلك، فإن جماعات الأخبار التي تتبادل المعلومات فيما بين الأشخاص المكتئبين، ومرضى السرطان، أو غيرهما من الجماعات الهامشية يبدو أنها تُفيد من تنوع الخبرات والمهارات وتباينات المنظور، الذي يقدمه جمهور متنوع هو مع ذلك مهتم بالموضوع ومتفاعل معه. وفي حين يثير بعض المعلقين مخاوف مهمة بشأن ما إذا كان الأفراد يسيئون توظيف أوقاتهم واهتماماتهم بنقلها من الاهتمامات "الحقيقية" للجماعات المحلية، والعائلات، والأصدقاء الفعليين إلى الانخراط في جماعات وسيطة، وهو ما قد يؤدي إلى إضعاف الجماعات، وزعزعة العلاقات، ومن ثمَّ تراجع الصحة العقلية. هناك حجج أخرى ممكنة مساوية في قوتها، تدافع عن الفوائد التي يمكن أن يقدمها المشاركون الافتراضيون لكل فرد، بطرق ستكون غير متاحة، وباهظة التكاليف، وضئيلة للغاية، أو تنميطية لو استُخدمت وسائل تقليدية في تحقيقها(انظر، Walther and Boyd, 2000).

لقد ظهر أن الأفراد، في الشركات الضخمة، يطلبون نصائح استراتيجية وتقنية من أي شخص، أي إن الرسالة الافتتاحية تبدأ بـــ"هل يعلم أي شخص... "، بدلا من توجيه السؤال لمصدر معلومات محدد، أو سلسلة من المصادر، وهذه الطريقة لا تؤدي فحسب إلى الحصول على استجابات سريعة وفعالة، لكنها غالبًا ما تولد استجابات من مصادر ليست معروفة شخصيًا لطالبي النصيحة.

هذه التواصلية الآنية تشي بـــ"قرية كونية"، تتيح للجمهور الافتراضي أن يشارك، بواسطة القراءة الفورية لإسهامات الآخرين، في أحداث العالم المهمة. فعلى سبيل المثال، تم نقل النشاطات اللحظية لمحاولة الانقلاب السوفييتية الفاشلة في عام ١٩٩١، عبر العالم بأكمله بواسطة مستخدمي الحواسيب الشخصية في روسيا، وهي الأحداث التي مُنع بثها في وسائل الإعلام التقليدية. كما أصبحت "ملاحظات من حجرة مسيَّجة Notes From a Sealed Room" للمواطن الإسرائيلي روبرت فيرمان، الذي نقل قصص الأحداث والمشاعر التي عايشها هو وعائلته في الملاجئ الواقية من صواريخ سكود العراقية أثناء حرب الخليج الفارسي ١٩٩١.

ومع ذلك، فإن الانترنت يُمكن، بالإضافة إلى تسهيل الملاحظة، أن يُستخدم لتحريك الجمهور الافتراضي نحو أفعال تعاونية. فعلى سبيل المثال، جعل الآلاف من مؤلفي مواقع الويب صفحات مواقعهم سوداء، اعتراضًا على ديباجة قانون آداب التواصل الأمريكي الصادر عام ١٩٩٦ (وهي مجموعة قوانين، كانت في سبيل إلى أن تفرض عقوبات على الفحش المنطلق من الإنترنت، ثمَّ نُحيت جانبًا بسبب غموضها وعدم دستوريتها وتسلطها). وفيما يتعلق بالتأثير الأكثر وضوحًا، فإن المحللة البلاغية لاورا جوراك Gurak، فصلت في رد فعل مستخدمي الإنترنت السريع والمنظم ذاتيًا بحماسة في عام ١٩٩٠ على منتج تجاري مستقبلي (يدعى Lotus Marketplace) كان سيبيع معلومات سكانية ومالية عن المواطنين الأمريكيين، على شريحة كمبيوتر. وعلى نحو مشابه، تفصل جوراك في كيف استمر مستخدمون لديهم قدرات تكنولوجية رفيعة، بداية من عام ١٩٩٣، في الضغط على الحكومة الفيدرالية الأمريكية بشأن نيتها مراقبة استخدام تكنولوجيا البيانات المشفرة بطريقة قد تمكن الحكومة من فك شفرة أي نقل إلكتروني مختلط.

وتحاجج جوراك - مركزة على تحول مبادئ التأثير النفسي والإلقاء في الفضاء الإلكتروني - بأن التأثير النفسي إشكالي بسبب التفاعل الذي ينشأ بدون أساس فيزيقي، كما هو الحال مع الإنترنت. إن التأثير النفسي الجمعي، المتضمن والمدعم بين النخبة التكنولوجية على الإنترنت، يعزز الإقناع ويقود إلى قبول غير نقدي لحقيقية الوقائع والحجج في الوقت ذاته [انظر، **Ēthos**]. لقد تحول **الإلقاء** بشكل جذري، نظرًا لأن سرعة الوسيط تسرع من ديناميات الحركات الاجتماعية، مقترنة بقدرة الإنترنت على البث المحدود"؛ أي بث معلومات وخطابات مميزة إلى الآلاف من الأفراد متشابهي العقلية، عبر استخدامهم لقنوات التوزيع الإلكتروني مثل جماعات مستخدمي الإنترنت المتخصصة، والقوائم البريدية، والنشرات الإعلانية. [انظر، **Delivery**].

سهلت مثل هذه الآليات أكثر من ثلاثين ألف شكوى للوتس Lotus، التي سحبت السلعة من الإنتاج. كما قادت إلى إيجاد نظام نداءات مؤسَّسة على البريد الإلكتروني، تجمع "توقيعات" عديدة لنقلها للوكالات الحكومية، بالإضافة إلى مجلدات من الإيميلات المحتجة التي ترسَل مباشرة إلى عناوين الرئيس الأمريكي ونائبه.

وفي حين أن البحوث المبكرة حول التواصل عبر وسيط الكمبيوتر نظرت إلى تأثيرات التكنولوجيا من منظور تقني، فإن التطور المتنامي للمقاربات الاجتماعية - التكنولوجية ساهمت في ترقية فهمنا المتنامي للجمهور الافتراضي. فالجمهور الافتراضي يختلف عن الجماهير التقليدية بسبب التأثيرات الاجتماعية - التقنية لتفاعل دوافع المستخدمين وطبيعة الوسائط.

قائمة المصادر والمراجع

Benson, Thomas W. "Rhetoric, Civility, and Community: Political Debate on Computer Bulletin Boards." *Communication Quarterly* 44 (Summer 1996), pp. pp. 359–378.

نقد لقدرة الإنترنت على الحفاظ على الفضاء العام للمدنية على الرغم من عدوانية الخصوم واليقين الغاضب والسب والتجريد الأيديولوجي وإهانة الخصوم. تتضمن المناهج دراسة منتدى إلكتروني سياسي، يتميز الخطاب فيه بالاهتمام الشديد بالحجج المعارضة.

Bolter, Jay David. "Hypertext and the Rhetorical Canons." In *Rhetorical Memory and Delivery: Classic Concepts for Contemporary Composition and Communication*. Edited by John Frederick Reynolds, pp. pp. 97–111. Hillsdale, N. J., 1993.

يعالج التحول في المفهوم الكلاسيكي للإلقاء عبر الكتابة والنقل الإلكترونيين.

Galagher, Jolene, Lee Sproull, and Sara Kiesler. "Legitimacy, Authority, and Community in Electronic Support Groups." *Written Communication* 15 (October 1998), pp. pp. 493–530.

دراسة لمجموعات المواقع الإخبارية تظهر كيف يؤسس المشاركون المصداقية عبر الإنترنت، حتى من خلال تواصل مجهّل.

Gurak, Laura J. Persuasion and Privacy in Cyberspace: The Online Protests over Lotus MarketPlace and the Clipper Chip. New Haven, 1997.

تحليل بلاغي للحركات الاجتماعية التي تمت عبر التواصل الإنترنتي.

McLaughlin, Margaret L., Kerry K. Osborne, and Christine B. Smith. "Standards of Conduct on Usenet." In *Cybersociety: Computer - Mediated Communication and Community*. Edited by Steven G. Jones, pp. pp. 90–111. Thousand Oaks, Calif., 1995.

يحدد المعايير التواصلية والتمييزات التي ثبت حدوثها عبر تبادل الرسائل المرسلة إلى مجموعات مستخدمي الأخبار السياسية على الإنترنت.

Mitchell, William J. *City of Bits: Space, Place, and the Infobahn*. Cambridge, Mass., 1995.

تناقش الفصول الثلاثة الأولى على وجه التحديد مجهولية المصدر ورموز الكينونة البديلة التي يؤدي إليها العنوان في شبكات التواصل الإلكتروني. ويناقش كذلك التحول المحتمل مستقبليًا في الفضاء المديني بسبب التواصل الذي يحدث في "لامكان placeless".

Postmes, Tom, Russell Spears, and Martin Lea. "Breaching or Building Social Boundaries? SIDE - Effects of Computer - Mediated Communication." *Communication Research* 25 (1998), pp. pp. 689–715.

يقدم عرضًا نقديًا لسلسلة من الدراسات التجريبية التي تبرهن على العزو الزائد للانطباعات النمطية، والمشابهة واللامشابهة في التواصل ذي الوسيط الإلكتروني.

Rapaport, M. Computer Mediated Communications: Bulletin Boards, Computer Conferencing, Electronic Mail, Information Retrieval. New York, 1991.

كتاب تأسيسي حول خصائص وتطورات الأنماط الرئيسية لأنظمة التواصل الإلكترونية.

Rheingold, Howard. *The Virtual Community: Homesteading on the Electronic Frontier*. Reading, Mass., 1993.

نص شعبي رائد، يناقش تاريخ التواصل الحي عبر الإنترنت وفوائده بالنسبة للدعم الاجتماعي والحركات الاجتماعية والفانتازيا.

Howard, Tharon W. *A Rhetoric of Electronic Communities*. Greenwich, Conn., 1997.

يدافع عن التأثيرات الديمقراطية للكتابة والنشر الإلكترونيين.

Walther, Joseph B., and Shawn Boyd. "Attraction to Computer - Mediated Social Support." In *Communication Technology and Society: Audience Adoption and Uses of the New Media*. Edited by Carolyn A. Lin and David Atkin. New York, forthcoming.

دراسة نفسية واجتماعية لظاهرة غريبة هي طلب الأشخاص المرضى والمرتبكين نصائح شخصية ومعلومات من مصادر مجهولة وغير معروفة على المواقع الإلكترونية.

Werman, Robert. Notes from a Sealed Room: An Israeli View of the Gulf War. Carbondale, Ill., 1993.

مجموعة رسائل فيرمان المتتابعة، التي وزعت عبر العالم، وطبعت في شكل كتاب، ألفت هذه الرسائل أثناء وجوده في الملاجئ هربًا من قنابل محتملة لغاز الأعصاب أثناء حرب الخليج.

تأليف: Joseph B. Walther

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

الإسهاب الإطنابي Auxēsis

شكل من أشكال الإطناب، يحدث فيه إضافة تأكيد قوي على الموضوع المناقش بواسطة زيادة الكلمات أو التعبيرات أو الجمل. إذا جُمع مع أشكال التكرار الصرفي أو التركيبي فإنه يعزّز من تأثيرهما اللطيف كما في خطبة شيشرون المعنونة بـ(ضد فيرّس Against Verres) (170 .66 .5): "إن تقييد مواطن روماني خطيئة، وإرهابه جريمة، وتعريضه للموت يقترب من أكثر أشكال القتل وحشية، فبأى مفردات يمكن أن أُسمي إذن هذا الصلْب cruucifixion[(١)]؟" [انظر أيضًا مدخل Amplification، Figures of speech]

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

(١) في هذا النص يقوم شيشرون بإدانة الأفعال الجزئية الممهّدة لعملية الصلب؛ وهي (التقييد والإرهاب والتعريض للموت) بمفردات شديدة الوطأة (الخطيئة، الإرهاب، الوحشية..) لكي يصل إلى تعظيم إدانة عملية الصلب نفسها. (المترجم)

الحملات الانتخابية Campaigns

شهد القرن العشرون تغييرات كبرى فى استراتيجية الحملات السياسية؛ فعلى حين أنه كانت تسيطر على الحملات فيما مضى الهيئات التنظيمية للأحزاب والسياسات العرقية والدعاية التى يفكر فيها ويطورها المرشح نفسه، فإن النوع الجديد من الحملات يعكس تأثير وسائل الإعلام الجديدة. لقد أصبحت الحملات فى القرن الواحد والعشرين تتطلب الترفيه ونصائح الخبراء والتغيير استجابة لجمهور الناخبين الذى أصبح على دراية متنامية بوسائل الإعلام والذى تأثر بالإذاعة والتليفزيون والإنترنت. وسوف يركز باقى هذا المقال على الحملات السياسية الأمريكية. ففى النصف الثانى من القرن العشرين بدأت الحملات السياسية تشبه عمليات إطلاق المنتجات الجديدة فى السوق. لقد ظهر هذا الاختلاف فى الشكل والمضمون للمرة الأولى فى حملة دوايت دى أيزنهاور الرئاسية عام ١٩٥٢، تلك الحملة التى استفادت من صوت وصورة التليفزيون. ولأول مرة استخدمت حملة أيزنهاور أساليب الدعاية الحديثة استجابة لزيادة عدد جماهير التليفزيون، وتم تداول شعار "نحن نحب أيك We Like Ike" بين جمهور الناخبين بتكرارية تشبه تلك التى كانت تستخدم لتسويق صابون الغسيل "رينزو الأبيض" و"دينا جلايد" لشركة بويك، والتى كانت تماثل الضربات المنتظمة للمطرقة. لقد تسبب نجاح حملة أيزنهاور فى إطلاق مجموعة من الأساليب التى غيرت صورة الحملات السياسية. فقد صار واضحا أن الظهور أمام أجهزة الإعلام له نفس أهمية الدعم الحزبي، وأن الحملة السياسية لابد ان تدعم بمبالغ مالية

ضخمة وباستخدام الخبراء. وكانت الإذاعة هى السوق الأولى للتسويق الجماهيرى التى مكنت المرشحين من التحرر من قيود الأداء الحى غير المسجل. ولقد كان السياسيون حتى ظهور الإذاعة فى العشرينات مقيدين بشكل كبير بالظهور أمام الجماهير الحية، أو اللقاءات الشخصية، أو الظهور فى العروض والمواكب وما تقتبسه الصحف عنهم. وقد ضرب تيودور روزفلت ١٨٥٨ - ١٩١٩ المثال لهذا النموذج المبكر عندما رتب أثناء عمله وزيرا للبحرية، ثم بعد ذلك أثناء عمله رئيسا لكى يتبعه المصورون والصحفيون أثناء رحلات الصيد والرحلات فى الأماكن الطبيعية والأعمال العسكرية. ومع هذا فللمرة الأولى كانت الإذاعة قادرة على توصيل صوت المرشح الى الناخبين فى منازلهم ومكاتبهم وعلى توصيل المرشح بشكل شخصى فعلا لجمهور الناخبين. كانت الإذاعة تتميز بقدرتها على خلق حميمية وصلة شخصية لم تكن موجودة قبل ذلك. ولقد وجد المبتكرون ممن يخوضون هذه الحملات من أمثال محافظى لويزيانا هيوى كنجفيش لونج فى الثلاثينات وجيمى ديفيس، الذى كان يغنى ويعزف الجيتار، فى الإذاعة أرخص وأسرع وسيلة للوصول إلى عقول وقلوب الناخبين. وعلى المستوى القومى استخدم روزفلت حواراته بجوار المدفأة بشكل أساسى لتغيير العلاقة بين الرئيس والجماهير. فقد وجد السياسيون الأكثر تأثيرا من أمثال روزفلت أن الإذاعة تسمح لهم باستخدام أسلوب شخصى وغير رسمى ذى طابع عاطفى لم يسبق استخدامه فى السياسة الأمريكية. إن نجاح الإذاعة ثم الانتشار الواسع للتليفزيون وللمحطات التليفزيونية الخاصة والإنترنت يتطلب عددا متزايدا على الدوام من الخبراء لقيادة الحملة السياسية. لقد أصبحت الحملة الحديثة مزيجًا من السياسة والصورة الذهنية والترفيه. وتمزج التركيبة الأساسية للحملة بين أنظمة توزيع التكنولوجيا الحديثة ووسائل الدعم التى استخدمتها استديوهات السينما فى الثلاثينات والأربعينات عندما كان يتم

استخدام الخبراء لتطوير وتسويق الممثلين لدى جماهير واسعة. ولم تنتقل هذه التركيبة إلى مجالى الرياضة والأعمال فقط بل أصبحت الأسلوب المعتاد استخدامه فى السياسة. وبالنسبة للحملات السياسية عالية المستوى يستلزم كل جزء من الحملة خبيرا متخصصا فيه. وفى بدايات القرن العشرين كان هؤلاء الخبراء يأتون من الهيئات التنظيمية للأحزاب ومن بين الأصدقاء والأقارب والمتطوعين ممن لديهم وفاء للمرشح. أما فى الحملة الانتخابية الحديثة فلا تزال توجد مجموعة من المتطوعين الذين يطوفون بأبواب المنازل ويجرون الاتصالات التليفونية ويعملون فى التجمعات الجماهيرية، ولكن نتيجة للضغوط الناجمة عن المنافسة أصبح من الضرورى استخدام خبراء متخصصين لتوجيه الحملة. يأتى على رأس هذه المجموعة مدير الحملة، ثم يمكن بعد ذلك، إذا كان حجم الحملة يتطلب هذا وإذا كانت الميزانية تسمح، أن يتم تعيين خبير إعلامى ومستطلع للرأى وجامع للتبرعات وكاتب للخطابات ومستشارين للمناظرات، وباحثين للمعارضة ومنسقين من أجل تنظيم المتطوعين. يعد هؤلاء الخبراء مدافع مستأجرة فى الحملة، على النقيض من المتطوعين، الذين قد يكونون مثاليين فى نظرتهم إلى المرشح، أو أن يكونوا فى بعض الحالات من الباحثين عن الوظائف الذين يأملون أن يؤدى هذا العمل التطوعى إلى تكوين علاقات وصلات تكون مفيدة بالنسبة إليهم فيما بعد.

يتمحور قلب الحملة الانتخابية الحديثة الحقيقى حول خلق مرشح قابل لأن يتم انتخابه ذى صورة قوية ومتميزة عن المرشحين الآخرين. وبينما تظل المناقشات عنصرا رئيسيا فى الحملات، فإن الناخبين الذين اعتادوا الرسائل الإلكترونية السريعة يستجيبون بشكل متزايد للمرشحين كثيرى الظهور. لقد وصف فيلم المرشح The Candidate ١٩٧٢ أهمية الظهور

المنضبط بشكل لا ينسى. وصف الفيلم تحول بيل ماكاى من رجل وسيم لا يفقه شيئا يشبه جاك كيندى إلى مرشح قابل للتصديق وللفوز فى سباق على مقاعد مجلس الشيوخ. يبين الفيلم فى سطره الأخير التوتر القائم بين ماكاى الحقيقى والمرشح الذى تعرض للتغيير، عندما يلتفت ماكاى الى مدير الحملة بعد الفوز ويسأل "ماذا نحن فاعلون الآن؟" فى هذه الورطة تكمن مشكلة الحملة الحديثة، فالمرشحون أصحاب الوجوه الوسيمة والقامات الطويلة قد لا يكونون أفضل من يخدم الجمهور، بينما قصار القامة ومن لا يتمتعون بالوجاهة قد يكونون أصلح الناس للقيام بهذا الدور.

تحويل المرشح

توجد ثلاثة اتجاهات أساسية لاختيار وتطوير المرشحين فى الحملة السياسية الحديثة. الاتجاه الأول هو المرشح الثابت. وهو الذى يملك كل الصفات ويحتاج إما إلى تعديل طفيف أو لا يحتاج إلى ذلك على الإطلاق. وفقا لهذا الاتجاه يتم تسويق المرشح كما هو. وفى الانتخابات الرئاسية الأولية للحزب الجمهورى فى عام ٢٠٠٠ كانت شخصية السيناتور جون ماكين الصلبة ومواقفه التى لا تقبل التعديل هى حجر الزاوية لحملته، وقد خسر الحملة. أما الاتجاه الثانى فهو اتجاه التحسين، وفى هذا الاتجاه يؤدى قدر معقول من التغيير إلى جعل المرشح مقبولا. ففى نفس الدورة الانتخابية التى ذكرناها عدل المرشح الرئيسى للحزب الديمقراطى وهو نائب رئيس الجمهورية آل جور من صورته كشخص جامد عن طريق ارتداء الكنزة بدلا من السترة ورابطة العنق، وعن طريق سرد القصص الشخصية، واستخدام أسلوب يتسم بقدر أكبر من المباشرة والمواجهة عند الحديث مع المعارضين. أما الاتجاه الثالث فهو أسلوب تحقيق اكتمال صورة المرشح. يقوم هذا الأسلوب بمسح للمرشحين لاكتشاف الصورة المثالية للمرشح، وبعد هذا إما ان يتم تجنيد هذا

الشخص أو يعاد اختراع شخص ليطابق هذه الصورة. ويعد المرشح بيل ماكاى أفضل مثال لمرشح تم تجنيده أو اختياره ليلائم المناخ السياسي. ولكل من الاتجاهات الثلاثة مناصرون، ولكن الساحة الانتخابية تشجع نموذج التعديل أو التجنيد. ففى الحملة السياسية يلعب تغيير المرشحين دورا أساسيا فى خلق الصورة الفائزة للمرشح. وهناك خمس خطوات ممكنة فى عملية تعديل صورة المرشح، وهى: خلق المفاهيم والاختبار والتحسين والتحقيق والتوزيع.

خلق المفاهيم

الخطوة الأولى: وهى خطوة خلق المفاهيم تقوم بتحديد شخصية للمرشح يسهل تذكرها وفهمها من جانب الناخبين لتكون العمود الفقرى للحملة وقضاياها. فى العادة تستخدم وسائل الإعلام نماذج للمرشحين من نوع "البطل" و"الحصان الأسود" و"الابن المفضل" و"الشخص المضطهد المظلوم" لتعريف الحملة. إذا أحسن استخدام هذه النماذج فإنها تكون نقطة الانطلاق لأفكار أساسية فى الحملة مثل إضفاء صفة البطولة على السيناتور بوب دول فى الحملة الرئاسية عام ١٩٩٦، حيث تم التركيز على قوته الشخصية التى مكنته من التغلب على الإصابات التى لحقت به فى الحرب. ويتطلب خلق مفهوم عن المرشح القيام بمسح للمنافسين حتى تكون صفات المرشح متميزة عن صفات باقى المرشحين. يذكر ريتشارد داير فى كتابه "النجوم" عددا من الصفات التى يمكن أن تخلق صورة مؤثرة وقابلة للتصديق عن المرشح. فعلى سبيل المثال يجب أن تكون صفات المرشح متميزة ومختلفة كما يجب أيضا أن تجذب الانتباه. كما لا ينبغى أن يكون المرشح أحادى البعد، بل لابد أن يمتلك طائفة من الخصائص. ولا ينبغى كذلك أن تكون كل صفاته

واضحة منذ الوهلة الأولى. وعلى هذا فمن الممكن أن يقرر مديرو الحملة أن يكون المرشح أكثر دفئا أو أكثر مرحًا عن الخصم، ومن الممكن أن يستخدموا المناسبات التى يظهر فيها المرشح أمام الجماهير لتأكيد هذه الخصال. ويمكن استخدام مجموعة من الأساليب لخلق صورة للمرشح. ففى أحيان كثيرة تتوافر لدى مستطلع الرأى مادة توضح له ما يستجيب له الناخبون. تستخدم الاستطلاعات أساليب عدة لاستخراج الفروق الطفيفة التى يمكن أن تبين الاتجاهات لتغيير السلوك، من بينها بنوك المعلومات التي يتم جمعها بواسطة التليفون. وعلى الرغم من أن الاستطلاعات مفيدة فى إعطاء صورة عامة عن وضع المرشح الحالى، فإن الأفكار من الممكن أن تتغير، بل تتغير بالفعل مع الوقت. فى تلك الحالة يجد المرشحون الحديثون أنفسهم فى وضع لا يحسدون عليه، حيث يبدون وكأنهم ينكصون عن التزاماتهم وقضاياهم. وفى الكثير من الحملات عند الوصول إلى طريق مسدود، تكون المعلومات المجموعة عن طريق الاستطلاعات هى الحكم الأخير. ولكن بعض من ينقدون الحملات يرون أن هذا الاتجاه يشجع الحملات المبنية على الحلول الوسط التى يمكن للجميع الاتفاق عليها.

وهناك أسلوب آخر هو أسلوب تحليل الاتجاهات الذى يعتمد على تصفح وسائل الثقافة الشعبية مثل الصحف والكتب والأفلام والأغانى لتبين ما يحظى بتقدير الناخبين. هذه الوسائل الإعلامية من الممكن أن تعطى إشارات ليس فقط عما يفكر فيه الناخبون الآن، ولكن أيضا عن الاتجاهات التى ستظهر مستقبلا. وتستطيع هذه الوسيلة المأخوذة من أساليب تسويق المنتجات أن تقوم بمسح لكل جوانب الساحة بهدف الإشارة إلى طرق مفيدة يمكن أن تسير فيها الحملة. فى النهاية لابد أن تكون الصورة التى يقع عليها اختيار المرشح قابلة للتحقيق، ولابد أيضا أن يتم اختبارها.

الاختبار

في عملية الاختبار تستخدم الأسواق الصغيرة التي تكون المخاطرة فيها قليلة لتقييم صورة المرشح ومواقفه إزاء القضايا. يتم استخدام أربعة أساليب لقياس ردود الفعل. الأسلوب الأول والأبرز هو استخدام موقف سهل السيطرة عليه، به جمهور، مثل استخدام مجموعات متخصصة يكون من المرجح أن يعطي الناخبون فيها معلومات مهمة عن سمات المرشح وقضاياه. ولقد أصبح هذا الأسلوب الذي اقتبس من مجال الإعلان مفيدا خصوصا في المراحل الأولى من الحملة. وعادة ما تستخدم المقابلات الفردية وحفلات جمع التبرعات والاجتماعات بأعداد قليلة من الأفراد وحفلات الشاي المخصصة للالتقاء بالمرشح والمناسبات الأخرى التي لا تسلط عليها الأضواء والتي يسهل متابعتها وملاحظتها كمجالات للاختبار. وإضافة للاختبار يمكن استخدام الخطب التي تلقى في مناسبات الحزب على مجموعات صغيرة من المؤازرين شديدي الولاء، وبالتالي سوف يتغاضون عن أخطاء المرشح. ويتم أيضا استخدام ساعات المشاهدة أو الاستماع المنخفضة الكثافة في التليفزيون والإذاعة للاختبار (على سبيل المثال يوم الأحد الساعة السابعة صباحا)، ففي تلك المواعيد تكون الأسئلة أسهل وعدد المشاهدين أقل. كل هذه المجالات يصلح استخدامها لاختبار ما إذا كانت التغييرات تحظى برد فعل إيجابي من الناخبين.

التحسين

في حالة ضرورة تبديل صورة المرشح، فإن تحسين المفهوم يصبح أساسيا بالنسبة للحملة. في هذه المرحلة من تحسين الحملة والمرشح، يتم صقل المرشح ليتفق مع توقعات الناخبين. وفي الحملات الأكثر صعوبة يتم

توظيف جيش من المدربين والمستشارين من أجل مهام محددة. والنصائح التى يقدمها هؤلاء متاحة لأى مرشح لديه الأموال الكافية لتمويل تشكيل صورته. هناك خمسة مجالات يتم التعامل معها من أجل تحسين شعبية المرشح، وهى العلامات والرموز والمظهر والحركة والسلوك والمادة.

فى عصر الإعلام يجد المرشحون أن علامات مثل الملابس والإشارات وتعبيرات الوجه وطريقة المشى ووسائل التعبير الأخرى عن الشخصية مهمة جدا بالنسبة للاتصال الفعال. فمن الممكن جدا أن يشير اختيار المرشح للعلامات المناسبة إلى أنه يتسم بطراز وشخصية قوية. فمثلا عندما كان الرئيس بيل كلينتون أثناء حملته الرئاسية فى ١٩٩٢، يقطع هرولته فى فترة بعد الظهيرة ويدخل خلسة إلى محل ماكدونالدز لتناول الهامبورجر والبطاطس المقلية، أو عندما كان يظهر فى البرامج التليفزيونية التى تأتى آخر الليل وهو يعزف على الساكسفون، كان هذا ينقل للناخب شخصيته اللطيفة المعاصرة والتى يسهل الوصول إليها والتعامل معها. وسواء اختار المرشح أن يرتدى القمصان القطنية ليعطى انطباعا عن انطلاقه أو أن يعبر الولاية مشيا ليبين لياقته البدنية بطريقة واضحة ورغبته فى الاستماع إلى أبناء الدائرة الانتخابية، فإن العلامات والرموز من الأدوات الأساسية فى الحملة الحديثة.

فى عصر الإعلام تأتى الفكرة عن شخصية المرشح من خلال الانطباعات عن مظهره. اتضحت أهمية المظهر فى التليفزيون لأول مرة خلال المناظرة بين ريتشارد نيكسون، وجاك كينيدى فى ١٩٦٠، نتيجة لرفض نيكسون وضع المكياج وذقنه الذى كان يبدو غير حليقٍ تماما، مما أدى لأن يبدو للمشاهدين أكبر سنا وأقل صحة من غريمه. قبل ظهور التليفزيون كان من الأسهل إخفاء السمات الظاهرية للشخص. مع أنه لا يمكن إثبات أن

عدم المعرفة بعجز فرانكلين ديلانو روزفلت نتيجة إصابته بالشلل، كان لعدم وجود التليفزيون، غير أنه مما لا شك فيه أن التغطية التليفزيونية الحديثة كانت ستجعل هذا العيب معروفا أكثر. وفى الممارسة اليومية للعمل السياسى، أصبحت بعض الاختيارات الخاصة بالمظهر مسألة لها قيمتها. فى المناظرة الرئاسية الأولى للحزب الديمقراطى كانت الصورة السائدة هى لمجموعة من المرشحين يرتدون سترات كحلية اللون وربطات عنق حمراء وقمصان بيضاء. ولكن مع ازدياد الملاحظة الإعلامية، أصبحت الملابس أقل تكلفا وتشابها. إن لكل مناسبة ولكل شعور زيًا يلائمه. وعلى الرغم من أن الزي المعتمد لمعظم المرشحين لايزال هو السترة، فإنه هناك مؤشرات على أن المظهر الخارجى فى الحملات القادمة سوف يعكس تأثير صنعة التجميل. وسوف تستفيد المجموعة الجديدة من المرشحين من الابتكارات الجديدة المتعلقة بالمظهر، مثل منضِّرات الجلد ومبيضات الأسنان واستزراع الشعر وإزالة الكرش وشفط الدهون. ويكاد لا يوجد حد للتغييرات التى يمكن تحقيقها بمساعدة متخصصى الماكياج والمدربين الشخصيين وأطباء التجميل. من الممكن أن تستخدم اللغة الجسدية للمرشح لإعطاء صورة عن شخصيته. وفى العصر الراهن فى السياسة هناك تأكيد على الطبيعية والسيطرة والطابع الشخصى. فإن جون كينيدى مثلا كانت له مشية شبابية نشطة. ولقد مزج هذا النشاط بتفصيله للسترات من الطراز الأوروبى وكان يرفض ارتداء القبعة حتى فى الأيام شديدة البرودة؛ مضرا بذلك - عن غير قصد - مصانع القبعات. كانت حركات كينيدى تشير إلى بداية جديدة بالنسبة لأمريكا وإلى صعود جماعة جديدة من القادة الشبان. تظهر الحركات الجسدية فى مواقف غير بارزة مثل الدخول والخروج من السيارة، أو مصافحة الناس باليد أثناء الاجتماعات. وفقا للأسلوب التقليدى للحملات توجد عدة طرق للمصافحة يختار منها المرشح ما يلائم الصورة التى يريد توصيلها. والجمهور أيضا

يفسر هذه الحركات على أنها تبين مدى صلاحية المرشح للمنصب. ومن الأساليب التقليدية فى تدريب المرشحين مفاجأتهم بسؤال على غرة عند الخروج من المصعد مثلا. وهذه المحاكاة التى عادة ما يتم تصويرها عن طريق الفيديو ثم تحليلها مع المرشح تهدف ليس فقط إلى تحسين أسلوبه فى الكلام، وإنما أيضا إلى تحسين الحركة وإلى إلغاء الحركات التى يمكن أن تضر بطراز أو شخصية المرشح. ولابد أن يستطيع المرشح أن يقدم شخصيته فى المناسبات العامة والخاصة. كما أنه من غير المقبول للمرشح أن يشتم أو يبصق أو يتجشأ فى حضور آخرين. فعندما تقيأ الرئيس جورج بوش على رئيس وزراء اليابان فى ١٩٩٠، أصبح هذا الحدث خبرا فى جميع الصحف على مستوى العالم وكان أمرا محرجا للشعب الأمريكى. من الوارد بالطبع أن يصاب أى شخص باضطراب فى المعدة أثناء مأدبة وألا يستطيع التحكم فى تصرفاته اللاإرادية، ولكن السياسى يجب أن يتفادى مثل هذه الحوادث. واليوم لابد أن تدرس الحملات الاتجاهات الثقافية بدقة لترصد مجموعة السلوكيات المقبولة من المرشح. فى الانتخابات الرئاسية الأولية فى ١٩٨٨، صور المرشح المتزوج جارى هارت مع صديقته دونا رايس وهى جالسة على رجليه فى اليخت مما أسفر عن تدمير حملته نتيجة اتهامه بعلاقات نسائية وتحطمت آماله فى الرئاسة. وبعد عشر سنوات تمكن الرئيس بيل كلينتون من تحمل سيل من الفضائح حول حماقاته الجنسية. على الرغم من إمكانية القول إن كلينتون كان أكثر مهارة من هارت فى تفادى الاستجوابات والأسئلة، فإن الأدق هو رصد التغييرات فى توقعات الجمهور بالنسبة للسلوك الشخصى للرئيس أو المرشح.

ومن الممارسات المعتادة فى الحملات فرض مهام متنوعة على المرشحين لإظهار شخصيتهم بشكل إيجابى. ففى الثمانينيات تم تصوير الرئيس ريجان على أنه راعى بقر؛ أي رئيس تنفيذى، وأنه دائم الحركة

والانشغال كما أنه مشغول بالمسائل الحكومية ولهذا لا يمكنه أن يشغل نفسه بالأمور التافهة مثل الرد على أسئلة وسائل الإعلام. عندما أدرك مساعدو ريجان عجزه عن الرد على الأسئلة دون استعداد، قاموا بتحويل نقطة الضعف هذه إلى ميزة بإضافة ضوضاء فى الخلفية مثل أزيز طائرة مروحية عال. عندئذ يشير ريجان مودعا الصحفيين مبينا أنه لا يمكنه سماع أسئلتهم. بهذه الطريقة فإن كل ما رآه الناخبون هو قائد ديناميكى مهتم بإنجاز المهام ولهذا فهو مشغول جدا ولا يستطيع أن يتوقف ليثرثر. ولقد أصبح الآن ضروريا لتطوير صورة المرشح تقديم صور بصرية قوية من أجل الإعلام. إذا كان المرشح مثلا يحب أن يلعب الهوكى ثلاث مرات أسبوعيا أو يقوم بالتدريس للأطفال محدودى الدخل، فإن هذه الأنشطة تعد مهمة للحملة ويتم استخدامها لتحديد صورة المرشح. فى الحملة الحديثة، لا يزال المضمون من العناصر المهمة بالنسبة لاختيار المرشح. ويتعين على السياسيين أو مستشاريهم أن يصوغوا عددا كبيرا من الرسائل. تأتى الفرص لذلك من خلال الخطابات والمؤتمرات الصحفية والإعلانات والبريد المباشر والمواقع الإلكترونية ولوحات الإعلان بالشوارع. وفى معظم الأحيان تعكس المادة الرسائل التى اختيرت لتمثيل صورة ومواقف المرشح. كيف ستكون صورة هذه المادة؟ فى عصر الإعلام الفرص محدودة لإلقاء خطاب مطول. وفى أغلب الأحيان يلقى الخطاب المطول أمام الجماهير الفعلية، وإذا نقله التليفزيون فسوف يختصره إلى خمس عشرة أو ثلاثين ثانية. يأتى التركيز فى عدد أكبر من الحملات على تأليف جمل قصيرة وأفكار أساسية من الممكن أن تقتطف أجزاء منها فى الصحف والإذاعة والتليفزيون. ومع ازدياد فهم المرشحين للحقائق المتعلقة بوسائل الإعلام الحديثة تزداد ضراوة المنافسة على التغطية الإعلامية، وتزداد الحاجة لأن تكون الجمل المقتطفة أكثر جدلية وحيوية أيضا. ولم يغب تقلص المناقشات الجوهرية عن الملاحظة.

ففى كل انتخابات تنتقد المجموعات المهتمة بالصالح العام ووسائل الإعلام غياب المناقشات الجادة للقضايا ويطالبون بإحياء المناظرات ومنتديات النقاش على غرار تلك التى كانت تعقد بين لينكولن ودوجلاس. لم يكن غريبا فى الأيام الأولى للحملات الانتخابية أن يكتب السياسيون مادتهم بأنفسهم وأن يعتمدوا على الأصدقاء فى الحصول على النصيحة. أما فى حملات اليوم فغالبا ما يعتمد المرشحون على كاتبي الخطابات وعلى مستشارى المناظرات ومحترفى الإعلانات لإعطائهم النصائح كل فى مجال تخصصه. وعلى سبيل المثال، عند الإعداد لمناظرة يتم الاتفاق مع مستشار ليقوم بتجهيز أكثر من محاكاة للمناظرة الحقيقية. ومن الممكن إخضاع المرشح لصعوبات مطابقة لصعوبات اللقاء الحقيقى. وعادة ما تتكون المادة من مزيج من مواقف الحملة والمعلومات التى أعطاها المستشارون ونتائج الاستطلاعات. وفى بعض الأحيان لا يكون هذا العرض المنقح معيارا جيدا لمهارات المرشح حيث إن المادة والمظهر مع الأساليب الأخرى لخلق الصورة تكون قد خلقت شخصية جديدة للمرشح. كل وسائل التحسين هى فى الواقع نتيجة لزيادة ملاحظة وسائل الإعلام للمرشح ولتعود الجمهور على مستوى أداء احترافى. وبالتالى فإن المرشحين الذين يقررون تجاهل نموذج التحسين يصبحون فى موقف أضعف للغاية.

التحقيق

لابد أن تتواءم تصرفات المرشح مع الصورة الجديدة حتى تتوافر مصداقية للصورة فى رأى الناخبين. لتحقيق هذا الهدف يستخدم المدربون عددا من الأساليب التقنية لصقل المرشح. أكثر هذه الأساليب شيوعا وأقلها تكلفة هو تعديل السلوك. عادة ما يستخدم هذا الأسلوب الحوافز والدعم فى إرشاد تصرفات المرشح المستقبلية. فعلى سبيل المثال، عندما يجيب المرشح

إجابة حاذقة على سؤال ما فى مناظرة أو حين لا يتواصل بصريا مع الجمهور أثناء عرض، فإن نظام المكافأة على ذلك يجيب إما بالتصفيق أو بالسكوت. من الممكن لتعديل السلوك أن يكون مؤثرا على المدى القصير، ولكن إذا لم يكن المرشح مستريحا إلى ذاته الجديدة فسوف يأتى هذا الأسلوب بنتائج عكسية. كما توجد طريقة أكثر تكثيفا لتدريب المرشحين تقوم على الاتفاق مع معلم خاص يقدم نصائحه وتدريبه نموذجا يحتذيه المرشح. وتكمن فوائد نظام المعلم فى أنه يكون أكثر بطئا فى العادة وأنه يحترم اهتمامات المرشح كما يعطى فرصة للصعود والنزول اللذين يحدثان حين يحاول المرء أن يتعود على أفكار وأساليب جديدة. ولكن من عيوب هذا النظام أنه باهظ الثمن وأنه يستغرق الكثير من الوقت. وبالتالى يسهل تركه مع ضغوط الحملة. وقبل العصر الحديث للحملة السياسية حيث تعتمد الحملة السياسية فيه على الإعلام كان من الطبيعى أن يقوم المرشحون بتدريب أنفسهم بدراسة خطابات وأساليب المرشحين الآخرين. إن الرئيس جون كينيدى مثلا درس خطابات رئيس الوزراء وينستون تشيرشيل (١٨٧٤ - ١٩٦٥) ثم أصبح هو نفسه النموذج بالنسبة لبيل كلينتون.

التوزيع

ما إن تتحدد الصورة والمسائل الأساسية حتى تحتاج الحملات الانتخابية إلى توصيل رسائلها إلى الجماهير المختلفة عن طريق قنوات توزيع عديدة. وتتحدد أهمية القرارات المتعلقة بكيفية إيصال رسالة المرشح ومجالات إنفاق الأموال تبعا لحجم السباق. وهناك أربعة مجالات أساسية لتوصيل الانطباعات عن الحملة إلى الناخبين، أولها هو المناسبات العامة عندما يلقى المرشح خطاباته، أو يحضر مناسبات شرب القهوة وجمع التبرعات وحين يقوم بجولاته فى التجمعات المختلفة. وكثيرا ما يقوم

المسئول عن جدول الحملة بتنسيق هذه الجهود وعليه أن يكون على معرفة بماهية الجماهير الأساسية، وعليه أيضا أن يعرف مدى قوة احتمال المرشح ونقاط قوته وضعفه. ومن الممكن جدا لمرشح عادى فى خلال أسبوع أن يتكلم فى معبد يهودى، وأن يرمى الرمية الأولى فى يوم الافتتاح وأن يتكلم أمام نقابة عمال الكهرباء ويمشى فى حى خاص بإحدى الجماعات العرقية ثم يزور بعض التجار المحليين.عادة ما يلتقى المرشح مع مستشاريه فى بداية اليوم للاستعداد لهذه المتطلبات المكثفة والمتنوعة من الاتصال يناقشون الخطابات والاهتمامات الخاصة للمرشحين كما يقومون بتعديل الكلام وفقا لما تركز عليه وسائل الإعلام ويقررون أيضا كيفية الرد على اتهامات المنافس. ولا يكون الاهتمام فى هذه الاجتماعات على العروض الرسمية وإنما يتم التركيز على التعليقات القصيرة والردود على الأسئلة الموجهة من الجماهير المختلفة. وأكبر خطر هو أن يأخذ سؤال ما المرشحَ على غِرَّة؛ فيستخدم غريمه الإجابة ضده. أما المجال الثانى وهو المجال الذى يسهل التحكم فيه أكثر من باقى المجالات الأخرى فهو نوع الإعلان الذى سوف يستخدم فى الحملة والذى يتضمن البريد المباشر والظهور فى التليفزيون والإذاعة والمواقع على الشبكة العالمية والكتيبات. وعلى الرغم من ارتفاع تكلفة الإعلان التليفزيونى بالنسبة لكثير من الحملات المحلية، فإنه دائما ما يبذل مجهود من أجل الوصول إلى جماهير أخرى غير تلك التى يلتقى بها المرشح. وتختلف أساليب وطرق الإعلان من حملة لأخرى تبعا لردود فعل الناخبين. وعادة ما تركز الإعلانات على مؤهلات المرشح ورسالته ووعوده. ولكن فى الأسواق الإعلامية الحديثة المزدحمة، من الممكن أن يلجأ المرشحون إلى الطرق السلبية مثل الهجوم على المنافسين حتى يميزوا أنفسهم عنهم أو ليحشدوا قاعدة من المساندين أو - فى محاولة يائسة - لتغيير قوة اندفاع المرشح. إن معظم الإعلانات المستخدمة فى الحملات

السياسية الآن تشبه الإعلانات عن المنتجات فهى تستخدم المقارنات والرسوم المتحركة والشعارات الأخاذة والأغانى المقفاة. ومن التطورات المهمة فى الحملات استخدام مواقع الإنترنت للتواصل مع الناخبين ولتناول الموضوعات السريعة التغير. وفى حملة جيسى فنتورا لمنصب محافظ مينيسوتا وصل موقعه على الإنترنت إلى الناخبين المتذمرين، وكان وسيلة إعلان غير مكلفة وشوكة فى جانب منافسه.أما المجال الثالث من الاتصال الجماهيرى فهو الظهور المخطط وغير المخطط له فى وسائل الإعلام مثل المناظرات واللقاءات والمؤتمرات الصحفية والتغطية العامة للحملة. وغالبا ما تكون هذه الانطباعات هى الأكثر تعبيرا عن المرشح لأن الناخبيين يعدون مناسبات ظهور المرشح غير المدفوعة أكثر تمثيلا ودلالة على ذات المرشح الحقيقية عن الإعلانات. ولقد اعترفت الحملات منذ النصف الثانى من القرن العشرين بأهمية الظهور التلقائى للمرشح وحاولت أن تؤهله لهذه الحالات. وعلى سبيل المثال، فقد أصبح الآن معتادا بعد المناظرات أن يُقدم موظفو المرشح أنفسهم لوسائل الإعلام وأن يمدحوا أداء المرشح بهدف التأثير على التغطية. وتتطلب هذه المناسبات العامة إعدادا دقيقا لأن المرشح يكون قابلا للظهور أمام الناخبين فى أى وقت.أما المجال الرابع والأخير فهو المحاولات الشعبية لإنجاح الاقتراع، والذى يتضمن بعضها بنوك المعلومات التليفونية والمرور على البيوت. وإذا نُفِّذت هذه الأشياء بنجاح، فإن الجهود الشعبية تطابق الصور المأخوذة عن المرشح من الإعلانات ومن الظهور فى وسائل الإعلام. على المستوى القومى وعلى مستوى الولايات، يتم تجميع قواعد ضخمة للمعلومات واستخدام أساليب معقدة فى الاستطلاع من أجل جمع التبرعات واستهداف الناخبين. ولن تكون الانطباعات المأخوذة عن المرشح من خلال الخطب الرسمية والانتخابات مؤثرة إلا إذا تم رسم صورة المرشح بمنتهى الدقة وإرسالها بشكل منتظم والعمل على تحسينها. وسوف تنضم

المواقع على الشبكة الإلكترونية التى تستخدم رسوم الجرافيك المذهلة إلى التليفون والتليفزيون وأنظمة النت لتوفر معًا فرصًا جديدة منخفضة التكلفة للوصول إلى الناخبين. تعكس الحملة السياسية الحديثة أوجه التقدم فى مجالات الترفيه وتسويق المنتجات وتكنولوجيا المعلومات. ومع الازدياد فى أساليب التدريب والتكنولوجيا المستخدمة فى وسائل الإعلام وأيضا الضغوط الناجمة عن تراكم المعلومات وتوقعات الناخبين من وسائل الإعلام، أصبح على المرشح أن يتأقلم مع هذه المتطلبات حتى يكون قادرا على المنافسة. وعلى الرغم من وجود مجال على المستوى المحلى للحملة التقليدية التى تعتمد على الظهور الحى للمرشح والمتطوعين بدون أجر والمرشح الطبيعى غير المصقول، فإن الساحة السياسية تغيرت إلى الأبد بفعل استراتيجيات الحملات السريعة التغير. ولكن يبقى السؤال عما إذا كانت العملية الديمقراطية قد تحسنت أم تدهورت مفتوحا ينتظر الجواب.

مصادر ومراجع

Boorstin, Daniel. The Image; A Guide to Pseudo - Events in America. New York, 1992.

يحتوى على إدانة لصناعة الصورة كثيرا ما يتم الاستشهاد بها.

Dyer, Richard. Stars. London, 1979.

يتضمن مراجعة دقيقة وقيمة لطريقة إنتاج الصور.

Gamson, Joshua. Claims to Fame: Celebrity in Contemporary America. Berkeley, 1994.

تقييم شامل لمؤسسة صناعة الشهرة

Jamieson, Kathleen Hall. Packaging the Presidency: A History and Criticism of Presidential Campaign Advertising. New York, 1996.

تحليل نقدى لمواطن القوة والضعف فى الدعاية السياسية.

Kurtz, Howard. Spin Cycle: Inside the Clinton Propaganda Machine. New York,

الحملة الانتخابية الحديثة فى البيانات.

McDaniel, James P. "Fantasm: The Triumph of Form (An Essay on the Democratic Sublime)." Quarterly Journal of Speech 86 (2000), pp.pp. 48–66.

مقال بصير عن اصطدام الصور والرموز والذاكرة الجمعية لفرانكلين ديلانو روزفلت فى الجدل حول التذكار الخاص به.

McGinniss, Joe. The Selling of the President, 1968. New York, 1970.

وسائل استخدام التليفزيون والدعاية فى حملة نيكسون من أجل التأثير على الناخبين.

Rein, Irving, Philip Kotler, and Martin Stoller. High Visibility: The Making and Marketing of Professionals into Celebrities. Chicago, 1997

مراجعة لطريقة صناعة وتسويق الصور.

لأمثلة على نماذج حملات انتخابية من هوليوود، انظر:

John Ford's 1958 film The Last Hurrah, which portrays Boston's big - city political machine, and Franklin Schaffner's 1964 film The Best Man,

يتناول صناعة القرار فى الغرف المليئة بالدخان.

Tye, Larry. The Father of Spin: Edward L. Bernays and the Birth of Public Relations. New York, 1998.

وضع برنييز الأساس للكثير من الطرق المستخدمة فى الحملة السياسية الحديثة.

تأليف: Irving J. Rein

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

الإفتاء فى مسائل الخير والشر Casuistry[1]

اكتسب وصف أرسطو للبلاغة بأنها نظيرة للجدل والأخلاق أهمية جديدة بعد نشر كتاب "إساءة استخدام الإفتاء فى مسائل الخير والشر" لألبرت جونسون وستيفين تولمين Albert Johnson and Stephen Toulmin (بيركلى ١٩٨٨). إن الإفتاء فى مسائل الخير والشر فى السلوك الإنسانى هو فن قديم من فنون الاستدلال لحل معضلات أخلاقية تمثل إحراجا. وقد كانت العصور الوسطى هى الفترة الذهبية لهذا الفن. يصف جونسون وتولمن باقتضاب الإسهام الذى قدمه شيشرون Cicero لموضوع الإفتاء فى مسائل الخير والشر ولكنهما لا يطيلان الحديث عن أسبابه وصوره، وإنما نظرا لتركيزهما التاريخى على إساءة استخدامه فقد اختارا شرح ماهية الموضوع وبحث تطوره وأساليب إساءة الاستخدام. واقترحا أفكارا لرد اعتبار هذا الفن ثم استخدامه لخدمة الأخلاق العيادية اليوم.

قدم كل من جونسون وتولمن الإفتاء فى مسائل الخير والشر كأحد الحلول لحاجة ممارسى المهن الطبية الملحة إلى طريقة محكمة من أجل الوصول إلى قرارات أخلاقية. ووفقا لجونسون تنتج المشكلة الأخلاقية عن تضارب بين عدة قواعد مثل "لا تؤذى" و"يجب أن يحظى المريض بحرية الاختيار فيما يتعلق بسبل العلاج" و"خفف المعاناة كلما كان ذلك ممكناً". كل

(١) يقصد بمصطلح casuistry البحث فى مدى اتفاق أعمال الإنسان مع الأخلاق، وبيان المسوغ للفعل، كما يستعمل بوجه عام فى الدلالة على كل مغالطة أو خروج على قانون أو مبدأ عام.

تلك أمثلة للقواعد الموجودة فى مجال الطب الحيوى. وعلى هذا فمن الممكن أن تنشأ مشكلة طبية من التضارب (الإحراج) بين التزام الطبيب بقاعدة عدم الإيذاء وبين تفضيل المريض الشخصى بأن يوقف علاجا فيه إنقاذ لحياته. يقوم جونسون بتعليم الإكلينيكيين كيفية طرح الأسئلة من أجل معرفة القواعد المتضاربة الكامنة فى مشكلة أخلاقية معينة. وموضوعات جونسون هى "دواعى الاستعمال الطبية" "Medical Indications" "" و"تفضيلات المريض" "Patient Preferences" و"توعية الحياة" "Quality of Life" و"السياق " "Context". كما يشير جونسون إلى أن المناقش بحاجة إلى تناول القضايا الأربع لكى يعطى تبريرا مقبولا لحكم أخلاقى متعلق برعاية المرضى فى الطب والتمريض. وكل قضية من هذه القضايا بدورها لها موضوعات فرعية تصاحبها، فموضوع الأهلية مثلا من الموضوعات الفرعية المهمة لقضية تفضيلات المريض لأن تفضيلات مريض غير متسم بالأهلية قليلة الأهمية مقارنة بتفضيلات مريض كامل الأهلية. وتعمل موضوعات جونسون عن طريق طرح أسئلة تشكل مجتمعة طرقا للتساؤل العملى. وتختلف هذه الطريقة عن الأسلوب التقليدى فى الأخلاق الحيوية.

ناقش كل من جونسون وتولمن كون فلاسفة الأخلاق الذين يضفون امتيازات على الأسلوب العقلى الذى يسيىء استخدام المبادئ، والذى يحاول أن يستنبط من مبدأ واحد (حرية اتخاذ القرار، المنفعة، التعاطف) أنظمة كاملة من الفلسفة الأخلاقية. فحين يفترض متخصصو علم الهندسة الأخلاقية moral geometers أن المعرفة الوحيدة القيمة هى تلك المستمدة من مبدأ علوى، فإنهم ينكرون أنواعا أخرى من التفكير تلائم المجال الأخلاقى. للتفكير الإثباتى مكانه ولكن حدوده تتجلى واضحة عند الدخول إلى مجال الأخلاق. ويقابل جونسون وتولمن بين عادة التفكير الأخلاقى المذكورة وبين المنظور البلاغى موضحين أن المنظور البلاغى "لا يفترض أن التفكير الأخلاقى

يستمد قوته من سلاسل من الاستنتاجات القائمة بذاتها تقوم بربط الحالات الراهنة بنقطة بداية مشتركة لا يمكن كسرها". لكن يعتقد الكاتبان أن هذه القوة إنما تستمد من تراكم اعتبارات كثيرة متوازية ومتكاملة يمكن تشبيهها لا بالحلقات بالنسبة للسلسلة وإنما بالجدائل بالنسبة للحبل أو الجذور بالنسبة للشجرة." (٢٩٣ - ٢٩٤).

يتسق نقد جونسون وتولمن مع عمل الكثيرين من المنظرين البلاغيين فى نصف القرن الأخير لأن كليهما يتضمن دفاعا عن التفكير البلاغى ضد هيمنة التفكير الإثباتى. نحن الآن بحاجة إلى منهج للإفتاء فى مسائل الخير والشر يكون مشروحا وموضحا بشكل كامل لأن رسم الحدود بين التفكير البلاغى والتفكير الإثباتى ليس إلا خطوة تمهيدية لتقديم النظرية البلاغية (التى لابد أن تأخذ اتجاهاعمليا). وسيشتمل هذا المنهج للإفتاء فى مسائل الخير والشر على تحديد وتناول القضايا ذات الصلة عن طريق (١) التعرف على الأسئلة الملائمة وطرحها، تلك التى تنبثق من الحالة (٢) تضييق مجال التساؤل إلى أن يصبح السؤال الذى تعتمد عليه الحالة واضحا (٣) تشكيل اتجاهات للنقاش تتفق وتكون مستمدة من تحليل الحالات بالرجوع إلى الموضوعات المشتركة، ويستخدم كل من هذه المكونات التفكير العملى لأن الحالات موضوعة بطريقتين: فى زمن حقيقى ومكان حقيقى، وبالمقارنة مع الحالات الأخرى المشابهة. إن فهم العلاقة بين الحالات المتشابهة يتطلب تفكيرا عمليا كما يحتاج أيضا إلى التفرقة بين التفاصيل ذات الصلة بالموضوع والتفاصيل الفرعية. وسوف يلاحظ البلاغيون بالطبع أن المكونات التى ذكرت آنفا هى ضمن عناصر الطريقة البلاغية فى "حجاج الحالة" "case argument" الذى كان العنصر الرئيسى بالنسبة لمدارس التناظر الجدلى التى كانت موجودة فى العصور القديمة. فليس مستغربا إذن فى ضوء أهمية هذه الطريقة فى النظم التعليمية القديمة أن يستخدم المتخصصون

الأوائل الطرق البلاغية فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر عندما تواجههم الحاجة إلى إصدار أحكام فى حالات تنطوى على إشكاليات أخلاقية أو لاهوتية صعبة. فقد تدربوا على أسلوب شيشرون (١٠٦ – ٤٣ قبل الميلاد) و(كينتليان Quintilian(35 - 100م) وأوغسطين Augustine(430 - 345) وبوئثيوس Boethius (480 - 524) والأكوينى Aquinas(1274 - 1225). ومن الملاحظ أن هؤلاء المتخصصين لم يقوموا أبدا بشرح طريقتهم، بل ببساطة انخرطوا فى العمل وفى تحديد الكميات الملائمة من التكفير عن ذنوب معينة، وأيضا كتابة الأحكام عن المسائل الأخلاقية واللاهوتية المختلفة المتصلة بالضمير. وبعد نشر كتاب "إساءة استخدام" "Abuse" فى ١٩٩٨، شرع ألبرت جونسون فى وضع طريقة مشروحة تفصيليا للإفتاء فى مسائل الخير والشر فى المجال الإكلينيكى. ويبرز الوصف الإجمالى التالى لهذه الطريقة ما يعنيه جونسون حين يقول إن "طريقة التفكير التى تأسست عليها المدرسة الكلاسيكية فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر هى طريقة التفكير البلاغى" (كتاب "الإفتاء فى مسائل الخير والشر كمنهج فى الأخلاقيات الإكلينيكية"، والذى سيشار إليه فيما بعد "بالمنهجية" و"الطب النظرى" ١٢، (307 - 295). وستركز هذه المقالة على ما يذهب إليه جونسون لأن مفهومه فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر ليس له مثيل فيما يتعلق بتأكيد أهمية البلاغة فى علم الأخلاق.

رأى ألبرت جونسون عن الإفتاء فى مسائل الخير والشر فى المجال الإكلينيكى.

بدأ شرح جونسون الأكثر تفصيلا وتنقيحا عن الإفتاء فى مسائل الخير والشر في كتابه عن "المنهجية" الذى يتميز، حسب قوله، عما كتبه بعنوان "إساءة استخدام" لأن الأخير كان بشكل أساسى عرضا تاريخيا للإفتاء فى مسائل الخير والشر وبالتالى فإنه هو وتولمن لم يقدما ذلك كطريقة تستخدم

فى الأخلاقيات الإكلينيكية، وإن كانا قد وضعا الأساس للإفتاء فى هذا الكتاب. وعندما يصف جونسون أسلوب التفكير المستخدم فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر فإنه يرجع إلى ما كتبه فى "إساءة استخدام" الذى يعرف مسائل الخير والشر على أنه "تحليل القضايا الأخلاقية باستخدام أساليب التفكير المبنية على النماذج والمقارنات المؤدية إلى تكوين رأى متخصص عن وجود وصرامة التزامات أخلاقية معينة تصاغ على هيئة قواعد أو مبادئ عامة ليست عالمية أو ثابتة لأنها تسرى فقط فى الحالات العادية للفاعل وظروف الفعل". (إساءة الاستخدام ص٢٥٧).

ويقول جونسون إن أفكاره عن طريقة الإفتاء فى مسائل الخير والشر أدت به إلى استنتاج أن أسلوب التفكير والوصول إلى النتائج الذى تأسس عليه الإفتاء فى مسائل الخير والشر هو التفكير البلاغى. بينما يصف كتاب "إساءة استخدام" إسهام المذهب البلاغى فى صياغة تقرير مسائل الخير والشر، فإن كتاب "المنهجية" يشرح المصادر التى يستقى المجال ممارساته منها. ويطورهذا العمل المساعد المشروع الذى تم بدؤه فى "إساءة استخدام" عن طريق التركيز على الكيفية التى تسير عليها الظروف والموضوعات والقواعد فى الأحكام الإكلينيكية. ويقول جونسون "الحالة" هى كلمة مأخوذة من فعل لاتينى معناه حرفيا هو "الحدث". والحدث هو مجموعة من الظروف (كلمة الظروف معناها الحرفى هو"ما يحيط بـــ أو يقف حول") أو ما يقف حول مركز الحالة. يتألف هذا المركز من مجموعة معينة من الأقوال المأثورة التى تشبه القواعد التى تعطى الهوية الأخلاقية للحالة. وبالنسبة للبلاغيين كان المبدأ هو "فكرة رئيسية أو مهمة". وكانوا فى بعض الأحيان يشيرون إلى تلك الأفكار على أنها gnomoi أي "الأقوال الحكيمة" لكونها تلخص على نحو بليغ التجارب التى تعكسها خبرة الحكماء. (المنهجية ص٢٩٨).

يعمل إذن الإفتاء فى مسائل الخير والشر على ترتيب ظروف كل حالة تبعا لمركز الحالة الذى يتألف من أقوال مأثورة تتضارب مع بعضها بعضا. وهكذا يتجه جونسون اتجاها بلاغيا واضحا حينما يعيد إحياء الإفتاء فى مسائل الخير والشر فى المجال الإكلينيكى. إن اعتماده على المفاهيم البلاغية الكلاسيكية فى شرح طريقة تقرير مسائل الخير والشر إنما يدل على وجود صلة عميقة ومتشعبة بين الاثنين. عندما يسعى جونسون إلى توضيح الطريقة التى تسير بها الأمور فى ذلك، فإنه يأخذ الجمهور فى اعتباره فيستخدم ثلاثة مفاهيم ليست بلاغية وهى علم المرفولوجيا morphology والتصنيف taxonomy وعلم الحركة kinetics وبهذا يضيف مشروع جونسون إلى فهم المنظرين فى مجال البلاغة للطرق المستخدمة فى التفكير البلاغى. ويمكن أن يتعلم البلاغيون الكثير إذا ما لاحظوا الكيفية التى يستخرج بها هذا المتخصص فى الأخلاق الطبية دور المنطق الموضوعى والتفكير فى حل المعضلات الأخلاقية عن طريق الحالات المشابهة والأقوال المأثورة.

"المورفولوجيا" مصطلح فى علم الأحياء له علاقة بالشكل والتكوين. والمماثلة باستدلال الحالة بينه وبين "التفكير العقلانى عن الحالة" هى أن "التفاعل بين الظروف والمبادئ يشكل بناء الحالة ". بالتالي فإن المهمة الأولى لمن يقوم بالإفتاء فى مسائل الخير والشر هى أن يحدد بنية الحالة أو أن "يفصح عنها" "parse". إن إصدار الحكم السليم مرتبط بالعلاقة بالمركز، ولكن فى الحالات الصعبة يتعذر تحديد المركز. ويشرح جونسون أن المركز يتم الوصول إليه عن طريق موضوعات خاصة. وللنشاط الإكلينيكى - الأخلاقى موضوعات خاصة تتعلق به، وهى المكونات الثابتة لهذا النوع من الخطاب. وتحتوى هذه الموضوعات على عبارات عن الدواعى الطبية للاستعمال فى الحالة وعن تفضيلات المريض ونوعية حياته والعوامل الاجتماعية والاقتصادية الخارجة عن المريض ولكنها تتأثر بالحالة. "لقد

اقترحت أنا ومارك سيجلر ووليم ونسليد هذه العناصر كوسائل لتحليل الحالات الإكلينيكية فى كتابنا "الأخلاق الإكلينيكية"ـ وأنا الآن أعتقد أنها تمثل الموضوعات الخاصة بالطب الإكلينيكى التى دائما ما تكون ذات صلة بالقرار الإكلينيكى، ودائما ما يكون تكوينها ثابتا وإن كان مضمونها يتغير". (المنهجية ص٣٠٠). عندما يكتب جونسون " أنا أعتقد الآن..."فهذا لأنه كان قد بدأ فى أواخر الثمانينات فى إدراك أن الإفتاء فى مسائل الخير والشر معتمد تماما على البلاغة. إن كتاب "الأخلاق الإكلينيكية" (١٩٨٢) لجونسون وسيجلر وونسليد هو دليل عملى يجمع الإرشادات الأخلاقية العملية (مرتبة حسب الموضوع) مع المبادئ الطبية ذات الصلة والسوابق القانونية والمهنية. ويستخدم جونسون ومساعدوه هنا الموضوعات الأربعة الخاصة بالطب الإكلينيكى دون استخدام هذه التسمية لأن الصلة بالبلاغة لم تكن قد ثبتت بشكل راسخ فى ذهن جونسون. وقد نشرت محاولة جونسون الأولى لشرح موضوعاته باستخدام الموضوعات البلاغية فى العدد الافتتاحى لدورية الأخلاق الإكلينيكية ("تحليل حالة فى الأخلاق الإكلينيكية" ١٩٩٠، ص 65 - 63: سنشير إليها فيما يلى بـــ"تحليل حالة"). هذا التفسير جدير بالملاحظة لأسلوبه الرائع الذى يشرح به الطريقة التى توجه الموضوعات بها البحث.

بعد تقديم المعلومات التقليدية عن الموضوعات وبعد التمييز بين الموضوعات العامة والخاصة، يكتب جونسون قائلا إن: "طريقة التحليل التى سوف أقوم بشرحها تمثل فى رأيى الموضوعات الخاصة بالأخلاق الإكلينيكية، أى إنها تشكل المفاهيم الأساسية الموجودة فى أى مشكلة أخلاقية تظهر فى حالة إكلينيكية". (تحليل الحالة ص٦٣)، وتختلف الموضوعات من حيث درجة الصلة بكل حالة من الحالات لأن الأمر يتعلق بظروف كل حالة. ولكن من الضرورى الرجوع إلى هذه الموضوعات حتى يكون التحليل سليما. وبعد ذلك يشرح جونسون كيف توجه الموضوعات الأخلاقية. وهكذا

فهو يبين أن المنطق الداخلى لكل موضوع يثرى النقاش حول الحالة بالمعلومات ويحدد اتجاه النشاط. إن أسلوب جونسون فى تناول تفضيلات المرضى هو من الأمثلة الجيدة فى هذا الشأن. فلا شك أن رغبات المريض هى من العناصر التى تؤخذ فى الحسبان فى أى قرار طبى لاعتبارات أخلاقية. ومع هذا فعلينا ليس فقط أن نسأل "ما الذى يريده المريض؟" وإنما يملى منطق هذا الموضوع أسئلة أخرى "هل يفهم المريض؟" "هل المريض خاضع لإجبار؟" إن لكل موضوع منطقا داخليا، وهذا المنطق يقترح موضوعات فرعية. وحين يتبع محلل الحالة طريقة التساؤل التى توحى بها الموضوعات الفرعية فإنه فى هذه الحالة يقوم ببيان "إعراب" الحالة من أجل توضيح المسألة. ثم يشير جونسون إلى أن "البلاغيين القدامى كانوا يستخدمون مصطلح "المسألة" issue بمعناه الحرفى وهو نقطة التقاء الاتجاهات المنطقية المختلفة. فالمسألة هى الموضوع الذى ستتم مناقشته بالتفصيل، إنها بؤرة الاهتمام، وهى العقدة التى ينبغى أن تُحل" (تحليل الحالة، ص٦٥). عند هذه النقطة يتوقف جونسون، لكن البلاغيين سوف يدركون أنه قد وصل إلى فكرة "الموقف". من الممكن إذن فهم "المورفولوجيا" على أنها إفصاح عن الحالة بغرض اكتشاف الشكل والبنية البلاغية. بعد ذلك يقدم جونسون عنصرًا أساسيا من عناصر الأسلوب المستخدم فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر وهو صف الحالات فى ترتيب معين taxis. كلمة ترتيب "taxis" بالإغريقية تعنى صف الجنود فى خط المعركة. حين يقدم من يفتى فى مسائل الخير والشر دفاعا عن حكم أخلاقي فى حاله تتسم بالصعوبة، فإنه يرتب الحالات من الأقل غموضا وصولا إلى الحالة الحالية. إن المحرقة هى المثال الأساسى لنموذج حالة الفظائع العرقية المثيرة للنفور الأخلاقى. لقد كان خطأ واضحًا من النازيين أن يمارسوا الإبادة الجماعية، ولكن حينما نبتعد عن الحالة النموذج، فمن الممكن أن نجد حالات أخرى أقل وضوحا

وبالتالى فهى تحتاج إلى الترتيب لكى توضع فى سياقها. الترتيب أمر حيوى لأنه "يضع الحالة الموجودة الآن فى سياقها الأخلاقى ويوضح كم الحجج التى يمكن أن تعادل ما يفترض أنه خطأ أو صواب". (المنهجية ص٣٠٢) باختصار فإن التصنيف هو التفكير عن طريق عقد المقارنات وهو الذى ينأى بمجال الإفتاء فى مسائل الخير والشر عن الانزلاق إلى مجرد تركيز على الموقف.

يسوق جونسون مثالا من الأخلاق الحيوية يوضح كيف أن التفاعل بين النموذج الإرشادى والمماثلة يعطى خطا واضحا من التفكير حول مشكلة إيقاف "أجهزة الإبقاء على الحياة". إن تحديد الوفاة وفقا لمعايير المخ يؤدى إلى القول أن: "ليس علينا التزام أن نعالج جثة". بعد ذلك تأتى حالات لمرضى لا تستطيع سوى التنفس وحالات أخرى لمرضى تقلصت مقدرتهم العقلية. كلما قام محلل الحالة بالمماثلة بين الحالة النموذج والحالات الأقل، فإن الظروف ومدى الشبه مع الحالة النموذج سيوضحان مقدار الالتزام بإعطاء الرعاية الطبية. فى بداية التصنيف يكون هناك إجماع أخلاقى، ولكن بعد ترتيب الحالات المتشابهة، يزداد الخلاف فى الرأى. والتصنيف يسمح للفروق بين الحالة الحالية والحالة النموذج أن تقضى أى الأحكام هو الأكثر ملاءمة.

من السمات الوثيقة الصلة بالطريقة المستخدمة فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر استخدام التصنيف لتبرير الأحكام الأخلاقية. إن هذا الرجل الديناميكى جونسون نقل "علم الحركة" إلى مجال الإفتاء فى مسائل الخير والشر. لقد استعار هذا المصطلح من الفيزياء الكلاسيكية كما استعار كلمة "المورفولوجيا" من علم الأحياء. فقد لاحظ جونسون أنه عند إصدار الأحكام، تعطى الحالة النموذج نوعا من الحركة الأخلاقية لتصنيف الحالات، بالضبط كما تنقل كرة البلياردو الحركة إلى الكرة الثابتة التى تصطدم بها. ويربط

جونسون بين الحركة فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر وبين التفكير العملى. إن الارتباط بين الاثنين كامل، لأنه فى مجال تقرير مسائل الخير والشر يتأمل المرء العلاقة بين المبادئ (وهى قواعد عامة للسلوك العملى) وبين الظروف (وهى تفاصيل الحالة التى يتم بحثها) فى ضوء الحالات المشابهة.

التفكير العملى فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر والعقل البلاغى

فى كتاب "فن الخطابة" "Rhetoric" يحدد أرسطو (384 - 322 قبل الميلاد) ثلاثة أنواع أساسية من البرهان— الإقناع الأخلاقى واستمالة العواطف، ومخاطبة العقل— على أساس أنه لكى يتم الإقناع لابد أن يُظهِر الخطيب حسن شخصيته، ولابد أن يحرك الجمهور باستمالة العواطف، ولابد بالطبع أن يسوق الأسباب القوية المقنعة. كما يؤكد أرسطو أيضا أن الشخصية الجديرة بالثقة هى من ضرورات الإقناع لأن الناس تكون أكثر استعدادا للاقتناع بمن يثقون بهم. فى بداية الفصل الثانى يقسم أرسطو الإقناع الأخلاقى إلى ثلاثة أجزاء: الحكمة العملية والفضيلة والعقل. ويناقش أرسطو هذا التقسيم الثلاثى فى إطار فن البلاغة. ومع ذلك فعلى الرغم من أن هدف أرسطو فى كتاب "فن الخطابة" كان محدودا، فإن فهما أكثر اكتمالا للتفكير العملى يظهر من خلال القراءات الدقيقة لأعمال أرسطو من جانب كتاب مثل هانز جورج جادامر Gadamaer وأليسدير ماكينتاير Mac – Intyre ومارثا نوسباوم Nussbaum وجوزيف دوون Dunne . وهذا يعنى أن المرء حين يفكر فى ديناميكيات التفكير البلاغى التى تشتمل على ملكة اكتشاف النقطة الأساسية والحيوية التى تسبق فن الحجاج الذى شرحه كتاب "فن الخطابة"، فإنه يبدأ فى تقدير الفائدة التى يمكن أن تعود من فهم التفكير العملى والتفكير البلاغى فى ضوء ما كتبه جونسون حول الإفتاء فى مسائل الخير والشر.

وعلى الرغم من أنه لم يكن من المألوف الربط بين التفكير العملى والبلاغة كما حدث الربط بينها وبين مفهومى الموقف والموضوعات، فكما يتضح مما ذكرناه، فإن دور التفكير العملى فى البلاغة واضح الأثر فى كل المجالات. إذا ما تم فهمه بدقة يمكن أن يكون التفكير البلاغى مرشدا كما يمكن أن يقود التفكير العملى البحث الأخلاقى. إن الهدف من البحث الأخلاقى هو الوصول إلى حكم سليم، ولكن فى الحالات الصعبة كثيرا ما يتضاءل هذا الهدف لأن النقطة الأساسية فى الموضوع تختفى خلف عدد غير محدود من التفاصيل. ويتعامل التفكير البلاغى مع التفاصيل عن طريق تحديد ما إذا كانت هذه القضايا ذات صلة أم لا، وعن طريق تحديد موقف حجاجى، أو تحديد أكثر القضايا صلة بالموضوع. ويندرج تحديد الصلة تحت التفكير العملى. ويعتمد الحكم العملى على التفكير العملى فى خمس طرق مختلفة ومتميزة: (١) عن طريق استخدام المبادئ الأخلاقية حيث يكون ذلك ملائما؛ (٢) باستخدام التجارب السابقة لفهم المواقف الحالية؛ (٣) عن طريق التعميم من الحالات المشابهة إلى الحالات الحالية؛ (٤) عن طريق استخدام الموضوعات الخاصة لتحديد القضايا الأكثر صلة بموضوع ما؛ (٥) وأيضا عن طريق دمج العناصر الأربعة السابقة لتلتقى الاحتمالات فيسهل ذلك الممارسة. تستطيع هذه العناصر توضيح ما يقصده جونسون عندما يكتب "التفكير فى مسائل الخير والشر هو تفكير عملى: تقدير العلاقة بين النمط والحالة المشابهة له، وبين المبدأ والظروف، وبين الظروف الأهم والظروف الأقل أهمية فيما يتعلق بالنقطة التى يدور حولها الحجاج وما يدحضها" (كتاب المنهجية ص ٣٠٦). دعونا نتذكر عبارة جونسون التى ذكرناها سالفا "إن نمط التفكير الذى يعتمد عليه تقرير مسائل الخير والشر هو التفكير البلاغى". توضح هاتان الجملتان اللتان قالهما جونسون أن التفكير البلاغى والتفكير العملى مترادفان تقريبا. كما أن شرحنا للكيفية التى يقدر بها التفكير العملى

القضايا المختلفة التى تلتقى لتسهيل الحكم الأخلاقى، يمكننا أكثر من فهم الطريقة التى يوجه بها عملية الوصول إلى حكم ما فى المجال العملى. كما أن ما ذكرناه يوضح أيضا لماذا اعتبر أرسطو التفكير البلاغى مقابلا للجدل.

الجدل فى الإفتاء فى مسائل الخير والشر

يتناول كتاب "الطوبيقا" (المواضع الجدلية) "Topica" لأرسطو الجدل أو المنافسات فى الجدل. ومع هذا فإن نصيحته الأخيرة لمن سيمارس الجدل تنم عن اهتمام يتجاوز مجرد المنافسة؛ "هو كذلك يضيف إلى المعرفة وإلى الحكمة الفلسفية القدرة على التمييز، والقدرة على التفكير فى نتائج فرضين ليس أمرا تافها، حيث إنه لا يبقى بعد ذلك سوى اختيار أحدهما" (١٦٣). وبما أن الفضيلة هى "حالة للشخصية تتصل بالاختيار، ولأن الفضيلة وسط" فإن الجدل لأنه يحقق الوضوح عند المداولة فهو يساعد كثيرا على اتخاذ قرار أخلاقى. إن التفرقة بين النزاع الجدلى والبحث الجدلى موجودة فى كل المواضع فى كتاب أرسطو "الطوبيقا". الجدل كما نراه عند سقراط مكون من ثلاث خطوات: فهو يبدأ دائما بفكرة ثم يصل بها إلى النتائج التى تؤدى إليها، ويستخرج عن طريق السؤال والجواب كل ما تستتبعه الفكرة، كما يطبق قانون التناقض الذى سجله أرسطو فيما بعد فى كتاب "الميتافيزيقا"، "أقل اعتقاد يمكن الخلاف حوله هو أنه لا يمكن أن تكون عبارتان متناقضتان صحيحتين فى نفس الوقت". وقانون التناقض هذا يتكلم عن الطريقة التى يعمل بها العقل أثناء عملية تحديد المعنى، وهذه العملية هى قلب التفكير الجدلى.

دعونا نأخذ على سبيل المثال حالة زوجة رجل مصاب بمرض فى القلب سوف يؤدى إلى وفاته. فى هذا الموقف الذى أتخيله، يتم إبقاء الزوج على قيد الحياة عن طريق وضعه على جهاز للتنفس، ولكن الأنبوب الخاص

بهذا الجهاز يضايق المريض لدرجة جعلت من الضرورى أن يبقى تحت تخدير قوى. وقد حاول الأطباء فى مرة سابقة فصله عن جهاز التنفس، ولكن هذا أدى إلى توقف القلب. الآن أوضح الطبيب المتابع للحالة للزوجة أن عليها أن تختار بين أن تبقى زوجها تحت تأثير المخدر حتى يبقى على قيد الحياة وهو ما يجعله مشوش التفكير أو أن تسمح له أن يعيش لبضعة أيام يستطيع فيها التواصل مع أسرته. ستكون إجابتها للطبيب كاشفة وتقوم على تفرقة جدلية مضمرة. هذه التفرقة توضح الكيفية التى يعمل بها قانون التناقض. بعد مداولات مع ابنها، توصلت الزوجة إلى أن زوجها لو كان يستطيع التعبير عن نفسه، كان سيختار أن يعيش لبضعة أيام فى حالة يمكنه فيها التواصل مع أسرته. كان سيختار أن يفصل عن جهاز التنفس وعن التخدير لأنه "لا يعيش فعلا، إنه مجرد موجود". تكمن فى هذه التفرقة فكرة أنه بالنسبة إلى الزوج الحياة تعنى القدرة على التواصل مع أسرته وأن أى حالة تجعله عاجزا عن ذلك "تعتبر مجرد وجود لا حياة". هذا يعنى أن مجرد الوجود يتناقض مع ما يتوقع أن يفضله الزوج فى الحياة ومع مفهومه عن الحياة. وبالتالى فإن قانون التناقض يؤثر على الاختيار "لأنه يضع فى اعتبار الشخص نتائج أحد فرضين" كما قال أرسطو. وبالتالى فكل ما بقى للزوجة هو أن تختار الاختيار الصحيح بين الاثنين.

إن التفكير الجدلى (كأسلوب فى البحث لا كأسلوب يستخدم فى المناقشات والنزاعات) يشابه التفكير البلاغى. ويقول روبرت برايس، إنه بدراسة الطبيعة المتشابهة لـــ"تحليلات" و"الجدل" و"بلاغة" أرسطو يتضح أن هناك منهجا مشتركا بين التحليل والبلاغة والجدل والتشاور، ولكن لكل منهم درجة مختلفة من التجريد. وبالتالى فإن المرأة التى ذكرناها فى المثال السابق عندما كانت تتخذ القرار نيابة عن زوجها كانت تستخدم التفكير البلاغى،

ولكنها توصلت إلى قرار بناء على استنتاج جدلى. إن الجدل يوضح التناقضات التى تختار بينها. هذا الشرح للإفتاء فى مسائل الخير والشر عند جونسون يوضح كيف يضعها التفكير البلاغى فى موضع تستطيع فيه تقدير هذين التناقضين، وأيضا كيف وجه التفكير العملى اختيارها. لهذا فإن جونسون يساعدنا أكثر على أن نفهم لماذا تعد البلاغة مناظرة لكل من الجدل وللأخلاق.

المصادر والمراجع

Dunne, Joseph. Back to the Rough Ground: "Phronesis" and "Techne" in Modern Philosophy and in Aristotle. Notre Dame, Ind., 1993.

قراءة دان لأرسطو وللفلاسفة العمليين فى العصر الحديث. لم يلق هذا العمل الاهتمام اللائق به من علماء البلاغة.

Golden, James L., and Joseph J. Pilotta, eds. Practical Reasoning in Human Affairs. Dordrecht, Netherlands.

مجموعة من المقالات المفسرة تتناول جوانب متنوعة من الحكمة العملية

Jonsen, Albert R. "Of Balloons and Bicycles—or—The Relationship between Ethical Theory and Practical Judgment." The Hastings Center Report 21 (1991), pp.pp. 14–16.

Jonsen, Albert R., and Stephen Toulmin. The Abuse of Casuistry. Berkeley, 1988.

MacIntyre, Alisdaire. After Virtue. Notre Dame, Ind., 1984.

يحاجج ماكينتاير بأن استعادة المجتمع التى أصبحت ضرورية نظرا لفشل المشروع التنويرى فى حل محل العقلانية الأرسطية لابد أن يتضمن جزئيا استعادة الحكم العملية الأرسطية.

MacIntyre, Alisdaire. Whose Justice? Which Rationality? Notre Dame, Ind., 1988.

يحاجج أن هناك حاجة لاستعادة تقليد توما فى العقلانية العملية الذى يعتمد على الحكمة العملية عند أرسطو، وهو يعتبر تنقيحًا للحجاج فى "ما بعد الفضيلة".

Miller, Carolyn R. "Aristotle's 'Special Topics' in Rhetorical Practice and Pedagogy." Rhetoric Society Quarterly 17 (1987), pp.pp. 61–70.

مصدر رائع للمهتمين بإعادة إحياء المنطق الموضوعى.

Nussbaum, Martha C. Love's Knowledge: Essays on Philosophy and Literature. New York, 1990. See especially "The Priority of the Particular" and chapter 2.

Perelman, Chaim. The Realm of Rhetoric. Notre Dame, Ind., 1982.

دراسة قاطعة عن الجدل والحجاج العملى والبلاغة.

Price, Robert. "Some Antistrophes to the Rhetoric." Philosophy and Rhetoric 1 (1968), pp.pp. 145–164. Stump, Eleonore. Boethius's De topicis differentiis. Ithaca, N.Y., 1978.

يلقى بوئيوس الضوء على الجدل والبلاغة والموضوعات

Tallmon, James M. "How Jonsen Really Views Casuistry: A Note on the Abuse of Father Wildes." The Journal of Medicine and Philosophy 13 (1994), pp.pp. 103–113.

Tallmon, James M. "Casuistry and the Role of Rhetorical Reason in Ethical Inquiry." Philosophy and Rhetoric 28 (1995), pp.pp. 377–387.

Warnick, Barbara. "Judgment, Probability, and Aristotle's Rhetoric." Quarterly Journal of Speech 9 (1989), pp.pp. 299–311

يُفضّل أن يبدأ المهتم بالاستزادة من المعرفة حول العلاقة بين البلاغة والحكمة العملية بمقال ورويك.

تأليف: James M. Tallmon

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

الاستعارة الضرورية Catachrēsis (باللاتينية abusio)

هذا الأسلوب البلاغي وصفه كينتليان بالاستعارة الضرورية، فتعبيرات مثل "قدم جبل" أو "رقبة جيتار" تقوم في لغة من اللغات بسبب قصورها في إيجاد مصطلحات مناسبة، وعلى الرغم من أن هذه الطريقة أحيانا توسم بأنها انتهاك للغة؛ فإنها طريقة جيدة لتعديل قاموس اللغة ليستجيب للمجالات المعرفية الجديدة، كما هو الحال مثلا في تعبير "الشفرة الجينية". ويمكن تحقيق غرض بلاغي من هذا الاستخدام بتحويل انتباه المتلقي للمعنى البديل للاستعارة الضرورية ليشعر أنها استعارة على الرغم من دقة استخدامها.

[انظر: Figures of speech; Metaphor].

تأليف: Richard Nate

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التوازي التقابلي Chiasmus

كانت الكلمة اليونانية chiasmus في تراث علم البلاغة المتأخر كلمة مستخدمة لوصف الأدوات التي لها علاقة بترتيب الوحدات النحوية داخل العبارة، وهي ترتيب متقابل لأزواج متقابلة من المفردات.

انظر المعادلة التالية مثلا: لنفترض أن المتوالية المتوازية (A) و(A')، تتكون من العناصر (a) و(b) يكونان (A) وa' وb' يكونان (A')، وهي عناصر متعادلة وظيفيا وشكليا، سيكون توزيعها في الخطاب على شكل سلسلة كما يلي:

المتواليات: $A /*/ A'$

العناصر: $a\ b /*/ b'\ a'$

([He] Escapes the rage and the fear [he] awaits).

(لقد نجا من الغضب والخوف اللذين ارتقبهما)

يمكن الملاحظة من خلال توزيع العناصر التي تشكل كل توازٍ تقابلي أن هناك توازيا مكانيا لكل عنصر في آخر المتعادلة من ناحية وبين العناصر الموجودة في الوسط من ناحية أخرى. [انظر أيضًا: Antithesis; Epanodos; Figures of speech; Poetry; Style].

مصادر ومراجع

Lanham, R. A. *A Handlist of Rhetorical Terms*. Berkeley, 1991.

Lausberg, H. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. P. 723: Munich, 1960.

Mayoral, J. A. *Figuras retóricas*. pp.Pp. 170–171. Madrid, 1994.

Morier, H. *Dictionnaire de Poétique et de Rhétorique*. Paris, 1981.

تأليف: José Antonio Mayoral

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

البلاغة الصينية Chinese rhetoric

إذا كنا نصف البلاغة بأنها خطاب إقناعي وأداة رمزية تستند إلى اللغة أساسًا فليس هناك مصطلح في الصينية يدل على هذا المعنى، ومع ذلك فإن الصينيين مارسوا أنواعا مختلفة من الخطاب وأنتجوا مقالات وكتبا وأعمالا نظرية يمكن التعامل معها باعتبارها بلاغة. ما زال البحث في تراث البلاغة الصينية في بداياته، ويعكس هذا المقال هنا التطور غير المتناسق للعلم في التركيز على المرحلة المبكرة والأصوات المؤثرة. المادة الموجودة في تراث البلاغة الصيني كما هو الحال في تراثات أخرى تعكس تفاوتًا في تعليم الجماعات الاجتماعية المختلفة والسلطة والعاصمة الثقافية. فقد حافظت الصفوة المتعلمة على خط مستمر من كتب التاريخ وإعادة إنتاج كلاسيكيات هذا الخط بشكل مستمر، كما طبع البوذيون والطاويون تواريخهم وسيرهم ونصوصهم المقدسة وحافظوا عليها، كما كان من الممكن للأسر الغنية أن تمتلك مكتبات كبيرة وتنشر كتب الأقارب والأصدقاء، أما الأصوات الأخرى فقد كان من المحتمل سماعها في ثنايا تلك النصوص، وفي أحيان قليلة وصلت إلينا من خلال حوادث تاريخية.

يتسق مع هذا الانحياز أن أول معارفنا بالخطاب في الصين تأتينا من خطب الملوك والولاة الموجودة في الشانج شو، وهو كتاب التاريخ، (من ترجمة برنارد كارلجرين ١٩٥٠)، وترجع بعض تلك النصوص إلى القرون المبكرة من عصر التشو الغربي (١٠٩٩ - ٧٧١ قبل الميلاد). إثبات أهلية الشخص للحكم وإقناع الشعب بالخضوع اهتمامات ملحة تبرز في تلك الخطب ونبرتها الإقناعية والترغيبية والترهيبية. وفي العصر المعروف بعصر الربيع

والخريف (٧٧٠ – ٤٧٦ قبل الميلاد) وفي عصر الولايات المتحاربة (٤٧٥ – ٢٢١ قبل الميلاد) تحول المجتمع الصيني في السهل الوسيط من نظام حكم نصف إقطاعي لنظام المدن الإقطاعية ذات التنظيمات الإدارية والعسكرية البدائية والحياة الحضرية البسيطة وبعض من التعليم الرسمي بالإضافة لقدر من تداول النصوص حول المجادلات الأخلاقية والسياسية المستعرة في تلك المرحلة. وظهرت البلاغة كطريق للحراك الاجتماعي كما ظهر أيضا "المقنعون الجائلون" الملقبون بـــ"يو شوي" والذين تنقلوا من بلاط لبلاط طلبا للعمل كمستشارين. وتخصص بعضهم في الفنون اللغوية، وقد أعجب الناس بهم وانتقدوهم في الوقت نفسه لمهارتهم الأسلوبية ولقدرتهم على المحاججة دفاعًا عن أمور متعارضة وإثبات المتناقضات، تسببت تلك الظروف الاجتماعية والسياسية في ظهور عدة جوانب إقناعية ظلت تستخدم لقرون تلت. منها "شانج شو" للمناشير وتقديم الأمور السياسية لأهل السلطان و"شوي"، ويتناول عمليات الإقناع وجها لوجه التي تكون مع شخص واحد و"يي" الجدل في أمور السياسات و"بيان" للجدل في الأمور المجردة و"إيون" المقال الحجاجي.

اهتم المشرع هان فيتسو (٢٨٠ – ٢٣٣ قبل الميلاد)، الذي قدم تحليلاً عميقًا ومفصلاً للمتلقي ولإمكانيات تطويعه وبناء جسور الثقة معه بالحجاج وجها لوجه. في حين أن أشمل المعالجات وأكثرها نظرية للتشوي هو كتاب "Kuei ku - tzu"، وهو كتاب غير معروف المؤلف أو تاريخ التأليف، ترجمه إلى الإنجليزية توماس كليري بعنوان "رعد في السماء: حول اكتساب السلطة وممارستها" (بوسطون ١٩٩٣). يسهب الكتاب في وصف هذا التوجه المهتم بالمتلقي، ويؤصله بشكل واضح في كتابات دوائر الين يانج yin-yang المتبادلة والأنماط المعرفية التي تقوم على إدراك أنواع التغير.

شجع التوجه الكونفوشي المبكر للتوشي - منذ القرن الخامس إلى القرن الثالث قبل الميلاد - التأقلم في الخطاب، ولكن من خلال اتجاهات محددة مجتمعيا كمكانة كلٍّ من المتكلم والمخاطب الاجتماعية، وقدرة المتلقي على الاستقبال، والموضوع، والمناسبة. تحت تلك المعايير الاجتماعية تكمن معايير أخلاقية للحياة الإنسانية، فالمعايير الأخلاقية عند الكونفوشيين أصيلة في بنية الكون نفسه، ويمكن ترجمتها عند المتكلم بمعيار الأمانة. ولكنها في هذا السياق لا تعني الأمانة المطلقة بل اتساق المتكلم مع مسألة واقعية أخلاقية وتعبيره عنها. ولم تكن الممارسات البلاغية مختلفة عن غيرها من الشؤون الإنسانية في حاجتها للتهذب والاتساق والأمانة. كما لم تكن مناقشات أتباع كونفوشيوس البلاغية منفصلة عن السياق الأوسع للمناقشات الثقافية والسياسية والأخلاقية والمعرفة (انظر هسون تسو الفصلين ٢١ و٢٢ من ترجمة جون كنوبلوك، ستانفورد ١٩٨٨ وهونج كونج ١٩٨٤).

قدم الموهيون المتأخرون (الذين نشطوا في أواخر القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد) تقابلاً صريحًا مع هاتين المقاربتين للوشي. فقد وضعوا إجراءات معقدة في سلسلة رسائل علمية، حُفظت لنا في كتاب "مو تسو *Mo - tzu*" هدفها تفسير الخلافات وحلها والجدل وعمليات التسمية والتحليل اللغوي وصناعة القرار الأخلاقي، وهذه الإجراءات مستقلة تماما عن أي جمهور. من الواضح أن تلك الأعمال لم تتمتع بقدر كبير من التأثير، وأُهملت بعد قرون قليلة ليعتريها الفساد لدرجة أنه لم يعد من الممكن قراءتها إلا بعد عملية الجمع المهولة التي قام بها جراهام، والتي نشرها في كتاب "المنطق والأخلاق والعلم عند الموهيين المتأخرين" (هونج كونج، ١٩٧٨).

كان توحيد الإمبراطورية هو بداية العصر الإمبراطوري في الصين، فقد أدارت بيروقراطية مركزية معقدة لألفيتين متواصلتين مساحة شاسعة من

الأراضي، وقد أدى هذا إلى الاعتماد على النصوص المكتوبة والقنوات الرسمية في التواصل. على الرغم من أن الإمبراطور من الناحية النظرية كان يحكم بشكل مطلق فإن كل أسرة كانت منهمكة في تدبير آليات التحكم في العامة من ناحية، والتوصل لاستجابات وتعاون الصفوة من ناحية أخرى. كان للصفوة قوة سياسية وثقافية كبيرة؛ ولذلك فقد كانوا يتمتعون بأهمية من الناحية البلاغية؛ ليس فقط لكونهم متلقي الخطاب، ولكن لكونهم من أبرز منتجيه في الوقت نفسه. ففي حقبة الهان (٢٠٦ قبل الميلاد إلى ٢٢٠ ميلاديا) مثلا كانت المناقشات السياسية تقع داخل البلاط مؤسسة. ويمكن الحصول على مثل واضح من القرن الأول قبل الميلاد، في كتاب هوان كوان "ين فياه لون Yen t'ieh lun" الذي ترجمته جيل إيسون بعنوان "مناقشات الملح والحديد"، ونشرته في بايبيه عام ١٩٦٧، وكان حكم الإمبراطور على أي مناقشة في حد ذاته وثيقة حجاجية تسرد أسباب اقتناعه. ولكن قرار الإمبراطور نفسه لا يأتي آخر الكلام حول أي موضوع؛ فقد كان مثل هذا الجدل يستمر بشكل غير رسمي من خلال التماسات ومذكرات ترفع للإمبراطور، يليها تعليق من الإمبراطور ثم تعميم على الكتبة.

ولكن عندما بدأت وسائل الإقناع عند أتباع كونفوشيوس تتسيد في عصر الهان بدأت أنواع الإقناع الأقل وضوحا تستخدم باعتبارها وسائل تطويعية، فقد آن للتاريخ أن يُكتب ويُقرأ لدروسه الأخلاقية، وهو تصور ممتد إلى يومنا هذا. كما نظر الناس أيضًا إلى الشعر بوصفه أداة تعليمية أيضا، وبخاصة أقدم دواوينه المعروف باسم "تشين شانج *Shih ching*" الذي ترجمه أرثر ويلي تحت عنوان "كتاب الأناشيد" ونشره في لندن ١٩٣٧، على الرغم من اختلاف الآراء حول كيفية تأثيره في متلقيه، انظر في ذلك كتاب ستيفن أوين "قراءات في الفكر الأدبي الصيني" المنشور عام ١٩٩٢. كان أول تحدٍ للنظرة الأخلاقية للأدب عمومًا والشعر خصوصًا على يد تساو بي (١٨٧ -

٢٢٦) الذي تعامل مع الكتابة باعتبارها وسيلة للحصول على الشهرة والخلود، وبعد ذلك نظر الأدباء للأدب باعتباره وسيلة التعبير الأصيل، ولكن وجهة النظر التي تقول بأن الأدب يجب أن يعكس مفاهيم عصره وأخلاقه ظلت مسيطرة حتى القرن العشرين، ولذلك فكل إنتاج أدبي يجب أن ننظر إليه باعتباره حجة بلاغية.

ولكن في فترة الهان ترسخ وضع اللغة الصينية الكلاسيكية بوصفها لغة أدبية، بعد أن كانت لغة محكية. وحتى القرن العشرين كانت الكلاسيكية الصينية هي لغة الوثائق الرسمية ولغة تأليف النخبة في طول الإمبراطورية وعرضها، كما كانت متطلبًا أساسيًا من متطلبات التعليم. هذه الاستمرارية اللغوية سبب أساسي من أسباب التناص في الأدب الصيني الذي من بين أسبابه الأخرى التراث الكلاسيكي، وهو التراث الذي كان يُحتم على المتعلم بداية من القرن الحادي عشر أن يحفظ عن ظهر قلب هذه الكتب الكلاسيكية، وأيضا الاعتماد عليها في امتحانات الخدمة العامة التي بدأت منذ أسرة التانج (٦١٨ – ٩٠٧). وعلى الرغم من تكريس التراث الصيني هذا فإنه فتح مكانا للحجاج حول العقائد بخلق حاجة للتعليق، وبذلك ظهرت عمليات إعادة التفسير.

هناك ظاهرة بلاغية أخرى ازدهرت في عصر الهان؛ وهي جمع الأمثلة النموذجية لجنس ما؛ فسجلات التشان كوا تسي التي ترجمها جيمس كرامب لأكسفورد عام ١٩٧٠، تحتوي على مئات النصوص الإقناعية من مرحلة الإمارات المتحاربة، وكان من بين الأنواع المجموعة نصوص إدارية ومقالات وتعليقات لطيفة وردود وزارية على منطوقات ملكية، ومن المفترض أن تلك الأنواع قد دُرست على مر العصور.

كثيرًا ما يوصف عصر التفكك (٢٢١ - ٥٨٩) - الذي يُسمَّى أيضا بعصر الأسر الست - بأنه كان عصر الكتابة الفنية الجميلة، يدل عليها ظهور نمط أسلوب كتابة يتسم بالجمالية والفنية، هو نمط "بلان تي وان"، وظهور مصطلحات النقد الأدبي وتصنيف الكتاب بحسب تلك المصطلحات وتطور نظريات النثر، وظهور كتب المختارات؛ مثل كتاب "مختارات الأدب الرفيع" الذي ترجمه ديفيد كنيختاجز في ثلاثة مجلدات من عام ١٩٨٢ إلى ١٩٨٧ إلى ١٩٩٦. ولكن الأبعاد النظرية لتلك الأعمال كثيرًا ما تختفي عندما ننظر إليها على أنها أعمال أدبية بحتة. فكتاب "فن الرسالة" الذي كتبه لو تشي (٢٦١ - ٣٠٣) وترجمه هوجلز في نيويورك عام ١٩٥١، كثيرًا ما يُنظر إليه على أنه رسالة في الشعر مع أن المقال يحتوي على تنظير في جميع الأنواع، ينطبق نفس الكلام على كتاب "هوين هسين" للكاتب ميو هسيه (٤٦٥ - ٥٢٣)، وهو كتاب غريب وغير مؤثر أعيد اكتشافه وترجمته في القرن العشرين إلى الإنجليزية في تيبيه سنة ١٩٧٥. اعترف ليو مثل كل كتاب عصر الأسر الست والتانج بوجود فصل بين الكتابات المقفاة والكتابات غير المقفاة، وعرف كل نوع من الكتابة يندرج تحت الطرفين الكبيرين، وفق معاييره النقدية، وقدم أمثلة للمتدربين. ولكنه ركز في النصف الثاني من الكتاب على المسائل الابتكارية، وعملية الكتابة، وأنماط تنسيق كل الكتابات بغض النظر عن نوعها.

يجدر بنا هنا أن نذكر الإسهامات البوذية في البلاغة الصينية. دخلت البوذية الصين في القرن الأول الميلادي، ووصلت أوج مجدها في عصر التانج، أدخل البوذيون الصينيون أنواعا جديدة، تبنى الكونفوشيون والتاويون بعضها، من بين تجديداتهم كان فن الوعظ ومحاضرات السوترا والقص المشفوع بالصور والحجاج الصوري الديني وتسجيلات المحادثات. وكانت

تلك الأنواع تكتب بالعامية متسقة في ذلك مع أصلها الشفاهي، ولكن المسألة اللغوية عند التانج والسونج (٩٦٠ - ١٢٧٩) بالنسبة للمثقفين لم تكن مسألة عامية في مقابل فصحى، بل كانت مسألة إن كان من الممكن أن تكتب الصينية الكلاسيكية الفصحى بالأسلوب الموازي المعاصر أو بالأسلوب القديم كما كان يريد المثقف المشهور هان يو (٧٦٨ - ٨٢٤). كانت هذه مسألة عقدية وأخلاقية بالنسبة للكونفوشيين في تلك المرحلة، ولما كانوا يفترضون أن هدف الأدب هو كشف الطاو أو الطريق الصحيح، فإن الكتابة التي يعتمدها الكاتب كانت تعكس شخصيته وفهمه، ولذلك كتب حكماء الماضي بالــ"كوان" ولما كان الأدب يؤثر على متلقيه ولذلك فعلى الكاتب أن يتعمق في دراسة نصوص "كو وين"، ويستبطن نثرها، ويستخدمه في كتاباته، ويغير المجتمع بهذه الطريقة.

وبالتوازي مع الجدل بشأن الأسلوب الصحيح كان هناك تراث من كتب التعليم، منذ أسرة التشين (٢٦٥ - ٤٢٠) حتى القرن العشرين. كان هناك تراث من كتب تعلمك كيف تكتب أنواع النثر والشعر المختلفة، كما ظهرت كتب فن الرسائل لتلبي الاحتياجات العملية. وكثيرًا ما كانت تحتوي على أمثلة، كما قُدِّمت تعليمات بشأن كيفية صناعة تلك النصوص في كتب العائلات التي كانت قد بدأ توارثها مع أسرة التانج. إضافة إلى وجود تعليمات بشأن كيفية كتابة التقارير الرسمية والرسائل في أواخر كتيبات إرشاد الموظفين. كما كانت هناك بالطبع كتب تعلم كتابة مقالات الوظيفة العامة، تلك المسماة بالمقالات ثُمانية الأرجل مشفوعة بعدد من المقالات الناجحة. وأضعف إلغاء الامتحان في عام ١٩٠٥، وحركة نشر العامية في القرن العشرين، وإدخال التعليم على النظام الغربي من تأثير البلاغة الصينية التقليدية؛ لأن نصوصها أصبحت أقل قابلية للفهم بالنسبة للفرد الصيني المتعلم العادي مما كانت سلفًا.

مازال تراث البلاغة الصيني أرضا خصبة للبحث، لدرجة أنه ليس هناك مرجع شامل لهذا التراث. ولذلك فعلى كل من يهتم باكتشاف هذا التراث أن يرجع إلى كتب الفهارس، وخاصة بيبليوجرافيا "البلاغة" في كتاب "دليل الأدب الصيني التقليدي" الذي حققه ويليام نينهاوزر المجلد الأول سنة ١٩٨٦، والمجلد الثاني ١٩٩٨. كما أن فصول الكتاب بداية جيدة لمعرفة الترجمات المتاحة باللغات الغربية والكتابات التي كتبت عنها، ولكن القارئ الذي يعتمد على الترجمات والمراجع الثانوية يجب أن يضع في اعتباره أن الترجمات والاختصارات قد لا تكون متفاعلة مع النصوص البلاغية الصينية بشكل كاف، كما أنها قد تعرِّف البلاغة بشكل ضيق جدا باعتبارها الصور البلاغية فقط، كما على القارئ أن يدرك أن إعادة بناء النصوص الصينية فن حديث نسبيا ويتطور بسرعة كبيرة. [انظر أيضًا: Comparative rhetoric].

مصادر ومراجع

Garrett, Mary M. "Reflections on Some Elementary Methodological Problems in the Study of Chinese Rhetoric." In *Rhetoric in Intercultural Contexts*, edited by Alberto Gonzalez and Dolores Tanno, pp.pp.53 – 63. International and Intercultural Communication Annual, vol. 22. Thousand Oaks, Calif., 1999.

Henderson, John B. *Scripture, Canon, and Commentary: A Comparison of Confucian and Western Exegesis.* Princeton, 1991 .

مناقشة مستفيضة لنشوء التعليق على النصوص ووظيفته، وهو جنس بلاغي مهم في التراث الصيني.

Loewe, Michael, ed. *Early Chinese Texts: A Bibliographical Guide.* Berkeley, 1993.

مرجع ممتاز لتاريخ النصوص وللترجمات والمصادر الثانوية لنصوص ما قبل الهان ونصوص الهان.

Norman, Jerry. *Chinese.* Cambridge, U.K., 1988.

وصف كامل للتطور التاريخي للغة الصينية والخط الصيني، كما يغطي الكتاب أيضا بعض المسائل اللغوية ذات الصلة.

Lu, Xing. *Rhetoric in Ancient China, Fifth to Third Century B.C.E.: A Comparison with Classical Greek Rhetoric.* Columbia, S.C., 1988.

مقدمة جيدة للتصور التقليدي عن فترة ما قبل الهان.

Online Resources

Elman, Benjamin, comp. "Classical Historiography for Chinese History". **http://www.sscnet.ucla.edu/history/elman/ClassBib/**. Updated Summer 1999.

تأليف: Mary M. Garrett

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

Classical Rhetoric البلاغة الكلاسيكية

التعريف التاريخى للبلاغة الكلاسيكية هو مجمل التعاليم والتطبيقات البلاغية اليونانية والرومانية— التى تصل إلى آلاف الصفحات المطبوعة— منذ عصر ملاحم هوميروس Homer وهيسيود Hesiod حتى السفسطائيين والخطباء والفلاسفة فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد؛ والخطباء والكتاب الرومانيين بداية من القرن الثانى قبل الميلاد؛ والخطب والمواعظ والشعر الخطابى والكتب الإرشادية عن التأليف التى تعود إلى عصر الإمبراطورية الرومانية. أفضل وسيلة لتعريف هذه التعاليم والممارسات هى مقارنتها بالتقاليد البلاغية للثقافات غير الغربية والنظريات والممارسات البلاغية فى ثقافات العصور الوسطى وعصر النهضة والعصور الحديثة فى الغرب التى اختلفت فى تطبيقها عن البلاغة الكلاسيكية (انظر البلاغة المقارنة وبلاغة العصور الوسطى والبلاغة الحديثة وبلاغة عصر النهضة). إن التعريف النظرى للبلاغة الكلاسيكية هو أنها مجموعة منظمة وشاملة من المعارف هدفها الرئيسي هو تدريس الخطابة، على نحوما تم تصورها بين القرن الرابع قبل الميلاد والعصور الوسطى. ويمكن القول إن تدريس وتطبيق هذا النظام قد استمر منذ ذلك الحين بشكل من الأشكال فى الحضارة الغربية وقد اتسعت دائرته فى كثير من الأحيان من التركيز على الكلام إلى التركيز على الكتابة وحتى الشعر. وقد قدم السوفسطائيون وأفلاطون وإيزوقراط وأرسطو وفلاسفة الفترة الهيلنستية والنقاد منذ عصر الإمبراطورية الرومانية اسهامات لهذه النظرية، ولكن كتابات شيشرون السوفسطائيون

و"البلاغة إلى هيرينيوس" "Rhetoric to Herennius" (المجهولة المؤلف) و"تعليم الخطيب" "Education of the Orator" لكيينتيليان كانت المصادر الرئيسية لهذا التراث الغربى الكلاسيكى. وعلى الرغم من اتساق خطوطه الأساسية والكثير من مبادئه وبعض مصطلحاته المتخصصة، فإن هناك اختلافات كثيرة فى التفاصيل بين البلاغيين الكبار. وعلى ذلك فهناك اختلافات مهمة بين ما درسه الكتاب الرومانيون وبين نظرية البلاغيين الإغريق التى نقلها الدارسون البيزنطيون إلى عصر النهضة. لقد اعتبر الغربيون البلاغة الكلاسيكية بلاغة عالمية لاعتبارهم أنها نظرية مكتملة التطور عن الخطاب الإنسانى من الممكن أن تطبق فى كل مكان وزمان، وإن كانت تحتوى على بعض خصائص المجتمعات القديمة التى كانت تتحدث اليونانية واللاتينية وتتجاهل، على النقيض، بعض الظواهر البلاغية الموجودة فى ثقافات أو فترات أخرى. سوف تتبع هذه المقالة تطور التعاليم والتطبيقات البلاغية فى بلاد اليونان وروما، كما ستشرح البلاغة حسب تقليد شيشرون وبعض التنويعات الكلاسيكية الأساسية عليه.

كانت البلاغة الكلاسيكية فى مجملها ظاهرة ذكورية. لقد نشرت فى الآونة الآخيرة دراسات كثيرة قيمة عن النساء فى العصور القديمة وأصبح الآن نشاطهم الذهنى مفهوما أكثر ولكن لا توجد كتابات عن بلاغة للنساء فى العصور القديمة. لقد كانت هناك شاعرات شهيرات، لكننا لا نعرف سوى اثنتين منهن لأن لهما آثارا مهمة، وهما صافو Sappho الإغريقية التى كتبت فى بداية القرن السادس قبل الميلاد والرومانية سولبيسيا Sulpicia وهى من الفترة الأغسطية. وقد كانت بعض النساء تذهب إلى مدارس الفلسفة، ولكن ليس هناك مثال معروف لامرأة تعلمت البلاغة أو درستها. لم يكن مسموحا للنساء أن تتكلم فى المحاكم ولا فى المجالس السياسية فى بلاد اليونان ولا فى

روما، بل اقتصرت خطابة النساء على عدد محدود من الملكات التى كانت تحكم باسمها فى أجزاء من آسيا الصغرى أو فى مصر التى كانت تتحدث اليونانية. ولكن هناك خطبًا كثيرة نسبت لنساء فى الكتابات الأدبية باليونانية واللاتينية وهو ما يدل على قدر من الاعتراف من جانب الكتاب الرجال بأن النساء تستطيع التعبير عن نفسها بشكل فنى ومقنع (كانت النساء مؤثرات كمتكلمات فى مسرحيات يوريبيديس Euripides وأرسطوفانس Aristophanes وفى الأشعار اللاتينية لأوفيد Ovid). وهناك أيضا فى كتابات المؤرخين مجموعة من الرسائل نسبت لنساء ربما يكون لها أصل فيما قلناه بالفعل ومن هذه الأمثلة خطب نسبها هيرودوت Herodotus(٨,٦٨ و١٠٢) إلى أرتيميسيا Artemesia ملكة كاريا وأخرى نسبها آبيان Appian(٤,٣٢,٣٤) للسيدة الرومانية هورتينيزيا Hortenesia. وفى محاورة منكسينوس Menexenus لأفلاطون يستشهد سقراط بخطبة جنائزية يقول إنها لأسباسيا رفيقة بريكليس، وفى "المأدبة" يذكر محادثة طويلة عن الحب الفلسفى يزعم أنه تعلمها من كاهنة اسمها دايوتيما؛ ولكن يحتمل أن يكون النصان من تأليف أفلاطون.

يدل الأدب الإغريقى فى الفترة القديمة والفترة الكلاسيكية المبكرة (من القرن الثامن إلى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد) على أن المجتمع كان يعطى قيمة كبيرة للخطاب الفصيح والمقنع، وأنه كان يحب المناظرات القوية لدرجة التسامح في قبول الهجوم الشفوى على الأشخاص أكثر مما كان مقبولا فى الكثير من المجتمعات القديمة الأخرى.

بدايات البلاغة الكلاسيكية

كان الكثير من الأعراف التى تحولت فيما بعد إلى قواعد فى كتب البلاغة مستخدمة فعلا منذ وقت مبكر، كما توجد أمثلة من الشعراء القدامى ذكرها أرسطو وكتاب آخرون على هذا الفن، وهى تتضمن أساليب عقلية

وأخلاقية وعاطفية، وأيضا ترتيب الخطب الرسمية وفق الأجزاء المنطقية واستخدام المتحدثين المختلفين للأساليب المختلفة أو فى المناسبات المختلفة وتزيين الخطب باستخدام البديع والمجاز. ومن أكثر الفقرات توضيحا لذلك خطب مبعوث أخيلوس (فى الإلياذة) واجتماع الأتيكيين الذى دعا إليه تليماخوس (فى الأوديسا ٢)، ومحاكمة هيرميس على سرقة الماشية فى الأنشودة الهوميرية لهيرميس ومحاكمة أوريستيس على قتله كلايتمنسترا فى مسرحية يومينيدس Eumenides لإسخيلوس. لقد عدلت الأبجدية الفينيقية لتسمح بكتابة اللغة اليونانية القديمة فى القرن التاسع قبل الميلاد ولكن في القرن الخامس قبل الميلاد كان الأدب الإغريقى كما نعرفه فى مجمله تدويناً لمؤلفات شفوية كانت "تنشر" شفاهةً. ولكن فى النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد أصبحت الكتابة أكثر انتشارا، وأصبحت القاعدة فى التأليف هى الكتابة مما أدى إلى تطور النثر وإلى كتابة الأعمال التاريخية والفلسفية والكتابات المتخصصة فى الطب والبلاغة والسياسة. وكان لـ"ثورة الكتابة" كما يطلق عليها الآن (كما هو الحال بالنسبة لاختراع الطباعة فى القرن الخامس عشر) بعض الأثر على البلاغة بالإضافة إلى أنها جعلت تأليف كتب البلاغة والرسائل متاحا لعدد متنام من القراء. وقد أسهم انتشار الكتابة فى بلاد اليونان فى وضع معايير لغوية ومعايير لسلامة النحو، كما ساعد أيضا فى فهم الحجاج المنطقى المركب الذى كان سيصعب فهمه شفويا. وربما يكون قد شجع أيضا على استخدام الجمل الطويلة التامة والمركبة ذات الأجزاء التى بدأت فى الظهور فى ذلك الوقت.

ظهرت كلمة rhetorike، التى تعنى البلاغة لأول مرة فى محاورة جورجياس Gorgias لأفلاطون (499a5) التى كتبت حوالى ٣٨٥ قبل الميلاد. فى محادثة اعتقد أنها حدثت قبل ثلاثين عاما تقريبا، يصف جورجياس نفسه

بأنه معلم للبلاغة. وتعنى كلمة البلاغة حرفيا الفن الذى يملكه الخطيب، أى الشخص الذى يتحدث إلى الجماهير، أو السياسى، وقد نظر سقراط بعين الريبة إلى البلاغة على أساس أنها تنطوى على الملق والخداع. ولم تصبح البلاغة، تحت هذا المسمى، فرعا من فروع المعرفة يحظى بالاحترام إلا بعد أن أعطى أرسطو اهتماما جادا لها بعد سنوات عديدة من سقراط. ولكن الإغريق فى القرن الخامس وقبله كانوا على دراية بالظاهرة التى نعرفها الآن باسم البلاغة، وكانوا يشيرون إليها بلفظة تعنى "الإقناع" Peitho أو "فنون الحديث" أو أى مصطلح آخر. والكلمة "techne logos" تشير إلى كل ما يقال وقد يكون معناها "كلمة" أو كلاما أو لغة أو حجاجا أو عقلا ومعانى أخرى متصلة بهذا المعنى وفقا للسياق. يعزو شيشرون Brustus, 44 وكُتّاب لاحقون الفضل فى اختراع البلاغة (استنادا إلى كتاب مفقود لأرسطو) إلى رجلين من صقلية اسمهما كوراكس وتيسياس Corax and Tisias. وقد حدث ذلك بسبب الاحتياج إلى تعليم بعض الأشخاص، الذين كانوا أطرافا فى نزاع حول حقوق الملكية بعد طرد الطغاة وإقامة الديمقراطية فى سيراكيوز فى حوالى ٤٦٦ قبل الميلاد؛ بعض مهارات الخطابة. وكلمة "كوراكس" باليونانية تعنى الغراب، ومن المحتمل أن يكون كوراكس وتيسياس هما نفس الشخص وأن لقب الغراب أطلقه على تيسياس من يكرهون "تعيبه". وعلى الرغم من أن تفاصيل القصة غير مؤكدة، فإنه يبدو هنالك خصيصتان مهمتان: العلاقة بالنزاع والسياق الديمقراطى. لقد بدأت البلاغة الكلاسيكية كما ظلت دائما فى الأساس نظاما لتعليم الشبان أسلوب الكلام الفعال فى المحاكم، وقد أنشئت من أجل أغراض الديمقراطية القائمة على الاندماج فى المجتمع خصوصا فى أثينا. وفى ظل الديمقراطية الأثينية التى وصلت إلى أقصي أشكالها فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد لم يكن هناك مدع عام ولا محامون متخصصون، وقد كانت القضايا الجنائية شأنها شأن القضايا المدنية يترافع

فيها من له علاقة بالقضية. وكان من المتوقع فى كل من القضايا الجنائية والقضايا المدنية أن يتحدث كل من المدعى والمدعى عليه نيابة عن نفسه، ولكن إذا لم يستطع ذلك فمن الممكن أن يدافع عنه آخر. وكان لابد أن يمثل المرأة أحد أفراد الأسرة الذكور لأنه لم يكن مسموحا للنساء أن تتحدث فى المحاكم. وكانت شهادات الشهود تدون كتابة قبل المحاكمة ثم يقرؤها الكاتب، وكان يتوقع من المدعى أو المدعى عليه إلقاء خطب مكتوبة بعناية أمام المحكمة دون أى مقاطعة. ولم يكن هناك قاض يقوم برئاسة الجلسة وتفسير القانون أو يحدد الصلة بالموضوع، وإنما كان هناك فقط حاجب يقوم بتنظيم الإجراءات. وكان يتم الحكم على الحقائق والقانون بواسطة مجموعة من المحلفين عددهم لا يقل عن ٢٠١، وقد يصل إلى عدة آلاف من الأشخاص فى الحالات الكبرى، يتم اختيارهم بالقرعة من بين المواطنين الذكور. وكان تقديم مرافعة قوية أمام مثل هذا الحشد من المحلفين يتطلب قدرا كبيرا من المهارة فى الخطابة ومن الثقة. وكان بإمكان من يحتاج إلى مخاطبة محكمة وسيلتان للمساعدة بخلاف العثور على شخص يساعده: الأولى هى استخدام كاتب خطب محترف Logographos يكتب له خطبة نظير أجر يقوم بعد ذلك بحفظها عن ظهر قلب وإلقائها على أفضل نحو يستطيعه. وقد كان الكثير من مشاهير الخطباء فى القرن الرابع قبل الميلاد، ومن بينهم ليسياس وديموستينيس Lysias and Demosthenes، يكتبون الخطب نظير أجر، وقد أظهروا مهارة كبيرة فى التعبير عن شخصية الموكلين. أما الوسيلة الثانية فهى دراسة كتاب عن البلاغة القانونية ثم محاولة كتابة خطبة حسب الإرشادات التى يوضحها الكتاب وتعديل الأمثلة حتى تلائم الحالة. ذلك النوع من الكتب كان يتضمن بإسهاب النصائح التى كان يعتقد أن تيسياس قد أعطاها. وكانت هناك مجموعة من هذه الكتب متاحة فى أثينا فى نهاية القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وقد قدم أفلاطون مسحا موجزا لهذه

الكتب فى "فيدروس" "Phaedrus"(٢٦١ – ٢٦٧). لجانبين من النصائح المقدمة فى هذه الكتب أهميتهما بالنسبة إلى تاريخ تدريس البلاغة الكلاسيكية: قسمت هذه الكتب الخطبة القانونية إلى مجموعة من الأجزاء يؤدى كل منها غرضا معينا وقد بينوا أيضا كيفية إنشاء حجاج محتمل على أساس الأدلة المستند على ظروف القضية. وكان يعد الحد الأدنى لأجزاء الخطبة القانونية أربعة أجزاء (بعض المتخصصين قال بوجود أكثر من هذا العدد): جزء لجذب اهتمام القارئ وحسن ظنه بالمحلفينprooemion ، وجزء سردى narration يعطى وقائع القضية كما يرغب المتكلم فى أن تفهم، ثم إثبات رأى المتكلم بالاعتماد على الشهود والأدلة والاحتمالات contention، وأخيرا الخاتمة التى تلخص الخطبة وتحرك مشاعر المحلفين حتى يصوتوا لصالح المتكلم epilogue. كان الجزء الأكبر من هذه المواضع topoic يحتوى على مادة تصلح أن تكون مفيدة فى أجزاء منفصلة من الخطبة وقد ذكر أفلاطون أعمالا أخرى احتوت على مجموعات من الكلمات المفيدة وألوان من الحجاج ومن مخاطبة العواطف يمكن للمتكلم أن يعدلها لتلائمه.

ذكر كل من أفلاطون (فايدروس273ab) وأرسطو (البلاغة2.2.11) المثال الكلاسيكى على الحجاج القائم على الاحتمال، وهو الذى يتعلق بقضية رجل يتهم ببدء شجار. إذا كان الرجل صغيرا أو ضعيفا وخصمه كبيرا أو قويا فمن الممكن أن يقول إنه من غير المحتمل أن يكون هو الذى بدأ الشجار. وعلى النقيض، إذا كان كبيرا أو قويا فمن الممكن أيضا أن يقول إنه غير محتمل أن يكون هو الذى بدأ الشجار، لأنه من الطبيعى أن يمارس ضبط النفس لأنه يعلم أن الشكوك سوف تتوجه إليه. كثيرا ما استخدمت الخطب التى بقيت من الخطباء الإغريق والمناظرات فى المسرحيات الإغريقية الحجاج القائم على الاحتمال Argument from Probability الذى يعتمد على

وجهة النظر الإغريقية عن الدوافع الإنسانية والإحساس بأن الشخصية الأخلاقية والدوافع عادة ما تكون أساسا أفضل لتكوين الرأى عن الأدلة التى قد تكون، بل كثيرا ما تكون، ناجمة عن الرشاوى أو التزييف.

لم تبق أى من خطب الشخصيات السياسية العظمى فى أثينا فى القرن الخامس من أمثال ثيموستوكليس وأرسطيديس وبيريكليس ونيسياس وألسقيبياديس وآخرين فى صورتها الأصلية. ولكن مع هذا توجد شهادات على فصاحتهم ثيوسيديديز Thycidedes الذى استمع إلى الكثير منهم وهم يتحدثون ضمن خطب نسبها إلى بريكليس وغيره فى "تاريخ الحرب البيلبونيزية" "History of the Peloponnesian War"، أشهرها وأفصحها نسخة الخطبة الجنائزية التى ألقاها بريكليس Pericles فى ذكرى من ماتوا فى السنة الأولى للحرب.

السوفسطائيون

كان هناك لون آخر من التدريب على البلاغة يعطيه نظير أجر معلمون متجولون سموا السوفسطائيين Sophists (أى الخبراء) زاروا أثينا فى النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد وجذبوا اهتمام صغار الأرستقراطيين. وقد قيل إن بعض السوفسطائيين كتبوا كتبا من النوع الذى ذكرناه سابقا، ولكن تعليمهم للبلاغة أخذ فى الأساس شكل إعطاء الأمثلة التى كانت خطبا عن موضوعات ميثولوجية وتاريخية وفلسفية تلقى لإعطاء مثال على أنواع الحجاج وأمثلة للتجارب الأسلوبية. كان الطلاب ينصتون إلى هذه الخطب ويستذكرونها وهى مكتوبة ثم يحاولون تقليدها عند الكتابة والكلام. لقد حاول السوفسطائيون إعطاء نوع من التعليم العام فى المهارات والمعرفة التى من شأنها أن تكون مفيدة لشاب مغامر فى مدينة دستورية فى بلاد

اليونان. وهم لم يفرقوا بين المجال الذى أطلق عليه اسم البلاغة وبين أنواع المعرفة الأخرى التى يمكن أن تكون مفيدة [انظر: السوفسطائيون].

من أشهر السوفسطائيين بروتاجوراس Protagoras (حوالى٤٤٥ قبل الميلاد) وجورجياس (حوالى ٤٨٣ - ٣٧٦ قبل الميلاد). تحتوى محاورة أفلاطون "بروتاجوراس" على عرض مطول يقدمه السوفسطائى، هو بدون شك من تأليف أفلاطون، ولكنه يقوم فيه بتقليد طرق وأساليب السوفسطائيين. وقد حُفظت كتابات بروتاجوراس بقدرها؛ يبدأ إحداها بالعبارة الشهيرة "إن الإنسان مقياس الأشياء جميعا: الكائنة والتى تكون وغير الكائنة والتى لم تكن". وهى عادة ما تفهم على أنها تبين النسبية الفلسفية أو الشك الذى يتّجلى أيضا فى رسالة جورجياس "عن الطبيعة أو ما ليس بموجود". هذا العمل الأخير لا يزال موجودا فى شكل مختصر وهو يهدف أولا إلى توضيح ألا شىء موجود وإن وجد شىء فلا يمكن فهمه عن طريق العقل الإنسانى: وثالثا أنه إذا تم فهم أى شىء فلا يمكن توصيله من شخص إلى آخر. كانت هذه الأفكار مثيرة بالنسبة للشبان المتطرفين ولكنها كانت صادمة لبعض المحافظين الأكبر سنا كما صور ذلك أريستوفانيس فى مسرحيته الكوميدية "السحب" "The Clouds" التى قدمّت للمرة الأولى فى 423 قبل الميلاد. ولكن بقيت خطبتان قصيرتان كاملتان لجورجياس. ربما يكون قد تم تأليفهما فى العام 420 قبل الميلاد ومن الممكن أن تكون قد تمت مراجعتهما بشكل متكرر ثم تأديتهما فيما بعد. "دفاع باليميديس" "The Defense of Palamedes" وهو خطاب متخيل لبطل اتهم بالخيانة فى حرب طروادة و"مديح هيلين"، "the Encomium of Helen على الرغم من العنوان، فالعمل ليس مدحا وإنما دفاع عما فعلته هيلين عندما تركت زوجها مينيلاوس وذهبت إلى طروادة مع باريس بادئة بذلك الحرب. الخطبتان تعطيان مثالا على الترتيب الجيد للأجزاء

المختلفة على أشكال الحجاج والحيل الأسلوبية. يقول جورجياس إن هيلين لابد وأن تكون قد هربت مع باريس لواحد من أربعة أسباب: إما القدر وإرادة الآلهة، أو لأنها أخذت بالقوة، أو لأنها تم إقناعها عن طريق الكلام، أو لأن الحب غلبها، وهو يحاول إثبات أنه فى أي من هذه الحالات لا يمكن أن تلام هيلين. وهذا يعنى أنه لابد أن يجادل أن الكلام سيد له سطوة، لا يستطيع المستمع مقاومته. ويدخل جورجياس أيضا أنشودة منثورة موجهة للكلام تعد إرهاصا للمقطوعات التى تحتفى بالبلاغة عند الكتاب اللاحقين.

لقد أعطى أسلوب جورجياس النثرى المتميز لخطبه أهمية كبرى أثارت الإبهار عند قدومه إلى أثينا كسفير فى ٤٢٧ قبل الميلاد. وقد أدخل جورجياس فى الخطابة نثرا يتسم بالشعرية والإيقاع ويستخدم على نحو متكرر ما سمى فيما بعد بالمحسنات البلاغية الجورجيانية "Gorgianic Figures of Speech". وتلك المحسنات تتضمن عبارات أو جملا ونقيضها، وتكون متساوية الطول parison فى أغلب الأحيان، وتنتهى جملها بإيقاع، وبها تأثيرات من كل أنواع الموسيقي. لقد قام كتاب آخرون من هذا العصر بتقليد خصائص هذا الأسلوب بشكل محدود، ومن بينهم المؤرخ ثيويسيديدس. ولكننا لا نعلم إن كان جورجياس قد استخدم مصطلحات خاصة للحديث عن هذه الصور أو جوانب بلاغية أخرى. لقد كان أفلاطون يصوره على أنه لم يكن يفهم كثيرا ما يفعله، عاب عليه أرسطو فى رسالته "دحض السفسطة" "Sophistical Refutations" أن تعليمه للبلاغة وللجدل لم يكن منظما ولا تحليليا. ومن الممكن تتبع تقليد وسوفسطائى فى تاريخ البلاغة يتسم بالاحتفاء بالقدرة على الكلام وتفضيل أنواع المدح والذم على الأنواع البلاغية الأخرى، والحساسية الشديدة تجاه الاستخدام اللغوى والأسلوب وأيضا التدريس عن طريق الأمثلة لا القواعد. وما بين القرنين الثانى والخامس بعد الميلاد اشتهرت

ما سميت بالسوفسطائية الثانية فى مدن الإمبراطورية الرومانية التى كانت تتحدث اليونانية. وقد حصل كبار السوفسطائيين ومنهم دايو كريسوستوم وإيليوس وأريستيديس وليبانيوس وآخرون على شهرة وتأثير سياسى. ويوجد فى الصين القديمة والهند ما يشبه السوفسطائية الإغريقية التى كانت فيما يبدو من السمات المعتادة فى التطور العقلى للمجتمعات المركبة القادرة على القراءة والكتابة.

إيزوقراط Isocrates على الرغم من أن إيزوقراط (٤٣٥ - ٣٣٨) قد انتقد السوفسطائيين وسعى إلى أن يباعد بينه وبين هذه الحركة (فى الخطبة المقتضبة "ضد السوفسطائيين")، فإنه أنه يشترك معهم فى الصفات المذكورة أعلاه باستثناء النسبية الفلسفية. وفى حوالى ٣٩٢ قبل الميلاد قام بافتتاح مدرسة فى أثينا وأمضى بقية حياته يدرس فيها فنون الحياة الفاضلة والخطابة المؤثرة والقيادة السياسية لأعداد كبيرة من الشبان. كما كتب ونقّح خطبا طويلة عن موضوعات مهمة فى عصره كان يقرؤها على تلاميذه – طالبا منهم حتى أن ينقدوها – وكان عليهم أن يقوموا بتقليدها. ولكنه هو نفسه كان يفتقر إلى الثقة المطلوبة للحديث أمام الجماهير، ولهذا كان يسعى إلى التأثير على الرأى العام عن طريق نشر خطبه فى صورة كتيبات. إن إفاضته فى كل الموضوعات وجمله الطويلة المتعددة الأجزاء كانت دليلا على قدرة الكتابة التى سبق أن ذكرناها. وقد كان موضوعه المفضل هو الحلف الهيليني Pan - Hellenism فقد كان مؤمنا بوحدة ثقافة كل الإغريق على الرغم من تمزقهم فى دويلات متعددة متنازعة. تلك الفكرة هى فكرة أعظم أعماله "بانيجرايكوس" "Panegyricus" (٣٨٠ قبل الميلاد) وقد عاد إليها فى خطب تالية.

وعلى الرغم من أن إيزوقراط كان لديه الكثير ليقوله عن الكلام، فإنه لم يستخدم لفظ "البلاغة" فضلا عن أنه لم يطلق على تعليمه اسم "فلسفة". وفى بعض كتاباته يوجد نقد ضمنى لتعاليم معاصره العظيم أفلاطون (الذى لا يذكر بالاسم أبدا) باعتبارها صعبة الفهم وغير عملية. أما أفلاطون فلا يذكر إيزوقراط سوى مرة واحدة فقط فى نهاية "فايدرس" واللفتة هنا فى الغالب تهكمية. ولكن توجد فى أجزاء أخرى مواضع من الممكن قراءتها على أنها نقد لإيزوقراط الذى كان أفلاطون بدون شك يعتبره على استعداد كبير للتخفيف من فشل الديمقراطية الأثينية، وأن تفكيره غير واضح ومهتم بالمظاهر أكثر من اهتمامه بالحقيقة، كما أنه ليس فيلسوفا بالمعنى الحقيقى للكلمة.

كثيرا ما اعتبر إيزوقراط الأب المؤسس لتربية الفنون الأدبية (باليونانية Enkyklios paickia)، وعلى هذا جاءت كلمة "انسكلوبيديا" في اللغة الإنجليزية. فقد درس الإنشاء والخطابة والتفكير العقلانى والتاريخ والدين والميثولوجيا والسياسة أساسا عن طريق إعطاء الأمثلة، مثل السوفسطائيين،لا عن طريق التحليل والفهم كما فعل أرسطو. وهو لم يفرق بين البلاغة والمعارف الأخرى، وعلى النقيض من السوفسطائيين فى القرن الخامس كانت مدرسته مدرسة مستقرة فى مكان واحد، لكنها توقفت بوفاته. وعلى العكس من المدارس الفلسفية التى أسسها أفلاطون وأرسطو وزينون وأبيقور لم يكن لها خليفة. لقد قرأ دارسو البلاغة منذ عصره كتابات إيزوقراط اللطيفة المسهبة كنموذج للسلاسة فى النثر والإيقاع تم كتابتها فى جمل طويلة ذات أجزاء متعددة.

خطباء أتيكا Attic Orators

إيزوقراط هو واحد ممن أطلق عليهم خطباء أتيكا وهم مجموعة من الخطباء الأثينيين ما بين ٤٣٠ و ٣٣٠ قبل الميلاد اعتبرهم المعلمون اللاحقون ممثلين لأنقى لهجات أتيكا وأفضل نماذج يمكن أن يقلدها التلاميذ. اعتبر أن هؤلاء العشرة ممثلون لمجموعة متميزة ورفيعة جدا من الخطباء. ربما يكون سيسيليوس وهو من بلاغيي أواخر القرن الأول قبل الميلاد هو الذى ابتكر مجموع آثارهم، غير أنه لا يمكن إرجاع زمن تأليفها بثقة إلى ما قبل القرن الثانى قبل الميلاد، إذ إنها موجودة في كتاب لا يُعرف مؤلفه، هو "حياة الخطباء العشرة"، المحفوظ ضمن كتاب الأخلاق "Moralia" لبلوتارخ. لقد درست ونسخت أعمال العشر، على الأقل جزئيا ونقلت إلى العلماء البيزنطيين ومنهم إلى الغرب من بعد. وخطباء أتيكا حسب الترتيب الزمنى هم:

١- أنتيفون Antiphon (٤٨٠ - ٤١١ ق.م) سياسي أثينى، أعدم لدوره فى ثورة ضد الأوليجارشية فى ٤١١ق.م؛ بقيت له ثلاث خطب عن جرائم قتل، بالإضافة إلى بعض الشذرات وأجزاء من كتابات فلسفية. "والرباعيات"، التى عادة ما تنسب إليه، من المحتمل أن تكون قد ألفت بعد موته بقرن كنماذج للحجاج القضائى فى جرائم القتل.

٢- ليسياس Lysias (٤٤٥ - ٣٧٨ قبل الميلاد) من بين أكثر من مائتين خطبة بقى له أربع وثلاثون، ثلاث منها ربما تكون منحولة. ومعظم هذه الخطب كتبت ليلقيها الموكلون فى ساحات المحاكم، ولكن خطبته الشهيره "ضد إراتوثنيس" تتعلق به وبأسرته. كان ليسياس، من وجهة نظر النقاد اللاحقين النموذج الكلاسيكى للأسلوب البسيط وللتصوير الفنى لشخصية المتكلم.

٣- أندوسيدس Andocides (٤٤٠ - ٣٣٨ قبل الميلاد) لم يكن بلاغيا محترفا. بقيت له ثلاث خطب كلها متعلقة بأنشطته السياسية.

٤- إيزوقراط Isocrates (٤٣٦ - ٣٥٠ قبل الميلاد) تمت مناقشته

٥- أيزيوس Isaeus (٤٢٠ - ٣٣٨ قبل الميلاد) بقيت له اثنتا عشرة خطبة كلها متعلقة بقضايا.

٦- أيشينز Aeshines (٣٩٧ - ٣٢٢ قبل الميلاد) كان فى الأصل ممثلا ثم خصما سياسيا متوهجا لديموثنيس. ألف ثلاث خطب قانونية طويلة.

٧- ابيريديس Hyperides (٣٨٩ - ٣٢٢ قبل الميلاد) عثر له فى القرن التاسع عشرعلى أجزاء من ست خطب مدونة بإحدى البرديات. وكان كاتبا ماهرا، ولكنه من الشخصيات السياسية الصغرى.

٨- ديموثينيس Demosthenes (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) أعظم الخطباء الإغريق وهو فى رأى كثير من النقاد أعظم الخطباء السياسيين فى كل العصور. مشهور بأنه متعدد الجوانب وبطاقته الهائلة، وهو أستاذ الأسلوب الرفيع. كان من السياسيين المحافظين حاول أن ينبه الأثينيين إلى خطر مقدونيا فى خطبة "أوليثياكس" و"فيليبيكس". وتُعد خطبته "حول العرش" هى دفاعه البليغ ضد التهم التى وجهها أيشينز. تنسب إليه ستون خطبة موجود منها إحدى وأربعون خطبة قضائية والبقية خطب تتعلق بأمور راهنة وبعض الرسائل، وهى فى الغالب أصلية.

٩- لايكورجاس Lycurgus (٣٩٠ - ٣٢٤ قبل الميلاد) رجل دولة أثينى محافظ ومسئول مالى. له خطبة واحدة باقية بعنوان: "ضد ليوكراتيس" تتعلق بتهمة خيانة.

١٠- دينارخوس Dinarchus (٣٦٠ - ٢٩٠ قبل الميلاد) له ثلاث خطب باقية ومرافعات نتجت عن اتهام كاذب لديموستين وآخرين بقبول رشوة من هاربالوس خازن الإسكندر الأكبر.

أفلاطون Plato كان أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧ قبل الميلاد) بلاغيا من الطراز الأول كما يتجلى فى رسم الشخصيات والأحاديث والأساطير المتضمنة فى حواراته. والكثير من تلك الكتابات ومنها بروتاجوراس والمائدة وميتيكسينوس والجمهورية والقوانين لها أهمية بالنسبة الى البلاغة، أما المحاورتان: جورجياس (٣٨٥ ق.م) وفيدروس (٣٧٥ ق.م أو بعدها) فتركزان أساسا على موضوع البلاغة. فى جورجياس، المتحدث بلسان أفلاطون، وهو سقراط، ينتقد بشدة البلاغة المعاصرة ويصفها بأنها نوع من الملق والخداع، يشبه إضافة البهارات إلى الطعام الفاسد ليصبح طيب المذاق. ولكن فى فايدر ويرسم بلاغة فلسفية إذا ما تم اتباعها فإنها تؤدى إلى الحقيقة إلى تعليم الأخلاق للجمهور. ولتحقيق هذا لابد أن يعرف الخطيب الحقيقة ولابد أن يفهم التفكير المنطقى والنفسية البشرية حتى يصبح "مرشدا للروح" "leader of the soul" بأن يعدل ما يقال حتى يتناسب مع أذهان المستمعين. وفى فقرة شهيرة يقول سقراط إن الخطبة الجيدة لابد أن تتسم بالوحدة العضوية شأنها شأن الجسم البشرى ويجب أن تتماسك كل أجزائها لتؤلف وحدة واحدة. وتنتهى المحاورة بأسطورة ثيوث theuth، والتى تصف الآثار السيئة للكتابة التى ستدمر الذاكرة والتى، لا تستطيع خلافا للمحاورة الشفهية الرد على نقادها.

أرسطو Aristotle

كان أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) من أهل ستاجيرا فى شمال اليونان، وكان تلميذا فى أكاديمية أفلاطون لمدة عشرين عاما بدأت فى ٣٦٧ قبل الميلاد. كانت هذه الأكاديمية معهدا للدراسات الفلسفية العليا وتقع على أطراف أثينا. فى تلك الفترة ألف بعض المحاورات الفلسفية (لم تبق أى منها) من بينها محاورة عن البلاغة اسمها "جرايلس" ربما كانت تشبه إلى حد ما

محاورة جورجياس لأفلاطون. وفى سنة ٣٥٠ ق.م درس أرسطو دورة عن البلاغة العامة. وبعض المادة التى أعدت من أجل الدورة يمكن التعرف عليها فى كتابه الباقي وهو فن الخطابة "On Rhetoric". وقبل وفاة أفلاطون فى ٣٤٧ قبل الميلاد ترك أرسطو أثينا ليمضى الاثنى عشر عاما التالية فى آسيا الصغرى ومقدونيا وكرس خلالها نفسه للبحث العلمى. ومن ٣٤٢ وحتى ٣٣٩ قبل الميلاد أشرف على تعليم الأمير المقدونى الصغير، الإسكندر. ولقد فتح فيليب المقدونى المدن الإغريقية فى ٣٣٨، وأصبح ابنه الإسكندر ملكا فى سنة ٣٣٦ قبل الميلاد. وفى السنة التالية عاد أرسطو إلى أثينا حيث افتتح مدرسته التى درس بها على مدى الاثنتى عشرة سنة التالية. وبعد وفاة الإسكندر فى ٣٢٣ قبل الميلاد، وقيام ثورات ضد المقدونيين فى أثينا انسحب أرسطو إلى كالكيس حيث مات فى السنة التالية.

كان لأرسطو الفضل أكثر من أى شخص آخر فى تكوين الفروع المعرفية. فعلى النقيض من أساتذته، كان يعطى محاضرات مختلفة عن موضوعات تم تحديدها كالفيزياء والميتافيزيقا والسياسة والأخلاق والجدل وفن الشعر والبلاغة وموضوعات آخرى. هذه المحاضرات هى التى بدأت معها الفكرة الحديثة عن الفروع المعرفية. وفى محاضراته عن الخطابة، استخدم أرسطو لفظ البلاغة لوصف الموضوع على وجه العموم والخصوص. وعلى أى حال فمن الجائز أن يكون عمله مع الإسكندر قد جعله يعاود التفكير في الخطابة. ويبدو أن كتاب "فن الخطابة" كما نعرفه الآن قد كتب معظمه بين ٣٤٠ - ٣٣٥ قبل الميلاد، وربما يكون فى أساسه محاضرات حول هذا الموضوع فى حال عودته المأمولة إلى أثينا. ولم يحدث أن نُشر "كتاب فن الخطابة" ولا أى من أعمال أرسطو الأخرى كما نعرفها الآن قبل القرن الأول قبل الميلاد، ولكن مضمون هذه الأعمال كان معروفا لتلاميذ كثيرين، من بينهم

ثيوفراستيس، الذى خلف أرسطو فى إدارة مدرسته. وقد أسهم هؤلاء التلاميذ بتدريسهم وكتابتهم فى الترويج جزئيا لهذه الأفكار.

كتب كتاب "فن الخطابة" في فترات مختلفة ولم يُراجع أبدا بشكل نهائى مما أدى إلى بعض التناقضات فى استجابة الجماهير له وفى وجهات النظر إليه ودلالة المصطلحات. ففى بعض أجزاء الكتاب، ومن ضمنها الفصل الأول رأى قاس عن البلاغة يشبه رأى أفلاطون، بينما بعض الأجزاء الأخرى تشبه الكتب العلمية لتعليم البلاغة، بل إنها تحتوى على بعض القواعد التى تستخدم لخداع المستمعين. ربما يكون أرسطو قد تصور أن من سيصبحون زعماء فى المستقبل من بين تلاميذه قد يحتاجون إلى معرفـــة كيفية التأثير على الجماهير الجاهلة فى دولة سيئة التنظيم، كما قد يحتاجون إلى التعرف على الحيل البلاغية عندما يستخدمها آخرون (انظر Carol poster, "Aristotle's Rhetoric Against Rheotoric,"American Journal of Philology, 1997,pp.219 - 249). ويتجاهل بعض الفلاسفة فى العصر الحديث أمارات التغير فى رأى أرسطو عن البلاغة، باختلاف زمان تدوينه لها، ويحاولون إخفاء التناقضات فى محاضراته، كما يحاولون قسرا جعل أفكاره عن البلاغة تتفق فى كل النواحى مع كتاباته عن الأخلاق والسياسة. وهذه الطريقة تشوه بقدر كبير معنى وأهمية كتاب "فن الخطابة".

إن تقسيمات كتاب "فن الخطابة" إلى أجزاء هى من وضع أرسطو، ولكن جورج التربيزوندى George of Trebizond هو الذى قسم الفصول فى ترجمته اللاتينية فى القرن الخامس عشر. وعادة ما يشير الدارسون إلى الفقرات بأرقام الصفحات وحروف الأعمدة وأرقام الأسطر من طبعة الأعمال الكاملة لأرسطو لإيمانيويل بيكر (برلين، ١٨٣١). أما أفضل نسخة حديثة للنص الإغريقى فهى نسخة رودولف كاسيل (برلين، ١٩٧٦) كما توجد ترجمة إنجليزية حديثة مزودة بتعليقات (جورج أ. كينيدى، نيو يورك، ١٩٩١).

يتعلق الجزءان الأول والثانى من "كتاب فن الخطابة" بما يسميه أرسطو "الفكر" dianoia، أى مضمون الخطبة والذى أطلق عليه فيما بعد التأليف البلاغى. يقول أرسطو فى الفصل الأول إن البلاغة نظيرة الجدل؛ وكلاهما فنان مفيدان ليس لهما مضمون خاص بهما ويستطيعان الحجاج مع أو ضد أى قضية. وفى بداية الفصل الثانى يعرف البلاغة بأنها " القدرة فى كل حالة على رؤية الوسائل المتاحة للإقناع". وعلى هذا فالبلاغة تتناول الحالات المحددة، لا القضايا العامه كما هو الحال مع الجدل. وفى بقية الفصل (٢.١) يشرح أرسطو بالتفصيل موضوع التأليف البلاغى بأكمله كما يفهمه. إن سبل الإقناع إما غير فنية مثل القوانين والشهود والعقود والقسم التى يستخدمها المتكلم لكنه لا يخلقها، أو فنية من خلق وتأليف المتكلم. وتأخذ الطرق الفنية فى الإقناع ثلاثة أشكال عرفت بالمصداقية، أى ظهور شخصية المتكلم على أنها جديرة بالثقة، ومخاطبة المشاعر أى محاولة تحريك مشاعر الجمهور، ومخاطبة العقل أى الحجاج العقلى القائم على الوضوح وعلى احتمالية الصدق. هناك نوعان من الحجاج المنطقى؛ الأول هو الذى ينطلق من الأمثلة ليستخرج منها نتيجة إما ضمنيا أو صراحة. والنوع الثانى هو القياس الإضمارى enthymeme (حرفيا يعنى "شىء فى الذهن")، أى القياس البلاغى وهو لون من الحجاج يقوم على قبول افتراضات معينة. ومن الممكن نظريا أن تكون نتيجة القياس الإضمارى صحيحة إذا كانت مقدماته مؤكدة، ولكن هذا قليلا ما يوجد فى البلاغة حيث يكون الموضوع عادة مرجحا. كثيرا ما تحذف إحدى مقدمات القياس الإضمارى لأن المستمع يمكنه بسهولة أن يعرفها. ويفكر أرسطو فى القياس الإضمارى على أنه يأخذ شكل "إذا كان كذا وكذا، بالتالى فإن شيئا آخر يكون كذا وكذا، أو جملة تدعمها عبارة تعطى سببا لتصديق الجملة. وتستمد مقدمات السياق الإضمارى من أفكار محددة فى فروع من المعرفه مثل السياسة أو الأخلاق كما تستخدم أيضا من

الموضوعات (الممكن وغير الممكن، حقيقة ماضية، حقيقة مستقبلية، أكبر أو أصغر فى الحجم أو الأهمية) أو الأساليب الجدلية التى يستخدم أرسطو لفظ المواضع "topics" topoi للإشارة إليها. وقد نوقشت كل هذه الأشياء بالتفصيل فى الجزء الثانى، الفصل الثالث والعشرين.

إن نظرية عن وسائل الإقناع والنماذج والقياس الإضمارى والأنواع المختلفة من الموضوعات، تختلف إلى حد ما عن الموجود فى البلاغة المتأخرة، ولكن بعض خصائص نظريته أصبحت جزءا دائما من التراث البلاغى. ومن أهم ما بقى من أرسطو تعريفه لثلاثة أنواع من البلاغة، اعتمادا على نوعية الجمهور ("فن الخطابة" ١,٣). يقول أرسطو إن الجمهور إما أن يكون حكما أو ليس بحكم؛ أى أنه إما أن يكون مطلوبا من الجمهور أن يصدر حكما عن الموضوع الذى تتم مناقشته أو أن يكون غير مطلوب منه إصدار حكم. إذا كان مطلوبا من الجمهور إصدار حكم عن شىء حدث فى الماضى، كما يحدث فى المحاكم، فإن هذا النوع يكون قانونيا forensic وأساس الحكم هو تحديد ما هو عادل. وإذا كان مطلوبا من الجمهور إصدار حكم عن شىء سوف يتم فى المستقبل، كما يحدث فى المجالس والتشكيلات السياسية، فإن هذا يكون النوع التشاورى deliberative ويكون أساس إصدار الحكم هو ما هو نافع ومفيد من الناحية العملية. ومن ناحية أخرى إذا لم يكن من المطلوب إصدار حكم أو اتخاذ تصرف فإن هذا هو النوع البُرهاني demonstrative وكان أرسطو يعتقد أن هذا النوع يتعلق بالمدح والذم كما يحدث فى الخطب الجنائزية أو شجب العدو أو إلقاء خطبة فى احتفال، وأساسه ما هو مشترك.

تصف فصول ٤ - ٨ من "فن الخطابة" مادة البلاغة التشاورية وأساليبها وموضوعاتها وأهدافها التى من أهم موضوعاتها الموارد المالية والحرب

والسلام والصادرات والواردات والتشريع. أما الفصل التاسع فيتناول النوع البرهانى والفصول من ١٠:١٥ تتناول البلاغة القانونية. وفى الفصل الثانى استأنف أرسطو نقاشه حول المصداقية ومخاطبة العواطف فذكر أربعة عشر نوعا من العواطف وستة أنواع من الشخصيات، كما أضاف تفاصيل أخرى عن النماذج الإرشادية والأقيسة الإضمارية والموضوعات والبراهين غير الفنية.

يبدأ الفصل الثالث من "فن الخطابة"، الذى ربما كان عملا، منفصلا بنقاش قصير عن الإلقاء البلاغى، يتلوه دراسة مفصلة عن أسلوب النثر والأنواع الثلاثة للخطبة: القانونى والتشاورى والبرهانى. إن ميزة الأسلوب تكمن فى الوضوح وفى ألا يكون مملا، وألا يكون أعلى من مستوى الموضوع بل أن يكون مناسبا له. وهناك فصول مهمة عن اختيار الألفاظ، ومن ضمنها الاستعارات والتشبيهات، وخصائص الكتابة، وبما فيها إيقاع النثر والأسلوب المقطع. لم يكن عند أرسطو تصور عن "الصور البلاغية"، ومع ذلك فهو يناقش مثل هذه الأمور، من قبيل صقل الأسلوب، والتخيل والأساليب التى أطلق عليها من بعد "صور بلاغية". وينتهى هذا الجزء من العمل بفصل عن الفروق بين الأسلوب الشفهى والأسلوب الكتابى. أما بالنسبة لأجزاء الخطبة فهو يقول إن الأجزاء الوحيده المهمة هى الفكرة والبرهنة لكنه يشرع فى الكلام عن وسائل مواجهة الهجوم القضائي المسبق والسرد والبرهنة والتساؤل والخاتمة.

وعلى الرغم من نشره فى القرن الأول قبل الميلاد، وأنه كان معروفا لشيشرون وكينتليان، فإن رسالة أرسطو عن "فن الخطابة" لم تقرأ إلا قليلا فى العصور القديمة والعصور الوسطى. ولربما يعود إهمالها إلى الظهور السريع الذى حدث بين القرنين الرابع والثانى قبل الميلاد لجوانب بلاغية لم يناقشها أرسطو. لكن فى القرن الثالث عشر الميلادى ظهرت ترجمتان لاتينيتان

للعمل، ثم بعد ذلك ترجمة جورج التربيزاندى فى القرن الخامس عشر. وقد حاضر بعض المعلمين فى عصر النهضة عن العمل واستشهدوا بفقرات منه، ولم تقدَّر أصالة وعبقرية هذا العمل سوى فى القرن العشرين.

"الخطابة إلى الإسكندر" Rhetoric to Alexander نُقل لنا ضمن أعمال أرسطو، بالإضافة إلى "فن الخطابة" العمل الأصيل له، عمل آخر غريب يعتقد المتخصصون أنه نسخة مراجعة من كتابه "عن الخطابة"، وهو أصلا من تأليف أناكسيمينس اللامبساكوسى فى حوالى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. ومن الممكن أن يكون هذا الكتاب قد ألف قبل المراجعة النهائية لمحاضرات أرسطو وربما كان معروفا لديه. وفى وقت ما راجع محرر مجهول هذا العمل، "الخطابة إلى الإسكندر" وصدره بخطاب غير ملائم زُعم أنه إهداء من أرسطو إلى الإسكندر الأكبر. ثم قام هذا المزور أو شخص آخر بمجموعة من التعديلات ليجعل العمل أكثر اتساقا مع تعاليم أرسطو الحقيقية. ويبدو أنه فى الأصل كانت هناك أجزاء عن أنواع الخطابة والاتهام والدفاع فى الخطابة القانونية، كما أضيف جزء قصير عن المدح والذم. كما توجد قوائم طويلة بالأشياء التى يمكن أن يقولها المتكلم والحجاج الذى يمكن استخدامه، ومناقشة لأجزاء كل نوع من الخطب وبعض التعليقات عن الحيل الأسلوبية. وباستثناء بعض المصطلحات الخاصة بالأسلوب، فإن المصطلحات البلاغية الخاصة التى استخدمها أرسطو والمستخدمة فى البلاغة الإغريقية المتأخرة غير موجودة. فالقياس الإضمارى مثلا شرح على أنه "أشياء مخالفة للكلام أو الفعل المذكور أو أى شىء آخر". وعلى العكس من الكتب الأخرى لا يحتوى هذا الكتاب على أى أمثلة مأخوذة من الأدب، على الرغم من وجود بعض الأمثلة من التاريخ (الفصل الثامن). ولقد كان تأثير هذا العمل قليلا على تاريخ البلاغة فيما بعد.

البلاغه الهللينية كانت البلاغة قولا وفعلا مقبولة فى كل أنحاء العالم الناطق باليونانية فيما بين القرنين الرابع والأول قبل الميلاد، بما فى ذلك مدن أسيا الصغرى وشمال أفريقيا نتيجة لفتوحات الإسكندر هناك. وكانت تشكل المرحلة الثانية فى تعليم الصبيان فى أوائل سنين المراهقة بعد قضاء عدة سنوات فى المدرسة الابتدائية. كانت المهمة الأولى للتعليم البلاغى هى إعطاء مهارة الخطابة، لاسيما القدرة على الحديث فى ساحات القضاء، التى ظلت القدرة على الخطابة مفيدة بها. وتقلصت الفرصة أمام الخطابة السياسية إلى حد ما فى ظل الملكيات الهلينستية والحكم الرومانى بعد ذلك، ولكن ظل الأفراد بحاجة للتحدث إلى موظفى الدولة شفاهة أو كتابة وإلى المرافعة فى القضايا، والحكم على الخطب التى يلقيها الآخرون، وأيضا إلى الحديث بأنفسهم كأعضاء فى المجالس المحلية أو الجمعيات. فعلى الرغم من انتشار الكتابة ظلت المجتمعات القديمة تعتمد بشكل قوى على الشفاهة. لهذا نظر إلى دراسة البلاغة على أنها تأهيل للطلاب يُسهم بشكل كامل فى ثقافتهم، وبهذا يميزونها عن حياة غير المتمدنين. ولم تبق خطب إغريقية من تلك الفترة، ولكن البلاغيين اللاحقين يشيرون إلى تلك الفترة على أنها فترة ساد فيها الأسلوب المغالى فى الصنعة. وقد أطلقوا على هذا الأسلوب صفة "الآسيوية" "Asianism" ويزعمون أنه قد انتشر بشكل خاص فى المدارس البلاغية فى آسيا الصغرى، على العكس من أسلوب أتيكا الأثينى الذى كان أكثر بساطة، والذى ركز على لغة أنقى، ومن الأسلوب البسيط الذى كان مستخدما فى جزيرة رودس. [انظر المجادلة الأتيكية - الآسيوية] وقد درس شيشرون فى أوائل القرن الأول قبل الميلاد وهو شاب البلاغة فى الأماكن الثلاثة. فى الجزء ٣٢٥ من كتاب بروتس يصف شيشرون البلاغة الآسيوية وفى الجزء ٣١٢ يعترف بفضل أستاذه فى رودس، أبولونيوس مولون، الذى ساعده فى السيطرة على اندفاعه وهو شاب ناحية الكلام الذى كان قد أثر سلبا على

صحته. وعلى الرغم من أن تلك القرون كانت الفترة التى أخذت فيها البلاغة الكلاسيكية والتعليم البلاغى الشكل الذى ظل دون تغير كبير فيما بعد، فإنه لا توجد مصادر أولية نستطيع عن طريقها اعادة تكوين هذه التطورات. فلم تبق أى رسائل بلاغية من القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد، ولكننا نعرف من شيشرون وكتاب آخرين جاءوا بعده أن البلاغة كانت قد أصبحت تدرّس على أنها تتألف من خمسة موضوعات، كان الرومان يطلقون عليها عادة اسم "أجزاء" البلاغة. ويوجه كينتليان (٣,٣,١١ - ٣,٣,١٣) النقد لمن يسمونها "وظائف" أو "عناصر". وفى العصور الحديثة كثيرا ما يطلق عليها اسم "مبادئ" أو قواعد البلاغة. وقد لخصت هذه الأجزاء أو المبادئ خطوات تخطيط وتأليف وإلقاء الخطاب. هذه العناصر (التى سنناقشها فيما يلى) هى: التأليف (المضمون والحجاج) والترتيب (تقسيم الخطاب إلى أجزاء وترتيب الحجاج) والأسلوب (اختيار الألفاظ وتركيب الجمل والصور البلاغية) والذاكرة (الرسائل المساعدة على التذكر) والإلقاء (التحكم فى الصوت واستخدام الإيماءات). وكانت الإضافات إلى النظريات السابقة أكثر بالنسبة للتأليف والأسلوب. ولقد قدم هيرماجوراس التيمنونى Hermagoras of Temnos فى القرن الثانى قبل الميلاد نظرية مركبة عن تعريف القضية التى يدور حولها الخطاب، وبقيت هذه النقطة محل اهتمام كبير من البلاغيين من بعده، وسوف نتناولها فيما بعد فى هذه المقالة. أما فيما يخص نظرية الأسلوب، فقد جاءت التطورات الكبرى فى وصف الأنواع المختلفة من الأسلوب وفى تسمية وتعريف الأنواع المختلفة من المجازات والصور البلاغية. وفى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد قدم أعضاء المدارس الفلسفية: الأكاديمية والأرسطية والرواقية فى أثينا إسهامات للنظرية البلاغية. فإن ثيوفراستيس، خليفة أرسطو الذى رأس مدرسته من بعده، ألف أعمالا عديدة عن البلاغة لا نعرفها إلا عن طريق إشارات متأخرة طور فيها أو راجع المفاهيم الأرسطية.

وألف أيضا نظرية عن الإلقاء، أما نظريته عن "مزايا الأسلوب" فقد تجاوزت الفترة الأصلية لأرسطو وتكررت فى الكثير من المصادر اللاحقة. وقد عرف هذه المزايا بأنها ثلاثة: (نقاء اللغة والنحو الصحيح) والوضوح والزخرف (بما فى ذلك الصور الجمالية) والملاءمة (ملاءمة الأسلوب للمتكلم والموضوع والمتلقى). ولكن فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد أصبح لدى معظم الفلاسفة فى معظم المدارس عداء للبلاغة كفرع معرفى، كما رفضوا اعتبارها فنا جديرا بالاحترام، واستخدموا حجاجا مثل ذلك الموجود فى "جورجياس" لأفلاطون. وربما كان هذا التوجه يعكس، على الأقل فى بعض الأحيان، تنافسا مع البلاغيين يتعلق باهتمام الأثرياء الرومانيين الصغار الذين كانوا قد بدأوا فى الدراسة لعام أو اثنين فى أثينا، أو مناصرة للأساتذه الإغريق الذين زاروا روما. ولفترة طويلة كان توجه القلة الحاكمة فى روما نحو البلاغة متضاربا، فمن ناحية، جعلتهم قيمهم القانونية والعملية يحبون البلاغة، ومن ناحية أخرى كانوا يخشون أن تشكل المهارات البلاغية بين العامة تهديدا لسيطرتهم. وفى ١٦١ قبل الميلاد، سمح مجلس النواب الرومانى بطرد كل الفلاسفة والبلاغيين من روما، وفى ٩٢ قبل الميلاد أصدر الرقباء مرسوما يحظر تدريس البلاغة باللاتينية وإن سُمح للبلاغيين الإغريق بالاستمرار فى التدريس. ولم تنجح هذه الجهود طويلا، وبحلول العقد الثانى من القرن الأول قبل الميلاد كان الكثير من الشبان الرومان يدرسون النظرية البلاغية ويمارسون التدريبات البلاغية. وهيأت الحكومة الجمهورية الرومانية، التى كان يسيطر عليها لفترة طويلة سابقة أفراد من طبقات أرستقراطية، فرصا لمخاطبة الجماهير فى مجلس النواب، وفى الجمعيات التشريعية الشعبية، وفى نظام المحاكم المتسُع. فى الفترة ما بين منتصف القرن الثانى قبل الميلاد وإنشاء الإمبراطورية الرومانية على يد أغسطس بعد سنة ثلاثين قبل الميلاد، ازدهرت الخطابة السياسية الشديدة الفصاحة بدرجة لا يدانيها

سوى ازدهارها فى أثينا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وفى بريطانيا وأمريكا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. إن كتاب "بروتس" لشيشرون هو تاريخ للخطابة الإغريقية واليونانية حتى عصره.

كتاب شيشرون "عن الإبداع وكتاب "البلاغة إلى هيرينيوس" المجهول المؤلف

هناك إشارات إلى مناقشات عن البلاغة فى اللغة اللاتينية لكاتو الأكبر Cato the Elder فى القرن الثانى قبل الميلاد ولأنطونيوس فى أوائل القرن الأول قبل الميلاد، ولكنها لم يُقدر لها البقاء. لهذا فإن أقدم التناولات اللاتينية لهذه الموضوعات هو كتاب "عن الإبداع" "On Invention" لشيشرون (حوالى ٨٩ قبل الميلاد)، وهو جزء من كتاب شامل عن البلاغة لم يكتمل أبدا بالإضافة إلى "الخطابة إلى هيرينيوس"، وهو عمل مجهول يناقش كل جوانب البلاغة كما كانت مفهومة فى ذلك الوقت. والأجزاء التى تناقش نفس الموضوعات متشابهة فى الكتابين وهو ما يشير إلى أن الكاتبين استخدما نفس المصدر أو المصادر اليونانية، وكلاهما يقدم نسخة من نظرية هيرماجوراس عن الحالة. أجرى المؤلف المجهول بعض التعديلات البسيطة على النظرية اليونانية حتى تلائم الجمهور الرومانى، لكن شيشرون لم يجر أي تغييرات. إن العملين فى واقع الأمر غير مشوقين ومتحذلقان غير مشوقين ولكن قيمتهما التاريخية فى غاية الأهمية. ولا يرجع هذا فقط لكونهما يشرحان المبادئ البلاغية التى كانت موجودة فى بداية القرن الأول قبل الميلاد، ولكن وهذا هو الأهم لأنهما خلافا للكتب الأخرى الأكثر تعمقا، كانا يعتبران المصادر الموثوق بها عن البلاغة الكلاسيكية منذ القرن الرابع بعد الميلاد وحتى عصر النهضة والركن الأساسى فى تدريس البلاغة فى المدارس والجامعات. كما كانا أيضا موضع تعليقات الكثير من الدارسين والعلماء فى العصور الوسطى وفى عصر النهضة وكانا المصدر البلاغى الرئيسى فى كتابة الخطابات وأنواع

أخرى من الكتابة خاصة فى العصور الوسطى. ينطبق هذا الكلام على وجه الخصوص على كتاب "عن الإبداع" لشيشرون ولكن كتاب "الخطابة إلى هيرينوسي" والذى اشتهر باسم الخطابة الثاني، ظل لفترة طويلة ينسب لشيشرون، وكان يدرس من أجل الشرح الذى يقدمه عن الترتيب والأسلوب والتذكر والإلقاء وهى موضوعات لم يتناولها كتاب شيشرون الأصلي. وسيتم شرح هذين العملين فى الجزء الثانى من المقال، ولكننا سنذكر هنا بعض خصائصهما. ينقسم كتاب شيشرون إلى جزأين ولكل جزء مقدمة. وقد لاقت مقدمة الجزء الأول شهرة وكان كثيرا ما يستشهد بها أو يقلدها كتاب لاحقون عن البلاغة. وفيها يقول شيشرون بشىء من الاعتداد، وكان شابا فى ذلك الوقت "إن الحكمة بدون الفصاحة لا تفيد الدول إلا قليلا، والفصاحة بدون حكمة ضررها كبير ولا تكون مفيدة أبدا". ثم يشرح شيشرون بعد ذلك تطور المجتمع الإنسانى، وهو شرح مأخوذ فى الغالب من أحد الفلاسفة الرواقيين. وهو يقول إنه لابد أنه فى زمن من الأزمنة كان هناك قائد عظيم ذو قدرة على الإقناع قام بإخراج الإنسانية من حالتها البدائية. ولكن مثل هؤلاء العظماء لا يهتمون بتفاصيل الإدارة فاستحوذ من يملكون قدرة خطابية أقل على النزاعات الصغيرة. وبمرور الوقت اعتادوا الدفاع عن الباطل. وقد أسفر هذا عن نشوء صراع فاتجه الأشخاص الأكثر نبلا إلى التفكير الفلسفى. وتنتهى المقدمة بمديح للفصاحة يشبه ما كان يكتبه جورجياس وإيزوقراط. يقول هذا المديح إنه إذا كانت الحكمة هى الوسيط بين كل الأشياء، فإن هذا سيؤدى إلى فوائد كثيرة للدولة، أما من حصلوا الحكمة فسوف يحظون بالمجد والشرف والمكانة الرفيعة، وهى تضمن أيضا أفضل وسائل للدفاع عن الأصدقاء. يبدو لى أنه على الرغم من أن الأنسان أقل وأضعف من الحيوانات فى كثير من النواحى، فإن أهم نقطة يتفوق فيها على الحيوانات هى قدرته على الكلام. لهذا أتصور أن من يتفوق على الأشخاص الآخرين فى تلك الصفة بالذات التى يتميز بها الإنسان على الحيوان، يكون قد كسب

شيئا رائعا. وبما أن هذه القدرة لا تحصل فقط بالسليقة وبالممارسة ولكن أيضا بقدر من الصنعة والفن، فمن الملائم أن ننظر إلى القواعد المتروكة لنا حول هذا الموضوع.

لقد أجل كاتب "الخطابة إلى هيرينيوس" مناقشاته حول الأسلوب إلى الجزء الرابع والأخير من كتابه، على ما يبدو، حتى يعالجه باستفاضة أكثر. ويعطى الكاتب أقدم شرح وصل إلينا عن نظرية أنواع الأسلوب الثلاثة وأطلقوا عليها الأشكال. والنوع الأول هو الأسلوب الرفيع، والثانى هو الأسلوب المتوسط، والثالث هو الأسلوب البسيط. وهو يعطى أمثلة من عنده لكل نوع وأمثلة أخرى للأساليب المقابلة الضعيفة: الأسلوب الطنان والبطىء والهزيل. وهذا الكتاب هو أيضا أقدم عمل وصل إلينا يناقش الأشكال البلاغية التى أطلق عليها اسم "الزخارف" وقسمها إلى زخارف فى المفردات (4.19 - 41) وزخارف فى الأفكار (4.47.69).

وهو يدرج ضمن الصور اللغوية عشر وسائل تتضمن المجاز المرسل والمبالغة والمجاز والكناية وصورا أخرى أيضا. ويصوغ الكاتب في كل المواضع مصطلحات لاتينية مقابلة للمصطلحات اليونانية، بينما احتفظ البلاغيون الرومانيون فيما بعد بالكلمات اليونانية مكتوبة بالأبجدية اللاتينية. (انظر الصور البلاغية).

شيشرون Cicero

كان ماركوس تاليوس شيشرون (١٠٦ – ٤٣ قبل الميلاد) خطيبا عظيما وسياسيا محافظا كما كان ديموثيتينيس. وقد حاول المحافظة على الحكومة الدستورية التقليدية لمدينته ولكنه فشل في ذلك في نهاية الأمر.

وشيشرون هو أكثر الرومانيين شهرة ويرجع ذلك أساسا إلى بقاء أكثر من تسعمائة من رسائله الخاصة. في الأوقات التى لم يكن مشغولا فيها بشيء آخر كان شيشرون يكتب حوارات عن البلاغة والفلسفة هدفها تعريف القراء الرومانيين بالموضوعات كما ناقشتها المدارس اليونانية، كما كانت تهدف أيضا إلى صياغة مفردات لاتينية فلسفية في الوقت نفسه. إن الإجراءات القانونية الرومانية لم تكن تتطلب أن يدافع الأشخاص عن قضاياهم بأنفسهم كما كان الحال في بلاد اليونان، وإنما كان يقوم محام بالدفاع نيابة عن الموكل وكان دوره شبيها بالمحامى أمام المحاكم العليا في النظام القضائى الإنجليزى. وقد اكتسب شيشرون الجزء الأعظم من شهرته من عمله كمحام في المحاكم التى كان غالبا ما يقوم فيها بدور الدفاع، كما اشتهر أيضا بالخطب التى كان يلقيها في مجلس النواب، ومنها الخطب الأربع التى ألقاها كجزء من محاولته الناجحة لإحباط مؤامرة كاتيلين فى سنة ٦٩ قبل الميلاد. وقد بقيت حوالى ثمان وخمسين خطبة من خطب شيشرون، معظمها نسخ صححها شيشرون نفسه. وهذه الخطب تمت دراستها عبر التاريخ كنماذج للخطابة المؤثرة والحيل القانونية الذكية والقدرة السردية. ومن بين الخطب التى حظيت بقدر أكبر من الإعجاب خطبه من أجل روسيس أميرنيس philippics كياليوس، ومن أجل وكلوينتيوس ومن أجل ومايلو، ومن أجل مورنيا، وهجماته النارية على مارك أنطوني المعروفة باسم "فايليبيكس" philippics والتى تتبع مثال ديموستين،

وأهم أعمال شيشرون البلاغية هى محاورته العظيمة "عن الخطابة" (٥٥ قبل الميلاد). وزمن المحاورة كما هو مذكور فيها هو سنة ٩١ قبل الميلاد والشخصيات الرئيسية فيها لرجال دولة وخطباء من نفس الفترة، كان قد التقى بهم. إن كراسوس هو المتحدث بفضائل شيشرون وهو يحاج فى

الجزء الأول عن المواطن الخطيب الذى يعتبره النموذج الأمثل للمواطن، وليكون على هذا القدر من المثالية فهو يحتاج إلى معرفة واسعة وعميقة بالفلسفة والقانون والبلاغة وفنون آخرى. ولكن سكايلوفا يظن أن مثل هذا المثال والنموذج غير قابل للتحقق وهو يؤكد على حاجة الخطيب للمعرفة بتطبيقات القانون. أما أنطونيوس فيتخذ موقفا وسطا بشأن واجبات وحاجات الخطيب. وفي الفصل الثاني من المحاورة يشرح شيشرون الإبداع البلاغي والترتيب والذاكرة مستخدما مصطلحات غير تخصصية. وهو يقول" إن نظرية الكلام كلها تعتمد على ثلاثة مصادر للإقناع: إثبات أن ما ندافع عنه صحيح وإقناع المستمع برأينا، وأن نثير في الأذهان العاطفة التى تتطلبها الحالة. كان وقتذاك كتاب أرسطو "فن الخطابة" قد ظهر مؤخرا، فقام شيشرون بأخذ بعض الأفكار منه، ومن بينها هذا الشرح لفكرة طرق الإقناع الثلاثة لأرسطو. وفي الفصل الثالث، يعود كراسوس ليكون المتحدث الرئيسي ويكمل الشرح غير التخصصي الذى قدمه أنطونيوس بحديث مطول عن الأسلوب مبنى على المزايا الأربع التى عرضها ثيوفراسطوس وهى: السلامة والوضوح والزخرف والمواءمة.

إن العمل الرئيسى الآخر لشيشرون عن البلاغة يعود إلى سنة ٤٦ قبل الميلاد، وهو "بروتوس" الذى سبق أن ذكرناه لأنه يؤرخ للبلاغة ويحتوى على استطراد مشوق (الفصول من 76 - 70) يقارن بين تطور الخطابة وتاريخ النحت والرسم. إن كتاب الخطابة يعطى شرحا مفصلا للتأليف البلاغي ويقدم نظرية مهمة عن "الواجبات الثلاثة للخطيب" وهى: الإثبات والإمتاع وتحريك المشاعر، وهو يستخدم في ذلك الأسلوب البسيط والمتوسط والرفيع على التوالى. وقد اهتم شيشرون في العملين بالدفاع عن أسلوبه المعتمد على الإسهاب ضد النقاد المعاصرين الذين سموا أنفسهم بالأتيكيين،

وزعموا أنهم يقلدون بساطة أسلوب ليسياس - ولكن شيشرون كان يرى أن خطباء أتيكا قد استخدموا تشكيلة واسعة من الأساليب وأن ديمو ثينوس وهو أكثرهم تعددا فى الجوانب كان أفضلهم. وكان شيشرون قبل ذلك قد كتب كتابا لابنه على شكل أسئلة وأجوبة فى البلاغة، وهو كتاب "الأجزاء البلاغية" "Rhetorical Partitions" وكتب أيضا كتابا بالعنوان: "عن أفضل أنواع الكلام" وهو مقدمة لترجمة لم تكتمل أبدا لخطب ديموستين وإيشينيس وهو "حول العرش". وأخيرا في سنة ٤٤ قبل الميلاد ألف شيشرون كتابه "المواضع" "Topics" وهو دليل للمواضع الجدلية، وهو يمثل حلقة وصل مهمة بين التعاليم الجدلية الأرسطية وتعاليم العصور الوسطى.

التعليم البلاغي اليوناني في القرن الأول قبل الميلاد لا توجد معلومات مفصلة عن تطور تعليم البلاغة عند اليونان في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد نظرا لانعدام المصادر الرئيسية. ولكن بقيت لنا بعض الأعمال من القرن الأول قبل الميلاد. أقدم هذه الأعمال هى رسالة "عن الأسلوب" "On Style" التى تنسب إلى ديميتريوس الذى يعتقد أنه ديميتريوس الفاليرونى، رجل الدولة والخطيب الذى عاش في القرن الرابع قبل الميلاد. لكن الكاتب الحقيقي غير معروف، كما أن تاريخ تأليف الرسالة موضع خلاف. وقد تكون هذه الرسالة كتبت في الربع الثاني من القرن الأول قبل الميلاد حيث إن مؤلفها يعرف كتاب أرسطو (فن الخطابة)، الذى لم يكن معروفا قبل هذا التاريخ لكنه غير مهتم بالجدل الأتيكى الذى نشأ فى فترة متأخرة من نفس القرن. إن رسالة "عن الأسلوب" لديميتريوس هى قطعة من النقد البلاغي مليئة بالملاحظات الحادة تتحدث عن أربعة أنواع من الأساليب بدلا من الأنواع الثلاثة التى يذكرها الآخرون. وهذه الأنواع هى الأسلوب الرفيع والأسلوب البسيط والأسلوب الأنيق والأسلوب القوى. وهى تعرف عن طريق الفكرة والمفردات

والإيقاع وتركيب الجملة والصور الجمالية وتُعطي أمثلة لهذه الأساليب من النثر الكلاسيكى اليونانى والشعر الكلاسيكى اليونانى. وعلى الجانب الآخر هناك أربعة أساليب معيبة: الأسلوب الفاتر والأسلوب الجاف والأسلوب المتكلف والأسلوب المفتقر إلى اللباقة. وقد ألحق بوصف الأسلوب البسيط مناقشة عن كتابة الرسائل، وهو أمر غير مألوف فى رسالة "عن البلاغة" (الفصول: 35 - 223). وهذا يتضمن الاعتراف بأن دراسة البلاغة تسرى على الكتابة كما تسرى على الكلام.

لقد كتب الفيلسوف الإبيقورى فيلوديموس (حوالي ١١٠ إلى ٣٥ قبل الميلاد) رسائل عن مجموعة كبيرة من الموضوعات من بينها الشعر والبلاغة. وقد بقيت أجزاء من هذه الرسائل على أوراق بردى محروقة دفنت في بركان جبل فييتميوس في ٧٩ قبل الميلاد. كانت طريقة فيلوديموس المعتادة هى نقد أداء الكتاب السابقين. ونظرا لتشظى النصوص التى بقيت منه فإن إعادة تركيب أعماله أمر صعب (هناك نسخ جديدة جار العمل فيها). ولكن يبدو أن فيلديموس قد قصر البلاغة على خطابة السوفسائيين التى اعتبرها تشبه الشعر في كونها عديمة الفائدة وإن كانت ممتعة، وهو رأى يتفق مع المبادئ الإبيقيورية. ولدينا بعض المعلومات عن تعاليم البلاغيين اليونانيين الأربعة الذين عاشوا في منتصف أواخر القرن الأول قبل الميلاد. جورجياس الأثينى الذى اختاره شيشرون في وقت من الأوقات ليدرس لابنه في أثينا والذى كتب كتابا صغيرا عن الصور الجمالية بقي من خلال ترجمة لاتينية قام بها راتيليوس لوبوس وأبولو دوروس البرجامومي وهو واحد من مدرسى من أصبح فيما بعد الإمبراطور أغسطس، وعادة ما يتحدث عنه البلاغيون اللاحقون على أنه يملك آراء صادقة عن ترتيب الخطبة ويقارنون الاختلافات بينه وبين ثيودوروس الجادارى، الذى كان أستاذا لمن أصبح

فيما بعد الإمبراطور تيبيرويوس، والذى كان مرنا في بعض الجوانب وإن كان جامدا في جوانب أخرى. لقد استمرت مدارس الإيولودويين والثيودويين لفترة طويلة في جدل محتدم حول تفاصيل متحذلقة عن النظرية البلاغية. وهناك بلاغي رابع حظى بشهرة في ذلك الوقت هو كايسيليوس الكالاكتى، الذى عرف كتابه عن أشكال البلاغة من استشهادات كثيرة أخذها منه الكتّاب وهو على ما يبدو كان مناصرا للأتيكية وربما يكون هو الذى أسس قائمة أعمال الخطباء الايتكيين العشرة، ومن بين أعماله مقال (فقد) اسمه "عن السمو" "On Sublimity" وقد انتقد هذا المقال على اعتبار أنه ضيق النظرة فى بداية الرسالة الشهيرة التى بقيت حول نفس هذا الموضوع والمنسوبة إلى لونجينيوس.

وأشهر البلاغيين اليونانيين في الفترة الهللينية المتأخرة هو ديونايسوس الهاليكارناسيوسى، والذى يمكن معرفة تواريخه من عبارة كتبها قال فيها إنه جاء إلى روما بعد انتصار الإمبراطور أغسطس في الحرب الأهلية (أي بعد سنة ٣٠ قبل الميلاد مباشرة) ومن ضمن الأعمال التى بقيت له تاريخ لروما في أيامها الأولي، ورسالة "عن الخطباء القدماء" (وهى تناقش أسلوب ليسياس وإيزوقراط واياسبوس وديموستين دينارخوس) ومقال "عن ثيويسيدديس" وثلاث رسائل أدبية يظهر منها أن ديمو ثيسينيس من الممكن أن يكون قد تأثر بكتاب "فن الخطابة" لأرسطو، وهو يدافع فيها عن تفضيل ديونايسوس لأسلوب ديموثينيس على أسلوب أفلاطون، وتكملة للنقاش عن ثيديسيديس، ورسالة طويلة ومركبة اسمها "عن التأليف الأدبي"، وعمل غير كامل اسمه "عن التقليد"، ويوجد في أعمال ديونايسوس وصف لتطور النثر اليوناني من الأسلوب الذى سماه الأسلوب الخشن في القرن الخامس قبل الميلاد إلى الأسلوب السلس الذى يشتمل على انسجام في ترتيب الكلمات، ومزايا الأسلوب، وقدر ضرورى (من الوضوح والاختصار والسلامة) مضافا إليه

رسم الشخصيات والعواطف والسمو والرفعة. وهو يوجه النقد إلى الأسلوب الآسيوى ويحرص على تشجيع العودة إلى أسلوب أنقى وهو ما يُعزى إلى الثقة التى يوليها لأساتذته الرومان.

التدريبات الأولية: Progymnasmata

كانت التدريبات الأولية تدرس في كتابة الإنشاء في المدارس المتوسطة وفى بعض الأحيان كان يستمر تدريسها في المدارس البلاغية. وكانت تعتبر خطوة أولي للتدريب على التقليد الذى كان بمثابة النشاط الرئيسى للمدارس البلاغية. ووردت أول إشارة إلى ممارسة هذه التدريبات في كتاب "الخطابة إلى الإسكندر". ويعود تاريخ ابتكار الأشكال التقليدية منه في الغالب إلى الفترة ما بين القرن الرابع والقرن الأول قبل الميلاد. ولقد تبقى لنا من زمن الإمبراطورية الرومانية أربعة كتب لتعليم التدريبات الأولية. ويصف لنا كينتليان هذه التدريبات كما كانت تمارس في تلك الفترة في المدارس اللاتينية. يصف الكاتب سلسلة من التدريبات في الكتابة الإنشائية ينتقل فيها الطالب من مجرد إعادة كتابة مقدمة أو نص سردى إلى تدريبات أكثر صعوبة تستخدم الحجاج المنطقي. وتعطي الكتب أمثلة للطلاب على الموضوعات التى يتعين استخدامها في كل موضوع إنشائى. ولقد أثرت هذه التدريبات بشكل كبير على بناء وأسلوب الكتابة الأدبية، حيث إن معظم الكتاب اليونانيين والرومانيين في الفترتين الهيللينستية والرومانية تدربوا عليها في فترة شبابهم، ولقد أصبحت بعض هذه التدريبات أنواعا أدبية قائمة بذاتها ومنها المقارنة أو الوصف أو الخطبة التى تلائم شخصية فرد معين وأنواع أخرى تم دمجها بصور مختلفة عند كتابة الملاحم الشعرية والسخرية وشعر المناسبات والملاحم النثرية.

يعزى أول هذه الكتب اليونانية وأكثرها امتلاء بالفكر إلى أيلوس ثيون السكندرى Aelius Theon وغالبا يعود تاريخ هذا الكتاب إلى بداية أو وسط القرن الأول قبل الميلاد. ويختلف هذا الكتاب لكونه موجها إلى المدرسين لا إلى الطلاب، ولأنه يضم فصولا عن طرق التدريس ويطلب من الطلاب أن يقرءوا فقرات أدبية بصوت عال، وأن يستمعوا إلى فقرات تقرأ عليهم ثم يكررون ما تقوله هذه الفقرات من الذاكرة، وأن يعيدوا صياغة بعض الأجزاء وأن يطولوا حجاجًا ما أو يفندوه ويناقضوه. لا تحتوى المخطوطات اليونانية لكتاب ثيون على هذه الفصول التى ظلت غير معروفة لفترة طويلة جدا ولكنها اكتشفت في نسخة أرمينية كلاسيكية وقد تم الآن تحريرها ونشرها مصحوبة بترجمة فرنسية لميشيل بايتون وجيانكارلو بولجونسي. (Paris: Les Belles Lettres, 1997).

ينسب ثانى هذه الكتب وأقصرها في التدريبات الأولية إلى هيرموجينيس التارسوسى Hermogenes of Tarsus، وهو بلاغي يوناني عاش في القرن الثاني قبل الميلاد (سيتم الحديث عنه فيما بعد) ولكن من غير المؤكد أن هذا الكتاب أصلي. لقد كتب النحوى بريشين Priscian في حوالى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد نسخة معدلة من هذا الكتاب. وقد استخدمت هذه النسخة إلى حد ما فى مدارس العصور الوسطى في أوربا الغربية. ولكن في الشرق الذى كان يتكلم اليونانية أصبح كتاب أفثيونيوس، تلميذ السوفسطائى العظيم لايباريوس فى أنتيوك، الذى كان يكتب في آخر القرن الرابع، هو الكتاب المعتمد، ناقش أفثونيوس Apthonius أربعة عشر تدريبا وأعطي مثالا على كل منها: قصص الحيوان، السرد، الحكاية الشخصية، الخطبة التى تتواءم مع شخصية ما، الوصف، الأطروحة، والحجاج دفاعا عن أو ضد قانون. لقد استخدم كتاب أفثوينوس في تدريس اللغة اليونانية في المدارس الغربية أثناء عصر النهضة،

كما كتبت منه نسخ معدلة باللغة اللاتينية وأيضا باللغات المحلية. وكان هذا الكتاب كبير الأثر في تدريس الكتابة الإنشائية في أوربا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. أما الكتاب الثالث الذى بقي فهو كتاب نيكولاوس المنحدر من مايرا وهو مسيحي من أتباع أفلوطين عاش في القرن الخامس وهو يصف نفس التدريبات التى وصفها أفثوينوس ويعطي أهميه خاصة للعلاقة بين كل منها وأنواع الخطابة وأجزائهما التقليدية.

الإلقـــاء:

لقد نمَّى تلاميذ السوفسطائيين الأوائل وايزو كراتيس مهاراتهم البلاغية عن طريق تأليف خطب بهدف التدريب على موضوعات مأخوذة من الأساطير أو من الفلسفة أو السياسة. وكان بعضها يأخذ شكل قضايا قانونية متخيلة على غرار بالاميديس. ومع انتشار المدارس البلاغية في الفترة الهللينيسية، أصبحت الخطب التدريبية التى يطلبها المدرس من الطلاب حول موضوع محدد جزءا أساسيا من المنهج، ويذكر كينتليان أن استخدام الموضوعات المتخيلة الشبيهة بالخطب التى كانت تلقي في المحاكم والتجمعات السياسية أصبح منتشرا في المدارس اليونانية في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد وظهر في روما تقريبا في بداية القرن الأول قبل الميلاد، على الرغم من أنها لم تمارس هناك بشكل واسع إلا بداية من منتصف ذلك القرن وهذا الأمر تؤكده على ما يبدو إشارات في كتاب "رسالة إلى هيرينيدوس" وكتابي شيشرون: "عن الخطيب" و"بروتس" وأيضا عن أجزاء كتابي سويتونيوس Suetonius "حياة النحويين" "والبلاغيين" التى تصف بدايات التعليم المنهجى في روما. كان يطلق على التدريب على الكلام باللغة اللاتينية declamatio؛ وبالتالى أصبحت الخطبة التى تكتبت من باب التدريب هى إلقاء declamation. ويوجد نوعان من هذه الخطبة: النوع الأول هو الأسهل والأقل

استخداما وهو تقليد للخطبة التى تحاول الوصول إلى قرار وتدور حول موضوع أسطورى أو تاريخى. أما النوع الثانى وهو الأكثر انتشارا في المدارس الرومانية فكان الخطبة القضائية. كان هدف الموضوعات هو إثارة اهتمام التلاميذ المراهقين وبالتالى فإن الموضوعات المفضلة كانت هى الجنس والعنف والحرب والقراصنة والفتيات التى تم اغتصابهن وأولياء الأمور الصارمين. لم يأخذ التدريب شكل جدال كما قد يتوقع المدرس المعاصر بل كان من النادر أن يطلب من الطلاب أن يتخذوا مواقف مخالفة لبعضهم بعضا أو أن يجيبوا على حجاج بعضهم بعضا. وإنما ما كان يحدث هو أن المدرسين يعلنون عن موضوع معين ويقترحون طرقا لمعالجته، أو كانوا يلقون خطبة حول هذا الموضوع ويطلبون من الطلاب تقليدها. بعد ذلك كان الطلاب يؤلفون الخطاب كتابة في الموضوع الذى حدده المدرس، وعندما كان الخطاب يحظى بالموافقة كان من الممكن أن يطلب من الطالب حفظه وإلقاءه أمام الفصل أو إلقاءه فى إحدى المناسبات التى تفتح فيها المدرسة للآباء والجمهور. وأحد مصادر المعلومات الرئيسية عن هذا التقليد الروماني في الفترة الأخيرة للجمهورية وفترة بداية الإمبراطورية هو كتاب سينكا الأكبر (من حوالى ٥٥ قبل الميلاد حتى ٣٩ ميلادية) وهو والد الفيلسوف سينكا، يصف فيه المدارس البلاغية كما كانت أيام شبابه في مذكرات وجهها إلى أولاده وعنوانها اللاتينى يكاد يستعصى على الترجمة ولكن يمكن إعادة صياغته على النحو التالى " مجموعة من معالجات للقضية والحجاج والأقوال الذكية لخطباء ومدرسى البلاغة". يزعم سينكا أنه يتذكر حرفيا كثيرا من الخطب التى سمعها في المدارس أثناء شبابه خصوصا في المناسبات التى كانت تفتح المدارس فيها للجمهور وهو يسهب في الاستشهاد بأجزاء من هذه الخطب. وقد أصبحت هذه الجلسات المفتوحة بحلول الفترة الأوغسطية نوعا من الترفيه للجمهور، وكان كثيرا ما يحضرها قادة المجتمع

حتى إن بعضهم كان يشارك فيها وكان يحضرها أيضا خطباء محترفون وطلاب وأسر الطلاب. احتوى كتاب سينكا الذى لم يصل إلينا كاملا على عشرة فصول عن موضوعات قانونية وفصل يحتوى على عشرة موضوعات يمكن التشاور بشأنها. وفي مقدمات الفصول المنفصلة يقدم الكاتب أفكاره عن تاريخ وتطبيق التقليد الذى كان يحبه ويعده تدريبا كبير القيمة وإن كان يراه يضمحل من الناحيتين الأخلاقية والفنية. وهو يذكر في التمهيد الأول ثلاثة أسباب من الممكن أن تكون وراء هذا التدهور. أولا زيادة الرفاهية والكسل، ثانيا قلة فائدة المهارات البلاغية في الحياة الحقيقية وثالثا الحلقات التاريخية المحتومة التى يتلو فيها التدهور الصعود.

لقد علقت مجموعة أخرى من الكتاب، ومن بينهم فيلون وفيليبس باتيركولوس وبترونيوس وبرسيوس وكينتليان وتاسيتوس والكاتب المشهور لونجينيوس، على تدهور الفصاحة في العصور المبكرة للإمبراطورية الرومانية. وكانوا يعزون هذا التدهور لأسباب مماثلة ويلقون بقسط من اللوم على ممارسة التقليد لأنه كان يشجع الأساليب المصطنعة على استخدام المحسنات البلاغية البارعة في موضوعات غير واقعية بدلا من الإتيان بحجاج منطقي والاستخدام الواضح والسليم للغة. لقد تضمن كتاب تاسيتوس" محاورة عن الخطباء" "Dialogue on Orators " الذى كُتب في بداية القرن الثاني الميلادي نقاشا عميقا عن هذا الموضوع من جانب متحدثين نظروا إليه من جوانب وخبرات مختلفة. لقد حذا المؤرخون في العصر الحديث حذو تاسيتوس في كتاباته التاريخية المتأخرة فاستهجنوا القيود التى وضعت على المناظرة والمناقشات المفتوحة وفقدان حرية التعبير في فترة الإمبراطورية، وهو تعليل ألمح إليه ولم يصرح به المؤرخون القدماء. وبالطبع كان هناك قسط من التقييد للحقوق المدنية وبعض الإحساس بالكبح خصوصا في الدوائر الأرستقراطية

في مدينة روما. بل إن حسنى النية من الأباطرة ومن ضمنهم أغسطس Augustus وتايبيريوس Tiberius وكلاوديوس Claudius اضطروا في بعض الأحيان إلى اتخاذ إجراءات شديدة منها الإعدام والنفي وحرق الكتب نتيجة لتصرفات اعتبروها غير مسئولة أو كلمات وأفعال خطيرة أو مدمرة لحكمهم من جانب سليلى الأسر الجمهورية القديمة. كان السبب الأصلي والمستمر للحكومة الإمبراطورية، الذى قبله معظم الرومان، هو عجز الحكومة الجمهورية عن السيطرة على الشئون الداخلية والخارجية خلال القرن الأخير لوجودها، بالإضافة إلى الدمار الناجم عن الحرب الأهلية، على عكس الأمن والرخاء الذى أسبغه أغسطس ومن خلفوه على الدولة. وبالنسبة للأقاليم على وجه الخصوص واليونان بالذات كانت الفترة المبكرة من الإمبراطورية واحدة من أسعد الفترات للمواطنين الأحرار. وإن كانت المجالس التشريعية التى كانت موجودة أثناء الجمهورية الرومانية قد توقفت، وأصبح الموظفون العموميون يأتون عن طريق اختيار مجلس النواب الذى كان يعتمد بشكل رئيسى على ترشيح الإمبراطور. وكان مجلس النواب المكون من قضاة سابقين وقضاة معينين من قبل الإمبراطور يلتقي بصورة منتظمة ويناقش مسائل السياسة العامة التى تحال إليهم من الإمبراطور الذى كثيرا ما كان يأخذ بنصائح المجلس. وكان المجلس يعمل أيضا كمحكمة للمظالم. استمر نظام المحاكم الذى أنشئ في عهد الجمهورية، وكان المحامون يترافعون فيه فى القضايا نيابة عن موكليهم لكن الأباطرة كانوا أحيانا يتدخلون إما بصورة مباشرة أو غير مباشرة فكانوا أحياناً يشجعون أو يتسامحون مع "الوشاة" سيئى السمعة الذين كانوا يحصلون على المال أو الحظوة عن طريق الحصول على إدانات ترضي علية القوم. ونحن نستطيع أن نقرأ في كتابات كينتليان Quintilian وتاسيتوس Tacitus وبليني Pliny عن عدد من مشاهير الخطباء وخطبهم بل إن هؤلاء الكتاب الثلاثة كانوا هم أنفسهم يحظون بالإعجاب. ولكن

الخطابة اللاتينية فى القرن الأول الميلادى غير معروفة سوى إلى حد ما من خلال ما ذكر أو كتب عنها، كما أنها افتقرت إلى الحماس النارى الذى كان يميز فترة شيشرون. كان الحال فى اليونان أحسن قليلا، حيث كانت الحركة المعروفة باسم "السوفسطائية الثانية" "Second Sophistic"، والتى ذكرناها آنفا قد بدأت في الظهور. كان الخطيب الأشهر في القرن الأول الميلادى هو ديو كوتشيانوس Dio Cocceianus (من حوالى سنة ٤٠ إلى ما بعد ١١٢ ميلاديه) والذى أطلق عليه لقب كريزو ستوموس "Chrysostomos"؛ أى صاحب اللسان الذهبي وقد نسب إليه من ثمانين خطبة موجودة حتى الآن، بعضها عن موضوعات ثقافية والبعض الآخر عن مواقف حقيقية. وقد ألقيت هذه الخطب في الجمعية الإقليمية والمجلس في بورصة بآسيا الصغرى.

كينتليان: Quintilian ماركوس فابيوس كينتليانوس (حوالى ٣٩ - ٩٦م) ولد في إسبانيا، لكنه تلقي تعليمه في روما، وقد عينه الإمبراطور فيسباسيان Vespasian في وظيفة أستاذ يتلقي مرتبا لتدريس البلاغة اللاتينية بالمدينة.

ويبدو أنه قد تم أيضا إنشاء كرسى لليونانية، ولكننا لا نعلم شيئا عنه ولا عن شاغله. وقد كانت تلك هى المرة الأولى التى تتخذ فيها الحكومة الرومانية إجراءات لدعم التعليم العام، وعلى ما يبدو كان هذا القرار جزءا من برنامج للإمبراطور فيسباسيان لتدعيم الثقافة التقليدية والقيم الأخلاقية التى تآكلت خلال فترة حكم نيرون المليئة بالاضطرابات. وفي القرن التالى أنشئت كراسى في البلاغة فى أثينا، كما صدرت أوامر إمبراطورية إلى جميع المدن في الإمبراطورية بتدعيم تدريس النحو والبلاغة. وقد شغل كينتليان هذا المنصب الرسمي لمدة عشرين عاما، وكان أيضا في بعض الأحيان يترافع نيابة عن موكلين في المحاكم. كما كتب عند نهاية فترة شغله للوظيفة رسالة ضاعت كان اسمها "عن أسباب فساد الفصاحة" "On the Causes

"of the Corruption of Eloquence. وبعد تقاعده بفترة وجيزة شرع في البحث من أجل إنجاز عمله العظيم الذى يعرف به اليوم، وهو كتاب يترجم عنوانه عادة: "بتعليم الخطيب". "The Education of the Orator". يوضح كينتليان في الاثنى عشر فصلا التى يتألف منها الكتاب توصياته لتعليم المواطن الروماني الذى يأتى من الطبقة العليا بداية من دراساته الأولي في اللغة والنحو (الجزء الأول والثانى) وحتى التدريبات على نظريات البلاغة والإلقاء (الفصول من ٣ إلى ١١)، وصولا إلى مرحلة الرشد والعمل العام وحتى تدريبات الإلقاء وأنشطة لما بعد التقاعد (الفصل الثاني عشر). ويزخر هذا الكتاب بالمعلومات عن التعليم القديم وعن تاريخ البلاغة لأن كينتليان كثيرا ما يستعرض أداء من سبقوه من ذوى الخبرة. ويعطي الكتاب أكمل صورة وصلت إلينا عن نظرية البلاغة. وعلى الرغم من أن كينتليان يقدم بعض الاقتراحات المبنية على تجربته الخاصة وحكمته وعلى الرغم من أنه يقاوم بضراوة الأسلوب المتصنع والمتكلف، فإنه في معظم الوقت يقوم بإعادة صياغة الآراء السابقة مع إجراء بعض المراجعات أو التعديلات الطفيفة لكى تناسب ظروف زمانه. والمصدر الرئيسي لكينتليان الذى يعتبره أعظم مثال لكل من النظرية والتطبيق وأيضا لحياة الخطيب هو شيشرون Cicero الذى كان نثره المليء بالرياء قد فقد الإعجاب به خلال الأجيال الثلاثة بعد وفاته. والحقيقة إن إعادة أعمال شيشرون إلى المكانة التى تستحقها كإحدى كلاسيكيات البلاغة لتعد واحدة من إنجازات كينتليان. كما يوجد إنجاز آخر مساو إن لم يكن أكثر أهمية وهو الترويج لفكرة المواطن – الخطيب، كنموذج وكأعظم هدف قومي لأى رجل روماني. وهى فكرة مأخوذة بشكل أساسي من كتاب (عن الخطيب) "On the Orator". كان كينتليان من أخلص مؤيدى النظام الإمبراطوري، بمن فى ذلك، الإمبراطور الصعب، سريع الحساسية والطاغية

في بعض الأحيان دوميتيان Domitian. وهو لا يلتفت كثيرا إلى تأثير التحول من الجمهورية إلى الإمبراطورية على نموذجه للمواطن – الخطيب. ويتحدث كينتليان في الجزء الرابع من كتابه عن تعيين الإمبراطور دوميتيان Domitian له ليكون مسئولا عن تربية أولياء عهد الإمبراطور. وفي بعض الأحيان يبدو كأن الخطيب الكامل فى نظر كينتليان لا يمكن إلا أن يكون شخصا سوف يصبح إمبراطورا فيما بعد. ومن الشروط الرئيسية لمثل هذا الشخص أن يكون "رجلا فاضلا" "bonus vir, dicendiperitus" وقد ذكر هذا الشرط في مقدمة العمل كله ثم ذكره في الكتاب على نحو متكرر، ثم يتم التأكيد عليه في الجزء الأخير الذى يبدأه الكاتب(12:1.1) باستشهاد فيه استحسان للتعريف الذى أعطاه من قبل كاتو الأكبر، رجل الدولة الذى عاش في روما في القرن الثاني الميلادى، "الرجل الفاضل هو الماهر في الكلام" "a good man skilled in speaking"، ويظهر تأثير هذا في تعريف كينتليان للبلاغة على أنها "القدرة على الكلام بمهارة".bene dicendi scientia (2.15.34) والمهارة bene هنا تشتمل على أبعاد أخلاقية كما تشتمل أيضا على أبعاد جمالية وعملية. وخلافا لما تصوره البعض أحيانا، لم يعتقد كينتليان أن دراسة البلاغة سوف تجعل الرجل صاحب أخلاق، فقد كان يرى أن المعايير الأخلاقية تستمد من قيم الأسرة والقدوة الحسنة والدراسة العميقة للأدب الذى يحمل معانى أخلاقية.

والجزء العاشر هو الجزء الأكثر شهرة لدى طلاب اللاتينية، وهو بمثابة الملحق أو التكملة للنقاش حول الأسلوب المتضمن في الجزأين الثامن والتاسع وفيه يطرح سؤالاً عن كيفية تحقيق "الوفرة" "copia" أي الكثرة أو الثراء في الأفكار والكلمات. والإجابة التى يعطيها هى دراسة وتقليد الكتاب العظماء السابقين. وهو يعطى قائمة قصيرة بكتب لمؤلفين يونانيين - 10.1.46)

(84 تستحق القراءة بداية من هوميروسHomer، واعتمادا على قائمة الشعراء . التى أعدها النحويون السكندريون في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. كما يضيف إليهم كتبا في ثلاثة أنواع هى التاريخ والخطابة والفلسفة، ويشبه كلامه ما جاء في العمل الناقص لديايونايوس الهاليكارناسوسى المسمى "عن المحاكاة" "On Imitation". ثم يتبع كينتليان هذه القائمة للأعمال اليونانية بقائمة أطول من الأعمال المكتوبة باللاتينية (131 - 10.1.85) وهو يعقد مفاضلات بين الكتاب اليونانيين والرومان في نفس الأنواع، بين فيرجيل Virgil وهوميروس Homer، وبين شيشرون Cicero وديموثيين Demosthenes، وهكذا. وفي الفصل الثاني من الجزء العاشر يواصل كينتليان كلامه عن المحاكاة كأسلوب لتحسين الكتابة البلاغية.

وعلى الرغم من أن كينتليان كان متخصصا يحظى باحترام كبير من الكتاب اللاحقين عن البلاغة، فإن كتابه كان أطول وأكثر تفصيلا مما يتطلبه الكثير من القراء، كما أن فكرته عن الخطيب النموذجى كانت تبدو بمرور الوقت أقل قابلية للتحقيق. وقد عُرف عمله طوال هذه العصور الوسطي بشكل أساسي من خلال مخطوطات حذفت أجزاء كبيرة من العمل الأصلي. وفي ١٤١٦ اكتشف بوجبو براكيولنىPoggio Bracciolini مخطوطة تحتوى على النص كاملا فى سانت جول. وقد أثارت نسخ هذا النص عندما تم تداولها في إيطاليا إعجابا عظيما بين الإنسانيين فعاد كينتليان مرة أخرى إلى التقليد البلاغى كأحد المصادر الرئيسية جنبا إلى جنب مع شيشرون وكمصدر مهم عن التربية أيضا.

توجد مجموعتان من الخطب تم تأليفهما في القرنين الرابع أو الخامس الميلادى ينسبان في المخطوطات إلى كينتليان. وهى تعرف باسم الخطب الرئيسية Major Declamations وتعد جديرة بالاهتمام لكونها الأمثلة اللاتينية

الوحيدة على خطب كاملة، ولكنها بدون شك ليست من تأليف كينتليان وقد ترجمها إلى الإنجليزية لويس أ. سوسمان Lewis A. Sussman (فرانكفورت أم ماين، ١٩٨٧)، والمقتطفات، التى لم تترجم إلى اللغة الإنجليزية، والتى تعرف باسم الخطب الصغرى ربما تحتوى على بعض موضوعات كان يتم التدريب عليها في مدرسة كينتليان.

البلاغة المتأخرة بعد كينتليان:

درس بلينى الأصغر Pliny the Younger (حوالى ٦١ - ١١٣ ميلادية) البلاغة مع كينتليان ونجح في العمل السياسى فى روما. وهو معروفٍ بشكل أساسي بمجموعة الرسائل التى نقحها ونشرها بما فيها رسائله كحاكم أثينا التى احتوت على أقدم إشارة باللغة اللاتينية إلى المسيحيين. أما خطبته Panegyricus المديح: فهي خطبة طويلة لشكر الإمبراطور تراجان Trajanعلى تعيينه حاكما في سنة ١٠٠ ميلادية، وهى لا تزال موجودة كأقدم مثال على الخطبة الرومانية الاحتفالية. وهناك عدد من الخطب اللاحقة من هذا النوع تعرف مجتمعة باسم خطب المديح اللاتينية Panegrici Latini.

وقد أُطلق اسم "البلاغيون اللاتينيون الصغار" "Minor Latin Rhetoricians"على أصحاب مجموعة الكتابات اللاتينية من القرن الثالث حتى القرن الثامن الميلادى، وهى التى حررها من بعد، كارل هالم Karl Halm (ليبتسيج ١٨٦٣) تحتوى على عدد من الكتب التعليمية عن المجازات والمحسنات البلاغية وعلى أعمال تناقش البلاغة ككل عند كل من: فورتوناتيانوس Fortunatianus وسوليبتوس Sulpitus فيكتورVictor وجوليوس سفيريانوس Julius Severianus وآخرين، كما تضم تعليق فيكتور تيوس على كتاب لشيشرون "عن الإبداع" "On Invention" وأجزاء عن البلاغة من موسوعات

عن الفنون العقلية كتبها في بداية العصور الوسطى ماريتانوس كابيلا Martianus Capella وكاسيودوروس Cassiodorus وايزيدور الإشبيلى Isidore of Seville وأيضا محاورة "عن البلاغة" مع شارل مانى لـــ "ألكوان Alcuin" وبعض النصوص القصيرة الأخرى. وقد نشرت بعض هذه الأعمال منفصلة فى طبعات أحدث. وربما تكمن أهميتها الرئيسية في توضيح الصورة المختزلة لتدريس البلاغة في تلك القرون والتى انتقلت منها إلى القرون الوسطى، ولقد استمر التركيز على الخطابة القانونية بما في ذلك شرح نظرية الوضع Stasis.

وقد كان من بين آباء الكنيسة اللاتينين العظماء الثمانية، خمسة آباء احترفوا تدريس البلاغة قبل أن يتحولوا إلى المسيحية وهم ترتوليان Tertullian وسايبريان Cyprian وأرنوبياس ولاكتانتيوس Lactantius و Augustine أغسطين، بينما الثلاثة الآخرون وهم أمبروز Ambrose وهيلارى Hilary وجيروم Jerome تلقوا تدريبا جيدا في المدارس البلاغية، كان بعض المسيحيين الأوائل يشعرون بعدم الارتياح تجاه البلاغة وعلى وجه الخصوص جيروم، ولكن لاكتانتيوس Lactantius (حوالى ٢٤٠ – ٣٢٠٠ ميلادية) حاول التوفيق بين الدراسات الوثنية والدراسات المسيحية. وتحتوى رسالة أغسطسين "عن التعليم المسيحي" "On Christian Learning" على أهم نقاش في البلاغة كتب باللغة اللاتينية "فى الفترة ما بين زمن كينتليان والإنسانيين في عصر النهضة".

البلاغة اليونانية المتأخرة:

ناقشت تعاليم البلاغة في اللاتينية المأخوذة من شيشرون و"بلاغة لهيرينيوس" وكينتليان بشكل أساسى الخطابة القانونية، وبالتالى كانت مرتبطة

بالإنجازات الفكرية العظيمة للرومان الذين طوروا النظام والإجراءات القانونية. وعلى النقيض من ذلك تتسم البلاغة اليونانية المتأخرة بارتباطها بالإنجازات الفكرية لليونان في الفلسفة. لقد اعتبر الفلاسفة والبلاغيون اليونانيون دراسة البلاغة مصحوبة بالتدريب على الخطب ضربا من التدريب على التفكير والتعبير المنطقيين، وأنها تستكمل ما تم بدؤه في المدرسة المتوسطة وأنها أيضا إعداد لدراسة الفلسفة عند الطلبة الذين بلغوا هذه المرحلة المتقدمة. وفي الأزمنة اليونانية اللاحقة كانت الفلسفة مرادفة للأفلاطونية الجديدة. ومن الأفلاطونيين الجدد الذين كتبوا عن البلاغة فرفريوس Porphyry وسيريانوس Syrianus وهيرمايس Hermeias وأوليمبيودورس Olympiodorus. وكان تأثير الأفلاطونيين الجدد قويا أيضا بين السوفسطائيين الجدد، ومن الممكن العثور على صورة جيدة للمدارس البلاغية والفلسفية في القرن الرابع الميلادى في كتاب يونابيوس Eunapius "حياة الفلاسفة" "Lives of the Philosophers".

توجد كمية هائلة من الكتابات اليونانية عن البلاغة، منها كتب عن التدريبات، ونظرية الوضع، والإبداع والأسلوب بقيت لنا من عصر الإمبراطورية الرومانية، وكمية ضخمة من خطب السوفسطائيين والوعاظ المسيحيين تقدر بآلاف الصفحات، وتتسم بتنوع كبير فى الأساليب وفي المهارات البلاغية. وأفضل عمل يوناني متأخر عن البلاغة هو بدون شك الرسالة القصيرة بعنوان "عن السمو" "On Sublimity" المنسوبة إلى لونجاينوس. إن المؤلف الذى كان يظن طويلا أنه أشهر البلاغيين وهو كاسيوس لونجينوس Cassius Longinus، والذى عاش في القرن الثالث الميلادى وألف كتاب "فن البلاغة" الذى حفظ لنا أجزاء منه. ولكن ما يعتقد الآن هو أن رسالته: "عن السمو" عمل كتبه في القرن الأول أو القرن الثاني على الأرجح

مؤلف مجهول، كان يُشار إليه أحيانا على أنه لونجانيوس أو أحيانا أخرى على أنه لوجينوس المستعار، ولكن مالكولم هيث Malcolm Heath أحيا نسبة العمل إلى كاسيوس لونجاينوس فى مقالة كتبها في ١٩٩٩. والعمل عبارة عن دراسة شديدة الحساسية للأسلوب الرفيع في النثر والشعر مدعمة بالأمثلة المنتقاة وتستخدم أسلوبا نقيا مأخوذا من البلاغة. يقول المؤلف إن هناك مصادر خمسة للأسلوب الرفيع، هى القدرة على الإتيان بأفكار قوية التأثير (الإبداع)، والعاطفة القوية والأجزاء الثلاثة للأسلوب التى يدرسها البلاغيون وهى الصور الجمالية والخطب، ونبل الكلمات، والإنشاء (بمعنى آخر ترتيب الكلمات والإيقاع والرخامة). لم يكن هذا العمل الذى تشوبه بعض الثغرات معروفا جيدا إلى أن نشرت ترجمة نيكولا بوالو ديسبيرو Boileau Despearaux الفرنسية في ١٦٧٤ مصحوبة بمقدمة وتعليقات ثم تلتها مقالات بوالو ديسبيرو حول هذا الموضوع. وقد روج جون درايدن John Dryden لهذا الموضوع فى الإنجليزية وتلى بعد ذلك الإعجاب الفائق برسالة "بالسمو"، ثم جاءت إضافات إدموند بيرك Edmund Burke وإيمانيول كانط Immanuel Kant وغيرهم.

وباستثناء لونجابيوس فإن أهم الكتابات اليونانية المتأخرة عن البلاغة هى تلك التى كتبها هيروموجينوس التارسوسى (حوالى ١٨٠ قبل الميلاد) أو التى نُسبت إليه. وأعماله الأصلية هى رسائل "عن القضايا" "On Stases"(التى ترجمها إلى الإنجليزية وعلق عليها مالكولم هيت، أكسفورد، ١٩٩٥)، والتى أعادت ترتيب هذا الموضوع المعقد وتقسيمه إلى سلسلة من الأقسام المنطقية، و"عن الأفكار" "On Ideas"التى ترجمها بعنوان "عن أنواع الأسلوب" "On Types of Style" التى ترجمتها إلى الإنجليزية سيسيل.ووتن Cecil W.Wootein وتشابل هيل Chapel Hill، ١٩٨٧، والتى أعادت أيضا ترتيب سمات الأسلوب

بطريقة جديدة وأسهل فى التعلم. وقد شكل هذان العملان الجزء الرئيسي من خلاصة وافية عن البلاغة، أضيفت إليها في القرن الخامس الميلادى غالبا التدريبات الأولية لأفثوينوس Aphthonius، وكذلك عملان كتبهما مؤلف مجهول، ورسالة "عن الإبداع "On Invention" ، تتكلم عن أجزاء الخطبة وبعض الأدوات البلاغية، ومقال بعنوان "سبيل القوة". وقد أصبحت هذه الخلاصة بعد ذلك أساس مناهج البلاغة طوال الفترة البيزنطية وكتبت عنها تعليقات كثيرة. وقد حظيت الأعمال الهيرموجونيه، كما ذرج على تسميتها، على اهتمام الإنسانيين الإيطاليين في القرن الخامس عشر الميلادى، وتم تناول أفكار هيرمو جينس على وجه الخصوص بكثير من الاهتمام من قبل النقاد والمدرسين في عصر النهضة.

ومن بين النصوص البلاغية اليونانية المتأخرة يوجد كتابان عن الهجاء والمدح ينسبان إلى ميناندر ريتور Menander Rhetor لهما أهمية خاصة. يصف ميناندر بالتفصيل الأنواع الكثيرة المختلفة من الهجاء والمدح التى كان يتم التدريب عليها في المدارس اليونانية المتأخرة، والتى كانت تلقي بمناسبة الاحتفالات العامة. ومن هذه الأنواع الأناشيد النثرية ومدح الأماكن، والخطب الموجهة إلى الأباطرة والمسئولين الآخرين، والخطب التى كانت تلقي في حفلات الزفاف والجنائز، وخطب الشعراء وغيرها.

لقد طبع ألدوس مانويتوس Aldus Manutius أول مجموعة من النصوص البلاغية اليونانية في البندقية في ١٥٠٨. ولا تزال الدراسات الحديثة للبلاغيين اليونانيين تعتمد على كتاب "نصوص بلاغية يونانية" Rhetores Graeci الذى حرره كريستيان والتس Christian Wa (لندن ١٨٥٣ - ١٨٥٦). ولكن عددا من النصوص الأكثر أهمية تم تحريرها بشكل منفصل وزودت بترجمات إنجليزية وحواش.

تعريف البلاغة الكلاسيكية من الناحية النظرية:

يتضمن هذا الجزء تعريفات وأنواع البلاغة وتحديد المسألة التى تناقش وأجزاء الخطبة القانونية وأمورًا أخرى.

تعريفات البلاغة:

يستعرض كينتليان (15 - 2)، بلا تدقيق على أى حال، الكثير من التعريفات التى اقترحها متخصصون سابقون يونان ولاتين للبلاغة. وقد ثار كثير من الجدل حول ما إذا كانت البلاغة سمًا أم فضيلة، فنا أم ملكةً، موهبة خاصة، أم شيئًا آخر غير ذلك كله. أما تعريف كينتليان نفسه للبلاغة بأنها "معرفة كيفية الكلام على نحو جيد" فهو باعترافه قريب الشبه بتعريف الفلاسفة الرواقيين كلينثيس Cleanthes وكريسبيس Chrysippus. لكن الكثير من المشتغلين بالبلاغة فضلوا عدم تعريفها بعبارة واحدة وآثروا وصفها عن طريق الكلام عن وظائفها وأغراضها وموادها وأجزائها أو الكلام عن مهام الخطيب. وهذه الطريقة مستخدمة بالفعل في كتاب شيشرون "عن الإبداع"(7 - 1.6)، وأيضا فى "الخطابة إلى هيرينيوس". كما استخدمت بانتظام أيضا في التدريبات أو المقدمات لدراسة البلاغة الموجودة في بداية الأعمال الهيروموجينية، ولكن تسوق المقدمات أيضا أشكالا لتعريفين عن البلاغة أولهما مأخوذ من أرسطو عن طريق هيرماجوراس التيمنوسي، والذى يصف البلاغة بأنها "فن متعلق بقدرة متصلة على الحديث المتعلق بموضوع سياسى بشكل مُقنع يتفق مع ما هو موجود". والتعريف الثاني يعزى إلى دايونايسوسى الهاليكارناسوسى، الذى وصف البلاغة بأنها "قدرة فنية على الكلام المقنع عن موضوع سياسى الهدف منها الكلام بشكل جيد".

أنواع البلاغة:

نهج جميع البلاغيين الكلاسيكيين نهج أرسطو في التمييز بين ثلاثة أنواع من البلاغة: القانوني والنوع الذى يهدف للوصول إلى قرار والهجاء والمديح. وتناقش الكتب التى جاءت بعد أرسطو البلاغة القانونية على نحو مفصل ثم تضيف فصولا قصيرة عن النوعين الآخرين. كما كانت التدريبات الأولية التى سبق أن ذكرناها تعطي تدريبًا على بنية الكلام وعلى مواضع المديح والمناظرة حول التشريعات.

تحديد الموضوع:

كان من المعتقد أنه قبل الشروع في كتابة أو إلقاء خطبة ما، لابد على المتحدث أن يحدد الموضوع أو القضية في تلك الحالة. وكان واضحا أن هذا الأمر مطلوب في البلاغة القانونية، لكن البلاغيين عادة ما كانوا يزعمون أنه يسرى أيضا على أنواع البلاغة الأخرى. وقد تناول أرسطو هذه المسألة باقتضاب في كتابه "فن الخطابة" (1.13.10; 3.17.1) واستخدم مصطلح amphisbetesis بمعنى "المشكوك فيه". أما المصطلح الفنى "الوضع" —الحالة – فقد انتشر في اللغة اليونانية على يد هيرماجوراس التيمنوسى في القرن الثاني قبل الميلاد الذى ناقش هذا الموضوع في عمل كان واسع التأثير ولكنه فقد. وفي اللاتينية كان يطلق عليه لفظ constiutio الموضوع ثم تغيرت الكلمة مؤخرًا إلى وضع أو حالة. ويصف شيشرون تنويعات على نظام هيروماجوراس في "عن الإبداع" (154 - 19;2.11 - 1.10) وفي "الأجزاء البلاغية" "Rhetorical Partitions" (138 - 101)، وهى موجودة أيضا في "الخطابة إلى هيرينيوس" (26 - 25;2.3 - 1.18) وفي كينتليان، (10 - 3.6l 11;7.2) والبلاغيين اللاتينيين الصغار. ولكن أفضل عرض هو الموجود في كتاب "عن الأوضاع" لهيرموجينيس"، ولكن هذا العمل اليوناني الذى كان كبير التأثير طوال الفترة البيزنطية كان إلى حد كبير غير معروف لدى القراء اللاتين.

في العادة كانت هناك ثلاثة أنواع معروفة من الأوضاع "العقلية". فمن الممكن مثلا أن ينكر المتهم بجريمة ما أو المحامي الذى يدافع عن موكل وجود أي علاقة له بالموضوع (ينكر مثلا أنه قد قتل أى شخص)، ويسمي هذا coniecturalis أو: واقع الحال. في هذه الحالة يكون على الادعاء أن يظهر أنه من المرجح أن هذا الشخص مذنب عن طريق إثبات وجود دافع للجريمة وأنه من غير المرجح أن يقترف شخص آخر الجريمة ويستعرض الظروف التى تشير إلى أنه مذنب (المكان، الوقت، المدة، المناسبة، الفرصة في النجاح، الفرصة في ألا يتم اكتشافه)، وعن طريق استعراض الأفعال المريبة التى قام بها قبل وأثناء وبعد الجريمة، وباستخدام الموضوعات لإثبات الادعاء. وقد يتضمن هذا أدلة عن طريق الشهود أو حجاجا يثبت أو ينفي مصداقيتهم. إذا لم يكن الدفاع يتوقع النجاح بالتساؤل عن الحقيقة يمكنه في هذه الحالة (٢) أن يلجأ إلى وضع "التعريف" أو "القانون" فيزعم مثلا أن الفعل لا ينطبق عليه التعريف القانوني لجريمة القتل. ولابد أن يقوم الادعاء بتعريف الجريمة وإثبات التعريف ثم مقارنته بالفعل الذى تم الاعتراف به ومن الممكن أن يقول الكلام القانوني من أن هذه الفعلة شريرة ويتكلم عن الحاجة إلى العقوبة. ومن الممكن للدفاع أن يهاجم هذا الكلام وأن يهاجم أيضا الادعاء ودوافعه. كما يمكن أيضا استخدام طريقة أخرى للدفاع (٣) وهى وضع الكيفية. تكون الكيفية مطلقة إذا اعترف المتحدث باقتراف الفعل ثم حاج بأنه كان صحيحا في ذاته، أي أنه صحيح من الوجهة الأخلاقية. ويقال إن بروتس (كوسنتليان(3.6.93) استخدم هذا النوع عندما كتب خطبة لميلو دافع فيها عن اتهامه بقتل كلوديوس على أساس أن كلوديوس كان يستحق القتل. ولكن الأشهر هو "الدرجة الافتراضية" التى يحاج فيها الدفاع بقوله إن هذا الفعل أقل شرا من بدائل أخرى، أو أنه جاء نتيجة لأفعال غير قانونية لشخص آخر، أو أن مسئولية الفعل تقع على عاتق شخص آخر (مثلا أن

يكون شخص أعلى منه قد طلب منه أن يفعل ذلك). أو قد يزعم المدعى عليه أنه قد تصرف عن جهالة أو بالخطأ أو لضرورة، وكحل أخير من الممكن أن يطلب الرحمة فيحضر مثلا زوجته المضطربة لدرجة شديدة وأولاده الباكين.

وقد أضاف نظام هيرماجوراس المبتكر وضعا رابعا هو "ردّ القاضي" الذى يقول فيه الدفاع إن القاضي أو المحكمة ليست لها سلطة قضائية في هذه القضية. وهذا الوضع موجود أيضا في بعض الأنظمة اللاحقة، ولكنه لم يكن ينطبق في الإجراءات القضائية الرومانية حيث كان للقاضي سلطة قضائية محدّدة قبلا. وبالإضافة إلى هذه الأوضاع كانت هناك مسائل قانونية يمكن أن تنطبق على أي من الأوضاع الأربعة السابقة، وهى تتعلق بالكلام عن لفظ القانون وروح القانون والتضارب بين القوانين، وغموض القانون أو الحاجة إلى استخدام المقارنة إذا لم يكن هناك قانون ينطبق على الحالة مسائل أخرى شبيهة.

معايير البلاغة:

دائما كان يدرس في تعليم البلاغة أنها تتكون من العناية بالإبداع والترتيب والأسلوب والتذكر والإلقاء. وبما أن النقاش حول الإبداع فى الكتب التى تلت أرسطو كان مهتما بالكلام عما يقال في كل جزء من الخطبة فقد بقي للترتيب مهمة العناية بتتابع أو تسلسل الحجاج وما إذا كان من الأفضل البدء بأقوى النقاط أو تركها إلى الجزء الأخير، وهو ما كان يتوقف بشكل أساسي على ظروف معينة.

أجزاء الخطبة القضائية:

حتى منذ البداية أجرى البلاغيون بعض الإضافات إلى الأجزاء الأساسية للمقدمة وهى: تقرير الحالة والإثبات والخاتمة. فكينتليان (3.9.1) يذكر أن معظم

الخبراء قد قسموا الخطبة القضائية إلى فاتحة وذكر الحقائق والإثبات والتفنيد والخاتمة، وأن البعض أضاف بين السرد والإثبات جزأين وجزءًا بين الإثبات والخاتمة. وقد اتفق الجميع على أن وظيفة الفاتحة هى جذب انتباه المستمعين وإعدادهم لقبول ما سوف يقال وجعلهم متعاطفين. إن المصادر الرئيسية للفاتحة هى المتحدث ومعارضوه والجمهور وحقائق أو وقائع القضية. إذا كانت القضية سيئة السمعة أو كان المستمعون قد اقتنعوا بما قاله متحدث سابق أو كانوا متعبين، فمن الضرورى استخدام أسلوب غير مباشر. ويجب أن يكون الجزء السردى الذى تذكر فيه الحقائق واضحا وقصيرا وجديرا بالتصديق. أما الإثبات الذى كان في بعض الأحيان يسبق بتقسيم للمسائل وتلخيص قصير لأطروحة المتحدث فهو الجزء الذى يقدم الحجاج، وقد يحاول الادعاء أن يتنبأ بما سوف يحاج به الدفاع ويفنده، بينما يتكون الدفاع أساسا من تفنيد الحجاج الذى ساقه الادعاء. لقـــد أدخل شيشرون في الخطب القانونية الكبرى، شأنه في ذلك شأن الخطباء الأتيكيين، استطرادا عن الأخلاق وضعه بين الإثبات والخاتمة انطوى على وصف للمبادئ الموجودة في القضية وسماتها بهدف دعم أو إضعاف مزاعمها أو أدوارها. وقد ناقش جيمس م. ماى James M. May هذا الموضوع في كتابه "محاكمات الشخصيات: فصاحة الشخصية الشيشرونية" Trials of Characters: The Eloquence of Ciceronian Ethos. وتأتى أخيرا الخاتمة التى تلخص قضية المتحدث وقد تحاول أن تثير في المستمعين مشاعر الشفقة أو الثورة أو مشاعر أخرى. ويكرس كينتليان الجزء الخامس من كتابه بأكمله للإثبات المنطقي ثم يناقش في الفصل الأول من الجزء السادس خواتيم الخطب، ثم فصلان طويلان عن الإقناع الأخلاقي Pathos الاستمالة العاطفية.

لقد اعتبر أرسطو أن الاستمالة العاطفية بمثابة عرض المتحدث لمصداقية الشخصية (التى يدافع عنها) وذلك لأنه في المحاكم اليونانية كان المتحدث في العادة غير معروف بالنسبة للمحلفين. ولكن شيشرون وكينتليان أدركا أنه وفقا للإجراءات الرومانية التى يترافع فيها محامون محترفون فى القضايا، فإن وضع طبيعة المبادئ المتعلقة بالقضية أو شخصية الموكلين أو الشهود أو حتى القضاة فى الاعتبار قد يؤدى إلى النجاح.

الإثباتات:

على الرغم من ملاحظة معظم البلاغيين الكلاسيكيين تمييز أرسطو بين الإثبات الفني وغير الفني، ولبعض ما أورده عن الإقناع الأخلاقي والاستمالة العاطفية، فإن تأكيد أرسطو على الإثبات المنطقي تم اختزاله في البلاغة الكلاسيكية بعد أرسطو. ولم تلق طرق الحجاج التى ناقشها أرسطو في كتابة "فن الخطابة" "On Rhetoric"٢٢ - ٢٣ إلا قدرا قليلا من الاهتمام في الكتابات البلاغية التالية، وكانت تدرس كجزء من الجدل. وبداية من القرن السادس كان الإبداع البلاغى يعامل في بعض الأحيان على أنه هو الآخر جزء من الجدل (ويعود هذا الرأى مرة أخرى في عصر النهضة). انظر على سبيل المثال نقاش بوثيوس عن البلاغة في الجزء الرابع من كتاب "عن المواضع المختلفة".

وما ذكره شيشرون عن الحجاج في كتابه" عن الإبداع" هو جزء من نظرية الوضع وهذا (2.67 - 68) ما يسميه ratiocinatio الحجاج المتكون من خمسة أجزاء، والذى عرفه اليونانيون بكلمة معناها الحرفي هو "الحفنة" "handful". وفي مدارس والخطب أصبحت الحفنة صيغة للإفاضة في الأسلوب أكثر منها طريقة للاستنتاج من مقدمات. انظر بالذات النقاش في

رسالة "عن الإبداع" الهيرموجونية. وتتكون الحفنة كما وصفها شيشرون من مقدمة كبرى وأسباب داعمة ومقدمة صغرى وسبب يدعمهما ونتيجة. وقد خصص كينتليان الجزء الخامس من كتاب "تعليم الخطيب" Education of the Orator للإثبات كجزء من الخطبة القضائية. وهو يبدى بعض المعرفة بالنظريات الأرسطية خلافا لشيشرون الشاب في كتابه "عن الإبداع" (3.5) ولكاتب " رسالة إلى هيروينيوس (2.28)". وقد خصص نصف هذا الكتاب للإثباتات غير الفنية بما فيها السوابق القانونية والإشاعات والأدلة الوثائقية بالإضافة إلى فصل فريد عن الشهود واستجوابهم. ويلى ذلك سلسلة من الفصول عن الحجاج الفني، بما في ذلك نقاش الإشارات والحجاج بناء على الاحتمالات والأمثلة، على حين أن الفصل الأخير مخصص للقياس الإضمارى والقياس الظنى epicheireme وهو يسجل (5.14.1) استخدامين لمصطلح القياس الإضمارى، والاثنان قد أصبحا الآن مقبولين في اللاتينية: فيقول إن المصطلح يؤخذ في بعض الأحيان بمعنى قياس ناقص، وفي أحيان أخرى بمعنى حجاج ينطلق من شيئين متعارضين. أما بالنسبة إلى الـــ epichereme فعلى الرغم من أن البعض اعتبروا أنه يتألف من أربعة أو خمسة أو ستة أجزاء، فإن كينتليان يرى أنه يتكون من ثلاثة أجزاء فقط (5.14.6). وبالتالى فإنه من ناحية الشكل لا يختلف عن القياس، ولكن القياس به عدد أكبر من الأنواع ويستنتج الحقائق من الحقائق بينما الـــ epichereme يعنى على الدوام بعبارات قابلة للتصديق فقط (5.14.14).

الأسلوب:

للنظرية الكلاسيكية في الأسلوب جزءان: اختيار المفردات ثم وضعها داخل عبارات وجمل. وتظهر نظرية ثيوفراستس Theophrastusعن مزايا الأسلوب فيما أورده كينتليان (دون أن يذكر مصدرها) في شكل القاعدة التى

تقول إن الكلمات المفردة يجب أن تكون كلمات لاتينية سليمة وواضحة ومزخرفة ومناسبة للتأثير المطلوب؛ كما أنها يجب أن تكون موضوعة في المكان المناسب وأن تحتوى على صور(.8.1.1). ويستغرق نقاش كينتليان عن الأسلوب الجزء الثامن والتاسع والعاشر والفصل الأول من الكتاب الحادى عشر. وكان من ضمن الأهداف الرئيسية لدراسة الأسلوب في النثر، في الفترة الكلاسيكية وفى عصر النهضة أيضا، تعلم طريقة تفصيل الأفكار وإضفاء التنوع عليها، حيث إن الأفكار في الخطب وفي الشعر البلاغي وفي بعض الأنواع الأخرى كانت في معظم الأحيان تقليدية، وبالتالى كان من السهل عدم الالتفات إليها على اعتبار أنها بالية ومملة مالم يتم تحسينها. ويناقش كينتليان إطالة وتقصير الأفكار والتعبيرات في الفصل الرابع من الجزء الثامن. لقد أعطت اللغة اللاتينية بعد شيشرون قوة وفاعلية للأسلوب عن طريق الاستخدام المتكرر لعبارات محكمة مأثورة، أو كما صاغها إسكندر بوب Alexander Pope فيما بعد "ما تم التفكير فيه كثيرا ولكن لم يعبر عنه بنفس الجودة". يكرس كينتليان فصلا لهذه العبارات ويعترف أنها قد أصبحت جزءا أساسيا من فن الخطيب.

ولقد تضمنت زخرفة الأسلوب التى كانت إحدى الأولويات في الخطب والتى كانت مهمة أيضا في النثر الأدبى استخدام الصور والإيقاع والوقفات. ويصف كينتليان (8.6.1) المجاز بأنه تغيير كلمة أو عبارة من معناها الأصلى إلى معنى آخر، والاستعارة هى أهم أشكاله. ولكن كينتليان يذكر أيضا ستة أنواع أخرى تؤثر على معنى أى قطعة: المجاز والخروج عن حدود السرد والكناية والكلمات التى يوحى لفظها بمعناها. وبالإضافة إلى هذا هناك مجازات يعتبرها مفيدة فقط كنوع من الزخرف مثل الصفة والقضية الرمزية والإطناب والمبالغة.

عادة ما كان يعتبر المجاز كاستبدال كلمة أو عبارة بأخرى أو تغيير فى ترتيب فقرة ما تحتوى على مجموعة كلمات وتقسم إلى صور بالكلمات التى أصبح يشار إليها فيما بعد بالصور النحوية والصور البيانية – يوجد أقدم شرح حول هذا الموضوع في "الخطابة إلى هيرينيوس (69 - 4.19)" التى كانت تستخدم أسماء لاتينية معرفا أربعين من الصور اللفظية وتسع عشرة من الصور البيانية. أما في شرح كينتليان فتستخدم الأسماء اليونانية واللاتينية، على الرغم من أنه يبدو أن المصطلحات اليونانية قد أصبح استخدامها معتادا في المدارس. ولكن تقسيم الصور إلى الاستخدام الفني والصورة اللفظية والصورة البيانية كان تعسفيا وكان يختلف باختلاف الكتب.

وقد تناول شيشرون موضوع الإيقاع في النثر والجمل المنمقة والتى تم إهمالها منذ أرسطو في كتابه "الخطيب". ويناقشها كينتليان في الفصل الرابع من الجزء التاسع. كان الإيقاع في النثر اليوناني والنثر اللاتينيى وفي الشعر أيضا يتحدد بناء على طول وقصر المقاطع لا النبر الخاص بكلمة معينة. ولقد اتفق البلاغيون على أنه من المندوب تحقيق تدفق إيقاعي عام مع تجنب الإيقاعات المستخدمة في الشعر. والأكثر أهمية هى المقاطع القليلة الأخيرة في الجملة متعددة الأجزاء والتى كان يفضل أن يستخدم فيها عدد محدود من أنواع المزج بين الإيقاعات. ولكن الأمر الغريب هو أن توصيات شيشرون وكينتليان حول هذا الموضوع لا تتفق بشكل كامل مع ممارساتهم كما أن ما قالوه عن تقطيع الجمل لا يصف بدقة الجمل الطويلة التى كان شيشرون على وجه الخصوص يكتبها.

احتوت البلاغة الكلاسيكية على نظرية عن الأنواع المختلفة من الأساليب. ولقد ذكرنا نظرية الأساليب الثلاثة "The Three Styles" التى تم وضعها في "الخطابة إلى هيرينيوس" كما أوضحنا أيضا نظرية الأساليب

الأربعة الموجودة في رسالة "عن الأسلوب" التى نسبت إلى ديميتريوس والأنظمة الأكثر تركيبا التى قدمها دايونايسوس الهاليكارناسوسى وهيرموجينيس التارسوسى. وبالإضافة إلى هذا توجد رسالة عن هذا الموضوع لمؤلف مجهول وإن كانت قد نسبت إلى إيليوس أربتتيدس وهو سوفسطائى من القرن الثاني الميلادى. ويمكن القول بشكل عام إن نظرية الأساليب الثلاثة الجيدة وهى الأسلوب الرفيع والأسلوب المتوسط والأسلوب البسيط وما يقابلها من الأساليب الخاطئة كانت سائدة في الغرب المتحدث باللغة اللاتينية، أما في الشرق الذى كان يتحدث اليونانية فقد كانت معروفة ولكن نظرية "أفكار الأسلوب" هى التى كانت سائدة. وكانت تتضمن الوضوح والفخامة والجمال والسرعة والشخصية والإخلاص والقوة والتقسيمات المتفرعة عن كل منهم، ويناقش كينتليان أنواع الأسلوب ويعقد المقارنات بينها وبين الأساليب المستعملة في النحت والرسم.

الذاكرة Memory إن الشرح الأفضل كثيرا للذاكرة، وهى تمثل الجزء الرابع من البلاغة الكلاسيكية، موجود في "الخطابة إلى هيرينيوس". كان يطلب من الطلبة اليونانيين واللاتين حفظ كميات كبيرة من الشعر والنثر، وحتى خُطب كاملة لفحول الخطباء. وكان الطلبة مضطرين إلى الاعتماد على ذاكرتهم أكثر بكثير مما هو مطلوب فى عصرنا الحديث. لهذا اكتسب أفراد كثيرون ما قد يبدو اليوم أنه مقدرة هائلة على التذكر. وبالإضافة إلى القدرة الطبيعية على التذكر كانت هناك أساليب تستخدم لمساعدة الذاكرة، تعتمد على تخيل صورة مادية توحي بكلمات أو أفكار متتالية وراءها خلفية مألوفة. هذا ما تصفه النصوص القديمة، وقد ظلت هذه الطريقة تجذب اهتمام المفكرين اللاحقين وقد تتبع فرانسيس أ. يتسFrances A. Yates تاريخها في كتابه "فن التذكر" The Art of Memory (لندن، ١٩٦٦).

الإلقاء: Delivery

يذكر أرسطو الحاجة إلى الاهتمام بهذا الموضوع في بداية الجزء الثالث في كتابه "فن الخطابة"، على الرغم من اعتقاده أنه موضوع سوقي أى عامي، يقتضيه فساد السامع. وقد كتب ثيوفراسيتس رسالة فقدت عن هذا الموضوع، وكانت في الغالب الأساس للشروح التى كتبت بعدها. ويوجد نقاش عن نفس الموضوع في "الخطابة إلى هيرينيوس"، كما أن شيشرون يعلق على الموضوع في سياقات متعددة، ولكن الشرح الأوفى للطريقة التى كان الخطيب القديم يلقي بها خطبه، بما في ذلك استخدام الصوت وحركات الجسم والأدوات المساعدة والإشارات موجود في كينتليان (١١، ٣). أما الكتب البلاغية اللاحقة فهي في الأغلب كانت تتجاهل الموضوع على الرغم من معرفتنا عن طريق أوصاف خطب السوفسطائيين والفن الروماني أن الإلقاء ظل مهمًا في الحياة الواقعية. ويناقش جرجورى سى الديرتى Gregory S. Aldrete هذا الموضوع في كتابه "الإشارات والهتافات في روما القديمة" (بالتيمور، ١٩٩٩).

ملاءمة البلاغة الكلاسيكية للعالم الحديث: لقد كانت البلاغة الكلاسيكية، وخصوصا التراث اللاتينى منذ شيشرون وكينتليان تدرس على مدى التاريخ الغربي حتى مع ظهور اتجاهات جديدة في البلاغة في عصر النهضة وأوائل العصر الحديث. ولكن تدريس البلاغة قد تراجع جزئيا في القرن التاسع عشر نتيجة لظهور الحركة الرومانتيكية التى ثارت على قواعد الإنشاء وفضلت التعبير التلقائى. وقد استمر هذا التوجه في بدايات القرن العشرين. ولكن إعادة البعث التى حدثت للبلاغة في النصف الثاني من القرن العشرين قد أعادت الاهتمام بالبلاغة الكلاسيكية ونصوصها الأساسية. وفي أحيان كثيرة كان موضع اهتمام الدارسين في العصر الحديث هو البلاغة كما فهمها

أفلاطون وأرسطو، وهذا هو أكثر ما دُرس في أقسام اللغة الإنجليزية والاتصال وأقسام أخرى. ولكن "الخطابة إلى هيرينيوس" (خصوصا في الطبعة الممتازة لمكتبة لويب التى حررها هارى كابلين) والأعمال البلاغية لشيشرون وكينتليان أيضا قد وسعت من قاعدة القراء. وقد أعطى كتاب "البلاغة الكلاسيكية للطالب المعاصر" Classical Rhetoric for the Modern Student الذى كتبه إدوارد بى جى كوربت Edward P. J. Corbett فهما مفيدا للطلاب عن هذا الموضوع. ولكن إلى أى درجة يجب استخدام البلاغة الكلاسيكية في الاتصال البلاغى فهو أمر كان وسيظل خلافيا إلى حد ما. وتتناول كاثلين إى وليتش Kathleen E. Welch هذه القضايا في كتابها "الاستقبال المعاصر للبلاغة الكلاسيكية" The Contemporary Reception of Classical Rhetoric و"الاستحواذ على الخطاب القديم". بالتأكيد من الممكن تحصيل مهارة مخاطبة الجماهير بشكل فعال من خلال المصادر الكلاسيكية، وبعد اكتساب المهارة يمكن ألا يتقيد المتحدث بالقواعد، كما حدث بالفعل مع الخطباء العظام في بلاد اليونان وفي روما.

لقد عقد شيشرون وكينتليان وآخرون مقارنات بين البلاغة وبين فن الرسم والنحت، بالإضافة إلى بعض المماثلات بين البلاغة وفن العمارة أيضا. كما شاعت المقارنات بين الشعر والفنون البصرية في النقد القديم. ومن وجهة نظر العصر الحديث، فإن المماثلة بين البلاغة الكلاسيكية والعمارة الكلاسيكية كما وصفها فيتروفيس Vetruvius في نهاية القرن الأول قبل الميلاد ومن كتبوا عن العمارة في عصر النهضة وبداية العصر الحديث ملائمة جدا. فكل من البلاغة والعمارة يهتم بالوحدات المكونة له أو بالبناء الذى ستشكل على أساسه إبداعاتهم. كذلك فإن العمارة الكلاسيكية شأنها شأن البلاغة الكلاسيكية طورت أساليبها التقليدية وطرقها الزخرفية. ويمكن مقارنة

أنواع العمارة الكلاسيكية الثلاثة بالأساليب الثلاثة في البلاغة الكلاسيكية. فمن الممكن مقارنة الطراز الدورى في العمارة بالأسلوب البسيط في البلاغة والطراز الأيونى بالأسلوب المتوسط والطراز الكورينثي بالأسلوب الرفيع - كما أن كلا من العمارة والبلاغة يستخدم الزخارف التقليدية التى يطلق عليها الصور(الأشكال)، وكلاهما يسعى إلى الوحدة والإيقاع في التعبير أما الطرق المساعدة على التذكر في البلاغة الكلاسيكية فهي تماثل الإفريز في العمارة وهناك شبه بين الإلقاء والقوصرة التى توضع في واجهة المباني الكلاسيكية. إن أشكال البناء والأفكار والأساليب في كل من العمارة الكلاسيكية والبلاغة الكلاسيكية قد تم التعبير عنها على مدار التاريخ الغربي، وقد أثبتت أنها متزنة وقادرة على ابتكار تعديلات وتنويعات جديدة.

مصادر ومراجع (Bibliography)

مختارات فى الإنجليزية من نصوص مهمة عن البلاغة يمكن العثور على الكثير من النصوص والترجمات الإنجليزية المذكورة فى هذا المقال فى مجلدات مكتبة لويب الكلاسيكية التى نشرتها جامعة هارفارد على مدار القرن العشرين والموجودة كسلسلة فى مكتبات عديدة. تضم السلسلة أعمالا لأرسطو وشيشرون وديموثينيس وخطباء أتيكيون آخرين مثل دايونايسوس الهاليكارناسوسى وإيزوقراط وأفلاطون وسينيكا وكينتليان. وقد تمت مراجعة عدد من المجلدات القديمة والبعض الآخر هناك جدول زمنى لمراجعته. لاحظ أن فى سلسلة لويب كتاب "البلاغة إلى الإسكندر" موجودة فى المجلد الثانى من مشكلات أرسطو. أما "عن الأسلوب" لديميتريوس و"عن السمو" الونجينوس الخطابة إلى هيرينيوس" مصنفة ضمن أعمال شيشرون. Année philologique ببليوجرافية للموضوعات الكلاسيكية تنشر سنويا فى باريس من سنة ١٩٢٤ تحت رعاية الجمعية الدولية للببليوجرافيا الكلاسيكية. وهى تتضمن قوائم شاملة لكتب ومقالات عن البلاغيين والموضوعات البلاغية. والمجلدات الحديثة موجودة أيضا على أقراص مدمجة.

Bonner, S. F. Education in Ancient Rome. Berkeley, 1977.

Bonner, S. F. Roman Declamation in the Late Republic and Early Empire. Berkeley, 1949.

Bowersock, Glen. Greek Sophists in the Roman Empire. Oxford, 1969.

Carawan, Edwin. Rhetoric and the Law of Draco. Oxford, 1998.

يدرس دور البلاغة فى جرائم القتل فى بلاد اليونان بداية من القرن الرابع قبل الميلاد.

Cole, Thomas. The Origins of Rhetoric in Ancient Greece. Baltimore, 1991.

ينتقد البلاغة بوصفها فنًا مضللاً، ولكنه مهم لفهم التقنيات المستخدمة فى بلاد اليونان.

Dominik. William J., ed. Roman Eloquence: Rhetoric in Society and Literature. London.

أربعة عشر مقالا عن البلاغة الرومانية تم جمعها تحت عنوان "النظريات والتحولات والتوترات".

Fortenbaugh, William W., and David C. Mirhady, eds. Peripatetic Rhetoric after Aristotle. Rutgers University Studies in Classical Humanities, vol. 6. New Brunswick, N.J., 1994.

Guthrie, W. K. C. A History of Greek Philosophy. 6 vols. Cambridge, U.K., 1962–1981. On rhetoric, see especially, vol. 3. The Fifth - Century Enlightenment; vol. 4. Plato, the Man and His Dialogues: Earlier Period; and vol. 5, "The Later Plato and the Academy."

Kennedy, George A. A New History of Classical Rhetoric. Princeton, 1994.

يحتوى على ببليوجرافيا موسعة.

Kennedy, George A. Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times. 2d ed., revised and enlarged. Chapel Hill, N.C., 1999

يحتوى على ببليوجرافيا موسعة.

Kinneavy, James L. Greek Rhetorical Origins of Christian Faith: An Inquiry. New York, 1987.

يحاجج أن المفهوم المسيحى للإيمان مأخوذ من البلاغة.

Lausberg, Heinrich. Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study. Translated by Matthew T. Bliss, Annemiek Jansen, and David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson. Leiden, 1998. English translation of Handbuch der literarischen Rhetorik, first published in 1960.

Leeman, A. D. Orationis Ratio: The Stylistic Theories and Practice of the Roman Orators, Historians, and Philosophers. 2 vols. Amsterdam, 1963.

Matsen, Patricia P., Philip Rollinson, and Marion Sousa, eds. Readings from Classical Rhetoric.

بداية من هوميروس إلى أوغسطين.

O'Sullivan, Neil. Alcidamas, Aristophanes, and the Beginnings of Greek Stylistic Theory. Hermes Einzelschriften 60. Stuttgart, 1992.

Porter, Stanley E., ed. Handbook of Classical Rhetoric in the Hellenistic Period, 330 B.C.–A.D. 400. Leiden, 1997.

الهدف الرئيسى منه هو شرح البلاغة الكلاسيكية لدارسي المسيحية فى العصور الأولى.

Roberts, W. Rhys., ed. and trans. Dionysius of Halicarnassus, On Literary Composition. Cambridge, U.K.,

Romilly, Jacqueline de. Magic and Rhetoric in Ancient Greece. Cambridge, Mass., 1974.

Rorty, Amélie Oksenberg, ed. Essays on Aristotle's Rhetoric. Berkeley, 1996.

ست عشرة مقالة عن البلاغة الأرسطية من منظور فلسفى.

Russell, Donald A. Greek Declamation. Cambridge, U.K., 1983.

Schiappa, Edward. Protagoras and Logos. Columbia, S.C., 1991.

Sprague, Rosamond K., ed. The Older Sophists: A Complete Translation by Several Hands. Columbia, S.C., 1972.

Wisse, Jakob. Ethos and Pathos from Aristotle to Cicero. Amsterdam, 1989.

Worthington, Ian, ed. Persuasion: Greek Rhetoric in Action. London, 1994.

اثنتا عشرة مقالة تم تجميعها تحت عنوان: " التواصل، والتطبيقات، والسياقات".

Yunis, Harvey. Taming Democracy: Models of Political Rhetoric in Classical Lthens. Ithaca, N.Y., 1996.

يولي اهتمامًا خاصًا لثايسيديديس وأفلاطون ديموشيديس.

تأليف: (جورج أ. كيندى George A. Kennedy)

ترجمة: مها عبد الرازق

مراجعة: مصطفى لبيب

اللـون Color

يركز هذا المقال على كلمة «لون» فى البلاغة الرومانية القديمة باعتبارها مصطلحًا فنيًّا لمجموعة من إستراتيجيات دعم خط معين من الحجاج، وخاصة في التدريبات الخطابية المعروفة باسم المناظرات. وقد تمت أولاً مناقشة الاستخدامات الأوسع للكلمة اللاتينية «لون»، إلى جانب كشف مظاهرها فى نظرية البلاغة اليونانية، التي تلقي الضوء على هذا الاستخدام الفنى. ومن أهم النصوص القديمة ذات الصلة مجموعة سينيكا Seneca الأكبر *«المناظرات Controversiae»*، والتى جمعت في عام ٣٠ ق. م؛ و«النظام الخطابىInstituto Oratoria» لــــكينتليان Quintilian الذى كتب في عام ٩٠ق. م، ومجموعتان حماسيتان مجهولتا التاريخ والمؤلف، لكنهما نسبتا إلى كينتليان في العصور القديمة وهما: «الخطب الكبرى Declamations Maiores (DMai) »، و«الخطب الصغرى Declamations Minores (DMin) ».

تظهر كلمة «لون» للمرة الأولى فى الكتابة اللاتينية عن فن البلاغة والكلام فى مجموعة من رسائل البلاغة التي يرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد، وتنسب للخطيب ورجل الدولة الروماني شيشرون Cicero (١٠٦ – ٤٣ق. م)، ومجموعة *Rhetorica* ad *Herennium* وهى مجهولة المؤلف. في هذه الرسائل، لا تحدِّد الكلمة أي إستراتيجية أو أسلوب بلاغي في حد ذاتها، ولكنها تشترك في واحدة من اثنتين من الاستعارات التي تصاغ البلاغة على غرارها. وإحدى هذه الاستعارات هي الرسم، أي تشبيه التمثيل اللفظي بالتمثيل التصويري. ففي «كتاب De oratore» لشيشرون، تتم مقارنة الزينة اللفظية باستخدام الرسام للون على وجه التحديد.

وبينما تكون الألوان أكثر إشراقًا، وتعطي مزيدًا من السرور عندما تكون جديدة، فإن الإفراط فيها يمكن أن يسبب تشبعًا، مما يؤدى بنا إلى العودة إلى الاستجابات الفاترة للوحات القديمة. وبالمثل، فإننا عند تزيين الخطاب، ينبغي أن نسعى لتقديم المتعة، ولكن بدون أن نسبب ذلك التشبع (راجع ٣ - ٢١٧؛ Brutus ٢٩٨؛ Orator ٦٥، ١٦٩؛ *Rhetorica ad Herennium* ٤،١٦). وتظل تلك الاستعارة البلاغية للوحة مستمرة، وتظهر في نصوص لاحقة مثل Instituto Oratoria (٤٦ - ٣ - ٤)، و *de Eloquentia* (٤ - ٧؛ منتصف القرن الثاني الميلادي) لفرونتيو Fronto و *Noctes Atticae*؛ ٤ - ١٤؛١٨٠م لجيليوس Gellius [انظر الفن **Art**].

أما الاستعارة الثانية، وهي شائعة بنفس القدر، فهى تشبيه الخطابة بجسم الإنسان؛ حيث تشير كلمة «لون» إلى درجة لون الجلد أو إلى بشرة الجسم ككل، وهى تفيد أيضًا كاستعارة لمنظومة الحديث أو المظهر العام له. وإذا انتقلنا إلى شيشرون، في كتاب De oratore (٢ - ٦٠) نجده ينقل عن أحد المتحدثين قوله إنه كما يكتسب الجلد لونا من تعرضه للشمس، فإن خطابه "يكتسب أيضًا، إذا جاز التعبير" (لون) الكتب التي يقرؤها. وعلق متحدث آخر لاحقًا على" المغزى، و"لون الخطاب" - قائلاً إذا جاز التعبير -: إنه « سلس ورشيق وسهل (teres ét tenuis)، ولكنه لا يخلو من القوة والعضلات »، وإنه" ينبغي أن يكون له لون خاص - لا يكون ملطخا بأدوات التجميل (*fucus*)، ولكنه مفعم بالحيوية (*sanguis*) (٣ - ١٩٩، انظر بروتوس Brutus ص ١٦٢؛ و de optimo genere oratorum ص ٨). وفي *كتاب* Orator ص٤٢، يقال إن البلاغة " تتأسَّس على الغذاء" الذى توفره التدريبات الخطابية في المدرسة و"تستمد لونها وقوتها "منها. وقد استمرت الاستعارة القائمة على تشبيه الكلام (أو النص) بالجسم حتى العصر الإمبراطوري (راجع Instituto Oratoria ٨ ص ص ١٨ - ٢٠، ٨ ص ص٣- ٦). وربما

يذكر فى نفس السياق الاستخدام الشائع لكلمة «لون» لتعنى مباشرة "المظهر العام ككل" أو "الأسلوب " أو "نبرة" الحديث. يقول سينيكا Seneca إن لابينوس Labienus كان يخطب مستخدما "لون البلاغة القديمة، وحيوية البلاغة الجديدة" (*Controversiae* ١٠ pr. ٥)؛ كما ناقش كينتليان كيف أن لون الكلام يمكن أن يكون متباينًا أو متوافقًا (Instituto Oratoria ٦ – ٣ – ١٠٧؛ ١٢ – ١٠ – ٧١). وتقدم استعارة اللوحة «اللون» على أنه مضاف ومصطنع وزخرفي، بشكل صريح في حين تظهره استعارة الجسم عادة على أنه (على ما يبدو) أصيل وطبيعي وأساسي – وفي بعض الأحيان على عكس ذلك يبدو "صبغة" أو "تجميلاً" يتم على المستوى السطحى.

ومع هذا يُعرف «اللون» دائمًا بأنه نتاج لفن الخطيب، كما يعرف بأنه يُبتكر بعناية كبيرة إذا اختص بـــ «موقف خطابي» معين يبدو فيه طبيعيًا تمامًا (كما تقدمه استعارة الجسم)، أكثر منه عندما يكون مضافًا بشكل أكثر شفافية (استعارة اللوحة). ونتيجة لذلك، ينطوي اللون أحيانًا على "زيف"، إذا تضمن مظهرًا ليس له علاقة بالحقيقة الضمنية أو يتعارض معها. ويشير كينتليان إلى أن الأشخاص الذين تتم محاكمتهم يجب أن "يكون لديهم لون القلق" إذ يجب أن يظهروا بذلك المظهر بغض النظر عن مشاعرهم الحقيقية (Instituto Oratoria ١١ – ١ – ٤٩)، وأنه يجب أن يحافظ المتحدث على لون معين في خطابه "حتى يبدو أنه يتكلم فقط، ولكن يتكلم بصدق" (١١ – ١ – ٥٨). وبالمثل، يلاحظ أبيليوس Apuleis في (كتاب Apologia ١٩، ١٦٠ م) أن الأغنياء يتظاهرون "بلون الفقر" عندما يرغبون في الظهور بشكل متواضع.

في المجموعة الكبيرة من الخطب اليونانية الباقية من القرن الثاني إلى القرن الرابع الميلادي، تستخدم كلمة chrōma (لون) إجمالاً بنفس الطريقة التى تستخدم بها نفس الكلمة فى اللغة اللاتينية. ومع ذلك، فإن الاستخدام الفني

لـــ «اللون» لوصف استراتيجيات جدلية معينة في الخطاب ربما يكون قد نشأ في اللغة اليونانية وليس في اللاتينية. أما بالنسبة لمعاونى الخطيب هيرماجوراس Hermagoras (١٥٠ ق. م.) فيقال إنهم استخدموا «اللون» اختصارًا "لتحول في القضية" – أى محاولة الخطيب للتخفيف من حدة القضية ضد المدعى عليه؛ بالقول إن تصرفاته كانت صحيحة أخلاقيًا، أو أنه كان يسعى للحيلولة دون وقوع نتائج أسوأ، أو أنه كان ينتقم لضرر سابق، أو أن اللوم يقع بالفعل على شخص آخر (ماتثيس Matthes، ١٩٦٢، ص ص٢٥ – ٣٠؛ فيرويذر Fairweather، ١٩٨١، ص ص ١٦٦ – ١٦٧؛ راسل Russell، ١٩٨٣، ص ص ٤٨ – ٤٩). وتسمى هذه الحجج تحديدا «*ألوانا*» في البلاغة الرومانية أيضًا، والتي وضحت مصطلحاتها المميزة بعد ذلك الوقت بقرن، أى في أربعينيات وثلاثينيات ما قبل الميلاد (فيرويذر، ١٩٨١، ص ص ١٢٤ – ١٣١؛ بونر Bonner، ١٩٤٩، ص ص ٢٠ – ٣١). وربما يشتق هذا الاستخدام اللاتيني، عندئذ، بشكل مباشر من الاستخدام الهيرماجوريني(*)«للون»، مع عرض السمات المجازية السابقة للاستخدامات اللاتينية.

ترد كلمة «لون» بمعناها التقنى (اللاتيني) أولاً في مجموعة سينيكا الأكبر *Controversiae* – أى القضايا القانونية الإبداعية التى توفر التدريب في البلاغة الجدلية. [انظر الفن الجدلي **Forensic genre**.] وفي ثلاثينيات القرن قام سينيكا (٥٥ ق. م –٣٩م) بجمع هذه المجموعة التى تمثل ذكريات العروض الخطابية التي سمعها خلال حياته الطويلة. وهو يقدم القليل من نسخ الخطب المطولة، ولكنه يجمع أبرز التعبيرات (*sententiae*) التي قدمها الخطباء الذين تحدثوا عن موضوع معين، كما يُظهر الطرق المختلفة التي ميزوا بها القضايا القائمة (*divisiones*)، ويعدد الألوان التي استخدموها.

(*) نسبة إلى هيرماجوراس Hermagoras بلاغي يوناني في بداية القرن الأول قبـــل المـــيلاد، أســـس مدرسة في روما لتعليم الخطابة.

توضح المناظرة ٩ – ٥ معنى اللون ووظيفته عند سينيكا. إن" *التيمة*"، أو "حقائق" القضية التي يجب أن يلتزم بها الخطباء، هي الآتي: ثلاثة أولاد يعيشون مع والدهم وزوجة الأب (بعد وفاة والدتهم). يمرض اثنان ويموتان بأعراض تشير إلى أن السبب هو التسمم. يُمنع والد الأم (الحقيقية) من زيارة الأطفال المرضى، فيقوم باختطاف الولد المتبقي؛ فيقاضيه الأب لارتكاب أعمال عنف (*vis*). ويستخدم الخطيب بورشيوس لاترو Porcius Latro هذا اللون مدافعًا عن الأب: إن الأب ووالد زوجته السابقة لم يحب أحدهما الآخر أبدًا، حتى عندما كانت والدة الأولاد على قيد الحياة، فقد كان عنيفًا ويميل للإيذاء، ولم يكن من الممكن أن يسمح له بزيارة الأطفال المرضى (*Controversiae* ٩ – ٥ – ٩). ويكون اللون فى قول خطيب آخر إن الجد قد حضر فى وقت غير مناسب، فقيل له "ليس الآن"، فأصبح غاضبًا. ولكن لاترو ينتقد هذا اللون لأنه يغير التيمة، والتي، كما يقول، يجب أن تُفهم على أنها تعني أن الجد قيل له "لا تحضر أبدا" وليس مجردَ "ليس الآن" (٩ – ٥ – ١٠). وهناك لون آخر للأب: "طردتُه، لأني كنت أعلم أنه حضر بنِيَّة الاختطاف "(٩ – ٥ – ١١). أما الجد فله لون واحد وهو أنه أخذ الصبي الذى كان على قيد الحياة إلى بر الأمان، حيث إن زوجة الأب هى التى قتلت الطفل الآخر بالتأكيد (زوجات الآباء الرومان هم أعداء نمطيون لأبناء الزوج)؛ وهناك لون آخر، وهو أن الولد نفسه خاف على نفسه، وطلب من جده أن يأخذه بعيدًا (٩ – ٥ – ١٢).

إن الحجج التي وصفت هنا باعتبارها «ألوانًا» هى بشكل واضح من قبيل ما أسماه الهيرماجوريون Hermagoreans: «كروماتا» أى الثأر لإيذاء سابق، وتوقع نتائج أسوأ، وإلقاء المسؤولية على شخص آخر. تتضمن كل هذه الحجج ابتكار "قصة هامشية"، للأحداث التي سبقت تلك المحدَّدة في« التيمة»، وهو ما

يفسر دوافع المدعَى عليه أو المدعِي؛ الأمر الذي يشكل تصرفاتهم على النحو الذى تم رصده في التيمة. فعلى سبيل المثال، كان الجد متعسفًا وعنيفا، أو أن الصبي طلب منه أن يأخذه. ومثل تلك الابتكارات التى تتعارض مع التيمة غير مسموح بها (راجع *Controversiae* ٢ - ٣ - ١١، ٧ - ٧ - ١٤؛ Instituto Oratoria ٤ - ٢، ٢٨، ٩٠؛ DMin ٣١٦ - ٣). ولأن تلك «الألوان» تتضمن الابتكار، فإن المصداقية والديمومة مما يحقق لها النجاح. يقول كينتليان يجب أن تتناسب تلك «الألوان» مع الأشخاص، والأوقات، والأماكن المتضمنة في القضية، ويجب ألا تتعارض فيما بينها (Instituto Oratoria ٤ - ٢ - ٨٩، وانظر DMai ١ - ١٤)؛ وعلاوة على ذلك، فإنه لا يجب على الشخص – فى القضايا الحقيقية – أن يلفق شيئًا يتناقض مع أحدِ معطياتها (٤ - ٢ - ٩٣). ومع ذلك فإن تلك «الألوان» التى لا يمكن أن تُعارَض – تحت أى ظرف – مثل الإهابة بالأحلام أو إشارات الإرادة الإلهية – هى أيضًا غير مقنعة نظرًا لبساطتها الشديدة. (٤ - ٢ - ٩٤؛ الأحلام: *Controversiae*. ٢ - ١ - ٣٣، ٧ - ٧ - ١٥؛ الإرادة الإلهية: controversiae ١ - ٣ - ٨ - ٩؛ DMin٣٨٤ - ١). ويتطلب اللون الفعال الموثوق به – كما يقول النقاد – التطور الدقيق والمنهجي في جميع أنحاء الخطاب: حيث يؤكد الخطيب الشهير أسينيوس بوليو Asinius Pollio_*Controversiae* ٤ - ٣) أنه ينبغي تقديم اللون في الحكاية *narratio* (أي ذلك الجزء من الخطاب الذي يوضح ما حدث) وتطويره في حجة *argumenta* (الحجة الرسمية التي "تثبت" القضية بطريقة أو بأخرى). [انظر **الترتيب Arrangement**، مقال عن **الترتيب التقليدي Traditional arrangement**.] كما يقول لاترو إنه خلال السياق الكامل للحديث، يمكن حتى «للألوان» الصعبة والقاسية أن تُلْقَى قبولا (*Controversiae* ١٠ pr ١٥، راجع، ٧ - ١ - ٢٠؛ Instituto Oratoria ٤ - ٢ - ٩٤). إن "خلط" الألوان – باستخدام أكثر من لون واحد في خطاب ما – هو شيء مضلل: فعند الحديث عن نفسك عليك استخدام لون واحد فقط (أي اختيار قصة قديمة واحدة ووصف دوافعك

بشكل متوافق في ضوء ذلك)، ولكن عند تخمين دوافع شخص آخر، فيمكنك اقتراح عدة قصص بديلة (Instituto Oratoria ٤ - ٢ - ٩٠؛ *Controversiae* ٤- ٦).
ويبدو اللون الذي استخدم بشكل جيد، عندئذ، مشتركًا في صفات استعارة "الجسم" أكثر من استعارة "اللوحة"، لأنه جزء طبيعي يتكامل ويتحد مع الحُجَّة التي تقنع بمظهرها الحقيقي (Instituto Oratoria ١١ - ١ - ٥٨ - ٥٩)، في حين يفشل في الإقناع الخطاب ذو الألوان "المضافة" بشكل واضح وغير المتكاملة (Instituto Oratoria، ٤ - ٢ - ٩٦،١١ - ١ - ١٢، ٥٨ - ٩ - ١٧). وفي الواقع، يمكن أن يؤدى الاستخدام البارع «للون» إلى نجاح قضية صعبة عندما تكون التيمة فيها متوجهة بقوة في اتجاه واحد. وقد اهتم سينيكا إلى حد بعيد بالألوان المستخدمة فى مثل هذه المواقف الصعبة (*Controversiae* ٩ - ٢ - ١٨- ٢١؛ ١٠ - ٤ - ١٥ - ١٨؛ انظر Instituto Oratoria ٤ - ٢ - ١٠٠).
ومع ذلك، فليست هناك حاجة دائمًا إلى استخدام « لون» مع كل حالة، ويقرر لاترو فى المناظرة *Controversia* أن الحاجة تكون للدفاع أكثر منه «للون»، ولكنه يبرر أفعال المدعى عليه عن طريق رصد ما تنطوى عليه من مزايا، وتقديم أمثلة من حياته داعمة لذلك. (راجع *Controversia* ٧ - ٥ - ٨).

لم يكن النقد الواضح «للألوان» في هذه الفقرات فقط في خدمة التدريب البلاغي. ولكنه كان أيضا سلاحًا في المنافسة على المنزلة والمكانة التي تتكامل مع الديناميات الاجتماعية للأداء الخطابي. إن آثار مثل هذه المنافسة واضحة في تجربة سينيكا الخاصة: فهو يعلن،على سبيل المثال، أن لاترو وأوتو قد حققا تميزا في التناول الفنى «لألوان» معينة (على سبيل المثال، *Controversiae* (١٠)، (١٥)؛ ٢ - ١ - ٣٤ - ٣٩)، في حين كان جارجونيوس Gargonius وموريديوس Murredius محط ازدراء لألوانهما غير المناسبة والتي لا مذاق لها (على سبيل المثال، *Controversiae* ١ - ٧ - ١٨؛ ٩ - ٤ - ٢٢).

وإذا كانت القصة القديمة تقدم أحداثًا جديدة، فقد تكون الألوان مثمرة وتولد خطبًا جديدة وكذلك تاريخًا جديدًا (٢ - ٤). ولنتأمل فى ذلك *«المناظرة»* التي تتضمن شقيقين يُحرم أحدهما من الميراث ويموت. فمن جانب يجعل اللون العام من الإخوة أعداء: إذ تسببت اتهامات أحدهما في حرمان الآخر من الميراث (٢ - ٤ - ٧)، وتجاهل حتى زيارة شقيقه على فراش الموت (٢ - ٤ - ٣). فى حين يظهر جانب آخر انتقادًا يردّ به الخطيب على هذا الاتهام: كان الشقيقان قريبين من بعضهما بعضًا؛ ويرجع حرمان أحدهما من الميراث إلى عدم عقلانية الأب أو جنونه؛ وفشل الأخ الآخر في زيارة أخيه لأن والده أخفى عنه هذه الحقيقة (٢ - ٤ - ١٠ - ١١). ويتقدم هذا اللون الخاص بالخطيب على لون المعارضة، ويبدو كما لو كان - هو في حد ذاته - "حقيقة" يجب معالجتها مع "الحقائق" المحددة في تلك التيمة. ويمكن لهذا اللون في النهاية أن يندمج اندماجًا كاملاً في التيمة مولدًا خطابًا مختلفًا تختلف التيمة الخاصة به عن التيمة الأصلية في هذا الجزء فقط (قارن DMin ٢٥٢ مع ٣٧٠، و*Controversiae* ٧ - ٣ مع DMai ١٧؛ والمناقشة في روللر Roller، ١٩٩٧، ص ص ١٢٥ - ١٢٦؛ انظرDmin ٣١٦ - ٣، حيث يندمج اللون فعليًا في التيمة). ويمكن لهذا الابتكار أن يعيد كتابة التاريخ عندما يكون الموضوع الخطابي تاريخيًا: فعلى سبيل المثال، تحتوي القصص القديمة أحيانًا على محاكمة مبتكرة سابقة تؤثر في فهم القضية الراهنة. ففى «المناظرة» (٧ - ٢)، التي يحاكم فيها بوبيليوس Popillius بتهمة قتل شيشرون - يستخدم الخطباء عادةً «اللون»، موجهين التهم إلى بوبيليوس، الذي دافع عنه شيشرون ذات مرة بنجاح في المحكمة من تهمة قتل الأب المنسوبة إليه.

ويؤكد سينيكا أن تهمة قتل الأقربين(الأب أو الأم) هي ابتكار خطابي *Controversiae* (٧ - ٢ - ٨)، وفي الواقع يُحتمل أن تكون القصة القديمة بالكامل مبتكرة. ومع ذلك، فإن الكثير من هذه المادة قد دخل بالفعل الموروث التاريخي، ويعود ذلك جزئيًا إلى أن الآثار الخطابية والتاريخية الخاصة بوفاة شيشرون قد تطورت بشكل متزامن. كما كان المؤرخون أنفسهم، مثل كل الأرستقراطيين الرومان، مدربين على البلاغة (رولر، ١٩٩٧). كانت المحاكمات المبتكرة شائعة بشكل خاص في الخطب من القرن الثاني وحتى القرن الرابع الميلادي الخاصة بالموضوعات التاريخية اليونانية (راسل، ١٩٨٣، ص ص ١١٧ - ١٢٠)، ولكن حيث إن هذه الخطب كانت مشتقة من موروث تاريخي ثابت منذ زمن بعيد، فإن هذه الابتكارات على ما يبدو لم تخترق هذا الموروث.

لا يقتصر الاستخدام الفنى «للون» على الخطابة. فأوفيد Ovid، المعاصر لسينيكا، يستخدمه لوصف حجة مقدمة في محيط مختلف تماما (Tristia ١ - ٩ - ٦٣)، ويتحدث كينتليان عن بعض الحجج في قضايا حقيقية فى المحكمة على أنها ألوان Instituto Oratoria ١١ - ١ - ٤٩،٨١، ٨٥؛ وانظر أيضًا Frontinus De Aquis ١٠٥، ١٠٠م). ويبين جاستينيونJustinian في كتابه *Digest*، (الذي جُمع في القرن السادس الميلادي، أيضًا) أن الكلمة وصفت بعض الدفاعات في السياقات القانونية الفعلية في العصر الإمبراطوري (٥ - ٢ - ٤٧؛٢ - ١٤ - ١ - ٤). وفي حين استمر هذا الاستخدام في السياقات القانونية للعصور الوسطى وعصر النهضة، فإن الاستخدام الأكثر شيوعًا في هذه الفترات يجعل اللون فعليًّا مرادفًا للصورة *figura* أو الحِليْة *ornatus* أي أنه بمثابة مصطلح شامل يغطى مجموعة واسعة من الزخارف المجازية التي "زين" بها الخطاب (Arbusow، 1963). [انظر: **الأسلوب Style**.]

[انظر أيضًا الفن؛ البلاغة الكلاسيكية؛ *المناظرة والإقناع؛ والخطابة*

[.Art; Classical rhetoric; Controversia and suasoria; and **Declamation**

مصادر أساسية

Cicero (Marcus Tullius Cicero). *De oratore*. 2 vols. Translated by E. W. Sutton and H. Rackham .

Cambridge, Mass., 1942. The other works of Cicero cited in the text are also available in Loeb translations .

أعمال شيشرون الأخرى المقتبسة فى النص متاحة فى ترجمات لويب.

Seneca (Lucius Annaeus Seneca, also called "the Elder" or "Rhetor"). *The Elder Seneca*. 2 vols .

ترجمة ومراجعة مايكل وينتربوتوم. كامبريدج، ماس، ١٩٧٤. مقدمة وهوامش قيمة وفهارس ممتازة.

Quintilian (Marcus Fabius Quintilianus). *The Institutio oratoria of Quintilian*. 4 vols. Translated by H. E. Butler. Cambridge, Mass., 1921–1922

نص لاتينى مناسب وترجمة إنجليزية تميل إلى القدم قليلا. الخطب الكبرى والخطب الصغرى التى تنسب إلى كينتليان غير مترجمة.

مراجع

Arbusow, Leonid. *Colores Rhetorici*. Göttingen, 1963. First published 1948.

دليل مصور للأشكال التى تتدرج تحت اسم "لون" فى أدب العصور الوسطى. تمت إعادة طباعته بالتصحيحات. والفهارس والببليوجرافيا والمراجع.

Bonner, Stanley F. *Roman Declamation in the Late Republic and Early Empire*. Liverpool, U. K., 1949 .

Fairweather, Janet. *Seneca the Elder*. Cambridge, U. K., 1981.

تحليل مفصل للعديد من مظاهر الخطابة الرومانية التى تركز على سينيكا. ومناقشة اللون رائعة وهى الأكثر دقة حتى الآن.

Matthes, Dieter, ed. *Hermagorae Temnitae Testimonia et Fragmenta*. Leipzig, 1962 .

Roller, Matthew B. "*Color* - blindness: Cicero's death, declamation, and the production of history. " *Classical*

Philology 92 (1997), pp. pp. 109–130 .

Russell, Donald A. *Greek Declamation*. Cambridge, U. K., 1983 .

تأليف: Matthew B. Roller

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

المصنفات وكتب التصنيف

Commonplaces and commonplace books

في بداية العصر الحديث فهم الناس التصنيف عادة على أنه آلية لتوليد خطاب منظم وفخم شفويا كان أم مكتوبا. ولكن في نهاية تلك الحقبة بدأ هذا المصطلح يأخذ إيحاءات "اعتيادية" وأصبح بعد ذلك مرادفا لـــ "trite truism الحقيقة العادية"، وهو انهيار في المعنى صاحب انهيار البلاغة عبر الزمن لتعني الكلام الخالي من المعنى. ولكن منذ أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد، كانت المصنفات والمواضيع مقصورة على بناء حجة صحيحة، وجمع المادة لبناء كتابة سليمة، كانت الأماكن بالنسبة لأرسطو في كتاب "البلاغة" وكتاب "الموضوعات" تجمع أحسن الطرق للحجاج انطلاقا من النقاط المقبولة فعلا، وتقدم نماذج لجعل الاستنتاجات قوية لتستوفي شروط الجدل. ولكن في البلاغة قد تكون الحجج مصوغة بشكل غير محكم بقدر ما يتقبل المتلقي.

كانت المصنفات "أماكن" أو "إجراءات" شائعة لدى مجموعة من العلوم والأبحاث، كتب شيشرون كتابا اسمه "الموضوعات" أدخل فيه تصنيفات أرسطو في البلاغة بشكل خاص، وخاصة التحليلية منها. كما صنف شيشرون الإجراءات، وترك لعصر النهضة لغة تستطيع أن تتكلم عن التصنيفات. وأصبحت التصنيفات هي "كراسي الحجاج"، ومجمع الناس وموارد يجب أن يزورها كل من يكتب خطبة ليعرف إن كانت مادته يمكن أن تكبر من خلال محاكاة ما تقدمه تلك المصنفات. من بين تصنيفات تلك المصنفات حجاج ينبع

من التعريفات أو من الأنواع والأنماط والتقسيم والتأسيل والتشابهات والاختلافات والتقابلات والعلل والنتائج والمقارنات. وكانت كل تلك التصنيفات - وتصنيفات أخرى كثيرة - تشكل وصف عصر النهضة لأحسن الطرق للحجاج الفعال، ومن ثم الإقناع. لقد كانت تلك التصنيفات صياغة معنوية لكل ما هو ممكن في الحجاج، وهو ما يهم في تطوير الخطبة. من بين المواضع التي يتوجب إدراجها في أى خطبة، الموضع الذي سيصبح بنفس أهمية كل المواضع الأخرى، وهو موضع شهادة الخبراء أو الاقتباس من كتابات الخبراء المحترمين أو الخطباء أو الفلاسفة أو الشعراء أو المؤرخين. كانت المصنفات في كتب شيشرون وكتّاب البلاغة في الحرانية وغيرها من عمد كتب البلاغة حتى القرن السادس عشر، أساسًا من أسس الخطابة، وتطورت بحيث لم تعد مقصورة على كونها هياكل للخطب يُقتضى بها، بل أصبحت حاويات لمواضيع معينة يقترح المصنف إضافتها لتوسيع أي خطبة من الخطب. ولذلك فخطبة في مدح شخص ما - مثلاً - يجب أن تمر بأماكن معتادة في مثل هذا الجنس كالخلفية والملامح الجثمانية والسمات الأخلاقية، وتضيف المصنفات المواضيع المحددة التي يمكن التعامل معها في مثل تلك الأماكن، مفهوم المصنفات في تلك الفترة كان موجها لفكرة "الموضوع العام"، واكتسبت الفكرة قوة في عصر النهضة؛ حيث بدأ الإنسانيون الجدد في استيعاب "مؤسسة البلاغة" لكينتليان الذي يرجع إلى أواخر القرن الأول الميلادي، تعلم الإنسانيون من كينتليان أن الخطباء في الماضي كانوا يتدربون بكتابة تمارين خطابية عن المسائل الأخلاقية كاستنكار نماذج معروفة من الشرور، وتعلموا أيضا أن القدماء كانوا يجمعون تلك الخطب في مصنفات للاستخدام فيما بعد، ومن الواضح أن فكرة المصنفات تلك كطريقة لتضخيم موضوع أخلاقي ما قد انتقلت للإنسانيين الجدد، ولكن الأكثر تأثيرًا في عصر النهضة كان كتاب بوهيثيوس (٤٨٠ - ٥٢٤) وعنوانه، "في الموضوعات المختلفة".

من الواضح أن العصور الوسطى أخذت فكرتها عن المصنفات من بوهيثيوس دون غيره، كان اهتمامه الأساسي منصبا على أعمدة الحجاج باعتبارها آليات للإثبات، وضيق الآليات بشكل كبير عن طريق تعريف الأماكن بواسطة حد مدى المنطوق، أي نوعية الحقيقة الثابتة التي تشكل المنطلق الأساسي للمنطوق؛ وهي الأماكن التي يتم التفريق بينها من خلال قاعدة الاستنتاج المستخدمة بغية إيجاد منطقة وسيطة في طريق الاستنتاجات المنطقية. ولكن بحلول أواخر العصور الوسطى أصبحت موضوعات بوهيثيوس من بين فروع المنطق الصوري في إطار نظريات المعادلات. كرس بوهيثيوس القسم الرابع والأخير من كتابه لمكانة الحجاج في البلاغة، وهو نمط من الخطاب يختلف في تصوره عن الجدل لأن مرجعيته هي الخصوصيات ونمط حجاجه فضفاض أكثر من المعادلات المنطقية. ولما كانت البلاغة تركز على الخاص فقد كان موقعها في الحجاج صغيرًا من حيث التطبيق. الخلاصة التي توصل إليها المفكرون في العصور الوسطى هي أن البلاغة فرع من الجدل وقريب فقير له لا يقدر على الارتقاء من الخاص البسيط للحقيقة المجردة الكونية. من المؤشرات المهمة على اللغة التي طورها المنطق والبلاغة في العصور الوسطى أن بوهيثيوس لم يلق بالا كبيرًا للحجاج من اقتباسات العمد الثقات، وكتاباته عن الأماكن تحتوي على أمثلة كثيرة مصطنعة، ولم تحتو على أمثلة توضيحية من كتاب غير فلاسفة ولا تطبيقات واضحة على أي نصوص خارج كتاباته، ولكن المفكرين في العصور الوسطى كانوا يمتلكون في بحثهم عن الحقيقة سلاحا أقوى من العقل المجرد، وهو الكتاب المقدس والمؤلفون الذين نشروا رسالة هذا الكتاب المقدس، فقد كان للاقتباسات من هذا الكتاب قوة لم تكن متاحة لأي كتاب عرفه خطباء الماضي. وبالتالي اكتسب موضع الحجاج من السلطة قوة في جميع أنواع المجادلات، وكانت سطوة الحجاج داخل الكنيسة في العظات طاغية ووصلت العظات

في نهاية العصور الوسطى لبلاغة مقننة جدا خاصة بها دون غيرها تم توليدها من تلك الاقتباسات. حدث ذلك من خلال فهارس ومصنفات يتم ترتيبها هجائيا بحسب الموضوع، بحيث يستطيع الواعظ أن يرجع إليها ليجد الاقتباس المناسب من الكتاب المقدس، هناك سمة أخرى لثقافة العصور الوسطى شجعت على جمع الاقتباسات وهي طريقة تدريس اللاتينية، وهي الطريقة التي تقوم على التمثيل على القواعد باستخدام قطع قصيرة وأخلاقية من عند كتاب قدامى، وعادة ما تعرف تجميعات مثل تلك القطع المنظمة بحسب المؤلف باسم "فلوريليجيا" florilegia، ولكن بانتشار التيار الإنساني في إيطاليا في القرن الخامس عشر حدث تغير في بيئة تعلم قواعد اللاتينية، فقد بدأ الطلاب يتعلمون اللاتينية من خلال ممارسة قراءة النصوص القديمة. ولكن هذا التغير دعم سياسة جمع القطع النصية فكل ما كان يريده المعلم هو جمع نصوص من عبارات وجمل تمثل استخدام اللغة الحقيقية، وفي ذلك العاطفة التي ينقلها النص مهمة بنفس قدر أهمية اللغة نفسها، وعادة ما كانت تلك القطع تصنف بحسب الموضوع ولكن معايير هذا التصنيف لم تكن قاسية إلى حد بعيد.

بحلول نهاية القرن الخامس عشر كانت مصنفات النصوص المقتبسة من المصادر الدينية والكلاسيكية تصدر بشكل متزايد؛ بفضل سهولة تقنيات الطباعة كفاءتها العالية. وفي فترة مماثلة قاد الإنسانيون احتقارهم لمنطق أواخر العصور الوسطى المتمحور حول المصطلحات البربرية اللاتينية إلى الرجوع إلى الآليات الجدلية المرتبطة بأناقة شيشرون وكينتليان اللغوية، أي قادهم للرجوع لجدل وبلاغة قائمين على المصنفات، أوضح الأمثلة على هذه العودة كان كتاب الإنساني الهولندي رودولف أجريكولا "اكتشاف الجدل" الذي لم تظهر نسخته المطبوعة إلا في عام ١٥١٥، أي بعد ثلاثين عامًا من موت المؤلف، هذا الكتاب رصد منظم لرؤوس المواضيع أو "أماكن الحجاج"، حيث

أرادها الكاتب إستراتيجيات قابلة للتطبيق في كل مجال من مجالات الخطاب الإقناعي تقوم على نظرية للمصنفات يمكن ردها لشيشرون وبوهيثيوس وتمثل لها أمثلة مأخوذة من قطع نصية لشيشرون وفيرجيل ومؤلفين آخرين لا تشوب لاتينيتهم شائبة، وعندما ظهر الكتاب ركز بشكل قوي جدا على تطورات كانت فاعلة على مستوى أبسط، من بين أهم تلك التطورات كان ظهور كتب المصنفات في شكلها الذي ستستمر عليه لمدة قرن ونصف؛ أي طوال فترة فاعليتها.

كانت كتب المصنفات مجموعات من الاقتباسات اللاتينية في غالبيتها، والمنظمة تحت رؤوس موضوعات بطريقة تجمع بين سمتي العقل الحداثي المبكر اللتين رأيناهما حتى الآن؛ الأولى هي الشغف بجمع قطع النصوص، والثانية هي فكرة "الأماكن" أو "رؤوس الحجج". وهما السمتان اللتان تشملان فكرة "الموضوع العام" عند كينتليان. كان لكتب المصنفات سوابقها ولكنها تتميز عنها بأن كتب المصنفات كانت أكثر ترتيبا من كتب العبارات في المرحلة الإنسانية الأولى، كما كانت أكثر تقليدا لبلاغة الكلاسيكيين منها لوعظات العصور الوسطى التي كانت الأساس الذي بنى عليه الإنسانيون أداتهم. كما كانت كتب المصنفات ذات تأثير قوي جدا في طلاب المدارس لأنها كانت مستخدمة بشكل أولي في المدارس حيث يتعلم الأطفال اللاتينية من النصوص الكلاسيكية؛ فاحتفظوا بلغتها وأعادوا إنتاج أشكالها في كتاباتهم.

لقد كان إراسموس الإنساني الأعظم في تلك الفترة هو الذي أرسى قواعد صناعة كتب المصنفات في كتابه "في الاقتباس" (*De copia*, 1512) في قسم معني بشرح كيفية حفظ مجموعة من الأمثلة التوضيحية بشكل يسمح باسترجاعها بسهولة. يقول إراسموس إن كل فرد عليه أن يقسم كراسا بحسب

رؤوس الأماكن ويقسمها بدورها لأقسام، ويجب أن تكون الرؤوس مرتبطة بمسائل لها علاقة بالشؤون الإنسانية وبالأنواع الأساسية من الفضائل والرذائل وتقسيماتها المأخوذة من شيشرون أو كتاب الأخلاق لأرسطو أو كتب القديس توما الأكويني في القرن الثالث عشر أو الأمثلة التي جمعها فاليريوس ماكسيموس في القرن الأول الميلادي، طبعت تلك النصيحة مرارًا وتكرارًا ليستخدمها الطلاب في المدارس، وبذلك رسم كتاب المصنفات حدود العالم الأخلاقي عند شباب المتعلمين منذ فترة مبكرة من العمر وطبع في عقولهم نمطا أخلاقيا خاصا جدا، ومن أصل وثني ومسيحي معا، ولكن البروتوستانت بعد ذلك استخدموا الوصايا العشر مبدأً للتنظيم، ولكن الكاثوليك فضلوا القديس توما الأكويني أو الخطايا السبع والفضائل السبع، ولكن إراسموس نفسه نصح باستخدام التنظيم بحسب المتضادات والمتشابهات، وفعل ذلك هو نفسه لأن هذه الطريقة تتماشى مع طريقة تنظيم الخطاب البلاغي الذي يجذب انتباه المتلقي وتبنيهم للحجة بعد ذلك عن طريق إدخاله في تيار من المتلازمات المبنية على التشابهات والتماثلات والتناقضات. لم يكن تنظيم الرؤوس بالنسبة لإراسموس مرتبطا بالبلاغة ولكن الاقتباسات تحت تلك الرؤوس نفسها كانت بالنسبة له وسائل للابتكار البلاغي، فقد كانت كتب المصنفات خزانة للمادة يمكن استخدامها لإثراء الخطاب وتضخيمه، فقد شملت مقولات ذكية عميقة واستعارات متقابلة وتشبيهات وأمثلة وقوائم وتعبيرات من الأمثال والحكم ليستعملها صاحب الكتاب بحسب الموضوع، وكانت كتب المصنفات أيضا تعلم صاحبها عن طريق التمثيل كيفية صياغة هذه الحلي اللفظية على نموذج الأساتذة الأولين.

وكان صاحب كتاب المصنفات عادة قارئا، وكان يتعمق في النصوص التي يقرؤها وبصحبته كراسه، وكان يجمع القطع النصية المتميزة وخاصة

اللاتينية منها ويسجلها تحت الرؤوس التي أعدها سلفا. وكان يفعل نفس الشيئ في المدرسة أيضا تحت إشراف مدرسه ولكنها عادة كان يفترض أن يكتسبها الشخص ليستخدمها طوال حياته، والقارئ البالغ الذي ما زال يستخدم نفس الطريقة يعتقد أن القراءة نشاط خاص جدا فهو ينقل نصوصا من الكتاب المفتوح والمتاح للاستخدام العام لكراسه الذي يمتلكه كما يمتلك محتويات عقله، كما أن هذا النوع من القراءة كان يسمح للشخص أن يتفاعل مع قناعاته الخاصة فقد كانت عنده إمكانية أن يختار رؤوسه الخاصة وكان له أن يضع النصوص التي يختارها في المكان الذي يراه هو مناسبا، وقد كان له أن يضع النصوص المتناقضة حول موضوع واحد تحت نفس الرأس كما كان له أن يضع نفس النص في أماكن أخرى، وكان من حقه أن يصبح متشككا أو مصدقا بقدر ما يحب، ولكن الرؤوس في كل كتب المصنفات كانت في الواقع متشابهة حيث كانت صناعة الطباعة قد رأت في تصنيع تلك الكراسات سوقا رائجة ونقل الناس في كراساتهم الخاصة الرؤوس المتاحة في الكتب المطبوعة، كانت هذه هي الحالة مع كتب المصنفات العامة وفي تركيزها الأخلاقي بشكل عام، ولكن التقعيد كان أكثر حتمية عندما أصبحت كتب التصنيفات طموحة في تغطيتها بداية من عام ١٥١٩.

بدأ مساعد مارتين لوثر من المقرب فيليب ميلانثون (١٤٩٧ - ١٥٦٠) يبني على تعاليم إراسموس بشأن بناء كتب المصنفات ووسع تطبيقها لتشمل مجالات البحث المتعارف عليها في وقته كالسياسة والفيزياء واللاهوت والقانون وغيرها، وكان لكل فرع من العلوم مجاله وتقسيماته الخاصة بهذا المجال تحت رؤوس متفق عليها، ولم يكن هناك مجال للربط الحر، كان إراسموس يتصور المصنفات كتبا تحتوي على فيض من الكلمات، أما بالنسبة لميلانثون كانت رؤوس موضوعات كتاب المصنف مرتبطة بشكل أوثق

بتقسيمات منظمة كامنة في عالم المدركات، كما كان مهتما أكثر من إراسموس بالرؤوس باعتبارها رؤوس حجج، فلا يجب على القارئ في رأيه أن يصنف نصوصا قوية بل كان عليه أيضا أن يسجل كيف يعطي الموضوع العام اتساقا عقليا لنص ما ويحدد كيفية فهمه، وأصبحت كتب التصنيفات بعد ذلك أدوات للتفسير، وبما أن البلاغة لم تعد منفصلة عن الجدل بسبب أرضيتهما المشتركة في كتب المصنفات فقد أصبحت علما هيمنيوطيقيا يختص بالتفسير.

لم يكن كتاب المصنفات ماكينة للقراءة فقط، بل كان آلية إنتاج أيضا، فالمادة التي تحتويها تلك الكتب كانت قابلة للاسترجاع والاستخدام. ومهما كان تعقيد تنظيم كتب المصنفات ما بين رسم نظام أخلاقي أحيانا وتحليل علم من العلوم أحيانا، وتقليد تركيب الكون بما يحتويه أحيانا أخرى؛ فقد كان هناك دائما مسرد إضافي يحتوي على رؤوس الموضوعات مرتبة أبجديا، ومهما كان الموضوع فمن الممكن للكاتب أن يجد مادة تناسبه في مصنفه كما كان يستطيع أن يكبر موضوعه ويزينه. كما كان في مثل تلك الكتب ما يفيد الابتكار البلاغي والفصاحة. فقد كانت النصوص المجموعة في كتب المصنفات العامة صادمة، وتحتوي على نقلات ماهرة في الحديث، ووسائل إثراء له من خلال الاستعارات والتشبيهات والتماثلات والتقابلات. وقد كان من الممكن استرجاع تلك النصوص وتدويرها وإعادة استخدامها واقتباسها في شكلها اللاتيني أو ترجمتها للغة محلية أخرى وتطويعها لتناسب سياقا مختلفا، قدمت كتب المصنفات ثقافة من الخطاب اللفظي ونظمتها بحيث ترفل في الزينة والإسهاب والإطناب، وكانت كتب المصنفات أيضا عنصر تجميع مهما لأنها كانت مصدرًا متاحا للقارئ والكاتب معا في عصر كان يعجب بالتقليد المعترف به، وكانت تربط بين الصفوة المتعلمة التي كانت ذاكرتها الجمعية مصنوعة من نصوص كلاسيكية معلبة في حاويات معنونة.

لم يكن ابتكار المصنفات مقصورًا على البلاغة في معناها اللفظي الضيق فبعد نشر كتاب رودولفوس أجريكولا (١٥١٥) وبعد انتشاره في المدارس مع كتب أخرى أكثر ابتدائية منه، والتي تشرح إستراتيجيات الحجاج باستخدام "الأماكن" كثيرًا ما شددت كتب المصنفات على ضرورة تقديم أماكن حجاج معلومة كرؤوس مواضيع فرعية أو هوامش، وبذلك يمكن ربط الرؤوس بتصنيفات أرسطو التعريفية الأساسية، وبذلك أيضا يمكن أن تصحب النصوص المقتبسة إشارات تسمح باستخدامها كأماكن للتقسيم والسبب والنتيجة والارتباط والظروف والمتشابهات والمتقابلات، وما إلى ذلك من التصنيفات المناسبة للخطاب الإقناعي. وبذلك يساعد كتاب المصنفات صاحبه في إيجاد أدوات جدلية للتحكم في الموضوعات العامة التي تتكون منها رؤوس موضوعاته، وكذلك في التحكم في الاقتباسات التي جمعها تحت كل رأس، فقد كان صاحب الكتاب مستعدا لأن يجد مادة ويناور باستخدامها في حجاجه الذي يسوقه في انسياب لفظي فصيح، أي أن كتاب المصنفات بوصفه وسيلة إنتاجية يحقق كل أهداف البلاغة من التعليم والنقل والإمتاع.

كانت أوسع كتب المصنفات انتشارًا تلك الكتب التي طبعت بغرض الاستعمال المدرسي وكان أوسعها انتشارًا جميعا كتاب "زهور من أشهر الشعراء"، الذي بدأ ككتاب مختارات ولكنه أصبح في عام ١٥٣٨، كتاب مصنفات ذا تنسيق مبسط، وكانت اقتباساته الشعرية منظمة في رؤوس وفروع مرتبة ترتيبا أبجديا، وكانت الاقتباسات في هذا الكتاب أخلاقية بمعنى واسع وتشمل تعريفات الخصائص السيكولوجية والحالات العاطفية والأنشطة الإنسانية والسلوك الفاضل والسلوك الرذيل. بدأ التصنيف بمفاهيم مثل العفة والمراهقة والخصومة ثم ملأ هذه الرؤوس باقتباسات من الشعراء الكلاسيكيين الوثنيين. ولأن الكتاب ظل مستخدما في أوروبا حتى بدايات القرن السابع

عشر، فقد مثَّل مدخل أي طفل صغير للشعر، وعادة ما تعلم كتابة أبياته الأولى من تقليد الأبيات التي وجدها في هذا الكتاب. بل إن الطالب لم يستوعب لغة الكتاب فحسب بل استوعب أيضا الأنواع الشعرية وثقافتها واستوعب منظورًا أخلاقيا عاما قدمه الكتاب وفرضه، وكان المعادل النثري لهذا الكتاب كتابا من جمع مارسي فوللي بعنوان "اقتباسات من اقتباسات شيشرون"، نشر هذا الكتاب للمرة الأولى في أربعينيات القرن السادس عشر وتمت توسعته عدة مرات واستخدم لمائة عام بعد ذلك. وكانت مهمة رؤوس موضوعات الكتاب أن تدعم استيعاب الطفل لمنظور أخلاقي مبني على الأدب الوثني، بينما عملت القطع النصية المأخوذة من شيشرون والتي كان عليه أن يضمنها كتاباته على صياغة أسلوبه الكتابي وتربيته العقلية.

كبرت كتب المصنفات في نهاية القرن السادس عشر حجما وأصبحت المرجع الأساسي في البلاغة، وتخصصت تلك الكتب في بعض الأحيان في طريقة خاصة من طرق الإقناع البلاغي كالإقناع بقوة المثل، كانت هذه هي الحالة بالنسبة لكتاب "مسرح الحياة الإنسانية" (١٥٦٥) الذي كتبه تيودور زفينجر (١٥٣٣ - ١٥٨٨) حيث أصبح ثمانية مجلدات في غضون خمسين عاما، وتتخطى الأمثلة المجموعة الأدب الكلاسيكي، ولكن زفينجر حاول أن يقدم بعض التناسق في عالمه المطبوع عن طريق وضع رؤوس الموضوعات في شكل متسق منطقيا كالجنس والنوع والعلة والمعلول. ولكن أشمل مصنف بلاغي بين جميع المصنفات كان ذلك الذي جمعه جوزيف لانج (١٥٧٠ - ١٦١٥) وهو كتاب "المختارات" عام ١٥٨٩ وكتاب "التنوع" عام ١٦٠٤، فحص لانج جميع كتب المصنفات السابقة عليه وجمع منها نصوصا رتبها في تقسيمات تحت رؤوس مرتبة هجائيا، ومن الواضح أن نظام تصنيفه كان قائما على أشكال خطاب نابعة من الحجاج بالسلطة ومن إستراتيجيات مأخوذة من

الأشكال البلاغية السابقة، يتكون الكتاب من اقتباسات من الكتاب المقدس ومن آباء الكنيسة ومختارات من الشعراء وأقوال الفلاسفة والخطباء والتشابهات والأمثلة من الكتابات المقدسة وأمثال من الكتابات الدنيوية، وكان كتاب المصنفات في ذلك الوقت يخدم كل الناس بداية من الكنيسة حتى الخطب العادية إلى المراسلات الخاصة.

انتقل كتاب المصنفات منذ منتصف القرن السادس عشر إلى خارج الفصل الدراسي وانطلق في مجال اللغة المحكية، ولكن كتب المصنفات المطبوعة بالمحكيات نزعت لأن تكون نسخا ضعيفة من المصنفات اللاتينية ضعيفة التحقيق وكانت كثيرًا ما تفتقد إلى ذكر المراجع وهي ممارسة كانت دائمة في الكتب اللاتينية. وكانت تلك الكتب عبارة عن اقتباسات مترجمة من اللاتينية، ولكنها ساعة الترجمة فقدت الخصائص الأسلوبية التي جعلت من كتب المختارات الشعرية والمصنفات اللاتينية معرضا للأساليب كما كانت مستودعا للرأي. ولكن ضعف الجودة في مثل هذه الحالة يعني أن الهدف من تلك الكتب كان بيع أكبر كمية ممكنة منها في سوق لم تكن تملك قدرة شرائية واسعة كالمدارس، كما أن أساليب الحديث والكتابة التي كانت المدارس تنشرها احتذت نموذجًا هو استخدامات المثقفين للعاميات. وكانت كتب المصنفات هي الوسيلة والمورد لهذا الاستخدام. شكلت التعليقات الذكية والحكم والاستعارات والتشبيهات والأمثلة في الإنجليزية والفرنسية المادة الأساسية في الخطب الألمعية، بينما يثبت التحليل الدقيق عادة وجود بنية قوية يمكن تفكيكها إلى أماكن حجاج بلاغية وجدلية. قدم كتاب روبرت ألوت في عام ١٦٠٠ "English Parnassus" وكتاب "زهور شعرائنا المعاصرين" مصنفا يعادل المصنفات اللاتينية للجماعة اللغوية الإنجليزية، وأبرز الكاتب فكرة تغير المثل العليا في الخطاب الأدبي، رؤوس موضوعاته المرتبة هجائيا

محاكاةً للنظام اللاتيني وكذلك كان القسم المخصص للعناصر والأوصاف والمقارنات والتشبيهات البلاغية، ولكن كانت أمثلته هذه المرة من سبنسر وشيكسبير ومارلو وغيرهم من الشعراء الأقل شهرة في سماء العصر الإليزابيثي، وكان القراء الإنجليز في الوقت نفسه يكتبون مصنفاتهم الخاصة بأنفسهم، ولما دخلنا في القرن السابع عشر ظهرت أدلة على أن كتب المصنفات بدأت تتوسع خارج حدود المدرسة والمكتبة في إنجلترا، وفي أماكن أخرى أيضا، فقد أسهمت خبرات الرحلات وخبرات الحياة اليومية في تقديم مادة يمكن تصنيفها تحت رؤوس موضوعات، وكانت وظيفة كتب المصنفات في تلك المرحلة هي وظيفة الكوابح المحافظة؛ إذ عملت على التأكد من أن كل خبرة وتجربة تجد مكانها في سياق ثقافة ذهنية متاحة سلفا، هذا بالنسبة للمصنفات المطبوعة، أما بالنسبة للمصنفات المخطوطة فهي كالعادة مفتوحة على إمكانية رؤوس جديدة وموضوعات تختلف أو تتفق مع ما هو متعارف عليه.

ولكن بحلول النصف الثاني من القرن السابع عشر بدأت كتب المصنفات بشكلها الذي ورثته من عصر النهضة في الاضمحلال. من ضمن أسباب ذلك سببان متعلقان بتطورات في البلاغة، أولاً: أصبحت جدلية الأماكن التي قامت عليها كتب المصنفات محل خلاف عنيف، فقد كانت مصنفات الحجج تمثل دائما نمطا من التفكير ينطلق من الأفكار والآراء المقبولة فعلا وليس من الحقائق الثابتة، وكان الهدف منها الاقتناع العقلاني والإقناع، وليس عن طريق المنطق الرياضي الذي لا يمكن الإفلات منه، ولكن عندما تطورت المعرفة العلمية الدقيقة في القرن السابع عشر فقدت استراتيجيات الإقناع التي تمتلكها البلاغة الجدلية سيطرتها على جميع أنواع الخطاب التي لم تكن أدبية، ولم تعد رؤوس موضوعات كتب المصنفات

تستطيع أن ترسم حدود العالم المعروف. وكذلك فقد الاقتباس جاذبيته وقوته الإقناعية، وبحلول النصف الثاني من القرن السابع عشر كان الباحثون وكتاب العاميات قد قطعوا علاقاتهم بأسلافهم اللاتينيين، ونصبوا أنفسهم السلطان الأوحد على النصوص التي يكتبونها، وأصبحت الكتابات المأخوذة من اقتباسات معدلة ومدورة نوعًا من السرقة الأدبية وكتابها لصوصا، وفي تلك الفترة أصبح تراث كتب المصنفات الأسلوبي مستبطنا بشكل كامل، وإن لم يكن من الممكن إظهار آليات الإنتاج وطرقه.

استمر كتاب المصنفات في الوجود، وإن كان هذا الوجود أصبح محدودا. هناك بعض الإشارات إلى أن الكتاب كانوا يعدون تصنيفات معلوماتية خاصة بهم ساعة إعداد كتاباتهم الجديدة خاصة إن كانت تلك الكتابة بحاجة لدرجة من القراءة المسبقة، نشر الفيلسوف جون لوك (١٦٣٢ – ١٧٠٤) كتاب "طريقة جديدة لصناعة كتب المصنفات" ليبشر بطريقته الجديدة والمعدلة للفهرسة، كانت عنده وعند غيره من المجددين رؤية واضحة لأهمية أن يجمع المصنف حقائق علمية ثابتة من قراءاتهم لتخدمهم في إعداد كتبهم فيما بعد، ولم تكن هناك فكرة أن تحوي مصنفاتهم رؤوس جامعة مانعة أو أن تكون النصوص تعليمية من الناحية الثقافية أو الأسلوبية، ولكن المفيد تعليميا أصبح المصنف الذي يمثل لمعنى كلمة يدركها المعاصرون أو للنساء في عمر معين على وجه الخصوص، كانت هذه كتبا خاصة ومحدودة بطبيعة الحال ولم تكن مجموعات نصوص مفضلة من كتاب تميزهم شاعريتهم أو جمالهم، وكانت تهتم بها المراهقات، وكانت عادة الاحتفاظ بهذه الكتب الخاصة والشخصية والتي تحتوي على نصوص مختارة بشكل شخصي عادة مفيدة ولكنها لا ترتبط بشكل مباشر بآليات الحجاج الإقناعي عند المثقفين في مدارس عصر النهضة، ولكن كتب المصنفات بمعناها التقليدي الدقيق قد أحيت نفسها

من جديد مؤخرًا بشكل درامي، من الممكن أن نعزو ظهورها تاريخيا للحاجة للتعامل بشكل منظم مع كميات المادة الضخمة التي نتجت عن الانتعاش الطباعي في القرن السادس عشر، نفس هذا الحمل المعلوماتي موجود على الشبكة العنكبوتية لأنها تشبه وسائل تخزين المعلومات واسترجاعها على الشبكة تقنية كتب المصنفات، ولكننا لا نعرف إن كان من الممكن أن تنتج هذه بلاغة فعالة أو هل من الممكن أن تكون تلك البلاغة محافظة أو مفتوحة في حال قيامها، وهو أمر محل اهتمام كبير.

مصادر ومراجع

Boethius, Anicius Manlius Severinus. *De topicis differentiis*. Translated, with notes and essays on the text, by Eleonore Stump. Ithaca, N.Y., 1978.

Cicero. Marcus Tullius. *De inventione* and *Topica*, translated by H. M. Hubbell. Loeb Classical Library. Cambridge, Mass., 1949.

Cogan, Marc. "Rodolphus Agricola and the Semantic Revolutions of the History of Invention." *Rhetorica* 2 (1984) ،pp.pp. 163–194 .

مفيد جدا بالنسبة لتبعات جدل أجريكولا المكاني بعيدة الأجل.

Erasmus, Desiderius. *Copia: Foundations of the Abundant Style*. Translated and annotated by Betty I. Knott. In *Collected Works of Erasmus*, edited by Craig R. Thompson, vol. 24, pp.pp. 279–659. Toronto, 1978, pp.pp. 635–648.

فيه وصف تقعيدي لكيفية إعداد كتاب مصنفات مشفوعا بالأمثلة وتطبيقاتها الكتابية.

Goyet, Francis. *Le sublime du "lieu commun": l'invention rhétorique dans l'Antiquité et à la Renaissance*. Paris, 1996.

إضافة مهمة لموس Moss، ويركز على بلاغة كتب المصنفات.

Mack, Peter. *Renaissance Argument: Valla and Agricola in the Traditions of Rhetoric and Dialectic*. Leiden, 1993.

التحليل الأكثر شمولا للجدل الأجريكولي.

Meerhoff, Kees. "The Significance of Melanchthon's Rhetoric in the Renaissance." In *Renaissance Rhetoric*, edited by Peter Mack, pp.pp. 46–62. London, 1994.

وهو أفضل مدخل في الإنجليزية.

Moss, Ann. *Printed Commonplace - Books and the Structuring of Renaissance Thought*. Oxford, 1996.

يشتمل على ببليوجرافيا شاملة للمصادر الثانوية حول الموضوع.

Murphy, James J. *Rhetoric in the Middle Ages: A History of Rhetorical Theory from Saint Augustine to the Renaissance*. Berkeley, 1974.

تأليف: Ann Moss

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التواصل Communication

من الشائع تعريف التواصل بأنه نقل الأفكار أو تبادلها، ويرتبط التواصل بالبلاغة بطرق متنوعة ممدودة ومتسعة. لقد كان التواصل على مدار فترة طويلة جزءًا يسيرًا من البلاغة بوصفه *communicatio*، تقنية يقوم فيها البلاغي بالتشاور مع الجمهور على نحو مجازي؛ مثلا بطرح أسئلة بلاغية وإجابتها؛ كما في المثال الآتي: "تسألوني، لماذا الآن؟ فأقول، لأنه لا يجدر بنا أن نؤجل الأمر أكثر من ذلك!. ويمكن للتواصل –إذا نظرنا إليه من سبل أرحب – أن يكون مرادفًا للبلاغة على وجه التقريب، يمكن أن يُدمج في البلاغة أو أن تُدمج البلاغة فيه، أو حتى أن يلعب دور البطل المشارك – سواء أكان دورا بطوليًا أم حقيرًا – بوصفه الخصم الرئيس للبلاغة. يرتبط التواصل بالبلاغة بهذه الطرق المتنوعة بشكل جزئي، لأنه تم تصويره بنماذج مختلفة بشكل جذري، مثله في ذلك مثل البلاغة ذاتها.

نموذج النقل والنموذج التكويني

يتم تصوير التواصل في نموذج النقل الأكثر بساطة والذي يلقى قبولا تامًا في خطابات الحياة اليومية على أنه عملية يتم فيها نقل المعاني –التي يتم تعبئتها في رسائل كما يُعبأ الموز في صناديق الشحن–من المرسِل إلى المستقبِل. عوادة ما يحدث أن ينهرس الموز أو يفسد أثناء النقل، وتصبح لدينا مشكلة مزمنة هي سوء التواصل: حيث تكون الرسالة المستقبلة ليست هي الرسالة المرسلة، والمعنى الذي يقصده المرسِل لم يصل. وفقًا لهذا النموذج،

إذ إن تحسين التواصل يتطلب منا تعليبًا أفضل ونقلا أسرع للرسائل. وهكذا فإن التواصل الجيد هو مسألة تقنيات بشكل أساسي.

هناك إصدارات معقدة من نموذج النقل تُسلم بصحة أن الأفكار لا يمكن أن تُصب بشكل حرفي في كلمات، ثم يتم نقلها. من المعروف أن الفيلسوف التجريبي الإنجليزي جون لوك John Locke صاغ – في كتابه "مقال حول الفهم الإنساني (1690) *Essay Concerning Human Understanding*" – وجهة النظر التي تعتبَر الآن كليشيهية، والقائلة بأن المعاني كامنة في البشر لا في الكلمات. ووفقًا للوك فإنه ليس للكلمات أي معاني طبيعية. والارتباط بين الكلمات والأفكار في الذهن هو عمل طوعي للشخص الفرد. وعلى الرغم من أن الأعراف الاجتماعية تؤسِّس علاقة صارمة بين الكلمات والمعاني، وعلى الرغم من أننا نتبع بإخلاص هذه القواعد العرفية للغة، فإننا في النهاية نفتقر إلى أية وسيلة لمعرفة ما إذا كانت العلامات المادية التي نختارها لتمثيل أفكارنا سوف تثير أفكارًا مشابهة في ذهن شخص آخر أم لا.

وهكذا فإن القيود المتأصلة التي تطوّق اللغة تجعل من المستحيل تقريبًا عمل اتصال مكتمل. ومع ذلك، فإن التواصل الجيد لا غِنى عنه؛ لأن التواصل هو الرابطة التي تضم أشتات المجتمع، والقناة التي تنتشر من خلالها المعرفة عبر المجتمع، ويتم نقلها إلى أجيال المستقبل. لقد حذّر لوك من الإساءات الشائعة لاستخدام اللغة (مثل الخلط بين الكلمات والأشياء) واقترح سلسلة من العلاجات التي تحسِّن التواصل. لقد ذم لوك البلاغة – باستثناء المبادئ البلاغية الخاصة بالنظام والوضوح، التي تعزز من الفهم – وبخاصة استخدام لغة مجازية، وقد وصف المجاز بأنه "أداة للخطأ والخداع". وهكذا فإن البلاغة في هذه الدراما التي تنسب إلى لوك Lockean، يمكنها فقط أن تلعب دور الشخصية الشريرة المناوئة للتواصل، ما لم تكتف بدورها الضئيل كخادمة ذليلة للتواصل، وهو الدور الذي تستحقه.

ما تزال تنويعات من نموذج النقل –سواء في صيغته البسيطة أم المعقدة – تصوغ التفكير اليومي، والكثير من الأدبيات الأكاديمية حول التواصل، لكن منظري التواصل انحازوا مؤخرا لنموذج بديل هو النموذج التكويني the constitutive model. ووفقًا لهؤلاء المنتقدين فإن نموذج النقل يفترض على نحو مضلل أن العناصر الضرورية للتواصل – وتشمل الأفراد المتمايزين، وأفكارهم ومشاعرهم الخاصة، والوسائل التقنية للتواصل مثل الشفرات المشتركة، وقنوات النقل – يجب تثبيتها جميعًا في مكان قبل أن يحدث فعل التواصل. يفترض النموذج التكويني بدلا من ذلك كون عناصر التواصل غير ثابتة قبل التواصل، بل هي بالأحرى تتكون بمرونة في سياق فعل التواصل نفسه. ويُعرَّف التواصل بوصفه عملية مستمرة تقوم على نحو رمزي بتشكيل هوياتنا الشخصية، وعلاقاتنا الاجتماعية، والأشياء والأحداث ذات المعنى التي تشيع في عالمنا، وأفكارنا ومشاعرنا، ووسائلنا المعتادة في التعبير عن تلك الوقائع المؤسَّسة اجتماعيًا وتحسينها. وهكذا فإن مشكلة التواصل في النموذج التكويني لم تعد مجرد مسألة تقنية تخص كيفية الحصول على المعنى الذي يقصده الشخص دون تشويه، بل أصبحت ذات أبعاد أخلاقية وسياسية. وبذا يتسع حقل التواصل ليشمل كل أبعاد خلق المعنى والتفاوض حوله في المجتمع.

يفترض النموذج التكويني أن الممارسة الاجتماعية للتواصل لا تنفصل في النهاية عن الأفكار حول التواصل المتضمَّنة في اللغة العادية. إن واقع التواصل بوصفه نوعًا من النشاط المتميز ذي مغزى يتم خلقه، وصياغته والحفاظ عليه بواسطة طرقنا المعتادة في الكلام عن التواصل. هذه الأفكار وطرق الكلام المألوفة نشأت في التاريخ، ونشأت معها تقاليد الفكر الثقافي التي يُشار إليها في الوقت الراهن بوصفها "نظرية للتواصل". وهكذا فإن نظرية التواصل شديدة الارتباط بالتطور الثقافي للتواصل بوصفه ممارسة اجتماعية.

لقد اشتُقت النظريات الشكلية formal للتواصل بدورها من اللغة العامية للتواصل وتأملتْها وتأثرتْ بها، والأمر نفسه ينطبق على ممارسات التواصل اليومية. لقد نشأت فكرة البلاغة في اليونان كانعكاس لممارسات مخاطبة الجمهور التي كانت محورية لحياة المواطنين في المدينة Polis. وقد نشأت فكرة التواصل بوصفه نقلا على نحو مشابه في أوروبا الحديثة كانعكاس لممارسات –من قبيل ما يتعلق بالملكية الفردية والتجارة والنقل والإمبراطورية وانتشار التعليم ووسائل الإعلام المطبوعة – التي كانت محورية في حياة المجتمع البرجوازي، وتدعمت بفعل التطورات المتلاحقة لتكنولوجيا التواصل. وفي الوقت الراهن –كما حاجج بالفعل منظرو التواصل مؤخرًا – تبزغ فكرة التواصل بوصفه عملية تكوينية اجتماعية كانعكاس لممارسات (مثل تلك التي تتعلق بالتكافل العالمي، والتنوع الثقافي، وأفكار الديمقراطية وحقوق الإنسان) تغدو محورية في عالمنا الخاص.

لقد شرَعت البلاغة –على نحو ما تم التنظير لها رسميًا – في صياغة حقلها الخاص للممارسات، الذي ظل يلعب دورًا مهمًا في التعليم الأوروبي وفي التواصل العام لقرون عديدة بعد انهيار المدينة اليونانية. تصوغ نظرية التواصل الآن حقل ممارساتها الخاص، والذي يلعب دورًا مهمًا متناميًا في التعليم وفي مؤسسات رسمية أخرى للمجتمع. لقد اعتبرت المهارات التواصلية والوعي الدقيق بتقنيات التواصل أمرين ضروريين للنجاح في إدارة الأعمال والمهن المختلفة والشئون العامة والعلاقات الشخصية. نحن نتحدث عن التواصل بمصطلحات منتقاة مأخوذة من خطابات العلاقات الإنسانية، والعلاج النفسي، ومعالجة المعلومات، والتسويق، والتسلية، بمثل ما هي مأخوذة من البلاغة والعلوم الاجتماعية.

تكمن خلفية النقاشات الراهنة في نظرية التواصل في الخلاف حول كيفية صياغة اللغة التي تشكل حقل ممارسات التواصل في المجتمع. وإحدى مزايا النموذج التكويني هي أنه يجعلنا أكثر حساسية تجاه الركائز stakes السياسية المنخرطة دومًا في مثل هذه النقاشات. إن كل شكل من أشكال الممارسات التواصلية، بما فيها تلك التي تحمل شعار النموذج التكويني، يعكس منظورات بعض الجماعات الاجتماعية بدرجة أكبر من جماعات أخرى. ربما تكره التوجهات الثقافية المحافظة على سبيل المثال النموذج التكويني بإلحاحه على النسبية الثقافية والأخلاقية، وهو أمر يمكن تفهمه، وعلى خلاف ذلك ربما تحبذ النخب العالمية التوجه هذا النموذج لأسبابها الخاصة.

يمكن للبلاغة في ظل اتساع حقل التواصل الذي ينطوي عليه النموذج التكويني أن تُصنف -بحسب كيفية تعريفها - بوصفها نوعًا معينًا من التواصل (وتُعرَّف البلاغة بوصفها اتصالا غرضيًا قصديًا أو إقناعيًا)، وقد تُنتقد البلاغة بوصفها نتاجًا مضللا لنموذج النقل (وتُعرَّف بوصفها تقنية تلاعبية لتمرير أفكار المرء بفاعلية)، أو يتم التعامل معها بوصفها متطابقة مع التواصل ككل (وتعرف البلاغة بوصفها عملية اجتماعية تكوينية)(١). وتصبح النظرية البلاغية وفقًا لأيٍّ من هذه التعريفات فرعًا من نظرية التواصل أو تراثًا لها.

نظرية التواصل

نشأت نظرية التواصل بوصفها موضوعًا ثقافيًا منفصلا في أواسط القرن العشرين فحسب. استُخدم المصطلح نفسه لأول مرة في أربعينيات القرن العشرين بواسطة مهندسي الإلكترونيات، بالإحالة إلى التحليل الرياضي

---

(١) [انظر في مدخل السياسة، مقالا حول البلاغة الإنشائية].

للعلامات. وبالنسبة للكثير من القرّاء فإن كتاب كلود شانون ووارين ويفر "النظرية الرياضية للتواصل" Claude Shannon and Warren Weaver"s *The Mathematical Theory of Communication*، وكتاب نوربرت واينر المعنون بـ *Cybernetics* (السيبرنطيقا) تكهنا ببزوغ فجر علم جديد للتواصل. دخلت المفردات التقنية لنقل المعلومات والتغذية الراجعة إلى اللغة العادية، وأخذ بها علماء الاجتماع، خاصة في حقل بحوث التواصل البينية والمتنامية بشدة.

لقد كان الانتشار السريع لكلمة "التواصل" تجليًا لتزايد الاهتمام المجتمعي بمشكلات التواصل، وهو ما أكدته الحروب والتطويرات التكنولوجية على مدار القرن الماضي. لقد شغل التواصل مرارًا وتكرارًا مركز النقاشات حول الديمقراطية والدعاية ووسائل الإعلام الجماهيري والثقافة الشعبية والعلاقات الإنسانية. وكان التواصل في بواكير القرن العشرين -بوصفه مقولة صورية للمعرفة - لايزال مرتبطًا على نحو كبير بالنقل التجاري والعسكري. وفي وقت مبكر يرجع إلى عام ١٩٢٨، سجلت تصانيف الموضوعات بمكتبة الكونجرس كلمة اتصال (ات)*communication(s)* في عنوانين: "التواصل والمرور"، و"اتصالات، الجيش". ومع نمو وسائل الإعلام التكنولوجية أصبح من المتكرر أكثر أن تشير كلمة *communication(s)* إلى عمليات نقل المعلومات عبر قنوات تكنولوجية (الموضوع المبدئي لنظرية التواصل). ومع ذلك، فبحلول منتصف القرن العشرين انفجر كم الأعمال المنشورة حول التواصل، وتحول مركز تعريف المصطلح بشكل مؤكد. لقد أصبح من الشائع الآن تعريف التواصل بوصفه عملية تفاعلية تؤدي وظائف جوهرية في كل حقول الممارسة الاجتماعية. وتتضمن قائمة الموضوعات المرتبطة بالتواصل في الوقت الراهن، التواصل في العبادة، التواصل في إدارة الإعمال، التواصل السياسي، التواصل الجماهيري، التواصل في إطار الأسرة، وما شابه ذلك.

لقد نمت نظرية التواصل مثل نبات عملاق – بعد أن نشأت في بستان الأكاديمية في أربعينيات القرن العشرين – من خلال غمر جذورها في كل التراث الفكري أو التيارات الفكرية التي تتصل بأي شكل بالتواصل. لقد تم امتصاص أفكار من العلوم الطبيعية والهندسة وعلم اللغة والأنثروبولوجي وعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة، وأعيد تأويلها بوصفها نظريات للتواصل. وفي حين استمر موضوع التواصل في النمو على هذا النحو، فإنه لم يصل بعد إلى مرحلة النضج بوصفه بنيانا فكريًا متماسكًا. فنظرية التواصل – على عكس النظرية البلاغية – لم تتطور تاريخيًا إلى الأمام، متجاوزة تراثها، بل إنها بمعنى ما تطورت تاريخيًا إلى الوراء، من خلال تطويع سلسلة من الروافد التراثية على نحو ارتدادي (استرجاعي)، كانت النظرية البلاغية إحداها.

في الوقت الراهن يمكن التمييز بين سبعة روافد رئيسية على الأقل، أقدمها هو رافد البلاغة.

البلاغة

لقد نبعت من البلاغة التقليدية فكرة إمكانية دراسة التواصل وتنميته بوصفه فنًا عمليًا للخطاب. وبينما لايزال فن البلاغة يشير بشكل أساسي إلى نظرية التواصل العام الإقناعي وممارسته، فإن فنون التواصل تتضمن بشكل أكثر رحابة التنويعات الكاملة للممارسات التواصلية؛ بما فيها التواصل بين الأشخاص والتواصل المؤسساتي عبر الثقافات، والتواصل ذا الوسيط التكنولوجي، والممارسات اللصيقة بالمهن والمجالات المتنوعة. لقد أبرزت النظرية البلاغية الحديثة الأبعاد المعرفية والاجتماعية والسياسية للتراث التقليدي وصاغت مسائلها على نحو يثري نظرية التواصل. فعل سبيل المثال، طورت النظرية البلاغية من إصداراتها الخاصة للنموذج التكويني. فمن وجهة نظر تواصلية، فإن موسوعة البلاغة التي تقرؤها الآن تتفق إلى حد كبير مع إطار التراث البلاغي لنظرية التواصل.

السيميوطيقا

هناك رافد ثان لنظرية التواصل، نشأ في شكله الحديث بواسطة لوك، هو السيميوطيقا؛ أي دراسة العلامات. تقوم النظرية السيميوطيقية بتصوير التواصل بوصفه عملية تعتمد على العلامات والنسق العلاماتي لكي تملأ الفجوات بين وجهات النظر الذاتية. تنتج مشكلات التواصل –وفقًا للنظرية السيميوطيقية – من معوقات الفهم التي تبزغ من الفرق بين حوامل العلامة sign vehicles (العلامات المادية مثل المفردات المنطوقة أو المكتوبة، والصور الحية)، ومعانيها، وبنية النسق العلاماتي، والطرق الخاصة في استعمال (أو إساءة استعمال) العلامات. لقد نشأ التراث المميَّز للسيميوطيقا من كتابات الفيلسوف الأمريكي شارلز ساندرز بيرس (1914-1839) Peirce، في أواخر القرن التاسع عشر، وأعمال اللغوي السويسري فرديناند دو سوسير (1913-1857) de Saussure في بواكير القرن العشرين. لقد حلل التراث البيرسي Peirceian الوظائف المعرفية والذهنية للعلامات بوصفها أساسًا للتمييز بين أنماط مختلفة من العلامات (الأيقونةicon ، والإشارة index، والرمز symbol)، وأبعاد السيميوزيس Semiosis (التركيبي، والدلالي والتداولي). وقد ركز التراث السوسيري Saussureian –الذي قاد إلى النظرية البنيوية وما بعد البنيوية – بدلا من ذلك على البنية النسقية للغة ولأنساق العلامات الأخرى. وعلى الرغم من أن نظرية لوك السيميوطيقية كانت منبع نموذج النقل، فإن نظريات ما بعد البنيوية مثل نظرية التفكيك لجاك دريدا Derrida تصوّر التواصل بوصفه عملية لا يتم فيها تثبيت المعنى بواسطة النسق اللغوي، بل إن المعنى يتأرجح ويعوم في رياح الخطاب المتحولة الاتجاهات. إننا – من وجهة النظر ما بعد البنيوية – لا نوجد بشكل مستقل عن العلامات، بهوياتنا الشخصية الحقيقية بشكل جوهري وبوجهات نظر ذاتية، و"نستعمل" العلامات بهدف التواصل. إننا بالأحرى نوجد فحسب بشكل له مغزى في العلامات وبوصفنا علامات فحسب. [انظر، علم اللغة]

الظاهراتية Phenomenology

الظاهراتية رافد ثالث يصور التواصل بوصفه خبرة الذات والآخر في الحوار. بشكل فضفاض يمكن أن نماهي بين هذا الرافد ومنظري الحوار في القرن العشرين أمثال مارتن بوبر Buber وهانز جورج جادامر Gadamer وإيمانويل ليفيناس Levinas وكارل روجر Rogers (على الرغم من أن روجر عالم نفس أكثر منه فيلسوفًا). وبالنسبة للظاهراتية، فإن مشكلة التواصل – مثل السيميوطيقا – هي مشكلة الفجوة بين وجهات النظر الذاتية؛ فالمرء لا يستطيع مباشرة أن يَخبُر وعي شخص آخر، ومن ثَمَّ، فإن إمكانيات الفهم بين الأشخاص هي على ذلك محدودة.

وعلى أية حال، فإن الرافدين كليهما يقاربان هذه المشكلة بطرق مختلفة تمامًا. ففي حين تهتم السيميوطيقا بالخصائص المتوسطية للعلامات، فإن الظاهراتية تهتم بأصالة طرقنا في خبرة الذات والآخر. إن الحوار الأصيل يتطلب تعبيرًا مفتوحًا عن الذات، وقبول الاختلافات وفي ذات الوقت يتطلب أرضية مشتركة. يمكن أن تنشأ عوائق التواصل من عدم الوعي بالذات، أو عدم قبول الاختلاف، أو من أولوياتٍ إستراتيجية تعوق الانفتاح على الآخر.

ينبثق الرافد الظاهراتي في الفلسفة الحديثة من ظاهراتية إدموند هوسرل (1859-1938) Husserl الترانسندنتالية (المتعالية)، التي كانت تحليلا للبنية الضرورية لخبرة الوعي. يؤكد مارتن هايدجر – ناقد هوسرل وراعيه – في كتابه (الوجود والزمان، ١٩٢٧/١٩٦٢) أن وجودنا لا ينعزل عن الفهم التأويلي للذات الذي ينكشف عبر الزمن حين ننخرط في العالم المتعين الذي

نجد أنفسنا فيه. لقد أثَّرت هذه الظاهراتية التأويلية في نظريات الوجودية والهرمنيوطيقا وما بعد البنيوية التي تلتها، والتي أكدت الخصائص التأسيسية للحوار. [انظر مدخل الهرمنيوطيقا]. وليس الحوار في هذه النظريات تشاركًا لمعاني داخلية سابقة الوجود، بل هو ميثاق مع آخرين من أجل التفاوض حول المعنى.

السيبرنطيقا

السيبرنطيقا هي الرافد الرابع من روافد نظرية التواصل، الذي نشأ في منتصف القرن العشرين من أعمال شانون Shannon وفينر Wiener وجريجوري باتسون Bateson، وحشد من الكتاب في حقول متنوعة. وهو في الواقع أحد أحدث روافد نظرية التواصل، على الرغم من أنه - كما ذكرنا من قبل - كان أول نظرية للتواصل حملت هذا الاسم صراحة واشتهرت به.

تُصوِّر السيبرنطيقا التواصل على أنه معالجة للمعلومات. فكل الأنظمة المعقدة -بما فيها الكمبيوترات وشرائح التواصل الآلي، و"الدنا" DNA للجزيئات والخلايا، والنباتات والحيوانات، والمخ البشري والنظام العصبي، والجماعات الاجتماعية والمنظمات والمدن والمجتمعات بأسرها - تقوم بمعالجة المعلومات؛ ومن ثمَّ فإنها بهذا المعنى تتواصل. وتقلل نظرية السيبرنطيقا من أهمية الفروق بين التواصل البشري وأنواع التواصل الأخرى في أنظمة معالجة المعلومات. تحدث عمليات تخزين المعلومات ونقلها والتغذية الراجعة وأبنية الشبكات وعمليات تنظيم الذات في كل نظام فعال معقد. ويمكن أن تنشأ مشكلات التواصل من الصراع بين الأنظمة أو الأنظمة الفرعية أو الخلل الفني في معالجة المعلومات مثل سلاسل التغذية الراجعة الإيجابية التي تؤدي إلى زيادة الضوضاء. لقد أعاد أنصار الطراز الثاني second - order

للسيبرنطيقا (من أمثال هاينزفون فورستر، وكلاوس كريبندروف، وبول فاتزلريك) صياغة نظرية السيبرنطيقا من قِبَل النموذج التأسيسي للتواصل. يشمل الطراز الثاني على نحو استرجاعي الملاحِظ في إطار النظام الملاحَظ، ويؤكد أهمية دور الملاحِظ في تعريف النظام والتشويش عليه بل وتغييره بطرق غير متوقعة غالبًا من خلال فعل ملاحظته.

علم النفس الاجتماعي

إن علم النفس الاجتماعي -وهو الرافد الخامس لنظرية التواصل - يصور التواصل بوصفه تفاعلا وتأثيرا اجتماعيا. دائمًا ما يتضمن التواصل أفرادًا بسمات شخصياتهم واتجاهاتهم ومعتقداتهم ومشاعرهم المتمايزة. ويقوم السلوك الاجتماعي بالكشف عن تأثيرات هذه العوامل السيكولوجية، وتعديلها باعتبار أصحابها مشاركين يؤثر كل منهم في الآخر، بوعي محدود غالبًا بما هو حادث. ويمكن للتأثير أساسًا أن يكون عملية نقل من مصدر إلى مُستقبِل. ومع ذلك، لو أن التفاعل يغيِّر المشاركين على نحو متساوٍ، ويؤدي إلى عائد جمعي لا يمكن حدوثه بشكل آخر؛ فإن التواصل يصبح عملية اجتماعية تكوينية. وسواء تم إدراك مشكلة التواصل من منظور نموذج النقل أم نموذج التكوين فإن هذه المشكلة من منظور سيكولوجي اجتماعي تكمن في كيفية إدارة التفاعل الاجتماعي بكفاءة بهدف تحقيق نواتج محبَّذة ومتوقعة. ويتطلب هذا فهمًا - متجذرًا في النظرية العلمية وفي البحث - لكيفية اشتغال عملية التواصل. لقد كان البحث العلمي الاجتماعي يتماهى دومًا مع علم النفس الاجتماعي، لذا فليس من المستغرب أن تكون نظريات ديناميات الجماعات التقليدية في أواسط القرن العشرين (كيرت ليفين Kurt Lewin)، والإقناع (كارل هوفلاند Carl Hovland) والتنافر المعرفيcognitive dissonance (ليون فيستينجرeon Festinger)، قد تشربتها نظرية التواصل سريعا، ولحقتها العديد

من النظريات التالية في موجة من الاقتراض المتدفق عبر حقول معرفية بينية، لم يهدأ بعد.

النظرية الاجتماعية الثقافية

نظرية التواصل الاجتماعية الثقافية - التي نبعت من الفكر الاجتماعي والأنثربولوجي في القرن العشرين - هي الرافد السادس من روافد نظرية التواصل. تصور النظرية الاجتماعية الثقافية التواصل بوصفه عملية رمزية تنتج وتعيد إنتاج المعاني والطقوس والبنى الاجتماعية المشتركة. وكما لاحظ جون ديوي Dewey في كتابه "الديمقراطية والتربية" فإن المجتمعات لا توجد ***بواسطة*** التواصل فحسب بل ***داخل*** التواصل أيضًا. بمعنى أن المجتمعات لا توجد فقط ***بواسطة*** التواصل بوصفه أداة ضرورية لنقل المعلومات وتبادلها. فأنْ تتواصل كفرد في مجتمع يعني أن تشترك ***في*** تلك الأنشطة الجمعية المنظمة، وأن تتشارك الفهم الذي يؤسِّس المجتمع ذاته. ثمة توتر في النظرية الاجتماعية الثقافية بين المقاربات التي تؤكد على الدور الرئيسي للبنى والعمليات الاجتماعية الكبرى، وتلك المقاربات التي تؤكد على عمليات التفاعل الاجتماعي البالغة الصغر. تبرز وجهات النظر البنيوية والوظيفية - التي تتخذ جانب البنى والعمليات الكبرى - الدور المهم للبنى الاجتماعية الراسخة، والنماذج الثقافية في جعل التواصل ممكنًا. أما وجهات النظر التفاعلية interactionist views -التي تنحاز إلى جانب عمليات التفاعل بالغة الصغر - فإنها تركز على الدور المهم للتواصل بوصفه عملية تخلق البنى الاجتماعية والنماذج في السياقات اليومية للتفاعل الاجتماعي وتحافظ على بقائها. وفي أيٍّ من وجهتي النظر هاتين ينطوي التواصل على تنسيق الأنشطة بين الفاعلين الاجتماعيين، وتتجلى مشكلات التواصل على نحو مباشر في صعوبات وانهيارات هذا التآزر. وبوضوح أصبحت مشكلات

التواصل أكثر إلحاحًا وصعوبة في ظل الظروف الحديثة للتنوع المجتمعي، والاعتماد المتبادل المعقد والتغير السريع. وثمة تخمين له وجاهته من وجهة النظر الاجتماعية السياسية مؤداه أن نظرية التواصل تطورت في المجتمع الحديث كطريقة فهم ومواجهة هذا الظرف الجديد الذي يبدو فيه التواصل المرض الذي يسبب معظم مشكلاتنا الاجتماعية، والعلاج الوحيد الممكن لها في الوقت نفسه.

الرافد النقدي

الرافد النقدي لنظرية التواصل هو السابع والأخير الذي سوف تتم مناقشته هنا، وهو يصور التواصل بوصفه خطابًا تأمليًا جدليًا يتضمن بالضرورة الأبعاد الأيديولوجية والثقافية للسلطة والقهر والتحرر في المجتمع. لقد تم صياغة مفهوم الجدل Dialectic – مثل نظيره؛ أي البلاغة – لأول مرة في اليونان القديمة. [انظر مدخل الجدل **Dialectic**]. الجدل في الممارسة الفلسفية لسقراط – كما رسمها أفلاطون في محاوراته – كان منهجًا للحجاج عبر الأسئلة والإجابة، يقود المتحاورين عبر الكشف عن التناقضات وتوضيح الغوامض نحو الحقيقة الأسمى. ولقد دشنت الجدلية المادية لكارل ماركس (1818–1883) المفهوم الحديث للجدل بوصفه عملية اجتماعية متأصلة تربط الاقتصاد السياسي بالممارسات الثقافية. فالأيديولوجيا والثقافة في النظرية الماركسية الأصولية محكومان بالمصالح الطبقية، والجدل على مستوى الأفكار هو انعكاس للصراع التحتي بين الطبقات الاقتصادية. لقد انحازت الماركسية المتأخرة، التي نلحظها في النظرية النقدية التي بزغت أواسط القرن العشرين في مدرسة فرانكفورت (وهي حلقة تشكلت في مدينة فرانكفورت الألمانية في عشرينيات القرن العشرين وهاجرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية أثناء حكم النازي) لرؤية دور أكبر للنقاش الثقافي والأيديولوجي، وأقل اعتمادًا بشكل مباشر على العلاقات الاقتصادية بين

الطبقات. كانت غاية النظرية النقدية إذن هي تعزيز الوعي الفكري والتنوير بواسطة إزالة الغمامات[١] الأيديولوجية التي لو بقيت فسوف تجعل الجهل والقهر دائمين. وقد أعاد مؤخرًا الفيلسوف الاجتماعي الألماني يورجن هابرماس بناء النظرية النقدية حول مفاهيم محورية تشمل الفعل التواصلي، والتشويه النسقي للتواصل. بالنسبة لهابرماس فإن الحدث التواصلي أو الخطاب الذي يتطلب الفهم المتبادل، يتضمن بشكل أصيل دعاوى صلاحية متعالية معينة يجب أن يشعر الفواعل الاجتماعيون أنه بوسعهم اختبارها بحرية لكي يحدث تواصل أصيل. يتم تشويه التواصل على نحو منظم بواسطة غياب توازنات القوى، التي تؤثر في المشاركة والتعبير، ويمكن للنظرية النقدية أن تخدم الاهتمامات التحررية بواسطة التأمل في مصادر التشويه المنظم للتواصل. وتميل الحركات المعاصرة في التراث النقدي لما بعد الحداثة والدراسات الثقافية النقدية إلى الاعتراض على كلٍ من الحتمية الاقتصادية الماركسية والفعل التواصلي العالمي النموذجي عند هابرماس لكنها تستمر في تصوير التواصل بطرق تركز على الأيديولوجيا والقهر والمساءلة والتأملية. وتواجه المساءلات الثقافية لما بعد الحداثية بشكل أساسي الخطابات الأيديولوجية للعنصر والطبقة والنوع التي تقهر الاختلافات وتحول دون التعبير عن هويات بعينها أو تشينها، وتحد من التنوع الثقافي. إن التواصل النموذجي في النظرية ما بعد الحداثية ليس – كما كان عند أفلاطون – خطابًا جدليًا يقود إلى حقائق كونية عليا. ومع ذلك فإن ما بعد الحداثة تنطوي على نموذج مشابه للتواصل: بحيث يكون الخطاب الجدلي (أي النقدي) قادر فيه –وإن كان بطرق محدودة – على تحرير المشاركين وتعظيم الإمكانيات البشرية.

---

(١) ما يوضع على عين الفرس أو الثور لكي لا يرى أنه يدور في حلقة مفرغة حين يكـون مربوطا بالساقية. (المترجم).

تتضمن هذه الروافد السبعة أكثر المصادر الفكرية المتميزة التي تؤثر في الوقت الراهن على نظرية التواصل، لكن هذه الروافد السبعة لا تغطي بالطبع هذا الحقل بشكل تام. فالأفكار التي تدور حول التواصل عديدة ومتنوعة للغاية، وتتطور بشكل دينامي يحول دون الإمساك بها جميعًا في أي مخطط بسيط. وبالتأكيد يمكن لحقل التواصل أن يتم تأطيره بطرق متباينة تميز بين الروافد الرئيسية بأسلوب مختلف. علاوة على ذلك – وبغض النظر عن كيفية تعريف هذه الروافد – فإنه لا يمكن الزعم بأنها قد تطورت على نحو منفصل. فالنظرية المعاصرة نبعت من كل الروافد بطرق مختلفة، لكنها عصية في الغالب على أن تتماهى تمامًا مع أي واحد منها.

إن التنويعات المزجية والهجينة هي الأكثر شيوعًا، فنظرية ما بعد البنيوية على سبيل المثال – التي تنبع من السيميوطيقا والظاهراتية – غالبًا ما يُنظر إليها على أنها نوع من النظرية البلاغية، وكان لها تأثير بارز في النظرية الاجتماعية الثقافية والنظرية النقدية المعاصرة. وعلى نحو مشابه، يمكن أن نجد آثارًا لكل الروافد الأخرى لنظرية التواصل في النظرية البلاغية الراهنة. [انظر **Contingency and Probability**، **والبلاغة الحديثة Modern rhetoric**]. لقد أصبح الفرع المعرفي لدراسات التواصل مثل المرجل الذي تمتزج فيه أفكار آتية من كل روافد نظرية التواصل، ويتم تحفيز هذه الأفكار على الاندماج لتشكل خامة فكرية للنقاش الراهن.

دراسات التواصل

أصبحت البحوث الأكاديمية للتواصل البشري أثناء النصف الثاني من القرن العشرين ميدانًا لفرع أكاديمي معرفي مستقل. ولقد نبعت بحوث التواصل– التي التحمت مكونةً حقلا معرفيًا بينيًا في أربعينيات القرن العشرين– من روافد بحثية نشأت بدرجة أكثر أو أقل استقلالية في العديد من

مجالات العلوم الاجتماعية والسلوكية؛ بما فيها علم الاجتماع والعلوم السياسية، والرأي العام ودراسات الدعاية والتعليم والإعلان وإدارة الأعمال وعلم اللغة والأنثروبولوجيا وغيرها. وكلما ارتقت هذه الحركة المعرفية البينية، أثرت في الهويات الفكرية للعلماء في أقسام دراسة الكلام في الجامعات الأمريكية. [انظر، مدخل: الكلام speech]. وقد أصبحت أقسام دراسة الكلام بحلول منتصف القرن العشرين موطنًا أكاديميًا أساسيًا للدراسات البلاغية. ولأن بحوث التواصل تماهت مع العلوم السلوكية والاجتماعية – حيث اعتبرت البلاغة حقلا إنسانيًا – هددت الجهود الساعية لتعزيز حضور بحوث التواصل، في أقسام دراسة الكلام وفي المؤسسات المهنية ذات الصلة المكانة المهيمنة للبلاغة. ونتج عن ذلك صراع مؤسساتي شديد، مصاحب لبعض الجهود المبدعة للتأليف العقلي بين البلاغة والتواصل.

مما لا شك فيه أن تطور بحوث التواصل في أقسام الكلام – مثل النشوء المتلازم للتواصل الجماهيري ودراسات الإعلام في مدارس الصحافة – تأثر بالترقي المستمر للتواصل بوصفه الموضوع الرئيس في الخطاب المجتمعي. لقد أصبحت كلمة التواصل مفردة غامضة –على نحو ما أُثبت على سبيل المثال بواسطة تكاثر الموضوعات ذات الصلة بالتواصل بحلول منتصف القرن العشرين كما ذكرنا من قبل – وأصبحت تُستخدم عنوانًا لمجال دائم الاتساع من المشكلات والممارسات الاجتماعية. وأصبحت الوظائف المرتبطة بالتواصل والمهارات التواصلية بشكل عام أكثر أهمية في الاقتصاد ما بعد الصناعي، الذي بدأ في النشوء. ووفقًا لكتاب "التحدث إلى الأثير" *Speaking into the Air* لجون ديرم بيتر Peters، فإنه يوجد موضوعان رئيسيان في خطاب ما بعد الحرب العالمية الثانية حول التواصل. الأول خطاب تكنولوجي ارتبط بنظرية المعلومات والسيبرنطيقا. والآخر خطاب العلاج النفسي therapeutic discourse الذي ارتبط بكارل روجر، وما عُرف

لاحقًا بحركة الإمكانيات الإنسانية. وكما يوضح بيتر فإن النشاط المحموم لتكنولوجيا التواصل والعلاج كان وقوده القلق المرتبط بالقنبلة النووية وبالحرب الباردة ضد الشيوعية.

ليس من المستغرب في ضوء هذه الاتجاهات المجتمعية أن يتزايد الاعتقاد بأن الكلام – وفي النهاية البلاغة – يقع بشكل طبيعي تحت المظلة العامة للتواصل. فبداية من ستينيات القرن العشرين بدأ التواصل يحل تدريجيًا محل الكلام في عناوين الأقسام الأكاديمية، والمؤسسات المهنية والدوريات العلمية، ووفقًا لذلك تم تحويل مقررات الكلام لتدور حول بؤرة جديدة لنظرية التواصل وممارستها.

وما إن أصبح التواصل عنوانًا مقبولا للحقل ككل، حتى تمَّ التوقف عن التماهي بينه وبين العلوم السلوكية والاجتماعية على نحو حصري. وعلى الرغم من أن الصدامات القديمة – بين المقاربات العلمية والإنسانية – استمرت في أشكال جديدة في أقسام التواصل، وأن البلاغة ذاتها ارتقت لتصبح حقلا بينيًا؛ فإن الدراسات البلاغية أصبحت – من بين أشياء أخرى – فرعًا من فروع بحوث التواصل، وأصبحت النظرية البلاغية رافدًا من روافد نظرية التواصل.

تتوزع بحوث التواصل في الوقت الراهن على حقل بالغ الاتساع، تقاوم حدوده وفروعه أي تعريف ثابت. وتقدم روافد نظرية التواصل مقاربة شيقة لتأطير البنية الفكرية لبحوث التواصل، لكن هناك مقاربات عديدة أخرى أكثر شيوعًا، ظلت أيضًا مفيدة. إحدى المقاربات الشائعة لتصنيف المعرفة حول التواصل هي الحقل المعرفي. فالتواصل يمكن دراسته بوصفه حقلا معرفيًا علميًا أو إنسانيًا أو بوصفه فنًا أو حقلا مهنيًا. لقد زحف التواصل – بوصفه حقلا للبحث البيني – نحو حقول معرفية تقليدية مثل علم الاجتماع

وعلم النفس وعلم اللغة، وأيضًا نحو حقول أحدث مثل الدراسات الثقافية وعلم المعلومات. فحقل التواصل يتضمن حقولا فرعية تقنية مثل الصحافة والإعلان والعلاقات العامة والبث الإذاعي والتواصل الآلي، أو يرتبط بها على نحو وثيق. كلٌ من هذه الحقول يضيف إلى بنيته الخاصة للمعرفة، والتي لا يمكننا أن نشرع في استكشافها في هذا المقال. يمكن كذلك أن نصنف المعرفة في حقل بحوث التواصل على نحو متعارف عليه وفقًا لبعض المخططات المفاهيمية. وبدون محاولة تقديم مسح شامل سوف نستكشف بإيجاز ثلاثة من أكثر المخططات المفاهيمية شيوعًا لتأطير حقل التواصل: هي الوظائف ثم الشفرات والوسائط الإعلامية والقنوات وأخيرًا المستويات والسياقات.

الوظائف

كما أن البلاغة يمكنها أن تتكيف مع الغايات المختلفة لتحريك الجمهور أو إرشاده أو إمتاعه، يستطيع التواصل أن يشكِّل تنوعًا من الوظائف المتباينة. يمكن أن نذكر من بين المدى الواسع لوظائف التواصل التي تمت دراستها حفنة قليلة من الوظائف مثل الإقناع والتأثير الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية socialization والدعم الاجتماعي، ومعالجة المعلومات، والصراع، واتخاذ القرار، والتسلية.

يربط الإقناع – وهو موضوع كبير في حد ذاته – دراسات التواصل بالبلاغة بشكل مهم. يُعرِّف أرسطو Aristotle (384–322 bce) البلاغة بوصفها فن اكتشاف الوسائل المتاحة للإقناع في أية حالة محددة. وغالبًا ما يتم ربط البحث النفسي الاجتماعي التجريبي حول الإقناع وتغيير الاتجاهات بتراث أرسطو، ويوسم بأنه "**بلاغة علمية** scientific rhetoric"؛ أي مجهودات لخلق

أساس علمي لفن الإقناع. لقد فحصت الكثير من التجارب العلمية التأثير الإقناعي للاستمالة النفسية والمنطق، والحجج أحادية الجانب، وثنائية الجانب one - sided and two - sided، ومصداقية المصدر (أو *ēthos*)، وخصائص الجماهير، ووسائط النقل، ومجموعة أخرى من المتغيرات.

لقد قُدِّمت النظريات النفسية الاجتماعية بوصفها بديلا علميًا للبلاغة التراثية. وعلى سبيل المثال، فإن نظرية ليون فستينجر Festinger للتنافر المعرفي لم تقدم فحسب ما يبدو أنه مبدأ شارح جديد للإقناع، لكنها أيضًا فتحت الباب أمام مجالات بحثية جديدة بشكل تام مثل التعرض الاختياري selective exposure (الميل إلى طلب المعلومات التي تساند اتجاهات المرء الحالية)، والإقناع الذاتي self - persuasion (أو نصرة ما يقابل الاتجاه النفسي counterattitudinal advocacy، كما كان يُسمى برداءة). وقد فحص مسار معرفي أكثر معاصرة سلوك "الحصول على الإذعان "compliance - gaining، أي الاستراتيجيات التي يستخدمها البشر للتأثير في بعضهم بعضًا في المواقف بين الشخصية. [انظر مدخل الإقناع].

ومع تنامي شعبية حركة الإمكانيات البشرية والمفاهيم العلاجية للتواصل المرتبطة بها في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، انتقد التركيز التقليدي لأبحاث التواصل على الإقناع وعمليات التأثير الاجتماعي. وكبديل لمثل هذه الاستعمالات التأثيرية "البلاغية" للتواصل، ظهرت الحاجة لبحوث تعزز من الوظائف الإنسانية والعلاجية للتواصل؛ مثل الروابط بين الشخصية، والتعاون بين الجماعات، وحل المنازعات. وقد تطورت مسارات للبحث في كل من هذه الحقول، وأنتجت كيانات معرفية بالغة الأهمية.

أحد هذه الحقول - على سبيل المثال - هو دراسة الدعم الاجتماعي والتواصل الملطِّف comforting. وفحصت بعض هذه البحوث السلوكيات التي

تقوم بوظيفة التعبير عن التدعيم العاطفي في ظروف معينة، أو المتغيرات التي تتنبأ بالقدرة على إنتاج رسائل مؤازرة أكثر مهارة.

غالبًا ما كان باحثو التواصل العلمي الاجتماعي يفضلون المقاربة الوظيفية؛ لأنها تركز الاهتمام على نواتج التواصل القابلة للقياس، وتحاول أن تشرح كيف تتأثر النواتج بالمتغيرات والعمليات التي تحدث على نطاق عريض من المواقف التواصلية. يمكن - على سبيل المثال - أن تساعد عمليات معرفية معينة وملامح الرسالة في شرح الكفاءة التي تكتسب بها المعلومات من التواصل، سواء في سياق حملة دعاية انتخابية سياسية في وسائل الإعلام أو في سياق دمج عضو جديد في النسيج الاجتماعي لمؤسسة ما أو في سياق نقاشات جماعية بين الأصدقاء.

الشفرات والوسائط والقنوات

الطريقة الأخرى الشائعة لتصنيف التواصل، تكون بحسب الشفرات والوسائط والقنوات التي يحدث عبرها. ليست الشفرات والوسائط والقنوات أنواعًا مختلفة للغاية، بنفس درجة كونها منظورات مختلفة لنفس تنويعات الظواهر. تشير "**الشفرة**" إلى طريقة بناء نسق العلامة لينشئ ترابطًا محددًا مع المعنى. أما **الوسيط** - فعادة ما يختلط في استخدامه الراهن بجمعه (اللاتيني) الوسائط media - فيشير إلى ترتيب مخصوص لخصائص فيزيقية وتكنولوجية ومؤسساتية يحقق شكلا متمايزًا من التواصل مثل التفاعل وجهًا لوجه أو الإعلان التلفزيوني، أو البريد الإلكتروني. وتشير القناة إلى اختيار من بين مجموعة من الإمكانيات لإرسال المعلومات واستقبالها. إحدى مجموعات القنوات تؤلف بين الحواس الخمس للرؤية والسمع واللمس...إلخ؛ مجموعة أخرى تؤلف بين التليفون والفاكس والخطاب البريدي والبريد

الإلكتروني والمقابَلات وجهًا لوجه بوصفها إمكانيات للتواصل في إدارة الأعمال، وتبقى مجموعة أخرى قد تكون سلسلة من القنوات التليفزيونية المتاحة. قد ينطوي استخدام قنوات متباينة على استخدام وسائط وشفرات اتصال متباينة، وقد لا ينطوي على ذلك.

إن اللغة، بالطبع، هي شفرة أساسية (أو إنها، من منظور مختلف، وسيط أو قناة) للتواصل الإنساني، وهي حقل شاسع للبحث في ذاتها. وغالبًا ما يقوم خبراء التواصل غير اللفظي بنقد التمييز الشائع بين القنوات (أو الشفرات) اللفظية وغير اللفظية، الذين يلفتون النظر إلى أن السلوكيات اللفظية وغير اللفظية متضافرة على نحو وثيق، وتقوم بأداء وظائفها في عملية التواصل بشكل تعاوني. فالعلامات الحركية Kinesics (الإشارات، وتعبيرات الوجه، وحركة الجسد)، وعلامات الملامسة haptics (اللمس)، والعلامات اللغوية الموازية (طبقة الصوت، التنغيم.. إلخ) هي بعض شفرات التواصل وجهًا لوجه التي تمت دراستها. ويمكن القول إن كل حقل مميز من حقول الممارسة الثقافية في المشهد العام للثقافة المجتمعية يتضمن – إذا كان ذا مغزى – شفراته الخاصة المحددة، أو نسق علاماته. يكشف التحليل السيميوطيقي عن الشفرات النسقية التي تحكم المعنى الاجتماعي للملبس أو المأكل أو الحكايات الأسطورية أو أنماط الشخصية في الأنواع التليفزيونية أو أنواع اللقطات في الفيلم أو الفيديو. فما إذا كان المشهد التليفزيوني صوِّر في لقطات قريبة close - up أو متوسطة أو بعيدة – على سبيل المثال – يمكن أن يسهم –بالتعاضد مع شفرات أخرى – في تصوير الأنواع المختلفة للعلاقات الاجتماعية (فكلما كانت اللقطة أبعد كانت العلاقة أكثر عمومية).

إن أحد فروع نظرية التواصل وهو ما يُعرف بالحتمية التكنولوجية *technological determinism* يؤكد في أكثر صياغاته تطرفًا أن الوسائط التواصلية

تشكل وعينا بالعالم، وأن نشر وسائط إعلامية جديدة عبر المجتمع يمكن أن يجلب أشكالا جديدة من الوعي والثقافة. مما لا شك فيه أن مارشال ماكلوهان Marshall McLuhan (1911-1980) هو أكثر التكنولوجيين الحتميين شهرة بين العامة؛ وقد أضفى شعبية على عبارات لافتة عديدة (مثل: "الوسيط هو الرسالة"، "مجرة جوتنبرج the Gutenberg galaxy"[1]، و"القرية الكونية") ظلت موجودة في الاستخدام العام. لقد ذهب ماكلوهان إلى أن وسائط الإعلام الإلكترونية الجديدة -خاصة التليفزيون - تُحدث تغييرات ثقافية ومعرفية ليست أقل عمقًا من التغييرات الثورية في الوعي، التي صاحبت الانتقال من الثقافة الشفاهية إلى الثقافة الكتابية، وطلائع الصحف المطبوعة في حقب مبكرة. إن التصور البسيط القائل بأن تغير الوسائط التكنولوجية يؤدي إلى تغيير الوعي لم يُقبل أبدًا على نطاق واسع مطلقًا من منظري التواصل. ومع ذلك، فإن أفكار ماكلوهان -بالإضافة إلى أعمال أقل شعبية مثل كتابات هارولد إنيس Innis ووالتر أونج Ong وغيرهما من علماء تاريخ وسائط التواصل - قد استمرت في حفز التفكير في المتضمنات الثقافية للوسائط الإعلامية الجديدة. لقد اجتذبت الموجات العارمة الراهنة لتغير تكنولوجيا الحوسبة والتواصل الآلي موجات جديدة من التغيرات في الثقافة والوعي يمكن أن تكون بشائر بواكير ما يُعرف بالثورة الرقمية.

المستويات والسياقات

الطريقة الثالثة الشائعة في تصنيف التواصل هي تصنيفه بحسب السياق أو الموقف الذي يحدث فيه. تأتي فكرة المستويات المتداخلة للتنظيم النسقي من الرافد السبرنطيقي للأنساق العامة. كل نسق معقد يتألف من

---

(١) عنوان أحد كتب مكلوهان، يناقش فيه دور وسائل الإعلام، خاصة الصحافة المطبوعة، على الثقافة الأوروبية والوعي الإنساني. (المترجم)

أنساق فرعية في مستويات أدنى، وهو ذاته نسق فرعي يتداخل مع بعض مستويات النسق الأعلى. قام علماء التواصل بتطبيق هذه الفكرة لصياغة مفاهيم مستويات التواصل مثل التواصل مع الذات intrapersonal (بين المرء ونفسه) والتواصل مع الآخر interpersonal (بين عامة الناس)، والتواصل مع الجماعة الصغيرة (بين مجموعة من الأفراد ممن يشتركون في وعيهم ببؤرة اهتمام مشتركة ويحافظون عليها)، والتواصل المؤسساتي (في إطار شبكة معقدة من الأفراد والجماعات التي تتكون من جماعات فرعية ولديها وظائف مخصوصة)، والتواصل العام (بين مصدر اتصالي وجمهور ضخم)، والتواصل الجماهيري (من مصدر اتصالي عبر وسيط تكنولوجي إلى جمهور مجهول بالغ الضخامة).

وبشكل مبدئي يتضمن تواصل المرء مع نفسه -الذي لم يتطور مطلقًا ليصبح مجال بحث رئيسي في بحوث التواصل ربما لأنه يبدو مدروسًا على نحو كاف للغاية في الحقل المعرفي لعلم النفس - مجالات من قبيل الانتباه والإدراك وطلب المعلومات والمعالجة المعرفية والشخصانية وتأمل الذات. والتواصل بين عموم الأشخاص حقل بحثي بالغ الاتساع، يمتد من دراسات ارتقاء العلاقات الشخصية وأدائها وتفككها (مثل الصداقة والعلاقات الرومانسية والعلاقات الأسرية) إلى دراسات سلوكيات المتواصلين مثل قلاقل التواصل والحجاجية، إلى دراسات استراتيجيات التواصل والسلوكيات المرتبطة بالتأثير الاجتماعي والخداع والصراع والدعم الاجتماعي، وإدارة الانطباعات، وعدد وافر جدا من الوظائف التواصلية الأخرى.

ويتضمن التواصل بين الجماعات الصغيرة مواضوع من قبيل تأثير تركيب الجماعة على نواتجها، ووظائف التواصل في الجماعات (مثل الوظائف المتعلقة بأداء المهام في مقابل الوظائف المتعلقة بالحفاظ على الجماعة)، وقيادة الجماعة وغيرها من أدوار الجماعة، وخطوات وعمليات

تطور الجماعة. واتخاذ القرار، وطرق تسيير الجماعة، وخصائص أنواع معينة من الجماعات في العمل أو التعليم أو العلاج.

التواصل المؤسساتي حقل كبير يشمل - بين موضوعات أخرى - دراسات شبكات التواصل الرسمية وغير الرسمية، والقيادة، وعلاقات الهيمنة والتبعية، والقوة والتحكم، وصنع القرار، والتنشئة الاجتماعية والهوية وديمقراطية أماكن العمل والممارسات التشاركية، والثقافة المؤسساتية والتغيير والعلاقات العامة والعلاقات المؤسساتية.

التواصل الجماهيري حقل أكبر حتى من التواصل المؤسساتي، ويشمل دراسات مؤسسات الإعلام، والمهن المتعلقة بها وقوانينها واقتصادياتها وتاريخها؛ وخصائص جماهير وسائل الإعلام وسلوكياتهم، وتأثيرات وسائل التواصل الجماهيري على معرفة الجمهور وآرائه، والمستهلك وسلوك التصويت، والعنف والإدراك الحسي للعنف في المجتمع، والأولويات العامة والعمليات السياسية، وأشكال الوسائل الإعلامية وأنواعها ومحتواها، ودور وسائل الإعلام بوصفها منتجًا للثقافة وفاعلا للتغيير الاجتماعي.

اعتقد البعض أن مخطط "المستوى" هذا مفيد على نحو خاص، لأنه يمدنا بأماكن متمايزة لبحوث التواصل في الحقول المعرفية التقليدية (مثل التواصل بين الأشخاص، والتواصل المؤسساتي والتواصل الجماهيري)، بينما يقترح كيف يمكن أن تعمل هذه الحقول الفرعية معًا لتؤلف حقلا متماسكًا للدراسة. ويمكن للبلاغة في هذا المخطط أن تُدرك بوصفها دراسة التواصل *العام*. إذا فهِمت البلاغة على هذا النحو فإنه يمكن ربطها بشكل طبيعي بمستويات التواصل الجماهيري المجاورة (كما هو الحال في دراسات الحملات الانتخابية السياسية والبلاغة التليفزيونية)، والتواصل المؤسساتي (كما هو الحال في دراسات القيادة المؤسسية والمؤسسات بوصفها فواعل عامة).

فإن الإصدارات المتعارف عليها من مستويات مخطط التواصل مشكوك فيها مفهوميًا من الناحية التصورية. فثمة خلاف حول ما إذا كانت العمليات المحايثة للشخص (كلام المرء مع نفسه) تشكل اتصالا على الإطلاق. وثمة تشكك بالقدر ذاته في أن التواصل العام هو بالفعل مستوى نسقي منفصل، يقع بين التواصل الجماهيري والتواصل المؤسساتي. إن الكثير من اتصالنا العام يحدث عبر الوسائط الإعلامية، ومع ذلك فالأفراد يتفاعلون كذلك في الحقل العام (حين يسيرون في الشوارع العامة على سبيل المثال) دون أن ينخرطوا بالضرورة في تخاطب عام من واحد إلى كثيرين. ويمكن للمرء أن يتساءل أيضًا عمَّا يمكن فعله مع ملف راسخ مثل التواصل بين الثقافي intercultural communication (التواصل بين أفراد من ثقافات مختلفة). ففي بعض الأحيان، يُلحق التواصل بين الثقافي بالمخطط كمستوى يقع فوق التواصل الجماهيري؛ وهو ما يصعب فهمه لأن أكثر التواصل بين الثقافي هو أيضًا اتصال بين أشخاص عديدين، و/أو بين جماعات صغيرة، و/أو بين المؤسسات. وبنحو أكثر عمومية، فإن التغيرات في تكنولوجيا وسائل الإعلام وممارساتها تذيب الحدود الفاصلة بين المستويات التقليدية للتواصل. فالجماهير الغفيرة أصبحت مقسَّمة إلى شرائح أكثر صغرًا، وتلعب دورًا أكثر تفاعلية في عملية التواصل. ويتفاعل الأشخاص والجماعات عبر الوسائط التكنولوجية، بشكل غير مُميز أحيانًا، وفي منتديات عامة مثل حجرات الدردشة الافتراضية أو بث عروض الكلام أحيانًا أخرى. إن المنظمات الافتراضية (مثل الوكالات التي تدير عمالة مؤقتة) لم تعد أكثر من شبكات من الأفراد غير المقيدين يترابطون من خلال وسائط. [انظر، الجمهور **Audience**، والمقالين الخاصين بالجماهير الغفيرة **Mass audiences** والجماهير الافتراضية **Virtual audiences**].

يوجد - بخلاف نموذج المستويات - وسائل تخطيط أخرى يصعب تصورها للتمييز بين سياقات التواصل. فيمكنٍ للتواصل بين الثقافي - لو لم يكن مستوى نسقيًا تنظيميًا منفصلاً - أن يُصنف على أنه وظيفة تواصلية، أو ربما بشكل أكثر بساطة على أنه موقف محدد بعينه يحدُث فيه التواصل. ولكل موقف اجتماعي منفصل، ولكل حقل من حقول النشاط، ولكل جماعة اجتماعية مشكلاتها وممارساتها ونماذجها التي تتطلب أن تُفهم بمصطلحاتها الخاصة. ويمكن - من هذا المنظور - تقسيم التواصل على نحو دقيق للغاية إلى عدد هائل من الحقول السياقية المتداخلة للتواصل الديني والتواصل في إدارة الأعمال والتواصل الأسري والتواصل في التعليم والتواصل في جماعات إثنية وثقافية محددة وهلم جرا، وفي النهاية إلى مقولات تفاعل بشري عادية لا حصر لها.

اتجاهات راهنة

لقد نما الحقل المعرفي للتواصل نموًا هائلا في العقود الأخيرة واستمر في الارتقاء. بعض أكثر التيارات المعاصرة أهمية في بحوث التواصل يمكن تلخيصها في أربعة موضوعات رئيسة؛ هي: التكنولوجيا والثقافة والخطاب والممارسة.

الموضوع الرئيس الأول هو التكنولوجيا. إن الحقبة الراهنة هي حقبة تغير تكنولوجي متسارع للغاية، يبلغ حد تسارعه أننا نفتقر لغويًا إلى مفاهيم ثابتة يمكننا أن نصفه بها. لقد أصبحت المعلومات سلعة قابلة للاستبدال fungible؛ أي قابلة للنقل من أي وسيط إلى أي وسيط آخر. كان التليفزيون والتليفون منذ نحو عشرين عامًا اختراعين تكنولوجيين منفصلين على نحو جلي. بعد عشرين سنة من الآن، ربما يؤدي السيل المنهمر من الشرائح التكنولوجية إلى تصنيف مختلف تمامًا. فالتغير التكنولوجي - كما ذكرنا سلفًا -

يعيد تشكيل مستويات التواصل ووظائفه. تُصبح كفاءة استخدام وسائل الإعلام الإخبارية والوعي النقدي بها أهدافًا مهمة في التربية التواصلية، لكن محتوى هذا التعليم يصعب على التشفير، وتكلفة إبقائه منسجمًا مع المستجدات أمر باهظ التكاليف. إن كل رافد من روافد نظرية التواصل يتعرض لتحدي القدرة على الصياغة المفاهيمية للتكنولوجيا الجديدة. وبذا تتحول مسائل جديدة إلى موضوعات للبحث مثل بلاغة الصور المرئية وظاهراتية الواقع الافتراضي والسيكولوجية الاجتماعية للبريد الإلكتروني والجماعة الثقافية الاجتماعية في الفضاء الإلكتروني، وربما يكون الأكثر أهمية تحول التحليل النقدي، وفضح الزيف الأيديولوجي الكامن وراء الدعاية التي تحيط بالتكنولوجيا في الوقت الراهن، إلى موضوع للبحث.

الموضوع الرئيس الثاني البازغ هو الثقافة. تلتقي الثقافة مع التكنولوجيا في الدراسات الثقافية النقدية للممارسات التكنولوجية والدراسات الإثنوجرافية للجماعات الافتراضية وما شابه ذلك. لكن الثقافة أيضًا موضوع مهم في ذاته. لقد أصبح التنوع والتحول الثقافي – مع تزايد الاعتماد العالمي المتبادل – مرئيًا في كل مكان وأثار أسئلة لا مفر منها. التغلغل عبر الثقافات يثير أسئلة تخص الهيمنة الثقافية الاستعمارية الجديدة. ويُفقد التواصل بين الثقافي خصائصه المميزة لكوننا نصبح أكثر وعيًا بالارتباط بين الهوية الثقافية والاختلاف في التواصل بأكمله. فالجندر والطبقة والعنصر والإثنية والهويات القومية كلها على المحك، سواء في تمثيلات وسائل الإعلام أو في تفاعلات ساحة العمل. لقد أصبح أداء هذه الهويات والتفاوض الذي يتبعها غالبًا، عناصر حاسمة للممارسة الثقافية في المجتمعات متعددة الثقافات. فالكثير من بحوث نظرية التواصل التقليدية كان متمركز الإثنية ethnocentric وبطريركيًا (خاضعًا لنظام أبوي مهيمن) patriarchal على نحو غير منظور. فالضمير

"نحن" يشير إلى دراسة السلوك التواصلي للذكور، وفي أحيان قليلة إلى النساء مقارنة بمعيار الذكور، ونادرًا ما طُرح التساؤل حول ما إذا كان من الممكن تعريف هذه المقولات بشكل مختلف، فيما عدا في الثقافات "الأخرى". لم تعد هذه المقاربة مقبولة لا فكريًا ولا سياسيًا. وتتواصل أهمية الدراسات الإثنية التقليدية للتواصل في الجماعات الثقافية المتنوعة. لكن كل فرع من فروع بحوث التواصل يقع على عاتقه تحدي مواجهة الأبعاد الثقافية للتواصل، والتعرف على دورها التكويني في إنتاج الثقافة.

هناك اتجاه ثالث لتصوير التواصل بوصفه خطابًا. الخطاب هو اللغة في الاستعمال، أو هو بمعنى أوسع الإنتاج التفاعلي للمعنى. أصبح الموضوع الرئيسي للخطاب بالغ الأهمية في العديد من الأبعاد. أحد هذه الأبعاد أنه يقدم جهدًا لفهم تفصيلي للعملية التي بواسطتها يحدث التواصل بالفعل، متجاوزًا مجرد تلخيص العملية في نماذج مجردة ومقولات. فلم يعُد كافيًا بعدُ أن نحسب عدد الخبراء الذين يظهرون في عروض الكلام التليفزيونية أو أن نرتب أنماط النصائح التي يقدمونها للجماهير. فالاتجاه الآن هو نحو التساؤل عن الكيفية التي يتم من خلالها بالضبط منح "الخبير" سلطة شرعية بين المشاركين على منصة العرض وبين الجمهور، وكيف يرتبط هذا التفاوض حول دور الخبير بخطابات أخرى حول موضوعات مثل المعرفة المشروعة والصلاحيات السلطوية، والفردية، والحدود الفاصلة بين الفضاءات العامة والخاصة. ويقدم الخطاب في بعد آخر من أبعاده نقطة التقاء بين البلاغة وبقية روافد نظرية التواصل. فهو يستدعي منظورًا بلاغيًا لفهمنا لأشكال التواصل (مثل التفاعل الشخصي) التي لم يتم التفكير فيها تقليديًا على أنها بلاغة. كما أنه يثري المنظور البلاغي برؤى وتقنيات من التداولية pragmatics وتحليل المحادثات والدراسات الثقافية وغيرها من الحقول. ويمثل

الخطاب - في بُعد ثالث - حركة باتجاه فهم التواصل بوصفه ممارسة؛ بمعنى أنه فعل ذو معنى وذو موقع وقابل للقياس أخلاقيًا.

الممارسة - إذن - هي الموضوع الرئيسي الرابع الذي يلخص الاتجاهات المعاصرة في التواصل. وفي الأعوام الأخيرة أصبح الاعتراف بأن التواصل هو حقل ممارسة أكثر حظوة بالتقدير أكاديميًا، وأكثر إثارة للاهتمام الفكري. وفي كل مكان من حقل التواصل، أصبحت الدراسات التطبيقية والنقدية وبحوث الأفعال المؤسسة على الجماعة والاهتمام بالموضوعات المعيارية والأخلاقية والتعليمية، وفكرة أن العمل الأكاديمي يجب أن يتوجه إلى اهتمامات عملية وثيقة الصلة بالمجتمع - أكثر شيوعًا وفي الوقت نفسه تحظى بتقدير أسمى من ذي قبل. إن القوى التي أسهمت في إحداث هذا التحول عديدة، لكن رافد البلاغة بوصفها فنًا عمليًا في سياق دراسات التواصل هو بالتأكيد أحدها. وعلى عكس ما يمكن توقعه، فإن الاتجاه نحو الممارسة لم يكن مصحوبًا بالاعتراض على النظرية. فنظرية التواصل تزدهر في الوقت الراهن بمثل ما لم يحدث من قبل. وبالأحرى فإن الفصل التقليدي بين الممارسة والنظرية تمت مواجهته بوجهات نظر بديلة. بعض من وجهات النظر البديلة تلك تكوَّنت بواسطة التراث الأرسطي حول الفلسفة العملية التي يرتبط فيها علم البلاغة ارتباطًا وثيقًا بالممارسة praxis السياسية. تتطلب الممارسة - في هذا التراث - التقييم وبالقدر نفسه المهارة، وكل من التقييم والمهارة يمكن تكوينهما وتنميتهما بمساعدة النظرية التي تصمم خصيصًا للوصول إلى تلك الغايات. لا يكمن التحدي الذي يواجه دراسات التواصل في ارتفاع شأو الممارسة على حساب النظرية بل في تكوين نظريات أكثر عملية قابلية للتطبيق غايتها خلق تواصل أكثر وأفضل عمليًا ونظريًا.

الخطاب الشارح Metadiscourse: النظرية والممارسة

لقد كانت نظرية التواصل تتوق أحيانًا إلى تجاوز ما هو عادي. نظرية التواصل هي على مستوى مجرد تمامًا نظرية كلية. فالنبات والقمر والزهرة والنحلة والعاشق والمعشوق كلهم يتواصلون، وكلهم يوجدون في علاقات متبادلة، وكلهم يبعثون ويستقبلون إشارات وفقًا للقوانين الفيزيقية وقوانين المعلومات. تجد السيبرنطيقا بغيتها في مثل هذه التشابهات الجزئية التي ألهمت رؤى أصولية لنظرية التواصل لكي تصارع نظريات نيوتن Newton وأينشتين Einstein.

لو أن هذه الرؤية التي تنتمي لمنتصف القرن العشرين كانت متكلفة، فإن الحقيقة مؤثرة بعدة طرق بما فيه الكفاية. ويُعد النموذج المجرد للتواصل بوصفه نقلا للمعلومات والإشارات سمة مميزة لعصر المعلومات Information Age. لقد طُبِّق بنجاح في الهندسة والعلوم وعلم الأحياء وعلم النفس والعلوم الاجتماعية. ومن قبيل المفارقة أن كان دوره في نظرية الخطاب البشري وممارسته أكثر محدودية، وربما تم محوه إلى حد ما، على الرغم من الرواج الحالي في تكنولوجيا التواصل وازدهار الكلام الإلكتروني المرتبط بها. إن التفاعل البشري في النموذج النقلي للتواصل هو مجرد مثال من بين العديد من أمثلة معالجة المعلومات، وأقل جاذبية للعلم من غيره لأنه معقد للغاية وعصي على التحليل. ونظرية المعلومات في النموذج التكويني الذي يميل إلى تفضيله منظرو التواصل في الوقت الراهن هي مثال فحسب من أمثلة عديدة للخطاب الشارح *metadiscourse*، وإحدى طرق تأسيس "التواصل" في إطار فعل التواصل ذاته.

يحدث الخطاب الشارح العملي، أو الخطاب التأملي عن الخطاب، بكثرة في التواصل البشري. إن عبارة "النقطة الثانية التي أريد أن أقدمها" يمكن أن تكون جزءًا من خطاب شارح يستخدم في الجمع بين أجزاء الكلام والتمهيد لها. ويمكن أن تكون عبارة "هذا وعدٌ" جزءًا من خطاب شارح يُستخدم لتعريف ما قيل بوصفه وعدًا. ويمكن أن تكون عبارة "كانت هناك ضوضاء لا تُحتمل في القناة" جزءًا من خطاب شارح يقدم عذرًا لفشل التواصل. والمثال الأخير مشتق من لغة نظرية المعلومات. وهو إحدى الطرق التي يمكن من خلالها لخطاب شارح نظري – أي الخطاب الشكلي لنظرية التواصل - أن يُستخدم في خطاب شارح عملي. وتصبح النظرية مصدرًا لتشكيل التواصل بوصفه شيئًا تتم مناقشته بطريقة محددة، لتحقيق أغراض عملية.

يُعد حقل التواصل بأكمله –الخطاب حول نماذج التواصل، وروافد نظرية التواصل، وحقوله المعرفية، ووظائفه، وشفراته، ووسائطه، ومستوياته، وسياقاته، وتكنولوجياته، وثقافته، وخطابه، وممارسته - خطابًا شارحًا متسعًا، يشكل "التواصل" بوصفه موضوعًا للدراسة النسقية والتأمل النقدي لأجل أغراض مختلفة متنوعة. وربما يكون تصوير نظرية التواصل بوصفها بلاغة اتصال هو الأكثر إفادة من بين تلك الطرق المتنوعة التي يمكن أن ترتبط من خلالها البلاغة بالتواصل. تقدم النظرية البلاغية التقليدية– كما تبرهن على ذلك الكثير من المقالات في هذه الموسوعة - حيزًا فسيحًا لمقولات متعلقة بمواضع، وخطوطًا للحجاج، ومجازات للكلام تفيد في صياغة رسائل إقناعية حول الشئون العامة. يساعد الاتزان *stases* البلاغي من يقوم بالتواصل في تعريف الموضوعات المختلف عليها في موقف ما، وتساعده المواضيع البلاغية في العثور على الحجج التي يمكن من خلالها تناول هذه الموضوعات. [انظر، stasis، وtopics].

وكما أن النظرية البلاغية توفر مصادر للمشاركة في الخطابات حول الشئون العامة فإن نظرية التواصل توفر مصادر للخطاب الشارح العملي؛ أي للمشاركة في الخطابات حول التواصل. ويقترح هذا إحدى طرق الربط بين نظرية التواصل وممارسته: فنظرية التواصل هي بالنسبة لممارسة التواصل أشبه بنظرية البلاغة بالنسبة إلى ممارسة الشئون العامة. يمكن لنظرية البلاغة أن تؤثر في الشأن العام بشكل غير مباشر من خلال تشكيل ما أطلق عليه توماس ب. فاريل Farrell مناخ المعتقدات والعادات التي تصوغ الخطابات التي نتفاوض فيها مع الخطاب العام ونمارسه. وعلى النحو ذاته يمكن لنظرية التواصل أن تؤثر في ممارسة التواصل في المجتمع بشكل غير مباشر من خلال تشكيل الخطابات الشارحة العملية التي نتفاوض من خلالها ونوجه التواصل. وهكذا يمكن للدراسات الأكاديمية للتواصل، بما فيها الدراسات البلاغية، أن تشارك مشاركة فعالة في الخطابات المجتمعية التي تحدد في النهاية ما يمكن أن نطلق عليه معايير الثقافة التواصلية.

قائمة المصادر والمراجع

Arnold, Carroll C., and John Waite Bowers, eds. *Handbook of Rhetorical and Communication Theory*. Boston, 1984.

يُعرف البلاغة على أنها تواصل غرضي. ويقدم مقاربة وظيفية تتضمن فصولا رئيسية لمراجعة معالجة المعلومات، وتغيير الاتجاهات، والإمتاع.. إلخ.

Barnouw, Erik, George Gerbner, Wilbur Schramm, Tobia L. Worth, and Larry Gross, eds. *International Encyclopedia of Communications*. 4 vols. New York, 1989.

مرجع شامل يركز على وسائط الإعلام وتاريخها ومنظوراتها عبر النوعية.

Berger, Charles R., and Steven H. Chaffee, eds. *Handbook of Communication Science*. Newbury Park, Calif., 1987.

عروض للكتابات السابقة حول البحث الاجتماعي النفسي للتواصل بشكل أساسي، نظم وفقًا للمستويات والوظائف والسياقات. وتتضمن فصلا جيدًا كتبته ديليا Delia حول تاريخ الحقل المعرفي للتواصل.

Carey, James W. *Communication as Culture: Essays on Media and Society*. Winchester, Mass., 1989.

تاريخ لوسائل الإعلام والدراسات الثقافية يرتكز على نموذج طقوسي للتواصل.

Deetz, Stanley A. *Democracy in an Age of Corporate Colonization: Developments in Communication and the Politics of Everyday Life*. Albany, N. Y., 1992.

نظرية نقدية للتواصل بوصفه عملية تكوينية، تركز على التواصل المؤسساتي.

Ellis, Donald G. Crafting Society: Ethnicity, Class, and Communication Theory. Mahwah, N. J., 1999.

مقالات نظرية حول الرابط بين نشاطات التواصل الدقيق، والمقولات الاجتماعية الكبرى مثل العرق والطبقة.

Hauser, Marc D. *The Evolution of Communication*. Cambridge, Mass., 1996.

دراسة مسحية ممتازة لتطور العلامات السمعية والبصرية في مجموعة بالغة الاتساع من الفصائل الحيوانية بما فيها الإنسان.

Leeds - Hurwitz, Wendy. *Communication in Everyday Life: A Social Interpretation*. Norwood, N. J., 1989.

عرض سهل القراءة للمقاربة الاجتماعية الثقافية المتجذرة في الإثنوغرافيا وعلم الاجتماع الدقيق.

Littlejohn, Stephen W. *Theories of Human Communication*. 6th ed. Belmont, Calif., 1999.

ويمثل في الوقت الراهن أكثر الكتب المدرسية شمولا.

Mattelart, Armand. *The Invention of Communication*. Translated by Susan Emanuel. Minneapolis, 1996.

التاريخ الاجتماعي بوصفه "حفريات معرفية archaeology of knowledge"، وكيف حدث الارتباط بين التواصل وفكرة التقدم.

McLuhan, Marshall. *Understanding Media: The Extensions of Man*. New York, 1964. Technological determinist media history and prophecy.

تاريخ لوسائط الحتمية التكنولوجية وتنبؤات حولها.

McQuail, Denis. *Mass Communication Theory: An Introduction*. 3d ed. London, 1994.

إطلالة واسعة على دراسات وسائل الإعلام.

Pearce, W. Barnett. *Communication and the Human Condition*. Carbondale, Ill., 1989

مقالات حول أشكال التواصل وطرق الكينونة، مع نظرية (Coordinated Management of Meaning "CMM") بوصفها نموذجًا تكوينيًا.

Peters, John Durham. *Speaking into the Air: A History of the Idea of Communication*. Chicago, 1999.

مقال مكتوب ببراعة حول جذور التواصل بوصفه "سجل للرغبات الحديثة".

Pilotta, Joseph J., and Algis Mickunas. *Science of Communication: Its Phenomenological Foundation*. Hillsdale, N. J., 1990.

Rogers, Everett M. *A History of Communication Study: A Biographical Approach*. New York, 1994.

يتضمن معلومات حول مؤسسي البحث العلمي الاجتماعي للتواصل ورواده.

Rothenbuhler, Eric W. *Ritual Communication: From Everyday Conversation to Mediated Ceremony*. Thousand Oaks, Calif., 1998.

دراسة للطقوس والشعائر بوصفها أشكالا رمزية للتواصل تربط بين الأفراد والنظام الاجتماعي.

Schiller, Dan. *Theorizing Communication: A History*. New York, 1996.

تاريخ نقدي يوضح كيف شاركت نظرية التواصل في الانشطار الأيديولوجي بين المهن الفكرية واليدوية.

Taylor, Talbot J. *Mutual Misunderstanding: Scepticism and the Theorizing of Language and Interpretation*. Durham, N. C., 1992.

تفكيك نظرية اللغة منذ لوك بوصفها خطابًا فكريًا شارحًا.

Watzlawick, Paul, Janet Helmick Beavin, and Don D. Jackson. *Pragmatics of Human Communication: A Study of Interactional Patterns, Pathologies, and Paradoxes*. New York, 1967.

تحليل سيبرنطيقي مؤثر للتواصل العلائقي بوصفه أساسًا للتدخلات العلاجية.

تأليف: Robert T. Craig

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

البلاغة المقارنة Comparative Rhetoric

البلاغة المقارنة هى دراسة التقاليد البلاغية فى ثقافات متعددة قديمة أو راهنة فى المجتمعات المختلفة حول العالم. إن مقارنة الممارسات البلاغية فى ثقافتين أو أكثر بإمكانها أن تساعد على ملاحظة خصائص لإحداهما لم تكن لتُلاحظ بدون تلك المقارنة. وتتضمن الأهداف الكبرى للدراسة المقارنة محاولة التعرف على ما هو عام أو مشترك بين الممارسات البلاغية بما فى ذلك الممارسات الغربية، وما هو مميز لكل منها على حدة من أجل صياغة نظرية عامة عن البلاغة قابلة للتطبيق على كل المجتمعات واللغات، وأيضا اختيار التراكيب والاصطلاحات الغربية وغير الغربية التى تستطيع وصف الممارسات البلاغية فى الثقافات المختلفة. كما تتضمن أيضا تطبيق ما يتم معرفته على الاتصال المعاصر. ومن التطورات الجديدة فى أواخر القرن العشرين أن أصبحت البلاغة المقارنة جزءًا من دراسات الاتصال بعد أن استشعر بعض دارسى البلاغة القلق إزاء التحيز الكامن فى التعامل مع البلاغة باعتبارها ظاهرة غربية محضة. ولكنها تظل مع هذا معتمدة اعتمادًا كبيرًا على الدراسات الميدانية والأبحاث الأخرى التى يقوم بها علماء الأنثروبولوجيا والأحياء والمؤرخون وعلماء اللغة، تلك الأبحاث التى تقدم أدلة عن المحسنات البلاغية ووظائفها فى ثقافات بعينها حول العالم. فأبحاثهم المنشورة تناقش الخطابة السياسية والتشاور والإجراءات القضائية والطقوس الاحتفالية والمسائل المشابهة التى تشكل البلاغة عاملاً فيها. ولكنهم يفعلون ذلك عادة دون استخدام كلمة "بلاغة" فى أوصافهم ولا يعقدون مقارنات بينها

وبين الممارسات فى أماكن أخرى إلا فى بعض الأحيان. ويحتاج من يدرسون البلاغة المقارنة إلى قدر من الحساسية حتى يتمكنوا من تقدير قيم المجتمعات التى لم تعتمد على التكنولوجيا إلا قليلاً، والتى قد تبدو ممارساتها الثقافية غريبة بالنسبة للمراقبين الغربيين.

البلاغة باعتبارها ملكة طبيعية:

هناك تشابه بين البلاغة وبعض خصائص الاتصال فى الحيوانات التى تعيش فى جماعات وتحاول التأثير على تصرفات بعضها بعضا باستخدام الصوت أو الإشارة. فالحيوانات الاجتماعية، كما يطلق عليها، تستخدم مجموعة من الإشارات الشفوية والبصرية والكيماوية لإقناع الآخرين لكى يفعلوا ما تريده، خصوصًا فيما يتعلق بالتزاوج أو السيطرة على الأرض والحصول على الطعام والدفاع عن الجماعة. وهناك اختلاف شاسع بين الحيوانات فيما يتعلق بالقصدية Intentionality، فالقصد يكاد يكون غير موجود بتاتا فى أنواع الأميبا البسيطة بينما هناك وعى بالذات وبدوافع الآخرين فى القرود العليا. وتناقش دوروثى ل. تشينىDorothy L. Cheney وروبرت م. سيفارث Robert M. Seyfarth بعض أمثلة التواصل بين الحيوانات التى تتميز ببعض الخصائص البلاغية (How Monkeys See the World, Chicago. 1990). وتلك الأمثلة عبارة عن ست إشارات للإنذار مختلفة صوتيًا تطلقها قرود الفيرفت لتحديد الخطر المحتمل على الجماعة من الفهود والنسور والثعابين والثدييات الصغيرة وقرود البابون والبشر. كما أن صيحاتهم تختلف تبعًا لما إذا كانت موجهة لقرد أدنى أو لزعيم، وما إذا كانت الإشارة تشير إلى التحرك إلى الخلاء، أو الإنذار بأن جماعة أخرى من القرود تقترب. وفى بعض الأحيان تستخدم الحيوانات التى تبحث عن الطعام أو عن قرين الإشارات الصوتية لخداع أفراد آخرين من نفس الفصيلة. كما

تمتلك الطيور براعة صوتية كبيرة. لكن أكثر المهارات الذهنية تطورا بالنسبة للتواصل توجد بين القردة، التى تم تدريب بعضها على لغة الإشارة أو على استخدام لوحة مفاتيح للتواصل مع البشر أو مع بعضها بعضا. ولكل من الشامبانزى والغوريللا ارتباط جينى بالبشر، بل من المحتمل أن تكون لغة البشر قد تطورت من الأصوات التى كان يصدرها الأجداد المشتركون للقرود والبشر الذين يعيشون اليوم.

وللكثير من الحيوانات طقوس للمدح أو الرثاء، كما توجد أمثلة على الاثنين بين الطيور. وتشكل رقصة الصباح الثنائية بين قرود الجيبون بعد التزاوج مثالا لافتا على هذا، فهى مهمة لتلاحم الزوجين اللذين يظلان متزوجين حتى نهاية العمر. أما النحل فيمارس نوعا من التشاور عند البحث عن مسكن جديد. ولكن الأدلة على البلاغة القضائية (التشاجرية) أقل عند الحيوانات، على الرغم من أنه من الواضح أن بعضها تصدر أحكاما على تصرفات البعض الآخر ومن الممكن أن تنجح فى طرد حيوان شاذ أو مخالف من الجماعة. والاتصال بين الحيوانات يشترك مع بلاغة الإنسان فى بعض الخصائص مثل الإبداع والترتيب والأسلوب والإلقاء كما تتشابه الطيور مع القردة فى أنها تملك نداءات متنوعة ذات معان مختلفة. كما أن أغلبها لها ترتيبات مختلفة تزيد نتيجة للتكرار والتنوع والدمج واستبدال بعض الثيمات. كما تستخدم الصور الجمالية فى أغانى الطيور. وتتعلم بعض الحيوانات الذكية استخدام المجاز، ولكن الاستعارة والتشبيه والترتيب المنطقى هى سمات خاصة بالبشر.

وبالتالى فإن توفّر شكل ما من الأشكال البلاغية، صفة أساسية للحياة البشرية وغير البشرية. والبلاغة أداة تستخدم من أجل الحفاظ على الفصيلة وعلى الأفراد. ومن الممكن أن نصف البلاغة بأنها نوع من الطاقة الذهنية

والجسمانية تأتى كرد فعل لتحد ما أو حاجة أو رغبة، فتصدر أو تنقل إشارات إلى جمهور حقيقى أو متخيل. ومن أبسط الأساليب البلاغية الطبيعية التى يستخدمها كل من البشر والحيوانات: الجهارة والنبر والتكرار فى الرسائل الشفهية والإشارات الجسدية.

البلاغة فى المجتمعات التى لا تعرف الكتابة:

لقد جمع علماء الأنثولوجيا معلومات كثيرة عن أشكال ووظائف الكلام وطرق الإقناع فى المجتمعات التقليدية فى الماضى القريب وفى الحاضر من أفريقيا وأستراليا وجنوب المحيط الهادى ومن الأمريكتين. ومن الممكن أن نصنف معظم الخطابة الجماهيرية فى الثقافات التقليدية على أنها تشاورية أو للمدح والرثاء، أما الخطابة القضائية فهى فى العادة غير متطورة ما عدا فى المناطق التى خضعت للتأثير الغربى. ولكن هناك استثناء جديدا هو "مبارزات الغناء" "song duels" التى يستخدمها الإسكيمو. تتسم هذه الأغانى أو الخطب بالافتخار بالقوة وبإهانة الخصم وتستخدم فى حسم الشجار حول النساء دون الالتجاء إلى استخدام القوة البدنية.

أما التشاور المنظم فهو صفة من صفات المجتمعات القائمة على المساواة، والتى يكتسب بعض الأفراد فيها سمعة كخطباء. وفى المجتمعات الطبقية يستأجر الملوك والزعماء والكهنة الخطباء المعروفين للكلام نيابة عنهم. وفى بعض الأحيان يكون هدف التشاور فى المجتمعات التقليدية هو الوصول إلى الإجماع، الذى إما أن يكون إجماعا حقيقيا أو أن يكون مفروضًا، فيعطى الخصوم الفرصة لحفظ ماء الوجه بأن يتظاهروا بأنهم قد قرروا القبول بحل وسط. فى هذه الحالة تكون البلاغة قوة محافظة أو قوة تصحيحية لا أداة للتغيير الاجتماعى والسياسى.

وسلطة أو شخصية المتحدث هى الطريقة الرئيسية للإقناع، وهى تأتى من السن والنوع والأسرة والخبرة والمهارة فى الكلام، وفى بعض مجالس الهنود الأمريكيين قد تعنى الخطبة كلها بأفعال الخطيب، وهى بهذا تثبت أحقيته فى إسداء النصح، ولا يكون هناك سوى ذكر متقضب فى النهاية لما يقترحه بشكل محدد. وعادة ما يتبع ترتيب محتوى الخطبة فى كل مكان نمطا تقليديا يتفق مع المناسبة أو الموضوع. ويوجد فى معظم الخطب التقليدية الكثير من التكرار وقدر قليل من الحجاج المنطقى الصريح. ولكن الإشارات إلى الأساطير والخرافات والتاريخ والأمثال من الممكن أن تعطى أمثلة على ما يمكن عمله من أجل دعم أطروحة المتحدث. ومن الممكن أن تأخذ العبارات شكل القياس (أي نتيجة لها سبب) ولكن بدون الكلمات التى تدل على الاستنتاج مثل " لأن " و" إذن ". ويطلب من المتحدثين فى المناسبات الرسمية فى كل مكان استخدام اللغة الرسمية أو الفصحى التى يتم تعلمها عن طريق تقليد المتحدثين السابقين، وهى كثيرا ما تستخدم الأمثال والأمثلة والاستعارات التقليدية.

وأفضل شبيه غير غربى لخطب المديح والرثاء كما يفهمها الغرب موجود فى الطقوس الدينية التى تستخدم فيها أعلى درجات اللغة الرسمية التى كثيرًا ما تكون قديمة جدًا وغير مفهومة للجمهور العادى وتكون مصحوبة فى أحيان كثيرة بالموسيقى والرقص. ويعتبر استخدام الكنيسة الكاثوليكية الرومانية للغة اللاتينية واستخدام الدارسين لها على مدار العصور الوسطى وعصر النهضة مثالا غربيًا على استخدام اللغة الرسمية. كما هو الحال فى المداولات حول الشئون غير الدينية، وتبدو اللغة الرسمية الطقسية وكأنها تدل على صحة وحقيقة ما يقال كما أنها تساعد الزعماء والكهنة على الحفاظ الدائم على السيطرة الاجتماعية التى تحافظ على المجتمع.

ومن النماذج العديدة على الخطاب الرسمى فى المجتمعات غير الغربية، يوجد عند مجتمعات الأزتيك المكسيكية تطور شديد التركيب للفن البلاغى فى مجموعة من خطب المديح والرثاء، بعضها يشبه الخطب الموجودة فى الثقافة اليونانية – الرومانية. ولقد قام فراى برناردينو دى ساهجون Frey Bernardino de Sahagun وآخرون فى القرن السادس عشر بتسجيل نماذج عديدة من خطب الأزتيك إبان ازدهار هذا النوع. ومن بين سمات الخطب الجماهيرية فى الكثير من الثقافات استخدام اللغة غير المباشرة واستخدام القصة الرمزية اللتين تستخدمان فى بعض الأحيان بين أفراد جماعة لا تريد أن يفهمها الغرباء، وهى تستخدم لحماية الفراغ الشخصى فى المواقف التى يعرف الكل فيها الكل. وفى بعض الأحيان تصاغ القصة الرمزية فى قالب شعرى وتستخدم المقارنات، وفى بعض الثقافات مثل ثقافة الكونا، الموجودة على الجزر الساحلية ببنما، يغنى الزعماء خطبًا طويلة تقدم النصح للشعب فى قالب شعرى (انظر: الأمثولة Allegory).

وفى معظم الثقافات التقليدية يعدُّ السحر والشعوذة نوعا بلاغيا يصعب أن يصنف على أنه تشاورى أو مستخدم للمدح والرثاء لأن المتحدثين لا يسعون إلى الإقناع بالمعنى المفهوم. إن كلمات التعاويذ السحرية، العامة والخاصة، يعتقد أنها إذا أديت بشكل سليم فإنها تسيطر على روح ما أو قوة من قوى الطبيعة أو أشخاص آخرين وتحدد نشاطهم، ويستطيع السحرة باستخدام كلمات وأعمال سرية أن يجلبوا المرض أو الموت للآخرين الذى يعيشون على مسافة. ومن وجهة النظر العلمية، لا تعمل بلاغة السحر على المخاطب الذى يتم تعيينه وتسميته وإنما على المشتركين والمراقبين الذين تبث أو تعزز فيهم أحاسيس الأمل أو الرغبة فى الانتقام أو أحاسيس أخرى.

وعلى هذا يجب اعتبار السحر نوعا من بلاغة المديح أو الرثاء. إن أحد علماء الإثنوغرافيا المبكرين القلائل الذى ذكر البلاغة بشكل صريح واستخدم بعض المصطلحات البلاغية كان هو برونيسلو مالييناوسكى Malinowski، وذلك فى عمله الكلاسيكى "مكتشفو غرب المحيط الهادى" Argonauts of the Western Pacific" (لندن ١٩٢٢)، والذى يصف فيه ثقافة سكان جزر تروبرياند ومن بينها بعض خصائص السحر عندهم. "أما ثقافة السكان الأستراليين الأصليين فهى ثقافة أمية تمت دراسة لغتها وبلاغتها بشكل موسع. وهؤلاء السكان لم يكن لهم اتصال بأى أشخاص خارج القارة التى لها شكل الجزيرة والتى يقطنونها منذ آلاف السنين. وقد ظلوا يعيشون فى ظروف تشبه ظروف العصر الحجرى إلى أن قام البريطانيون فى القرن التاسع عشر باستكشاف الجزء الداخلى من القارة.

ولم يكن هؤلاء السكان الأصليون يملكون إلا نظما سياسية قليلة، ولم يكن لديهم مجالس مستقرة تعقد بانتظام ولا جمعيات عامة ولا محاكم. كما أنهم على عكس الثقافات الأخرى لم يكن لديهم خطباء رسميون. ومع هذا كانت لهم لغة رسمية قديمة على قدر كبير من التطور يستخدمونها وكانت ضرورية لأداء الأساطير والطقوس. وقد كانت الطريقة الرئيسية للإقناع عندهم هى شخصية الخطيب، فالحكمة التى كان تعتمد على السن والخبرة والعلم بالممارسات الدينية كان لها تأثير كبير. ولكن لم يكن يعبر عنها بمصطلحات عامة، وإنما كان يشار إليها بذكر أمثلة محددة. وكان الحجاج المنطقى يأخذ شكل الموازاة بين النتيجة وبين عبارة تعطى سببا بدون أي كلمة تدل على الاستنتاج وكانت الاستعارة تستخدم كثيرًا ولكن التشبيهات الصريحة لم تكن معروفة، ويظهر فى الأسطورة والأغنية الأسترالية الترتيب الأساسى المتكون من مقدمة ووسط وخاتمة. والموازنة التى كان الغرب يعرفها من خلال الأناشيد العبرية سمة معتادة فى المؤلفات الشعرية لسكان أستراليا الأصليين وهى موجودة أيضا فى ثقافات أخرى كثيرة أيضا.

وتوجد العديد من الدراسات عن بلاغة الهنود الأمريكيين، بعضها كتبه طلاب فى الاتصال عن طريق الكلام استخدموا فيها مفاهيم بلاغية واعتمدوا على خطب كتبها مستكشفون أو مستوطنون، أو بالاعتماد على العادات الهندية التى لا تزال موجودة. كانت القبائل الهندية فى العادة تعتمد مبدأ المساواة فكان يستطيع أي رجل، وفى بعض الأحيان تستطيع المرأة، الكلام فى المجالس العامة وكان هدف التشاور هو الوصول إلى الإجماع. ولكن البلاغة القضائية عندهم كانت غير متطورة. إنما كان كل من المديح والرثاء تتم ممارسته عند إرسال فرق للحرب وفى الجنائز والمناسبات الدينية. وكان استخدام اللغة الرسمية مقصورًا غالبا على المعالجين بالطب والطقوس الدينية. كما كان المتحدثون الهنود يسعون إلى الإقناع أساسا عن طريق شخصية المتحدث. وعلى الرغم من أن المماثلات التقليدية المأخوذة من الطبيعة ومن الحياة اليومية كانت مألوفة فإن الاستعارة عندهم لم تكن تستخدم إلا قليلا بالقياس إلى الثقافات الأخرى. ولم يستخدم الهنود بشكل معتاد الأمثال ولا القسم فى خطبهم.

إن النسخ المبكرة من خطابة شمال أمريكا موجودة فى كتاب "الفلوريدا" The Florida لجارسيلاسو دى لافيجا Garcilaso de la Vega ومن الأمثلة الشهيرة للخطابة الهندية الرسالة التى كتبها زعيم "المنجو" المدعو لوجان Logan إلى حاكم فيرجينيا فى ١٧٧٤، والتى استشهد بها وأثنى عليها توماس جيفرسون Thomas Jefferson، قائلا إنها مساوية لفصاحة ديموثينس أو شيشرون. وفى الاستجواب السادس من "ملاحظات عن ولاية فيرجينيا" Notes on the State of Viginia خطب لزعيم "السينيكا" المدعو "صاحب الرداء الأحمر" Red Jacket الذى تميز باستخدام السخرية، وفيه أيضا الرسالة المثيرة للعواطف التى كتبها الزعيم جوزيف Joseph للقائد الفيدرالى بعد هزيمة الهنود فى إيجل كريك Eagle Creek, Montana بمونتانا فى ١٨٧٧.

وما بين ١٧٤٥ و١٨١٥، وهى الفترة التى كانت القبائل الهندية أثناءها تُدفع غربا بسبب استيطان البيض لشمال شرق أمريكا، ظهرت حركة قومية هندية فى وسط الغرب وفى الجنوب. كان أشهر الزعماء هم البونتياك فى القرن الثامن عشر والتوكومش فى أوائل القرن التاسع عشر. وقد تضمنت الأفكار البلاغية فى الحركة حاجة الهنود لإخماد غضب الروح العظمى عن طريق التطهر الطقسى، ومبدأ أن المسيحية قد أعطاها الإله الأبيض للبيض بينما الهنود خلقوا على "يد الروح العظمى" على حدة. كما أن فكرة الألفية الموجودة فى ثقافات أخرى أثناء فترات الشدة، والوعد بفترة سعادة وعدالة مطلقة قادمة في المستقبل هى وعد بقدوم مخلص وبالعودة إلى ظروف أفضل كانت موجودة فى الماضى. وعند نهاية القرن التاسع عشر ظهر المخلصون الهنود مرة أخرى فى غرب الولايات المتحدة وأوجدوا "ديانة رقصة الشبح" التى أعُيد إحياء بعض خصائصها فى القرن العشرين.

البلاغة فى المجتمعات التى عرفت الكتابة مبكرًا:

من الواضح أن اختراع الكتابة حدث فى بلاد العراق القديمة فى أواخر الألفية الثالثة قبل الميلاد ثم انتشرت بعد ذلك إلى مصر واليونان والهند وأماكن أخرى. والاختراع المستقل للكتابة فى الصين ثم انتشارها فى اليابان لهما بعض الأثر على البلاغة، مع أنه يوجد خلاف فى تعريف هذا الأثر وإثباته.

لقد احتفى الكتبة فى بلاد العراق وفى مصر بمهنتهم وحصلوا على قدر كبير من السلطة باعتبارهم وسطاء ضروريين بين الحكام الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة وبين الشعب. لقد جعلت الكتابة أشياء كثيرة ممكنة منها الاتصال عن بعد والاحتفاظ بسجلات والبحث العلمى والبحث التاريخى وبلورة النصوص الشعرية والشفاهية وأيضا وضع الكتب التعليمية ووضع قواعد النحو. وهى فى الغالب التى سهلت التفكير فى المجردات والحجاج

المنطقى واستخدام الجمل المركبة. على العكس من وجود إشارات إلى الكتابة فى السجلات العراقية القديمة، فإنه لا يوجد أي نقاش صريح عن الخطب، على الرغم من وجود بعض نماذج للخطب فى ملحمة جيلجامش Gilgamesh وفى مواضع أخرى.

أما قدماء المصريين فقد كان وعيهم الذاتى أكبر فيما يتعلق بالتأليف البلاغى، فحكاية " الفلاح الفصيح " المكتوبة فى الألفية الثانية قبل الميلاد مثلا تحكى عن فلاح سرقت بضائعه فتوجّه إلى الخازن الأعظم مخاطبا إياه بسلسلة من الخطب العظيمة تمتزج اللغة العادية فيها بالنثر الرفيع المستخدم للغة الرسمية. كما وُصفت تعاليم بتاح حوتب، التى تعد أقدم مثال على أدب الحُكم، وتعود إلى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، بأنها أقدم كتاب لتعليم البلاغة. وهى فى معظمها تتكون من مبادئ غير منظمة عن الكلام الفعال وعن الأسلوب الذى يجب أن يتصرف به الأشخاص من المستويات المختلفة. ولقد وجد مايكل فى فوكسMichael V. Fox فى هذا الكتاب المبادئ أو القواعد الخمس للبلاغة المصرية وهى: السكوت وانتظار اللحظة المناسبة والتحكم فى العواطف الجياشة والكلام بطلاقة وترو، وقول الحق. وتوجد تعاليم مشابهة لهذه التعاليم بالعبرية فى سفر الأمثال بالتوراة (انظر: الخطابة العبرية).

البلاغة في الصين والهند:

لدراسة البلاغة فى الصين أهمية خاصة فيما يتعلق بالبلاغة المقارنة، ففى الصين آلاف الخطب، بالإضافة إلى كتب لتعليم الإنشاء وتدريبات بلاغية وكتابات نقدية وتاريخية وشعرية تبدأ من الزمن القديم حتى الزمن الحديث وهى تشكل مصدرًا ثريًا للدراسة المقارنة. لقد عبر أتباع كونفوشيوس Confucius والكونيون والموحدون والتاويون والمشرعون وغيرهم عن آرائهم بشأن الكلام فى الفترة ما بين القرن السادس والقرن الثالث قبل الميلاد. وقد كان

أحد الكتاب المتميزين فى نهاية هذه الفترة هو هان فاى تو Han - fei - Tzu (المولود حوالى ٢٨٠ قبل الميلاد) الذى كان يسمى أحيانا " مكيافيللى الصين " بسبب تعاليمه العملية والساخرة للحكام عن كيفية استخدام البلاغة من أجل تعزيز سلطتهم ("الكتابات الأساسية"، ترجمة " بيرتون واطسون – نيويورك ١٩٦٧). وفى القرون المبكرة من العهد المشترك كتب الدارسون الصينيون تعليقات أخلاقية ورمزية عن الكلاسيكات الصينية التى تستخدم المصطلحات بغزارة وتشبه فى بعض الأحيان المفاهيم البلاغية الغربية ولكنها غالبا ما تختلف عنها. (انظر: البلاغة الصينية).

وقد ظهرت تطورات مشابهة فى الهند القديمة حيث تحتوى الملاحم المبكرة مثل المهابهاراتا Mahabharata والرامايانةRamayana على خطب ومناظرات تشبه تلك الموجودة فى ملحمة هوميروس فى بلاد اليونان. كما أن الفلاسفة البرهاميين والبوذيين شاركوا فيما بعد فى المسابقات البلاغية. وتعطى الأرثاشاسترا Arthashastra لكوتيليا Kautilia، ملخصا عن بلاغة السلطة، كما تعطى أيضا مصطلحات فنية كثيرة تتعلق بتدريس البلاغة ونقدها. وقد وضعت فى الهند فيما بعد نظريات شعرية ودرامية على درجة عالية من التعقيد. (انظر: البلاغة الهندية)

مقارنة بين البلاغة الغربية وغير الغربية:

لقد أُعجبت المجتمعات فى العالم أجمع بالخطباء الذين يملكون الفصاحة والقدرة على التأثير. وتوجد مصطلحات تشبه من بعيد مصطلح " بلاغة " فى الصينية والمصرية وبعض اللغات الأخرى، ولكن كلمة " خطيب " موجودة فى معظم لغات العالم، وللخطباء وظائف تتعلق بالتشاور معروفة فى كل مكان. إن القدرة على الكلام هى جزئيا ملكة طبيعية ولكنها تتحسن بالاستماع للخطباء الأكبر سنا بهدف تعلم الأساليب التقليدية والمواضع، كما

تتحسن أيضا بتقليد الخطباء المجيدين وباغتنام الفرص للتدريب سواء على حدة أو أمام جمهور.

مقارنة بالتقاليد البلاغية الأخرى، تعد الممارسة البلاغية الغربية، بدءًا من أوائل اليونان كما يظهر في الملاحم الهوميرية أكثر قبولا للخلاف وللطعن فى الأشخاص والملق كما تعد أقل إصرارا على الإجماع والأدب والكبح عما هو شائع فى أماكن أخرى. والملاحم الهندية القديمة مع هذا بها تنافس مشابه بين الأبطال الآريين الذين كانت تربطهم قرابة بعيدة باليونانيين المحبين للحجاج، كما توجد أيضا بعض المجتمعات مثل الماورى فى نيوزيلنده كانت معروفة بشراستها أو شجارها. وكانت صيحات التهليل والتلويح بالأيدى من العلامات القليلة الشائعة لإظهار الإجماع، لكن اليونانيين هم أول من اخترع العد الفعلى للأصوات من أجل حسم النزاعات السياسية والقانونية، الأمر الذى كان غير معروف فى الأماكن الأخرى حتى العصر الحديث. وعلى الرغم من أن التصويت من الممكن أن يقوم بهذه الوظيفة، فإن احتمال الرضا بأغلبية صوت واحد لتحديد قرار ما قد تزيد من حدة الخلاف والضغائن. ولكن الحجاج الفنى القضائى المشتمل على الحجاج من منطلق الاحتمالية استغلال الأدلة الظرفية circumstantial evidence فى المحكمة هو إلى حد كبير ظاهرة غريبة؛ ومن الممكن ذكر بعض الأمثلة على ذلك من نصوص الشرق الأدنى القديم لكنها تطورت بشكل رئيسى فى محاكم أثينا الديمقراطية فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

وعلى الرغم من أن الخطابة القضائية الفصيحة هى ظاهرة مميزة للغرب، فإن الخطابة التشاورية كانت تمارس فى كل مكان كما سبق أن ذكرنا. والخطابة المستخدمة للمدح والرثاء كانت هى أيضا عامة بمعنى أنها كانت تستخدم فى الخطب وفى الطقوس وفى المهرجانات والاحتفالات.

وكانت الخطابة الرسمية تحتاج عادة إلى قدر من الاستخدام للغة الرسمية. بشكل بسيط من الممكن أن يكون الأمر مجرد توقع، وأن يستخدم المتحدث جملا كاملة ونحوا ونطقا سليمين، وألقابا مهذبة عند الحديث عن آخرين (مثلا صديقى المبجل)، ولكن المناسبة قد تستدعى استخدام اللغة القديمة، وهى فى أغلب الأحيان قد تكون غير مفهومة بالنسبة لغالبية الجمهور. وتحتاج اللغات الرسمية إلى أن تتعلم وغالبا ما يكون الداعى لاستخدامها وهو نوع من أنواع السيطرة الاجتماعية التى يمارسها الحكام أو الكهنة تقلل من إمكانية إدراك الرأى العام لما يقصدونه. وكانت الوظيفة السائدة للبلاغة فى المجتمع الإنسانى هى الحفاظ على الوضع الراهن مع بعض الاستثناءات فى بعض الأحيان فقط، مثل محاولات الملك البوذى أسوكا Asoka(حوالى ٢٧٤ - ٢٣٤ قبل الميلاد) للارتقاء بالتسامح والتفاهم بين أفراد شعبه، وحتى فى الغرب نفسه لم تستخدم البلاغة كأداة للتعبير السياسى حتى ظهر مروجو الدعاية الثوريون فى القرن الثامن عشر.

كان السفسطائيون فى القرن الخامس قبل الميلاد أول من درس المهارات الكلامية فى بلاد اليونان فى العصر الكلاسيكى. (انظر السوفسطائيين) كانوا يحتفون بقوة الكلام ويعرضون للنسبية الفلسفية أو للمذهب الشكي، ويشككون فى الاعتقادات التقليدية. كما كان لديهم إعجاب هائل بالنقائض Paradoxes وبالتجريب اللغوى. كانوا يدرسون مهارات مخاطبة الجماهير بشكل أساسى من خلال تأليف وإلقاء الخطب التى كانت أمثلة لألوان من الحجاج والترتيب والأسلوب والتى كان من الممكن لطلابهم أن يقلدوها. وقد ظهر شىء شبيه بالسفسطة اليونانية فى الهند بحلول القرن السادس قبل الميلاد وهو موجود فى مناظرات البرهمانيين عن قضايا الميتافيزيقا والقضايا الدينية. ولكن السفسطة غير معروفة فى الثقافات الأمية، فيبدو أنها ظاهرة لتطور الثقافات

المركبة والثقافات التى تعرف القراءة والكتابة عندما يكون هناك ثراء ووقت فراغ وارتقاء فى الذوق الفنى، وأيضا عند وجود مدارس فلسفية متنافسة ومدرسين متجولين يحاولون التأثير على الجماهير من خلال قدراتهم اللغوية حتى يحصلوا على أتباع وليحظوا بالتأثير عند الحكام.

عندما تم التفكير فى البلاغة وممارستها خارج الغرب، كما حدث فى الصين وفى الهند وفى مصر، كانت البلاغة تعتبر جانبا من جوانب السياسة وفلسفة الأخلاق أو النقد الأدبى، لكنها لم تكن تعتبر تخصصا منفصلا من فروع الفنون الحرة له منهج متفق عليه، كما كان الحال فى المدارس والجامعات الغربية. إن الاتجاه الغربى الذى يعتبر البلاغة تخصصا أكاديميا هو ميراث اليونانيين الذين كانوا يعتبرون المقدرة البلاغية من الخصائص الأساسية للمواطنة. وكان أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) هو أول من تعامل مع البلاغة على أنها تخصص أكاديمي، وكان يعطى برامج محاضرات منفصلة عن البلاغة والسياسة والأخلاق والموضوعات الأخرى. وكانت المدارس البلاغية سمة معتادة فى التعليم اليونانى والرومانى من القرن الرابع قبل الميلاد وحتى الفترة البيزنطية.

لقد قسم البلاغيون اليونانيون والرومانيون المبادئ البلاغية إلى خمسة فنون أو خمسة مبادئ تلخص عملية تخطيط وتأليف وإلقاء الخطبة. وفى اللغة الإنجليزية يطلق على هذه الفنون الخمسة: الإبداع والترتيب والأسلوب والذاكرة والإلقاء، وهذا بالطبع توجه تعليمى، وهو مصطنع خصوصا من ناحية فصله التفكير أو المحتوى عن الكلمات أو الأسلوب. ويبدو عدم وجود نظير دقيق لهذا التقسيم فى التفكير أو التعليم غير الغربى.

إن الأكثر سيادة فى كل مكان من بين طرق الإقناع الثلاث التى عينّها أرسطو وهى الإقناع الأخلاقي، والإستمالة العاطفية والمنطق هى شخصية

المتحدث،فإن الإقناع الأخلاقى، وهو فعل المتحدث، هو الأكثر نفوذا فى كل مكان، ومدى انتشار الاستمالة العاطفية Pathos، المحركة للعواطف وهى وسيلة مقبولة للخطابة يختلف اختلافا كبيرا باختلاف الثقافة والمناسبة. إن البشر حتى فى أكثر الأحوال بدائية يمتلكون القدرة على فهم السبب والنتيجة، ولكن السلاسل المعقدة من الحجاج المنطقى ليست من سمات الإقناع فى المجتمعات التى لا تعرف القراءة والكتابة. وفى الغالب كان الحجاج عن طريق الأمثلة المأخوذة من الأساطير أو التاريخ أو الخبرة أو المقارنات هو أكثر أنواع الحجاج شيوعا فى كل أنحاء العالم. والأمثال المأثورة هى الأساس فى ضرب المثل فى ثقافات كثيرة وإن لم يتم ذكر أطروحات عامة. والحجاج القائم على الاحتمالية أي كونه من المرجح أن يحدث كذا إذا ما أخذنا شخصية فرد ما أو الظروف فى الاعتبار موجود فى النصوص القديمة فى الشرق الأدنى، ولكنه نادر أو غير موجود فى الأماكن الأخرى، إلا فى الحالات التى أدخل فيها بفعل التأثير الغربى. ولقد استغل اليونانيون هذا النوع من الحجاج بشكل كبير خصوصا فى البلاغة القضائية. (انظر Ethos, Pathos Logos,).

إن الأنواع الأكثر طبيعية وعمومية بين الأنواع البلاغية هى الاستعارة والمجاز المرسل والكناية والتشخيص هو فى الغالب أقدم أنواع الاستعارة، بما فى ذلك إضفاء الصفات البشرية على الحيوانات والأشياء الطبيعية الذى يعكس نظرة "حياتية" animistic إلى العالم. إن التشبيهات الواضحة غير موجودة فى معظم اللغات من غير العائلة الهندية - أوربية؛ أي إنها لا تفرق بين التشبيه والاستعارة باستخدام كلمات للمقارنة. إن أشكال (صور) الكلام مثل جناس الصدارة أو الجناس الابتدائي anaphora والاستهلال والتجانس الصوتي قد دخلت إلى كلام الإنسان على الأغلب فى الفترات التاريخية المبكرة عن طريق الأغانى وهى شائعة فى معظم الثقافات مثلها مثل التوازى

فى المؤلفات الشعرية. وتعطى هذه الأساليب تأكيدًا، كما أنها مثل الإيقاع فى الشعر والنثر، تسّهل حفظ الصيغ والموضوعات. ومن بين كل الصور البيانية، الأكثر شيوعًا فى كل مكان السؤال البلاغى الذى يحمل هو والخطاب المباشر قدرا هائلاً من الطاقة البلاغية النابعة من عاطفة المتحدث التى تثير عواطف الجمهور.

إن البلاغة المقارنة مجال صعب وربما تكون مجالا مثبطا نظرا لضخامة المادة التى لابد أن تؤخذ فى الاعتبار وتنوع اللغات والثقافات الموجودة. إن المفاهيم والمصطلحات البلاغية الغربية ليست دائما قابلة تماما للتطبيق ولكن أحد أهداف الدراسة المقارنة هو اختبار هذه المفاهيم والمصطلحات بالنسبة للممارسات والتطبيقات غير الغربية. وعلى الرغم من أن بعض النتائج الناجمة عن الاختلافات بين التقاليد والممارسات البلاغية الغربية وغيرها فى الأماكن الأخرى قد تبدو واضحة، فإن أشكال ووظائف البلاغة فى ثقافات كثيرة من ثقافات العالم لم تتم دراستها بشكل منظم بعد، أو لم يتم بعد دمج نتائج الأبحاث بحيث تعطى صورة كاملة. وعلى وجه الخصوص لم تتم دراسة وسط أمريكا الجنوبية وأجزاء من إفريقيا، ووسط آسيا، وجنوب شرق آسيا، إلا قليلا، وأما البلاغة الجيرمانية والإسكندنافية والأنجلوسكسونية والأيسلندية فلم تدخل الصورة العامة بعد.

المصادر والمراجع

Abbott, Don P. Rhetoric in the New World: Rhetorical Theory and Practice in Colonial Spanish America. Columbia, S.C., 1996.

Bloch, Maurice, ed. Political Language and Oratory in Traditional Society. London, 1975.

دراسات عن البلاغة التشاورية فى مدغشقر وأجزاء من أفريقيا وإندونيسيا والفلبين وساموا.

Brendt. Ronald M., and Catherine H. Brendt. The World of the First Australians. 5th ed. Canberra, 1988.

Brenneis, Donald, and Fred. R. Myers, eds. Dangerous Words: Language and Politics in the Pacific. Prospect Heights, Ill., 1991.

دراسات عن التقاليد البلاغية فى جنوب الباسيفيكى ومن ضمنها استخدام اللغة غير المباشرة.

Deeney, John J., ed. Chinese - Western Comparative Literature: Theory and Strategy. Hong Kong, 1980.

Dowd, Gregory E. A Spirited Resistance: The North American Indian Struggle for Unity, 1745–1815. Baltimore, 1992.

Graham, Angus C. Disputers of the Tao: Philosophical Argument in Ancient China. LaSalle, Ill., 1989.

Hoebel, E. Adamson. The Law of Primitive Man: A Study of Comparative Legal Dynamics. Cambridge, Mass., 1964.

Irvine, Judith T. "Formality and Informality in Communicative Events," American Anthropologist 81 (1979),pp.pp. 773–790

وصف أساسى وتعريف بمفهوم اللغة الرسمية

Kennedy, George A. Comparative Rhetoric: An Historical and Cross - Cultural Introduction. New York,1998.

يتضمن فصولا عن البلاغة بين الحيوانات الاجتماعية فى الثقافة الأسترالية وبعض الثقافات الأمية الأخرى وعند الهنود فى شمال أمريكا وفى الشرق القديم الجديد وفى الصين والهند واليونان والفصل الأخير فيه يقارن بين البلاغة الغربية وغير الغربية وله ببليوجرافيا متوسعة.

Kroeber, Karl, ed. Traditional Literatures of the American Indian: Texts and Interpretations. Lincoln, Nebr,1981.

Lang, David. M., ed. A Guide to Eastern Literatures. London, 1971.

Lichtheim, Miriam, ed. Ancient Egyptian Literature. 2 vols. Berkeley, 1973, 1976

ترجمة لمجموعة من النصوص المهمة من حقب مختلفة.

Lu, Xing. Rhetoric in Ancient China, Fifth to Third Century B.C.E: A Comparison with Classical Rhetoric.Columbia, S.C., 1999.

Oliver, Robert T. Communication and Culture in Ancient India and China. Syracuse, N.Y., 1971.

Sherzer, Joel, and Anthony C. Woodbury. Native American Discourse. Cambridge, U.K., 1987.

تأليف: George A. Kennedy

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

الإنشاء Composition

في هذا المدخل مقالان؛ يقدم الأول صورة عامة، بينما يقدم الثاني وصفًا لتاريخ أقسام الإنجليزية في الولايات المتحدة.

الصورة العامة

الإنشاء في المعنى المعجمي هو تجميع لأشياء. ومن أقدم استخدامات المصطلح بهذا المعنى في اللغة الإنجليزية كان استخدام توماس ويلسون في كتاب "فن البلاغة *Arte of Rhetorique*" (١٥٥٣)، حيث يقول: "الإنشاء ربط بين كلمات بطريقة لا تجعل الأذن تستشعر رهقًا، ولا يمل المرء متابعة الجمل" (الورقة ٨٨). ولكن فهمنا للإنشاء أكثر اتساعا من أي تعريف خاص تاريخيا أو تأثيليا، فالإنشاء أكثر من تجميع أشياء معا.

الإنشاء خصوصية عقلية للرؤيا والمحاولة والفعل، وهو يشمل المنتج النهائي كما يشمل عملية الإنتاج. على الرغم من أن الإنشاء نتيجة للنقد وموضوع له فإنه يقود عمليات الابتكار والتقييم.

يمكن للإنشاء أن يفرض نفسه من خلال وسائل كثيرة وأشكال متنوعة وأنواع كثيرة، ولكن التركيز هنا على الكلام والكتابة، ومعاني الإنشاء الكامنة في الرؤية والمحاولة والفعل وانعكاساتها شفاهة وكتابة في العمليات والمنتجات منفصلة بعضها عن البعض، ولكن هذا المقال سيحاول أن يجمعها جميعا ويصوغ روابط الإنشاء المختلفة مع البلاغة صياغة تجميعية. لقد

أصبحت العلاقات التاريخية والنظرية والعملية بين البلاغة والإنشاء مواضيع بحثية قابلة للبحث في مجال دراسات الكتابة والإنشاء التي تتولاها أقسام اللغة الإنجليزية خاصة في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين. ولكن الإنشاء كتصنيف وسيلة مهمة لفهم التقسيمات العلمية السابقة بين إنتاج نصوص متباعدة تاريخيا وتلقيها ودراستها وتعليمها. وينسحب نفس الشيء على التراث الأدبي والحديث والكتابة والخطاب العام وأشكال البلاغة الأخرى.

كان الإنشاء الشفاهي في بدايات الممارسات البلاغية في الغرب - وهو الإنتاج الذي استُلهم من مصادر متنوعة واعتمد على مصنفات للابتكار والتذكر - تفعيلا حقيقيا للكلمات؛ فقد أثبتت إنشاءات الأنشودة وحكايات الشخصيات وأهمية الأسطورة الاجتماعية تداخل الكلمات والأفعال، وفي تراث هوميروس لم يكن الإنشاء مجرد تجميع للمفاهيم، ولكنه كان نمطا للفعل، وبنفس الطريقة لم يكن الفعل ذا معنى عند أبطال اليونان الثرثارين، فلم يكن الفعل إنسانيا بشكل كامل إن لم يكن مشفوعا بكلمات مؤلفة، كما وضحت إنشاءات السوفسطائيين الشفاهية أهمية اللحظة الراهنة والقوة المهولة للكلمات المؤلَّفة وقدرتها على توليد التغيير من خلال خطاب المتكلم المتجسد. لقد ادعى جورجياس في "هيلين" (٤٢٥ قبل الميلاد) أن الكلمات إن صيغت بشكل مناسب تستطيع أن ترفع اللوم عن هيلين وتعفي مستمعيها من الجهل، ويسمح الإنشاء الشفهي بإنشاء كلمات على الرغم من كونها أثيرية، ولذلك فالإنسان الذي يمارس الإنشاء يستطيع أن يفهم نفسه كمعيار لكل الأشياء.

يعكس تفضيل أفلاطون لعالم مصنوع سلفا ومصوغ سماويا توتره إزاء الإنشاء الإنساني الذي لم ينشئه هو. أخافت قوة الإنشاء صانعة العالم أفلاطون، على الرغم من أنه يستخدم تلك القوة بحرفية شديدة في ابتكاراته. يتضح من

كتاب "الجمهورية" أن أفلاطون نظر للإنشاء على أنه رؤية ومحاولة وفعل، ولام في محاورة "فيدروس" الإنشاء في بدايته، ولكنه مدحه في النهاية؛ فقد قالت شخصية سقراط عند أفلاطون إن إنشاء ميسياس خاطئ، ولكن إنشاء أفلاطون نفسه للعالم في أسطورة الشخصية وولادة ذاكرة الروح تعكس جذور أفلاطون العميقة في ثقافة يونانية، وتقدس دور الأسطورة في الحياة الإنسانية. احتوى كتاب "الجمهورية" كل أفكار أفلاطون عن قوة الإنشاء الإنساني في نموذج يعمل على تقريب المدينة من النموذج العالمي، وهو نموذج نظري وعملي، بالإضافة إلى ذلك يقترح خوف أفلاطون من الكتابة وتوابعها من الذاكرة وجود طرق لمعرفة توجهات الناس بشأن قوة الإنشاء.

لقد تطلب عالم أرسطو العقلي صنعة إنسانية بشكل لم يتطلبه تصور أفلاطون. فقد حل فن البلاغة الإنساني والسياسة والشعر عند أرسطو محل قوة الميوز العابرة عند هوميروس، وكل هذه الفنون عند أرسطو تتطلب إنشاءً إنسانيًا، يمكن تعلمه كاملا.

عرف أرسطو البلاغة على أنها خصوصية عقلية وقوة عقلية. هذا التعريف المزدوج يجمع بين معنى أفلاطوني للبلاغة المثالية بوصفه وسيلة لمعرفة أنماط الأرواح وتفصيل الإنشاء بغية تحسين تلك الأرواح وبين معنى سوفسطائي لقوة الإنشاء الفائقة، تحتوي البلاغة كفن للرؤية والفعل داخل مجال السياسة على الإنشاء الذي يهدف إلى التعبير عن التذوق العام، بينما اهتم الشعر بوصفه فنَّ صناعة الأشياء من اللغة بإنشاء الدراما والشعر بهدف تدعيم القيم العامة. أما إعادة صياغة الشخصية عند أرسطو من صور إلى انفعال معنية بتنظيم إنشاء الخصوصية العامة، إنشاء الخصوصية في سياق الديموقراطية أو غيابها خيط يمكن تتبعه من خلال تاريخ البلاغة والإنشاء مع الإمكانيات النسبية للابتكار.

ونظم أرسطو أيضا المصنفات التي استخدمها المتكلمون والشعراء والفاعلون والمحاولون بشكل جعلها تقنيات إنشائية، على الرغم من أن التشابه بين البلاغة والشعر كبير على مر القرون فإن تعامل أرسطو المنفصل مع الاثنين اختطف من الإنشاء الشعري صداه الإقناعي واختطف من الإنشاء البلاغي الوسائل الأخلاقية والعاطفية وغاياتها.

لم يكن إيزوقراط (436–338 bce) قبل أرسطو بقليل خاضعا للفرق الواضح بين الشعر والبلاغة. لقد مارس إيزوقراط الإنشاء الكتابي بداية في عمله ككاتب خطب، وفيما بعد من خلال رسائله المكتوبة للقراءة وليس للإلقاء الشفوي. فهم إيزوقراط – أشهر معلم كتابة في أثينا – العالم بشكل مخالف لأفلاطون، فقد كانت المدينة بالنسبة لإيزوقراط هي الكون، والإنشاء الإنساني هو الطريقة الوحيدة لصنع هذا العالم ومعرفته؛ لأن الآلهة كانت تعرف ما لا يعرفه البشر، لقد كان الميوز عند إيزوقراط يحل محل الخبرة الفنية عند غيره، كما يظهر من تعامله المتباين مع الإسبرطيين في محاوراته المختلفة. لقد تعلم إيزوقراط من خلال الاقتداء كما كان يتعلم السوفسطائيون الأوائل، ولكنه اعتمد أيضا على المهارة الكامنة في التلاميذ ودراسة فن الإنشاء. وقد أدرك إيزوقراط أن دراسة الإنشاء وممارسته تمكن الفرد والمجتمع من تعلم الفضيلة ذاتها، وبذلك خلط إيزوقراط بين المجال الخاص والعام.

انعكس تركيز إيزوقراط على أهمية تعليم الإنشاء في الحياة العامة في أشهر طلابه تيموتيوس. فالأستاذ لا يساعد التلميذ في تشكيل الخطاب فحسب، بل يساعده في تشكيل نفسه أيضًا. فتعاليم السوفسطائي جورجياس (٤٨٠ – ٣٧٦ قبل الميلاد) هي التي أنتجت إيزوقراط، كما ساهمت تعاليم سقراط (٤٧٠ – ٣٩٩ قبل الميلاد) في تكوين أفلاطون المثالي، كما ساعدت تعاليم أفلاطون الجدلي في تكوين أرسطو المنظم، وكان تركيز أرسطو على البلاغة

باعتبارها فرعا من فروع السياسة هو الذي كوَّن الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ قبل الميلاد)، كما ساهمت تعاليم إيزوقراط البراجماتية في إنشاء الجندي العالم تيموتيوس.

وكان شيشرون (١٠٦ - ٤٣ قبل الميلاد) أستاذا ماهرًا في الكثير من الممارسات والعمليات والمنتجات الإنشائية مثل المحاورات والرسائل والقصائد. كان الإنشاء بالنسبة لشيشرون كما كان لإيزوقراط والسوفسطائيين من قبله فعلا من أفعال خلق العالم، فقد استخدم الكلمة اللاتينية *ornatus* الموازية للكلمة اليونانية *kosmos* التي تعني "الكون" ليصف فعل الإنشاء اللغوي وقدرته، واتبع شيشرون إيزوقراط أيضا في استخدامه البراجماتي للإنشاء في الحياة العامة والخاصة معا، يقترح اهتمامه بـــ"الفرد الطيب" أنه تصور أن الإنشاء مهم في الرؤية والمحاولة والفعل في المجال العام، وأيضا مهم إنشاء الشخصية العامة الفاضلة. وبذلك كان شيشرون آخر أساطين الأقدمين المؤمنين بأن الإنشاء وسيلة للإبداع، فقد حلت أعمال كينتليان (الذي نظم معظم أعمال شيشرون الخاصة بالإنشاء والمضطربة أحيانا) محل كتاب شيشرون "في الإبداع" أو صاحبته لمئات من السنين. لقد أدى مفهوم كينتليان عن الشخصية الحسنة التي تتقن الخطابة - خاصة عندما اقترن بالمسيحية - إلى الخلط بين الإنشاء العام وحسن الشخصية لألفيتين تاليتين، ولما عرفت المسيحية والإمبراطورية الابتكار ركز المعلمون على المحسنات البلاغية والاستعارات كغايات في حد ذاتها وليست كوسائل تساعد على الرؤية والمحاولة والفعل، لقد أصبح الناس يفهمون العوالم المختلفة على أنها أداء، وفي غير متناول الإنشاء الإنساني لأول مرة منذ أيام أفلاطون.

أصبح التركيز الأساسي للإنشاء عندما حلت الكنيسة والمملكة محل المجتمع المدني، واهتمت بالشكل والنتيجة أكثر من الاهتمام بالابتكار والعمليات الإنشائية،

ولما كانت الكنيسة والمملكة خارج نطاق الحجاج العام فقد فَقَدَ الابتكار مكانته كقوة مركزية في الإنشاء، وأصبحت أنواع الإنشاء الشكلية في العصور الوسطى - مثل فن كتابة الرسائل والوعظ وكتابة البلاط - المادة الأساسية للتعليم البلاغي. وقد وسَّع اختراع الطباعة وتحسُّن نوعية الورق من انتشار الكتب الدراسية وسهل تدريس الإنشاء الكتابي، وبعد اضمحلال قوة الإنشاء في ابتكار المعرفة أصبحت أنواع المنتجات الإنشائية محط اهتمام دراسة اللغة وتعليمها وممارستها. وعلى الرغم من أن التمرينات الابتدائية للإنشاء كانت موجودة في شكل تمارين شفهية منذ السوفسطائيين، فإنها وصلت إلى قمتها في العصور الوسطى وبدايات عصر النهضة. وكانت تلك التمرينات مرتبطة بالقواعد النحوية والنقد الأدبي أكثر من ارتباطها بالبلاغة، ولكنها كانت وسيلة جيدة لاستبطان عملية الإنشاء عن طريق المحاكاة، وكانت هذه التوجهات النحوية الشكلية للإنشاء هي سوابق البلاغة المدرسية في العصور الوسطى ومدارس النحو الإنجليزية التي كان لها الأثر البالغ فيما سمي بتراث الأدب الإنجليزي في عصر النهضة. على الرغم من أن التنويع كان محببا في التمرينات القواعدية كما كان الحال في ابتكارات إرسموس الباروكية فإن هذا التنويع نفسه لم يكن مقبولا في المجالات المعرفية كما فهمها التجريبيون على الأقل. وصل هذا الازدواج في التعامل مع الابتكار في الإنشاء إلى مداه في كتابات راموس (١٥١٥ - ١٥٧٢) الذي فهم المعرفة الاحتمالية (وهي أساس الإنشاء وغرضه في العصور القديمة) على أنها خاطئة فاسدة، وبنفس الطريقة افترض منطق القرن السابع عشر أن كل منطوق يسمح بالشك أو الجدل فاسد، ولذلك كان مدى الإنشاء محدودًا جدا بإقناع الناس بما هو مكشوف عنه سلفا أو مشكل قبلا.

فتح تركيز هذا النوع من المنطق على الوضوح اللغوي صفحة جديدة في تاريخ الإنشاء، عكست محاولة مجتمع البلاط تعرية اللغة من زينتها وجعلها شفافة واضحة التوجهات المعرفية المتناقضة للحركات العقلانية

والتجريبية ووجهة نظرها في الإنشاء. وكان فهم فيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤) للإنشاء اللغوي على أنه مادة الفكر متناقضا مع مفهوم عصر التنوير بأن هذا الارتباط الشرطي خاطئ. كانت فكرة فيكو أن الإنسان يستطيع أن يفهم الأمور التي أنشأها هو نفسه ولا يستطيع أن يفهم تلك التي أنشأها الرب، وهو في ذلك ينتج حجاجا يشبه ذلك الذي أنتجه سقراط والسوفسطائيين.

بينما تطورت كتابات البلاء لتنتج المعاجم ونشر قواعد استخدام الإنجليزية وغيرها من اللغات المحلية عادة على حساب اللاتينية فإن تلك النزعات نفسها هي التي أنتجت حركة الالتزام، وهي محاولة السيطرة على النزعات الفردية التي نمت داخل الطبقات المتوسطة الناشئة من خلال أنماط إنشاء تقعيدية، لقد تغلغل هذا التركيز على صحة الإنشاء في محاضرات آدم سميث (١٧٤٨) على الرغم من أنه لم يكن متشددا في الإنشاء أو نقل الخاصية من خلال الأسلوب. ونتج أيضا عن هذا التركيز الكبير على الأسلوب ما يمكن أن نسميه حركة الفنون الجميلة، وهي الحركة التي حاولت التقريب بين الأدب والإنشاء من خلال أيديولوجيات السمو والذوق.

هناك ثلاث شخصيات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تشترك في التزام معرفي واحد تجاه المعرفة المطلقة بالطبيعة الإنسانية، وهو الالتزام الذي انعكس في توجهاتهم نحو الإنشاء والفنون الجميلة والدين، بالنسبة لجورج كامبيل (١٧١٩ - ١٧٩٦) وهيو بلير (١٧١٨ - ١٨٠٠) وريتشارد ويتلي (١٧٨٧ - ١٨٦٣) اكتسبت البلاغة مكانتها السالفة كفن للفعل والمحاولة إن لم يكن للرؤية بعد. كانت مرجعية كامبيل في انطلاقته نحو التجريبية هي عقيدة العقلانية الأسكتلندية فقد كان يفضل البلاغة، ولكنه كان ينظر إليها باعتبارها تابعة للحقيقة وليست موازية لها أو صانعة لها؛ فكان الإنشاء خادم للعلم. وكان تركيز بلير على الفنون الجميلة نابعًا من مفاهيم

السمو والذوق. وهو ما أنتج توجها شكليا في الإنشاء، فالذوق يمكن تعلمه من خلال الشكل وليس الابتكار، وعندما تتشكل أحكام الذوق فإنها تُصبح واضحة بذاتها بالنسبة لأعضاء جماعة بشرية محددة أو لمن يطمحون أن يصيروا أعضاءها. ولما كان ويتلي مهتما بالشفاهية والحجاج فقد طبق الإنشاء على البلاغة الحجاجية، واتخذ الابتكار في هذا السياق شكلا خاصا جدا وأصبح الإنشاء الشفاهي شكلا منظما من أشكال البلاغة. وانحصر الإنشاء في الحجاج من ناحية والكتابة عن الأدب من ناحية أخرى. وتعلم الناس الحجاج والكتابة الأدبية ليدخلوا في نسيج طبيعة اجتماعية قائمة بدلا من كونهما وسيلة لتعديلهما. وفي داخل هذا السياق المعرفي الذي يفصل بين الحقائق والقيم بشكل واضح فإن الفصل بين الحجاج والفنون الرفيعة يوازي الهوة ما بين المنظور العلمي للعالَم الذي لا يحتوي على أي مدخل إنساني وبين المفهوم الإنساني للعالم الذي لا يحتوي إلا على هذا المدخل الإنساني.

دشنت البلاغة الشكلية مع تلك الحالات الثلاثة تراثا استمر في كتابات ألكسندر باين وآدم شيرمان هيل وباريت ويديل وجون جينونج وفريد نيوتن سكوت، واستمر بعد ذلك في أقسام اللغة الإنجليزية. وكان تركيز الإنشاء على الإنجليزية بوصفها فرعًا من فروع العلم على التراث الأدبي الذي يُقرأ خارج سياقه الديناميكي. لقد تم فصل الإنشاء عن قوته العملية والفاعلة اجتماعيا لخدمة البناء الطبقي، كان يتم الفصل في العصور الوسطى بين الإنشاء وتلك القوة بواسطة السيف والدين، وأصبح الفصل يتم اليوم بواسطة الدين والتراث الأدبي.

يكشف لنا فهم الإنشاء بوصفه فنًا عمليًا وفاعلاً أن الممارسات الإنشائية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت أسرع من النظرية البلاغة الممثلة في هيل وجينونج وبيان. لن تبقى اللغات المحلية تحت

السيطرة خاصة في سياق الثورات وتوسع المشاركة الديموقراطية كما يبدو من كتابات أشخاص مثل ميري وولستون كرافت (١٧٥٩ - ١٧٩٧) وفريدريك دوجلاس (١٨١٧ - ١٨٩٥) وفرانسيس ريت (١٧٩٥ - ١٨٥٢) ووالت ويتمان (١٨١٩ - ١٨٩٢) وسوجورنر تروث (١٧٩٧ - ١٨٨٣) وأيدا ويلز (١٨٦٢ - ١٩٣١) وإليزابيث كادي ستانتون (١٨١٥ - ١٩٠٢) وسوزان أنتوني (١٨٢٠ - ١٩٠٦). وعلى الرغم من أن نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) أنعش النظرية البلاغية عن طريق استلهام السوفسطائيين فإن إسهامه لم يكن كافيا لتعميق فهم قوة الإنشاء العملية والإنتاجية. إلا أن برنامج ماثيو أرنولد (١٨٢٢ - ١٨٨٨) النظري كان يهدف إلى إحياء الاتجاه الإنساني عن طريق التركيز على الفنون الرفيعة. وبذلك بدأ تراث نقدي خاص جدا في اللغة الإنجليزية استمر حتى يومنا هذا. شهد القرن العشرين مأسسة توجهات معينة للإنشاء في التعليم العالي، بعد انفصال المجلس القومي لمدرسي الإنجليزية عن مؤسسة اللغات الحديثة عام ١٩١١ للتركيز على تدريس الكتابة، أسس مدرسو الخطابة منظمتهم الخاصة، وهي الرابطة القومية لمدرسي الخطابة الأكاديميين رغبة منهم في التركيز على تدريس الخطابة، وانفصلت الخطابة كجزأ من الإنشاء في كل أنحاء البلاد عن النقد البلاغي. كما انفصل تدريس الكتابة عن تدريس النقد الأدبي في أقسام الإنجليزية. وقدم المؤتمر السنوي للإنشاء الجامعي والتواصل - الذي تأسس عام ١٩٤٩ مكانة مهنية للأكاديميين المهتمين بالدراسات الإنجليزية المهتمين بالإنشاء الكتابي بشكل خاص ومهد الطريق أمام دراسات الإنشاء لأن تصبح علما منفصلا بعد أن كان منضويا حتى وقت قريب تحت لواء الدراسات الإنجليزية.

وكانت أدوات تلك الفوارق مختلفة في الممارسة بنفس درجة اختلافها في النظرية. ومنذ أن وجدت ابتكارات ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) النظرية

نفسها في أعمال كامبيل وبلير وويتلي، سيطرت السياقات المعرفية الحداثية والعلمية على النظرية الإنشائية. ولكن بحلول القرن العشرين كشف نقاد من أمثال هنري آدمز (١٨٣٨ - ١٩١٨) حاجة الإنشاء لأن يستعيد توازنه وخاصة في معرض كتابته عن تاريخ التغير بدلا من تاريخ الثبات النظري الذي لا يتغير. قدم ويليام جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) ردا على تلك الحاجة، وكذلك فعل جون ديوي (١٨٥٩ - ١٩٥٢) الذي أعاد مذهبه البرجماتي الإنشاء إلى مجال الممارسة. ولما كان على القرن العشرين أن يواجه تطور الديموقراطية والتكنولوجيا كان على الموضوعات الأكاديمية والعامة والتجارية والخاصة أن تتفاعل مع عوالم يعاد تشكيلها بشكل دائم. يقترح هذا المعنى البرجماتي والمتغير الذي اكتسبه الإنشاء إسهام البلاغة في معادلة تأثير الحركة الإنسانية من خلال تقديم طريق يوازن بين براجماتية أرنولد وديوي؛ أي بين الالتزام الإنساني والعام.

بدأ المدرسون البراجماتيون في القرن العشرين عملية إعادة قراءة للرموز الكلاسيكية في البلاغة والشعر والتخصصات العقلية الأخرى بغية إعادة صياغة العناصر التربوية والممارسة. أنتجت مدرسة الأرسطيين الجدد في شيكاجو تحت قيادة الفيلسوف ريتشارد ماكين (١٩٠٠ - ١٩٨٥) والناقد أر. إس. كرين (١٨٨٦ - ١٩٦٧) مناخا خطابيا جعل من نظريات البلاغة القديمة الأساس التربوي للكتابة الجامعية. وبينت كلية هاتشنز في جامعة شيكاجو أن قراءة شخصيات مثل ريتشارد ويفر ووين بوث وإدوارد كوربيت وألبرت دانهيل وجيمس سليد وويلما إبيت وجيمس كينفي للبلاغة القديمة، وخاصة كتب السوفسطائيين الأساسية أسهمت في إثراء تعليم الإنشاء الكتابي. وأرست كتب ناس كثيرين مثل روس وينتروود وجيمس ميرفي ووينفريد براين هورنر مبادئ التحول العلمي للإنشاء، والذي ما زال متداولا بين أيدي

الباحثين حتى يومنا هذا. وانعكس الاهتمام بالكتابة في كل المجالات الأكاديمية في وجود أقسام أكاديمية تدرس بلاغة العلوم وفروع أخرى خاصة متخصصة، مستخدمة في ذلك أعمال كينيث بيرك (١٨٩٥ - ١٩٩٣) بوصفها وسيلة لفهم قوة الإنشاء اللغوي صانعة العالم.

ولكن الفوارق المؤسسية بين الإنشاء الشفاهي والكتابي بدأت تنزاح في الحالة الجامعية وحالة الدراسات العليا في بداية القرن الحادي والعشرين تحت تأثير التكنولوجيا التي تخلط بين الكتابية والشفاهية. وتقدم الجمعية البلاغية الأمريكية التي أنشئت عام ١٩٦٨ ساحة لالتقاء علوم مختلفة لباحثين من مجالات مختلفة ليتعاونوا في دراسات الإنشاء الشفاهي والكتابي باعتبارهما وسيلة للرؤية والمحاولة والفعل.

كان تراث الفنون الجميلة التجريبي متشربا بقيم الذكور البيض الأغنياء ومن يصبون لأن يصبحوا مثلهم دون أي نية لإعادة تشكيل تلك القيم أو تحديها. ولذلك فليس من الغريب أن ممارسين في القرن العشرين من أمثال سيزار شافيز ومارتين لوثر كينج وأندريا دوركين، ومنظرين براجماتيين مثل ميري ديلي وكورنيل وست قد بنوا إنشاءهم على معيار غير الذوق. وليس من المدهش أيضا أن يدخلوا الإنشاء في مناطق اهتمام لفظي وفعلي تهتم بتغيير المجتمع. ركز الفن العملي والمنتج الذي مارسوه ونظروا له على التغيير المتزامن مع التزامهم بهذا التغيير بالتشاور مع من لهم فيه مصلحة، ويعكس هذا التزامن فهما للإنشاء باعتباره فنًا عمليًا ومنتجًا كما هو فن نظري. (انظر: African - American rhetoric; Feminist rhetoric; Queer rhetoric)؛ وانظر أيضًا: Criticism; Law; Speech).

مصادر ومراجع

Bizzell, Patricia, and Bruce Herzberg. *The Rhetorical Tradition: Readings from Classical Times to the Present*. Boston, 1990.

يمثل هذا الكتاب أول كتاب مختارات للنصوص التاريخية عن البلاغة يتعامل مع هموم الإنشاء؛ ليحدد ما هي النصوص الداخلة في هذا التصور.

Clark, Gregory, and S. Michael Halloran, eds. *Oratorical Culture in: Nineteenth - Century America: Transformations in the Theory and Practice of Rhetoric*. Carbondale, Ill., 1993.

يفسر هذا الكتاب كيف تحولت ثقافة البلاغة الكلاسيكية إلى إنتاج الخطاب المهني في كل فرع من فروع العلم في الولايات المتحدة في القرن العشرين

Connors, Robert J. *Composition - Rhetoric: Backgrounds, Theory, and Pedagogy*. Pittsburgh, 1997.

هذه الدراسة عن الإنشاء الكتابي في الجامعات الأمريكية بعد ١٧٨٠، وتناقش كيف اجتمع الإنشاء والبلاغة وتفرقا، وكيف تم استبعاد الممارسات البلاغية والإنشائية من كتب تاريخ البلاغة والإنشاء الكتابي.

Crowley, Sharon. *Composition in the University: Historical and Polemical Essays*. Pittsburgh, 1998.

يكتشف هذا الكتاب الموقع السياسي للإنشاء في الجامعات، وتبعاته على المجال في المستقبل.

Horner, Winifred Bryan, and Michael Leff, eds. *Rhetoric and Pedagogy: Its History, Philosophy, and Practice: Essays in Honor of James J. Murphy.* Mahwah, N.J., 1995.

يقدم هذا التجميع موضوعات ومجالات مشتركة بين الباحثين المهتمين بالإنشاء عبر تاريخ البلاغة.

Moss, Jean Dietz, ed. *Rhetoric and Praxis: The Contribution of Classical Rhetoric to Practical Reasoning*. Washington, D.C., 1986.

هناك مقالات كتبها باحثون متخصصون في الاتصال والإنشاء في كتب عبارة عن مجموعة من المقالات تضم بالإضافة لهذه المقالات مقالات أخرى عن المفاهيم الكلاسيكية القديمة.

Murphy, James J., ed. *A Short History of Writing Instruction.*

يعتبر هذا العرض لطرق الكتابة وتدريسها في الثقافة الغربية من اليونان القديمة حتى منتصف القرن العشرين في أمريكا أول عرض منظم للإنشاء في البلاغة الغربية.

Secor, Marie, and David A. Charney, eds. *Constructing Rhetorical Education: Essays in Honor of Wilma R. Ebbitt.* Carbondale, Ill., 1992.

مجموعة الأعمال هذه تقترح عددا من المعاني الخاصة بالإنشاء في نهاية القرن العشرين وعلاقته بتعليم البلاغة.

تأليف: Frederick J. Antczak and Rosa A. Eberly

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

تاريخ أقسام الإنجليزية في الجامعات الأمريكية

جاء ظهور أقسام الإنجليزية في الجامعات الأمريكية نتيجة لعمليات تطور مركبة. من بين عوامل التطور المختلفة ما يمكن تسميته بالبلاغة السيكولوجية وتصورات الخيال الرومانسية وتأثير الجامعات الألمانية على التعليم العالي في الولايات المتحدة. ولكن الثورة جاءت مع قانون موريل عام ١٨٦٢ الذي سمح بمنح أراضٍ لبناء الكليات والجامعات، وبذلك أصبح التعليم العالي ديمقراطية.

البلاغة السيكولوجية

كما قلنا في المقال التقديمي السابق أسس بلاغيان مشهوران في القرن الثامن عشر نظرياتهما وتعاليمهما على فهمهما للعقل الإنساني، وهما جورج كامبيل وهيو بلير. كان هدف كامبيل في كتاب "فلسفة البلاغة" (١٧٧٦) تأسيس بلاغة جديدة على خلفية علم العقل الإنساني؛ أي الإدراك وعلم النفس لكي تصبح البلاغة "ذلك الفن أو تلك المهارة التي تطوع الخطاب لهدفها" (ص١) ويمكن اختصار كل أهداف الحديث في أربعة، فالهدف من كل حديث هو تنوير العقل، وإمتاع الخيال، وتحريك العاطفة، والتأثير في الإرادة (ص٢). ووصلنا في النهاية إلى التصنيفات المتعارف عليها وهي العرض والحجاج والإقناع، ولكنه سبب اضطرابا عندما أضاف لها الوصف والحكي مع أنهما ليسا هدفاً بل وسيلة لتحقيق هدف، فيستطيع الفرد التأثير في إرادة المتلقي بوصف مزايا ما يتكلم عنه، ويمكن أن ينير عقل شخص بالحكي، أثرت تلك البلاغة السيكولوجية في الإنشاء في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر، وقسم كبير من القرن العشرين.

وكان هيو بلير أول بروفيسور للبلاغة والفنون الرفيعة في جامعة إدنبره. وكان لكتابه "محاضرات في البلاغة والفنون الرفيعة" (١٧٨٣) أهداف ثلاثة: هي إثراء الذوق وتحسين الأسلوب وتعليم الخطابة والإنشاء. وكان هذا الكتاب في معظم القرن التاسع عشر أعظم الكتب تأثيرًا في الإنشاء، وطبعت منه على الأقل ٢٦ طبعة في بريطانيا، و٣٧ في الولايات المتحدة و٥٢ طبعة مختصرة.

لا يذهب بلير إلى أن تقديم حجج في أي موضوع أمر يتجاوز قدرة البلاغة، وأن الابتكار نتاج عبقرية المتكلم أو الكاتب الطبيعية، وأن دور البلاغة هو الأخذ بيد البليغ للتحكم في موضوعه بأفضل الطرق ومساعدة الفرد في تحسين ذوقه وتطوير أسلوبه. البلاغة بالنسبة لبلير مسألة إدارة وتحكم وليست فنا إبداعيًا تكوينيًا.

الخيال الرومانسي

في القرن الثامن عشر كتب منظرون من أمثال الفيزيائي والشاعر البريطاني مارك أكنسون (١٧٢١ - ١٧٧٠) وجوزيف أديسون (١٦٧٢ - ١٧١٩) الذي أثرت مقالاته في الذوق والأسلوب البريطاني عن طبيعة الخيال، كما فعل ذلك جورج بوتنهام (١٥٢٩ - ١٥٩٠) في كتاب "فن الشعر الإنجليزي" (١٥٨٩). ولكن تأثير الشاعر والفيلسوف وزعيم التيار الرومانسي صامويل تيلور كولريدج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) كان واحدا من أكبر القوى التي سببت حدوث الفصل الواضح بين الأدب غير الخيالي كالتاريخ والسير والمقال وبين الأدب الخيالي كالشعر والنثر والقص والمسرح، والفصل بين الإنشاء والأدب، وهو الفصل الذي كان يميز أقسام الإنجليزية في الولايات المتحدة في القرن العشرين.

قسم كولريدج الخيال إلى خيال أساسي، وآخر فرعي، موضحًا في كتاب "سيرة الأدب" (١٨١٧) أن الخيال الأساسي هو "القوة الحية والدافع الأساسي للإدراك الإنساني والخيال الثانوي صدى للأساسي". وبدأ الأدب بعد كولريدج يكون نتاج الخيال الأساسي ذي القوة الفاعلة بينما ينتج الإنشاء من فعل الخيال الثانوي.

الجامعات الألمانية

يشير ألبرت كيتزابار (١٩٩٠، ص١٢ - ١٧) إلى أنه لم يكن في الولايات المتحدة دراسات عليا قبل ١٨٧٠، وقد سافر الطلاب لألمانيا بأعداد كبيرة حيث كان من الممكن للطلاب أن يتابعوا اهتماماتهم الدراسية في جامعاتها، وبدءوا يؤسسون نظام الدراسات العليا الألماني في الجامعات الأمريكية بعد عودتهم.

دانيل جيلمان (١٨٣١ - ١٩٠٨) - الذي كان أول رئيس لجامعة جون هوبكنز - مثلا على سلوك تلك الأيام، فبعد تخرجه من ييل عمل ملحقا دبلوماسيا في سان بطرسبرج الروسية وعمل دراساته العليا في برلين (١٨٥٤ - ١٨٥٥)، وعندما جاء إلى هوبكنز عام ١٨٧٥ قدم علوما جديدة إلى المقررات، وركز على الدراسات العليا وفتح كليات عملية.

لم تكن جونز هوبكنز الجامعة الأولى التي تفتح أقساما للدراسات العليا؛ فقد أسست ييل مدرستها للدراسات العليا عام ١٨٧١ وتلتها هارفرد عام ١٨٧٢ وتلتها ميشيجن عام ١٨٧٦، وتوالت الجامعات بحيث أصبحت الدراسات العليا والكليات العملية أحد أهم أجزاء الجامعات الأمريكية إن لم تكن أهمها كلها بحلول مطلع القرن العشرين في الولايات المتحدة، مما أثر في مكانة الدراسات الجامعية العادية والإنشاء بالتالي. وفي سنة ١٨٦٢ وقع

الرئيس لينكولن قانون موريل الذي يعطي الأراضي العامة للكليات والجامعات التي تدرس الزراعة والفنون الميكانيكية. وبهذا الشكل دخلت الجامعات والكليات العامة مجال الدراسات العليا إلى جانب جامعات الصفوة الخاصة التي تتلقى دعمها المالي من أوقاف مثل هارفرد وييل. وتم تأسيس ٦٩ كلية من منح أراضٍ وفتح التعليم لقطاع عريض من الناس، وانتشرت العلوم الإنسانية التي كانت الأساس التعليمي حتى انتشار النموذج الألماني في التعليم العالي. ولكن أيضا تم تأسيس كليات بمنح أراضٍ في طول البلاد وعرضها؛ حيث لم تعد تلك الإنسانيات هي العمود الأساسي، بل انزوت جانبا مفسحة الطريق للكليات العملية. وخلقت عملية إعادة هيكلة القيم هذه ترتيبا جديدا للتوجهات التعليمية لا يتصدره الأدب.

أقسام الإنجليزية ١٩٠٠ - ١٩٧٠

أسفرت قوة البلاغة النفسية واحترام نظرية في الخيال مشكوك فيها بشكل كبير وتأثير النموذج الألماني في الدراسات العليا وتأسيس جامعات وكليات بمنح أراضٍ وتيارات أخرى كالحركة النسائية عن تأسيس أقسام للغة الإنجليزية ذات تركيزين: الأول هو الأدب الذي يركز عليه أعضاء هيئة التدريس، والثاني هو الإنشاء الذي يتولى عبأه المدرسون غير الدائمين وطلاب الدراسات العليا. (انظر: Criticism; Modern rhetoric).

تغيرت التوجهات النظرية في الأدب بشكل مستمر من النقد الجديد الذي يمثله رينيه ويليك وأوستين وارين (نظرية الأدب ١٩٤٩ نيويورك) إلى البنيوية التي يمثلها رولان بارت في كتابه عام ١٩٥٢ "درجة الكتابة صفر" للنقد الأسطوري الذي يمثله نورثرب فراي في كتابه "تشريح النقد" (١٩٥٧)، ولكن مهما كانت النظرية أو الأدوات فقد كان التركيز على الأدب يتم على حساب الإنشاء.

ولكن النظرية التي تسيدت الإنشاء كانت ما نعرفه اليوم بالتقليدية المعاصرة وهي التيار التربوي الذي نشأ عن البلاغة السيكولوجية والرومانسية كما يمثله كتاب آدمز شيرمين هيل "مبادئ البلاغة" (١٨٩٥) وكتاب فريدريك كروز "كتاب راندوم هاوس" (١٩٧٤)، البلاغة في مثل هذه الكتب شكل وأسلوب فقط؛ أي إنها مسألة تحكم في النص وليست مسألة ابتكار. (انظر: Invention).

أقسام الإنجليزية من ١٩٧٠ حتى الآن

أصبحت التفكيكية النظرية المتحكمة في أقسام الإنجليزية بعد ترجمة كتاب جاك دريدا على يد جياتري سبيفاك (بالتيمور ١٩٦٧). يدعي النقاد التفكيكيون أنه لما كانت اللغة غير محدودة في طاقاتها الدلالية فلا يمكن تصور أن النص له معنى واحد، ولكن له معانٍ غير محدودة بدوره. وبعكس النقاد المأولين من أبناء مدرسة النقد الجديد الذين كانت مهمتهم تفسير غموض النص فقد استخدم النقاد التفكيكيون تلك التنوعات كمنطلق لنشر فكرة عدم ثبات النص. وبالتالي فإن التفكيكية تعارض مبدأ مهما من مبادئ الإنشاء، وهو تعليم الطلاب الكتابة بشكل يوضح المعنى بقدر الإمكان؛ إذ كيف يمكن لأي معنى أن يكون واضحا في حين أن اللغة توحي بمعانٍ لا نهاية لها؟

ظهرت في إطار الإنشاء نفسه ثلاث حركات مستقلة كرد فعل ضد التقليدية المعاصرة التي نشأت من البلاغة السيكولوجية في عصر التنوير، وهي الرومانسية الجديدة والكلاسيكية الجديدة والبلاغة الجديدة.

الرومانسية الجديدة تشبه التقليدية المعاصرة في استبعاد الابتكار من تراثها، وتتشابه مع الرومانسية في التركيز على التعبير عن الذات واكتشاف النفس، من بين النصوص الممثلة لتلك الحركة كتاب بيتر إلبو "الكتابة بقوة" (١٩٨١).

الكلاسيكية الجديدة تحديث للبلاغة القديمة مستلهمة تعاليم أرسطو والسياسي الروماني شيشرون والبلاغي الروماني كينتليان، من بين النصوص الممثلة لتلك الحركة كتاب روبرت كوربي "البلاغة الكلاسيكية للطلاب المحدثين" (١٩٦٥).

وتستعيد البلاغة الجديدة الابتكار كعنصر حيوي من عناصر الفني البلاغي، تخضع البلاغة الجديدة لتأثيرات كبيرة ومختلفة من التطور الكبير في علم اللغة والعلوم الاجتماعية وبأفكار الناقد والفيلسوف الأمريكي كينيث بورك (١٨٩٧ - ١٩٩٣) الذي كان يرى أن اللغة فعل رمزي، ينقل هذا التوجه الإنشاء من مكانته المعلبة في الأكاديمية إلى عالم الشؤون الإنسانية الواسع، ومن بين النصوص المؤثرة في إطار البلاغة الجديدة كتاب ريتشارد يونج وألتون بيكر وكينيث بيرك "البلاغة: الاكتشاف والتغيير" (١٩٧٠). (انظر: Nineteenth - century rhetoric).

مصادر ومراجع

Applebee, Arthur. *Tradition and Reform in the Teaching of English: A History*. Urbana, 1974.

Berlin, James. *Rhetoric and Reality: Writing Instruction in American Colleges, 1900–1985*. Carbondale. Ill., 1987.

Berlin, James. *Writing Instruction in Nineteenth - Century American Colleges*. Carbondale, Ill., 1984.

Connors, Robert. *Composition - Rhetoric: Backgrounds, Theory, and Pedagogy*. Pittsburgh, 1997.

Greenblatt, Stephen, and Giles Gunn, eds. *Redrawing the Boundaries: The Transformation of English and American Literary Studies*. New York, 1992.

Kitzhaber, Albert R. *Rhetoric in American Colleges, 1850–1900*. Dallas, Tex., 1990.

Miller, Thomas P. *The Formation of College English: Rhetoric and Belles Letters in the British Cultural Provinces*. Pittsburgh, 1997.

Winterowd, W. Ross. *The English Department: A Personal and Institutional History*. Carbondale, Ill., 1998.

Young, Richard E. "Invention: A Topographical Survey." In *Teaching Composition: Ten Bibliographical Essays*, edited by Gary Tate, pp.pp. 1–43. Fort Worth, Tex., 1976.

تأليف: W. Ross Winterowd

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التعداد Congeries

محسن بديعي يسميه بوتنهام في كتاب "فن الشعر الإنجليزي" (١٥٨٩ ص٢٣٦) بمحسن التجميع، وهو يهتم بتعداد الصفات وسرد التفاصيل بغية تطوير الفكرة، يضخم المثل التالي موضوع الصيف في الريف: "أغني للجداول والأزهار والطيور والأكواخ" (روبرت هيريك، هيسبريديس ١٦٤٨). وعلى الرغم من أن التعداد جوهري، ويرد كثيرًا في قمة الخطاب، فإنه قد يبدو في بعض الأحيان تجميعًا عشوائيًّا بحسب الحالة العقلية للخطيب أو المتكلم أو رغبته في الاستمرار في نقطة بعينها، كما هو الحال عند شتيرن في "تريسترام شاندي" (١٧٦٠ - ١٧٦٧). (انظر: Figures of speech).

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الشرط والاحتمال Contingency and Probability

كان الشرط بالنسبة لأرسطو هو المشهد غير المشكِل للبلاغة، هذا الربط الأرسطي بين الفاعل (أو الممارسة) والمشهد كان هدفه صد اتهام أفلاطون للبلاغة بأنها علم بدوي، ومن ثَمَّ فهي غير قابلة للتحديد، وقد استمر هذا الربط حتى يومنا هذا، بوصفه فرضية أساسية، وإن لم تكن ملحوظة في النظرية البلاغية المعاصرة. يرسي أفلاطون أصول التحديد في محاورة "جورجياس" بأن يطلب من البلاغة أن تحدد نفسها، ويسأل جورجياس بصراحة عن هويته، ويسأل عن صنف الأشياء الذي تنتمي البلاغة له. يقدم سقراط عددا من التفسيرات والتوضيحات حول هوية البلاغة في المحاورة. وكما هو متوقع لا يقدم جورجياس وبولوس وكاليكالس الذين يتناوبون الرد على سقراط أى إجابة مرضية. ولم تكن قلة أخلاقية البلاغة بل عجز مدرسيها وممارسيها عن وصفها هو الذي جعلها فنا غير مشروع. تحت النقد الأخلاقي الذي يقدمه أفلاطون الذي يمثل محاكاة درامية للمظهرية التربوية السوفسطائية وليس شرًا حقيقيا هناك نقد أكثر قسوة لنقص المادة في البلاغة. ومن الممكن أن يقدم المرء قراءة لأفلاطون تبرر النقص الأخلاقي في البلاغة بأنه نابع من بداوتها التي تزيد بفعل تنقل مدرسيها الدائم، فالبلاغة غير أخلاقية بسبب افتقادها للجذور.

وعلى ذلك من الناحية الحجاجية يرفض أفلاطون البلاغة لأنها فن ناقص ومعيوب للأسباب التالية، أولا البلاغة قادمة من أنطولوجيا فاسدة فهي مكتفية بالتعامل مع ما يبدو في الظاهر أنه حقيقي وخيِّر بدلا من التمعن في

ماهيته في الحقيقة. ثانيًا: البلاغة معيوبة معرفيًا لأنها تحاول أن تنشر غموضا من الرأي العام وليس المعرفة. ثالثًا: هي فن يستغل القدرات اللغوية لجعل الحجة الأضعف تبدو أقوى، وتدعم اكتساب القوة كهدف في حد ذاته بغض النظر عن تطور الروح لأنها أداة في السياسة. ترتبط الأسباب الثلاثة لرفض البلاغة - اعتمادها على المظهر وارتباطها بالرأي واستغلاليتها اللغوية - في عقل أفلاطون بالخطر وعدم الاستقرار. الفن الذي يرتبط بمثل تلك المسائل لا يستطيع أن يقدم وصفا عقلانيا لكينونته. ولكن أفلاطون لم ينكر لحظةً الحسية أو القوة المحسوسة في البلاغة ومواضيعها. ولكنه يشك في أنها بذلك تنحت لنفسها مكانا ذا حيثية. يعرف أفلاطون أن الناس تشترك في معاملات إقناعية بشكل مستمر تتطلب منهم أن يتفاوضوا في عدد كبير من المظاهر والآراء خاصة تلك المرتبطة بالعقلانية. ولكن تلك المفاوضات الإقناعية لا تحدث في سياق فن ثابت بل من خلال مهارة فردية، إما أن تصيب وإما أن تخطئ وتنبع من خبرة. ومن هنا يجيء تناقض قلة التحديد، فالبلاغة محسوسة جدا من ناحية، أو كما يقول ماكجي (١٩٨٢) إنها تفرض نفسها على وعينا كواقع يومي خشن ولكن الواقع اليومي هذا نفسه مصنوع من مظاهر وآراء لا يمكن أن تصمد أمام التفحص النقدي. فبمجرد أن يحاول أي مجادل أن يتلقف فكرة الواقع اليومي الخشن تلك ليتعامل معها تذوب في الجو، من الممكن أن ننظر كما فعل بعض البلاغيين النظريين (هاريمان ١٩٨٦) بشأن مجال معرفي خاص بالمظاهر والآراء يحوي البلاغة، ولكن أفلاطون تقليدي بدرجة لا تسمح له بذلك فاكتفى بإهمال البلاغة.

أسهب أفلاطون في موضوع عدم التحديد في محاورة "فيدروس"، حيث تحسن حال البلاغة نسبيا بأن أصبحت معينا للفهم الفلسفي. وفي الأقسام الختامية لهذه المحاورة يقدم أفلاطون بشكل واضح جدا الشروط التي يجب أن تفي بها البلاغة لكي تصبح فنا حقيقيا. يشير مايكل كان (١٩٨٩) إلى

شروط أفلاطون باعتبارها حلم البلاغة، حين يصبح قوام البلاغة (الاستراتيجية اللغوية) وروحها (الحالة النفسية) ووظيفتها (التأثير الذي يبغيه البلاغي) متناسقين ومتوافقين. يجب على البلاغة باختصار أن تقدم نموذجًا على الإقناع لا تشوبه ثغرة، يجب التحقق من مصداقيته من خلال إمكان توقعه، ولكن إن لم تستطع البلاغة أن تفي بهذا الشرط فيجب أن تبقى تحت جناح الفلسفة. ولذلك يحدد أفلاطون في "فيدروس" شروط تحرير البلاغة من التبعية للفلسفة، ولكن لا يمكن أن تفي البلاغة بتلك الشروط. ولذلك يجب أن تبقى البلاغة على هامش الفلسفة بمكانة دونية دائمة، ولن تحصل البلاغة في هذا الحال على استقلالية أو تحديد، وستبقى دائما تحت رحمة ما تنجزه الفلسفة. وهذه هي الإشكالية غير العادية التي أسس عليها أفلاطون تحديه الجلي المستمر، الذي وضعه أمام فرسان البلاغة في المستقبل، أي: "إن استطعت فك لغز البلاغة فسوف تتحرر"، ولكي تتحرر البلاغة لا بد أن تحصل على اسم أولا فمجال وتحديد.

أرسطو وفكرة الشرط

من المتفق عليه عموما أن محاضرات أرسطو عن البلاغة كانت جزئيا رد فعل على هجوم أفلاطون. ولكن نص أرسطو الذي يقدم المنظومة الثلاثية – خاصة نظرية الأنواع الثلاثية – يشوش على رده على هجوم أفلاطون. يتحرك النص بسرعة بعيدا عن الدفاع إلى براجماتية الخطابة، ويبدو أن أرسطو كان يسير في طريق مختلف عن الذي سلكه أفلاطون. فقد تجاهل ادعاءه بأنه من الممكن أن نعرف سبب نجاح بعض الناس بالممارسة بينما ينجح بعضهم بالفطرة (1354. 10)، وأن مثل هذا الموضوع ينبع من فن الشخص واتجاهاته ومن ادعائه أن فائدة البلاغة عند أفلوطين هي نقد المظاهر والاستغلال اللغوي للرأي العام (355a.20–1355b.5).

ولكن إذا ما ركزنا على فكرة الشرط التي تنزوي في ظل المنظومة الثلاثية فسنفهم أرسطو بشكل آخر، ما هي فكرة الشرط عند أرسطو؟ بداية هي فكرة تحتوي على إحلال ما، فمن أجل تحديد مجال البلاغة يحل ثنائية الضروري والمشروط محل ثنائية أفلاطون الحقيقي والوهمي. بمجرد قبول هذا الفصل الواضح ظاهريا أي بمجرد قبول أن البلاغة تدخل في باب المشروط ينهار هجوم أفلاطون على البلاغة لأنها غير محددة. وبمجرد وضع البلاغة والجدل في مجال المشروط يعطيهما أرسطو مكانة يقدمان نفسهما فيها ويحددان نفسهما بها. هذا رد بليغ على بداوة البلاغة عند أفلاطون خصوصا لأنه يحرم النقدين الآخرين من قوتهما، وهما الفساد المعرفي والاستغلال اللغوي. فبمجرد وضع البلاغة في مجال ما هو مشروط لا يمكن التعامل معها على أنها فاسدة معرفيًا بل كوسيط أو مستودع من نوع معرفي خاص يمكن تعريفه بأشكال مختلفة في الدراسات البلاغية المعاصرة باعتباره معرفة عامة (بيتزار ١٩٧٨) أو معرفة اجتماعية (فاريل ١٩٧٦) أو حصافة (ليف ١٩٨٧)، ويمكن الرد على هجوم الاستغلال اللغوي بطريقة كينيث بيرك على أنه ضرورة للعيش في عالم غير دقيق.

هناك سمتان في قراءة أرسطو للمشروط: أولا المشروط هو عكس الضروري، والمقابل له، وأنه مرتبط بالممكن الذي يمكن لنا أن ننتج أدلة احتمالية لإثباته، بينما يوسع ربط البلاغة عكسيا بالضروري من مجالها توسيعا كبيرًا فإن ربطها بالممكن يجعلها قابلة للتحكم. وعندما يعرف المشروط بالتقابل مع الضروري فإن التعريف يفتح مساحات واسعة من الالتباس. ولكن أرسطو ومن تبعوه في هذا المسعى لا يسمحون لنا بأن ننظر كثيرًا في هذه المساحة فيربطون المشروط بسرعة وبشكل دائم مع ما هو محتمل؛ الذي لا يأتي من احتمالات رياضية أو إحصائية ولكنه يأتي من

اليومي؛ أي من "فكرة أيديولوجية" – بحسب تعبير بارت (١٩٧٢) – عنما يمكن أن نراه أو الأشياء التي تحدث بشكل اعتيادي، ولكن بالنسبة لأرسطو فإن فكرة المشروط لا توحي بعالم كافكاوي محاط بالغموض والخوف، بل بعالم أصبح اعتياديا بفعل التعود على الأدوات الأيديولوجية المواجهة.

ثانيًا: المشروط علامة على الفعل الإنساني؛ لأن الإنسان في موقف معين يستطيع أن يتصرف بطريقة لا يتصرف عادة وفقًا لها. يقول أرسطو إن معظم الأشياء التي نتخذ بشأنها قرارات والتي نتساءل عنها تواجهنا باحتمالات بديلة. فنحن دائما ما نفكر في سلوكنا ونتساءل عنه، وكل سلوكنا له طبيعة مشروطة، وقليل من سلوكنا تحتمه الضرورات. وعلى ذلك فالمشروط أفق تتفاعل فيه الأفعال الإنسانية والتفكير. وهو كذلك نموذج انعكاسي لهذا التفاعل، وإن كان للإنسان أن يتصرف بأكثر من شكل، وإن كانت نتائج أفعال الإنسان غير ثابتة، وغير متوقعة فمن المنطقي أن نفكر ونختار. البلاغة هي الوسيط الخطابي للتفكير والاختيار خاصة في المجال العام. وعلى ذلك فالتركيز تغيير بشكل غير محسوس من مشهد المشروط لفاعلية التفكير واتخاذ القرار. أصبح هذا التحول ممكنا من خلال مفهوم معين للمحتمل والمعتاد والعادي يسيطر على المشروط ويثبته؛ فالمحتمل بالنسبة لأرسطو شيء يحدث عادة، ليس أي شيء يحدث عادة، ولكن إن كان فقط ينتمي لتصنيف المشروط، يؤكد جريمالدي في معرض تعليقه على الفكرة السابقة وباستخدام أعمال أخرى لأرسطو أن الاستقرار والانتظام يحكمان العلاقة بين الشرط والاحتمال؛ فالفعل ليس ما يحدث ببساطة لأنه يصبح بذلك مصادفة، ولكنه يجب أن يحتوي على عنصر الاستقرار والانتظام الأصيل في طبيعة الشيء المسبب للأطروحة النابعة من تلك الطبيعة. يمكن معرفة حقيقة مستقرة وإن كانت مشروطة، بل ويمكن استخدامها في معادلة منطقية.

من الطبيعي أن يكون الفعل الإنساني شيئًا مستقرًا نسبيا وقابل للمعرفة، ويقدم بذلك سببا للاستدلال المنطقي لتطوير المعرفة (جريمالدي ١٩٨٠ ص٦٢). ولذلك يبدأ الإنسان في قراءة صيغة "المشروط والمحتمل" الشهيرة من زاوية الاحتمالات التي يدعمها أرسطو نفسه عن طريق تقديم وصف مفصل للتفكير الاحتمالي المبني على المثل والحجاج الذي حُذفت منه المعلومات المعروفة، والذي يسميه "مادة الإقناع البلاغي" (1354a. 12-14) (انظر: **Enthymeme; Exemplum**). وبهذه الطريقة ينزوي المشروط كأفق للبلاغة ليتصدر المحتمل المشهد كنمط من أنماط التفاوض على المشروط.

يندر أن تُعالج العلاقة بين البلاغة والشرط بوصفها موضوعًا نظريًا في الدراسات الأرسطية. وقد أسهب جريمالدي في تعليقه على طرق أرسطو المختلفة في استلهام المشروط واستخدامه في كتاب "البلاغة" وكتب أخرى. المشروط ليس مشكل أو ملغز من الناحية النظرية بالنسبة لجريمالدي، حتى لو كان معقدا من الناحية اللغوية، فهو جزء من الخلفية المفهومية للمشروع البلاغي.

أثار مفهوم الشرط بعض اهتمام الباحثين المهتمين بدراسة أعمال أرسطو المنطقية. ففي وصف أرسطو للمصطلحات النموذجية يعرِّف المشروط بالاختلاف مع العاملين النموذجيين الآخرين؛ أعني الضروري والممكن. وهناك أيضا اختلاف آخر بين المشروط كحدث والمشروط كسمة للأطروحة؛ فالحدث المشروط حدث قد يحدث أو لا يحدث. كما أن الحدوث من عدمه أمر ليس ضروريا. وبينما يكون الحدث المشروط ممكناً، فليس كل حدث ممكن مشروطا؛ لأن الحدث الضروري ممكن دون أن يكون مشروطا. الحدث المشروط بطريقة أبسط هو الحدث الذي ليس ضروريًا وليس غير ممكن. ومن ناحية الفعل الإرادي الإنساني يصبح الحدث ضروريًا عندما لا يستطيع أي شخص أن يمنعه

من الحدوث، ويعتبر غير ممكن إن لم يكن في قوة أي شخص أن يمكنه من الحدوث. ويصبح الحدث مشروطا إن كان في إمكان شخص أن يسبب حدوثه أو يمنعه (انظر كان ١٩٦٧ ص٢٤ - ٢٧ وواترلو ١٩٨٢).

التمييز بين المقولات أو الحقائق الضرورية والمشروطة أكثر تعقيدا، فليس هناك تقابل واضح بين الأحداث والمقولات. علاوة على ذلك، يفصل أرسطو بين نوعين من المقولات الضرورية: النسبية والمطلقة. وبنى هذا الفصل على فكرته الميتافيزيقية التي تقضي بأن لكل شيء أصول حقيقية. فعندما يدَّعي شخص في حجاج ما أن شيئا ما صحيح فمن المتوقع منه أن يقدم أسبابا لهذا الادعاء إن سُئل عنها. في مثل هذه الحالة، حقيقة ادعاء ما تصبح ضرورية بفعل الأسباب المساقة لدعمها، الحقيقي بالضرورة هنا ليس من سمات المقولة ولكنها تصبح سمة بارتباطها مع الأسباب الداعمة. ويمكن لقوة هذا الارتباط أن تكون متباينة. قد يكون الادعاء وأسبابه أي الخلاصة ومقدماتها المنطقية مرتبطان بشكل لا يسمح للفرد بأن يدَّعي أن شيئا حقيقيًا ممكن أو محتمل. وقد نظر أرسطو إلى بعض المقولات المعتبرة أصولا خاصة للعلوم وبعض المبادئ العامة كمبادئ التقابل مثلا على أنها ضرورية في المطلق أو حقيقية بذاتها. يعبر الأصل في العلوم عن جواهر الموضوعات التي يتكون منها مجال العلم الخاص. والأصول لا تنتج من أطروحات أخرى بل تأتي بالحدس المباشر. نرى حقيقة الأصول في حالات معينة، فبحسب نظرية الجواهر فإن المقولة المشروطة هي التي "لا تثبت صحتها بجوهر الشيء الذي حُصرت فيه" (هاملين ص١٩٩). أما المقولة الضرورية فهي المعبرة عن "الشيء الذي لا يمكن أن يكون على غير ما هو". والمقولة المشروطة تعبر عن "الشيء الذي يمكن أن يكون على غير ما هو حتى الساعة أو في بعض الأحيان" (هاملين ١٩٦٧ ص١٩٨ - ٢٠٥). التفسير المنطقي للمشروط كما في الحدث والمقولة هو

اختلافه عن الضروري، ولما كان مفهوم المقولة الضرورية أو الحقيقة موضوع أساسي في المعرفة؛ فقد ظهرت كتابات كثيرة ومعقدة فنيًا من أيام أرسطو حتى الآن. المشروط في كل هذه الكتابات في ظل الضروري، فتفسير المشروط هو أنه نتاج الاستقصاء بشأن الضروري. ولكن من الصعب أن نربط بين ما نستبطنه من التحليل الفلسفي للمشروط وبين استخدامه كفرضية مبدئية عامة في البلاغة إلا بالطريقة الواضحة جدا، التوضيح الفلسفي الواضح للمشروط كحدث قد يحدث أو لا يحدث والمشروط كسمة من سمات المقولة التي قد تصح أو لا تصح، متشابه مع المعنى الذي يجعل المشروط محل اهتمام البلاغة.

قال أرسطو مرارًا وتكرارًا إنه لا أحد يضيع وقته في التعامل مع ما هو ثابت بالضرورة أو ما هو مستحيل. ولكن تصوير المشروط باعتباره مشهدا للبلاغة فكرة أكبر من ذلك، أي أكبر من موضوع العقل المتعامل ومحتواه. فهي في رأيي تشير إلى تصور مسبق ما حول الحالة الإنسانية عامة والحياة السياسية بشكل خاص، يدعم هذا التصور البلاغة ويشجع عليها، واحد من التحديات التي تواجه البلاغة الآن هو فض نظرية الشرط هذه.

من بين طرق مواجهة هذا التحدي متابعة مسيرة فكرة الشرط في النظرية البلاغية من أرسطو إلى الآن. هذه مهمة صعبة لأن الشرط افتراض مبدئي مستتر، وليس مسألة نظرية واضحة، ويمكن التغلب على تلك الصعوبة بالالتفات لتتبع فكرة "التفكير الاحتمالي" بعد أن أطلقها أرسطو. قدم دوجلاس لين باتي هذا الجهد بشكل مختصر، ولكنه عميق، في الفصلين الأول والثاني من كتابه "الاحتمال والشكل الأدبي" (١٩٨٤) حيث كان مشتركا في جدلية بحثية مع ما يعرف بفرضية فوكو وهاكنج الذي يعتبر أن نظرية الاحتمالات ظهرت في الحضارة الغربية بشكل مفاجئ عام ١٦٦٠، فالاحتمال عند هاكنج له عنصران، فهو متصل بدرجة اليقين التي تسمح الأدلة بها، ويرتبط من

ناحية أخرى بالنزوع لإنتاج معدلات تواتر ثابتة نسبيا. لم يكن أي من هذين العنصرين مفهوما وواضحا عند أي جماعة من العلماء والباحثين قبل باسكال.

يشير هاكنج إلى العنصرين على أنهما عناصر معرفية وعشوائية، ليس هناك جدل كبير بشأن الجانب العشوائي من المسألة إلا أن باتي يعترض على ادعاء هاكنج أن العنصر المعرفي (درجة اليقين المبنية على الدليل) كان غائبا قبل ١٦٦٠، يقوم ادعاء هاكنج على أن الاحتمال حتى عصر النهضة كان يعني الرأي الذي يدعمه اقتباس من مصدر، حيث لم تكن هناك فكرة الدليل الملتبس، يشكك باتي في تلك الفرضية بالقول إن هناك طريقين لقراءة تاريخ الاحتمال من أيام أرسطو حتى لوك. الطريقة الأولى التي تقوم على قراءة انتقائية لأرسطو والمنتشرة في القرون الوسطى تنظر للاحتمال على أنه الرأي المدعوم باقتباس من مصدر ثقة، يقول أرسطو في "التحليل" إن الاحتمال مقولة مقبولة عادة، ويضيف في "الموضوعات" إن "الآراء المقبولة هي التي يقبلها الكل أو يقبلها الأغلب أو يقبلها معظم الثقات من بين الناس (باتي ص٤)، الدليل في تلك المعادلة بين الرأي والاحتمال خارج المعادلة، فهو ليس ما يسميه هاكنج بالدليل المستنبط أو دليل الأشياء في المعنى المعاصر. أما القراءة الثانية والتي تقيم وزنها على المتشككين خاصة كارنيديس (٢١٤ - ١٢٩ قبل الميلاد) وشيشرون (١٠٦ - ٤٣) فما تزال تربط بين الاحتمال والرأي ولكنها تقيم الاحتمال بناء على معايير خارجية وداخلية. يرى باتي أن اختبارات كارنيدس الثلاثة لتقييم الانطباعات التي يتركها العالم الخارجي على العقل (أنها يجب أن تكون (١) ذات ثقة و(٢) متسقة و(٣) ثبتت بالخبرة) هي معايير الاحتمال وتمثل عقيدة لصياغة نظرية الدليل (باتي ١٩٨٤ ص١٥). ابتكر كرنيدس أيضا طريقة عملية للتحقق من الاحتمالات، والتي حظيت بوصف كامل شامل في نظرية شيشرون وممارساته البلاغية. علاوة على ذلك فتراث الاحتمالات المستخدم في نظام

الموضوعات خاصة في مراجعات شيشرون على أرسطو يقوم على استعمال الأصل الداخلي والخارجي للدليل، حيث يكون الأصل الداخلي هو قاعدة الحجاج القائمة ليس على شهادة مصدر ثقة بل على الشيء نفسه كما يقول ريتشارد شيري (١٥٥٠) (باتي ص٢١٩، يستخدم باتي عددا كبيرًا من الإشارات النصية والتاريخية التي تشهد على وجود فكرة الدليل الملتبس قبل ١٦٦٠، تشمل هذه الإشارات فكرة شيشرون عن عن التشابه مرورًا ببنية الاتساق الأدبي في عصر النهضة وصولا إلى ادعاء لوك أن "المعرفة الحتمية والمعرفة الاحتمالية يصدران عن نفس النوع من العمليات العقلية وهما لذلك متواصلتان معرفيًا".

هو وصف يأتي لنوعين من القراءة لفكرة الاحتمالات من أرسطو حتى جون لوك وهو مسألة مهمة في حد ذاتها، كما تشير للمشروط والممكن في تلك الفترة. فالمشروط في القراءتين مُصاحب للرأي؛ فالرأي في القراءة الأولى التي تقوم على الفصل الأرسطي بين المعرفة المشيرة والرأي المحتمل ليست له مكانة عالية لأنه مشروط؛ أي إنه صحيح أحيانا، فاسد أحيانا أخرى. والرأي كذلك مرتبط بأشياء خاصة وفانية ومتغيرة ومشروط بها ولذلك لا يقوم عليه علم. في الخيال المسيحي خروج الإنسان من الجنة يقلل مكانته ليصبح منتجا للرأي، يقول الأكويني: "لم يكن لآدم في الجنة رأي تقريبًا وقد غيَّر السقوط عقله؛ بحيث أصبح ما كان يمكنه أن يعرفه سلفًا معرفة اليقين مسألة رأي بعد السقوط" (باتي ص١٢). ولكن الأكويني الذي كان براجماتيا في تفكيره، وجد في البلاغة سندا في هذا الموقف، فتجده يقول: "في الشؤون الإنسانية لا يمكن أن نجد دليلا قطعيا وغير قابل للإفساد، ولكن نفس هذا الدليل يستطيع أن يكون ذا حيثية احتمالية ما، كتلك التي يستخدمها الخطيب في الإقناع" (باتي ص٩ - ١٠). نستطيع أن نجد نفس هذا التراوح عند

المفكرين العلمانيين الذين يحطون من شأن الرأي باعتباره مشروطا ويعلون من شأن البلاغة على أنها طريقة للتعاطي مع هذا الرأي المشروط.

يصبح هذا التراوح أكثر إنتاجا وتعمقا في القراءة الثانية والتي يسميها باتي بالتاريخ البديل للاحتمال، فلم نعد نرضى بالقليل ممَّا يعرفه البشر معرفة حقيقية بحسب فكرة الدليل المطلق وغير القابل للفساد، بل نأخذ تلك المعرفة كما أخذها الإنسانيون في عصر النهضة كما هي على أنها سمة إنسانية لا يمكن تجنبها تحتاج إلى تعامل ذكي وعملي. أصبح السؤال الآن عن تقييم هذه المعايير غير القابلة للخطأ، والتي لا يمكن تطبيقها في الشؤون العملية. وأصبح الرأي الذي كرهه الناس سلفا لأنه مشروط مشهدا واقعيا لا يمكن تجنبه ومادة الفكر والحكم والفعل الإنساني. وبدأت الرسائل تكتب عن كيفية اكتساب المرء للرأي والتأكد منه وتوصيله كما كُتبت دراسات عن درجات التيقن وأنماط الاتفاق معه. ينبع هذا التوجه الذي لا يمكن وصفه إلا بالبلاغي من الاعتراف بشرطية الرأي والسياسة والأخلاق والتاريخ. هذا تصور كبير للشرط يدعم البلاغة ويحفزها فما دام يشعر الإنسان أنه يواجه هذا الشرط فلا يمكنه أن يرضى بصياغة تراث التفكير الاحتمالي على الرغم من أهميته. وبحسب وصف باتي فإن مسار الاحتمال قبل عام ١٦٦٠ ظل ثابتا على الرغم من تنوع توجهاته. وقد تطور واحد من تلك الطرق بين القرن الرابع عشر ومنتصف القرن السابع عشر ليصبح نظاما مؤثرًا وفاعلاً تحت اسم طريقة الحالة، وهي شكل من التفكير الأخلاقي الذي يقوم على دراسة حالة بحالة (انظر: **Casuistry**). من بين اللحظات الفارقة في تاريخ تطور نظرية الاحتمالات في شكلها الحديث كان هجوم باسكال على نظرية الحالة تلك (١٦٥٦ – ١٦٥٧) أو إساءة استخدامها. كانت هناك عملية إحياء في السنوات الأخيرة لنظرية الحالة وخاصة بين المهتمين بالمسائل الأخلاقية في ممارسة

القانون والطب والسياسات العامة، ومن المدهش أيضا أن جونسون وتولمين في كتابهما الملغز "الإساءة لنظرية الحالة" (١٩٨٨) يرجعان جذور النظرية إلى أفكار أرسطو وممارسات شيشرون الخطابية، وبذلك يربطان تلك النظرية بالبلاغة (انظر: **Phronēsis**).

وينبهنا تتبع تاريخ الفكر الاحتمالي إلى الخيوط المتشابكة في فكرة الشرط المعقدة ولكنه لا يكشفها تماما. تربط تلك الخيوط الشرط بشبكة كبيرة من المفاهيم الضرورية، سأحدد هنا باختصار اثنين من تلك الخيوط الأساسية التي تتعامل بشكل مختلف مع عناصر الوجود تلك التي تراوغ السيطرة الإنسانية، ويرى كل خيط منهما الشرط باعتباره عدوًا بحسب تعبير جون كيكس (١٩٩٥).

في الخيط الأول الشرط خارجي أي إنه شيء ينبع من الصدفة أو القدر أو الحظ، لا يخضع لفهم الإنسان أو لسيطرته. الحدث المشروط بحسب هذا المعنى ليس له سبب محدد، فهو أثر لمسبب عرضي أو صدفوي كما يقول أرسطو. خذ المثل المشهور الذي يتكلم عن لقاء الأصدقاء القدامى في مسرح مثلا بعد فراق طويل، يشتبك هنا خطا أحداث منفصلان لينتجا نتيجة خاصة لا يمكن وصفها بالعلاقة العلية أو الغرضية التي تسببت في الأحداث. يصف ويليام جيمس العالم الذي تملؤه تلك الأحداث بالعالم المتشرذم الذي يقف في مقابلة عالم مصمت كله، مقصود وعلِّي. الشرطية في هذا المعنى تتحكم في الخيال البلاغي بشكل كبير، فهي تلقي بظلالها على القدرة الإنسانية على التشاور وعلى الفعل بناء على الفكر الاحتمالي، هي مقابلة مع العبث بالنسبة لبعض الناس كما هو الحال في قصة "الحائط" لسارتر (١٩٥٦) حيث يكشف شخص ثوري محكوم عليه للشرطة بطريق الصدفة مكان رفيقه ليحصل بذلك على تأجيل مؤقت لتنفيذ الحكم. أحيا برنارد ويليامز في مقال كلاسيكي (١٩٨١) هذا الموضوع باسم "الحظ الأخلاقي".

يقدم الخيط الثاني منظورًا أنثروبولوجيا داخليا للشرط باعتباره متجذرًا في الطبيعة الإنسانية والحياة الاجتماعية. يرتبط الشرط هنا أولا بمفاهيم مثل "الخطأ" الإنساني و"النقص" الإنساني والتي تشير إلى قصورنا المعرفي والأخلاقي. وهو أيضا مرتبط بظاهرة الصراع الاجتماعي والتنافس والتعدد الأخلاقي، الحاجة إلى البلاغة وإمكاناتها في هذا التصور تنبع من الربط الشرطي للطبيعة الإنسانية بالحياة الاجتماعية. هذان الخيطان متشابكان بشكل كبير ولا يمكن الفصل بينهما إلا بعد التحليل الدقيق، انشغل العديد من الباحثين العارفين بالنصوص الكلاسيكية والتراث الكلاسيكي والمحبين لهما بخيطي الشرط هذين، كتابات بوكوكو (١٩٧٥) وناسبوم (١٩٨٦) وشتروور (١٩٧٠) وجارفر (١٩٨٧ و١٩٩٤) مفيدة بشكل استثنائي في فض لغز الارتباط بين البلاغة والشرط، للأسف ليس من الممكن أن نقوم بفك اللغز هنا ولكن يجب أن نذكر أن هؤلاء الباحثين الأربعة يتعاملون مع نفس المجموعة من النصوص والموضوعات والأنساق الفكرية، فهم ينزعون إلى رسم خط فكري عن الفكر العملي يمتد من أرسطو إلى شيشرون وإنسانيي عصر النهضة وصولا لميكيافيلي (انظر: **Prudence**). ويهتمون جميعا بنصوص تتمحور حول فعل الصدفة والقدر والحظ في الشأن الإنساني خاصة في المجال السياسي والأخلاقي، وهم أيضا مهتمون بالبلاغة وإن كان هذا الاهتمام مخفي أحيانا وأحيانا أخرى ملتبس لأنه طريقة غير كاملة للتحكم في الشرط.

نظرية الشرط في النظرية البلاغية المعاصرة

سأحاول هنا أن أتابع خط عمل فكرة الشرط في النظرية البلاغية المعاصرة التي تتمسك بفكرة أرسطو عن المشروط، هذا ليس غريبًا لأن أرسطو يتحكم في الدراسات البلاغية في القرن العشرين خاصة داخل دراسات الخطابة ودراسات التواصل (انظر: **Communication; Speech**).

يمكننا أن نفهم من خلال قراءة متأنية لعدد من المقالات التعريفية بالمجال منذ أصبح المجال مستقلا في الولايات المتحدة منذ سنة ١٩١٤ صياغة أرسطو بخصوص الوظائف الشرطية والاحتمالية باعتبارها فرضية أساسية مفروغ منها. وهي صياغة مفترضة دائما إن لم تكن منصوصة إلا فيما ندر. تظهر كلمة الشرط في كتاب مختارات النظرية البلاغية المعاصرة مرات قليلة وفي إشارات عابرة بطول الكتاب الذي بلغ ٣٤ مقالا. وعلى الرغم من ذلك يشكل المصطلح فكرة مهمة في مقال المحررين الافتتاحي حيث يصفون البلاغة فيما بعد التراث الكلاسيكي ويسردون اهتمامها بالإقناع العام والسمات السياقية للخطاب الإنساني في مواقف تحكمها إشكاليات الشرط. تحدث المواقف المشروطة عندما يجب أن يكون هناك قرار يُتخذ ويُعمل به، بينما يجب على من يتخذ القرار أن يعتمد على الاحتمالات بدلا من المعرفة الضرورية (لوكاديتيس وكوديت وكوديل ١٩٩٩ ص٢).

هناك استثناءات خصوصًا بين الباحثين الذي يرون في كتاب "البلاغة" لأرسطو نموذجًا لتطوير نظرية بلاغية معاصرة. يعتبر برايان وبيتزار وفاريل من الأرسطيين الكبار الذين تتعاظم في أعمالهم نظرية الشرط بطرق مختلفة. تمثل أعمالهم التي استمرت معا نصف قرن خطا فكريا مميزا ومستقلا، ونستطيع، علاوة على ذلك، أن نرسم تاريخ تطور فكرة الشرط بداية من برايان لبيتزار لفاريل ونرى أن هذا الرسم يمثل انفصالا تاما عن التوجه الوظيفي والتركيبي للبلاغة.

يكرر الكتاب الثلاثة صياغة أرسطو الأصلية بالإشارة إلى المشروط باعتباره منفصلا عن الضروري والمستحيل، وعلى أنه مناط الشؤون الإنسانية حيث يتدبر المرء بدائل مختلفة ويتخذ بشأنها قرارات في مجال الاعتقاد والفعل بناء على الرأي الخبير والتفكير الاحتمالي. يصل برايان (١٩٥٣) بعد تكرار فكرة أرسطو تلك إلى أن "البلاغة باختصار تبرر

الخطاب ومناطها دائما هو المشروط وهدفها هو الوصول إلى أقصى الاحتمالات كأساس للقرار العام" (ص٤٠٨).

يمكننا أن نجد نصوصا مشابهة عند الباحثين الآخرين. والهدف من هذا التكرار ليس إعادة تقديم بلاغة أرسطو بل تحديثها، يحاولون أن يبينوا أن نظرية الشرط لا تقف وحدها بل هي أساس مفاهيم كثيرة وأطروحات مبنية عليها، فالبلاغة أولا وسيلة للبحث في مجال المشروط والتعبير عنه. البحث والتعبير هما وجهان لممارسة التحكم بالمشروط. والبحث في المشروط ثانيا يوصل إلى آراء ذات درجات مختلفة من المصداقية والفائدة. ولكنها ليست معرفة مطلقة. وعلى ذلك فالرأي هو المادة التي يجب على البلاغة أن تتعامل معها في العالم المشروط، ثالثًا التشاور هو الطريقة المناسبة للتعامل مع الرأي بما في ذلك الجدل والحوار. ويعتمد التشاور على تفكير احتمالي بشكل أساسي لاتخاذ رأي وتكوين قناعة. التشاور البلاغي واتخاذ القرار يعتمد على المتلقي، فهو يسعى لأن يقنع المتلقي أو يضمن التزامه بطرق ليست مطلقة كما هو الحال في الفلسفة أو خيالية كما هو الحال في الشعر ولكن بشكل مادي تاريخيا وثابت. خامسًا العلاقة التشاورية مع المتلقي قائمة بشكل مؤقت؛ فعالم الشؤون الإنسانية المشروط محكوم في كل مراحله بمرور الوقت بغير رجعة بغض النظر عن انشغال المرء بالتشاور مع متلق ما. وإن اشترك المرء في خطاب تشاوري مع متلق ما فلا يهم إن كان هذا الخطاب أسفر عن إقناع. وإن كان أسفر عن إقناع فليس من المهم إن أدى هذا النجاح إلى النتيجة المرجوة أو لا. فالتشاور والنتيجة والقناعة والفعل كلها رهائن في يد الزمن.

هذه المقولات الخمسة ليست مقصورة على البلاغة فقط، بل تشترك في بعضها مع الجدل (انظر: **Dialectic**). يقول ناتانسون: "بالنسبة لأرسطو

البلاغة والجدل مهتمان بعالم الاحتمالات، وكلاهما يبدأ من العالم الواقعي المعقول والمشروط" (١٩٥٥ ص١٣٣). ولكنهما يسلكان طرقا مختلفة، نستطيع أن نرى الاختلافات الواضحة بين البلاغة والجدل بدون الدخول في التفاصيل الفنية بشأن كيفية وصول كل منهما لمقدماته والتثبت منها وكيف ينتقل كل منهما خطابيا من المقدمات للنتيجة وبأي درجة من الاحتمال، فالبلاغة منغمسة في الرأي والمتلقي والزمن بشكل لا فكاك منه، الرأي ليس ملزما في الجدل السقراطي فقد يبدأ الشخص برأي ليطهره من الخطأ، والميل كي يرفعه من مكانته للرأي النقدي على الأقل إن لم يكن لمرتبة الحقيقة. كما أن المتلقي ليس سيد الموقف في الجدل، لأن التكوين الاجتماعي للمتجادلين يمكن تحييده، ويمكن التكلم مع المتلقي باعتباره خاضعًا للعقل فقط دون غيره من المؤثرات. الوقت أيضا ليس جوهريا، ففي مواجهة الموضوع محل الجدل يستطيع المتجادلون أن يؤجلوا تثبيت قناعاتهم كما يستطيع المتحاور أن يبدأ من جديد إفساد حجاجه أو شخصيته بدون خطر (انظر: **Aporia**). لذلك فتعامل الجدل مع المشروط هادئ وتأملي. أما بالنسبة للبلاغة فالرأي ملزم والمتلقي سيد والوقت جوهري والقناعة حتمية، وهذا يجعل تحكم البلاغة في المشروط ملتبسًا وضعيفًا، هناك متغيرات كثيرة من شأنها أن تولد مجتمعة مشروطات أكثر، ولا تستطيع البلاغة أن تلاحق سلسلة المشروطات المعجزة.

هذه هي النتيجة الظاهرية على الأقل لاعتماد منظور وظيفي للبلاغة في تعاملها مع عالم المشروطات، فمن الممكن إذن أن نغري أنفسنا باستخدام البلاغة التأسيسية في الجدل كما يطالب ويفر (١٩٥٣) وناتانسون (١٩٥٥)، ولكن بيتزار وفاريل لا يقبلان هذا الرأي الأفلاطوني الذي يقضي بتنحية البلاغة لمكانة مساعدة، بل يريدان أن يصيغا تصورات تأسيسية للبلاغة تتعامل مع الشرط بشكل مختلف.

يحدث تغير مصطلحي عميق ولكنه ملحوظ فيما بين برايانت وبيتزار؛ فبينما ما زال الباحثون ينظرون للبلاغة باعتبارها طريقة إلا أن هناك تركيزًا أكبر على "الاستقصاء". يقول بيتزار "تنظر للبلاغة باعتبارها طريقة استقصاء وتواصل، تهدف إلى الوصول لقناعة في المجالات العملية ومجالات الشؤون الإنسانية بشكل خاص، قناعة لنا نحن، وقناعة للمتلقي الذي نتوجه إليه، فمن الواضح أننا نريد اليقين والإقناع على أساس التشاور الهادف الذي يعتمد على القدر المتوفر من الحقيقة ويتطور بشكل منظم من خلال طرق التشاور المعروفة. ويتم تقييم التشاور وتوصيله بشكل يناسب الموضوع والمتلقي والهدف، لذلك فالبلاغة تصر على التبرير العقلاني" (١٩٨١ ص٢٢٨).

يصبح الرأي بحسب وجهة نظر بيتزار موقفًا مبنيًا على معرفة من خلال عملية تشاور نقدية وتبرير عقلاني. فكلمة القناعة تحل هنا محل كلمة القرار، مما يوحي بالتفكر، وليس بالمعايير الفنية. والمتلقي هنا أيضا قابل للإقناع العقلاني وقادر على الوصول لقناعة، وبما أن الوقت هنا تحت تصنيف العوامل الخارجية فقد أصبح عبارة عن معوق أو فرصة من ضمن عدد منها، تستنبط العوامل الخارجية تلك أفكارًا فنية وتقعيدية عمًّا هو مناسب ومستقيم. وبذلك ينتج عن العملية سلسلة من القواعد والاستراتيجيات من شأنها أن تثبت الرد البلاغي لأي شخص تجاه أي مجموعة مشروطات، وما تتكون منه من رأي ومتلق ووقت (انظر: **Politics, Constitutive rhetoric**). وجهة نظر بيتزار في البلاغة التأسيسية متراوحة، فهو لا يرى الرأي والمتلقي والوقت باعتبارها فاعلة، ولا يراها كذلك حوارية، فهو يعول أكثر على العناصر النقدية العقلانية لعملية التشاور؛ من تعويل على التعامل مع المتلقي في إطار تأسيسي، إلى التركيز على التقعيدية والتنظيم في المعاملات البلاغية بين أطراف مستقلة.

الانتقال إلى منظور تأسيسي كامل عند فاريل، ينظر فاريل للبلاغة في مقاله "المعرفة والإجماع والنظرية البلاغية" باعتبارها فنا عمليا يستخدم معرفة المتلقي العادية لتقوده إلى قناعة برأي ما في شأن ما من الشؤون العامة (١٩٧٦ ص١). كلمة السر هنا هي المعرفة التي تتناسب مع الممارسة البلاغية، ويسميها فاريل "المعرفة الاجتماعية" وهي التي تحل محل الرأي عند برايانت والرأي الخابر عند بيتزار (**Social knowledge**). لا تتمحور المعرفة الاجتماعية حول المشارك في الجدل فهي بحاجة لاشتراك الآخرين لكي تتشكل، فهي كما يقول فاريل "نوع من المعرفة يجب افتراضها، إنْ كان للخطاب البلاغي أن يقوم بعمله بشكل مناسب. ويفترض أن تكون موجودة عند العالمين باعتبارهم المتلقي وهي تتحقق من خلال قرارات المتلقي وأفعاله" (ص٤). كما يضيف فاريل بعدا ابتكاريا للمعرفة الاجتماعية عندما يدعي أن "المعرفة الاجتماعية تقوم على نوع خاص من الإجماع يمكن عزوه للمتلقي وليس على معرفة مشتركة" (ص٦)، على ذلك ففاريل يعيد تحديد موقع المتلقي؛ ليصبح منتجا مشاركا في العملية البلاغية من طرفيها وهما الابتكار والحكم (انظر: **Invention: Judgment**).

إذا وضعنا في اعتبارنا فكرة فاريل عن المعرفة الاجتماعية باعتبارها معرفة اجتماعية قائمة على المتلقي، وتوليدية في طبيعتها، فمن الممكن أن نفكر أنها قادرة على التخفيف من التشوش والقلقلة المرتبطة بمشروطية الرأي على عكس الحال عند بيتزار. وتتضح هذه القدرة من خلال التركيز على طبيعة البلاغة ومادتها من المعرفة الاجتماعية التي تحكمها القواعد، تفترض البلاغة كسلوك اجتماعي تنسيقي وجود هياكل تنظيمية فعندما نقول مثلا إن السياسيين لا يمكن الثقة بهم، أو نقول مثلا إن الناس لا يمكن أن تتصرف بشكل يضر بتصورها لمصلحتها، فإن كل مقولة من المقولتين السابقتين تشير إلى هيكل تنظيمي يتمثل في الارتباط بطريقة تفكير البشر

وسلوكهم في عالمهم الاجتماعي، هذه المعرفة الاجتماعية التقعيدية تفترض بدورها أن الأشخاص سيتعاملون مع المشكلات بشكل منظم وبنفس الطريقة (ص٥)، على ذلك فالمعرفة الاجتماعية بالنسبة لفاريل معرفة احتمالية تثبت من خلال السلوك المتكرر (ص٩).

يستخدم فاريل في مقاله كلمة المشروط مرة واحدة ليصف نوعا من المعرفة المشتركة "تتكون من إشارات واحتمالات ومُثُل"، وهي المعرفة التي تكون مادة البلاغة، ولكن الشرط موضوع محوري في كتابه "أنماط الثقافة البلاغية" (١٩٩٣) حيث يدعو لفهم أوسع للشرط ليصبح أكبر من مجرد حدث أو سمة من سمات أي مقولة، فالمشروط هنا يشير لمواقف تحفها الصراعات الاجتماعية والخيارات الأخلاقية وليس لها تنويعات بديلة. ويجب على البلاغي أن يواجه هذا الموقف في خضم من الظروف المنتهية والمعرفة الناقصة والسلوك الإنساني القابل للخطأ. وعليه أن يصل لقناعته بالحضور التعاوني للمتلقي، تلك القناعة نفسها وما يترتب عليها من فعل بكل شرطيته وابتكاره هي التي تستكشف السمة العامة للبلاغي والمتلقي وتشكلها. يكوِّن الموقف المشروط بلاغة تأسيسية بين البلاغي والمتلقي؛ أي إن الجماعة إن توفرت لها الظروف المناسبة فسينتج عنها قوة فاعلة أخلاقية جمعية وتضامنا بعد ذلك.

يبين فحص مسار البلاغة من برايانت مرورًا ببيتزار وصولا إلى فاريل أنه على الرغم من التحول الملحوظ من البلاغة الوظيفية إلى البلاغة التأسيسية، فإن المشروط يبقى هو المشهد الذي لا يتغير في البلاغة. عند الكتاب الثلاثة كما كان عند أرسطو قبلهم يعادل التوقع الكامل للرأي والسلوك الاجتماعي التراوح النظري لكل ما هو مشروط، كذلك يرى الكتاب البلاغة وسيلة خطابية للتعامل مع المشروط.

النظرية الشرطية مستترة غالبا عند الباحثين في مجال دراسات التواصل الذين يقاومون السيطرة الأرسطية (ليس هناك شخص بعيد عن تأثيره) من خلال استلهام منظرين آخرين كلاسيكيين ومعاصرين كالسوفسطائيين (بولاكوس ١٩٨٣) وأفلاطون (ناتانسون ١٩٥٥) وشيشرون (ليف ١٩٨٧) وكينيث بيرك (كامبيل ١٩٧٠) وتسفيفين تولمان (سكوت ١٩٦٧). ولكن من الممكن أن نجد آثار فكرة المشروط تلك في كتاباتهم عندما يحاولون أن يصفوا خصوصية البلاغة. يفترض ليف (١٩٨٧) مثلا أن المشروط هو الأفق الفاعل عندما يصف البلاغة بأنها ممارسة محلية تجد ثباتها ووضوحها في التزامها بمعايير الملاءمة (*decorum*) و(**Kairos**). هذا الافتراض قائم وفاعل أيضا في الكتابات الموجودة عن البلاغة باعتبارها مجالا معرفيا، فالمقال المؤسس الذي كتبه سكوت عن هذا الموضوع يبدأ بتقديم مختصر للشرط بأن يقول إن الحقيقة في الشؤون الإنسانية ليست مسبقة أو ناطقة بل هي مشروطة (١٩٦٧ ص١٣)، ولكن في تلك الإشارات الخافتة للمشروط كمشهد البلاغة لا نرى الشرط مرتبطاً بالاحتمال بشكل كبير، قد يتسبب هذا الفصل في وجود إمكانات جديدة في فهمنا للبلاغة.

البلاغيون الجدد The New Rhetoricians

نشأت النظرية البلاغية المعاصرة خارج إطار مجال دراسات التواصل، فقد كانت مجموعة من الباحثين الذين نسميهم عادة بالبلاغيين الجدد هي المسؤولة عن إبقاء البلاغة حية في الأفق الثقافي للعقود الثلاثة التالية على الحرب العالمية الثانية، وهم بيرك (١٨٩٧ - ١٩٩٣) وماكين (١٩٠٠ - ١٩٨٥) وبيريلمان (١٩١٢ - ١٩٨٤) وريتشاردز (١٨٩٣ - ١٩٧٩) وويفر (١٩١٠ - ١٩٥٣)، كان الالتزام بإعادة تركيز العالم المعاصر على البلاغة في عالم يحكمه العلم والطرق العلمية هو ما جمع بين

هؤلاء الباحثين. وكانوا مصرين على تحدي الفصل الحداثي بين الحقيقة والقيمة الذي كان من شأنه في رأيهم أن يقلل من القدرة العامة على استخدام العقل في القانون والأخلاق والسياسة، وفي البلاغة لم يجدوا بديلا عن العقل بل وجدوا نسخة كبرى منه تستطيع أن تواجه أسئلة الحياة العامة وتتعامل معها. لم يشترك البلاغيون الجدد في أفكار أخرى أو مبادئ مشتركة أو تصورات جامعة باستثناء الفكرة العامة السابقة. فلم يكن بينهم ما يجعلهم حركة فكرية واحدة، ولكنهم كانوا مؤثرين جدًا فرادى وتحكمت أفكارهم في النظرية البلاغية في الدراسات التواصلية لفترة طويلة. وما زال بيرك مؤثرًا حتى يومنا هذا. كما أصدر البلاغيون الجدد أكثر نصين تأثيرًا في النظرية البلاغية المعاصرة "البلاغة الجديدة: نظرية في الحجاج" (١٩٦٩) لبيريلمان وأولبريخت تيتكا وكتاب "بلاغة الموتيفات" (١٩٦٢) لكينيث بيرك.

بينما لم يتكلم أيٌّ من البلاغيين الجدد عن الشرط بشكل واضح إلا أننا نستطيع أن نرى أن الفكرة تعمل كخلفية مفترضة سلفًا في تفكيرهم جميعًا. ينطبق هذا الكلام على الكتابين السالفين أيضا؛ فالتقسيم المبدئي عند بيريلمان بين العرض والحجاج قائم على فصل آخر بين الضروري والمشروط، كما هو ثابت من تكرار صياغة أرسطو: "طبيعة التشاور والحجاج تختلف عن الضرورة والثابت بنفسه؛ لأن لا أحد يتفكر فيما هو محلول بالضرورة أو يحاجج فيما هو ثابت بالضرورة، ومجال الحجاج هو الممكن والمحتمل بما أنه يبتعد عن حتمية الحسابات العقلية" (بيريلمان ١٩٦٩ ص١).

ويدعي بيريلمان في عمل لاحق أن "مجال الفعل هو مجال الشرط" حيث يكون الجدل والبلاغة "أساسيين لتقديم بعض العقلانية في الإرادة الفردية والجماعية" (١٩٨٢ ص١٥٥).

قد لا يضع بيرك البلاغة بشكل واضح في إطار المشروط، ولكن العارف باستعارات بيرك سيرى العلاقة بين استعارة العائلة وفكرة المشروط: "يجب أن تقودنا البلاغة في فوضى السوق وضوضائه، وتفاعل الحوش المزروعة الإنسانية والأخذ والعطاء والضغط والضغط المضاد ووصمات الملكية وحرب الأعصاب" (١٩٦٢ ص٢٣). كما تصف مقولة بيرك بخصوص الهوية البلاغية بأنها حركة مؤسسة، ولكنها مشروطة بين النزاع والتعاون من شأنها الحفاظ على المجتمع، وهذه المقولة هي أنه إن لم يكن الإنسان كلا واحدا ومنقسما في الوقت نفسه فلن تكون البلاغة ممكنة أو ذات حاجة لإثبات وحدته (انظر: **Identification**).

الشرط في خطاب ما بعد التأسيسي

أريد ختاما أن أبحث في الحمل الهرمنيوطيقي الذي يحمله مصطلح المشروط في خطاب ما بعد التأسيس المعاصر. قصة انهيار التأسيس في الفلسفة وتبعاته في الإنسانيات معروفة فقد حاول الباحثون في مجالات كثيرة جاهدين توضيح كيف نشأت حركات فكرية مختلفة (بداية من ما بعد البنيوية مرورًا بالتفكيكية إلى ما بعد الحداثة والدراسات الثقافية – وهي كلها تتكون من صياغات نظرية متميزة وابتكارات مفهومية مختلفة وممارسات نقدية متباينة وأوضاع سياسية متمايزة) في الفراغ الذي خلفه هذا الانهيار. من بين المصطلحات التي برزت في هذه السياقات المعرفية المختلفة كان الشرط والأداء البلاغي والصياغة والسرد. هذه مصطلحات مهمة جدًا، ولها أصولها المعقدة، ومعانيها غير المتفق عليها، وتستخدم في سياقات متعددة في تواتر عال ونزق شديد لدرجة تجعل من المستحيل تثبيت محيط معانيها. يصح هذا الكلام بشكل خاص في الشرط الذي لا يتكلم عنه الذين يستخدمونه بحيث ننسى أصوله الأرسطية البلاغية. عنونت جوديث بتلر مقالها الافتتاحي لكتاب

حررته عن النظرية السياسية النسوية باسم "الأسس المشروطة" (١٩٩٢) هذا مثل واحد فقط على الاستخدام الملغز والمتناقض للمصطلح الذي يمكن اعتباره أساسيا في أي خطاب تأصيلي فيما بعد التأسيسية أو ما بعد الحداثة. بينما لا يعرف الباحثون في ما بعد التأسيسية الأصل البلاغي لمصطلح الشرط فإن المصطلح بدأ يدخل المجال المغناطيسي للبلاغة. لا يجب أن يكون هذا مستغربا لأن تجدد الاهتمام بالبلاغة الذي بدأ في الخمسينيات من القرن العشرين أصبح ممكنا فقط بسبب انهيار التأسيسية، فالبلاغة والشرط يتغذيان من تربة عقلية واحدة. وتلازم المصطلحين قد يكون مفيدا لهما معا، فالشرط يستطيع أن يصبح أكثر وضوحا بعد أن كان مصطلحا عائما بل ذا أصل ثابت في التراث البلاغي ويمكن أن تستفيد البلاغة بأن تتفكر أكثر في "ظروفها فيما يخص الإمكانيات" بجعل الشرط موضوعا واضحا ثابتا.

لكي نحلل ارتباط الشرط والبلاغة في نظرية ما بعد التأسيسية يجب أن نقرأ أعمال خمسة مؤلفين قراءة متأنية، وهم جوديث بتلار (١٩٩٠ و ٢٠٠٠) ستانلي فيش (١٩٨٩) وريتشارد رورتي (١٩٧٩ و ١٩٨٩) وجان فرانسوا ليوتار (١٩٨٥ و ١٩٨٨) وباربرا هيرنشتين سميث (١٩٨٨). هناك ثلاثة أسباب لهذا، الأول أن المفكرين الخمسة يشيرون لمصطلح الشرط في لحظة حرجة في كتاباتهم على الرغم من أنهم لم يفصّلوا في الحديث عنه. ثانيا أنهم على معرفة بالتراث البلاغي وعلى معرفة بالعلاقة بين البلاغة والشرط على الرغم من أنهم لا يطورون الحديث عنها في كتاباتهم. ثالثا أن أعمالهم المتعاطفة مع البلاغة معروفة في أوساط البلاغيين وأسهمت في تطوير تفكيرهم إيجابيا. ولذلك من المفيد جدا أن نتحدث عن تبعات أفكارهم حول الشرط. قد تحتوي تلك الكتابات على إمكانية قلقلة واحد من الافتراضات الثابتة في البلاغة التقليدية بخصوص المشروط والمحتمل. ولكن ليس من الممكن أن نفعل هذا هنا، ولذلك سأقلص مناقشتي لتشمل كاتبين هما رورتي وفيش.

بحلول السبعينيات من القرن العشرين كان الباحثون الأمريكيون في العلوم الإنسانية قد ألموا بالتيارات الرئيسية لفكر ما بعد التأسيس من خلال كتابات عدد من الكتاب الذين يمكن تسميتهم بكتاب ما بعد البنيوية، من بين رموزها كان فوكو ولوكاتش ودريدا، وكان ثلاثتهم قد بدأوا للتو مرحلتهم الأمريكية المؤثرة، والتي غيرت شكل البحث والتدريس في الإنسانيات ومادته في العقدين التاليين. ولكن نشر كتاب رورتي "الفلسفة ومرآة الطبيعة" (١٩٧٩) والجدل الذي ثار بعد ظهور الكتاب هما اللذان وضعا ما بعد التأسيسية في مكان ثابت في الأكاديمية الأمريكية. كان رورتي في مكان فريد يسهل له باعتباره محللا فلسفيا عبقريا أن يقوم بنقد داخلي للافتراضات التأسيسية الأساسية العاملة في المدرسة التحليلية المسيطرة. ولما كان كتاب رورتي ومقالاته التالية مكتوبة بأسلوب سهل جذاب بالمقارنة بأسلوب ما بعد البنيويين ولما كان رورتي أيضا متمكنا من الثقافة الفلسفية التحليلية وغيرها فقد كانت تلك الكتابات مؤثرة جدا في نشر أفكار ما بعد التأسيسية في مجال الدراسات الإنسانية.

يتعلق ادعاء أساسي من ادعاءات رورتي (وهو الادعاء المرتبط بالبلاغة بشكل مباشر) بالعلاقة بين اللغة والحقيقة والواقع. يرفض فكرة أن اللغة وسيلة شفافة لنقل الواقع أو لصياغة مقولات حقيقية بشأن عالم خارجي مستقل. يقول رورتي إنه من المستحيل أن نقول أي شيء عن العالم الخارجي إلا من خلال الكلمات والجمل التي نستخدمها لوصفه. ليست هناك اختبارات موضوعية خارج اللغة تمكننا من تقييم ادعاءاتنا واعتقاداتنا حول عالمنا، والحقيقة نسبية اعتمادا على الطرق التي تستخدم بها أي لغة مزروعة بطبيعة الحال في عوالمها الحياتية الخاصة. بذلك يؤكد رورتي على الطبيعة الموقوتة والمحلية والمشروطة لأنماط التفكير والسلوك والتي لا يمكن فهمها خارج

حبكة لغوية خاصة أو "شكل حياتي" خاص، يقول رورتي: "يمكن الحكم على الحقيقة والمعرفة من خلال معايير المتسائل فقط وفي يومنا فقط، فلا يمكن اعتبار أي شيء تبريرًا إلا إن كان متسقا مع ما هو مقبول لدينا، ولا يمكننا أن نخرج خارج نسق عقيدتنا ولغتنا لنجد اختبار صدق غير الاتساق" (١٩٧٩ ص١٧٨). ولما كان رورتي قد رفض كلا من الفكرة التأسيسية التي تقول إن العقل هو الجوهر وبديلتها التي تقول إن البنية اللغوية الموضوعية هي هدف البحث المعرفي؛ فقد اقترح أن يختبر نشاط إنتاج المعرفة بطريقة هيرمينيوطيقية كنمط من الممارسة الاجتماعية.

من السهل أن نعرف لماذا اجتذبت تصورات رورتي أدعياء البلاغة الذين أدركوا منذ أيام السوفسطائيين القدرة التأسيسية للغة والطبيعة الاجتماعية للمعرفة وركزوا عليهما (**Sophists**). المحادثة في الهرمنيوطيقا بحسب رأي رورتي مهمة لأن المتحادثين يروحون ويجيئون بشأن كيفية صياغة مقولات معينة أو أحداث معينة حتى يستريحوا لما كان مبهما أو غريبا سلفا فيصلوا لاتفاق (١٩٧٩ ص٣١٩) (انظر: **Hermeneutics**). فالناس تقبل حقيقة معينة ليس لأنها تتطابق مع سمة من سمات العالم الخارجي بل لأنها محل اتفاق من آخرين يشتركون معهم في نفس المفردات. يضع هذا التصور الإقناع والتواصل في بورة اهتمام ما أسماه رورتي "المحادثة الإنسانية" مستعيرًا كلمات ميكل أوكشوف.

طور رورتي أفكاره عن اللغة والهوية والمجتمع المرتبطة بفكرته عن الشرط في مجموعة مقالاته التي أسماها "الشرط والمفارقة والتضامن" (١٩٨٩)، من الكافي أن نلخص المقالة الأولى "الشرط اللغوي" كيف ينفصل تصور رورتي ما بعد التأسيسي عن الشرط التام عن أصله الأرسطي البلاغي، لهذه المقالة هدفان، الأولى هي هدم فكرة أن اللغة وسيط يرمي إلى

وصف العالم الخارجي بشكل كفء أو التعبير عن الذات في محيطها، وكان الهدف الثاني تقديم نظرية التغير الثقافي.

قلنا سلفًا إن اللغة في التصور البنيوي لا تصف العالم ولا تعبر عن الذات، بل إن الواقع والذات من منتجات اللغة، أو المفردات بمعنى أدق، وهناك عدد كبير من أنساق المفردات المتنافسة التي لا يمكن المعادلة بينها، أما السبب الذي يجعلنا أسرى لنسق مفردات واحد دون آخر أي النسق العقلاني وليس البراجماتي مثلا فهي مسألة شرط تاريخي فنحن ببساطة يتفق وجودنا في هذا النسق وليس في الآخر. نستطيع أحيانا أن نقدم تفسيرًا حسبما اتفق لكيفية التفاقنا بنسق مفردات ما ولكن ذلك لا يغير حقيقة أنها كلها مسألة مشروطة، ليس هناك سبب ضروري أو محدد لماذا يجب علينا أن نبقى في إطار هذا النسق إلا أننا نستطيع أن نفعل بعض الأنشطة بهذا النسق أو ذاك، فالعالم لا يحبذ نسقا على الآخر: "إن كان نسق مفردات نيوتن يسمح لنا بالتنبؤ بالعالم أفضل من نسق أرسطو فإن ذلك لا يعني أن العالم يتكلم لغة نيوتن" (١٩٨٩ ص٦).

ولكن هذا لا يعني أن رورتي يظن أن اختيار نسق المفردات عشوائي، فالاختيار ليس موضوعيا أو ذاتيا بل إنه ليس اختيارًا أصلا إنه شيء يتفق حدوثه: "لم تقرر أوروبا أن تقبل مصطلحات الشعر الرومانسي ولا السياسة الاشتراكية أو ميكانيكا جاليليو، لم يكن الانتقال فعلا إراديا كما لم يكن نتيجة حجاج، ولكن أوروبا فقدت عادة استخدام نسق مفردات معين واكتسبت بالتدريج عادة استخدام نسق آخر" (١٩٨٩ ص٦).

يقول رورتي إن "المهارة في التكلم بشكل مختلف، وليس الحجاج بشكل جيد، هي الوسيلة الأساسية للتغير الثقافي". وصفت ميري هيسي (١٩٨٠) الثورات العلمية بأنها "استعارات لإعادة الوصف" أخذ رورتي الفكرة ليقول إن

التغير الثقافي يحدث عندما نبدأ بشكل مختلف أو عندما نصف عالمنا بشكل مختلف، معنى "استعارة" هنا مهم جدا، فرورتي يتبنى تصور دونالد ديفيدسون بأنه ليس هناك فرق بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي.

يقول ديفيدسون إننا يجب ألا ننظر للمعنى المجازي على أنه يختلف عن معنى الشيء الحرفي، فأن يكون للشئ معنى مؤداه أن يكون له مكان في لعبة اللغة، وليس للاستعارات مكان في تلك اللعبة. ويرى أن استخدام استعارة ما في أي محادثة مثل قطع المحادثة لاستخراج صورة من الجيب مثلا وعرضها على المتحاورين أو الإشارة لسمة فيما يحيط بهم أو لصفع المتحاور على وجهه أو تقبيله. كل هذه الأمثلة طرق مختلفة يستخدمها المتحاور أو القارئ للتأثير، وليست طرق نقل للرسائل (١٩٨٩ ص١٧ - ١٨).

يشير التزام رورتي بتصورات ديفيدسون عن الاستعارة إلى ما يعنيه بالشرط؛ فهو شيء يستحيل تحديده أو التنبؤ به؛ لأنه عشوائي. إذا كان التغير الثقافي يحدث بسبب استعارة تهدف لإعادة الوصف وإذا ما كان لتلك الاستعارة معنى في اللعبة اللغوية الحالية فليس إذن هناك منطق إلا المنطق المشروط الذي يقدر على تفسير كيفية الانتقال من لعبة لغوية قديمة لأخرى جديدة، فهي حدث مشروط فقط.

ما دور البلاغة في هذا الحدوث إن كان لها دور؟ إذا كنا نتصور البلاغة الآن ممارسة خطابية تسهل عملية استعارة تهدف لإعادة الوصف فالبلاغة نفسها تصبح إنجازا مشروطا وليست فنا أو ممارسة للتحكم في الشرط. وعلى الرغم من أن رورتي يستخدم مصطلح الشرط كثيرًا فإنه لا يتكلم عنه إلا لمما. فهو مرتاح لاستخدام المشروط بالتقابل مع الضروري أو كمصطلح لتجميع كل شيء غير محدد أو غير دقيق وهو وصف حاول أرسطو تجنبه بربط الشرط بالاحتمال، كما أن رورتي لم يكن مهتما بمآل

البلاغة بدرجة تحتم عليه التفكير في عواقب رأيه في الشرط واللغة عليها في تغيير مسارها.

يجب أن نتحول لكتابات ستانلي فيش الناقد الأدبي المتميز والخبير القانوني الكبير لنفهم بشكل أوضح كيفية تأثير أفكار ما بعد التأسيسية على المشروع البلاغي، فيش على عكس الكثير من الباحثين ما بعد التأسيسيين عارف بالتراث البلاغي ويتبنى أفكار البلاغة دون تحفظ، "البلاغي" في مجموعة مقالاته "فعل ما يرد" (١٩٨٩) كلمة رئيسية والخلاصة التي يصل لها هذا الكتاب هي أننا نعيش في عالم بلاغي (ص٢٥)، يصف فيش نفسه بأنه "عدو للتأسيسية" وربما هذا سبب جزئي لارتباطه بالبلاغة، يقول فيش "البلاغة مرادف للعداء للتأسيسية بل يمكننا أن نقول بدون مبالغة إن العداء الحديث للتأسيسية في الحقيقة هو الصوفية القديمة بتحليل جديد" (ص٣٤٧).

يرى فيش الناس كما رآهم رورتي باعتبارهم مسيرين في مواقعهم خاضعين أبدا للتفسير، يقول فيش: "إن العداء للتأسيسية تعرفنا أن السؤال عن الحقيقة والواقع والصحة والإمكانية والوضوح لا يمكن أن يطرح أو يجاب في واقع أو قاعدة أو قانون أو قيمة غير مسبقة أو مؤخة أو مموقعة، بل إن العداء للتأسيسية يؤكد على أن كل تلك الأمور يمكن أن تفهم أو تناقش إلا داخل محددات السياق أو الموقف الذي أعطاها شكلها المتغير (ص٣٤٤). كل الممارسات مموقعة، ولا نستطيع أبدا الفرار من موقعنا هذا بغض النظر عما نفعل إنْ كنا نحلل نصا أدبيا أو ننتج حجة قانونية أو نصدر قناعة أخلاقية نبحث عن نظرية سياسية.

المثير عند فيش هو استنتاجاته التي يتوصل إليها من تموقعنا هذا بشأن العلاقة بين النظرية والممارسة خاصة في التأويل، أصدقاء العداء للتأسيسية وأعداؤه على حد سواء لا يفهمون بحسب فيش تبعاته. فهو يقول إن هذا

العداء ليس له تبعات ويخاف النقاد من أن غياب أي تأصيل محايد أو لغة ملائمة مستقلة نستطيع استخدامها لتقييم اعتقاداتنا وممارساتنا وتعديلها من شأنه أن يجعل العالم دون قواعد تحكمه حيث تتصرف الموضوعات العشوائية كما لو كان كل شيء ممكن، وحيث يصبح التفكير العقلاني والتواصل مستحيلا، هذا الاحتراز غير مبرر في رأي فيش فالذات المموقعة ليست حرة بشكل مطلق كما يخاف النقاد بل إنها مكبلة أشد التكبيل وكل شيء يصدر عنها "تابع من الإمكانيات التقليدية الأصيلة في السياق الذي توجد فيه"، فبدلا من التحرير العشوائي للموقف فإن العداء للتأسيسية في رأي فيش يبين أن الذات مربوطة بالمجتمع المحلي ومعاييره وقواعده التي تشكله وتوجه سلوكه العقلاني (ص٣٤٦).

المؤيدون للعداء للتأسيسية من جهتهم يأملون أنه بمجرد أن ندرك أننا متموقعون فإن هذا الإدراك من شأنه أن "يجعلنا أكثر وعيا بموقعنا وأن نملأه بشكل أكثر فعالية" (ص٣٤٧). يرفض فيش هذا الطرح لأن إدراك تموقعنا لن يجعلنا أكثر تموقعا، ولن يغير طريقة معرفتنا بهذا وسلوكنا بناء عليه (ص ٣٤٨)، علاوة على ذلك ففعل الإدراك نفسه متموقع ولذلك لا يمكن أن يكون موضوع اهتمام، يرى فيش أن محاولة تمجيد فعل الإدراك ما هي إلا عرض لحنيننا الفائق للتملص من تموقعنا، وهي محاولة مخفية لاسترجاع الفكر التأسيسي تحت عباءة التفكير الليبرالي. يرى فيش مثل رورتي أن الافتراضات الأساسية التي تشكل عقيدتنا وسلوكنا مشروطة، ولا يمكنا اعتبارها ضرورية بحسب أي نظرة عابرة للتاريخ، وهذا واحد من المفاهيم الأولية في ما بعد التأسيسية، ويصر فيش هنا على أن مشروطية اعتقاداتنا وسلوكنا لا يعيق تحكمها فينا. فمن الخطأ بحسب رأيه أن "تحول إدراك الشرط لطريقة لتجنب الشرط كأن المشروط المدرك مشروط تخطيناه، يمكنك

أن تعرف عموما أن بنية قناعاتك منتج تاريخي ولكن معرفتك تلك لا تنقلك لمكان ليس لهذه القناعات فيه قوتها القديمة فنحن مزروعون في التاريخ حتى لو عرفنا أننا مزروعون فيه" (٥٢٣ - ٥٢٤).

يبدو أن فيش مثل أرسطو قبله يروض فكرة الشرط بربطها بالتموقع وانزراعنا في التاريخ. فيصبح الشرط أفقا بعيدا غير مؤثر بالنسبة لمعتقدات معينة تستغرقنا وتحددنا (ص٥٢٣ - ٥٢٤)، هذا الفهم يجعل الشرط غير قابل للتعاطي البلاغي.

ولكن هناك احتراز هنا إذ لا يمكن تثبيت المشروط بانزراعنا في التاريخ لأن التاريخ بدوره مشروط وقابل للتعاطي البلاغي، يتضح هذا الاحتراز من شرح فيش للعلاقة بين النظرية والتطبيق فتجده يقول إن النظرية نظرية؛ أي أنها في حد ذاتها ليس لها تبعات، ولا تؤثر على الممارسة ولكن النظرية نفسها نوع من الممارسة. ولكن ما هي الممارسة؟ الممارسة نشاط منزرع وهي "فعل ما يرد بشكل طبيعي" للذات المتموقعة. على عكس بيير بورديو لا يقدم فيش وصفا تعميميا للممارسات اليومية فاهتمامه الأساسي هو الممارسات التفسيرية في القانون والأدب، ويصف نفسه في هذا السياق بأنه معاد للشكلية، وهو اتجاه يمكن تحسسه من خلال معاداته للتأسيسية، فالمعادي للتأسيسية يبدأ عادة برفض المعنى الحرفي كمعيق للتفسير. ويرى فيش أنه بمجرد أن تخطو الخطوة الأولى في رفض التأسيسية تجد نفسك في مواجهة البلاغة والشرط. ويرصد الخطوات الستة التالية: تغيير موقع معيقات التفسير بالنية وإدراك أن النية يجب أن تثبت بالتفسير، وتثبت من خلال الإقناع. ووصف الإقناع بأنه مسألة مشروطة وعقلانية بالنسبة للأسباب التي أصبحت أسبابًا من خلال آليات الإقناع، وتصور أن الشرط إن تم التعامل معه بشكل جاد يعيق ادعاءات النظرية

والتقليل من مكانة النظرية في مقابل الممارسة وأخيرًا ترقية الممارسة لمكانة العمومية التي لا يمكن القياس على ما هو أعلى منها على الرغم من أنها متغيرة بدورها (ص٢٥ - ٢٦).

وعلى ذلك فطريق معاداة التأسيسية يصل بك لنقطة تتقاطع فيها بلاغة الشرط (الخطوة الثانية) وشرط البلاغة (الخطوة الثالثة)، ففي الخطوة الثانية شرط التفسيرات البديلة معطل مؤقتا بفعل البلاغة كما هو الحال في التشاور عند أرسطو. وإنجاز البلاغة في الخطوة الثالثة مرتبط شرطيا بما هو موجود دائما من افتراضات ومفردات والتي هي في حد ذاتها منتجات عمليات إقناع سابقة، يقول فيش في سياق آخر بشأن الخطوة الخامسة إن "النظرية ظاهرة سياسية وبلاغية في الأساس وتأثيراتها دائما مشروطة". ولكن فيش يؤكد أن "هذه المنطوقات ليست من يأس أو سخرية" (ص٣٨٠)، فنحن "نفعل ما يرد لنا بشكل طبيعي"، بناء على ذلك بمجرد أن يصبح الشرط علامة على التدفق التاريخي يصبح اعتياديا في الفكر ما بعد التأسيسي.

شكر واجب

كانت لي مناقشات مفيدة جدا أثناء التحضير لكتابة هذا المقال مع أصدقاء وزملاء مثل سالي إيونج وجين جودوين وجيمس جاسنسكي وكريستوفر كامارات وبنجامين لي وميكل ليف وتوماس ماكارثي وميكل فاو، وأدين بالشكر بشكل خاص لجاسينسكي لتعليقاته المفصلة على النسخة التحضيرية لهذا المقال. (انظر: **Classical rhetoric; Philosophy, Perennial topics and terms; Rhetoric and philosophy**).

مصادر ومراجع

Aristotle. *Rhetoric*. Translated by W. Rhys Roberts, pp.pp. 1–218. In *The Rhetoric and the Poetics of Aristotle*. New York, 1954.

Aristotle on Rhetoric: A Theory of Civic Discourse. Translated with introduction, notes, and appendices by George A. Kennedy. New York, 1991.

Barthes, Roland. *Mythologies*. Selected and translated by Annette Lavers. New York, 1972. First published 1957.

Bitzer, Lloyd F. "Political Rhetoric." In *Handbook of Political Communication*. Edited by Dan Nimmo and Keith Sanders, pp.pp. 225–248. Beverly Hills, Calif., 1981.

Bitzer, Lloyd F. "Rhetoric and Public Knowledge." In *Rhetoric, Philosophy and Literature: An Exploration*. Edited by D. M. Burks, pp.pp. 67–93. West Lafayette, Ind., 1978.

Bryant, Donald C. "Rhetoric: Its Functions and Its Scope." *Quarterly Journal of Speech* 39 (1953), pp.pp 401 - 414.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. Berkeley, 1962. First published 1950.

Butler, Judith. *Gender Trouble: Feminism and the Subversion of Identity*. New York, 1990.

Butler, Judith. "Contingent Foundations: Feminism and the Question of 'Postmodern'." In *Feminists Theorize the Political*. Edited by Judith Butler and Joan W. Scott, pp.pp. 3–21. New York, 1992.

Butler, Judith, Ernesto Laclau, and Slavoj Zizek. *Contingency, Hegemony, Universality: Contemporary Dialogue on the Left*. New York, 2000.

Cahn, Michael. "Reading Rhetoric Rhetorically: Isocrates and the Marketing of Insight." *Rhetorica* 2 (1989), pp.pp. 121–144.

Cahn, Steven M. *Fate, Logic, and Time*. New Haven, 1967.

Campbell, Karlyn Kohrs. "The Ontological Foundations of Rhetoric." *Philosophy and Rhetoric* 3 (1970)pp. 97–108.

Farrell, Thomas B. "Knowledge, Consensus, and Rhetorical Theory." *Quarterly Journal of Speech*, 62 (1976)pp. 1–14.

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993.

Fish, Stanley. *Doing What Comes Naturally*. Durham, N.C., 1989.

Garver, Eugene. *Machiavelli and the History of Prudence*. Madison, Wis., 1987.

Garver, Eugene. *Aristotle's Rhetoric: An Art of Character*. Chicago, 1994.

Great Ideas: A Syntopicon, The. 2 vols. Chicago, 1952. See chapter 9 on "Chance," vol. 1, pp.pp. 179 - 192 ;chapter 27 on "Fate," vol. 1, pp.pp. 515–525; and chapter 61 on "Necessity and Contingency," vol. 2, pp.pp. 251–269.

Grimaldi, William M.A., S.J. *Aristotle, Rhetoric I: A Commentary*. New York, 1980.

Hacking, Ian. *The Emergence of Probability: A Philosophical Study of Early Ideas about Probability, Induction and Statistical Inference*. New York, 1975.

Hamlyn, D. W. "Contingent and Necessary Statements." In *The Encyclopedia of Philosophy*, vol. 1. Edited by Paul Edwards, pp.pp. 198–204. New York, 1967.

Hariman, Robert. "Status, Marginality, and Rhetorical Theory." *Quarterly Journal of Speech* 72 (1986), pp.pp. 38–54.

Hesse, Mary. *Revolutions and Reconstructions in the Philosophy of Science.* Bloomington, Ind., 1980.

Jonsen, Albert R., and Stephen Toulmin. *The Abuse of Casuistry: A History of Moral Reasoning*. Berkeley, 1988.

Kekes, John. *Moral Wisdom and Good Lives*. Ithaca, N.Y., 1995.

Leff, Michael. "The Habitation of Rhetoric." In *Contemporary Rhetorical Theory: A Reader*. Edited by John L. Lucaites, Celeste M. Condit, and Sally Caudill, pp.pp. 52–64. New York, 1999. First published 1987.

Lucaites, John L., Celeste M. Condit, and Sally Caudill, eds. *Contemporary Rhetorical Theory: A Reader*. New York, 1999.

Lyotard, Jean - François, and Jean - Loup Thebaud. *Just Gaming*. Translated by Brian Massumi. Minneapolis, 1985. First published 1979.

Lyotard, Jean - François. *The Defferend: Phrases in Dispute*. Translated by Georges Van Den Abbeele. Minneapolis, 1988.

McGee, Michael C. "A Materialist's Conception of Rhetoric." In *Explorations in Rhetoric: Studies in Honor of Douglas Ehninger*. Edited by R. E. McKerrow, pp.pp. 23–48. Glenville, Ill., 1982.

Natanson, Maurice. "The Limits of Rhetoric." *Quarterly Journal of Speech* 21 (1955), pp.pp. 133–139.

Nussbaum, Martha C. *The Fragility of Goodness: Luck and Ethics in Greek Tragedy and Philosophy*. New York, 1986.

Patey, Douglas Lane. *Probability and Literary Form: Philosophical Theory and Literary Practice in the Augustan Age*. New York, 1984.

Perelman, Chaim. *The Realm of Rhetoric*. Translated by William Kluback. Notre Dame, Ind., 1982.

Perelman, Chaim, and Lucie Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric: A Treatise On Argumentation.* Translated by John Wilkinson and Purcell Weaver. Notre Dame, Ind., 1969. First published 1958.

Plato. *The Collected Dialogues of Plato.* Edited by Edith Hamilton and Huntington Cairns. Princeton, 1961.

Pocock, J. G. A. *The Machiavellian Moment: Florentine Political Thought and the Atlantic Republican Tradition*. Princeton, 1975.

Poulakos, John. "Toward a Sophistic Definition of Rhetoric." *Philosophy and Rhetoric* 16 (1983), pp 35 - 48.

Rorty, Richard. *Philosophy and the Mirror of Nature*. Princeton, 1979.

Rorty, Richard. *Contingency, irony, and solidarity*. New York, 1989.

Sartre, Jean Paul. "The Wall." In *Existentialism from Dostoevsky to Sartre*. Edited by Walter Kaufmann, pp.pp. 223–240. New York, 1956.

Scott, Robert L. "On Viewing Rhetoric as Epistemic." *Central States Speech Journal* 18 (1967), pp.pp. 9 - 17.

Smith, Barbara Herrnstein. *Contingencies of Value: Alternative Perspectives For Critical Theory*. Cambridge, Mass., 1988.

Struever, Nancy S. *The Language of History in the Renaissance: Rhetoric and Historical Consciousness in Florentine Humanism*. Princeton, 1970.

Waterlow, Sarah. *Passage and Possibility: A Study of Aristotle's Modal Concepts*. Oxford, 1982.

Weaver, Richard. *The Ethics of Rhetoric*. Chicago. 1953.

Williams, Bernard. *Moral Luck*. Cambridge, U.K., 1981.

تأليف: Dilip Parameshwar Gaonkar

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

Controversia and Suasoria **الخطبة الإقناعية والجدلية**

الخطبة الإقناعية والجدلية هي ممارسة خطابية وشفاهية حول موضوع معين، وهي المكون الأساسي للممارسة البلاغية الرومانية المعروفة باسم declamation (انظر: **Declamation**). وقد لعبت دورًا كبيرًا في المناهج المدرسية الرومانية من القرن الأول فصاعدا ولها جذورها في ممارسات قديمة في التعامل مع مواضيع الأفكار والافتراضات في التراث اليوناني، الخطبة الإقناعية تشاورية في شكلها، وكانت تلك الخطب الإقناعية توجه لرجل عظيم في مرحلة حرجة من عمله لمواجهة فرضية تاريخية كبيرة مثل تفكير الإسكندر الأكبر في عبور البحر مثلا فينصح الخطيب الإسكندر بشأن خطة عمله متكلمًا عنه بضمير الغائب في معظم الأحيان، ولكنه قد يتوجه إليه بالكلام مباشرة أحيانًا (**Deliberative genre**). أما الخطبة الجدلية فهي خطبة استكشافية خيالية تجادل لصالح متهم خيالي أو ضده، وبعد تلاوة القانون وتلخيص وقائع القضية يجب على المتكلم أن يستبق أو يحبط دفاع الطرف الآخر ويدير محاورات مع الشهود أو الخصم ويصنع سردا بأطراف متعددة. يشير البلاغي الروماني إلى أن الكثيرين من بلاغيي أيامه في القرن الأول الميلادي تخصصوا في الخطب الجدلية التي كان مدرسو البلاغة وطلابها يعقدون حلقات عامة لها للترفيه عن الناس.

كان يُعتقد أن الخطبة الإقناعية أبسط من الخطبة الجدلية، وكانت تُدرس عادة في المدارس الأولية، وتشابه الكثير من الممارسات البلاغية والفلسفية في منهج تلك المدارس، كما أثرت الخطبة الإقناعية كنمط تشاوري ووسيط

أخلاقي وأداة لسرد السيرة بشكل درامي في الأدب الشعبي والرفيع من الأهازيج حتى كتابة الشعر الملحمي (انظر: **Ars dictaminis**). السجل الروماني الرئيسي للخطب الإقناعية هو الخطب الإقناعية السبعة عند مجموعة نصوص الخطابة الرومانية عند سينيكا الأكبر (٥٥ قبل الميلاد إلى ٣٩ ميلاديًا)، يبين هذا الأداء الرفيع للأساتذة الكبار والرومان المتنوين حتى منتصف القرن الأول الميلادي ثقافة ظرف واقتباس أدبي وأسلوبي، ويقدم لنا نافذة على أدب مرحلة دوليوس ودلوديان، ولكن أيضا يجب أن ننتبه إلى أنه أداء محسن ومعدل ليكون مثلا للمتلقين الذين تعلموا مثل هذه الممارسة في مدارسهم، ومواضيع تلك الخطب نصف تاريخية فعند سينكا يتشاور الإسكندر في إمكانية عبور البحر ودخول بابل، ويتشاور الإسبرطيون فيما إن كان لهم الانسحاب من ثيرموبيليا ويتشاور أجاممنون في التضحية بإيفيجينيا، ويتشاور الأثينيون حول رفع أقواس النصر ليمنعوا غزوا فارسيا جديدا، ويتشاور شيشرون إن كان يجب أن يستجدي أنطونيو لحياته أو يحرق مراسلاته ليضمن حياته. ويسجل كينتليان عناوين أخرى، كتشاور نوما في أن يكون ملاكا من عدمه، وتشاور كاتو بشأن الزواج، ومن الواضح أن موضوع التشاور في شأن ذراعي أخيلس وتقديمهما لأوديسيوس من عدمه كان موضوعا مفضلا، وسجل لنا فيلوستراتوس في القرن الثالث في كتاب "حياة السوفسطائيين" عددا من تلك الخطب التي تعرفنا بالممارسات اليونانية فالإسبرطيون غالبا ما يتشاورون بشأن إمكانية تبني سياسة ما تخدمهم بشكل عملي ولكنها تتناقض مع روح تراثهم. وغالبا ما يتساءل الإسكيثيون إن كان من الواجب عليهم الإقلاع عن حياتهم المدنية المرفهة وتبني سلو أجدادهم البدوي.

غالبا ما يتطلب شكل هذه العناوين أن يسرد الطالب موضوعات ما باتجاه معين كأن يقول مثلا إن أجاممنون يجب أن يضحي بابنته لأن كالخاس يقول إنه إن لم يحدث ذلك سيصبح من المحرم عليهم الإبحار إلى طروادة.

يدرك كاستوس ثاني أكبر معلم بلاغة بعد كينتليان أن الخطب الإقناعية تمرين جيد لاختيار نغمة الحديث والتدرب عليها، فإسداء النصيحة لطاغية يختلف عن إسداء النصيحة للزملاء في المجلس النيابي مثلا أو في مجلس العائلة حيث يأمر الشخص كاتو أن تتزوج مثلا، فكل موقف له نغمته، الخطب الإقناعية تقدم الدرس الأول إذن في العلاقة بين الخطيب والمتلقي وأسلوب الخطابة والتي من شأن الخطب الجدلية أن تتعمق فيها أكثر وبشكل أكثر تنظيما.

وعلى الرغم من أن الخطب الإقناعية كانت منشغلة بمسائل خيالية بشأن ما كان من الممكن أن يكون والأخطاء التاريخية التي يستتبعها وضع الذات في لحظة تاريخية مغايرة فإنها كانت تعلم البنية البلاغية والمنطقية والأسلوبية التي نعرفها بالتقسيم، لقد كان حسن التقسيم وليس فقط اللغة المزخرفة والأسلوب الفخيم هو علامة الفضيلة. لقد نصح المدرسون المتدربين بها وحلل المتلقي الخطبة بحسب تقسيمها، وقسم فوسكوس مثلا جداله كما يلي: لا يمكن التضحية بإيفيجينيا لأن هذا قتل، وهو على ذلك قتلٌ لذي قربى. وهذا الفعل يتسبب في خسائر أكثر مما يجلب من منافع، أي سيفقدنا أيفيجينيا ويجلب لنا هيلين. هناك نقطة إضافية الآن وهي جنس جديد من التقسيم، وهو أن التضحية لا حاجة لها لأن اليونانيين معطلون في أيليوس بسبب الريح والبحر المائج، ولا يمكن معرفة نية الآلهة. رد خطباء كثيرون على خطب سابقة لهذا الموضوع وتعامل سينيكا مع تنويعات الموضوع وخاصة عدم معرفة نية الآلهة. وعلى ذلك فالحجة قائمة على أكثر من سبب في آن بطريقة تذكرنا بالخطابة القديمة والغرض المقيم لدى المحامي بأن موكله لم يفعل شيئا وحتى إن فعله فهو ليس مذنبا، وحتى لو كان مذنبا فلا يجب عقابه، وإذا ما قسمت الخطبة الجدلية القانون وحقائق القضية بهذه الطريقة فإن الخطبة الإقناعية تتعامل مع الحجة الأخلاقية والدوافع بتصنيف بلاغي مشابه.

التشابهات بين الخطب الإقناعية والفلسفة أو أصولها الفلسفية واضحة جدا، الفكرة الفلسفية عادة ما تأتي في شكل مسألة أخلاقية عادة ولكنها أحيانا علمية مثل سؤال أرسطو إن كان من الواجب إطاعة الأب في كل شيء (Aristotle *Nicomachean Ethics* 9.2.1)، وقد تكون مسألة وجوب زواج الرجل من عدمه راجعة إلى ثيوفراستوس (٣٧٢ - ٢٨٧ قبل الميلاد)، صاغ كينتليان (3.5.11) العلاقة بين الفكرة والخطبة الإقناعية قائلا إن الفكرة تصبح خطبة إقناعية عندما تحمل الأولى اسما أو توضع في سياق خاص، وبذلك يصبح تساؤل إن كان لكاتو أن تتزوج خطبة إقناعية. لكن تساؤل أرسطو حول وجوب طاعة الأب أصبح ممجوجًا (انظر سينيكا وأوليوس جاليوس في القرن الثاني حيث يربط تلك الفكرة بالمدارس الفلسفية)، العلاقة الشكلية في الحقيقة أهم مما يتصور المنظرون القدماء المدفوعون برغبتهم في التوصل لفرق تعريفي واحد، ذلك لأن الفكرة الأخلاقية تفتح الباب على تناقض كبير (هل يجب طاعة أب ينصح بشر؟) تصطدم فيه ادعاءات أخلاقية متناقضة، هناك في قلب الخطبة الإقناعية تناقض أيضا في التعريف أو التصنيف فشيشرون مثلا كاتب؛ فكيف يحرق كتاباته؟ وكذلك فإن الإسكندر غاز؛ فكيف يتوقف؟ على الرغم من أن الفيلسوف فابيانوس كان من الخطباء الذين أقرهم سينيكا فقد كان تأثير الخطب الإقناعية أكبر من نقل المسألة الفلسفية لحجرة الدرس. لقد كانت الخطب الإقناعية على عكس القطع المدرسية المبكرة في اللغز البلاغي تتطلب خطابا موحدا كاملا يحرك الماضي ويستلهم أخلاقاته، وأسهم هذا المطلب في وجود فهم أخلاقي وبلاغي للتاريخ والفعل الإنساني الذي يمثل حجر الزاوية عند بلوتارك (٤٦ إلى ما بعد ١١٩) والكثير من الأدبيات الإمبراطورية.

لا نعرف نقطة بداية انتشار الخطب الإقناعية كشكل تربوي مدرسي ولكننا نعرف أن شيشرون (106–43 bce) نفسه كان يمارس الأفكار الفلسفية

في بعض الأحيان، وفي بعض تلك الأحيان كانت الأفكار تبدو كأنها خطب إقناعية موجهة للذات. وبعد إحالة شيشرون للتقاعد الإجباري إثر استئثار قيصر بالسلطة كاملة كتب لأتيكوس أنه صنف ثماني أفكار عن الطغيان، وقارن في مكان آخر بين ممارساته الفلسفية وتفضيل ابنه للموضوعات البلاغية. قدمت كتاباته الفلسفية قاموسا موسعا للحجج الأخلاقية حول الواجب الاجتماعي، بل وتمثل نقطة بداية قوية أو لم تكن مصدرًا مباشرًا للتصنيف الأخلاقي في أسلوب بلاغي يثير إعجاب الرومان. يمكن إذن أن نرى في الخطب الإقناعية مثل رسائل سينيكا وبليني أسلوبا أدبيا للكتابات الأخلاقية وتدريبًا للذات استعانة بالأصدقاء.

تحتوي كتب جمع الخطب على عدد أكبر من الخطب الجدلية التي شكلت قمة التدريب البلاغي والتي همشت أهمية الخطب الإقناعية، يمكن أن نرى تأثير الخطب الإقناعية ليس فقط في التمرينات المدرسية بل في الكتابات الإمبراطورية أيضا، وعلى الرغم من صعوبة إثبات هذا التأصيل لأن التعامل مع الشخصيات الخطابية ينبع من الموضوعات المكرورة والصور النمطية الكوميدية فإن الخطب الإقناعية أسهمت في فهم الطبيعة البلاغية مع أدوات بلاغية مصاحبة (انظر: **Aporia; Ēthopoeia; prosōpopoeia**). ولكن الخطب الإقناعية في شكلها الصحيح تتميز بكونها أداة في يد الناصح. ولذلك فعندما ينصح التابع الملك عند سينيكا في "أجاممنون" أو عند أوفيد في بعض كتاباته في "هيرويديس" و"أموريس" حيث يطلب الشاعر من زوجته أن لا تبحر، ما هي إلا استلهامات مباشرة للخطب الإقناعية. ولكن هناك مونولوجات درامية أخرى تجد أصلها في الممارسات المدرسية اليونانية حيث كان يتوجب على الطالب أن يكتب الخطاب للشخصية الدرامية كخطاب أخيل في رثاء باتروكولوس.

ولكن الخطب الجدلية كانت المعرض الأساسي لمهارة البلاغي القديم. في التمرين الأخير في منهج البلاغة يقدم المدرس حقائق القضية مصحوبة بقانون مناسب، ويحتمل أيضا أن يقدم النصح بشأن تقسيم القضية واختيار الأشخاص (مجموعات الخطب الموجودة من مدرسة كينتليان مثل إضافي مهم لأن المجموعة التي نعرفها بالمجموعة الكبيرة ما هي إلا حالات استعراضية ومجموعة كالبوميوس فلاكوس مقتطفات ملخصة)، ولكن على الرغم من أن القضية يمكن تناولها من أي من الزاويتين فإن المواضيع كانت عادة مصممة للتعامل من زاوية واحدة فقط. بعد أن يتسلم الخطيب تفاصيل القضية والقانون يخضعها للتقسيم. تميز درجة تعقيد النظام البنيوي للحجة ووسع المواقف وتنوع الشخصيات بين الخطب الجدلية والخطب الإقناعية. بينما كانت النظرية الهللينية أكثر تعقيدا من الاثنين فإن سينيكا يقول إن القضية يمكن أن يتم تناولها من زاوية القانون أو العدالة أو الوقائع؛ أي درجة انطباق القانون المستخدم على حالة القضية المطروحة، وإن كان هناك تناقض بين نص القانون وروحه وإن كانت الجريمة وقعت أو ارتكبها المتهم. على الرغم من أن الاحتراز الأخير مفيد في القضايا القانونية فإنه لا يفيد الخطابة التي لم يكن فيها أدلة أو شهود إلا الحجاج الماهر للخطيب. وعلى الرغم من أن نظرية العرض الهللينية تلك معقدة في تصنيفاتها ومصطلحاتها فإنها كانت تعني حصر القضية المطروحة في أسئلتها الأساسية؛ وهو ما يُعرف بـــ*stasis* ؛ *في اليونانية و* *quaestio* or *status constitutio*. في اللاتينية (انظر: Stasis).

على الرغم من أن هذا التفكير هو الذي شكل الخطاب فإن بنيته الواقعية تحددها مباحث أخرى. بيَّن سينيكا تقسيما رباعيا يتكون من المقدمة والعرض والحجاج والخاتمة. ولكن اختيار الأشخاص في الممارسة العملية

أمر شديد الأهمية، فالخطابة كانت فن إلقاء الخطبة على لسان شخص، ولذلك كان المعلم يقضي وقتا طويلا في تعليم تلاميذه فن اختيار الشخص المناسب (انظر: Ēthos). ولما كان الخطيب مثلا في كثير من الأحيان يواجه سيناريو قاسيًا من أب يقسو على ابنه ويبعده لعصيانه في التعامل مع عدو مثلا أو الزواج من بنت ليست مناسبة فعليه أن يخلق شخصية جذابة مستدرة للتعاطف، وعليه أيضا مصالحة الأب وابنه، وعليه أيضا أن يحرك عاطفة الجمهور في تقبل العفو المرور من كل أب على ابن ضال. يفعل الخطيب كل هذا بتقديم وصف للمكان الذي حدث فيه فعل العصيان وعن طريق تقديم حجة أخلاقية بلغة القانون مفادها أن الابن المتهم بالمعصية لم يعص أمر الأب أو يخترق روح القانون، الصور البلاغية التي يحتويها الوصف والتصنيف وحجة لعرض يجب أن تكون خاضعة لسرد خطبة يلقيها الخطيب بشخصية الابن الشاب (انظر: **Commonplaces and commonplace books; and Descriptio**). تبين مجموعة سينيكا الأكبر التي جمع فيها ألوانًا ومقولات وتقسيمات الخطباء المشاهير وجود متلق خبير يستطيع تقدير العروض المتنافسة للخطباء ونقدها واستعداده لاسترجاع أحسن الأمثلة على الأقسام الثلاثة. (انظر: Color).

تقدم الخطب الجدلية مقولات أكثر من ممتازة للمتلقي محب الاقتباسات. انشغلت خطط الخطب بالزواج والطلاق والاغتصاب والزنا والخطف والجنون والقتل. كما يتكرر فيها ظهور القرصان والعاهرة والعبد المتحرر والبطل العسكري والصديق الغني وصديقه الفقير والأب القاسي وابنه الخاطئ. وبذلك يطرح فن الخطابة فرصة للتأمل العام في مسائل الإخلاص داخل الأسرة وبين الأسرة والدولة أو بين الدولة والآلهة. وتحتل مسائل المسؤولية الرشيدة للشاب تجاه والده ووالدته أو زوجة الأب أو الزوجة

والقائد مكان الصدارة في هذا الفن أيضا، يحدث هذا التفكير الأخلاقي في سياق معتاد فالخطيب يتعامل مع موضوعات متعارف عليها ومواقف متكررة تم التعامل معها مرارًا قبل ذلك، فكل هذا تم التعامل معه سلفا والقضية علاوة على ذلك تبدو دون أمل والخطيب الشاب دون قوة تسانده والأب أهمل ابنه أو أن نص القانون واضح وضوح الشمس، وفي مثل تلك الحالة يكون للتلميذ المتدرب فرصة أن يقاوم تلك العوامل المخرسة، فعنده أدوات الخطابة وإعادة الصياغة وهو يتعلم في هذا الدرس التقني اللغوي حق الطبقات الرفيعة في الخطابة بالنيابة عن آخرين لتقديم شكواهم، وهو يتعلم أيضا أوصافا مسبقة لعلة سلوك الأب أو الداعرة أو العبد المتحرر تسمح له بأن يتمرن على تنويعات القانون، ولذلك فالخطب الإقناعية والجدلية تمثل أفضل نافذة لنا على تعليم الخطب والأدوار المسرحية، وعروض فن الخطابة التي شكلت أساس العقلية البلاغية القديمة. (انظر: Classical rhetoric).

مصادر ومراجع

Bloomer, W. Martin. *The School of Rome*. Princeton, in press.

Bonner, S. *Roman Declamation in the Late Republic and Early Empire*. Liverpool, U.K., 1949.

عمل أساسي وتكمن قوته الأساسية في تفصيل المرافعات في القانون الروماني.

Fairweather, J. *Seneca the Elder*. Cambridge, U.K., 1981.

عمل جيد عن حياة سينيكا وعمله وأيضا عن نظرية المرافعة.

Russell, D. *Greek Declamation*. Cambridge, U.K., 1983.

Sussman, Lewis A. *The Major Declamations Ascribed to Quintilian*. Frankfurt a.M., 1987.

Sussman, Lewis A. *The Declamations of Calpurnius Flacus*. Leiden, 1994.

فيه ترجمة للنص وتعليقات.

Winterbottom, Michael. *The Elder Seneca*. Cambridge, Mass., 1974.

ترجمة ومقدمة.

Winterbottom, Michael. *The Minor Declamations Ascribed to Quintilian*. Berlin, 1984.

النص وتعليقاته مسبوقا بمقدمة وافية.

تأليف: W. Martin Bloomer

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الجدال Controversy

ما الأشياء التي يحتوي عليها أي جدل ندخل فيه؟ كيف يبدأ الجدال وينتشر وينتهي؟ ما عواقب الجدال؟ وكيف نستطيع توضيحها والتعامل معها بشكل نقدي؟ هذه أسئلة مهمة خاصة في الوقت الذي ترتفع فيه حدة الجدال المستعر. حددت مكتبة الكونجرس نوعين من الجدال التقليدي أولهما الاختلاف حول المعتقدات الدينية وثانيهما الخلاف بشأن الماء. أما اليوم فالاختلافات الدائمة في الرأي تجد لنفسها متنفسًا في مجالات المعرفة والنظم السياسية والثقافات البديلة. والجدال لذلك يبدو واحدا من السمات المميزة للعصر، ولكنه مع ذلك واحد من الظواهر التواصلية الأقل خضوعًا للدراسة في وقتنا.

هناك أسباب متعددة لاستمرار الجدال، جاء تطوير تقنيات تتحدى الشكل التقليدي للحياة واستخدامها الموسع مع انتشار المؤسسات الحداثية ليزعزع الأشكال التقليدية للإجماع. فقد مكنتنا العلوم الطبية الحديثة مثلا من التدخل بطرق تعطينا اختيارات صحية لم تكن متوفرة سلفا من شأنها أن تزعزع الثوابت التقليدية في مسائل الحياة والموت. كما أن وسائل الإعلام تشكل الآن مراكز جدل فالصراعات الإنسانية تبدو فيها كشكل درامي يستهدف الاستحواذ على الاهتمام، وتسعى وسائل الإعلام بشكل مستمر لأن تضع رأيين متناقضين في مواجهة بعضهما فهي لا تكتفي بالإخبار عن المنازعة بل في حالة غياب منازعة حقيقية في الرأي يقوم الإعلام بإعداد تقارير وتحقيقات وتجري مقابلات ساخنة وتعيد إحياء منازعات قديمة بغية

جذب الاهتمام وبغية أن تكون مركز هذا الجدال، كما أن أي مجتمع تعددي أخيرًا يبدو أرضا خصبة للاختلاف، فالتعدد يشجع على أساليب حياة بديلة، ولكن يجب أن يسبب التسامح نظريا إجماعا مرنا فيما يتعلق بالقواعد الاجتماعية إلا أن هذا التعدد نفسه يولد الجدال بسبب تأكيد كل جماعة على هويتها بالتعليق على عدم مناسبة الآخرين. إذن يجيء اتساع الجدال وانتشاره عبر الثقافات والأجيال والمجالات المعرفية بحسب قوة انتشار تأثير المؤسسات الحداثية ووسائل الإعلام والتعددية.

تولد الثقافات الجدال لدرجة أن معايير الفهم والسلوك تبقى اختيارات حساسة بالنسبة للفرد كما أنها مهمة للصالح العام بالنسبة للجماعة. عادة ما تجد أشكال التواصل في كل ثقافة من الثقافات طريقها إلى الممارسات الاجتماعية المفيدة، ولكن لما كانت تلك الممارسات في اختلاف دائم وتراوح مستمر وتنطوي على مصالح فردية أو خاضعة للتفضيل الفردي أو الجماعي تجد نوعية حياة تلك الثقافة تراهن على التقابل بين تلك الممارسات. كما يولد الاختلاف بين ممارسات التواصل منازعات بشأن ادعاء الصحة والحق والمناسبة والإخلاص ومقابلاتها طبعا، وتحتوي المنازعات على ادعاءات التواصل أنواعا مميزة ومتعددة من الجدال.

يختبر مثلا جدل المشروعية ادعاءات الصحة التي يدعيها البعض عن المؤسسات (انظر: **Politics, Rhetoric and legitimation**). والجدال على السلطة يتعامل مع التدرجات في القيادة، وتتعامل أنواع الجدال الاجتماعي والثقافي مع ديناميكية الوقت. وإذا انتشر الجدال بشكل كاف وأصبح مهما فإنه غالبا ما يكون دالة وحدثا سياسيين لجيل كامل. لم تكن حرب فيتنام نقطة محورية في الاختلاف مع التيار السائد بالنسبة لجيل الستينيات، بل كانت نقطة تجمع واتفاق سهلت ظهور هوية ثابتة لشتات يكبر. كما أن نقطة

التماس السياسية الأولى قوية لدرجة أنها تستطيع أن تكرر نفسها مرارًا وبشكل كامل بعد أن ينتهي السبب الأساسي في الجدال السياسي، وبذلك تحتفظ بالجدال بأشكال مختلفة. وهكذا فبعد أن انتهت حرب فيتنام بوقت طويل ظل شبح فيتنام جديدة يزكي نار الجدال حول السياسة الخارجية الأمريكية.

ولا يستطيع الجدال أن يحدد جيلا سياسيا فقط بل يستطيع أيضا أن يكون له أثر في أي مجال معرفي. بل إن بعض المجالات المعرفية تحدد بما هو جدالي بقدر ما تحددها نقاط الإجماع. وتؤكد طرق البحث العلمي نفسها بشكل أو بآخر على استمرارية الجدال المعرفي، فحتى الأفكار المدعومة جيدا لا تثبت إلا بتراكم الدليل، ومع ذلك تبقى الفرضية صفر قيمة إحصائية، علاوة على ذلك فمن الممكن أن تولد الثورات العلمية اختلافات جوهرية بشأن اتساق الطبيعة نفسها مع الأنساق المعرفية الجديدة (انظر: **Science**). كما أن ادعاءات التفتح التي تدعيها العلوم هي نفسها فاتحة لعدد من المنازعات، فعلوم الخلق مثلا تتمسك بقواعد علمية معينة في محاولة منها لاحتلال موقع بين النظريات الأخرى التي تستخدم طرق بحث علمية أكثر اتساقا. يتم تطوير أنواع جدل تتراوح بين تسبب التدخين في الإصابة بالسرطان لفاعلية الدفاع الصاروخي بسبب مصالح جماعات ضغط ذات تمويل عال عن طريق التلاعب بالتصور العام عن درجة الإجماع العلمي ونوعيته.

قد لا يكون الجدال نتيجة اختلاف مستمر عبر الزمن أو المجالات الاجتماعية. بل إن معظم الجدال في الحقيقة ظاهرة قصيرة العمر تحيط بأداء معين أو خدمة معينة أو مادة استهلاكية ما، الخلاف الذي يدور حول نوعية عرض فني يعتبر جدلا جماليا ففي مسائل الذوق يمكن طرح تقييمات مختلفة

لنوعية عرض ما دون إثارة خلاف كبير، إن اتفق الأطراف على الاختلاف طبعا، ولكن الاختلاف الجمالي يصبح جدلا عندما يعبر المختلفون عتبة تفترض أن العرض له تأثير كبير على تقدير المتلقي أو التزاماته (انظر: Criticism). وكل العروض الفنية تتعرض للنقد أو للمدح بناء على مثل تلك التقييمات، والخدمات بدورها محل جدل، فتصبح الخدمة محل جدل إن لم تستطع أن تصل للمستوى المرجو، فالخدمات القديمة التي تفشل في تحقيق هذا المستوى والجديدة المكلفة أو الخطيرة يمكن أن تكون جدلية، وكثيرًا ما تكون المؤسسات العامة محل جدل عندما لا تطابق خدماتها كالرعاية الصحية والتعليم المناسب والأمن العام وغيرها من المواصفات المرجوة. كما تصبح المادة الاستهلاكية أخيرًا محل جدل، فقد يبدأ التراشق باللوم أو تحديد أسباب المشاكل عندما ينقص تموين سلعة أساسية ما كالطعام أو الوقود أو عندما تندر سلعة أو تغلو، وقد تصبح بعض السلع جدلية بسبب الخطر المترتب على استخدامها وتحديد فردية أو جماعية الخطر هي أساس الجدال تقنين استخدام كل شيء من أحزمة أمان السيارات لاستخدام المخدرات، ولذلك فالعروض والخدمات والمادة الاستهلاكية جالبة للجدل في المجتمع الاستهلاكي.

لقد قدمنا حتى الآن تغول الجدال كظاهرة اجتماعية وثقافية وسياسية. وعلى الرغم من الانتشار الظاهري للاختلافات العلنية فإن موضوع الجدال نفسه لم يحظى باهتمام كبير. جزء من المشكلة يكمن في أن تصور الحجاج ينزع لأن يتعامل مع الجدال باعتباره سياقًا وخلفية اختلاف يمكن حله باستخدام تقنيات عقلية مناسبة أو بالحوار. ولما كانت تكلفة الاختلاف باهظة وثمرة الاتفاق كبيرة عادة ما تبدأ نصائح الحجاج السليم بالتعامل مع الجدال باعتباره نقطة بداية وصول لحل، بل وعندما يُدرس الجدال فإنه يُدرس

باعتباره صراعا لكي نجسد عواقب الاختلاف. ولكن على الرغم من أن المواضيع الجدالية قد تسبب صراعا فإن الجدال يحتوي أيضا على خطاب تأملي يطرح أسئلة عن أسباب الحل أو إدارة الجدال نفسها، يتطلب النظر في أنواع الجدال وفترته وتبعاته سماته الخطابية وغير الخطابية دراسة أعمق. ولكن إدوين بلاك قدم لنا بداية بشأن سماتها المشتركة الأساسية، الجدال بالنسبة لبلاك يحتوي على عناصر إقناعية وتناقشية يمكن وصفها بأنها مشكلات فريدة ليس فقط لأنك تتوجه بها لجمهور بغية ضمه لصالح وجهة نظر معينة، بل لأنك أيضا تطلب من نفس هذا المتلقي أن لا يقبل ما يمكن أن يكون اعتقادا بديلا مناسبا أو دعمه. ولكن لكي نزعم أن الجدال مشكلات معقدة بطبيعته يجب أن ندرس أولا كيف كيفية تلاقي سبب الجدال مع سلوكه زمنيًا وثقافيًا واجتماعيًا في كل حالة على حدة. (Deliberative genre; Epideictic genre; Forensic genre; Hybrid genres; Law)؛ وانظر أيضًا: Logos).

مصادر ومراجع

Black, Edwin. *Rhetorical Criticism: A Study in Method*. Madision, Wis., 1965.

تأليف: G. Thomas Goodnight

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

تكوين القناعات Conviction

شرع باحثان في الحجاج بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وهما حاييم بيريلمان ولوسي أولبريخت تيتكا في التعاون لدراسة أشكال الحجاج المستخدم في التشاور اليومي في مجالات مختلفة كالقانون والسياسية والدين والتنظير بشأنها. بدأ اهتمامهما بالموضوع لأنهما أحسا أن معاصريهما لا يعرفون الحجاج العملي خاصة في المجال العام. ولما كانا قد رأيا مبالغات الآلة الإعلامية النازية وتبعاتها الخطيرة في المحرقة فقد بدءا دراسة ممارسات الحجاج والتعميم بشأنها. وعندما كانا في فترة جمع آلاف الحجج التي أنتجها ناس مختلفون في مجالات مختلفة بحثوا عن كتب تاريخية ليجدوا نظرية حاولت أن تشرح آثار أنماط الحجاج تلك. ووجدا ضالتهما عند أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد في كتاب "البلاغة" وكتاب "المواضيع" وهما كتابان كانا غريبين عنهما لأن دراستهما في النظام الأوروبي كانت محصورة في المحسنات الأسلوبية والصور البلاغية والصحة الشكلية في المنطق. بنيا نظرية للإقناع تقوم على كتابات أرسطو وأنماط فقه القانون والتراث التلمودي وتقوم نظريتهما على الاعتقاد المبرر الذي يركز على المتلقي باعتباره مشاركًا في الحجاج، ونشرا بعد عشر سنوات (١٩٥٨) بالفرنسية كتابا ترجم لاحقا (١٩٦٩) للإنجليزية بعنوان "البلاغة الجديدة: رسالة في الحجاج".

رفض بيريلمان عند تطوير نظريته أن يعتبر عمليات التفكير والإثبات التي تقدم نوعًا واحدًا من التبرير نماذج للحجاج. فقد جعلت نظريته التزام المتلقي محوريا في كل عناصر صناعة الحجاج وتقديم التبريرات. في كتاب "البلاغة الجديدة" وفي كتاب مجالات البلاغة (١٩٧٧)، وترجم للإنجليزية عام (١٩٨٢) بدأ يقارن بين التفكير التحليلي والتفكير الجدالي. أما التفكير التحليلي كالتفكير الموجود في المنطق الصوري فهو غير شخصي وموجه ويعتمد على قواعد صورية لصحة استنتاجاته، مقدماته تعمل كالمقولات المنطقية ونتائجه واضحة بذاتها. أما التفكير الجدالي كالموجود في كتاب "البلاغة" عند أرسطو فهو تفكير مرتبط بالسياق، ويجب الحكم عليه من خلال درجة تطويعه لجمهوره. ولذلك يَستخدم الرأي المقبول عامة ويصدر في لغة محايدة ويدر نتائج محتملة وليست أكيدة. يقول بيريلمان إن التفكير الجدالي والحجاج يحدثان في مجال ما هو قابل للتفنيد؛ أي في مجال البلاغة، وفي فروع مثل الأخلاق والسياسة والقانون. (انظر: Dialectic; Logic).

يرى بيريلمان أن مجالات تلك الفروع المعرفية في عصر التنوير والقرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم تكن كافية لتفي بمتطلبات التفكير والتبرير ووسائل التشاور واتخاذ القرار. ولاحظ بيريلمان في كتاب "البلاغة الجديدة: نظرية في التفكير العملي" (١٩٧٠) أن التجريبية لا تصلح أساسا للحجاج لأنها لا تقدم نظرية للقيم ولا نستطيع الاعتماد عليها لذلك في تبرير الاختيارات والقرارات. كما أننا لا نستطيع الاعتماد على العقلانية الديكارتية لأنها تتعامل مع المؤكدات، ولا تعلمنا شيئا عن المتكلم أو المتلقي أو الثقافة. ما نحتاجه هو نظرية للحجاج يمكن استخدامها لوصف العمليات التي يجب أن يمر بها الشخص عندما يتدبر أمرًا في الشؤون الإنسانية (مجال الممكن والقابل للتفنيد وغير المؤكد) ودراستها. واعتمد بيريلمان على فقه

القانون كنموذج الحجاج لأن الحجاج في القانون يقوم على ممارسة المعارضة كإطار تساق فيه الادعاءات وتوزن الأدلة، حيث يقرر القاضي أي جانب يقدم القضية الأحسن في سياق الحجاج. (انظر: Law).

يميز بيريلمان وأولبريخت في كتاب "البلاغة الجديدة" أيضا بين الخطاب المقام للقناعة وذلك المقام للإقناع. ورفضا الفصل التقليدي بينهما والذي كان قائما على ما يتلقاه الكاتب أو الخطيب من رد فعل من المتلقي. فبدلا من التعامل مع خطاب القناعة باعتباره خطابا يسعى للاتفاق العقلي وخطاب الإقناع باعتباره الخطاب الذي يدفع المتلقي للفعل يفرقان بين النمطين بحسب المتلقي الذي يتوجه إليه الخطيب أو الكاتب، فالخطاب الموجه لجمهور عام شامل خطاب للقناعة وذلك الموجه لجمهور بعينه هو خطاب إقناعي، والحجاج مرتبط بالقناعة، ولكن الإقناع يأخذ شكل الإعلان والدعاية.

تسبب الفصل بين المتلقي العام والخاص الذي ظهر في "البلاغة الجديدة" في اضطراب كبير لدى منظري الحجاج. ويجب أن نشير هنا إلى أن المتلقي الذي يتكلم عنه بيريلمان ليس متلقيًا حقيقيًا ولكنه المتلقي الذي يتصوره الخطيب. وركز بيريلمان في كتاب "مجال البلاغة" على أننا يجب أن نفكر في المتلقي على أنه محصلة كل الناس الذين يريد الخطيب أن يؤثر فيهم بحجته (ص١٤). فنحن نتخيل أننا نتكلم مع متلق معين عندما نفكر فيما نريد أن نقول، فثمة متلق فرد أو جماعة يجسد كل من نفكر أننا نتوجه إليهم. هذا المتلقي له قيم مهمة محددة، وعندما نفكر فيما نريد أن نقوله بغية التأثير في هذا المتلقي بعينه فنحن في عملية إقناع.

أما خطاب القناعة فيتجه لجمهور عام، فالخطيب الذي يتوجه لهذا الجمهور يصمم رسالته ليتسق مع توقعات جمهور مثالي ومعاييره. يتكون

الجمهور العام من كل من نعتقد أنهم عاقلون وقادرون، ولذلك فإن التوجه لمتلق عاقل يعني التوجه للعقل نفسه. وعندما نصوغ رسالتنا لنتوجه بها لأفضل القيم ونتسق بها مع أعلى الأدلة في مجتمع ما فإننا نتوجه للقناعة التي هي نتيجة الحجاج الموجه لمتلق عام. فكرة المتلقي العام هي المعيار التقعيدي في "البلاغة الجديدة" وهي ما يفصل بين القناعة والإقناع.

لما كان بيريلمان قد رفض الدليل التجريبي والصحة الشكلية كمعايير تقييم الحجة واستبدلها بالمتلقي فإن نظريته بحاجة إلى هذا المعيار التقعيدي. ولما كان الحجاج نشاط متجه للمتلقي بشكل أصيل، لذلك فمن المنطقي أن يكون المتلقي سبب وجوده، ولكن الخطر هنا بطبيعة الحال هو المعادلة بين الكفاءة في إقناع المتلقي وجودة حجة ما، أي إن الخطر هو أن نقيِّم الحجة المصممة لتغيير رأي المتلقي على أنها الأحسن، في مثل هذا الحال لن يكون هناك ضامن لأخلاقية تلك الحجة ونبل هدفها، ولما أدخل بيريلمان معيار المتلقي العام في نظريته فقد استطاع أن يجنبها شبهة نية الاعتماد على الملتقي.

قد يتفق القارئ المتعاطف مع نظرية بيريلمان في أن معيار المتلقي العام هذا مناسب في تحديد المعيار الكيفي للحجاج والقناعة. ويذكرنا بيريلمان في "مجال البلاغة" بسمة من سمات التفكير الجدالي الموجودة عند أرسطو وهي سمة أن مقدمات هذا التفكير مما يصطلح عليه معظم الناس أو معظم الفلاسفة وكبار الناس. ولذلك فالمتلقي العام يستلهم حكمة أفضل المتعلمين في مجتمع ما وأحكمهم وأكثرهم خبرة، ولذلك فالحجاج المصمم ليتسق ومعايير تلك الجماعة من الناس يجب أن يكون متميزا.

من بين مزايا فكرة المتلقي العام أيضا أنها فكرة تعددية. المصطلح نفسه مضلل في الحقيقة فكلمة "عام" لا تعني مطلق بل تعني "العام" في ثقافة

ما أو مجتمع ما. وقال بيريلمان إن "فكرة الحجاج العقلاني لا يمكن تعريفها في المطلق لأنها تعتمد على مفهوم المتلقي العام المنزرع في التاريخ" (١٩٧٠ ص١٠٨٧)، فالمتلقي العام إذن خاص بمرحلة معينة وثقافة خاصة. وأحسن طريقة لوصف المتلقي العام هي أنه جماعة متخيلة من أفضل المتعلمين في مجتمع ما يتوجه المتكلم لهم بحجاجه.

ولكن المتلقي العام ليس الضمانة الوحيدة لنوعية الحجة. ويؤكد بيريلمان وتيتكا على ضرورة شروط ما قبل الحجاج التي من شأنها أن تؤدي إلى تشاور واختيار أخلاقيين. الجدال يفترض أولا وجود مجموعة من العقول ترغب في الاشتراك في مناقشة وفي أن ترى الأمور من زاوية المتحاور الآخر. وهو بذلك يحاكي ممارسة الجدال في أحسن صوره. ثانيًا يتطلب الحجاج الأخلاقي توافر نية حسنة لدى الطرفين المشتركين فيه مستبعدين أي نية للخداع أو استغلال باقي الأطراف. ثالثا يفترض الحجاج الأخلاقي وجود حرية تعبير وقنوات اتصال مفتوحة ليستطيع كل فرد أن يشترك. ويذكر الباحثان أن "استخدام الحجاج يعني أن الشخص أهمل استخدام القوة وحدها وأن القيمة الحقيقية تكمن في أن الفرد يكتسب موافقة محاوره بقوة الإقناع العقلاني وحدها، وأن المحاور ليس شيئا بل فردا نتوجه لقناعته الحرة بالإقناع" (ص٥٥).

انتقد الكثير من الفلاسفة ومنظري التواصل فكرة المتلقي العام، فقد أشاروا إلى التناقض بين الوظيفة التقعيدية لهذا المفهوم وتنوعها إذ كيف يكون للمتلقي العام أن يضع معيارًا إن كان هذا المعيار سيختلف حتما باختلاف السياق؟ كما يدعي النقاد أن المتلقي العام يعكس تناقضا أدائيًا في كتاب بيريلمان لأنه رفض المنطق الصوري والعقلانية واستخدم في الوقت نفسه معيارًا عقلانيًا في نظريته. ولاحظ آخرون أن المتلقي العام فساد منطقي

لأنها تؤكد على معيار عقلاني ولكنها لا تلتزم بأي ظاهرة خارجية تفسر ماهية هذا المعيار أو كيفية عمله.

ولكن يمكننا أن نفهم وظيفة المتلقي العام إذا فهمنا ما قاله بيريلمان في مكان آخر حول فكرة العقل والمعقول. لقد طبق بيريلمان هذين المعيارين على ممارسة القانون وقال إنهما يعملان في الحجاج أحدهما دون الآخر، فالعقل يتوافق مع الالتزام الكامل بالقانون في مبادئه وسوابقه، أما المعقول فيتسق مع المنطقي والرأي المقول. فقد يكون حكم المحكمة عقليًا جدا ولكنه في الوقت نفسه خرق لفكرتنا عن ما هو معقول وعادل. وفي مثل تلك الحالات كثيرًا ما يتغير القانون ليتسق مع ما هو معقول. أما العقل فهو ما يوفر الاستقرار والانتظام للنظام أما المعقول فهو ما يعدل النظام ليجعله متسقا مع تطور المجتمع، بينما سمات هاتين الفكرتين تتعلق بمسألة القرار، إلا أن العقل قد يُنظر إليه من وجهة نظر المتلقي العام.

قدم بيريلمان وتيتكا نظرية في الحجاج تتوازن في تركيزها على المتلقي كحكم على نوعية الحجة ونجاحها وذلك في كتاب "البلاغة الجديدة" وما تبعه من كتابات. وبدأ الكاتبان التركيز على أن هدف نظرية الحجاج يجب أن يكون دراسة كيف يحاول المحاجج أن يحصل على إقتناع المتلقي بالفكرة التي يقدمها له. وإن كان الحجاج بطبيعته متوجه للمتلقي فإنه يتكون من شبكة من المقدمات والأفكار والقيم المقبولة لدى المتلقي. ونقطة بداية الحجاج هي وقائع يدركها المتلقي وحقائق يقبلها وافتراضات يلتزم بها وأنساق القيم التي يحترمها. ويجب أن تأخذ الاستنتاجات المستخدمة شكل التفكير المتسلسل المتعارف عليه في تلك الثقافة والمفهوم فيها. باستخدام تلك الطرق يستطيع المحاجج أن يصوغ حجته بشكل يسمح بانتقال القبول من سمة لأخرى ليصل لقبول ادعاء المحاجج كله. ولما كان الحجاج عملية

منزرعة في التاريخ والثقافة ويقوم عليها بشر فيجب عليها أن تحتوي على تلك المكونات البلاغية. وإذا ما التزم المحاجج بالعقل وليس بنزوعه الشخصي ومصلحته، وإذا ما اتبع ممارسة حجاجية مناسبة، فإنه يمكن تحقيق رؤية بيريلمان في المجتمع العادل. لقد أحسن الوصف عندما قال في "مجال البلاغة" من الواجب علينا أن نعيد صياغة فلسفتنا لنكون رؤية يتفاعل فيها البشر والمجتمعات البشرية ويتحملون مسؤولية ثقافاتهم ومؤسساتهم ومستقبلهم وأن نجعلها رؤية تسمح للناس بأن يجتهدوا في تعميق النظم المعقولة وجعلها قابلة للكمال إن لم تكن كاملة (ص١٦٠). (انظر: Argumentation; Audience; Identification; Judgment; Persuasion).

مصادر ومراجع

Ede, Lisa S. "Rhetoric versus Philosophy: The Role of the Universal Audience in Chaim Perelman's *The New Rhetoric*." *Central States Speech Journal* 32 (1981), pp.pp. 118–125.

تشير إيدا إلى المتلقي العام على أنه دليل على عدم قدرة بيريلمان على تحرير نفسه من افتراضات النموذج النسبي التقليدي في الحجاج. وتلفت الانتباه إلى تناقضات من قبيل الحاجة لتفادي الوضوح الذاتي كمتطلب شكلي بينما يحتفظ به كسمة من سمات المتلقي العام. وتشير إلى أن المتلقي العام لا يلعب دورًا مهمًا في ثلثي الكتاب حيث يتعامل الكاتبان مع تقنيات الحجاج.

Eemeren, Frans H. van, Rob Grootendorst, and Francisca Snoeck Honkemans. "Perelman and Olbrechts - Tyteca's New Rhetoric." In *Fundamentals of Argumentation Theory: A Handbook of Historical Backgrounds and Contemporary Developments* by Erick C. Krabbe et al. Mahwah, N.J., 1996.

يقدم هذا الفصل تفصيلا واضحا لنظرية كتاب "البلاغة الجديدة" في الحجاج خاصة فيما يتعلق بإقناع المتلقي العام. ليست أوجه نقد الكتاب لبيريلمان وأولبريخت تيتكا جيدة دائمًا، لأنها لا تقوم على فهم واضح لأعمال بيريلمان.

Frank, David A. "The New Rhetoric, Judaism, and Post - Enlightenment Thought: The Cultural Origins of Perelmanian Philosophy." *Quarterly Journal of Speech* 83 (1997), pp.pp. 311–331.

تتبع هذه المقالة تأثير اليهودية والفكر التلمودي على نظرية بيريلمان، فهي تحوي جماعية اليهودية وترفض العقلانية العلمية والرياضية عندما

يكون هناك جواب واحد صحيح لسؤال معين، يقال إن كتاب "البلاغة الجديدة" يفضل الحقيقة التي تنبع من التشاور المجتمعي، لأن الكتاب ينظر للمجتمع والمتلقي وليس الفرد على أنه حكم القيم الاجتماعية. يقول فرانك إن نظامه يعرض طريقا بين التنوير والميتافيزيقا وما بعد الحداثة.

Golden, James L. "The Universal Audience Revisited." In *Practical Reasoning in Human Affairs*, edited by James L. Golden and Joseph J. Pilotta, pp.pp. 287–304. Dordrecht, The Netherlands, 1986.

تشرح هذه المقالة، التي تعد واحدة من أفضل المقالات عن الإقناع والمتلقي العام، المفهوم بما لا يسمح بأي غموض حوله، يشير جولدن إلى أن المتلقي العام يُنشئه المتكلم مركزًا على مثال مناسب لفترة تاريخية معينة ويركز على أهمية تفاعله مع القيم العالمية. ويميز جولدن بين القناعة والإقناع ويختم مقاله بشرح الملقي العام وفاعليته عند سقراط وجينيدي في خطابه عام ١٩٦٠ أمام قساوسة هيوستن.

Gross, Alan. "A Theory of Rhetorical Audience: Reflections on Chaim Perelman." *Quarterly Journal of Speech* 85 (1999), pp.pp. 203–211.

يقول المقال إن النزوع للمتلقي العام يحدد الحقائق الواقعية والقناعات بينما يركز النزوع للمتلقي الخاص على القيم المفضلة والهيراركيات. ويقول جروس إن الخطاب الذي يركز على القيم لا يمكن أن يتوجه لمتلق عام، ولكن تصور جروس لا يتفق مع تصور آخرين يقولون إن النزوع لقيم خاصة يمكن أن يتوجه أيضا لمتلقٍ عام.

Perelman, Chaim. "The Rational and the Reasonable." In *The New Rhetoric and the Humanities*, pp. 117 - 123, Dordrecht, The Netherlands, 1979.

يشرح بيريلمان في مقال صغير لكنه عميق نظريته في العقلانية التي يطبقها على القانون على الرغم من أن تطبيقها ممكن في مجالات أخرى. العقلاني يتطابق مع المنطق الصوري والاتساق والتوافق مع السوابق والمبدأ. أما المعقول فيتسق مع المعتاد والرأي المقبول والمتعارف عليه. وعندما يطبق شيئًا عقلانيًا بطريقة صارمة تبينه غير معقول، يتم تغيير الطريقة ليتسق العقلاني مع المعقول، والجدالية بين العقلاني والمعقول تمثل أساس تطور الفكر.

Perelman, Chaim. *The Realm of Rhetoric*. Translated by William Kluback. Notre Dame, Ind.. 1982.

هذا الكتاب الصغير تلخيص جيد لكتاب "البلاغة الجديدة والحجاج" في ١٧٩ صفحة يراجع نظريات الكتاب عن المتلقي والمقدمات ونظام الحجج ويشرح الأسس الفلسفية لنظرية بيريلمان في الحجاج.

Perelman, Chaim. "The New Rhetoric and the Rhetoricians: Remembrances and Comments." *Quarterly Journal of Speech* 20 (1984), pp.pp. 188–196.

يقول بيريلمان في هذا المقال المهم الذي كتبه قبل وفاته إن النقاد فشلوا في التمييز بين التصورات عن البلاغة الجديدة التي عزاها هو نفسه لغيره وآرائه هو. وأكد على الدور الذي تلعبه العمومية في نظريته، ويقول إن المتلقي العام ووظيفته يبين كيفية تفاعل الخطاب مع المتلقي العام وإمكانية تخطيه للمصالح الفردية والقيم الخاصة. ويشير إلى أن الفقه يلعب دورًا في الحجاج مشابهًا للدور الذي تلعبه الرياضيات في المنطق الصوري.

Ray, John W. "Perelman's Universal Audience." *Quarterly Journal of Speech* 64 (1978), pp.pp. 361–375.

يتابع رأي تطور مفاهيم الإقناع والقناعة في كتابات بيريلمان، ويشير للتناقض الواضح بين فكرة المتلقي العام واستخدامها من قبل متلقٍ خاص في سياق ثقافي محدد. ويقول إن المتلقي العام بنية دائرية.

Scult, Alan. "A Note on the Range and Utility of the Universal Audience." *Journal of the American Forensic Association* 22 (1985), pp.pp. 83-87.

يستكشف هذا المقال إمكانية بناء تصور عند المتلقي العام يمكنه من الحكم على جودة الحجاج والحجة.

تأليف: Barbara Warnick

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الوفرة Copia

كل مدلولات الكلمة هي الثراء والتنوع والخصوبة. وتظهر كثيرًا في كتابات البلاغيين القدماء ليس باعتبارها مصطلحا فنيًا ثابتا ولكن باعتبارها طريقة لوصف الجزالة الأسلوبية وكثيرًا ما تستخدم الكلمة للحض على هذا الأسلوب. المقابل السلبي للوفرة هو قلة الموارد اللغوية والإسهاب الفارغ والتفصح.

أدى اهتمام الإنسانيين بإحياء اللاتينية الكلاسيكية في بهاء مفرداتها الكامل وتقنياتها التعبيرية إلى تعزيز طرق ضمان اكتساب أسلوب وافر في الخطابة والإنشاء الكتابي. ربما يكون الكاتب الإيطالي جاسبارينو بارزيزا (١٣٦٠ - ١٤٣٠) قد دعم طريقته في تعلم كتابة اللاتينية كالأقدمين بقوائم مترادفات أخذها من شيشرون. وانتشرت مثل هذه القوائم في إيطاليا في القرن التالي، وكانت تلك هي الطريقة التي تعلم بها الكتاب الناشئون إثراء اللاتينية الكلاسيكية بمفردات ينوعون بها التعبير عن أفكارهم.

ولكن كل تلك الممارسات تجمعت في كتاب شكَّل صورة الوفرة عبر العصور، وهو كتاب "في الوفرة" الذي نشره إراسموس في باريس عام ١٥١٢. وقد فصل وفرة المفردات عن وفرة الأشياء في فصول مختلفة لغرض تعليمي، ولكنها جميعا تشترك لتجعل خطابا ما "شيئا رائعا ومبهرًا منسابا كنهر من ذهب تجري فيه الأفكار والكلمات بثراء وافر". يقدم فصل الكلمات معجم مترادفات في موضوعات كثيرة ومتنوعة ويحتوي على

نصائح بشأن تغيير تركيب الجمل واستخدام الصور البديعية لتحسين التعبير. ارتباط تلك الظاهرة الأساسي بالنحو وليس بالبلاغة، ولكن هذا الارتباط يكون غالبا في المناطق التي يتقاطع النحو فيها مع البلاغة. فقد حوّل إراسموس ماكينات الكلام السليم لمصانع تولّد الكلمات. أما القسم الثاني فهو عن البلاغة، "الأشياء" بالنسبة لإراسموس هي طرق تدعم الحجاج الإقناعي وهي الوصف وتراكم أنماط الإثبات والأمثلة والتشابهات والمقارنات والمقولات. يُعد كتاب "في الوفرة" بخصوبة ابتكاراته وقلة نظامه وتراوحه مثلا جيدًا في حد ذاته للاستخدام الديناميكي والكثير للغة التي يحاول أن يروج لها.

ولكن وفرة الكلمات كفكرة لها نقادها. فقد كانت هناك اعتراضات أخلاقية على رفاهة من الكلمات دون مراعاة للتمييز الأخلاقي. وكان هناك شعور أن الوفرة غير المبررة تمثل القدرة المؤلمة في البلاغة على الإقناع بدون حق. ولكن هذا الكتاب ظل كتابا مدرسيًا مهما لفترة طويلة وإن كان في أشكال مختصرة. ولكنا عادة ما كان مصحوبا بكتيبات تشجع التلاميذ على أن يوجهوا طاقاتهم في البحث عن الكلمات وانسياب أسلوبهم إلى قنوات الطرق الحجاجية التي كانوا يتعلمونها في فصول الجدل (**Dialectic**).

من أهم طرق تنظيم الوفرة كان استخدام كتب المصنفات التي قدم إراسموس نفسه أعظم مثل لها في كتاب "في الوفرة". ولكن كتاب المصنفات في هذه الحالة كان طريقة لتوليد الخطاب وليس التحكم فيه. جمع التلاميذ كلمات في كتب مصنفاتهم وصنفوا عبارات واقتباسات لإعادة استخدامها وتقليدها ووضعوها تحت عناوين أخلاقية (انظر: Commonplaces and commonplace books). وفرة الكلمات إذن كانت مليئة بمحتوى، وتم استئناس طاقة إراسموس ورابيليه اللفظية لتدفع الاستراتيجيات الإقناعية التي تميز

أسلوب موتيني النثري الجزل وتغذية الشعراء الإليزابيثيين بكلمات ذهبية. لقد أصبحت سمات الأسلوب المحببة في اللاتينية الكلاسيكية كما كان الحال في كل شيء تقريبا هي السمات الأسلوبية المرجوة في اللغات المحلية في غرب أوروبا، وليس في الكتابة فقط بل وفي الحديث أيضا والذي اعتمدت الوفرة فيه على الرصيد الثقافي الذي جمعته الصفوة الثقافية المتنافسة. يربط بعض المعلقين المحدثين بين هذه الظاهرة والرأسمالية الوليدة في أوائل العصر الحديث على الرغم أن المؤرخين الثقافيين ليسوا متحمسين للفكرة بقدر حماسة النقاد الأدبيين لها، فالربط بين قوة الكلمات والقوة السياسية في تلك الفترة أسهل في التوضيح.

بدأت قيمة الوفرة تقل تدريجيًا في القرن السابع عشر؛ فقد استطاع إراسموس الربط بين التنوع اللفظي ووفرة الطبيعة لأن الكون بالنسبة له ولمعاصريه كان يرفل في التنوع الذي كشفت عنه الثورة العلمية في القرن السابع عشر حيث تقلص التنوع في قوانين بسيطة. وعندما أصبح الوضوح أقيم مما سواه أصبحت الوفرة اللفظية معوقا فكريًا فلم تعد اللغة أداة لتزيين المدركات وتفخيمها بل لزم وضوحها لتنقل المعرفة بدون تدخل لفظي. كما أن وفرة الكلمات فقدت قوتها الإقناعية التي اكتسبتها من خلال ارتباطها بالجدال عندما أفسد المنطق الرياضي القوي استراتيجيات الجدال الحجاجية، وانتقلت الوفرة لمجال الأدب لأن اللعب بالكلمات كان ممكنا ولكنها أيضا فقدت مكانها هناك لأن أسلوب الإنشاء الأدبي المحلي الذي لم يعد نموذجه الأساسي لاتيني أصبح قائما على أساليب السلوك المهذب والمقبول في المجتمع الذي يتعاطاه.

منذ منتصف القرن السابع عشر أصبح أسلوب فرانسيس بيكون الاجتماعي هو النمط المعياري لأوروبا. كان الأسلوب المحبب للناس هو

الذي يتميز بالقدرة، بدون الإعلان اللفظي عن تلك القدرة، ومتمكنا من الكلمات لعمق فهمها وبعيدا عن الإحالات للكتب القديمة والمفردات الوفيرة. وتقلمت اللغة الفرنسية نفسها تقلما عظيما وعلى الرغم من أن الإنجليزية قاومت هذا التعدي على خصوبتها الأصيلة فإنها استجابت لمتطلبات العصر. (انظر: **Style**).

اختفى مصطلح الوفرة من الخطاب النقدي منذ القرن السابع عشر، ولكنه بقى ليصف السمات الأسلوبية الخاصة بالحقبة الحداثية المبكرة، ولم يعد له مكان في الشكل الجديد للبلاغة منذ خمسينيات القرن العشرين. ربما يرجع السبب في ذلك إلى أنه مصطلح فضفاض جدا لم يكتسب أي دقة إلا بارتباطه بفترة استخدمته بدقة. ولكن الوفرة تقاوم - ولا تزال فاعلة - تطرفات الأسلوب كما هو الحال في نثر روائيين مثل جيمس جويس ومارسيل بروست. ولكن على النقيض من ذلك هناك اختزال المسرحي والروائي صامويل بيكيت. ولكن الوفرة في الواقع شاملة جدا فقد وجد إراسموس مكانا في نهاية كتاب "في الوفرة" ليقدم فصلا عن الاختصار. (انظر: Amplification).

مصادر ومراجع

Cave, Terence. *The Cornucopian Text: Problems of Writing in the French Renaissance*. Oxford, 1979.

العمل الرائد في هذا الموضوع حيث يعمل داخل سياق تاريخ الأدب والنظرية الأدبية.

Crane, Mary T. *Framing Authority: Sayings, Self, and Society in Sixteenth - Century England*. Princeton, 1993.

يضع الوفرة في سياق التاريخ السياسي لتلك الفترة.

Erasmus, Desiderius. *Copia: Foundations of the Abundant Style*. Translated and annotated by Betty I. Knott. In *Collected Works of Erasmus*, edited by Craig R. Thompson, vol. 24, pp.pp. 279–659. Toronto, 1978.

تأليف: Ann Moss

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التصحيح Correctio (باليونانية: epanorthōsis)

هو محسن فكري تضخيمي يرمي إلى تعديل المصطلحات المستخدمة كما يبين هينريش لاوزبرج، وله هدفان: فهو أولا يُحدد أو يُعدل أو يُعزز ما قيل ليبين دقة المتكلم وتعمقه فيما يقول، كما هو الحال عندما ينعي هامليت عند شيكسبير ذكرى والده القصيرة قائلا: "ولكن مات منذ شهرين، ليسا شهرين، ليسا كذلك" (انظر الفصل الأول، المشهد الثاني)، ثانيًا يحترم التعديل مشاعر المتلقي بالاعتذار مسبقا أو لاحقا عن أي هفوة أخلاقية أو لفظية بعبارات مثل "إن جاز لي أن أقول ذلك". (انظر: **Figures of speech**).

مصادر ومراجع

Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study*. Translated by Matthew T. Bliss, Annemiek Jansen, David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson. Leiden, 1998. English translation of *Handbuch der literarischen Rhetorik*, first published in 1960.

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

المصداقية Credibility

يمكننا أن نفهم المصداقية على أنها انطباع بالثقة يتركه المتكلم أو الحجج التي يسوقها لدى المتلقي. تشير المصداقية للسمات الشخصية للخطيب بشكل كبير؛ لأن تلك السمات هي التي تؤثر أكثر من غيرها في تقبل المتلقي للخطبة والخطيب. ويبدو أن اعتقاد المتلقي بأن الشخص الذي يمتلك سمات أخلاقية جيدة سيقول الحقيقة (انظر جمهورية أفلاطون في الكتاب الأول، 331d2) ولذلك يصبح أكثر مصداقية فكرة ثابتة. ولكن خطباء اليونان لم يدركوا طاقات تلك الفكرة كاستراتيجية قوية، ولم يدركها أيضا كتاب الرسائل المعنية بالبلاغة.

يصف الخطيب جورجياس (٤٨٣ - ٣٧٤ قبل الميلاد) قوة الحديث الجبارة فقط من خلال قدرته على التلاعب بعواطف المتلقي ليتركهم في حالة من العجز عن الدفاع عن أنفسهم، بحسب تعبير جورجياس، أمام تلك العواطف التي تقهرهم. تفكير المتلقي في الادعاء والذي قد يشمل التفكير في مصداقية المتكلم أو حجاجه ليس عنصرًا من عناصر التوجه البلاغي عند جورجياس. ولم يكن جورجياس استثناء في ذلك، فهناك أدلة تشير إلى أن خطباء اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد توجهوا للعاطفة دون غيرها. يقول المؤرخ الأثيني ثيسيديديس (٤٦٠ - ٤٠١ قبل الميلاد) إن السياسي الديموقراطي بيركليس كان يمتلك القدرة على إخافة الأثينيين كلما لاحظ تبجحهم. كما كان قادرًا على استعادة شجاعتهم كلما لاحظ خفوتها غير المبرر (*Historia* 2.65.9). ويشير أفلاطون في وصفه النقدي للبلاغة التي

يمارسها السوفسطائيون إلى أنها تمتلك القدرة على إثارة العواطف المتناقضة. ويثبت أرسطو أن هذا هو فعل الخطباء فعلا حيث يقول في الفصل الأول من كتاب "البلاغة": إن من كتبوا في البلاغة من قبله ركزوا على التلاعب بعواطف الجمهور (1354a11–17). إذا كان أرسطو قد اعترف بأن بعض كتاب الماضي قد أدركوا أهمية صلاح الشخصية كعنصر من عناصر البلاغة (هذا في الحقيقة مشكوك فيه لأن النص الذي يقول فيه أرسطو ذلك مشكوك فيه بدوره) (1.2.1356a11–12)؛ فهو يقول أيضا إن رأي هؤلاء الكتاب أن نوعية الشخصية لا تؤدي لإقناع المتلقي.

أفلاطون (٤٢٨ – ٣٤٧ قبل الميلاد)

يعبر سقراط في محاورة "جورجياس" المبكرة لأفلاطون عن ضرورة أن يكون الخطيب الحق ذا شخصية حسنة. لا يرى سقراط في هذه المحاورة أن نوعية الشخصية إستراتيجية بلاغية من شأنها أن تدعم مصداقية الخطيب عند المتلقي بل طلب سقراط أن يمتلك الخطيب شخصية جيدة تعكس معاييره الأخلاقية العالية، فقط لأنه طلب الطلب نفسه في المحاورة نفسها من السياسيين الذين يُعتبرون من مجموعة الخطباء نفسها لأن البلاغة تمكن الفرد من حكم الآخرين في المدينة وإقناعهم في المحافل (452d5–4). ولكن إذا ما وضعنا في اعتبارنا نوعية المجتمع وقوة القيادة السياسية التي يتصورها أفلاطون فلا يمكن أن تكون مصداقية الخطيب مسألة مهمة له. فالسياسي المثالي يقود بالإقناع أو بالقوة ويرفض فكرة أن يلام القائد إن استخدم القوة بدلا من الإقناع (296a4–e4). يقدم أفلاطون في "فيدروس" تصورًا للبلاغة يطابق المعايير الفلسفية. البلاغة هنا هي فن اكتساب روح المتلقي ولكي ينجح الشخص فعليه أن يدرس الروح ويعرف أنواعها، فعليه أن يصنف الناس ويطوع خطابه لكل نوع منهم (271a–273e). وتركيز أفلاطون هنا

على التركيبة النفسية للمتلقي وعلى الخطيب أن يصمم خطبة تتناسب مع تلك التركيبة، ولكن أفلاطون ليس مهتما بسمات الخطيب المتكلم.

أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢)

يبدأ كتاب "في الخطابة" بنقد عنيف لانشغال الخطباء والكتاب بإستراتيجية بلاغية تعتمد على قدرة المتكلم على التأثير في عواطف المتلقي (1.1.1354b20). يقيد أرسطو دور العاطفة في نظريته البلاغية بإضفاء أهمية أكبر على نمطين آخرين من أنماط الإقناع؛ وهما القياس البلاغي والإضمار وشخصية الخطيب التي يعتبرها أهم نمط من أنماط الإقناع. وهو تقييم يقتبسه كينتليان لاحقا (c.35–100 ce; 5.12.9) (**Enthymeme**). ويأتي اللعب على عاطفة المتلقي في المرتبة الثالثة من الأهمية، تشترك طبيعة شخصية الخطيب والأدلة المنطقية في تصديق المتلقي للخطيب (Rhetoric, 2.1.1378a6–15) وهي القدرة التي تنقص العاطفة (انظر: **Pathos**).

تتصف هذه الأنماط الإقناعية الثلاثة بأنها "فنية" أي أنها من نتاج عقل الخطيب الإبداعي أو امتلاكه ناصية فن البلاغة وأصوله. وتختلف عن الوسائل غير الفنية المتاحة ليستخدمها الخطيب كالأدلة والشهود والأوصاف المكتوبة. يتصور أرسطو أن عملية إعداد الخطاب العقلية واستخدام أي من الأنماط الإقناعية الثلاثة أرقى من استخدام الأدلة الموجودة فعلا. ولكن يبدو أن أرسطو يعتقد بأهمية مصداقية الخطيب لدرجة أنه ينصح باستخدام الوسائل غير الفنية في الإقناع لهذا الغرض، فليس من المفيد أن نضيع فرصة استخدام شاهد لإثبات جودة شخصيتنا، ولكن أرسطو يركز من خلال تقديمه للشخصية كواحدة من الأنماط الفنية على إنجاز الخطيب من خلال إتقانه لفن البلاغة وليس على السمات التي يمتلكها الخطيب كما كان الحال في البلاغة قبله، يركز أرسطو على هذه النقطة في الفصل الأول، وتشبه

الشخصية بهذا الشكل إبداع الخطيب الفني لشخصية معينة تمتلك القدرة على إقناع المتلقي من خلال خطبته. وبذلك يظهر أن ذلك الخطيب يمتلك سمات معينة قد لا يمتلكها فعلا. كلما يشير أرسطو لشخصية الخطيب يستخدم عبارة "كأنه يظهر" بغض النظر عن سماته الحقيقية. يفتح هذا التصميم على أن يظهر الخطيب بشكل معين الباب للاعتقاد بأن الشخصية التي يقدمها الخطيب خيالية تقريبا، ولكن المعوق الوحيد في فعل رسم تلك الشخصية الإبداعي هو أن الحقيقة بطبيعتها أكثر مصداقية ولذلك فالخطيب الذي يصور نفسه بسمات ليست فيه، أمامه معركة أصعب.

يتحقق الإقناع بالشخصية إن جاءت الخطبة بطريقة تظهر الخطيب بمظهر الثقة والمصداقية. يقول أرسطو إن هذا ممكن التحقق بثلاث سمات هي أولا مظهر حسن الشخصية، وثانيًا حسن النية وثالثا امتلاك حكمة عملية. من الواضح أن الحكمة العملية ظهرت هنا لأنها السمة التي يجب على السياسي أن يتمتع بها في رأي أرسطو، وهو الشخصية التي يتوجه لها بالكلام في "البلاغة"، فالبلاغة السياسية أو التشاورية أعلى مرتبة من البلاغة التي تمارَس في المحاكم، والسمات التي تندرج تحت الأنماط التقنية في الإقناع ذات طبيعة أخلاقية أو إقناعية أو لها صلة بعلاقة الخطيب بالمتلقي، قيل إن أرسطو لم يأخذ فكرته عن الشخصية في كتاب "البلاغة" من نظريات البلاغة المبكرة، ولكن النصوص النثرية من القرن الخامس قبل الميلاد تبين أن السمات التي وضعها أرسطو للشخصية استُخدمت من قبل في سياق بلاغي. لقد جعل المؤرخ ثوكليديديس بيركليس يصف نفسه بنفس الطريقة مشيرًا لسماته العقلية وحسن نيته تجاه المجتمع ونزاهته الشخصية التي نعرفها من حقيقة أنه لا يمكن رشوته. وفي كتاب "دستور الأثينيين" مجهول الكاتب نعرف أن شخصا من طبقة المؤلف عندما يتكلم في محفل سياسي ما

سيبدي حسن سلوك رجل حسن والمعرفة ونية سيئة للمجتمع. وقارن بين هذا الشخص وشخص آخر من أثينا أيضا ليست عنده السمتان الأوليان ولكنه يمتلك حسن النية، السمات الثلاثة التي نتكلم عنها هنا كانت متماثلة مع شخصية أرسطو ليس لمؤلف هذا الكتاب أي فكر نظري عن البلاغة وعن وسائل الإقناع المتنوعة، ولكنه كان يفترض ببساطة أن المتلقي يثق بالمتكلم ويدعمه لأنه يعرف سماته وليس لأن المتكلم يوحي بانطباع أنه يمتلك تلك السمات، كما كان الحال عند أرسطو.

كان أرسطو في نظرية البلاغة اليونانية الكلاسيكية هو الذي قدم مظهر مصداقية الخطيب كإستراتيجية لإقناع المتلقي، فهو الذي رفع الشخصية لمكانة الإقناع بذاتها، واخترع مصطلح "فني" لوصفها. ولكن التعامل المنظم مع تلك المسألة غاب عن دراسات نظرية البلاغة بعد أرسطو حتى منتصف القرن الأول الميلادي.

المصداقية في البلاغة الرومانية

كانت للمتهم في قاعة المحكمة الرومانية فرصة النصح القانوني من خلال مرشد من الطبقة الرفيعة (يعطيه مكانه الرفيع مصداقية هو ومَنْ يدافع عنه) على عكس المتهم في أي قضية في أي محكمة يونانية حيث يدافع المتهم عن نفسه بنفسه. ومع ذلك تعكس النظرية البلاغية والتعليم البلاغي في روما تأثيرًا يونانيًا كلاسيكيًا وهللينيًا معا، هذا على الرغم من أن الحكمة الموروثة بشأن الشخصية لها علاقة بشخصية المتهم، ومن يدافع عنه.

لقد ضاعت كل الكتب الهللينية التي كانت مصممة أساسا لأغراض تعليمية على الرغم من أن تأثيرها كان واضحا في الأنظمة التقنية الموجودة في عدد من الرسائل الرومانية من القرن الأول. ولكن شيشرون السياسي

الروماني الكبير الذي كتب الكثير من تلك الرسائل والبلاغي الروماني كينتليان يوسعان مفهوم تلك الكتب الهللينية عن طريق الدعوة إلى تعليم الخطيب المستقبلي الذي يبغي التوصل إلى مثل النموذج اليوناني في الخطابة والمبادئ التي أرساها أفلاطون وأرسطو في كتاباتهما الفلسفية عن البلاغة.

يشير شيشرون في "في الخطابة" إلى أنماط أرسطو الثلاثة في الإقناع حيث استبدل فكرة الشخصية بفكرة كسب المتلقي. يستخدم كينتليان المصطلح اليوناني "إيثوس" للعاطفة الرقيقة التي يستجلبها الخطيب في المتلقي "إفيكتوس". ولكن الكلمة الآن تشير إلى تعاطف المتلقي عندما تسطع شخصية الخطيب من خطبته، تؤثر هذه الشخصية في المتلقي عاطفيًا بشكل رقيق جدا، وعن طريق اكتساب حسن نية المتلقي نفسه. ويساعد هذا في الإقناع، وأشار أرسطو إلى تناوله للعواطف لشرح النية الحسنة، ومع ذلك فإن مثل تلك الرابطة مع العواطف لم تكن موجودة في حالة العنصرين الآخرين للشخصية عند أرسطو وهما حسن الخلق والحكمة العملية، يختلف شيشرون وكينتليان عن أرسطو عندما يفترضان أن إظهار الشخصية له تأثير عاطفي فى المتلقي (انظر البلاغة ٦ ١٩٨٨ ص٢٥٩ - ٢٧٣ لفورتينبو).

المصداقية مسألة مهمة في كل جوانب الخطبة، ففي المحاكمة يجب أن يقول الخطيب إنه أحس بعبئ أخلاقي يجبره على قبول تلك القضية وليس لأي هدف شخصي. وقد يختار الخطيب أن يظهر الضياع بأن يدعي أنه لا يعرف كيف يبدأ أو يستمر في خطبته. يظهر مثل هذا السلوك الخطيب ليس على أنه ماهر متمكن من البلاغة ولكن سيظهره بمظهر الرجل الأمين، هذه الحيلة البلاغية التي نسميها "التشكك" توحي بالثقة في صحة ما يقوله الخطيب. علاوة على ذلك فيجب على الخطيب أن يقدم نفسه باعتباره شخصا طيبا، المقدمة أيضا هي المكان المناسب الذي يمكن للخطيب فيه أن يستبق

إستراتيجية الخصم وأن يرد عليها. إن كان لنا أن نفترض أن مصداقية الشاهد ستقع محل شك فعلى الخطيب أن يستبق ذلك بالتأكيد على ضرورة تصديقه، سرد شيشرون في كتابه "في الابتكار" هذا السلك من الادعاءات ووضعه تحت مصنفات الحجاج المقبولة.

يجب أن يتوفر في سرد الأحداث ثلاث مميزات؛ إذ يجب أن يكون قصيرًا ومقبولا وجزلا (لاوسبرج ١٩٩٨ ص٢٩٤ - ٢٩٥). يجب على الخطيب أن يقدم الأحداث بشكل أخاذ، وأن يقنع المتلقي أنها حدثت فعلا بالشكل الذي يصفه. أما إن كان الخطيب ممثل الادعاء فعليه أن يبين أن المتهم يمتلك شخصية قادرة على فعل ما نسب إليه، وإن كانت الأحداث نفسها ليست على ما يفضل الخطيب فمن الممكن أن يختار أن يقدمها بشكل منحاز عن طريق صياغتها بشكل يناسبه أكثر، استخدام التدقيق النفسي في ما قد يتوقعه القاضي وغير هذا من الإستراتيجيات مفيد لهذا الغرض (لاوسبرج ١٩٩٨ ص٣٢٥ - ٣٢٨).

يستخدم الخطيب في مرحلة الأدلة التشاور والتعليم ليثبت للمتلقي أن الوصف المقدم له مصداقية (شيشرون، في الابتكار، الجزء الأول)، تحقيق المصداقية أدنى من إثبات أن شيئا ضروري، ولكنه أعلى من أن تسلسلا من الأحداث ما ليس مختلفا عن الادعاء المقام (انظر كينتليان، الفصل الخامس وانظر أيضا لاوسبرج ١٩٩٨ ص٣٧٠)، يتعامل الخطيب في مرحلة الأدلة مع مسائل الاحتمالات التي كانت عنصرًا مهما في البلاغة اليونانية، فسيثير التساؤل مثلا عن احتمالية أن يكون الابن قد قتل أباه. ويمكن الحكم على حجة ما أيضا من خلال الإشارة لظروف الشخص صاحب الحالة ومواقفه وبالإشارة إلى أن بعض التصرفات قد يعقل أن تصدر عن نوعية معينة من الناس، بل ويمكن أيضا التأكد من صحة حالات كثيرة من خلال الحقائق

المتصلة بها (لازسبرج ١٩٩٨ ص٣٧٧ - ٣٩٩)، ولذلك فتوضيح أن شخص ما لديه القدرة والإمكانيات على فعل شيء ما يعطي الادعاء مصداقية.

أي طرح يحصل على قدر من المصداقية إذا وضع المتكلم أو من ينوب المتكلم عنه في مكانة مناسبة، وإذا تماشى مع كل توقعات الشخص العادي في حياته العادية، كما أن الخطاب ذا المصداقية يتجنب في كل أقسامه كل ما من شأنه أن يثير الشك في أي وصف من الأوصاف التي يقدمها الخطيب.

مصادر ومراجع

Gorgias. *Encomium of Helen*. Edited with introduction, notes, and translation by D. M. MacDowell. Bristol, U.K., 1982.

النص اليوناني وترجمته الإنجليزية.

Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric. A Foundation for Literary Study*. Translated by Matthew T. Bliss, Annemiek Jansen, and David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson. Leiden, 1998. English translation of *Handbuch der literarischen Rhetorik*.

عرض منهجي لنظرية البلاغة القديمة. نشر لأول مرة عام ١٩٦٠.

May, James M. *Trials of Character: The Eloquence of Ciceronian Ethos*. Chapel Hill, N.C., 1988.

دراسة لتقديم شيشرون في خطبه.

Moore, John M. *Aristotle and Xenophon on Democracy and Oligarchy*. London, 1975.

ترجمة للنصوص اليونانية حول دستور أثينا ورسبارتا.

Schütrumpf, Eckart. *Die Bedeutung des Wortes ethos in der Poetik des Aristoteles*. Zetemata 49 (1970).

كتاب عن معنى العقل قبل أرسطو وأهميته في كتاب "الشعر".

Wisse, Jakob. *Ethos and Pathos from Aristotle to Cicero*. Amsterdam, 1989.

دراسة شاملة لنوعي الإقناع.

تأليف: Eckart Schütrumpf

ترجمة: محمد الشرقاوي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

النقــد Criticism

الفكرة الحقيقية للنقد لها تاريخ طويل من المعاني المتباينة. فقد كان الناقد في الأصل هو الطبيب القادر على الحكم على الأمور المتعلقة بالصحة والمرض. ومع بداية القرن السابع عشر، اتسع ما كان يفعله الطبيب، أي النقد، في إنجلترا ليشمل جميع الأحكام في أي مجال. (لم تصبح الكلمة شائعة في الفرنسية حتى القرن التاسع عشر). وكان النقد بالنسبة للبعض هو المشاركة في أكثر الأحكام تفصيلاً سواء معها أو ضدها.

ونظرًا لأنه ليس هناك من يحب أن ينتقد كثيرًا، فليس من الغريب أن اتخذ مصطلح النقد بالنسبة للكثيرين سريعًا دلالات سلبية: "لماذا تقوم دائمًا بالنقد؟" يعني النقد الهدام. أتذكر والدتي عندما كنت في سن المراهقة، تصرخ في وجهي "واين... أنا لا أستطيع تحمل سماع الكثير من النقد. " وتقصد به الأحكام السلبية على أحكامها النقدية وتصرفاتها.

وعندما تم تبنى مصطلح النقد بشكل متزايد من قِبل دارسى الأدب، أصبح يعني للبعض النقد الأدبي ببساطة: أى الحكم على الجودة الأدبية. ونظرًا لأن مثل هذه الأحكام محل تنافس دائمًا، فقد حاول الكثيرون التغلب على الأمور التى تجعل النقد جيدًا أو سيئًا. وفي واحدة من أبرع المناقشات على الإطلاق عن هذا الموضوع، يبدأ ألكسندر بوب Alexander Pope فى "مقال حول النقد" (١٧١١)، بالتعامل مع المشكلة النقدية التي تتجاوز دراسة البلاغة – كيف نضع نوعًا من النقد ليس له آثار سيئة على القراء من خلال تدريس التقييمات الخاطئة:

من الصعب القول إن كان نقص المهارة

يظهر في الكتابة أو في نقدها؛

ولكن الأقل خطرًا، من بين كليهما

أن يَكِلَّ صبرنا، ولا يضل إحساسنا.

هناك حقا قليلون من هؤلاء، ولكن الكثيرين مخطئون،

فهم ينقدون كل من يكتب فيخطئ فى الكتابة.

(١ - ٦)

ما إن تبنَّى المزيد من نقاد الأدب المعانى الإيجابية للمصطلح، على أنها تنطبق على الأعمال الأدبية من القصائد والمسرحيات والروايات –أصبح النقد أرقى فنون الحكم على الفرق بين الجيد والسيئ من الأعمال. ولقد ذهب ماثيو أرنولد Matthew Arnold إلى ما هو أبعد من ذلك فى رده على أولئك الذين يرونه فقط حكمًا سلبيًا متطرفًا. يقول أرنولد: "أنا ملتزم بتعريفى للنقد: إنه محاولة موضوعية لتعلم أفضل المعارف والأفكار في العالم ونشرها " (Essays in Criticism، لندن، ١٨٨٨). وبالنسبة لبعض النقاد، في ذلك الوقت وفى الوقت الحاضر، كان استخدام أرنولد لهذه الكلمة: "نشر" أمرًا مزعجًا، بل ومهينا. فبالنسبة لهم، ينبغي أن يمارس النقاذ النقد في المقام الأول ليس من أجل تغيير أو تحسين مستوى العالم – لأن هذا ما تفعله البلاغة – ولكن للكشف عن حقيقة الأعمال الفنية. "فنشر" الأفضل يختلف تمامًا عن البحث غير المنحاز فيما هو أفضل فى الواقع. (وفي عصر أرنولد، كانت كلمة disinterested تعني شيئًا من قبيل "غير منحاز" و"موضوعي"؛ فى حين أن معظم القواميس اليوم تقدم معنى ثانيًا وحيدًا للكلمة؛ بينما المعنى الأول هو "غير مهتم"، و"عدم انشغال العقل أو مشاركة المشاعر"، وهو معنى مناقض

للمعنى الذى يقصده أرنولد.) إن الجدل حول ما إذا كان النقد هو نفسه البلاغة، أو ما إذا كان يتعامل مع البلاغة، ملأ الدنيا منذ العصور القديمة حتى الآن. والواقع أن العلاقة بين التعريفات المتنوعة "للبلاغة" والتعريفات المتنوعة "للنقد" هي من التعقيد بحيث لا يوجد (وصف) موجز يستطيع تجنب التشويه الشامل. فغموض المصطلحين كبير لدرجة أن المرء يميل إلى استخدام هذه الاقتباسات المفزعة كلما ذُكرت الكلمتان.

وقد أُلِّف العديد من الكتب - وسيكون هناك المزيد بلا شك - حول مجموعة متنوعة من العلاقات المتناقضة أو الصراعات بين النقد والبلاغة:

بين فن الشعر وفن الخطابة. فن الشعر هو دراسة كيفية صنع الأعمال الأدبية؛ أما فن الخطابة فهو فن الإقناع، أو كما يقول أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) إنها الموهبة والقدرة، على "الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان" (فن الخطابة: Rhetoric 1 - 2). وقد تبنى الآلاف من المفكرين منذ عصر أرسطو وحتى اليوم كتابى "فن الشعر Poetics" و"فن الخطابة Rhetoric" كدليلين.

"بين الجمال والفائدة"

اعتبر الكثيرون أن الفن يهدف فى العموم إلى المتعة والفائدة، أو كما يقول العديد من النقاد اللاتين، إنه جميل ومفيد dulce وutile (هوراس Horace٦٥ - ٨ ق. م.). بينما يميز آخرون بين الهدفين بشكل حاد، وخاصة مع ظهور حركة "الفن من أجل الفن"، التي ترى أن الحديث عن فائدة الأعمال الفنية يفسد جمالها. ولم تزدهر العبارة الفرنسية "l'arte pour l'arte "الفن من أجل الفن"، التي صاغها فيكتور كوزان Victor Cousin في بداية القرن التاسع عشر، إلا قرب نهاية هذا القرن.

بين النظرية الجمالية والنفعية أو السياسية أو الاجتماعية

وقد ميز جون ستيوارت ميل John Stuart Mill(١٨٠٦ - ١٨٧٣) بين النظريات العملية والفنون - باعتباره ممثلاً للنفعيين حتى فى اعتماده بشدة على تأثيرات الأدب، وخاصة شعر وورد وورث Wordworth -؛ كما ميز بين أنواع من النقد الشكلي أو البنيوي (ولا سيما من أطلق عليهم النقاد الجدد، في منتصف القرن العشرين)، والقضايا السياسية أو الأخلاقية.

وميز كذلك بين كلٍ من البلاغة بما هي دراسة لكيفية الإقناع والنقد بما هو دراسة لكيفية التفكير فى اللغة - علم الجدل، والتفسير ووسائل التفكيك والنقد الثقافي المتنوعة.

وليس من بين هذه المزواجات ما له أي معنى متفق عليه، فمعظمها متداخل فيما بينه. لكن من يكتشف المعنى الكامن للبلاغة وراء مرادفاتها، والنقد الأدبي في صوره الكثيرة، لا بد له أن يواجه مزاعم تتراوح بين التنافر التام والتوافق التام. وللدفاع "عن الشعر الحقيقي" على سبيل المثال، قال بول فيرلين Paul Verlaine (١٨٩٦ - ١٨٤٤)، معتبرًا الشعر هو الفن اللفظي الحقيقي الوحيد: "خذ البلاغة وقم بليِّ عنقها. " ويقول جون ستيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣)، فى تعريف البلاغة باعتبارها ما يمارسه الخطباء، لا الكُتَّاب، وبالتالي فهو يرى أن الفصاحة هي قلب البلاغة: "تكتب البلاغة للاستماع إليها، والشعر للاستماع وتكرار الاستماع" (اقتباسات من سلوان Sloane١٩٩٣، ص ١٠٤٦). واتجه آخرون وجهة أخرى، وذلك بدمج الاثنين(النقد، البلاغة) تمامًا بما يشير إلى أن كل أشكال الاتصال الفعال، حتى غير اللفظى منها، هى بلاغية بمعنى أو بآخر: وتتضمن الفكرة الأصيلة للتأثير وجود جمهور، وغرضًا موجهًا إلى ذلك الجمهور. البعض الآخر لم يذهب إلى هذا الحد ولكنه قال ببساطة إن جميع أشكال الاتصال، حتى أقلها بلاغة، إنما تعتمد على أساليب وأدوات بلاغية.

يتطلب هذا المشهد المحير بشكل جذري تاريخًا تفصيليًا في حد ذاته. ولكن علينا هنا التحرك بسرعة، بعد تقديمنا وصفًا تاريخيًا ممتدًا، لكنه موجز على نحو غير كاف، للنظر في القضايا الرئيسية التي يواجها الآن العديد من النقاد الذين أعادوا اكتشاف أهمية الدراسات البلاغية للنقد.

الأفول التاريخي للبلاغة، وبخاصة في النقد الأدبي

وفقًا لتعريف أوسع نطاقا للبلاغة لا يقف عند مجرد الخطابة أو الحجاج ولكن يشمل كل وسائل الإقناع الأدبي، لم يتمكن النقاد من تجنب ممارسة شكل ما من أشكال النقد البلاغى. ووفقا لتعريفات أضيق نطاقًا وأكثر انتشارًا اختفت البلاغة تمامًا تقريبًا من الساحة الأدبية بحلول نهاية القرن الثامن عشر (انظر جينيت Genette، ١٩٨٢). ولم تستخدم كلمة "البلاغة" في معظم كتابات النقد "الأدبي" خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وحتى خارج حقل الأدب، بدأت مكانة البلاغة ودراسة البلاغة فى التراجع بشكل كبير منذ عصر النهضة، حيث سيطرت على عالم الحقيقة أشكال مختلفة من الأدلة "العلمية" أو "العقلانية" (المزيد من الاقتباسات المفزعة مطلوبة)، وسيطر الاهتمام بالعاطفة والمشاعر والرومانسية على عالم الجمال. يقول ريتشارد مكيون Richard Mckeon(١٩٠٠ – ١٩٨٥)، الذى يعد أكثر من تعمق فى دراسة الموضوع في عام ١٩٤٢: إن "تاريخ البلاغة كما كان مكتوبًا منذ عصر النهضة... في جزء منها هو السجل المحزن لغباء الكُتَّاب الذين لم يقوموا بدراسة الكلاسيكيات، وتطبيق البلاغة على الأدب، وفى جزء منها السرد الممل للتعاليم، أو الجُمل المكررة لشيشرون أو من يقومون بشرح شيشرون. (Rhetoric in the Middle Ages، ١٩٨٧، ص ١٢١)

وبحلول منتصف القرن العشرين، نجد أن استخدام كلمة «البلاغة» قليل جدا من قبل هؤلاء المشتغلين بالنقد بشكل صريح. وكان استخدامها فقط فى السياسة، حيث كانت تعني دائما "مجرد إقناع" – وفي كثير من الأحيان "مجرد إقناع خادع ومضلل ". وفي وسائل الإعلام، نجد الكثير من الاقتباسات للسياسيين مثل "دعونا نترك البلاغة، ونبدأ الكلام الجاد"؛"الحقيقة " (اقتباس آخر مفزع وضروري)، حتى الحقيقة فى الأدب، في ذلك الحين غالبًا ما يتبعها التشدد "الديكارتي "(رينيه ديكارت René Descartes، ١٥٩٦ - ١٦٥٠) أو الوضعي أو العلمي أو التحليلي. كانت تتم دراسة الأدب إما تاريخيًّا – من فعل ماذا ومتى ولماذا؟ - أو بنويًّا، تحت عدة مسميات يمكن تلخيصها فى الشكلانية. وأصبح جمال العمل أو وحدته الفريدة (أو عدمها) هو المركز، ولكن في الوقت نفسه، وبينما كان جميع الفلاسفة بدون وعي ولكن - بشكل حتمي - في صراع مع قضايا بلاغية، كان جميع النقاد الأدبيين في الواقع يمارسون النقد البلاغي بوعي أو بدون وعي، داخل نطاق أو آخر من التعريفات الواسعة النطاق للبلاغة والتي ظهرت في الآونة الأخيرة.

قبل ذلك الانهيار والتعافي، كان لكل من مصطلح البلاغة وتطبيق المناهج البلاغية على المملكة «الأنقى» للجمال أو الحقيقة، تاريخ متفاوت بشكل غير عادي. وعلى الرغم من أن تراجع مكانة البلاغة من عصر التنوير إلى نحو خمسين عاما مضت كان الأكثر حدة من أي وقت مضى، فإنه لم يكن الوحيد. كان للبلاغة دائما فترات صعود وهبوط كرفيقة، أو خادمة، أو جارية إما للحقيقة أو للشعر، مع وجود مدافعين متحمسين وكذلك معارضين متحمسين. واختلف أفلاطون Plato (٤٢٨ - ٣٤٧ ق. م.) ومن بعده الأفلاطونيون والسوفسطائيون حول ما إذا كانت البلاغة قد أفسدت أو أفادت الحقيقة والبحث الأصيل وكيفية ذلك. [انظر **البلاغة الكلاسيكية**، و**السوفسطائيون** **Classical rhetoric**; and **Sophists**.] ومن خلال

التفكير في كيفية قيام البلاغة بالدفاع عن نفسها ضد اتهامات الباحثين عن الحقيقة من أمثال، أفلاطون، يورد أفلاطون في بداية محاورته قول سقراط:

ربما نكون قد تعاملنا مع البلاغة بقسوة، ويمكنها أن تجيب: "ما هذا الهراء المدهش الذي تقولون! وكأنني أنا التى أجبرت أي إنسان على تعلم كيف يتكلم متجاهلا الحقيقة! أيا ما كانت قيمة نصيحتي، كان من الواجب إخباره أن يتوصل إلى الحقيقة أولا، قبل أن يمثل أمامي. وفي الوقت نفسه فإنني أؤكد بكل جرأة أن مجرد معرفة الحقيقة لن يمنحك فن الإقناع". (ترجمة جُووِت Jowett، الطبعة ٣، المجلد ١، ١٨٩٢، ص ٢٦٤).

حتى أرسطو الذي تعامل باحترام مع القوى المنافسة للبلاغة والشعر بشكل أكثر عمقا مما فعل أفلاطون مع المنافسة بين البلاغة والحقيقة – يضع كتابه Poetics – وهو عمل نقدى على الرغم من أن كلمة نقد لم تكن قد وجدت بعد – كما لو كان بحثه منفصلاً تمامًا عن المشكلات التي واجهها في كتابه *Rhetoric*. إن البلاغة، كما يقترح عملاه الرئيسيان، هي "قوة" مختلفة تماما عن القوى التي تمكن الشاعر من إنتاج مسرحية أو ملحمة. وعلى الرغم من أنه في الواقع يستخدم في كتابه Poetics فئات بارزة في "البلاغة" (خاصة في القسم الخاص بالأخلاق وبلاغة المدح والذم)، فإن أرسطو يشير إلى البلاغة صراحة، أثناء تتبع العناصر التى تكون المآسي، حين يتوصل إلى "الفكر". وفجأة يقرر عدم مناقشته، لأن الفكر يتعلق بالطريقة البلاغية التي تكشف من خلالها الشخصيات الدرامية عن الفكر أثناء حديثها معا: "إن كل ما يخص الفكر يجوز أن يترك لمقالتى عن البلاغة، لأن الموضوع مناسب أكثر لهذا البحث" (فن الشعر ١٩ – ٢ – ٣). ولكن بالنسبة لأولئك الذين يعرفون البلاغة على نطاق أوسع، من الواضح أنه بينما يعمل الباحث البارع المحلل من جهة أخرى فى العناصر الثلاثة الرئيسية للدراما وهى الحبكة والشخصية – واللغة فإنه حتمًا يستخدم النوع الدقيق من الفكر البلاغي الذي يتخلل البلاغة نفسها.

مثل هذا الاعتماد على البلاغة أمر حتمى، ليس فقط بالنسبة له بل لجميع النقاد، لأنه يفكر باستمرار في أي الوسائل الشعرية التي سوف تنتج "الصحيح"، أي "أفضل" التأثيرات على المتفرجين. وهو يستخدم مرارًا وتكرارًا كلمات مثل "يجب" و"ينبغي" و" لابد" بينما يقوم بإرشاد "الشاعر" إلى كيفية تحقيق أقصى تأثير على الجمهور: "يجب أن يظهر الشاعر **الابتكار** [واحد من أهم المفاهيم في البلاغة] وأن يقوم باستخدام **التراث** بمهارة. ولكن علينا أن نحدد بمزيد من الوضوح ما المقصود بكلمة 'مهارة". (١٤ - ١٠ - ١٢).

وما الذي يمكن أن يكون أكثر بلاغة، في التعريف الأوسع، من النصيحة التالية:

يجب ألا نطلب من التراجيديا كل أنواع المتعة إلا تلك التي تتميز بها، وحيث إنه يجب على الشاعر إنتاج المتعة التي تأتي من الشعور بالشفقة والخوف عن طريق "التمثُّل representation "، فمن الواضح أنه يجب تجسيد هذه الصفة في الأحداث. (My italics. ١٤ - ٤ - ٥)

لذلك نجد في أرسطو مثالا رائعا لما هو واضح عند كل ناقد نحى البلاغة جانبا أو تركها صراحة أو ضمنا: الاعتماد الحتمى على البلاغة. استشهد النقاد مرارًا وتكرارًا على مدى أكثر من ألفي عام بنص أرسطو، مع المبالغة في كثير من الأحيان في تمييزه الحاد، وكشف المفارقة الخاصة ببحثه "الشعرى" بصفة دائمة.

ليس من المدهش أنه منذ زمن أرسطو أن يستمر العديد من المفكرين، خلافا للسوفسطائيين وبعض الحركات البلاغية الصريحة الأخرى - في التعامل مع البلاغة على أن لها علاقة إشكالية بالفكر الفلسفي الأصيل أو الجدلي أو المنطقي، في حين تم تجاهل النقد الأدبي، الذي يسمى أحيانًا بفن الشعر، أو دُفِع في كثير من الأحيان إلى الهامش، أو حتى استبعد كفكر

غير صحيح. ومن ناحية أخرى، اعتبر بعض الكتاب مثل شيشرون (١٠٦ - ٤٣ق. م.) البلاغة ذات أهمية جوهرية في جميع التعاملات الإنسانية، بما في ذلك الحديث عن الشعر. حتى إنها أصبحت تمثل لبعض الباحثين في تاريخ العصور الوسطى وبعض مفكري عصر النهضة ما كان يسمى بملِكة العلوم: الدراسة الرئيسية التي تنظم وتدعم كل الدراسات الأخرى. وأصبح المفهوم الأساسي للبلاغة، هو *inventio* الابتكار - (وهى كلمة يجب أن تترجَم بـ"اكتشاف أسباب وجيهة" ولكنها عادة لا تترجم كذلك) - أساسًا وبشكل واضح بالنسبة لبعض المفكرين في الكتابة والحديث الجاد، ليس فقط في التعامل مع الشعر والرواية والدراما (حيث لا تظهر كلمة نقد أبدًا) ولكن في الفلسفة والسياسة والدين أيضًا. [انظر: **الابتكار Invention**] حتى القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠ م)، بعد أن تحول من خطيب محترف إلى قس مسيحي وعالم لاهوت، دافع عن البلاغة بأنها ما زالت دراسة أساسية للجميع: حتى إذا كانت متاحة للشيطان، فيجب أن يستخدمها المعارضون للشيطان من بيننا في الدفاع عنا. وفى الوقت نفسه كان النقد الوحيد الذي مارسه تقريبا هو نقد قصص الكتاب المقدس، التى أسماها بعض النقاد المحدثين بأدب الكتاب المقدس. [انظر مقال عام عن: **بلاغة العصور الوسطى**.] حيث كانت مناقشاته للآداب الأخرى عبارة عن تقييمات لتأثيرها الأخلاقي المحتمل على القراء، حيث مارس التحليل البلاغي الذي كان قد تدرب مهنيا على القيام به.

لقد أحيا عصر النهضة مكانة البلاغة التي أسسها شيشرون وكينتليان من قبل (٣٥ - ١٠٠م). [انظر مقال عام عن **بلاغة عصر النهضة Medieval rhetoric**]،حيث يعرض ريتشارد مكيون Richard Mckeon لانتصار البلاغة في عصر النهضة في مقال بارع ولكنه مهمل بشكل كبير، بعنوان "البلاغة وفن الشعر في فلسفة أرسطو"):

أصبحت البلاغة في عصر النهضة، وفقًا لاستخدام أرسطو - ولكن طبقًا لتفسير يدين بالكثير لشيشرون وكينتليان - علمًا يمكن تطبيقه فى الأدب والفكر والحياة. حيث توفرت الوسيلة التي يمكن من خلالها تفسير الشعراء، ومعايير تنظيم الإظهار، وأسلوب البحث والاكتشاف العلمي. (Selected Writings، ص ص ١٣٩ - ١٤٠، شيكاغو، ١٩٩٨)

ولكن كما كان متوقعًا تَبِع هذا الانتصار تراجعٌ آخر، حيث استخدم أنصار اليقين العقلي والعلمي، بعد ديكارت، البلاغة ضمنا لمهاجمة قدراتها، وأعاد أنصار الجمال الشعري اكتشاف تميز أرسطو. وبظهور عدة أشكال للتنوير، مع المزيد من الادعاءات أن التفكير العلمي في الحقائق الواقعية فقط تنتج عنه المعرفة الحقيقية، قلّ استخدام البلاغة حتى أصبحت، بالنسبة لمعظم الدارسين، مجرد تزيين للكعكة: أى دراسة وممارسة الإقناع الصريح، بعد أن يكون الفكر الحقيقى قد وصل إلى نتائج. [انظر **بلاغة القرن الثامن عشر Eighteenthcentury rhetoric**]. لقد كانت البلاغة تستخدم إما للخداع أو في أفضل الأحوال لنقل حقيقة اكتشفت عن طريق وسائل أخرى أكثر احترامًا. ويلخص سقراط هذا النوع من البلاغة، النوع الذي يرفضه هو نفسه، في محاورة «فايدروس» Phaedrus:

عندما يتعلق الأمر بالعدالة والخير [أوالفن الحقيقي]، أو يتعلق الأمر بأشخاص عادلين وخيرين، سواء بالفطرة أو العادة، لا يحتاج الشخص الذي يريد أن يكون خطيبًا ماهرًا إلى الحقيقة لأنه في سياق القانون - [وغيره من المشاهد الخطابية] - لا يهتم الناس حرفيا بالحقيقة، وإنما يهتمون فقط بالإقناع: ويستند هذا على الاحتمال، الذي يجب على مَن يريد أن يكون خطيبًا بارعًا أن يعطيه اهتمامه الكامل. ويقول [البلاغيون] أيضًا إن هناك حالات يجب فيها حجب الحقائق الفعلية، إذا كانت غير محتملة، ويجب أن

تقال الاحتمالات فقط سواء في الاتهام أو الدفاع، كما يجب أن يضع الخطيب دائما من خلال الحديث، الاحتمال نصب عينيه، ويقول وداعا للحقيقة. (أفلاطون، ٢٧٦)

في بعض الأحيان أصبح هذا النوع من التزيين "الخطابي"، الاحتمال أو الإمكانية المجردة، يعرف تحديدا بالجمال أو التجميل: ذلك النوع من البلاغة الذي نقل الخطاب إلى الفئة الجمالية. بينما كان ينظر إلى الشعر الأصيل، أو "الأدب" الأصيل على أنه هروب من البلاغة. وهكذا انهار دور الاهتمامات البلاغية في الدراسات الأدبية أكثر فأكثر، خاصة مع ازدهار المبدأ الرومانسي "الفن من أجل الفن"، وأصبحت كلمة بلاغة بالنسبة للبعض، كما رأينا، تستخدم للتحقير: وعندما دخلت البلاغة عالم الفن، فسد الفن وتحول إلى إقناع رخيص. كان عالم المنفعة، والعملية والفائدة، هو عالم البلاغة. وكان الشعر والفن والجمال: هم المهرب من عالم الاهتمامات العملية البلاغية. وبحلول القرن العشرين، كان الشعراء والنقاد يختلقون الأمثال مثل "الشعر لا يُحدث شيئًا" – وبالتالي ليس له علاقة بالبلاغة؛ "لا ينبغي للقصيدة أن تعني شيئًا بل أن توجد فقط"؛ وحيث لا يوجد "معنى" لا يوجد دور للبلاغة. واختفت الدراسات البلاغية تقريبا من النشرات الأكاديمية ومن المنهج، وكانت تقتصر على تدريس "البلاغة والكتابة": كيف تكتب مقالات مقنعة. وعلى مدى حوالي مائة وخمسين عاما، يمكن للمرء أن يجد أعمالا قليلة متناثرة تطبق المفاهيم البلاغية بشكل مباشر على الإنجاز الأدبي (انظر وايتمان Wightman، ١٩٠٦؛ تالمور Talmor، ١٩٨٤).

وصلت الحركة الممتدة لفصل اللغة "البلاغية" أو (التاريخية) عن اللغة "الشعرية" أو "الجمالية" أو "النقدية"، إلى ذروتها مع الحركات النقدية في منتصف القرن العشرين. كانت «القصيدة» هي ما تدرسه، وليس تاريخها أو

تأثيراتها البلاغية (الأخلاقية والسياسية). كان أعضاء مدرسة شيكاغو غالبًا ما يطلق عليهم بشكل مختصر "الأرسطيين الجدد ": ريتشارد مكيون Richard Mckeon، شيلدون ساكس Sheldon Sacks، إيلدر أولسن Elder Olson، رونالد كرين Ronald Crane، ونورمان ماكلين Norman Maclean (كرين Crane، ١٩٥٢). ركز النقاد الجدد الأكثر شهرة (إلى جانب الشكليين الروس وفي وقت لاحق البنيويين) على هذا أو ذاك من جوانب البنية الأدبية، من أجل البنية. وقد شملت طائفة النقاد الجدد إ. أ. ريتشاردز I. A. Richards ووليم إيمبسون William Empson وجون كرو رانسوم John Crowe Ransom وكلينث بروكس Cleanth Brooks وألن تيت Allen Tate (ويمسات، ١٩٥٨).

لم ترد كلمة «البلاغة» في معظم الكتابات النقدية لهاتين المدرستين، كما أنها لم توجد حتى الآن في كثير من الأعمال النقدية التي هي في الواقع مثقلة بالتحليلات البلاغية ولكن باستخدام مصطلحات أخرى. (انظر كمثال على هذا الانفصال الحاد بين النقد والبلاغة، الكتاب الرائع للفيلسوف روبرت بيبان Robert Pippin، «هنري جيمس والحياة الأدبية الحديثة»، كامبردج، المملكة المتحدة، عام ٢٠٠٠. تكاد البلاغة لا تذكر.) وقد تمادى النقاد الجدد بالهجوم على "المغالطة المؤثرة" – الادعاء بأن النقد ينبغي أن يولي اهتمامًا وثيقًا بالتأثير العاطفي (البلاغي؟) للأعمال الأدبية (ويمسات، ١٩٥٨). وعلى الرغم من تبني نقاد مدرسة شيكاغو لفكرة أرسطو فإنه يجب علينا التعامل مع "نهاية" الغرض من العمل – بما يتضمن جمهورًا يتأثر على نحو معين، وبالتالي يتجه نحو بحث بلاغي معترف به علنًا – كان هدف الناقد هو اكتشاف البنية الفريدة للعمل الفريد، مستثنيا الأمور البلاغية، ليس فقط لأنها كانت غير ذات صلة ولكن لأنها قد تُفسد نقاء المحاولة.

البعث The Revival

شهد النصف الثاني من القرن العشرين إحياءً جذريًا ومثيرًا للدهشة للاستخدام الصريح للبلاغة في النقد. [انظر **البلاغة الحديثة Modern rhetoric.**] بدءًا بنشر Rhetoric of Motives لكينيث بيرك (بيركلي، ١٩٥٠)، و Rhetoric of Joseph Conrad لجيمس ل. جويتي James L. Guetti (أمورست، ماساتشوستس ١٩٦٠)، ومرورًا بـــ Rhetoric of Fiction لواين بوث Wayne Booth (شيكاغو، ١٩٦١) و Rhetoric of Religion لكينيث بيرك (بيركلي، ١٩٦١). شهد مصطلح البلاغة نفسه انفجارًا مذهلاً، سواء في اتساع تعريفها أو دخولها الكمي في الدراسات الأدبية والسياسية والاجتماعية. وقد فاق عدد عبارات "بلاغة الـــ.... " في عناوين الكتب والمقالات، خاصة في أميركا، استخدام أي عبارة شائعة أخرى. ولا تزال مثل هذه العناوين شائعة: مثل يقوم آلاف النقاد بدراسة "البلاغة الخاصة " بهذا الشاعر أو ذاك الروائي أو الكاتب المسرحي. وحيث إن البلاغة قد أصبحت بارزة في الدراسات الثقافية والسياسية، فقد أصبحت العلاقة بين "النقد" و"البلاغة" غير محدَّدة أكثر من أي وقت مضى.

لم يكن هذا البعث مجرد تحول في استخدام المفردات، بل كان إعادة اكتشاف لما أصر عليه كثير من المفكرين التقليديين، الفكرة الموضحة ضمنيا في " *الشعر*". وعلى الرغم مما يدعيه الجماليون، فإن أنقى الأعمال "الأدبية" تنجح أو تفشل عن طريق مخاطبة بعض الجماهير والتأثير فيها "بلاغيًا". وكما يوضح بيرك، يمكن اعتبار اللغة ككل "نشاطًا رمزيًا" (١٩٦٦). وعلى الرغم من أن بعض الكتاب يعتقدون أنهم يقومون بالكتابة من أجل متعة بناء الجمال فحسب، وبالتالي فهم أنقياء تمامًا من أي وصمة بلاغية، وعندما يجذبون بالفعل أي قارئ - فإنهم يكونون قد نجحوا في نوع واحد من

البلاغة: لقد قام الكاتب الذي ينطوي عليه بناء القصيدة أو الرواية أو المسرحية سواء بوعي أو بدون وعي بتوظيف الأدوات البلاغية اللازمة لكسب أي قارئ.

إن إدراك هذه النقطة هو جزء مما أنتج الانفجار البلاغي في العقود القليلة الماضية. ومن خلال تبنى ما بعد الحداثة لأيديولوجيات مختلفة، مع دراسة كيفية دعم أو تقويض الأعمال الأدبية للنظم العقائدية، يكون لدينا الآن فيض من الدراسات البلاغية - ليس فقط مئات الكتب وآلاف المقالات التى تحتوى على كلمة "بلاغة" في العنوان، وإنما أيضًا العديد من المحاولات المسئولة لإثبات أن هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم نقادا ببساطة لا يمكنهم تجاهل البلاغة. وتُقدِّم قائمة المؤلفات المختارة "البلاغة والنظرية النقدية الحديثة " لستيفن مايلو Steven Mailloux أكثر من مئة عمل، معظمها من السبعينيات والثمانينيات، وترمي إلى معالجة بعض جوانب العلاقة.

التوتر بين الجمال والخير والحقيقة The Tension beteen Beaty, Goodness, and Truth

أزال الانفجار التاريخي للمصطلحات والمفاهيم البلاغية الغموض الذي تخلقه تلك المصطلحات وتخفيه. ويصادف كل كاتب جاد للشعر أو الرواية - سواء بوعي أو بدون وعي - توترًا بين الرغبة في أن يكون فعالاً؛ ومقبولاً، وموضع اهتمام، ومؤثرًا، وقادرًا على إحداث تحولٍ أخلاقي، وبين الرغبة في خلق شيء كامل، وبناء مثير للإعجاب حقًا، أو حتى "جميلا"، سواء أكان يجذب القراء أو لا. وعندما يعتقد المؤلف أنه يكتب قصيدة مجردة، فإنه يمكن وضع حد لمشكلة الجمهور، وفي المقابل، عندما يسعى المؤلف إلى تأثير عملي قوي، سياسي أو أخلاقي أو علمي، فقد لا

تظهر تلك الأفكار الخاصة بجمال البناء. ومع ذلك تتداخل أهدافهم. وكما رأينا عند أرسطو، تستخدم أكثر الأعمال الأدبية - حتى الأكثر نقاء - وسائل لا حصر لها يطلق عليها علماء البلاغة بلاغية، وحتى الخطابة العملية الأكثر جدلاً تنجح أو تفشل اعتمادًا على ما إذا كان قد صُنعت أي بنيات مثيرة للإعجاب أو لا.

وليس من المدهش أن العديد من الشعراء والروائيين والكتاب المسرحيين، قديما وحديثا، قد اعتبروا أنفسهم مدفوعين بالرغبة في تطهير دوافعهم العملية بحيث تصبح جمالية خالصة، وإلى السعي إلى جمال العمل. إلا أن العديد من الشعراء والروائيين، مثل بوب Pope في كثير من أعماله الهجائية، ووردسورث Wordsworth في "المقدمة" (١٨٥٠ - بُدِء فيها منذ عقود عديدة سابقة)، وجورج أورويل George Orwell في "١٩٨٤ " - كانوا تعليميين بشكل صريح، بمعنى أنهم كانوا راغبين بشكل واضح في تغيير آراء القراء. ولم يتمكن أحد من التعامل بشكل كامل مع مثل هذه الأعمال بدون التصدي لغرضها البلاغي، إذا كنا نقصد بالبلاغة، في تعريف أرسطو، "القدرة على اكتشاف وسائل الإقناع الممكنة المتعلقة بأي موضوع مهما كان "(١ - ١ - ٢). إن البناء الجميل في حد ذاته هو إحدى "وسائل الإقناع" التى يحتاجها "الإقناع" المتقن ويتغذى عليها. البناء الجميل يقوم بالإقناع، سواء ببعض الحقائق أو بعض الأنشطة، وبالتالي يكون بهذا المعنى بلاغيًا. وليس من المثير للدهشة عندئذ، ألا يبسِّط وجود ذلك البعث البلاغى بأي حال من الأحوال البحث النقدي لأي دارس جاد للبلاغة. ولقد اتسع مدى تلك الأعمال النقدية المكتوبة بشكل غير محدود من عدة منظورات، فهناك إسهامات: التفكيكيين، والفلاسفة الساعين لإنقاذ "السفسطة"، وعلماء اللاهوت ومدرسى الإنشاء composition، والباحثين المتحمسين عن مهارات الكتاب المستقلين، إلى آخره.

العناصر البلاغية الستة (وأكثر؟) الموجودة في جميـــع الكتابـــات النقديـــة

The Six (and More?) Rhetorical Elements in All Criticism

إن ما هو واضح بكل أسف في خضم هذا الفيضان هو الإغراء باختزال "البلاغة" في فرع محدود أو آخر من تاريخها العريض. ويعرف كل دارس جاد، سواء لأفلاطون (انظر ملخصه في الاقتباس السابق)، أو لأرسطو، بعلله الأربعة، أو لريتشارد مكيون، بميثاقه ذى الستة عشر وجها (*Selected Writings*، ١٩٩٨، ص ٢١٨)، أو لكينيث بيرك (١٩٦٦) "بخماسيته الدرامية" - أن التأثير البلاغي يعتمد على العديد من المتغيرات التي توجد ليس فقط في الحجة الصريحة أو الخطابة بل في كل قصيدة أو رواية أو قصة أو مسرحية. ومع ذلك يتقيد العديد من النقاد، الذين يتبنون البلاغة عن وعي أو بدون وعي، بعنصر واحد محدود أو آخر من عناصر الأدب - البنية الساخرة، وبراعة الأسلوب، وقوة العاطفة، وما إلى ذلك - بينما يتجاهلون عناصر أخرى تصر الدراسة البلاغية الجادة علي وجودها.

باختصار، يجب أن تهتم القضية البلاغية الكاملة وفقًا لرؤى أرسطو وشيشرون وريتشارد مكيون وكينيث بيرك، بما لا يقل عن أربعة أو خمسة أو ستة من العناصر المؤثرة في جميع المحاولات التأليفية لجذب القراء أو التأثير فيهم. بالنسبة لأرسطو، نبعت العناصر من علله الأربعة، في كتابه Poetics عن الموضوع (الحبكة = شكلى)، الوسيلة (اللغة = مادي)، الطريقة (الأسلوب= فعال)، النهاية (الهدف = نهائية). ولا يمكن لـــ"الخماسية الدرامية"، لكينيث بيرك وهي: "الفعل، الأداة، الوسيلة، الغاية، المشهد،" - أن تكون موازية بشكل صارم لعلل أرسطو. وهى أيضًا تضيف عنصرًا مهمًّا من "العلة" التي سلم بها أرسطو: *المشهد*، وهو المجموعة الكاملة من الحقائق

والقوى الثقافية التي تدخل في أي لقاء شعري. إن تركيز بيرك على المشهد يحركه بشدة نحو أنواع البحث البلاغي عن "الثقافة" التي أصبحت الآن في بعض الأحيان – وبشكل غير بناء – العنصر الوحيد الذي تتم معالجته بجدية.

إن حصر هذه "العلل" بطريقة ما في واحدة فقط أمر حتمي: فلا يمكن لأي ناقد في أي لحظة تحقيق التعامل بإنصاف مع جميع العوامل والعناصر والعلل التي يواجهها سواء بوعي أو بدون وعي. وبالفعل تنبع بعض الصعوبات في قراءة العمل الأصلي لكل من كينيث بيرك وريتشارد ماكوين من شغفهم بالتعامل معها جميعا. ويربك بيرك القراء أحيانًا عن طريق خلط قضاياه الخمس معا تقريبا في وقت واحد. وكذلك يحبط ماكوين القراءَ أحيانا عن طريق الاعتماد ضمنيا، في مقال واحد، على إدراكهم اليقيني لقدراته العقلية، في الوقت الذي يعتمد فيه بالفعل على أحد العناصر الستة عشر التي يعتبرها ذات صلة للبحث ككل.

ولا يزال معظم النقاد لسبب ما أو لآخر يتحدثون بدون تبصر وبشكل مثير للجدل كما لو كان واحدٌ أو أكثر من تلك العناصر والمتغيرات الكثيرة له معنى "أدبي" أو "نظري" حقيقي. يتحدث بعض أعضاء الاتحاد القومى للباحثين، المنشقين عن اتحاد اللغة الحديثة – بسبب ترحيبه بالدراسات الثقافية و"النظرية" – كما لو كان الأدب مدانًا لأن النقاد قد تجاهلوا بشكل متزايد العنصر الواحد الذي يعتقدون أنه يميز الأدب الحقيقي: بنية مثيرة للإعجاب، تسمى أحيانًا بالشكل، وأحيانا بالوحدة، وأحيانا بالجمال. وبالنسبة لهم، إذا كان لديك عمل "جميل البنية" تكون لديك قصيدة أو رواية أو مسرحية حقيقية. وإذا كنت تتحدث عن ذلك الجمال فإن ما تقوم به هو نقد حقيقي. ولكن إذا كنت تتحدث عن التأثيرات والقضايا الثقافية والأخلاقية، فإنك تمارس البلاغة –

كما يقول أحد مؤسسي الحركة التفكيكية صراحة في عنوان أحد أعماله (de man، ١٩٨٣).

ويحاكي معارضو مثل هذه الحركات الشكلانيين في الخمسينيات، الذين انكروا عن وعي أو بدون وعي المصطلحات البلاغية، وقاموا بتأسيس صحيفة *The Explicator*، والتي تم فيها تتبع قصيدة تلو الأخرى، أحيانًا ببراعة، وأحيانا بشكل هدام، بحثًا عن البنية "الساخرة". فقد قضى أستاذ بمدرسة شيكاغو فصلاً دراسيًّا كاملاً مدته عشرة أسابيع في تدريس مقرر قام فيه هو والطلاب بتتبع المفهوم الصحيح "للوحدة" الفريدة لقصيدة براوننج Browning "دوقتي الأخيرة". كما قام آخرون بمبالغات وتبسيطات زائدة مماثلة، بوضع الأعمال الأدبية في فئات بلاغية أخرى، وأحيانا بوضع كل الأعمال الجيدة في فئة واحدة. على سبيل المثال، يبدو أن البعض يتتبع النوع الصحيح من التعقيد الساخر على أنه العلامة الحقيقية للعمل الشعري الجيد – بدون أي كلمة عن البلاغة. وبالنسبة للبعض، فإنه لم يكن قانعًا باستبعاد فكرة البلاغة فقط بل باستبعاد السياق البلاغي بالكامل، ذلك السياق الذي توجد فيه أي قصيدة عند كتابتها ونشرها. إن إحدى مجموعات المختارات الشعرية التي كانت مستخدمة على نطاق واسع في الخمسينيات لم تذكر التاريخ الذي كتبت فيه القصيدة بل وتجاهلت اسم المؤلف – الذى لم يذكر إلا في فهرس معقد في نهاية الكتاب. فالفكرة الكلية أن قصيدة كتبت بواسطة مؤلف في لحظة ثقافية بلاغية، مخاطبة القراء الذين سوف يفهمون أو تكون لديهم الرغبة فى فهم تلك اللحظة أثناء تناولهم للقصيدة – ولكن استُبعد ذلك، "لتنقية" المشهد ليصبح "جماليًّا" تمامًا. كانوا يرددون: ينبغي علينا أن نعامل "القصيدة كقصيدة وليس كشيء آخر"، (و باعتبارى طالبًا في ذلك الوقت، ردَّدتها معهم).

انحصر نشاط بعض المحللين البنيويين بشكل أكبر بحيث اقتصر على دراسة النحو أو العروض، كمركز أدبي، بحصر الوجود الكامل للقصيدة إلى مجرد معاني الكلمات في القصيدة؛ فإذا نجحت اللغة، أصبحت القصيدة حقيقية.

تجاهل هؤلاء النقاد البنيويون عادة، بشكل طبيعي، العنصر البلاغي الثاني؛ تنوع الأغراض أو الأهداف أو الغايات التي يمكن للبنية الشعرية تتبعها. لا يمكن إجراء نقد بلاغي جيد بدون وجود نصين لسؤال الهدف نفسه: لماذا يفعل المؤلف ذلك، وما التأثير المقصود على القراء؟ وذلك على الرغم من أن سؤال الغرض كان في كثير من الأحيان موجودًا ضمنيًا في التحليلات البنيوية ("لماذا هذا الجزء هنا، إذا ما نظرنا إلى البنية ككل علي أنها س أو ص أو ع؟"). ولجعل هذا السؤال البلاغي بارزًا كان من المحتم اللجوء للمغالطة المؤثرة. ومع ذلك فإنه من الصحيح أن الأرسطيين الجدد عادة ما تبعوا أرسطو في قبول هذا، لأنهم كانوا يعانون فى سبيل إنصاف علله الأربعة. ولذلك فقد أدخلوا أيضًا العنصر البلاغي الرئيسي الثالث؛ الأسلوب أو الوسيلة، ليس فقط من ناحية النحو أو الأسلوب اللغوي بل بمجموعة كاملة من الأدوات المتاحة للفنان. ولكن مثل الكثير من النقاد الحاليين الذين يقللون من أهمية هذا العنصر، فقد كانوا غالبا ما يميلون إلى التسليم بمتغير رابع: تعريف الموضوع قيد البحث. وغالبا ما كانوا يفترضون، كما فعل النقاد الجدد، أن القراء سوف يشتركون فى مفهوم ضمني عما يكون عليه "العمل الأدبي" أو "الدراما الحقيقية". (الذين أدركوا وجهة نظر هذه المجموعة بشكل كبير، مثل رونالد كرين Ronald Crane، شيلدون ساكس Sheldon Sacks، إيلدر أولسون Elder Olson، قاموا – سعيًا للتعريف – بالتمييز الحاد بين الأعمال التي أنتجت "فعلاً" أو حبكة – وهى

الأعمال التي تهدف إلى هجوم ساخر - وتلك الأعمال التي تسمى بالنظائر؛ الساعية إلى الحقيقة؛ ساكس، ١٩٦٤).

في المقابل قام بعض البلغاء بالتبسيط الزائد: إنه الغرض فقط، أي التأثير المطلوب. وهم يميلون إلى تجاهل جمال البنية أو الأسلوب (الغاية التقليدية للبلاغة)، في حين تجاهل واضعو النظريات النقدية الإثارة الخاصة بالتداخل الأدبي - البلاغي. [انظر **البلاغة** Eloquence.] وفي الكثير من كتب البلاغة والسياسة لا يتم ذكر الشعر أو النقد.

أظهر العنصران الخامس والسادس، "المبادئ الأولى" أو الاقتناع الأعمق للمؤلفين والقراء، والمشهد الثقافي الذي يؤدى فيه المؤلفون والقراء، خلافًا للآخرين ولكن بلغة بلاغية - بعثا مذهلاً في النقد الأدبي منذ سبعينيات القرن العشرين، نتيجة لما يسمى بحركات ما بعد الحداثة أو ما بعد البنيوية، والتي قادها جزئيا فلاسفة فرنسيون مدربون بالفعل على البلاغة، أمثال جاك ديريدا ورولان بارت. بدأ الكثيرون من المنتمين لحركة ما بعد الحداثة في التركيز على كل من المبادئ العامة أو أعمق الافتراضات التي يتضمنها الخطاب، وعلى الاختلافات بين المشاهد الثقافية التي تقع فيها كل من القراءة والكتابة والاستماع. [انظر **نظرية التلقي** **Reception theory**.] وكما أكدت الحركات المختلفة الخاصة بـــــ "نقد استجابة القارئ"، فإن المشهد الذي يخرج فيه أي نص للحياة من قِبل أحد القراء يشمل طبيعة هذا القارئ، وطبيعة ثقافته، أو طبيعة الأخلاق التي ينسبها القارئ، حقًا أو باطلاً، إلى المؤلف. [انظر **الإقناع الأخلاقي** Ethos.]

أكرر: إن الكثير من النقاد غير المدربين على تقاليد البلاغة يميلون إلى التركيز على واحد أو اثنين من تلك العناصر الستة، مطلقين على هذا التركيز صفة "شعري" أو "أدبي" و"لغوي" أو "نظري" أو "تاريخي جديد" أو "

نقدي ثقافي"، في حين يمكن لكل من هذه الاتجاهات تقديم الحقيقة النقدية الخالصة عن عمل أدبي، حيث تتطلب الحقيقة الأدبية البلاغية الكاملة عن أي نص أو مجموعة من النصوص الاهتمام بالعناصر الستة. ولا يعني ذلك أن أي ناقد يحتاج في أي لحظة إلى أن يهتم بها جميعا؛ فهذا مستحيل دائما، وإنما يعني أن المعركة النقدية لا معنى لها عندما تتضمن أن اختيار واحد أو آخر من العناصر الستة يكون مشروعا. وينبغي أن توفر التعددية البلاغية الاهتمام والاحترام لمساراتنا المثمرة العديدة.

المستقبل The future

يحتوي هذا الوصف ضمنا على إحياء للادعاء المألوف في العصور الوسطى بأن البلاغة هي الملِك الذي يسيطر على جميع فروع المعرفة أو على الأقل السند والمعين الذي تعتمد عليه جميع فروع المعرفة في شق مساراتها. كما يتضمن نوعًا من التنبؤ المتفائل: مهما حدث للمصطلحات النقدية على مدى القرون القادمة، إذا بقى أي نوع من النقد الأدبي على قيد الحياة، وإذا استمر العلماء في دراسة ماهية هدف الأدب وكيف يعمل وماذا يحقق - فسوف تكون دراسة البلاغة في المركز.

من الواضح أنه ما من سبيل للتنبؤ بالعلاقة المستقبلية بين النقد والبلاغة. ويأمل البعض من أفضل دارسى البلاغة، مثل ستيفن مايلو Steven Mailloux، في أن ترى أقسام "اللغة الإنجليزية" قيمة إعادة تسمية أنفسها بأقسام "البلاغة الثقافية"؛ أقسام يكون الأدب مركزًا لها.

وأنا لا أقترح... أن تتخلى جميع أقسام اللغة الإنجليزية عن الأدب باعتباره هدفًا رئيسيًا للدراسة أو حتى أن تحتاج بالضرورة إلى هجر التاريخ

الأدبي باعتباره مخططًا تنظيميًّا لمناهجها الدراسية، لكنني أقول إن استخدام الدراسة البلاغية بوصفها إطارًا تنظيميًّا يفسحُ مجالا لمجموعة واسعة مترابطة من الأنشطة البحثية أكثر من استخدام تعريف محدد بشكل ضيق للدراسات الأدبية، حيث لا يمكن للعمل في هذه الدراسات البلاغية الجديدة أن يحل محل التفسيرات التقليدية للنصوص الأدبية الفردية. ويمكنني بدلا من ذلك دمج هذه الأنشطة في مشروع أكبر لقراءة الممارسات الثقافية عن قرب، مشروعٍ يركز على جميع الأحداث البلاغية التي تشكل الحوار الثقافي في لحظات تاريخية خاصة.... لا يعنى الأمر أن يخرج ما هو "أدبي" من هذا المشروع، بل مجرد أن تجعل هذه الدراسة البلاغية دائمًا الأدبيَّ تاريخيًّا، وتبين كيف يعمل النص بلاغيًّا في الوقت الذي يصنِّف فيه بأنه أدبي ضمن سلسلة أحداث خاصة للحوار الثقافي، وكيف يعمل التمييز بين الأدبي وغير الأدبي بشكل مختلف في سياقات مختلفة من التلقى. (١٩٩٨، ص ١٩١)

يمكن للمرء أن يتبين في بلاغة هذا الجزء قدرًا كبيرًا من عدم الارتياح إزاء الصراع القديم بين "النقد" و"البلاغة". ويخشى مايلو بشكل واضح من أن يعتبره بعض القراء مقللا من شأن الأدب و"الأدبي" الحقيقي، لهذا الخوف ما يبرره تماما. ولن يزول الصراع أبدا بشكل مؤكد. لكن في الوقت نفسه، يمكن لأي شخص يؤمن بأهمية المناهج البلاغية أن يجد الراحة في لحظة البعث الحالية. ولم يحدث أبدًا منذ القرن السادس عشر أن اعتبر العديدُ من المشتغلين بالنقد أنفسهم يعملون وفق القضايا والأساليب "البلاغية" التقليدية، على الرغم من أنه لا تزال هناك حاجة إلى الاقتباسات المؤثِّرة الدلالة.

مصادر ومراجع

تتطلب قائمة المراجع الكاملة للأعمال الجادة التى تتعلق بالنقد والبلاغة سجلات من الصفحات. واعتمادا على تعريفات مختلفة للبلاغة فإنها تتضمن جميع الأعمال المهمة عن التأثيرات الأخلاقية والمعنوية للأدب (انظر قائمة المراجع فى Booth, *The Company We Keep*, 1988) وعن العواقب السياسية (Mailloux, *Reception Histories*, 1989) وعن العلاقة بالدين وهكذا. وستتضمن أيضا جميع الأعمال الكلاسيكية وأعمال عصر النهضة عن البلاغة مثل Quintilian's *Institutio oratoria*, Longinus's *On the Sublime*, Cicero's *De officiis*, and Sidney's *Defense of Poesie*.

المراجع التالية يمكن أن تشير إلى العدد الكبير من المناقشات منذ عصر أفلاطون وأرسطو حتى اليوم.

Altieri, Charles. "Plato's Performative Sublime and the Ends of Reading." *New Literary History* 16 (1985), pp. pp. 251–273 .

Angus, Ian, and Lenore Langsdorf, eds. *The Critical Term Rhetoric and Philosophy in Postmodern Discourse*. Carbondale, Ill., 1993 .

Aristotle. *Poetics*. Translated by W. Hamilton Fyfe. London, 1973 .

Aristotle. *Rhetoric*. Translated by J. H. Freese. London, 1957 .

Bakhtin, M. M. *The Dialogic Imagination: Four Essays*. Edited by Michael Holquist; translated by Caryl Emerson and Holquist. Austin, 1981 .

لا يدعى التركيز على البلاغة بشكل أساسى ولكن التأكيد على مفهوم تعدد الأصوات خاصة فى الأدب والنقد المتحول للسرد.

Bialostosky, Don, ed. "Bakhtin and Rhetorical Criticism: A Symposium." *Rhetoric Society Quarterly* 22 (Fall 1992), pp. pp. 1–28 .

Booth, Wayne C. *The Rhetoric of Fiction*. Chicago, 1961.

على الرغم من أن هذا العمل يستخدم تعريفات متنوعة للبلاغة فقد ساعد على تحول نقد الأدب من قضايا البنية الشكلية إلى قضايا التأثيرات البلاغية.

Booth, Wayne C. *A Rhetoric of Irony*. Chicago, 1974 .

Booth, Wayne C. *The Company We Keep: An Ethics of Fiction*. Berkeley, 1988

من منظور هذا الكتاب يمكن أن تعتبر الأخلاق محاولة للتوفيق بين البلاغة والنقد.

Burke, Kenneth. *Language as Symbolic Action: Essays on Life, Literature, and Method*. Berkeley, 1966 .

قد يكون بيرك هو أكبر المؤلفين تأثيرا فى "الثورة البلاغية" بين الستينيات والتسعينيات.

Burice, Kenneth. *The Philosophy of Literary Form: Studies in Symbolic Action*. Berkeley, 1973. First published 1941 .

Burke, Sean. *The Death and Return of the Author: Criticism and Subjectivity in Barthes, Foucault and Derrida*. Edinburgh, 1998. First published 1992

دحض متقن لزعم ما بعد الحداثة المعروف، القائل بأن "المؤلف ميت": مقاصد المؤلف غير ذات صلة بالنقد.

Chatman, Seymour. *Coming to Terms: The Rhetoric of Narrative in Fiction and Film*. Ithaca, N. Y., 1990 .

توسع مؤثر للاهتمامات البلاغية لتشمل نقد الأفلام.

Clark, Donald Lemen. *Rhetoric and Poetics in the Renaissance: A Study of Rhetorical Terms in English*

Renaissance Literary Criticism. New York, 1963. First published 1922 .

Cooper. David. "Rhetoric, Literature and Philosophy. " *The Recovery of Rhetoric: Persuasive Discourse*

and Disciplinarity in the Human Sciences. Edited by R. H. Roberts and J. M. M. Good. Charlottesville, Va., 1993.

مسح جيد للعدد الهائل من الأسئلة التى أثارتها دراسة البلاغة.

Crane, Ronald, ed. *Critics and Criticism, Ancient and Modern*. Chicago, 1952 .

يمكن أن تستعيد الدراسة الجادة لهذا العمل الاحترام لتعدد المناهج النقدية التى تشهدها الساحة الآن ولكن نادرا ما تعترف بها.

De Man, Paul. *Blindness and Insight: Essays in the Rhetoric of Contemporary Criticism*. 2d ed. Minneapolis, 1983 .

يمثل بشكل بارز كيفية انضمام حركة "التفكيك" إلى البلاغة والنقد.

Fish, Stanley. *Is There a Text in This Class? The Authority of Interpretive Communities*. Cambridge, Mass., 1980.

أحد أعمال فيش وآخرين التى درست على مدى عدة عقود المرجعية البلاغية لأى نص، وإن كان ذلك بنوع من المبالغة السخيفة، وإحالتها إلى القارئ وثقافة القارئ.

Foucault, Michel. "What is an Author?" Translated by Donald F. Bouchard and Sherry Simon. Ithaca, N. Y., 1977. First published in *Bulletin de la Société française de Philosophie* 63. 3 (1969). pp. pp 73–104 .

أحد الموضوعات القوية عن "موت المؤلف" التى عارضها بيرك بقوة، ذكر أعلاه.

Genette, Gerard. "Rhetoric Restrained." In *Figures of Literary Discourse*. Translated by Alan Sheridan, pp. pp. 103–126. New York, 1982.

تاريخ مختصر لانحدار مكانة البلاغة خلال العصر الحديث.

Hernadi, Paul, ed. *The Rhetoric of Interpretation and the Interpretation of Rhetoric*. Durham, N. C., 1989 .

Horace. *Art of Poetry (Ars Poetica). Horace for English Readers*. Translated by E. C. Wickham. Oxford, 1903.

ربما يكون العمل النقدى الأكبر تأثيرًا حتى القرن الثامن عشر.

Howell, Wilbur Samuel. *Poetics, Rhetoric, and Logic Studies in the Basic Disciplines of Criticism*. Ithaca, N. Y., 1975 .

Jost, Walter, and Michael J. Hyde, eds. *Rhetoric and Hermeneutics: A Reader*. New Haven, 1997 .

Kastely, James L. *Rethinking the Rhetorical Tradition: From Plato to Postmodernism*. New Haven, 1997 .

See especially "*Persuasion*: Jane Austen's Philosophical Rhetoric," pp. pp. 145–167 .

توضيح ثاقب لعدد مفاهيم "ما بعد الحداثة" التى تتعلق بـــالتراث البلاغى أو المستمدة منه.

Mailloux, Steven. *Rhetoric, Sophistry, Pragmatism*. New York, 1989 .

Mailloux, Steven. *Reception Histories: Rhetoric, Pragmatism, and American Cultural Politics*. Ithaca, N. Y., 1998 .

McKeon, Richard. *Rhetoric: Essays in Invention and Discovery*. Edited by Mark Backman. Woodbridge, Conn., 1987. Contains "Philosophy of Communications and the Arts," first published 1970; "Rhetoric in the

Middle Ages," first published 1942; and "Poetry and Philosophy in the Twelfth Century: The Renaissance of Rhetoric," first published 1946 .

McKeon, Richard. *Selected Writings of Richard McKeon*, vol. 1. Edited by Zahava K. McKeon and William G. Swenson. Chicago, 1998.

Miller. J. Hillis. *The Ethics of Reading: Kant, de Man, Eliot, Trollope, James, and Benjamin*. New York, 1987.

بدون اعتراف صريح أنه "يمارس البلاغة"، مواجهة تعارض المشكلة البلاغية الخاصة بالأنواع الجيدة والسيئة من القراءة.

Olson, Elder. *On Value Judgments in the Arts*. Chicago, 1976 .

Phelan, James. "Character, Progression, and the Mimetic - Didactic Distinction: some Problems and Hypotheses. " *Modern Philology* 84 (February 1987), pp. pp. 282–299 .

توضيح جرىء حول التوازى بين التمييز المحاكاتى – التعليمى والتمييز الشعرى – التعليمى.

Preminger, Alex, and T. V. F. Brogan, eds. *The New Princeton Encyclopedia of Poetry and Poetics* .Princeton, 1993. See especially the comprehensive Bibliography of Bibliographies, pp. pp. 1050–1052 .

Richter, David H. *Fable's End: Completeness and Closure in Rhetorical Fiction*. Chicago, 1974 .

Richter, David H. *Falling into Theory: Conflicting Views on Reading Literature*. New York, 1984 .

Ricoeur, Paul. *La metaphore vive*. Paris, 1975. English translation: *The Rule of Metaphor:*

Multidisciplinary Studies of the Creation of Meaning in Language. Translated by Robert Czerny. Toronto, 1977.

إذا كان ريكور لا يعتبر بارزا فى الدراسات البلاغية فإنه يستحق أن يكون كذلك.

Ricoeur, Paul. "Rhetoric—Poetics—Hermeneutics." Translated by Robert Harvey. In *Rhetoric and Hermeneutics: A Reader*. Edited by Walter Jost and Michael J. Hyde, pp. pp. 60–72. New Haven, 1997 .

Sacks, Sheldon. *Fiction and the Shape of Belief: A Study of Henry Fielding, with Glances at Swift,Johnson, and Richardson*. Berkeley, 1964 .

Scholes, Robert. "Criticism: Rhetoric and Ethics." In *Protocols of Reading*. New Haven, 1989 .

Sloane, Thomas O. "Rhetoric and Poetry." In *The New Princeton Encyclopedia of Poetry and Poetics* . Edited by Alex Preminger and T. V. F. Brogan, pp. pp. 1045–1052. Princeton, 1993 .

Springer, Mary Doyle. *A Rhetoric of Literary Character: Some Women of Henry James*. Chicago, 1978 .

Talmor, Sascha. *The Rhetoric of Criticism: From Hobbes to Coleridge*. New York, 1984 .

Vickers, Brian. *In Defense of Rhetoric*. New York, 1988 .

Wightman, Melton. *The Rhetoric of John Donne's Verse*. London, 1906 .

Wimsatt, William. "The Affective Fallacy." In *The Verbal Icon: Studies in the Meaning of Poetry*. New York, 1958 .

تأليف: Wayne C. Booth

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

المناظرة Debate

وهي إحدى صور الحِجاج [راجع **الحِجاج** argumentation] وعلى الرغم من استعمال المصطلح بشكل مطاط للإشارة إلى أي نزاع أو جدال إلا أن الخاصية المحددة للمناظرة هي تقديم أدلة حصرية متبادلة من قبل الأطراف المتنافسة للفوز بقرار المحكم، ومن ثم فالمناظرة هي في الأصل كيان خطابي وبلاغي، حيث إن الناتج النهائي يعتمد على قرار الجمهور الذي يسعى المتناظرون للتأثير عليه.

ويمكننا أن نجد عناصر المناظرة في كتابات هوميروس Homer، في حين يُعد بروتاجوراس Protagoras من مدينة أبديا "أبا للمناظرة". وبروتاجوراس هو أحد السوفسطائيين، ولعل أشهر عبارة له " الإنسان مقياس الأشياء جميعًا ". كان بروتاجوراس يعتقد أن هناك دائمًا وجهين لكل قضية ودائمًا ما كان يعلم تلاميذه المناظرة بوجهتي النظر، كانت المهارات التي علمها هو وغيره من السوفسطائيين ذات قيمة كبيرة للمواطنين اليونانيين الذين اضطروا للدفاع عن قضاياهم الخاصة في مجلس النواب وبيوت القضاء. [انظر **السوفسطائيين** Sophists].

وقد ظلت مهارات المناظرة مفيدة خلال العهد اليوناني وبدايات القرون الوسطى على الرغم من تحولها، ولكنها تحولت إلى أدوات لأصول التدريس أكثر من كونها إحدى مفردات المواطنة، وقام الطلاب بإلقاء خطب كانت تسمى خطابًا إقناعيًّا Sausoriac، ومناظرة controversiae وهى تجسد مناظرة بين طرفين نقيضين فى إحدى القضايا القانونية المختلفة. (انظر controversia و suasorri).

وأما في العصور الوسطى وعصر النهضة فقد كانت المناظرة العامة تقع حول تساؤلات لاهوتية مجردة. وللمناظرة المعاصرة أصول عدة من بينها تقاليد البرلمان الإنجليزي، وكذا في مجلس الشيوخ الأمريكي، وأيضًا ما وقع من إلقاء خطابات حماسية في المدارس الأدبية في الجامعات الأمريكية، وظهور مسابقات المناظرة في المدارس والكليات الأمريكية خلال القرن العشرين.

مكونات المناظرة Components of a Debate

للمناظرة ثلاثة مكونات رئيسية وإن بدا أحدها ضمنيًّا أي غير مصرح به. وهي على الترتيب: موضوع المناظرة – والمتناظرون – وصانع القرار. وقد أرست بعض المناظرات بعض التقاليد في حين تعد هذه الإجراءات نفسها والقواعد فى غيرها من المناظرات موضعًا للجدل.

موضوع المناظرة.

يمكن التعبير عنه بصيغة القرار النهائي، ويحدث هذا كثيرًا في مسابقات المناظرات والمناظرات العامة. فعلى سبيل المثال قد تعقد مناظرة عامة لمناقشة قرار صيغته كالتالي:

«أخيرا موافقة مجلس النواب على اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الشمالية»(NAFTA). وفي ظروف أخرى قد يكون القرار ضمنيًّا ففى إحدى مناظرات الحملات السياسية يكون القرار كالتالـــي:

« تقرر انضمام أحد مرشحي الحزبين الجمهوري والديمقراطي لشغل منصب في هذه الوزارة ».

وإذا انتقلنا إلى مناظرة بين مؤرخين على صفحات نشرة بحث علمية فقد تكون المناظرة كالتالي: «أخيرًا الاتحاد السوفيتي وليست الولايات المتحدة هو المسؤول الحقيقي عن بدء الحرب الباردة».

والغرض من التصريح هو توفير بيان واضح وموجز وحيادي ليعبر فقط عن محل النزاع، ويجب ألا يتحيز التصريح لجانب من الجانبين، مما يؤدى إلى إمكان وجود تخمين سابق على الحكم النهائي في موضوع المناظرة. وتنقسم القرارات إلى أقسام عديدة وإن كان أكثرها وضوحًا تلك القرارات الخاصة بالحقيقة والقيمة وتلك الخاصة بالسياسة.

وتميل القرارات الخاصة بالحقائق إلى كونها مجرد محاولات تأويل لها وقراءة للأحداث، كما هو الحال في مثال الحرب الباردة، وليست فقط خلافًا بين ادعاءات تتأثر في تحققها أو التيقن منها بمعايير تجريبية أو وثائقية، أما القرارات المحدِّدة للقيمة فتعنى بالتسلسل الهرمي نحو الأفضل كما هو الحال في التصريح التالي:

«إن حماية البيئة أكثر أهمية في تحقيق تقدم اقتصادي». ويختلف الحال بالنسبة للقرارات المحدِّدة للسياسات، حيث إنها معنية بالأخبار المعروضة في سياق الحدث كما هو الوضع في مثال اتفاقية NAFTA.

وهناك نوع رابع للقرارات في بعض أنواع التقسيمات الأخرى، وهو ما يسمى بالقرار المعرِّف أو الموضِّح للمعنى والذي يبينه المثال التالي:

« تقرر: أن حماية أمننا الاجتماعي ضمان لعدم انخفاض مستوى الأرباح الحالية». والقرارات من هذا النوع تعكس المعتقد القائل بأن التعريفات ليست ذات طبيعة محايدة، وإنما هى فى الحقيقة مفاهيم تتنازع من أجل الوصول إلى الأوصاف نفسها.

والغرض من تقسيم القرارات إلى أنواع هو أن كل نوع من القرارات يختص بنوع محدد من القضايا وعدد من الأسئلة المكمّلة لها، إذا كان القرار لا يزال محل نقاش. فعلى سبيل المثال: تثير القرارات المحدَّدة للقيمة دائمًا أسئلة حول المعايير والتطبيق، مثل: ما المعايير التي ستحكم حماية البيئة والنمو الاقتصادي؟ وما النتائج المترتبة على ذلك؟ وعلى النقيض فإن القرارات المحدِّدة للسياسات عادة ما تثير أسئلة حول أوجه الاستفادة والسببية، مثل: هل يوجد حد أدنى للربح المادي عند تحرير قيود التجارة البين أمريكى؟ وهل اتفاقية NAFTA ضرورية وضامنة لتحقيق هذا الربح؟ (وتأتي بعض التناولات للقرارات المحدِّدة للسياسات لتصنف القرارات النهائية إلى أربعة أنواع بدلاً من ثلاثة وهي: الدلالة والأصل والفعالية والمساوئ. ويجمع التخطيط السابق ما بين العنصرين الأول والرابع ليقصد بهما المميزات "، والعنصرين الثاني والثالث ليقصد بهما السببية". وعلى أي حال فإن المصطلحين في كلا الزوجين هما وجهان لعملة واحدة. ويظهر مصطلح " مجمع القضايا" أو topoi للتعبير عن أقسام المواضيع التي تحددها القرارات النهائية.] انظر: **المواضع الجدلية Topics**]. وبوجه عام فإن موضوعات عامة وأماكن غير مطروقة يجدر بالفرد أن يبحثها بشيء من التفصيل عند التعامل مع أحد القرارات النهائية المحدِّدة لها.

وقد يطلع علينا أحد أتباع المذهب الشكي لينادي بأن الفروق بين أنواع القرارات نادرًا ما يكون واضحًا كما ترجِّح أقسامها، فمثلاً نرى في القرار النهائي حول المسألة المثارة بين الحماية البيئية والنمو الاقتصادي مجموعة من التضمينات السياسية الواضحة، كما نرى كذلك في اتفاقية مثل NAFTA أن المسألة برمَّتها تنبع من مدى جدوى تحرير قيود التجارة من عدمها.

الأطراف المتناظرة The debaters

يمثل المشاركون فى المناظرة المكون الثانى لها. وهم يقومون بلعب دور محامين متفانين في الدفاع عن أو مهاجمة قرار ما. وهم عادة ما يدافعون عن معتقداتهم الشخصية بحق، أما في مسألة المناظرة فإن المتناظر عادة ما يكون وكيلاً عن شخص آخر ودوره لذلك يكون مقيَّدًا، مما يعني أنه ربما قد لا يعرض وجهة نظره في الواقع.

ويرجع الفضل إلى قانون عدم التناقض في كون الأدوار التي يتخذها المتناظرون على الدرجة نفسها من الحياد، بمعنى أنه لا يمكن لأحد أن يكون مع القرار النهائي وضده في الوقت نفسه. ومن الجلى لنا أن نتخيل قرارات معقدة تقوم فى الوقت نفسه بتأييد جانب ومعارضته، ولهذا السبب يجب تحديد نقاط كل مناقشة قبل الشروع في المناظرة.

وهنا تجدر الإشارة إلى مثال المناظرة العامة التي وقعت في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر التسعينيات بخصوص استخدام فائض الميزانية الفيدرالية، حيث وافق غالبية الحضور على تخصيص نسبة الفائض الواردة من الأمن القومى لتقويته، إلا أن هذه النسبة أُلغيت فيما بعد وإن ارتبطت ظاهريًا بالقرار حول "الفائض". ولم تأت المناظرة حول تقليل الضرائب في مقابل الاتفاق العام المترتب على المتبقى من الفائض. ولأن المتناظرين يقفون على أرض واحدة فإنهم يتنافسون بضراوة، ويمكن وصفهم بأن كلاً منهم متحزب رصين، فوجود الخصم الذي يفحص عبارات الآخر بكل دقة بحثًا عن الأخطاء يخلق الباعث لدى كل منهما للالتزام الأمين بما يمتلكه من دلائل يستخدمها ضد خصمه. وبهذه الوسائل والتقنيات فقط يستطيع طرفا المناظرة – وبشكل كاف – الوصول إلى ممارسة عدائية ضد بعضهما بعضًا. وليس من المتوقع أن يختلف المتناظران حول كل شيء؛ إذ قد يؤدي

ذلك إلى أن يضعف أحدهما موقفه بنفسه أو قد يدعم حجة نظيره دون أن يشعر. وأخيرًا تذكَّر أن عدم القدرة على الرد المقنِع على ادعاءات الخصم هي حافز كافٍ لإعادة الآخر تحسين موقعه ردًّا على هذا الضعف.

ويسعى المتناظرون إلى التأثير على صانع القرار حيث تحمل كل قضية في طياتها بذور القبول والرفض. وكثيرًا ما تحكم العادة بأن يتكلم المؤيد للقضية أولاً فيحظى بقبولٍ أكثر، وفي أحيان أخرى يتكلم كلٌّ في حينه تِباعًا لما يُعرض من نقاط القضية. ويعيب هذا النوع من تناول القضايا أن خطأً واحدًا قد يحكم بالفشل على القضية برمتها؛ ومن ثم صار من الشائع أن تقوم كل قضية على عدد من النقاط المستقلة للتأييد أو المعارضة؛ بحيث إذا اتجهت دفة المناظرة نحو تأييد معظم النقاط - وليس كلها - فإن صانع القرار يظل متحيزًا نحو التأييد.

القاضي The judge

وآخر العناصر الأساسية للمناظرة هو القاضي أو صانع القرار. وقد يختلط علينا استعمال مصطلح «القاضي» مع مصطلح «الجمهور» وفي بعض الأحيان يكون هناك جمهور متفرج فقط بعيدًا عن متخذ القرار الحقيقي الذي يفصل بين ادعاءات المتناظرين. فقد يكون صانع القرار هو حزب ثالث محايد لا يمت بصلة لأي من المتناظرين، وفي هذه الحالة يكون التحكيم ملزمًا، وإن نحا المتناظرون إلى جمهور أكبر من مؤيديهم لكسبهم أيًّا كان القرار. ففى المناظرات التي تتم في مجلس الشعب على سبيل المثال، نرى أن العضو يسعى إلى كسب تأييد المجلس ككل، وإن انتمى إلى فئة سيادية ذات قرار في المجلس إلا أن ذلك لا يهم؛ حيث إن المطلوب هو كسب تأييد جماعي وليس تجاوبًا فرديًّا من الأعضاء. وهنا يأتي السؤال: ما الأسس التي يبنى عليها صانع القرار حكمه؟

يتم التركيز في ضوابط المسابقات على مهارات المناظرة عند المشاركين كالقدرة على التحليل والاستدلال وترتيب الأفكار واستخدام الأدلة والتفنيد. ويفترض في صانع القرار ألا يبالي بموضوع المناظرة وإنما يكون تركيزه منصبًّا على أسلوب عرض الحجج ومهارة المتناظرين في دفع المناظرة قدمًا. غير أنه في ظروف أخرى كمناظرات الحملات السياسية لا يمكن افتراض حيادية صانع القرار وإنما يجدر به فقط أن يؤيد الحجة المقدمة، لا أن يصوت لما يعتقد مسبقًا [انظر: **الحملات السياسية Campaigns**].

وعند الحكم، أحيانًا ما يُدفع القضاة إلى أن يضعوا فى اعتبارهم افتراضهم المسبق وقيمة الأدلة المعروضة. وتحدِّد القواعد السالف ذكرها أيَّ المتناظرين أحق بسيادة المناظرة. وفى هذا الإطار هل يمكن الحكم على اتفاقية NAFTA بأنها غير ضرورية إلى أن يتم إثبات العكس؟ أم نرى أنها مستحسنة إلى أن نثبت مساوئها؟ وسوف تحدد كيفية الإجابة عن هذا السؤال مسئولية الطرفين عن تلك المناظرة الخاصة باتفاقية NAFTA.

وقد تكون هذه الافتراضات طبيعيَّة (أي موجودة بين الناس) أو منصوصًا عليه (حكمها العرف). فعندما يعيش الناس في ظروف جيدة فإنه من " الطبيعي" أن يعارضوا التغيير دون وجود سبب قوي. وعلى النقيض فإن الحكم المسبق في القانون الجنائي ينص على براءة المتهم إلى أن تثبت إدانته بغض النظر عما يعتقده الناس بالفعل، وذلك لتقليل احتمال إدانة شخص بريء فعلاً.

إن تحديد مكمن الحكم المسبق، حتى مع وجود أي جدال لم ينص عليه رسميًّا، هو على الأقل عمل سياسي؛ ومن ثم فمرد الأمر هو تحديد أي المتناظرين يمكنه ركوب الموجة السائدة. فعلى سبيل المثال إذا كان من الصعب إثبات وجود تفرقة عنصرية في المجتمع فإنه من الضروري أن نأخذ في الاعتبار ما إذا كانت التفرقة العنصرية مثبتة بحقائق وإحصاءات حول

الأنواع المختلفة، من ناحية أم أن اختفاء التفرقة العنصرية هو المعتقد الطبيعي إلى أن يتم إثبات العكس. وعلى كل حال قد لا يكون للحكم المسبق أهمية تذكر في ظروف أخرى، في حال وجود مناظرة تسعى لإثبات فرضين متشابكين بشكل يجعل منهما عقيدة لا تنفك، وأحيانًا كما هو الحال في مناظرات الحملات السياسية حيث يُفترض ألا يوجد هناك تأثيرٌ لصاحب منصب، على الرغم من رأي بعض المحللين السياسيين بأن هناك دائمًا افتراضًا مسبقًا لصالح الحزب الحاكم.

ولا تنتهي كل المناظرات بحكم حقيقي. فقد تؤثر مناظرة - لا تسعى خلف قرار بعينه - بالإيجاب في عرض وتفصيل وتبيين نقاط الاختلاف. وحتى إن لم يصدر حكم فإن العلم بوجود ضمنى لصانع القرار من الأمور المهمة؛ إذ يضفي ذلك على المناظرة الأبعاد والأطر التي سيتحرك داخلها المتناظرون. ومما يضفى على المناظرة جوًا من النزاهة والصرامة فى آن حيادية من يقيِّم أداء المتناظرين، حيث يتضمن قرار البدء في المناظرة تعهدًا بالالتزام بالنتائج. ويجب على المتناظرين ألا يتخلوا عن معتقداتهم إذا حدث وأثيرت القضية مرة ثانية مع تغير الظروف والوقت، مع الأخذ في الاعتبار أنه في أي مناظرة يجب أن يؤخذ فى الاعتبار أن قرار المحكمين شرعي ونهائي وملزم. ويختار المتناظرون هذا الأسلوب لحل نزاعاتهم نظرًا لاحترامهم لعملية المناظرة ذاتها حيث يرغب كل منهم أن تسود وجهة نظره عبر اختبار صارم ومنظم ولا يتأتى هذا إلا من خلال المناظرة.

فلسفة المناظرة Philosophy of Debate

على الرغم من رؤية البعض للمناظرة على أنها نشاط نزاليّ فإنها تعدُّ منهجًا لتحقيق قرار جماعي. وتنبثق المناظرة من عدة مفاهيم فلسفية أولها هو كون العلاقات الإنسانية غير محدَّدة وحادثة وتتطلب وجود التنبؤ والقيمة

والتأويل والحكم. إن القرارات المتصلة بمثل هذه الأمور لا تستند إلى دقة القياس الخبري أو يقين المنطق الصوري، ومع ذلك فهى مهمة جدًّا ولابدْ من الاحتكام إليها. ومن ثم استطاعت المناظرة أن توفر للاختبارات التي يقوم الإنسان بها أرضًا صلبة تستند إلى المنطق والأسباب بدلاً من الركون للذوق الشخصي أو قوى لاعقلانية. واستطاع هذا الاختبار الصارم للأفكار من خلال النقاش أن يعمل كقياس إجرائي مماثل للمنطق الصوري والمنهج العلمي.[انظر **الحدوث والاحتمالية** contingency and probability].

يجب أن يكون الاختبار صارمًا حقًّا حتى يمكن الاعتماد على النتائج، والافتراض الفلسفي الثاني هو أن المناظرة تجعل هذا ممكنًا. ويقوم الادعاء الذي يوحي ظاهره بالتناقض بحث الطرف الآخر على فحصه فحصًا دقيقًا بُغية إثبات شيء من ذلك؛ ولهذا يتحاشى المتناظرون استخدام ادعاءات كهذه، ويعمدون إلى ادعاءات أخرى أكثر صلابة. ويعني هذا ببساطة أن ارتباط المنافسة بالنقاش يكون باعثًا على الجودة والإتقان. وتجدر الإشارة هنا بالتأكيد على أن المنافسة الحقيقية إنما تكون بين الأدلة وليس بين الأشخاص، ومن المؤكد كذلك أنه لا يمكن فَصْل هوية المناظر عن مناظراته، كما أنه يمكن أن يفقد ماء وجهه إن دأب على تقديم مناظرات لا تقوى على الصمود. ولكن مما يبرر وجود مناظرة كهذه ما يزعمه المتناظرون من أن المخاطرة من أجل هدف أسمى تكون غايتها الوصول إلى قرارات تتسم بالثقة. وتكتسب المناظرة في هذا النطاق طابعًا تعاونيًّا لا تنافسيًّا.

وتزداد حدة صرامة المناظرة ليس فقط لوقع المنافسة وإنما لوقع بعض الإجراءات والأعراف التي تصاحبها كالتقيد بوقت معين يُقسَّم مناصفةً بين الطرفين، وأن يُحتسب فقط ما يُعد دليلاً قاطعًا، والالتزام بتوفير صيغة قرار واضحة، هذا بالإضافة إلى انتقاء محكَّمين على قدر معين من الدراية والمهارة.

ثالث تلك الافتراضات أن المناظرة تقود إلى أخذ قرار عن طريق عمليات متتابعة من المقارنة والاختبار. والمناظرة بطبعها ذات وجهين أحدهما يؤيد والآخر يعارض، إلا أن القرار النهائي سيبرز وجهًا واحدًا فقط من بين عدة تناولات، لحل المشكلة أو للوصول إلى قرار. وكثيرًا ما يتردد القول بأن للمناظرة وجهين بينما للحقيقة وجوه عديدة. وقد فشل هذا الافتراض في تقدير الطبيعة التتابعية للمناظرة؛ فرفض قرار ما لا يعنى بالضرورة المصادقة على الآخر، بل يدفعنا إلى حلبة الجدال مرة أخرى، ويظل الأمر هكذا إلى حين ظهور عدد من النتائج الأخرى حتى يتم الإجماع على قرار واحد في النهاية.

وتتضح الطبيعة التتابعية للمناظرة من خلال السياق الجدلي الذي دار في أواخر التسعينيات حول تمويل الرعاية الصحية في الولايات المتحدة. فتوفير الحكومة لدعم الرعاية الصحية بتغطية شاملة فكرة قوبلت برفض شديد خلال إدارة كلينتون والتي أسهمت بدورها في رسم أبعاد الاقتراح الخاص بها والذي كانت سمته الأساسية التنافس المنظم، وإن قوبل هذا الاقتراح أيضًا برفض شديد في المنتدى العام عام ١٩٩٤، ثم تبع ذلك عدد من التعديلات على نظام الرعاية الصحية كلها أقل شمولية من سابقاتها ثم تم طرحها للنقاش. وعلى الرغم من أن القضية لم تحسم فإنه بحلول عام ٢٠٠٠ اتجهت دفة المناظرة نحو وجود تمويل الرعاية الصحية بنظام تصاعدي بدلاً من السياسة الشاملة السابق طرحها.

ورابع الافتراضات الأساسية حول المناظرة هي أنها تولِّد وتنقى المعرفة المجتمعية [انظر المعرفة المجتمعية **Social knowledge**]، ونعني بذلك ما يسود في المجتمع من موروثات وأقوال مأثورة ونزعات فطرية وأحكام بحيث يساعد وجود تلك العناصر على ظهور الحقائق داخل ثقافة ما ويؤثر

على الحكم على الأمور تباعًا، فإن ساد قرار ما يصبح فحواه حقيقة اجتماعية، وإلا يتم الدفع به جانبًا. ويستخدم بعض علماء المنطق مصطلح "مجموعة الملزِمات " للإشارة إلى المعتقدات التي تلهي الفرد، والتي تكون محطة بدء انطلاق المُناظِر للفرض والقياس؛ ومن ثم فالناتج النهائي لأي مناظرة يقع تحت مظلة " مجموعة الملزمات " لهذا المجتمع. وتمثل القرارات القابلة للفحص والتدقيق نواة لمناظرات أخرى مستقبلية.

وأخيرًا نقول إن المناظرة هي دفاع قوي عن حرية التعبير على أساس أنها نظام يُعلي من شأن الحق والعدل.، ويرى أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) أن الحقيقة بطبيعتها أقوى مما يباينها؛ وإن كان ذلك كذلك؛ فإن الحقيقة تستطيع أن تجتاز اختبارًا صعبًا كالمناظرة. وعندما تقوم الأنظمة الديمقراطية بالأخذ بالقرارات الجماعية في المناقشات العامة فإنها بذلك تزرع الثقة في نفوس الناس، وتأتي طبيعة المناظرة الصارمة لتزيد من هذه الثقة.

ألوان المناظرة Varieties of Debate

ساد خلال القرن العشرين خمسة أنواع رئيسية للمناظرة وهي المناظرات النيابية والمناظرات السياسية، والمناظرات المتخصصة، والمناظرات العامة الممتدة والمناظرات الأكاديمية.

المناظرات النيابية Parliamentary debte

تعد المناظرة سمة رئيسية للهيئات المشرِّعة تبعًا للإجراءات المستقاة من القانون والعرف والنظام الحاكم، وقد تطورت قواعد المناظرة في البرلمان البريطاني بمرور الوقت، وفي الولايات المتحدة أُخذت القواعد التي تحكم المناظرات النيابية في الكونجرس من عدة مصادر هي الموروث البريطاني، ودستور الولايات المتحدة بالإضافة إلى الكُتيِّب Manual الذي ألفه

توماس جيفرسون Thomas Jefferson وقت أن كان نائبًا للرئيس (ومديرًا لجلسات مجلس الشيوخ). وأخيرًا من القواعد التي اعتنقتها الأفرع التشريعية في دعواها.

والمناظرات ذات الشكل النيابي، وإن كانت أقل تعقيدًا، إلا أنها سمة للحكومات المحلية والاجتماعات السنوية للمؤسسات واجتماعات العمل في القطاع الخاص. وقد تُنمّي هذه المجموعات إجراءات خاصة بها، إلا أنها كثيرًا ما تلجأ إلى نموذج مقنن. ولعل كتاب Robert's Rules of Order، والذي قام هنرى م. روبرت Henry M. Robert بتجميعه وتنقيحه عام ١٨٧٦ هو النموذج الأكثر شيوعًا، وإن وجدت بدائل منافسة.

مناظرات الحملات السياسية Political campaign debate

أصبح ظهور المرشحين المتنافسين على المناصب السياسية معًا فى المناظرات، التى تقوم على تقسيم الوقت بينهما، أمرًا مشهورًا فى الولايات المتحدة في وقت مبكر من القرن التاسع عشر وذلك للحد من الصعوبات في مجال النقل والاتصالات بالنسبة لكل من المرشحين والناخبين. من بين أشهر تلك المناظرات، على الرغم من أنها كانت غير نمطية، سبعة لقاءات مشتركة بين إبراهام لينكولن Abraham Lincoln ودوجلاس ستيفن Stephen A. Douglas في حملة عام ١٨٥٨ للفوز بمقعد في مجلس الشيوخ الأمريكي عن ولاية إيلينوي. ووقعت المناظرات الأولى بين المرشحين للرئاسة من الحزبين الرئيسيين خلال الحملة الانتخابية عام ١٩٦٠ بين جون كينيدي وريتشارد نيكسون وكانت هذه المناظرات منقولة تلفزيونيًّا وإذاعيًّا أيضًا، وحظيت باهتمام واسع. كانت كل مناظرة تتكون من كلمة افتتاحية قصيرة وبيان ختامي لكل مرشح، ولكن كان يتم تخصيص معظم الوقت للرد على الأسئلة التي تطرحها لجنة من الصحفيين. وعلى الرغم من أن الأدلة البحثية لم تكن

حاسمة، فإن الكثيرين يعتقدون أن المناظرات، ولا سيما المقارنة المرئية بين المرشحين، قد ساعدت كينيدي.

وقد استمرّ عقد المناظرات في كل انتخابات الرئاسة الأمريكية منذ عام ١٩٧٦، وأصبحت سمة دائمة في الانتخابات المحلية أيضًا. وقد تبنت العديد من الدول الأخرى أيضًا تقليد المناظرات فى الحملات السياسية وكانت تتم الدعاية للمناظرات كوسيلة لتشجيع الاهتمام العام بالحملات السياسية، ولكنها تعرضت لانتقادات بسبب التعليقات السطحية الضحلة التي يقوم بها المرشحون. وكما هو الحال في مناظرات عام ١٩٦٠، فإن هناك القليل من الأدلة البحثية التى تشير إلى أن المناظرات يكون لها تأثير كبير على قرارات التصويت من جانب الناخبين؛ حيث يكون أثرها الرئيسي على ما يبدو هو تعزيز الاستعدادات المسبقة لدى أفراد الجمهور. ومع ذلك يمكن أن تؤثر الفروق الصغيرة في نسبة الإقبال على النتيجة في الانتخابات الختامية.

ومنذ عام ١٩٨٨، أصبح تنظيم مناظرات انتخابات الرئاسية الأمريكية يتم تحت رعاية لجنة مناظرات الرئاسة المشتركة من الحزبين الجمهوري والديمقراطي، والتي كانت تقترح تواريخ عقد المناظرات ومواقعها، وأسلوب تنظيمها على المرشحين لاستعراضها. وقد ساد أسلوب تنظيم المناظرات القائم على لجنة الصحفيين حتى عام ١٩٩٢، عندما استخدمت بعض المناظرات أسلوب الوسيط الوحيد أو أسلوب "قاعة المدينة " التى تطرح فيها الأسئلة من قبل المواطنين من الجمهور. وكانت حملة عام ١٩٩٢، المرة الوحيدة التي شملت المناظرات الرئاسية لثلاثة مرشحين، وذلك لأن مرشح حزب الإصلاح روس بيرو H. Ross Perot حقق ١٥ % في استطلاعات الرأي الوطنية الكبرى وهى المقياس الذى وضعته لجنة المناظرات الرئاسية للمشاركة. ولحث المواطنين على الاهتمام والمشاركة في المناظرات، وضعت اللجنة برنامجًا

يسمى مشاهدة المناظرات، حيث يجتمع الأفراد معا لمشاهدة المناظرات الرئاسية، ثم يقومون بمناقشة القضايا الخاصة بها.

المناظرات المتخصصة Specialized debates

المناظرات المتخصصة فى مجال معين - مثل مناظرة المؤرخين حول أصل الحرب الباردة - هي التي تجري في محافل ذلك المجال، مثل المجلات العلمية والاجتماعات المهنية. حيث تكون المعرفة الاجتماعية التي تعتمد عليها، والأدلة التي تستخدمها، وأنماط التفكير التي يمكن تعميمها خاصة بالمجال أكثر من كونها عامة. وللحصول على جمهور أكبر، قد لا تكون النتائج ذات أهمية على الرغم من أنها تكون مهمة جدا لأولئك العاملين في المجال. [انظر **مجالات الحجة Argument fields**.]

المناظرات العامة الموسعة Extended public debate

وهى المناظرات العامة التى تهتم بالجدل على المدى الطويل، ويشارك فيها الكثير من الناس، ويتم استخدام العديد من المنتديات ووسائل الإعلام، وتكون معايير الأدلة مختلفة اختلافًا كبيرًا، وعادة ما تكون القرارات والقواعد الإجرائية ضمنية، وغالبًا ما يكون من غير الواضح متى تبدأ المناظرات ومتى تنتهي. تشمل أمثلة المناظرات العامة الموسعة في الولايات المتحدة الجدل الدائر حول ما إذا كان ينبغي أن يتم السماح بالإجهاض قانونا، والخلاف على ما إذا كانت سياسات الوعى العرقى مناسبة للتعويض عن التمييز العنصري، والمناظرات التي سبق ذكرها عن التمويل العام للرعاية الصحية. وقد تنشأ المناظرات العامة في كثير من الأحيان بشكل لا يمكن التكهن به وتنتهى ليس بسبب تغلب مجموعة واحدة من الحجج بشكل واضح ولكن بسبب ظهور موقف توفيقي، أو أن المؤيدين نفدت حججهم بحيث

يصبح النزاع قديما، أو بسبب التغيرات الاجتماعية والتكنولوجية التى تجعل المناظرات صورية.

مناظرات المسابقات الأكاديمية Academic contest debate

منذ أواخر القرن التاسع عشر، أصبحت مسابقات المناظرات أنشطة بارزة في الجامعات والكليات والمدارس الثانوية في الولايات المتحدة وبلاد أخرى. كانت المناظرات من أنشطة الجمعيات الأدبية التي أنشئت في العديد من الكليات والجامعات الأمريكية فى منتصف القرن. وعقدت أولى المناظرات المعروفة بين الكليات يوم ٢٩ نوفمبر ١٨٧٢ بين جمعية هينمان من جامعة نورث وسترن وجمعية تري كا پا فى جامعة شيكاغو، قبل عشرين عامًا من المناظرة بين جامعة هارفارد وييل ١٨٩٢ التي غالبًا ما يستشهد بها على أنها المسابقة الأولى بين الكليات. وخلال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، أدرجت المدارس المناظرات بعقود كانت تحدد- من بين أمور أخرى - كيف يتم اختيار الفرق والمحكمين.

كانت العقود لمدة سنتين وكانت تشترط أن يتم عقد مناظرات في إحدى المدارس في العام الأول، وفى مدرسة أخرى في العام التالى. وقد أجرت جامعة دنفر في عام ١٩١٣ الدورة الأولى الموسعة المعروفة، التي جرت فيها عدة مناظرات. وفي عام ١٩٢٣، استضافت كلية نورث وسترن أول دورة للمناظرات بين الكليات، وأصبح أسلوب التنظيم القائم على الدورات سائدًا منذ ذلك الوقت. أما الشكل الأكثر شيوعًا لهذه الدورات، فهو أن يكون لدى جميع الفرق عدد معين من المناظرات، بالتناوب بين تأييد ومعارضة للقرار، وتنتقل الفرق ذات النتائج الإجمالية الأفضل إلى فئة منفردة. وخلال السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية، ظهرت المنافسات على المستوى الوطني، حيث بدأت دورة المناظرات الوطنية في عام ١٩٤٧.

وقد عُقدت أول المناظرات الدولية المشهورة في عام ١٩٢١ بين كلية بيتس واتحاد أكسفورد. وقد أصبحت الجولات الدولية جزءًا منتظمًا من المناظرة مع مشاركين من أستراليا وبريطانيا واليابان وروسيا ونيوزيلندا وإسرائيل وغيرها من الدول. وكان تنسيق العديد من هذه الجولات يتم من خلال لجنة الحوار والمناظرة الدولية تحت رعاية الرابطة الوطنية للاتصالات. وعلى مستوى المدارس الثانوية استفادت المناظرة من عناصر كثيرة من خلال تشكيل رابطة الطب الشرعي الوطني (NFL) في عام ١٩٢٥م. وبالإضافة إلى العديد من الخدمات الأخرى للمدارس الثانوية كانت الرابطة ترعى جولة وطنية سنوية منذ عام ١٩٣١م (باستثناء سنوات الحرب العالمية الثانية).

قائمة المراجع

Branham, Robert James. *Debate and Critical Analysis: The Harmony of Conflict*. Hillsdale, N. J., 1991.

وهو كتاب يربط بين المناظرة والتفكير النقدي والتحليل.

Ehninger, Douglas. "Debate as Method: Limitations and Values." *Speech Teacher* 15 (September, 1966),pp. pp. 180–185.

يشير الكتاب إلى أن المناظرة في المقام الأول وسيلة للنقاش النقدي بدلا من العراك.

Ehninger, Douglas, and Wayne Brockriede. *Decision by Debate*. 2d ed. New York, 1978.

وهو يناقش نقد نظرية الجدال لتولمين ستيفين، ويؤكد أن المناظرة مشروع تعاوني.

Freeley, Austin J., and David L. Steinberg. *Argumentation and Debate: Critical Thinking for Reasoned Decision Making*. 10th ed. Belmont, Calif., 2000.

من أكثر الكتب التي تناولت موضوع المناظرات شهرة وانتشارًا.

Friedenberg, Robert V., ed. *Rhetorical Studies of National Political Debates, 1960–1992*. 2d ed. Westport, Conn., 1994.

وهو دراسات حول المناظرات الفردية لانتخابات الرئاسة الأمريكية في الفترة من ١٩٦٠م – ١٩٩٢م.

Jamieson, Kathleen H., and David Birdsell. *Presidential Debates: The Challenge of Creating an Informed Electorate*. New York, 1988 .

يتناول طبيعة الجدال في المناظرات الرئاسية الأمريكية وتوقعات الجمهور.

Kraus, Sidney, ed. *The Great Debates: Kennedy vs. Nixon, 1960.* Bloomington, Ind., 1977. First published 1962 .

وهو دراسة بحثية لأول مناظرة رئاسية في أمريكا.

Muir, Star A. "A Defense of the Ethics of Contemporary Debate. " *Philosophy and Rhetoric* 26 (1993),. pp. 277–295 .

وهو يرد على الانتقادات المختلفة للمناظرة، وخاصة الزعم بأن المناظرة المنعقدة بين جانبي الحل شيء غير أخلاقي.

Patterson, J. W., and David Zarefsky. *Contemporary Debate*. Boston, 1983.

وهو يعالج المناظرات باعتبارها ممارسة للاختبارات الصارمة للفرضيات المقدمة إلى الجمهور بغرض الالتزام.

Robert, Henry M. *The Scott, Foresman Robert's Rules of Order Newly Revised*. Glenview, Ill., 1990.

وهو كتيب للإجراءات البرلمانية.

Thomas, David A., and Jack P. Hart, ed. *Advanced Debate*. 4th ed. Lincolnwood, Ill., 1992 .

وهو مقالات مختارة حول نظرية المناظرة والممارسة المتصلة بها، والتي ظهرت في المجلات المتخصصة.

Ziegelmueller, George W., and Jack Kay. *Argumentation: Inquiry and Advocacy*. 3d ed. Boston, 1997 .

وهو كتاب يدور حول الجدل والمناظرة.

تأليف: David Zarefsky

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

الخطبة التعليمية Declamation

كانت الخطبة التعليمية خطبة تدريبية حول موضوع قضائي أو سياسي مصطنع، وهي المرحلة الأخيرة في التعليم البلاغي في الإمبراطورية الرومانية. [انظر Deliberative genre و Forensic genre]. كانت هذه الخطبة هي الشق الأكثر جدية في التدريب الكتابي والكلامي الإبداعي، الذي يكون الطالب قد بدأه بواسطة استظهار مبادئ كاتو Cato أو ميناندر Menander، وقدَّم أصواتًا لإعادة حكي سلسلة من الحكايات الخرافية. وفي حين أن الخطب التعليمية كانت مرتبطة بالمدرسة على نحو وثيق، فإنها أصبحت نوعًا من كونشيرتو الكلام، فيما يشبه من وجه بعيد تدريبات الأداء لدى السوفسطائيين الأوائل، والمحاضرات الجماهيرية للحركة السوفسطائية الثانية. لقد كانت الخطب التعليمية عظيمة الأهمية بالنسبة للأدب، في التدريبات الشاملة في مدارس الإمبراطورية. كما كان لها الأهمية نفسها في اتجاهات النخبة وعقليتها، نظرًا لأنها كانت تدرِّب على مهارات تنافسية، وكذلك مهارات الاستماع والفهم، بنفس بقدر اهتمامها نفسها بالتدريب على مهارة التأليف.

بعد أن يجتاز طلاب مدارس النحو سلسلة من التدريبات الأولية، تتضمن الحكي على ألسنة الطيور والحيوان، والأمثال، يبدأ الطالب أول مراحل الخطب التعليمية. وقد أشار كينتليان (أحد بلاغي القرن الأول الميلادي) إلى أن النحاة غالبًا ما كانوا يأخذون هذه المقررات، في حين تخصَّص بلاغيون كثر في دراسة القضايا الجدلية وهو الموضوع الأكثر تخصصًا. [انظر: suasoria Controversia and]. كانت تدريبات النصح

والإرشاد تقدم الموقف الأكثر بساطة، حيث يلعب التلميذ دور الناصح لبعض عظماء الرجال: وعلى سبيل المثال؛ هل يقبل نوما Numa المُلك الذي عرضه عليه الشعب الروماني؟ هل يجدر بالإسكندر المقدوني أن يُبحر في المحيط؟ أما القضايا الجدلية فقد قدمت بنية أكثر تحديًا: مثل أن يتخيل التلميذ نفسه محاميًا في المحكمة. يكون المعلم قد قدَّم في البداية عدة جمل يصف فيها الموقف وقانونًا يفرض عقوبة رادعة. ويجب على التلميذ المتدرب أن يؤلف خطبة ويلقيها، تتضمن هجومًا أو دفاعًا عن الشخص المُدعى بأنه سيئ السمعة، ومع ذلك يريد أن يُنصب نفسه رجل دين، أو عن بعض الشباب الذين يرغبون في استغفال أب قاسي. وبفضل المنتقدين القدامى والمحدثين، نُظر إلى الخطب التعليمية على أنها غير واقعية وفانتازية وذات أسلوب فاقع؛ وكانت تقنياتها الصوتية الحنجورية تستدعي إما إعجاب القراء أو توترهم. وفي الحقيقة فإن سمتي الفانتازية والتجريبية دمغا هذا النوع من التأهيل للحياة، ولم يُقدِّر الناقمون فائدة أن يتأمل التلاميذ أفعال زوجات الأب، أو إجراءات الآباء القاسية، أو ولاء الأبناء المفتَّت. ومع ذلك فإن الخطب التعليمية التي وصلت إلينا تقدم برنامجًا دراسيًا متكاملا في المحسنات البلاغية في البلاغة القديمة [انظر: Figures of speech]. فقد تدفقت أساليب الحوار المتخيل، وتوقع حجج الخصم، والحجج المعتمدة على القياس، والعبارات السيارة والأمثال والوصف والالتفات. [انظر: Apostrophē; Prosōpopoeia; Commonplaces and commonplace books; Descriptio; وSyllogism]. حظي تخيل الشخصية التي سوف يتبناها الدارس بتعليق دقيق ومحدد من أستاذ الخطب التعليمية، بدءًا من مدرسة كينتليان. يكشف الأستاذ – أثناء تقديمه بعض تفصيلات عن أفضل شخصية تستدر عطف الجمهور، وبعض التعليمات بشأن اللون الذي يُضاف (أعني كيف تُمثَّل النوايا، أو سيكولوجية الدفاع، أو الفاعلين في الخطب التعليمية)– يكشف عن الاهتمام

الكبير الذي تُعطيه الخطب التعليمية للمسائل الأخلاقية. [انظر: Color].
يؤسِّس الطالب سردًا يستكشف نفسية الفعل وفاعله.

إن الطلب المستمر على تنوع المنظور، من قبل الحبكة الخطابية والضغط المتواصل من أجل الإبداع، يشجع على تبسيط المقولات الفكرية وكذلك الآنية البلاغية. لقد ألح كينتليان ولاترو، وهما أكثر أساتذة الخطب التعليمية حظوة لدى سينيكا الأكبر، (c.55 bce–c.39 ce)، على ضرورة التقسيم، من ناحية اختزال القضية إلى مسألة واحدة أو مسائل ضرورية مثل (هل العفة هي الاحتفاظ بالبكارة أم الحفاظ على العلاقة مستمرة مع الطرف الآخر؛ هل القضية الراهنة تتلاءم مع روح القانون أم مع نص القانون؟). لقد طورت الخطب التعليمية نظرية في البناء، بعد تأمل التعبير المتطرف عن الطبقات والانخراط في توضيحات متنوعة. لقد تطلبت الخطب التعليمية بوصفها حجر أساس في التعليم البلاغي أن يقدم الشاب نفسه بوصفه خطيبًا ناضجًا، يتحدث بالنيابة عن الأبناء أو الآباء أو العبيد المحررين أو الفتاة الحرة التي تُساء معاملتها. فقد كان العنف الأسري والاغتصاب ونكاح الأقارب والخطف والهجر الكامل مصادر للعنف الذي يهدد المنزل والدولة. ويأتي الطالب منقذًا، يشحذ مهاراته في الدفاع ويؤدي دور المتحدث المفترض نيابة عن المضلَّلين والخاضعين للهيمنة الاجتماعية. لقد تناول أوغسطس Augustus (63 bce–14 ce) وميسيناس الأداءات. وقدم سينيكا الأكبر مقتطفات من مسابقات للمحترفين ومن أداءات الأساتذة المشاهير، ممن كانت مدارسهم مفتوحة للزائرين. وكان الجمهور يهاجم بلا رحمة انزلاق الذوق، والنزعة نحو الاستحسان واستخدام اللاتينية. وبالنسبة للمؤدين فإن موقف إلقاء الخطب التعليمية كان ينشأ بوصفه ثقافة لفظية شديدة التنافسية، سواء أكان المتنافسون من طلاب المدارس أم من العبيد المحررين أم من سكان الضواحي، أم من سكان الثغور. كانت تلك المسابقات مكانًا يستطيع فيه

أرستقراطيون مثل ميسالا Messalla أو بوليو Pollio أن يصنعوا سمعة لأنفسهم أو يخسروها بواسطة إيماءة كلامية مختصرة.

كانت الخطب التعليمية – بوصفها مصطلحًا أو ممارسة على نحو ما وصفناها به– تيارًا سائدًا في روما حتى وفاة شيشرون 43 bce. واستمرت في الوجود حتى نهاية الإمبراطورية وما بعدها، وقد قيل بأن ولي العهد الإمبراطوري Gratian كان يمتلك مهارات جيدة في القضايا الجدلية. وقد اعتقد سينيكا الأكبر أن الخطب التعليمية قد نضجت بمعيته، وهو ما يكشف عن جهل بجزئية أن التخلص من الإرث اليوناني، وتفضيل المصادر اللاتينية التي لا تتجاوز عصر شيشرون كان علامة من علامات كتاب الفترة الاستعمارية فيما بعد الكلاسيكية. [انظر، Eristic]. وعلى نحو محدد فإن رباعيات أنتيفون في منتصف القرن الخامس الميلادي أسست تدريبًا على قضايا محاكم مزيفة، (على الرغم من أن هذه القضايا كانت تسير على منهاج قضايا إثينية حقيقية لها أربع خطب: خطبتين للدفاع وخطبتين للمحامين). لقد قيل بأن أرسطو (384–322 bce) وثيوفراسطوس (c.371–c.288 bce) أدرجوا الأطروحات الفلسفية في المدارس (التي تقترح قضية عامة؛ ويُتخيل فيه أسماء أو حالات أو زمنًا). وقد ذكر فيلوستراتوس أن آشينوس دشن الحركة السوفسطائية الثانية، مشتقًا إياها من الإثينيين بواسطة ديموستين، وقد استخدمت الحركة سيناريو متخيل فيه الرجل الفقير، والبطل والطاغية، عرفناه من خلال الخطب التعليمية المتأخرة.

نحتاج إلى قدر من الحذر، لأن المصادر يمكن أن توقع المرء في شرك التصورات النمطية السهلة – الخطيب الحقيقي يطرد الخطيب الأدنى الذي ينتهي به المطاف في مدرسة– وهذا أحد شرور تاريخ الفكر القديم، حيث يُمنح كل تطور اسمًا مشهورًا.

كان ثيوفراستوس وميناندر مهتمين بتنويعة متشابهة من الناس الطبيعيين وأنماط الشخصيات المتطرفة. وتبقى المدرسة الهللينية في ممارساتها الفعلية غامضة على نحو ما، وكانت بدون أدنى شك أكثر تنوعًا مما تذكره السجلات اللاحقة.

يشير الاستعمال المبكر لفعل declamare (وغالبًا ما يحمل الفعل نبرة استهجان للإلقاء المفتعل) إلى المعنى الأصلي للكلمة وهو تدريب الصوت. ويمكن للكلمة أن تعني ببساطة أن يتدرب أو يتمرن على الأداء: وقد قيل بأن مارك أنطوني وبومبي اعتادا أثناء استعدادهما للمناسبات المهمة إن يتمرنا على إلقاء خطبهما بعيدًا عن أعين الناس. وقد اعتاد شيشرون أن يتدرب على خطبه باليونانية حتى تاريخ praetorship، ثم باللاتينية بقية حياته. ويلفت شيشرون الانتباه إلى جدة الكلمة، ويشير بشكل فكاهي إلى تدريب التقاعد من التفلسف، الذي أداه باليونانية. كان شيشرون خارج المنافسة، خاصة مع التورات التي أحدثتها مدرسة بولتيس جالوس Plotius Gallus (في وقت مبكر من القرن الأول قبل الميلاد)، التي صاغت تمرينات على قضايا رومانية، وكان المتحدثون فيها يخطِّأون بسبب إلقائهم المبالغ فيه.

لقد ازدهرت الخطب التعليمية في الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية اليونانية (انظر تحديدًا الخطب التعليمية حول التيمات التاريخية لأريستيدس، وتلك الخاصة بلابينيوس وقورش الغزاويين). ومجموعة النصوص الأساسية هي تلك المقتطفات التي جمعها سينيكا الأكبر، في حين تُنسب الخطب التعليمية الرئيسية والفرعية إلى كينتليان وإلى كالبرنيوس فلاكوس Calpurnius Flaccus. [انظر أيضًا **Classical rhetoric**].

مصادر ومراجع

Bloomer, W. Martin. *Latinity and Literary Society at Rome*. Philadelphia, 1997.

يعالج الفصل السادس الدور الاجتماعي للخطبة التعليمية في روما.

Bloomer, W. Martin. "Schooling in Persona." *Classical Antiquity* 16 (April 1997), pp.pp. 57–78.

تأمل في مكانة الخطبة التعليمية في نظام المدارس الرومانية.

Bonner, S. *Roman Declamation*. Berkeley, 1949.

عمل أساسي، ويتسم بالقوة بخاصة في معالجته للعلاقة بين الخطبة التعليمية والقانون الروماني.

Fairweather, J. *Seneca the Elder*. Cambridge, U.K., 1981.

معالجة دقيقة ليس فقط لحياة وأعمال سينيكا، بل أيضًا لتاريخ الخطبة التعليمية.

Russell, D. *Greek Declamation*. Cambridge, U.K., 1983.

أفضل البحوث حول الموضوع

Sussman, L. *The Declamations of Calpurnius Flaccus: text, translation, and commentary*. Leiden, 1994.

Sussman, L. *The Major Declamations Ascribed to Quintilian*. Frankfurt A.M., 1987.

Winterbottom, M. *The Minor Declamations Ascribed to Quintilian*. Berlin, 1984. النص والتعليق مع مقدمة وافية.

تأليف: W. Martin Bloomer

ترجمة: عماد عبد اللطيف

الملاءمة Decorum

يجسّد المفهوم الكلاسيكي للملاءمة العديد من الخصائص المتناقضة لفنّ البلاغة: فهو قديم وعالمي في آن واحد، قاعدة سلوك عامة وحسٌ جمالي ثري، كما أنه تأكيد جذري للخاصية الاجتماعية للغة وإجراء اصطلاحي.

وتتمثل الفكرة الأساسية للملاءمة في أن الكلمة لن تكتسب فعاليتها ما لم تكن متناسبة مع السمات الخاصة للمتحدث أو الموضوع أو المتلقي أو المناسبة أو الوسيط. وتوصي النصوص القديمة لفن البلاغة المرءَ بألا يتحدث باندفاع حال شعوره بالخجل، وألا يتحدث بخفة عن المسائل الجادة، وألا يخاطب مجلس الشيوخ على النحو نفسه الذي يخاطب به عامة الناس، كما توصيه بألا يترافع في المحكمة كما لو أنه يتحدث في اجتماع، وتنبهه إلى أن هناك اختلافاً بين طول الجمل المنطوقة وتلك التي يتم تدوينها. ومع ذلك فمثل هذه النصائح لا تضمنُ تحقيق إقناع ناجح، فإن من لا يتوخاها يكون أقرب إلى الفشل.

وتعرف النصوص القديمة الملاءمة بأنها واحدة من الفضائل الأربع الرئيسة للأسلوب، ويعتبرها بعض الكتّاب الفضيلة الأسمى من بينها. [انظر الأسلوب Style]. وقد أطلق الإغريق على هذا المفهوم *perpon* (من كلمة *prepei*، بمعنى لائق) كما أطلقوا عليه *harmottein* و*kairos* (في إشارة إلى اللحظة المناسبة). ومع أن الكلمة كانت تشير في الأصل إلى منافاة الذوق السليم، فإن *prepon* صارت مصطلحا فنيا يشير إلى المناسبة ويعكس الانتظام الاجتماعي للمجتمع. وعليه يمكننا – في وسط ما متحضر– أن نتميَّز عن غيرنا بصورة فاعلة من خلال قيامنا بالأدوار التي تليق بنا، وتصبح الملاءمة

بمثابة الحس الجمالي الذي من خلاله يكون المرء قادرا على القيام بهذا الدور. واللاتينية تستخدم الكلمة *decorum* (من *decet* لائق، وكذلك *decorare* يزين) مع كلمات مثل المناسبة *aptus* واللحظة المواتية *congruens* والملاءمة أو التكيُّف *accomodatus* وهلم جرا. ولقد كانت الملاءمة شغلا شاغلا للكتاب الكلاسيكيين، الذين استوعبوا ملاحظة شيشرون: "لا تختلف الخطبة عن الحياة عموما، في صعوبة تحديد ما يليق وما لا يليق" (الخطيب، ص ٧٠).

يصعب على المفكرين المحدثين تخيل ما مارسته لياقة الأسلوب من تأثير على الاهتمام الفكري في الكتابات القديمة. فيوجز روبرت كاستر Robert Kaster تعامله مع الملاءمة بقوله:

"نحن نتعامل مع نسق تداعيات هائل متنوع؛ ولكننا نتعامل كذلك– وبصورة مطلقة– مع نسق مغلق. فمن خلال قراءة آراء قديمة حول الموضوع نخلص إلى أنه من الممكن– من حيث المبدأ– أن نستخلص تصنيفا يتناظر مع كل الأشخاص والأشياء والأفعال والأفكار المعروفة ذات الصلة بكل الأسماء والأفعال والصفات والظروف الزمانية والمكانية المعروفة، لكونها قابلة للاستخدام بلياقة من قِبَل كل المتحدثين، في المناسبات الممكنة كافة، أمام المتلقين المحتملين كافة" (ص ٥).

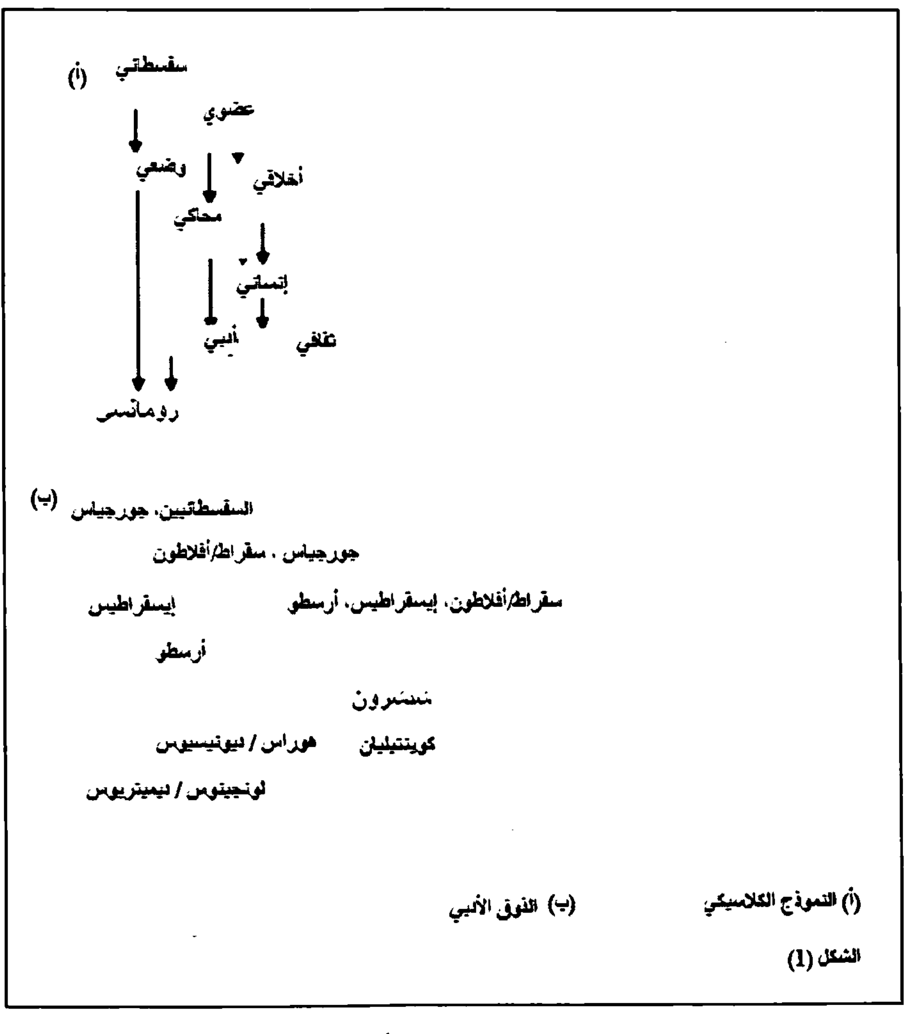
أما هيرموجينيس فقد ابتعد عن مناقشة هذا الموضوع (fl. 180 ce) حيث قام في أطروحته حول أنماط الأسلوب (*Peri ideon*) بتأجيل مناقشة الموضوع إلى عمل لاحق (لم يقم بكتابته):

"كل من حاول التعامل مع تلك القضية يدرك أن المهمة جد صعبة. إن التعامل مع كل إشكاليات الموضوع بطريقة منهجية أمر يفوق قدرات البشر، بل وقد يستدعي تدخل قوة سماوية. حيث يتوجب عليك أن تتعامل مع أزمنة وشخصيات وأماكن وأسباب وأساليب وغير ذلك من جوانب شبيهة، وأن

تناقش الحالات الممكنة كافة، بالإضافة إلى صورها المتعددة التي تتخذها، وتنوع سبل طرحها، وكذلك النمط الوجداني الذي يتناسب وكل جزء من الخطاب... وسيكون من الضروري أن تتعامل مع أنواع الأساليب كافة، وأن تناقش أنسب أنماط الأساليب لكل إشكالية من الإشكاليات، تبعا لأطراف ذلك الحديث والأشخاص الذي يتحدثون عنه والتوقيت الذي يتحدثون فيه..كما يتوجب عليك مناقشة الحالة الوجدانية المستخدمة في كل جزء من أجزاء الحديث...ومن الضروري كذلك أن تتوصل إلى أفضل ترتيب لطرح النقاط التي تحدث عنها الخطيب بطريقة أو بأخرى؛ وهو الأمر الذي يعتمد بدوره على ظروف الحالة. ليس هذا فحسب، بل عليك أن تتوصل إلى الكيفية المثلى لعرض الأفكار، وأيها تتطلب شرحًا مستفيضًا، وكيف يمكن القيام بذلك بالطريقة الصحيحة، وأيها يمكن أن تمر عليه مرور الكرام"(٣٧٩).

إن المعايير التي يضعها هيرموجينيس لهذا الذكاء الشكلي تتطلب قوة حاسوب عملاق، وحتى في تلك الحالة فإن احتمالات النجاح ليست مؤكدة. ومع ذلك، فقد زعم أسلافه أن هذه المهمة التي تبدو مستحيلة يمكن إنجازها لو تم التعامل معها على أنها عملية فنية (إيزوقراط، ضد *السوفسطائيين*، ص ١٢ - ١٣) فهي تتطلب عقلية حصيفة لا حسابات منهجية (شيشرون، الخطيب).

يبدأ التأكيد على تلك الحكمة العملية وتلك البراعة الفنية في تقرير هذا الإغواء الدائم لهذا المفهوم في العالم الكلاسيكي [انظر *Classical rhetoric*]. وهناك مثال توضيحي تكميلي آخر يتلخص في أن اللغة اللبقة ذات ارتباط معقد بالبدائل الجمالية. حيث لا يعكس هذا اللجوء المستمر إلى تلك المفردات اختزالا موحدًا لخبرات متنوعة في الفئات نفسها، وإنما تفعيل مجموعة من المواقف التي يمكن تبنيها عند التحول نحو مجالات واسعة بشكل ملحوظ في الكلام والسلوك. ويبين الشكل (١) التطورات الرئيسة في هذه العلاقة.



(أ) النموذج الكلاسيكي (ب) الذوق الأدبي

الشكل (1)

هذا النموذج ليس زمانيا صرفا، فهو أكثر من مجرد تصنيف تاريخي. وعلى الرغم من أن تنوع أساليب الملاءمة أمر حاضر منذ البداية، وقد كان ذلك بصورة مبعثرة بعض الشيء، فإن كل أسلوب استوفى صياغة قوية في نظام معين يعكس التطور المنطقي والتاريخي للمفهوم على حد سواء. لقد كان الكتّاب غير مؤهلين بطرق متباينة، فإن كلا منهم كان يسعى إلى صياغة

لغة جمالية؛ تحتفي بأسلافهم وكذلك ظروفهم التاريخية الخاصة. إن التاريخ حتما أقل مرتبة من أي نموذج، ولكن يمكننا وبصفة عامة وضع أول مجموعة من البدائل في خضم التغييرات السياسية والثقافية في العالم اليوناني خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، في حين ظهرت التطورات البالغة التي نالت اهتماما خلال العصر الروماني بدءا من الأيام الأخيرة للجمهورية (أواخر القرن الأول قبل الميلاد) وحتى القرون الأولى للإمبراطورية. وعن طريق تحديد كيف يمكن لمجموعة من الأفكار أن تكون متاحة تدريجيا للمفكر الكلاسيكي، فسيكشف لنا علم الأنساب خطوط التأثير ونقاط الخلاف التي يمكن أن تحجبها هذه العادة الفكرية التي تجمع الخطب الكلاسيكية وفقا للياقة، مع اعتبارٍ أقل للتسلسل التاريخي.

قد يكون المعنى الأصلي للملاءمة مَعلم من معالم الاتجاه السوفسطائي: حيث يمارس أحدهم الإقناع عبر التعديل الخلاق للاحتمالات المميزة، وينصب التركيز بشكل شبه كامل على رد الفعل السريع والبديهة الحاضرة في الوقت المناسب. وأي معنى للفظ أو الحرف الذي يقع عليه الاختيار يخضع للموقف المسيطر. والتصرف السليم هنا هو ذلك الذي يحقق التأثير المقنع، وعلى الخطيب أن يكون متيقظا باستمرار لفرص النجاح التي تراوغه باستمرار. فالمرء يفترض عالما محتملا بشكل جذري، بينما ينقب عن تلك اللحظات التي تتمكن فيها مبادرة صغيرة نسبيا من قلب الساحة التنافسية.

لقد كتب جورجياس (٤٨٣ – ٣٧٦ ق م) بوضوح دراسة عن اللحظة المناسبة *Kairos*، كما أن السوفسطائيين كانوا أبرز ممثلين لهذا التوجه (Untersteiner، ١٩٥٤؛ Poulakos، ١٩٩٥)، وأحد أسباب ذلك كونهم بمثابة شخصيات انتقالية تطور على يديهم علم البلاغة من المنطق الأقدم لاستراتيجية الفعل. وقد جمع الفكر السوفسطائي بين سعة الأفق وفقدان حس

المسؤولية الأخلاقية: فهو "قادر على التكيّف مع أكثر المواقف إثارة للحيرة، وارتداء أكبر عدد من الأقنعة الاجتماعية، واختلاق آلاف الذرائع التي تضفي فعالية على أعماله مهما اختلفت الظروف وتنوعت" (Detienne and Vernant 1978, pp.39 - 40). إن الملاءمة السوفسطائية تستعين بالحدس الفني للتحكم في أي موقف، والتكيف مع الظروف، وانتهاز الفرصة. كان هذا الجمع بين الفطنة والألمعية هائلا، ولكنه لم يكن مستقرا [دائم الترحال] وهكذا فهو لا يناسب أولئك الذين يجب أن يكونوا فاعلين في وسط أكثر استقرارا. [انظر **Sophists**].

ويشكل المعنى الأصلي للياقة الأدبية إعادة توجيه مهمة للمفهوم. حيث يركز هذا المعنى بالأساس على الشكل ثم تأتي الوظيفة بعد ذلك. فقد كانت النظرة السائدة إلى النصوص المقنعة على أنها موضوعات تعتمد هويتها وقيمتها على العلاقة بين الصنعة والغرض منها وكذلك العلاقة بين أجزائها. فنجد مثلاً أن نص مديح جورجياس لهيلين (طروادة) يكشف عما يحتويه من أساليب فنية (بالإضافة إلى افتقار واضح إلى المقتضيات العملية) كما يوائم وبوضوح بين شكل كلامه ومقصده. وفي حين انصب المعنى السوفسطائي للملاءمة على فعل كل ما ينجم عنه التأثير المطلوب في موقف معين، فإن المعنى الأساسي هنا يرى العلاقة بين الغرض والفعل كصفة من صفات الصنعة نفسها. ومقارنة سقراط (٤٧٠ – ٣٩٤ ق م) بين الكلام وبقية الفنون تركز على هذه النقطة:

"تقول بأن الرجل الصالح الذي يتحدث إلى النخبة لن ينطق بما يقول بصورة عشوائية، ولكن لابد أن يأتي كلامه متوافقا مع قصده، مثله مثل أي صانع، فهو لا يتخير مواده ويعمل عليها عشوائيا، ولكن من منطلق قصد ما، وهو أن يكون لكل منتج من منتجاته شكل مميز. فانظر إن شئت إلى الرسام أو البناء أو إلى صانع السفن وغير ذلك من أصحاب الحرف- أي

أحد تختاره– وراقب كيف أن كل واحد منهم يستغل كل عنصر بنظام معين، ويطوع كلا منها حتى يتناغم مع الآخر، وحتى ينتهي إلى الكل الذي يمثل شيئا غاية في الانتظام والترتيب". (أفلاطون، جورجياس، *جورجياس*، 503d - 504a).

لقد عُرِّف الشكل *Form* على أساس العلاقات الكلية التي يسودها التجانس والتناغم، فالصانع يصيغ صنعته من خلال انتقاء وترتيب المواد بنظام يضمن أن "تظهر علاقة سليمة بين بعضها بعضًا، وبينها وبين الكل الذي تمثل هي أجزاءً منه" (أفلاطون، فيدروس، 268d). ويخلق هذا الترابط ذو التماسك الداخلي والغرض التعبيري صياغة متكاملة لمعنى جمالي واضح، مع التعويل على التأويل الفني [الذي يقوم به المتلقي] للـ"دائرة الهرمنيوطيقية" للجزء والكل. وعلى الرغم من ذلك فإن هذا المعنى يضفي إبهامًا أساسيًا على الحكم التأويلي خاصة فيما يتعلق بأي فن واقعي: فهل ينبغي أن يعتمد الحكم على أي عمل على العلاقة بين أجزائه ومقصده المتأصل فيه، أو على العلاقة بين أي جزء أو الكل، لأجل إحداث تأثير خارجي؟ لقد ظل هذا الغموض مكتنفا التطورات اللاحقة لفكرة الملاءمة الأدبية.

توجِّه *الملاءمة الأدبية الوضعية* تركيبة النص نحو السياق الاجتماعي الذي ينتجه الجمهور والخطباء الآخرون. والآن نفهم المهارة الفنية المقنعة من جهة اعتبارات من قبيل المركز الاجتماعي والاحترام والتوقير والكرامة والشخصية والتحالفات والإقرارات والإهانات والاعتذارات، والعديد من هذه العوامل الأخرى ذات الصلة. وقد يقول قائل بأن هذا النوع لا ينظر إلا إلى السمة الشخصية، دون إحساس قوي بالشخصية. وقد نظن أن الملاءمة الأدبية الوضعية نسخة مدجنة من المعنى المؤقت الأصلي والمتعلق بانتهاز اللحظة، إلا أنها في الواقع أكثر ثراء وغنى من الناحية الجمالية، وترمي إلى لفت الانتباه إلى الشكل النصّي مع التأكيد في الوقت ذاته على التأثير المقنع. يتمثل

التوجيه الأساسي هنا في مواءمة العمل مع سياقه الإدراكي. وهذا الإحساس بالسياق الاجتماعي ظرفي واستطرادي في الآن نفسه: فهو يشير إلى كلٍ من المناسبة الحرفية للخطاب ومجاله التركيبي، وهو الأمر الذي يتضمن العلاقة بين العمل ونوعه الفني، والمنافسة مع الخطباء الآخرين، والتأثر بما سبق من نماذج مسبقة، والبحث عن كل ما هو مألوف وجديد في الآن نفسه، وهلم جرا.

وكما هو الحال في تجانس الأجزاء المكونة، فقد سارع الكتّاب الكلاسيكيون بالإعلان عن أن هذه العملية ليست آلية. حيث يؤكّد إيزوقراط (٤٣٦ - ٣٣٨ ق م) أنّ تأليف النصّ وفقا للسياق هو أساس الابتكار البلاغي (ضد السوفسطائيين ١٣ - ١٧). واللافت هنا هو أن التأليف الأفضل يمكن أن يتضمّن انتهاكات أقل للملاءمة التمثيلية، من حيث إنه من الممكن إظهار الأشياء العظيمة في صورة متواضعة والعكس بالعكس (Panegyricus 8). وتخضع هذه الاختلافات في المقدار للعلاقة بين الخطاب وموضوعه، وبين القدرة على الاستغلال الاستراتيجي للمواد المألوفة بأسلوب منظّم بشكل جيد (Panegyricus 9). وهكذا، تحمل الملاءمة الأدبية الوضعية تبصرات أساسية حول حتمية إلقاء الخطاب بشكل صحيح، على المتلقين المعنيين به حتى يجد الصدى المطلوب، خاصة أن الاختلافات الأساسية للحصول على تجاوب قوي تنبع من تفاوت القناعات برسالة الخطاب. ومع كونه أكثر ارتباطا بالإنتاج الفني وذا سمعة طيبة مقارنة بالعقلية السوفسطائية، فإن هذا النمط ليس بالمستقر تماما: حيث لا يتبوأ المتكلّم موقعا ثابتا، بل سيكون عليه دائما أن يعدّل وضعه وفقا للاعبين الآخرين في هذه المضمار البلاغي، "حيث إن ما قاله أحد الخطباء لا يكون ذات الجدوى بنفسه في نظر الخطيب الذي يأتي بعده" (*ضد السوفسطائيين*، ١٢).

لقد قدمت خطب إيزوقراط نفسه، وبحق، أفضل الأمثلة على حسه الجمالي، فقد اتسمت بالمناورات المتتابعة والمتقنة وتوطين كل كلمة في محلها، بالإضافة إلى الحجج، والفروض، وهلم جرا فيما يتعلق بالمتلقين الفعليين والمتخيلين واهتمامه بمسائل التصنيف والحكم العام (*باناثيناكوس* ١ - ٢، ٢٧١، *أنتيدوسيس* ٤٥ - ٤٦).

وفي حين يحاول أحدهم أن يجد لنفسه مكانة بين الآخرين، سرعان ما تظهر مسألة المبادئ الأخلاقية. حيث يتشابه نمط الملاءمة الأدبية الأخلاقية مع النمط الوضعي، في كونه يوجّه المتكلّم نحو الآخرين وفقا لغرضه، ولكنّه يضيف [أي هذا النمط] مجموعة أغنى كثيرا من معايير تعريف الملاءمة. أولا، يتم الجمع بين الفن والمبادئ الأخلاقية بطريقة أساسية بهدف الوصول إلى نفس مطمئنة منسجمة (أفلاطون، *جورجياس* ٥٠٤ b) يعكسها ويؤكد عليها الخطاب المناسب (إيزوقراط، *أنتيدوسيس* ٢٥٥ - ٢٥٦؛ أفلاطون، *فيدروس* ٢٧١ b). ثانيا، يعرّف التناسب ذاته بكونه وسطًا بين طرفين متناقضين. ولابد أن يكون هذا الإحساس بالوسطية ضروري لأن الطرفين كليهما يمكن أن يكونا فنيا على حد سواء (أرسطو، *الخطابة* ٣,٢,١٤)، كما أن التناسب حكم نسبي (أفلاطون، *رجل الدولة* ٢٨٤ e، *القوانين* ٧٥٧) وليس شيئا يمكن قياسه. لذا، فلابد من تحديد الوصف الملائم فيما يتعلق بالبدائل المحتملة والشعور بأن الغرض يمكن أيضا أن نحكم عليه بالتناسب أو عدم التناسب. وينهي أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢) مناقشته حول الأسلوب (lexis) بقاعدة فحواها أن "أنسب شيء هو الوسط" (*to meson harmottei, Rhetoric* 3.12.16) ونصيحة مؤداها أن أفضل النتائج ستنبع من مزج عدة معايير (أي بأسلوب متزن منسجم).

من المتوقع والحال هكذا أن يجعل أرسطو من الخطاب المعتدل مقياسا لاتزان الشخصية. وبالتالي، يصبح المثال الأخلاقي للذوق الأدبي مرادفا للبراعة واللباقة (أرسطو، *الأخلاق إلى نيقوماخوس*، 1128a، إيزوقراط، *باناثينايكوس*، ص ٣٠ - ٣٢). وأرسطو في تحديده لقواعد الحوار يقول بأن على المرء أن يسعى دوما لتوخي الوسطية (أي أن يكون وسطا مثلا بين المزاح المبالغ فيه والصرامة الحادة)، وأن الفرد الحر المسؤول لا يقول أو يسمع إلا لما هو متوسط بين نقيضين؛ حتى يعتاد على الاعتدال (*الأخلاق إلى نيقوماخوس*، 1128a، البلاغة 3.2.15، الشعر 22.11). ولأن أرسطو يُعرِّف كذلك فضائل الشخصية بأنها الوسط بين نقيضين (*الأخلاق إلى نيقوماخوس*، 1107a)، فقد أصبحت الملاءمة الأدبية معيارا رئيسًا من معايير الأسلوب ومعايير السلوك القويم (D'Alton, 1962).

تنطبق الملاءمة الأدبية كلما غدت مهمة اللغة محاكاة الشخصية، وفي حين يمكن استغلال أعراف التعبير في المجتمع لتنظيم سلوك الفرد، فإن مجمل تعريف أرسطو للذوق الأدبي في علم البلاغة يربط التوجه الأخلاقي بإحساس أعمق بالتناسب يطوّق العمل بمجمله: "يكون الأسلوب ملائما إذا عبر عن الشخصية وعن العاطفة وكان متناسبا مع الموضوع" (3.7.1). مع إضافة حس التناسب هذا، يكون الكلام أكثر من مجرد حرفة ماهرة تراعي أسس أو سلوكيات الحرفة؛ بل يكون محاكاة لأشياء أخرى. ونمط المحاكاة في الملاءمة الأدبية يعد نظرية تمثيلية للعالم الاجتماعي، وتتمّة لحديث أرسطو عن البلاغة بوصفها عملية عقلانية. [انظر Imitation]. وينبغي أن تواكب اللغة الواقع؛ وأن يتبع الشكل الخطابي الملامح العامة لموضوعه. "البرهان من علامات التعبير عن الشخصية، لأن هناك أسلوبًا يلائم كل نوع وحالة أخلاقية" (3.7.6). ويمكن استخدام اللغة لتكون محاكاة دقيقة لماهية

الشخص، وما ينبغي عليه أن يقوم به، وهي تقوم بذلك من خلال المحاكاة الصحيحة للصفات المميزة لمختلف مكونات العالم الأخلاقي. ويستلزم الانفعال الأقوى كثافة تعبيرية أعلى أو المزيد من البيان الإلقائي، بحيث يتم الحديث عن الظروف غير المهمة بأسلوب هادئ، وهكذا. فنحن نكون مقتعين حينما يتماشى خطابنا بشدة مع المواصفات القائمة بالفعل للأنماط الاجتماعية والمشاعر الواضحة – فكلما كانت المحاكاة طبيعية (3.2.4) وحية (3.11) كانت أفضل. فالمحاكاة مصدر التأثير الواقعي للخطاب، وهي تسهم في محو أي سوء فهم أخلاقي ناجم عن إمكان تضليل المتلقي (3.7.4).

تكمن أهمية النمط المحاكي في الملاءمة الأدبية في التراث البلاغي في كونه يمثل أساس التوسع الفني المعماري للمفهوم عبر العوامل الفنية كافة. ولعل مناقشة أرسطو في الكتاب الثالث من كتاب *الخطابة* توضح هذا: حيث يقوم التناسب في البداية بتوحيد منظومة كبيرة من مفاهيم فن البلاغة، ولكنه يتوسع من بعد هذا التعريف ليتجاوزه إلى تقويم النظام بأكمله بأثر رجعي. هناك أسلوب يتلاءم مع كل نوع من أنواع الخطابة، وكذلك هناك اختلاف بين أسلوب الخطاب المزمع إلقاؤه شفاهة والخطاب المكتوب، وتنويعات ضمن هذين السياقين من حيث الغرض والمتلقي (3.12). ويخلص النقاش حول الأسلوب (3.12.6) إلى معاودة التأكيد فقط على تلك المعايير الملتزمة بما هو مناسب، ويربط بوضوح بين القدرة الإقناعية لمؤلف ما ومدى ملاءمته (to pithanon ek tou prepontos). ويتم توضيح هذا النسق أكثر من خلال المثال الذي يرد في النقاش الختامي حول الترتيب: حيث تتشكل جاذبية الحديث بأكمله تبعا لما هو مناسب لكل نوع من أنواع الخطاب البلاغي عند كل نقطة من نقاطه، مع توضيحات إضافية بتعديلات مناسبة تبعا للاختلاف في العاطفة والغرض، وهلم جرا.

يتبين لنا من هذه الزاوية أن أرسطو كان يعتمد على منطق الملاءمة عبر مجمل كتابه عن *الخطابة*. وقد تأسس التصنيف بأكمله على تأكيد كيف أن القدرة على الإقناع تتحقق عبر الاستغلال المناسب في الموضع المناسب. وهذا المنظور لا يعزز ملاحظات أرسطو في مجملها، خاصة حينما يناقش أشكال البرهان وموضوعات الإلقاء الخطابي، ولكنه يتحكم في تحليل أساليب عمل القياس الإضماري Enthymeme والاستعارة حتى المضمرة منهما. [انظر Arrangement, Enthymeme, Metaphor]. وفي الحقيقة، فإن العقلانية نفسها معرَّفة في إطار منطق الملاءمة بأنها: مستوى الإحكام الذي ينبغي أن يكون ملائما لقدرات الجمهور (الخطابة ١,١١,١٢) وطبيعة الموضوع (الأخلاق إلى نيقوماخوس 1094 b 25).

على أن أرسطو لم ينجح في استخدام هذا التوسع البنيوي كقاعدة لنظرية محكمة. وهو الأمر الذي تحقق عن طريق الكتاب الرومان وخاصة شيشرون (١٠٦ – ٤٣ ق م)، الذي اعتمد على استيعاب الفكر الإغريقي والتوفيق القوي بين السمات الشخصية والوعي الاجتماعي. ويتسع هذا المفهوم الإنساني للذوق الأدبي لدى شيشرون بهذه الفكرة ليشمل الحياة الاجتماعية بأسرها.

إنّ القاعدة العامة، في الخطابة كما في الحياة، هي الاهتمام بما هو ملائم وما هو غير ملائم. ويعتمد هذا على الموضوع قيد المناقشة، وشخصية كلٍّ من المتحدث والجمهور. كما أن الفلاسفة معتادون على دراسة هذا الموضوع الشامل تحت عنوان الواجبات...؛ ويدرسه النقّاد الأدبيون عبر ربطه بالشعر؛ ويدرسه الخطباء في تعاملهم مع كلّ نوع من أنواع الخطاب، وفي كلّ جزء منه. وهو مهم في الأفعال كما هو مهم في الأقوال، وفي تعبيرات الوجه، وفي البادرة والإيماءة. (الخطيب ٧١ – ٧٤). ولكن الملاءمة

الأدبية ليست على هذه الدرجة من السهولة، بل هي الخاصية التي بها يتمازج الكلام والفكر، والحكمة والأداء، والفن والأخلاق، والتأكيد والاحترام، وغير ذلك العديد من عناصر الفعل. ويصادق هذا المفهوم على مواءمة شيشرون بين الأساليب البلاغية الأساسية والمتوسطة والراقية والوظائف الثلاث المتمثلة في توصيل المعلومة وإمتاع الجمهور وتحفيزه (*الخطيب* ٦٩)، والذي بدوره يمتد بالنظرية البلاغية إلى نطاق عريض من الشؤون الحياتية. كما يتضح مجال الملاءمة الأدبية كذلك في أمثلته، والتي تتضمن التصريف البسيط لشؤون الدولة، والإلقاء الشعري والأسلوب الفلسفي، وأجزاء الكلام وتصريف شؤون الحياة اليومية. وتكتسب هذه الاستمرارية دلالتها الكاملة من خلال النقاش المستفيض حول الملاءمة الأدبية في أطروحة شيشرون عن الأخلاق، *De officiis*، حيث يستند المفهوم على تصور معين للطبيعة البشرية:

علينا أن ندرك كذلك أن الطبيعة قد وهبتنا خصلتين؛ إحداهما شاملة، نابعة من حقيقة مفادها أن وجودنا قد وُهب العقل، وهو ما نتفوق به على الحيوانات. ومن هذه الحقيقة تُستمد جميع المبادئ الأخلاقية المرتبطة بالملاءمة، وعليه تعتمد الطريقة العقلانية لتحقيق واجباتنا. أما الخصلة الثانية فهي تلك التي أضفيت على الأفراد بشكل خاص [أي الخصائص الفردية]. (1.107).

يقوم تطور الإنسان الناضج كامل الأهلية على معرفة ما هو ملائم لنفسه بما يتوافق وهذه القيود الثنائية للطبيعة البشرية الكلية والقدرة الفردية (١,١١٠). وتمثل الملاءمة وسيلة التطور الإنساني وغايته في الوقت ذاته، وهي الأداة الفنية لتأهيل المرء للدخول في علاقة منسجمة مع الآخرين. "مثل هذا النظام السلوكي يؤكد على ضرورة أن يكون كل تصرف من تصرفات حياتنا متزنًا متسقًا، وكأنه خطاب مكتمل"(١,١٤٤). وكما يتضح من الشرح

اللاحق (إلى الـ١٣٠,١ – ١٣٢ وما بعده)، تصبح الملاءمة الأدبية جزءا من كيان معرفي يشمل فلسفة الأخلاق وقوانين الدولة والبلاغة. كما يتضح أيضا أن هذا النمط الإنساني يستوعب الأنماط السابقة للذوق كافة؛ فخطب شيشرون، على سبيل المثال، تعد من روائع أمثلة اختيار الزمان والمكان المناسبين. على أن شيشرون يعمّق المفهوم، بالتركيز على اشتراك الفرد الواعي بذاته في عملية التطور الإنساني، ما يمنحه القدرة على الصعود في السلم الاجتماعي. غير أن هذا الوضع ينطوي على مفارقة واضحة، وبمعانٍ عدة: فالفرد يحقق إمكاناته من خلال وعيه بالقيود الطبيعية والاجتماعية (ومثال على ذلك: – التدبيرات الصحيحة لكلّ فترة من فترات الحياة وقواعد اللياقة التي تميز طبقة اجتماعية). وهذه فطنة داخلية بكلّ أشكال السلوك وهي موجودة كعقلية تمثيل اجتماعي، بحيث يختار المرء دائما على أساس الكيفية التي سيستقبل بها الآخرون تصرفاته.

يضفي منطق الملاءمة العام شرعية على تلك التفاوتات الكبيرة في الاختيار؛ "والواقع أن تنوع الشخصية هذا يحمل في طياته أهمية كبيرة لدرجة أن الانتحار قد يكون بالنسبة لشخص واجبًا يتحتم تنفيذه، بينما يبدو لشخص آخر (وفي ظل الظروف نفسها) جريمة" (1.112). بل إن مفهوم الذوق نفسه يكتسب بعدًا أكثر عمقًا، ويرتقي إلى مستوى العدالة وتكون المسألة مسألة عاطفية أكثر من كونها مسألة توازن لتحقيق مصلحة ذاتية: "وظيفة العدالة هي ألا يظلم الرجل أخاه، وأن يراعيه، وألا يجرح مشاعره، وفي هذا جوهر اللياقة" (1.99). فلا عجب إذن في أن تكون الملاءمة في صميم الدراسات الأخلاقية (١,٩٨)، وأن يُنظر إليها بوصفها أمرا جد جوهري: فهي الإحساس الجمالي الذي يمثل أسس الحياة الأخلاقية. لذلك كان شيشرون يناقش الكيفية التي ينبغي للذوق بها أن يوجه كل شيء، بدءا من الكلام وحتى اختيار المرء لمسكنه (1.138).

فليست الملاءمة لديه مجرد مجموعة من القواعد، ولكنها عملية إبداع في فن تشكيل المصير. ويتيح التأكيد الإنساني على مفهوم التربية سهولة استقراء فكرة الثقافة المفضلة. وعلى الرغم من كونه لا يزال يركز على قرارات الفرد المركبة بشأن التعبير والسلوك المناسب، فإن الملاءمة الثقافية تطور هذا الحس في سياق يغلب عليه الطابع المؤسسي ويشدد على أهمية التعليم، ومحاكاة النماذج، والترابط مع الآخر الذي يتسم بحسن التنظيم. وتصبح الملاءمة الفضيلة الرئيسة في ثقافة تمثل الغاية المثلى للتعليم الحر. والنموذج الرئيس هنا هو المربي الروماني كينتيليان Quintilian (٣٥ – ١٠٠ م)، والذي مثلت مناقشاته حول الملاءمة الشغل الشاغل لأولئك الذين تولوا الواجبات المهنية والبيروقراطية المتنوعة في ظل الحكم الروماني.

إن استخدام كينتيليان لشيشرون كنموذج للشخص واسع الثقافة واللياقة يدل على تغير دقيق وتوسع في نطاق مفهوم الذوق الثقافي. فشيشرون الذي ينبغي أن نحتذي حذوه ليس فقط ذلك الخطيب الذي لديه طاقة وجدانية كبيرة، بل هو الشخص الذي تعبر كلماته عن حياته التي اتسمت بالاتزان النفسي (Institutio Oratoria 11.1.62 - 72) وبالمثل، فإن القائمة التي وضعها كينتيليان لعناصر اللياقة العديدة – الشخصية، العمر، الدور، المناسبة، وغيرها (كتاب ١١) – تعبر عن عالم أكثر استقرارا من الولاءات المتغيرة لمناقشات شيشرون. وكان القاسم المشترك لهذه التغييرات هي النقلة الأكبر من التتلمذ والتأمل في الحياة السياسية إلى تبني برنامج تعليمي لغرس فضائل الاحترام والكفاءة المؤسساتية. فكانت اللياقة تكتسب عن طريق التقليد، وعمل كينتيليان على إيضاح أن نماذج مثل شيشرون مناسبة لأنها تجسد صفات الاعتدال والكياسة والحكمة والقدرة على التكيف وما شابه ذلك من الصفات الحميدة. أما ما لم يلق التقدير الكافي فهو كون هذا الأنموذج ليبراليا حقا، مقارنة بذلك

الأنموذج الذي قدمه أفلاطون في عصر سابق، والذي مثل تصويرا أكثر سلطوية للمعايير الثقافية (*القوانين*، 801d - 803b): فعلى العكس من أفلاطون، كان البرنامج الروماني الهادف إلى ترسيخ الثقافة في أفراد المجتمع لا يركز على وجود طبقات اجتماعية جامدة أو أهمية رقابة الدولة.

ومن المآثر المهمة لإسهام كينتيليان ربطه بين الملاءمة وفعل القراءة. فهو يستحضر الملاءمة الأدبية في تقييماته لما يقرأ: وهو يقوم بتقديم قاعدة لانتقاء وتشكل الدراسة الأدبية في المستويات الأولى (1.8) وكذلك فهم الأعمال الأدبية التي تمثل نماذج التطور الأخير للخطيب المثالي (9 - 10.1.8). ويكتسب هذا الارتباط أهمية إضافية من خلال وضعه للياقة بين المناورات الأسلوبية (8.2)، وخاصة في المستوى الإلقائي، وقدرة العقل على التكيف الذي يعكس طبيعة الأسلوب البنائي لفن البلاغة (الكتاب ١١). فمبتدأ القراءة هنا كونها مستودعًا للنماذج التقنية، ولكنها تصبح صورة مزيفة simulacrum من مجمل العملية البلاغية في صورتها المدجنة. فحينما يقرأ المرء أفضل الأعمال في فروع مختلفة من الآداب، فإنه يكتسب القدرة على تمييز أنسب التجاوبات المكتسبة مع نطاق عريض من المواقف. وليس من المصادفة أن يكتسب المرء الملاءمة والشخصية، التي هي الآن من أهداف توعية الخطيب (انظر كلاً من جادامر وهابرماس وما قدموه من صياغات مشابهة في الفكر الحديث).

تتواكب الخطوة التالية في تأصيل الملاءمة الأدبية مع هذا التحول من المجال السياسي إلى الثقافي. فقد شجعت محدودية ممارسات الحياة العامة على تطويرٍ أعمق للفن الأدبي مقارنة بما كان عليه الحال لو أن السياسة ظلت الشغل الشاغل للنخبة وغاية الممارسة البلاغية. فقد أعيد تعريف فن البلاغة تدريجيا لينتقل من كونه أداة إقناع سياسي إلى أداة تعبير فني، وركزت الدراسات البلاغية على تنمية التمييز النقدي بين مختلف جوانب

الأسلوب (كينيدي، 1972، ص ٣٦٣). وكان من نتيجة ذلك ظهور طور الملاءمة الأدبية، والذي شكل تكييف قواعد الملاءمة لتحدد مجموعة من المبادئ البنيوية لفن أدبي متميز. وأصبحت الملاءمة الأدبية مسألة تتعلق بما هو مناسب للتحقيق الكامل لكل نوع من أنواع الفن. ويعد كل من هوراس Horace (٦٥ – ٨ ق م) وديونيسيوس الهاليكارناسي Dionysius Halicarnassus نموذجًا لهذا التحول في الوعي، حيث أصبح هوراس ذا تأثير كبير في التطور اللاحق الذي طرأ على الدراسات الأدبية الغربية.

ويجسد *فن الشعر* *Ars poetica* لهوراس أفضل بيان لمفهوم الملاءمة الأدبية. حيث يبدأ هذا العمل بالسخرية من التراكيب التي يبدو واضحا افتقادها للياقة بسبب ما فيها من ابتداع مفرط؛ ومن هذا القبيل تلك اللوحة لرجل ذي عرف فرس *man with a horse's mane* (5 - 1). وعلى النقيض من ذلك، فإن الفن الجيد هو الذي يؤدي دور المحاكي المتمثل في تصوير الحياة كما هي (362 - 361). فينبغي أن يتلاءم الإلقاء مع المتحدث (113 - 112)، والفترات والعصور الزمنية للموضوعات الموصوفة (178 - 153)، وهكذا. وقد يكون المرء واثقا في النتائج على أساس أن حركاتنا وتعبيراتنا تعكس بصدق طبيعي ما هو كامن فينا من عواطف (111 - 108). ولابد أن يتناسب اختيار الموضوع مع قدرات الفنان (15 - 14، 41 - 38)، كما لابد أن يعكس العمل الأذواق المكتسبة والتي تطورت على مدار التعلم، والتي تميز جمهور النخبة الاجتماعية (188, 196–201, 212–213, 248–250).

ينبع الابتكار الكامن في هذه الأفكار التقليدية من إعادة تعريف هوراس للمثال المحاكي. حيث يكتسب هذا المثال مكانة أكبر في الأطوار الأخلاقية والثقافية، وذلك مع تحرره من افتراضات أرسطو الإبستمولوجية. ويعيد هوراس التأكيد على أن المحاكاة هي المبدأ المهيمن في العمل الفني،

ولكنه يرفض بشدة فكرة إعادة الإنتاج الأدبي للواقع الظاهري. حيث يأتي التوليد الأدبي فاقدا للحياة– والأخطر من ذلك أن يكون مبتذلا فنيًا (35 - 32)– بينما يستلزم الفن وجود مسافة مناسبة بينه وبين موضوعاته (362). إن هذا الشعور بالبعد الجمالي يمثل انعطافة مهمة لفكرة أن الفن المحاكي هو تمثيل نسبي [أو جزئي]. حيث يجسد الفن الأشكال الأساسية للخبرة، ولا يكون مجرد خليط مشوش من الخبرات (318 - 312). وعند مزج هذا الاهتمام بالقالب [الفني] مع الإصرار على دقة التركيب (452 - 445) ينبثق الواقع الفني بوصف التوجه الأساسي للفنان. فيغدو المهم في العمل الفني تفاصيله لا تفاصيل العالم. وبالمثل، لا يكون هناك استحضار كبير لمعيار المحاكاة لأن المهم هو صياغة نماذج دقيقة من الواقع، لتمكين الفنان من السيطرة على فنه. فالاشتراط الأول في الفن هو الحرية الكاملة للتعبير الفني (- 378 ,13 - 9 382)؛ حيث يمكن للشاعر أن يقول أي شيء ويسميه شعرا (وكلما كان ما يقوله غير واقعي كان أقرب إلى الشعر من أي شيء آخر). إن هوراس يعتبر الشعر وسطا بين الجموح والتحذلق، ولكن الأمر هنا لا يتعلق بالوسطية قدر تعلقه بتحديد ميدان جديد للمعايير الفنية.

على الرغم من ابتكاره الجمالي، بقي هوراس ملتزما بأعراف المجتمع الروماني، فإن التطور الفني أفضى منطقيا إلى خلخلة قواعد الربط بين الكلام والمرجعية الاجتماعية. وتكتمل دورة تأصيل الملاءمة الأدبية، حيث يصبح الابتكار الفني أقرب إلى محاولة انتهاز اللحظة الخاطفة النادرة حيث يتمكن الفنان من إحداث تحول جذري للجمهور. وفي نهاية المطاف، فإن السعي نحو تحقيق تأثيرات فنية قوية يستدعي تحطيم القواعد الاجتماعية وافتراضات المحاكاة الأمينة. هذه *اللياقة الرومانسية* تنطوي على مفارقة تاريخية واضحة، فهي بمثابة التطور "الأخير" للعالم الكلاسيكي وفي الوقت نفسه المفهوم الأقوى للذوق الأدبي في العصر الحديث.

يلخص لنا العمل الكلاسيكي الشهير *(عن الجليل)* لمؤلفه "لونجينيوس" Longinus (في القرن الأول الميلادي) معاودة التقييم (والتفكيك) الأخيرة لمعايير الملاءمة الأدبية، وكذلك نذكر هنا كتاب *(في الأسلوب)* لديميتريوس Demetrius (القرن الأول قبل الميلاد). حيث تظل الملاءمة الأدبية في كليهما أساس التحليل الجمالي، ولكن المنحى العام لهما هو الفهم الجديد للخبرة الجمالية. وتبلغ هذه الخبرة ذروتها في الشعور بـــ"الجلال" وهذا هو الأثر التحويلي أو المهيب الذي يميز الأعمال الفنية الرفيعة. كما أن طبيعة الملاءمة الأدبية لدى المرء تتغير بدورها. فلا يزال على الفنان أو الناقد أن يتوخى اعتبارات المكان والأسلوب والظروف والدافع (في الأدب الرفيع، 16.3)، وكذلك الإيقاع السائد في العمل ككل وطريقة الإلقاء والتقديم والتي لابد أن تناسب المؤلف والموضوع على حد سواء، وهي أمور تكتسب عبر محاكاة أساليب المؤرخين والشعراء (13.2)، هذا من جانب. ومن جانب آخر، فإن هدف الفن الكلامي الآن هو تحقيق التحول الاستطيقي، وهو ما يتحقق من خلال تخطي الحدود، والفكاك من الأعراف، وتجاوز التفاصيل المدققة لملاءمة للظروف. وبالمثل، فإن الجلال يعتمد على الحدس الفني لا على المعرفة الاجتماعية. وعلى سبيل المثال فثمة من وصف معركة الآلهة Battle of the Gods لهوميروس بالرائعة العبقرية، وهناك أيضا من وصفها بالافتقار "إلى الإحساس بما هو مناسب وما هو غير مناسب" (7 - 9.6) لكونها تعاملت مع الآلهة وكأنهم بشر. فما كان يمثل في السابق إجراءً قاصرا– ينتهك توقعات التأثير الاستراتيجي (أرسطو، الخطابة 3.18.7) – صار الآن أحد مبادئ الاستطيقا.

تؤسس إعادة التقييم هذه للياقة التمييز بين المناسبة والملاءمة. حيث تمثل الأعراف الاجتماعية في الطور الرومانسي الحدود التي ينبغي على المرء تجاوزها إذا كان يصبو إلى العظمة؛ أما مسألة قبول الجمهور لتلك المخالفات للأعراف فهي مسألة تتعلق بأن يتصف العمل بشمول الفكر

وبالمشاعر المناسبة لمخاطبة النفس (8.1). ومثلما أن المتكلم لا يحتاج للولاء لفكرة ثابتة عن الشخصية، فبوسع الفنان الرومانسي الاستغناء عن فكرة ثابتة للشكل الفني. إن كتاب *عن الجليل* يرسخ لموقف جديد تجاه ما هو قائم من تقاليد متبعة، وهو الأمر الواضح حينما يرفض الكاتب آلاف الأساليب الخطابية بسبب ما تتسم به من إسهاب (11.2, 12.1). فما كان يمثل نسقا متكاملا أضحى خليطا مبهما من التمييزات التافهة والعوائق عديمة الأهمية. بل إن المغالطات المتعلقة بطريقة استخدام الألفاظ صارت مقبولة الآن، مادامت تكشف عن عبقرية كاسحة (36 ,4 - 33.2). وكما هو الحال مع هوراس، فإن الفن وسطا بين الجدة novelty والدقة، ولكن يجب التخلص من هذا الإحساس بالوسطية. فيمكن للفنان القيام بكل ما من شأنه إحداث أعلى قدر من التأثير، حتى لو خاطر في سبيل ذلك بأن يكون جافا أو ذا أسلوب منمق طنان (33 - 32). وتبقى الملاءمة الأدبية متراوحة بين تلك التقاليد المقيدة للطاقة الفنية، أو بوصفها قاعدة مؤداها أن يقوم المرء بما هو مناسب لتحقيق أعلى قدر من التأثير الفني.

الإشارة اللاحقة إلى الملاءمة الأدبية تعد جزءًا من تاريخ البلاغة: ففي العصور الوسطى كانت الملاءمة الأدبية الدليل المرشد لفن كتابة الرسائل (ars dictaminis) وقدمت تطبيقاته خريطة للنظام الاجتماعي في العصور الوسطى (Constable, 1977). [انظر Ars dictaminis] وانبعث من جديد كمفهوم مهم خلال عصر النهضة، وخاصة حينما كان شيشرون هو النموذج الذي ينبغي الاحتذاء به. ويمكننا القول إنه كان أهم مصطلحات عصر الإحياء النهضوي؛ ولعب دورا محوريا في تطوير التاريخ التحليلي للإنسانيات (Struever, 1970)، والفكر السياسي (Kahn, 1985)، وعلم الأخلاق (Kahn, Struever)، والشعريات (Tuve, 1947, Plett, 1983). [انظر Humanism].

كما مثلت الملاءمة الأدبية قواعد السلوك المتبعة في الطبقات الاجتماعية المتعددة، بما في ذلك رجال الحاشية في أواخر العصور الوسطى وعصر النهضة (Jaeger, 1985; Kahn, 1983; Whigham, 1984) والسادة الأنجلو – أمريكيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر (Shapin, 1994). وبحلول القرن التاسع عشر حلت أعراف المجتمع البرجوازي محل تلك القواعد؛ وبالتالي كانت السيادة لمفاهيم الملاءمة الخالصة وقت أن تبددت جميع آثار المحاكاة الكلاسيكية. (يمكن ترسيم هذا الانحراف بدءا من كتابات أدب المجاملات في أوائل الحقبة الحديثة – كاستيجليوني، بوتنهام– وحتى كتب آداب الملاءمة الخاصة بالطبقة الوسطى الصاعدة وقتئذ). يتوازى هذا التاريخ الاجتماعي مع التاريخ الفكري الحديث للياقة الأدبية: بالتنصل من الخطابة وبناء استطيقا خالصة، بينما قطع عصر التنوير الصلات الأساسية بين الفن الخطابي والفعل الخطابي. وأضحت الملاءمة مجرد مختصر واف لأساليب التعبير. [انظر **Eighteenth - century rhetoric**].

ومع ظهور نقد الحداثة في أواخر القرن العشرين، أحييت الملاءمة الأدبية كمصطلح مهم لفهم آلية الخطاب. [انظر probability Contingency Hermeneutics, Criticism,]. ويقدم كينيث بيرك Kenneth Burke في الدراسات البلاغية إعادة صياغة هي الأشمل والأكثر أصالة لعلم البلاغة كممارسة اجتماعية عميقة؛ ويحوي كتاب *بلاغة الموتيفات* *A Rhetoric of Motives* (Berkeley, 1969) معنى الملاءمة نفسها، ولكن من دون استخدام المصطلح: "ربما كانت هذه أبسط حالات الإقناع. فأنت تقنع الآخر ما دمت قادرا على التحدث بلغته؛ نطقًا وإشارةً ونبرةً وانتظامًا وصورةً وتوجهًا وفكرةً وخلقا لسبل الارتباط به" (ص ٥٥). والآن ثمة تركيز أكثر على الملاءمة التي تشمل الوجهة السوفسطائية (Poulakos, 1995) والوجهة الإنسانية (Leff, 1990)

على مختلف توجهاتهما. حيث يقدم هذان المنظوران، بالإضافة إلى الاهتمام المناظر بمفهوم الحصافة الكلاسيكي، فرصة إصلاح ذلك الانشقاق بين نظرية الحجاج والأسلوبية، والذي كان من الممكن أن يبقى قائما كإرث حداثي في مجالي البحث (انظر Institutio Oratoria 11.1.7). حيث يمكن الربط بين المفهوم الكلاسيكي والدراسات السياسية المعاصرة لفهم كيف أن السطوة نتيجة طبيعية للأداء الاجتماعي (Hariman, 1995). ولللياقة أهمية خاصة لدى من يعتبر حالة ما بعد الحداثة استرجاعًا جزئيًا لصور الفعل الرمزي ما قبل الحداثية: فنجد مثلا أن ريتشارد لينام Richard Lanham يقول بأن وسائل الإعلام الرقمية هي تقنيات "بلاغية خطابية" عميقة تستلزم "لياقة" وإحساس بالاتزان (العالم الإلكتروني: الديمقراطية والتكنولوجيا والفنون، شيكاغو، ١٩٩٣). ففي ظل وسط تواصلي مكثف يتسم بالجمعية الثقافية والهويات المتعددة والمؤسسات اللامركزية والآلات الذكية تكتسب مسائل الملاءمة دلالة متجددة خلال سياق الحياة اليومية، في حين يستعيد المفهوم ارتباطاته الأولى بكل من المصادفة الجذرية والوجود الإنساني. غير أن فكرة الملاءمة ستظل مفتقدة أبدا لصورة واحدة مستقرة، وذلك لكونها هي نفسها ثنائية مستقرة "bi - stable". وأيًا كان الوضع، فإن قواعد الملاءمة قد تكون إما فرصا ابتكارية أو قيودا تمتثل للأعراف والتقاليد، أو قواعد هيمنة أيديولوجية واعتدال ثقافي أو موارد تمثيل فني وتغيير اجتماعي.

[انظر كذلك: Prudence, Kairos; Phronesis].

قائمة المراجع

Constable, Giles. "The Structure of Medieval Society According to the Dictatores of the Twelfth Century." In *Law, Church, and Society: Essays in Honor of Stephan Kuttner*, edited by Kenneth Pennington and Robert Somerville, pp.pp. 253–267. Philadelphia, 1977.

Cope, E. M. *An Introduction to Aristotle's Rhetoric*. London, 1867.

تعليقاته على الملاءمة لا تزال تقدم أفكارا مفيدة عن البلاغة، حيث يشدد على العلاقة بين السمة المميزة للمتحدث ومشاعر الشفقة.

D'Alton, J. F. *Roman Literary Theory and Criticism: A Study in Tendencies*. New York, 1962. First published in 1931.

يستعرض أسس النظرية الأدبية الكلاسيكية في البلاغة وخاصة في الملاءمة. وينصب التركيز فيه على العلاقة بين الكلام والموضوع وفي استحضار مجموعة واسعة من الأسئلة التركيبية وفقا لقاعدة "المتوسط الذهبي" Golden mean كما يتضمن مناقشات شيشرون وهوراس واستشهادات واسعة من النصوص الكلاسيكية.

Detienne, Marcel, and Jean - Pierre Vernant. *Cunning Intelligence in Greek Culture and Society*. Translated by Janet Lloyd. Chicago, 1978.

DeWitt, Helen. *Quo Virtus? The Concept of Propriety in Ancient Literary Criticism*. Dissertation, Oxford University, 1987.

استعراض المصادر الرئيسة مع التركيز على بعض الخلافات الحاضرة بين كل من النقد الأدبي الكلاسيكي والحديث.

Eden, Kathy. *Hermeneutics and the Rhetorical Tradition: Chapters in the Ancient Legacy and Its Humanist Reception*. New Haven, 1997.

يوضح كيف أن المرحلة المبكرة من التأويل الحديث، والتي تضرب بجذورها في البلاغة الكلاسيكية كانت صارمة، وخاصة في مجال تطوير شيشرون لمفهوم الملاءمة.

Fantham, Elaine. "*Orator* 69–74." *Central States Speech Journal* 35 (1984), pp.pp. 123–125.

Fantham, Elaine. "*Varietas* and *Satietas: De oratore* 3.96–103 and the limits of *ornatus*." *Rhetorica* 6 (1988), pp.pp. 275–290.

Gadamer, Hans - Georg. *Truth and Method.* 2d rev. ed. Translated by Joel Weinsheimer and Donald G. Marshall. New York, 1993.

Habermas, Jürgen. *The Structural Transformation of the Public Sphere: An Inquiry into a Category of Bourgeois Society*. Translated by Thomas Burger. Cambridge, Mass., 1989.

Hariman, Robert. *Political Style: The Artistry of Power*. Chicago, 1995.

Hermogenes. *Hermogenes' On Types of Style*. Translated by Cecil W. Wooten. Chapel Hill, N.C., 1977. His English translation of *Peri ideōn* (c. late second century ce).

Jaeger, C. Stephen. *The Origins of Courtliness: Civilizing Trends and the Formations of Courtly Ideals 939–1210*. Philadelphia, 1985.

Kahn, Victoria. *Rhetoric, Prudence, and Skepticism in the Renaissance.* Ithaca, N.Y., 1985.

إحدى أفضل الكتابات التي توضح مركزية مفهوم الملاءمة الشيشروني في الحياة الفكرية والأخلاقية في عصري النهضة والنزعة الإنسانية.

Kaster, Robert. "Decorum." Paper presented at the annual meeting of the American Philological Association, Philadelphia, December 1982.

Kennedy, George. *The Art of Persuasion in Greece*. Princeton, 1963.

Kennedy, George. *The Art of Rhetoric in the Roman World 300 B.C.–A.D. 300*. Princeton, 1972.

Kinneavy, James L. "Kairos: A Neglected Concept in Classical Rhetoric." In *Rhetoric and Praxis: The Contribution of Classical Rhetoric to Practical Reasoning*. pp.pp. 79–105.

Washington, D.C. 1986. Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study*. Translated by Mathew T. Bliss, Annemiek Jansen, and David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson. Leiden, 1998. English translation of *Handbuch der literarischen Rhetorik*, first published 1960.

يوفر هذا الكتاب أفضل تحليل لعناصر مفهوم الملاءمة بالإضافة إلى الاستشهادات المتعلقة بكل منها. الفرق الرئيس بين الملاءمة الداخلية (العلاقات داخل تركيب ما تنتج كل متناغم) والملاءمة الخارجية (العلاقة بين النص والظروف الاجتماعية لاستقباله). وهذا الأخير موجه في المقام الأول وفقا لغرض المتكلم، بالإضافة إلى الاعتبارات الأخلاقية.

Leff, Michael. "Decorum and Rhetorical Interpretation: The Latin Humanistic Tradition and Contemporary Critical Theory." *Vichiana* 1, 3rd series (1990), pp.pp. 107–126.

Plett, Heinrich F. "The Place and Function of Style in Renaissance Poetics." In *Renaissance Eloquence: Studies in the Theory and Practice of Renaissance Rhetoric*, edited by James J. Murphy, pp.pp. 356–375. Berkeley, 1983.

Poulakos, John. *Sophistical Rhetoric in Classical Greece*. Columbia, S.C., 1995.

يناقش المعنى السوفسطائي للـ kairos كمعيار بديل لتمييز أكثر رسوخا بين المناسب وغير المناسب..

Puttenham, George. *The Arte of English Poesie*. Edited by Gladys Doidge Willcock and Alice Walker. Cambridge, Mass., 1936.

Russell, D. A. *Criticism in Antiquity*. Berkeley, 1981.

Shapin, Steven. *A Social History of Truth: Civility and Science in Seventeenth - Century England*. Chicago,1994.

Struever, Nancy S. *The Language of History in the Renaissance: Rhetoric and Historical Consciousness in Florentine Humanism*. Princeton, 1970.،
Trimpi, Wesley. *Muses of One Mind: The Literary Analysis of Experience and Its Continuity*. Princeton, 1983.

بمثابة تحليل للفلسفة الكلاسيكية والبلاغة من أجل تحديد مفهوم للملاءمة يوازن بين الوظائف المختلفة للأدب.

Tuve, Rosemond. *Elizabethan and Metaphysical Imagery: Renaissance Poetic and Twentieth - Century Critics*. Chicago, 1947. "Propriety or decorum was the basic criterion in terms of which all the others were understood" by the Renaissance reader.

Untersteiner, Mario. *The Sophists*. Translated by Kathleen Freeman. Oxford, 1954

محاولة لكشف مركزية مفهوم الكايروس في نظرية المعرفة لدى جورجياس وامتداده في علم الجمال، والبلاغة، والأخلاق.

Whigham, Frank. *Ambition and Privilege: The Social Tropes of Elizabethan Courtesy Theory*. Berkeley,1984.

تأليف: Robert Hariman

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

نوع الخطب التشاورية (السياسية) Deliberative genre

الخطب التشاورية (السياسية) في حقل الدراسات البلاغية قديمة قدم اللغة اليونانيّة القديمة وحديثة حداثة الإنترنت. فيذكر لنا التاريخ الغربي أن السياسي الذي يريد يقدم نفسه بصورة أفضل، فعليه أن (١) يجتمع مع أقرانه؛ (٢) يناقش معهم أمورًا حياتية مهمة؛ (٣) يكون هذا في جوّ غير أوتوقراطي (استبدادي)؛ (٤) حتى يتمكن من تغيير السياسة العامّة بما فيه مصلحة الجماعة.

يتخذ مثل هذا الترتيب أشكالا متنوعة- بدءًا من من الإكليسيا *ekklēsia* لدى الإغريق وحتى المنتدى الروماني، ومن البرلمان التشيكي وحتى نظام الحمية الياباني- إلا أن الخطب التشاورية بقت دوما خادمة للديمقراطية. أما الاعتبار الثابت الثاني فيتمثل في أن الديمقراطية تحتاج إلى خدمات الخطب التشاورية. فحتى في البلد الديمقراطي- وعلى الرغم من كل شيء- يمكن للزعماء أن تغويهم الزعامة، ويمكن للبيروقراطية أن تتكلس، وأن يشعر الناخبون بالتجاهل، وأن تهمل القضايا الملحة. وبدا أن العلاج يكمن في وجود كيان منتخب من ممثلي الشعب يلتقي أعضاؤه بانتظام ويتناقشون بجدية بشأن تلك القضايا.

وكما هو الحال في العديد من الأمور البشرية، فلم تُثبت نماذج مثلى من الخطب التشاورية جدواها. وحتى مع اختيار أعضائها بالانتخاب الحر المباشر، فقد كانت تلك الهيئات التشاورية في الغالب تضل طريقها، وبالتالي تخضع لمصالح الأغنياء وجماعات القوة، وعانت من قيود القواعد

والإجراءات الخاصة بها، ونزوات زعمائها وزعمائها المنتظرين، وضيق فكرهم وغرابة أطوارهم. لأسباب كهذه قال كتّاب من أمثال يورجن هابرماس Jürgen Habermas (١٩٨٩) بأن المجال العام قد أصبح مشحونا وطائفيا في الأزمنة الحديثة، وعاجزا عن الحفاظ على المثل الجماعية التي تحتاج إليها الديمقراطية كيما تستمر. [انظر Politics، مقال عن مجالات النقاش الشخصية والفنية والعامة]. ولكن حتى وقت طباعة هذه السطور[١] ما زلنا نجد القوارب المحملة باليائسين من أبناء هايتي تقصد الولايات المتحدة، ومواطني ما كان يعرف ببلدان الستار الحديدي يتدفقون على شوارع برلين متلهفين لتذوق ثمار الديمقراطية. فعلى الرغم من قصورها، فإن الخطب التشاورية ما زالت قادرة على دق ناقوس الخطر.

تاريخ الخطب التشاورية

إن تاريخ الخطب التشاورية هو تاريخ الديمقراطية نفسها. فكلما ازدهرت الخطب التشاورية ازدهرت الحرية. وعندما غابت الديمقراطية، كما حصل في ألمانيا عام ١٩٣٣، صار احتراق الرايخستاج Reichstag رسالة تذكير رمزية بأن الديكتاتورية لا يمكن أن تسمح بالخطب التشاورية. ولكن – وكما يذكرنا أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ قبل الميلاد) – فإن هذا الجموح كامن في قلب كلّ المداولات، لكونها تدور حول وسائل لا غايات، خاصة أن هناك من الوسائل ما يتجاوز الغايات. [انظر **Classical rhetoric**]. ثانيا، إن الخطب التشاورية صعبة المراس لأنها تركّز على ما ينبغي القيام به في المستقبل، ولأن المستقبل مبهم؛ ثالثا، لأنها تنتج قرارات تحذيرية قادرة على أن تقيد

---

(١) لم يحدد مؤلف المدخل تاريخ كتابة المقال، لكننا نظن أنه يحيل إلى فترة ما بين أواخر تسعينيات القرن العشرين وبداية العام الأول من الألفية الثالثة؛ وذلك لأن الطبعة الأولى من الموسوعة ظهرت في عام ٢٠٠١.

عامة الناس؛ ورابعا، لأنها متعددة الأصوات، لأنه يتحتم عليها استيعاب العديد من الأصوات المختلفة.

وقد لاحظ أرسطو أنّ هناك خمسة أمور عظيمة يتشاور حولها الناس: مصادر أموال الدولة ومواردها، الحرب والسلام، الدفاع عن الدولة، بيع وجلب البضائع، التشريع. ولا يزال تصنيفه هذا يبدو معقولا، على الرغم من أن "حقوق الإنسان" قد أضيفت منذ ذلك الحين إلى أجندة الديمقراطية. يقول جولدن ورفاقه (١٩٩٧) "إذا كان اليونانيون هم من ابتكروا فن الخطابة، فإن الرومان هم من طوروه". فمواطنو روما القديمة كانوا يتشاورون في أحد مكانين: في الكوميتيا Commitia، حيث كانت تعرض قوانين يومية ويتم تعديلها، وفي مجلس الشيوخ، حيث كانوا يبتون في قضايا تخصّ الدفاع عن الدولة. ولاحظ شيشرون Cicero أن أمورا بمثل هذا القدر من الأهمية لم تكن تهدف إلى المنفعة الخالصة (نموذج أرسطو)، ولكنها جمعت بين النفعية والحظوة الكبيرة. [انظر Utility] ويقول شيشرون إن مثل هذا الجمع قادر على توليد بلاغة أصيلة.

غير أن الخطب التشاورية تقلصت كثيرا خلال الجمهورية الرومانية اللاحقة (حتى عام ٤٥٥)، خاصة أن الأباطرة سعوا إلى الاستحواذ على السلطة. فقد حدث تناوب في الحكم خلال ذلك العصر بين حكم سلالات الأباطرة والحكم الاستبدادي، مع انعدام تام لدور الشعب. واقتصر ازدهار الخطب التشاورية في العصور الوسطى على المناقشات البابوية في تجمعات نوقشت فيها الأمور اللاهوتية (البدع، التفسيرات الدينيّة، وأشكال العبادة) من قِبَل آباء الكنيسة. من المؤكد أن هذه المشاورات كانت مقتضبة، لأن السلطة البابوية هي التي كانت تختار منْ الذي يتكلّم، وموضوعات هذا الكلام، ونتاج تلك المشاورات.

لقد أعاد عصر النهضة اكتشاف الكتّاب الكلاسيكيين في البلاغة، حتى وإن لم يُعِد تقديم الشروط السياسية الضرورية لديمقراطية راسخة. وبينما بوسع خطاب الذكرى remembrance أن يزدهر في أي ثقافة سياسية (مستبدّة أو جمهورية) وبينما يزدهر الخطاب الجدلي حيثما يتم تطبيق القوانين، فإن الخطب التشاورية في حاجة إلى الديمقراطية كيما تكتسب الكمال. [انظر Forensic genre Epideictic,]. وقد تناول كتّاب عصر النهضة، مثل توماس ويلسون Thomas Wilson (١٥٢٥ - ١٥٨١) الخطب التشاورية، ولكنه كان تناولا أكاديميا إلى حد كبير. ولم تصبح البلاغة ثلاثية الجوانب موضوعا للدراسة حتى القرن الثامن عشر. وحتى ذلك الحين، ظلت الخطب التشاورية إلى حد كبير موضوعا للبحث الاستطيقي عامة متخذة شكلا فنيًا، وليست سمة من سمات الحياة المدنية.

وقد نشطت بلاغة الخطب التشاورية مع نيوع صيت البرلمان البريطاني. فبعد أن انتزع الميثاق الأكبر انتزاعا من الملك جون في عام ١٢١٥، صار مجلس العموم "بشكل حتمي وآني المدرسة الدائمة لفن البلاغة" (Platz, 1935, p. 163). لكن درب الخطب التشاورية في إنجلترا كان ملتويا في أغلب الأحيان. فقبل النصف الأخير من القرن السابع عشر لم يكن البرلمان ينعقد إلا برغبة الملك وينتهي وجوده متى ارتأى هو حله (Oliver, 1986). وعضدت ثورة ١٦٨٨، وصدور لائحة حقوق الإنسان بإنجلترا في ١٦٨٩ السيطرة البرلمانية على الحكومة، وهو تطور نأى بإنجلترا عن قيام ثورة فيها تشبه الثورة الفرنسية.

فيما بعد ستكون اللحظات العظيمة في التاريخ السياسي البريطاني لحظات برلمانية سيطرت عليها أسماء من قبيل بولنجبروك Bolingbroke، والبول Walpole، تشيسترفيلد Chesterfield، بيت Pitt، جلادستن Gladstone ودزرائيلي Disraeli. على أن الأمر سيتطلب العديد من السنوات قبل أن يتخذ

البرلمان الصورة الكاملة لتداول الحكومات دون الانحياز لطائفة معينة، ويتبنى الانتخابات الحرة والمشاورات ذات الشفافية الكاملة في ظل صحافة يقظة نشطة. وكذلك نجد أن تاريخ الولايات المتّحدة يعكس ميراثا من الخطب التشاورية بدوره. فلقد هيمن رجال الدين البيوريتانيون والأنجليكانيون على الخطب السياسية العامة خلال المائة سنة الأولى من تاريخ تلك الأمة، ولكن القرن الثامن عشر كان فاتحة لديمقراطية جمعيات استعمارية في أقلّ أشكالها نبلاً. وكانت اجتماعات بلدة نيو إنجلاند بدايات هذه التطوّرات، وهو ما تجسد فيما بعد في مجموعة الحريات التي منحت لخليج ماسوشوستس عام ١٦٤١ حيث "لكلّ شخص، سواءً أكان مقيما أم أجنبيا، الحرية في المجيء إلى أيّة محكمة عامّة أو مجلس أو اجتماع بلدة، وأن يرفع أي مسألة مادية أو موسميّة أو قانونية شفاهةً أو كتابةً" (Oliver, 1986).

ومنذ ذلك الحين، أفضت كلّ لحظة شورى رئيسة للمزيد من اللحظات الأخرى: وُضِع الدستور من خلال الخطب التشاورية، والذي بدوره ضمن شكلاً حكوميا يعتمد على مجلسين تشريعيين. ولكن، وحتى في ذلك الوقت، كان الأمر يتطلب سلسلة من المشاورات في كل ولاية من الولايات للتصديق على الدستور، وهي عملية دعمت من الديمقراطية المحليّة والوطنية معا. وهكذا تسنى لجزء كبير من تاريخ الأمة أن يكتب داخل جمعياته التشريعية: هنري كلاي (١٧٧٧ - ١٨٥٢) حول التوسّع القاري، ووليام جيننجز براين (١٨٦٠ - ١٩٢٥) بشأن الإبطال، روبرت لافوليت (١٨٥٥ - ١٩٢٥) حول التقدمية، ليندن جونسن (١٩٠٨ - ١٩٧٣) حول الحقوق المدنية، نيويت جنجريش (١٩٣٤ -) حول المحافظين الجدد. شهدت كلّ لحظة من هذه اللحظات دراما لا تنسى بسبب ما اتخذ من قرارات حاسمة بشأن قضايا لم يكن أحد متيقنًا منها - وهذا هو جوهر الخطب التشاورية.

طبيعة الخطب التشاورية

يذكر لنا التاريخ أن هناك فارقًا بين التشاور وجلسات المكائد والاجتماعات المغلقة والمؤامرات. تقول حنا أرندت (*الشرط الإنساني*، ١٩٥٨): "كلّ نشاط يُمارس جهرا يكتسب امتيازا لا يتسنى له عند ممارسته في السر؛ حيث الامتياز، بتعريفه، يستلزم وجود الآخرين دائما". بينما يقول جون ستيوارت مل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) بأنّ قوة الخطب التشاورية تكمن في قدرتها على مساءلة المشاركين فيها، وأن الحاجة إلى الحفاظ على الملاءمة تشكل قيدا قويا على أولئك الذين يشتغلون في العمل العام (١٩٥٨). على أن الجهر سلاح ذو حدين: حيث تسمح الخطب التشاورية للأشخاص المختلفين بتبني توجهات [برامج] مختلفة، لكن ما أن يبدأ النقاش، وذلك لكونها ذات طبيعة نشطة [الخطب التشاورية]، حتى يتبع [كل شخص] توجهه الخاص بهوى الأفكار وشهوة وتفاعل العاطفة الإنسانية الذي يجعل الأفراد في أغلب الأحيان يتجاوزون ما يملكونه إلى عالم خيالاتهم الخاصة.

كما أن الخطب التشاورية أسيرة الزمن. فلطالما تذمر نقاد مبدأ التشاور من بطئه ووخمه. وإشكالية الخطب التشاورية هي ذاتها إشكالية الاشتراكية، تلك التي قال عنها أوسكار وايلد إنها استغرقت عددًا لا يحصى من الأمسيات (Weale، ١٩٨٩). وما سبب هذا العدد الكبير من الأمسيات؟ هذا لأن الخطب التشاورية مأسورة كذلك بالماضي، أو بالتواريخ الشخصية لكل فرد وما يستتبع ذلك من ولاء مسبق. وعلى النحو لاحظ نفسه أرسطو أن الخطب التشاورية تخضع كذلك للمستقبل، وحسابات ما هو ممكن وما هو غير ممكن. وكما قال جون ديوي (١٨٥٩– ١٩٥٢) ففي أغلب المشاورات كثيرًا ما تعوّل آمال المشاركين تجاه المستقبل على تداعيات الماضي (١٩٩١). ومن ثم، فإن الخطب التشاورية أسيرة، وبصورة مطلقة، للحاضر. هذا لأن

الماضي يتكلّم بعديد من الأصوات ولأن المستقبل لا يتكلّم على الإطلاق، فالهيئات التشاورية محصورة باستمرار في "زخم" ما ينبغي عليها فعله. ولا عجب أن لغة العصر تسيطر على تلك الإجراءات، حيث تتشكل التحالفات "المؤقتة"، ويتم تبني تدابير "مؤقتة"، وتصاغ وتعقد اتفاقيات "خاصّة" وتقدم صفقات في "اللحظة الأخيرة". وبالتالي فإن الخطب التشاورية حالة غير مكتملة دوما؛ ولا تتم أبدا على الوجه الأكمل. ويكفل التغيّر الإنساني هذا – كما تكفله الطبيعة الهشّة لائتلافات الجماعات والأمور المشكوك فيها والتي حولها تتدارس تلك الهيئات. نتيجة لذلك كانت أكثر الاتفاقات الاجتماعية مؤقّتة في التعدّدية الديمقراطية (Urbinati, 1988).

ولكونها مرتبطة بالزمن، تسهم الخطب التشاورية في أشكال تأسيسية للحكومة، ولكن ليس في الأشكال الجوهرية لها. [انظر Politics]. فغايتها هي إمكان الاتفاق، وليس تحقيقه. ما يجعل من الديمقراطية مشروعا منهجيا إلى حد كبير؛ لكونها لا تضمن سوى توفير وسيلة لصنع القرار، وليس نتيجة بعينها. ويترتب على ذلك أن مجرد الاتفاق على التشاور حول الأمور المهمة أمر ذو بال أحيانًا، فهو إشارة على أن الخصوم الألداء وافقوا على الرضوخ إلى إيهامات التفاعل الإنساني. وقد قال ج. ل. أوستن J. L. Austin (١٩٦٢)– بوصفه فيلسوفا– بأن الفعل التشاوري رسالة في حد ذاته، رسالة لما هو ممكن.

إن الخطب التشاورية مغامرة واعدة لأنها مغامرة إجرائية. وبالنسبة لأعضاء البرلمان البريطاني الحديث فإن طقوس التفاعل تثمن ذلك التبادل الفكري بين الخصوم، بينما الكونجرس الأمريكي يدير نفسه من خلال لجنة. وفي الحالتين، على أي حال، تحدد قواعد النظام منْ يتكلّم وموضوع كلامه ومدته. والحقيقة أن هذه الإجراءات تؤخر فقط، ولا تمنع أبدًا، تلك الفوضى

التي يميل إليها البشر. ولكن لأن من الصعب جدًا تحديد الحقائق المتعالية ولأن الأخلاق تتفاوت على نحو كبير من مجتمع لآخر، فإن "قواعد الحديث وأشكال الجدال" (هابرماس، Habermas، 1989) تصبح من أسس الديمقراطية. وتجعل قواعد التفاعل هذه القرارات البشرية أقل هوائية وتمنحها الشرعية نتيجة لذلك. وفي أفضل الأحيان فإن السياسات الناجمة عن الخطب التشاورية تغدو موثوقا بها حتى وإن بقيت القرارات ذاتها محل جدل.

سمات الخطب التشاورية

الخطب التشاورية اليوم ليست كما كانت في زمن الإغريق. فقد كان أرسطو لا يتصور إمكان تطبيق الديمقراطية على مجتمع أكبر من مجتمع أثينا المدينة – الدولة. [انظر Oratory]. كما يلاحظ ج. هـ. شنيدر، J. H. Snider (1994)، أن هناك مفكرين حتى في نهايات القرن الثامن عشر، من أمثال مونتسكيو Montesquieu (1689–1755) وروسو (١٧١٢ – ١٧٨٨) Rousseau، ظلوا على شك إزاء إمكانية تطبيق الديمقراطية على نطاق واسع. بل إن مفكرًا مثل هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) قال بأن الولايات المتحدة لا يمكن أن تكون "جمهورية حقيقية" إلى أن يتم شغل مساحتها بالكامل (Kemmis, 1990)، حيث كان على يقين من أن الخطب التشاورية تستلزم التجاور[الاتصال]. تقوم فرضية مثل هذا التوجه الفكري، بالطبع، على أن المجتمع الذي يعرف أفراده بعضهم بعضًا قادر على منح مواطنيه الإحساس بالمشاركة، وبالتالي الإحساس بالفاعلية، وهو إحساس مطلوب في أي جمهورية. وعندما يتجاوز حجم الديمقراطية نطاق الصوت الإنساني يتشتت التفكير ولا تصير الخطب التشاورية ممكنة. ففي أكثر المجتمعات الحديثة، كما يقول عالم السياسة جيمس فيشكين James Fishkin (1998)، يكون من النادر توافر المتطلبات الرئيسة الثلاثة: وهي تبادل الرسائل (١) بشكل

تفاعلي، (٢) بصورة ممتدة، و(٣) تحت شروط التأمل المدروس. فكيف يمكن لأمة أن تستمر من دون مثل هذه المتطلبات؟

تكمن الإجابة عن ذلك السؤال في فكرة الإزاحة [الإحلال displacement]. حيث تعد أشكال الخطب التشاورية الحديثة امتدادا محدودا لأشكالها الماضية. [انظر Hybrid genres] واليوم، وإلى حد كبير يعود ذلك إلى الإعلام الجماهيري، صارت الخطب التشاورية جزءًا من الهواء الذي نتنفسه، ولكنها كذلك مثل الضباب الذي تشعر به دون أن تراه، ولا نشعر به إلا بصورة مبهمة. فنجد أن قناة C - SPAN في الولايات المتحدة والبي بي سي في لندن تغطي المشاورات الوطنية بشكل كلي، ولكن أكثر المواطنين لا يلتقطون سوى قصاصات... مؤتمر صحفي هنا ونقاش سياسي هناك. وكذلك يفوّت المواطن التجربة الشفهية بدرجة أكبر، بمتابعة سياسات الأمة في الصحيفة اليومية. ومع ذلك فهناك آخرون لا يقرأون أي شيء، ويحصلون على الأخبار نقلاً عن ناقل ومن قبله ناقل، بل وربما لا يحصلون عليها إلا ليلاً من أفواه الساخرين. وعلى الرغم من ذلك يشعر العديد من المواطنين بكونهم جزءًا من الكل حتى إذا جرت الأمور على غير هواهم. وقد يكون هذا الإحساس بالمشاركة مصطنعًا، وهناك خطر في ذلك. ولكن الدراسات التي لا تحصى على الانتخابات التي أجريت تجد إحساسًا ظاهرًا "بالكفاءة السياسية" بين المواطنين في الديمقراطيات الغربية. وغالبا ما تقدم الديمقراطيات الكبيرة– مثل ديمقراطية الولايات المتحدة– الأفضل في كل ذلك. وتعمل الإزاحة نوعا ما بكفاءة بغض النظر عن جغرافية الدولة، حتى ولو كانت لا تنتج سوى يقين عملي– وهو الحقيقة لنا والحقيقة في هذا الزمان والمكان.

إن العقلية التشاورية عقلية من نوع خاص، وهي العقلية نفسها التي تعتمد على التفكير الجماعي. وبوسع كل دارس للعقلية الكلاسيكية أن يضع

يده على إشكالية هذا الترتيب. وغالبًا ما يضعف الناس أمام دعاوى أناس آخرين يوجهون تفكيرهم للإحساس بالانهيار والظلم وحاجاتهم للدعم. وبسبب هذا القصور، فإن العقل الجماهيري كثيرا ما يكون مبتذلا، إذ يعتمد على تداول حقائق خيالية وفرضيات زائفة. وربما كرد فعل على ذلك وضعت أكثر الديمقراطيات هيئة منتخبة من نواب الشعب، كما فعل إدموند بيرك (١٧٢٩ - ١٧٩٧)، فعلى المواطن العادي أن يتفادى "جو التشجيع المبالغ فيه في الجمعية السياسية" وأن "يترك السياسة إلى شخص ما أكثر تعقلاً" (Sanders, 1997).

تبدو وجهة نظر بيرك العظيمة هذه غريبة على الآذان الآن، ولكنّه وجد في سبات هذه الهيئات التشاورية مكمن قوّتها، ودلالة على عدم وجود تأثير مضاد لفرد أو فصيل ما خطير. إن هذا التأني في الخطب التشاورية أفضل ما يوصى به لقوم على شاكلة بيرك. وبسبب مثل تلك السمات، فإن الهيئة التشاورية تنمي عدد الخيارات المتاحة (بالنظر إلى وجهات النظر المختلفة) وفي الوقت نفسه تقلص منها (باختيارها لأحدها فقط). هذا الأمر يمنح الخطب التشاورية صفات هائلة، وشعار فحواه: "لقد وضعنا وجهة نظرك في الاعتبار". وفي الوقت ذاته، فإن النتاجات النهائية من هذه الخطب التشاورية تبدو مشوّهة بشكل دائم تقريبا، وخالية من علامات التميز الفردي. ويبدو أن التشريع لا يتحقق إلا من خلال تسويات وتنازلات؛ فجماله يكمن في تعقّده.

هكذا تعتمد الخطب التشاورية على الإزاحة وليس على المشاركة المباشرة، وعلى الحقائق الراسخة اجتماعيا وليس على اليقين السياسي، وعلى العقل المجرب وليس على الإلهام المفاجئ. وقد قالت حنا أرندت (١٩٥٨) بأن للشورى تلك الصفات، وذلك لأن الناس لا يشتركون في عالم واحد

ولكنهم يرون الأشياء من مواقع مختلفة في هذا العالم. وحينما يعتنق الفرد مبدأ الخطب التشاورية فإنها تؤثر في وجهة نظره على الدوام.

التحديات التي تواجه الخطب التشاورية

بغض النظر عن العديد من نقاط القوة، فإن الخطب التشاورية واجهت الكثير من الانتقادات. وعلى الرغم من أن اتهامات المشككين متفاوتة ومتلونة، فإنها تتمحور في غالبها حول مسألة ما إذا كانت الخطب التشاورية في صورتها الحقيقية عمليةً اليوم أم لا. وتتراوح أفكارهم في هذا الشأن ما بين الهمين العملي والفلسفي.

تضاؤل حيز الخطب التشاورية.

ربما كان أفضل دليل على أهمية الخطب التشاورية في الغرب هي تلك الصروح الديمقراطية التي أقاموها. حيث يفخر الإيطاليون بمجلسهم الذي يسمونه "مجلس النواب" Chamber of Deputies والإسرائيليون بالكنيست، وليس هذا لأن السياسة أمر هين عند الإيطاليين أو الإسرائيليين، بل لكونها أمرًا صعبا. ونتيجة لذلك، تكتسب هذه الصروح أهمية إضافية. ولكن ماذا عن الخطب التشاورية الأساسية؟ يُبدي علماء الاجتماع، من أمثال ريتشارد سينيت Richard Sennett (1977)، قلقهم من أن الأفراد في المجتمعات الحديثة صاروا يخشون الأماكن المفتوحة والأماكن المشتركة وصاروا يفقدون مهاراتهم الاجتماعية، أي قدرتهم على التعامل مع الغرباء. ويضيف خبير السياسات روبرت بوتنام Robert Putnam (٢٠٠٠) المزيد إلى تلك المخاوف حينما يكشف عن أن الأمريكيين- على وجه التحديد- قد قلصوا من مشاركاتهم في الجمعيات التطوعية خلال الخمسين عاما الماضية. ومثل تلك الاكتشافات تثير قلق الفيلسوف توماس ماكارثي Thomas McCarthy (١٩٩٤)

الذي يرى أن تلك التجمعات الثقافية أساس الحكم الذاتي ومن ثم فهي أساس الاستقلال السياسي. ويمكننا أن نضيف إلى هذه الإشكالية قوى رأس المال التي صارت تهيمن على العديد من التكتلات الجماهيرية، وهي النقطة التي نبه إليها بيتر كاتز، Peter Katz (1998)، حينما قال بأن "الكلمة الحرة لا تمتلك أي فرصة أمام أباطرة التجارة في هذا العصر. وبوسع أي شرطي أن يبعد أي مواطن يراه مسيئًا من قبل حتى أن يجتمع حوله حشد يتعاطف معه" (ص ١٨٤).

الخطب التشاورية ذات الطابع المهني.

يقول بعض النقاد بأن الخطب التشاورية بدأت في الانهيار حينما جاءت "طبقات الصوت العالي" إلى السلطة. فقد أصبحت أنشطة المنتخبين من المسؤولين الحكوميين والإعلاميين والأكاديميين والمهنيين تتحكم في الشؤون السياسية كافة، تاركين فسحة ضئيلة لغيرهم للتعبير عن الرأي. وبالتالي فإن الهيئات السياسية عانت من الجمود الفكري– حيث يعاد انتخاب النوعية نفسها من الأفراد، وينكمش البرنامج العام، ويسود النهج التقليدي في إنجاز الأعمال، ويفقد الناس التواصل مع قادتهم. بينما يرى النقاد، من أمثال كاثلين جاميسون Kathleen Jamieson (1999)، أن الأسوأ هو أن الطبقة الأوليجاركية ما إن تحوز السلطة حتى تتصرف على نحو سيئ، فتجعل من الابتذال شكلا فنيا، وبالتالي تغدو المشاركة عقيمة والديمقراطية لعنة. غير أن أكبر خطأ على الإطلاق يكمن في أن الناس سيفقدون قدرتهم على التشاور. فالخطب التشاورية مثل أي مهارة أخرى تتطلب التدريب، وتحتاج إلى الصبر، وبالتالي فإن الناخب الذي يفقد دوره يفقد بالتالي ممكناته. وفي ظل تلك الظروف، كما تنبه حنا أرندت (١٩٥٨)، فإن البدائل البغيضة للخطابة التشاورية قائمة وحاضرة: "حتى تكون سياسيًا، وحتى تعيش في دولة مدنية، يلزم أن يتحدد كل شيء من خلال الكلمة والإقناع وليس من خلال القوة والعنف" (ص ٢٦ – ٢٧).

الخطب التشاورية والعاطفة

يقول بعض نقاد الخطب التشاورية بأن تركيز هابرماس على العقلانية لم يترك سوى مجال محدود للأشخاص الذين يمتلكون وجهات نظر قوية أو الذين يستخدمون العنف كسلاح خطابي. وقد التقط جيمس هرنجتون James Harrington (1611-1677)، هذا التحامل حينما أكد أن الخطب التشاورية لابد أن تكون متحررة من العواطف بسبب ما تحمله من احتمالات فوضوية (Remer, 1995). ويبدو أن هابرماس "يفضل بصورة مسبقة القاعدة العقلانية"، وهو ما يقول به بيتر بركويتس (١٩٩٦): "خلافا لحكم الشعب الحقيقي". وبالطبع فإن بعض من هؤلاء الشعب الحقيقي هم أولئك الذين جرت العادة على استبعادهم من المحافل التشاورية: المرأة والأقليات والمهاجرين الأجانب والجماعات الدينية. هذه الفئات الأربع جميعها تتحدى الفرضيات العقلانية الغربية (وقد يقول البعض الذكورية) وتكشف عن معضلة: ألا وهي التخلي عن صوتهم الطبيعي للحفاظ على قضيتهم أو للتجاوب غريزيا معها وبالتالي المخاطرة بفقدان الفعالية.

الخطب التشاورية بوصفها صورة مزيفة [سيميولاكريوم].

هناك مجموعة أخرى من النقاد الذين يتبنون منحىً مختلفاً تماما، فيحذرون من أن تكرار التشاور الشكلي يجعل الناس يشعرون "زيفا" بالتمكين. ومن خلال تبني قدر مبالغ فيه من النشاط السياسي، وخاصة عبر الميديا الإلكترونية، أصبح المواطنون الآن يعتقدون بأنهم على دراية كافية بينما هم ليسوا كذلك، ويشعرون بأنهم مشاركون بينما هم لم يقوموا بأي شيء. وحسبما يرى هارت Hart (1994)، فإن التلفاز على وجه الخصوص "يخلق دربا وسطا بين الثقافتين النشطة والخاملة". يقول هارت: "من خلال

الترويج لفاعلين سياسيين عبر الشاشة" يعمل التلفزيون على بث كلام المتكلمين ونشاط الناشطين ويحولهم إلى "رموز المشاركة" والمواطنة. على أننا هنا أمام معضلة: فلا يوجد مجتمع يمكنه أن يتيح للجميع المشاركة في كل وقت، وكذلك لا يوجد مجتمع يستمر في حال هجران الناس له. فينبغي وجود قدر من الانصياع للدولة دوما، على أن الكثير منها يُفضي إلى الخضوع والتبعية، كما تقول نانسي فريزر Nancy Fraser (1989). بينما ترى جين مانسبريدج Jane Mansbridge (1990) أن تحول "الأنا" إلى "نحن" قد لاقى تشجيعا من خلال الخطب التشاورية السياسية والتي تخفي دوما الأشكال المراوغة للسلطة. وبالتالي يصير السؤال: هل تعد الخطب التشاورية الافتراضية نوعًا جديرا بالاهتمام من الخطب التشاورية؟ [انظر **Audience**، **Virtual audiences**].

الخطب التشاورية والحداثة

نحن في عصر يسير فيه الزمن على وجه السرعة، وتتغير فيه التقنيات باستمرار، وتتنامى وتتعقد ضغوطات العمل، وتؤثر فيه التحولات الثقافية على المفهوم التقليدي للأسرة. يقول الفيلسوف دوجلاس كيلنر Douglas Kellner (1988): "إن الوقت الذي توفرت فيه السياسة عبر الميديا والدوائر المعلوماتية هو الوقت الذي طمست فيه الخطب التشاورية والإجماع". ومع ازدحام جدول الأعمال المعاصر بقضايا من قبيل أبحاث الـــ دي. إن. إي D.N.A واستعراض القوى النووية والاضطراب المناخي، فإن "طبقة المعرفة" knowledge class تهدد بالهيمنة على القرارات العامة كافة، ما يفضي بالشخص العادي إلى حالة من التخبط، ويغدو التخصص المفرط أساسًا مركزيا للقرارات الإنسانية كافة. لقد أثار هذا الموضوع قلق عالم البلاغة توماس جودنايت Thomas Goodnight (1992)، فما الذي يدعو

المواطن العادي إلى السعي للمشاركة؟ إن "التفرقة العقلية" ليست بالظاهرة الجديدة، غير أن تأثيراتها السياسية لم تكن أبدا أكثر من ذلك. فهناك فارق بين أن يتبنى مجتمع الخيار الخاطئ، وبين أن يعجز عن فهم طبيعة الخيارات التي أمامه. فكلما ابتعدت الأمة عن هيئاتها التشاورية تركت القيادة لأولئك الذين قد يكونون على دراية بالتصورات النظرية لكنهم لا يعرفون شيئا عن الناس. [انظر **Technical communication**].

ممكنات الخطب التشاورية

تواجه الخطب التشاورية الشكلية انتقادات، ولكن هؤلاء المنتقدين غير مستعدين للتخلي عن المشروع كلية. والحقيقة أن هناك مجموعة من المفكرين (Frost and Makarov, 1998) الذين يجدون الدليل على أن الشعب الروسي كان يتوق إلى المشاركة السياسية في عصر ما بعد الشيوعية، بينما طالب شعب جنوب أفريقيا بألا تقتصر الديمقراطية على الدوائر الانتخابية بل أن تستمر كذلك في المحافل العامة والاستفتاءات (Nattrass and Seekings, 1998). كما وجدوا في أوروبا الشرقية اهتمامًا متجددًا بالأنشطة البرلمانية. توحي تلك الملاحظات بأن الخطب التشاورية الجماهيرية أمر مسلم به في المجتمعات ذات الإرث المدني. ولكن هناك بعض الشك في أن ضغوط العصر قد أثرت سلبا على الخطب التشاورية. بالإضافة إلى التهديد الذي تمارسه القوى الاقتصادية والثقافية للتقليل من شأنها، كما هو الحال مع البيروقراطية، وكما تفعل العلوم والتكنولوجيا.

والسؤال هو هل لا تزال الخطب التشاورية ممكنة؟ ينفي البعض هذا، بينما يجد البعض الآخر السؤال بلا معنى، إن لم يكن أحمق. وهم في دفاعهم عن الخطب التشاورية يشيرون إلى ديمقراطيات منحت فيها المرأة حق

التصويت وتحرر فيها السود من هيمنة البيض. لقد وجدوا أن هناك حروبا أوقفت بفعل الطلاب الجامعيين، وقوانين بيئية تصدر بتأثير من أطفال مديري الشركات، وقضية مانديلا وجدت المساندة من جماعات ضغط شكلها أساتذة جامعيون غربيون. وذكروا أن هناك رئيسًا أمريكيًا عزل من منصبه بسبب الصحافة الحرة، ورئيس سوفيتي لاقى الاحترام بعدما فكك الآلة الشيوعية الرهيبة، وديكتاتور عراقي يوقف عند حده بتحالف قوات الأمم المتحدة الذي لم يكن متوقعا. كما يمكنهم أن يذكروا كذلك أن الجنسيين المثليين صاروا يعاملون كمواطنين عاديين، وتقيد التضخم العسكري، وأتيحت فرص التعليم اللامحدود لذوي الاحتياجات الخاصة. وكان مصدر كل هذه التغييرات هو العمل التشاوري. وقد احتاج بعضها إلى سنوات قبل أن يتم إنجازه، وبعضها لم يتم إنجازه بعد، إلا أن أيا منها لم يكن متصورا إلا من خلال الإطار التشاوري. فمن دونه لم يكن لشيء أن يتغير.

إن اختيار طريق التشاور أمرٌ صعبٌ كونه يعني تفويض الأمر للآخرين، وتحسُّب ما هو مجهول. وقد صاغ أرسطو (*السياسة*، ص ٢٠٣٤) القضية جيدا عندما لاحظ أن "هناك مع ذلك خطرًا يتمثل في السماح لـــ[الناس] بشغل مناصب عظيمة في الدولة، وذلك لأن حماقتهم ستوقعهم في الخطأ، وعدم أمانتهم تفضي بهم إلى الجريمة". وقد ناقش ألكسندر هاملتن (١٧٥٥ – ١٨٠٤) وتوماس جيفرسون (١٧٤٣ – ١٨٢٦) هذه الأمور نفسها قبل مائتي سنة في الولايات المتّحدة، عندما تساءلا عما إذا كان أشرار الاستعمار قادرين على أن يحكموا أنفسهم. ولكن أرسطو كان عنده الجواب أيضا: "هناك كذلك خطر أيضا في عدم السماح لهم بالمشاركة في [السلطة]، فالدولة التي تستبعد الكثير من الفقراء من السلطة تكون بالضرورة مليئة بالأعداء. والحل الوحيد هو أن نولي إليهم بعض المهام التشاورية والقضائية" (ص ٢٠٣٤).

تبدو البراجماتية قبيحة حينما تصاغ بهذه الصورة الفجة، ولكن لا معنى للشورى بعيدا عن البراجماتية. فتفضيل الخطب التشاورية لا يعود لكونها الأفضل ولكن لعدم وجود خيار آخر حينما يختار الديمقراطيون العيش مع ديمقراطيين آخرين. وبطبيعة الحال لا تكون جميع أنواع الخطب التشاورية متطابقة. ولكن الخطب التشاورية النموذجية ينبغي أن (١) تمثل الحوار العام السائد بدقة حتى يدرك الناس أن هناك من يستمع إليهم؛ و(٢) ترتقي بذلك الحوار حتى يجد الناس رؤية سياسية. تعتمد الديمقراطية على هذه المرونة: فالقدر الزائد من "التمثيل" يحول المنتخبون إلى مجرد مستطلعين لرأي الجماهير، أما القدر الناقص منه يحولهم إلى أوتوقراطيين. إن الناس بحاجة بالطبع إلى من يرتقي بهم، ولكن هذا لا يتحقق إلا في عصرهم وفقط حينما تكون هناك المهارة السياسية الكافية لتحقيق هذا الارتقاء.

وفي النهاية، فإن على أي ديمقراطية أن تجد سبلاً لإكساب شبابها مهارات الخطب التشاورية. وقد كان ذلك هدف التدريب البلاغي منذ العصور القديمة. وعلى أقل تقدير، فلابد من تعليم شباب الديمقراطيين الإنصات – حتى يتمكنوا من تمييز الغث من السمين في السياسة – وكذلك حتى يتكلموا. وبالتالي تحتاج الخطب التشاورية إلى الحس القضائي والخيال الواسع معًا. فمن دون الأولى يفقد المجتمع بوصلته؛ ومن دون الأخيرة لا يغير المجتمع مساره. ولكن لأن هذه المهارات غير قابلة للقياس في أغلب الأحيان، فإن الزعيم الديمقراطي يكون دوما إما سابقا جدا للناس أو متخلفا جدا عنهم. وكلما اعتنق المجتمع الديمقراطية أكثر، أصبحت هذه التوتّرات أعظم. فالخطب التشاورية إذن عمل غير مناسب للمصابين بالعصاب أو للمتهوّرين. وكلما كان الكيان التشاوري جماعيًا، كان من الصعب توقع ما ينتج عنه. وهكذا فإن "إدارة التشاور" مصطلح يناقض نفسه في أكثر المناسبات، وهو أيضا فنّ راقٍ

في مناسبات أخرى. ولأن الأمور السياسية تجاور حتما الأمور الاجتماعية والنفسية والأيديولوجية والعشائرية، فإن إتقان أدوات التشاور كان دائما من الأمور الصعبة. ولكن البعض، على أي حال، يراه أمرا في المتناول. وهم يقولون بأن وجود وسائط جديدة مثل الإنترنت يتيح الخطب التشاورية من دون تعب. ويقول ديمقراطيو الإنترنت، أن الوقت قد حان لإنقاذ الخطب التشاورية من الهيئات الشكلية التي ائتمنت عليها من الناحية التاريخية. فمن خلال الإنترنت أصبح بوسع الناس العاديين التعبير من دون قيد وفي أي وقت. ولأن الفضاء الرقمي يتجاوز حدود الوطن، فلن تتطلب غرف الدردشة أية نسب مشاركة، ولأن سريّته حقيقية، فقد صارت الخطب التشاورية النموذجية متاحة للجميع.

ربما كان هذا صحيحًا، على الرغم من أننا نشك في ذلك. فمن غير المحتمل لأي تقنية مجرّدة أن تلغي التقاليد التشاورية التي دامت لقرون. لقد زاد الإنترنت من كفاءة معالجة المعلومات، ولكن من الواضح أن اتخاذ أغلب القرارات السياسية سيبقى متخذا مسلك الطرق التقليدية. فالتشاور مقنع للناس الذين يرون أن قرارات السياسة لابد، وأن تتخذ في وضح النهار وعلى مرأى من الجميع. والمؤسسات التشاورية موسومة بالحقد في أغلب الأحيان، وهي تجمع في طياتها بين كل من الأفكار البشعة والشخصيات المتوحشة. ومع ذلك وفي النهاية تتحكم هذه المؤسسات في الديمقراطية وتمثلها، ففيها يوجد نواب الشعب الذين يقرّرون ما يريده الشعب. فإذا كانت تقديراتهم خاطئة فسيكونون مجبرين على مواصلة مشاوراتهم في مكان آخر. ويبدو أن الديمقراطية تفضل هذه الطريقة. [انظر أيضا Expediency؛ وInvention].

المراجع والمصادر

Arendt, Hannah. *The Human Condition*. Chicago, 1958. A brilliant contrast of political assumptions in ancient Greece with those of modern societies.

Aristotle. "Magna Moralia." In *Aristotle: The Revised Oxford Translation*. 2 vols. Edited by Jonathan Barnes, pp.pp. 868–1921. Princeton, 1984.

Aristotle. "The Politics." In *Aristotle: The Revised Oxford Translation*. 2 vols. Edited by Jonathan Barnes, pp.pp. 1986–2129. Princeton, 1984.

Austin, J. L. *How to Do Things with Words*. Cambridge, U.K., 1962.

دراسة حول النتائج المترتبة على أفعال الكلام المختلفة.

Berkowitz, Peter. "The Debating Society." *The New Republic*, 25 November 1996, pp.pp. 36–44.

استعراض لأهمية الديمقراطية التشاورية والمواقع التي تحدث فيها.

Dewey, John. *The Collected Works of John Dewey, 1882–1953: The Electronic Edition*. Charlottesville, Va., 1991.

يشمل الكتاب أعمال جون ديوي المختلفة في التعليم والسياسة والدين.

Fishkin, James. "Beyond Teledemocracy: America on the Line." In *The Essential Communication Reader*. Edited by Amitai Etzioni, pp.pp. 55–60. New York, 1998.

مناقشة للآثار السلبية للديمقراطية وأهمية قياس استطلاعات الرأي.

Fraser, Nancy. "Rethinking the Public Sphere: A Contribution to the Critique of Actually Existing Democracy." In *Habermas and the Public Sphere*, edited by Craig Calhoun, pp.pp. 109–142. Boston, 1989.

وجهة نظر جريئة بخصوص مفهوم المفرد أو المجال العام الموحد لدى هابرماس.

Frost, S., and D. Makarov. "Changing Post - Totalitarian Values in Russia through Public Deliberation Methodology." *Political Science and Politics* 31 (1998), pp.pp. 775–782.

استعراض لعينة من آراء المواطنين الروس لقياس مستويات الرضى السياسي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

Golden, J. L., G. F. Berquist, and W. E. Coleman. *The Rhetoric of Western Thought*. 6th ed. Dubuque, Iowa, 1997.

لمحة عامة عن تطور نظرية البلاغة من العصور القديمة وحتى الوقت الراهن.

Goodnight, G. Thomas. "The Personal, Technical and Public Spheres of Argument: A Speculative Inquiry into the Art of Public Deliberation." *Journal of the American Forensic Association* 18 (1981), pp.pp. 214–227.

تحليل دقيق لأنواع مختلفة من النشاط التشاوري وآثاره على المنظومة السياسية.

Habermas, Jürgen. *The Structural Transformation of the Public Sphere*. Translated by Thomas Burger with the assistance of Frederick Lawrence. Cambridge, Mass., 1989.

يحتوي على وقائع مهمة حول بزوغ المجال العام وتراجعه في أوربا الغربية.

Hart, Roderick P. *Seducing America: How Television Charms the Modern Voter*. New York, 1994.

تحليل واسع النطاق لكيفية تمكن وسائل الإعلام من تزييف وعي المواطن عبر الوسائل التقنية الحديثة.

Hibbings, John R., and Samuel C. Patterson. "Emergence of Democratic Parliaments in Central and Eastern Europe." In *Parliaments in the Modern World: Changing Institutions*. Edited by Gary W. Copeland and Samuel C. Patterson, pp.pp. 129–150. Ann Arbor, 1994.

لمحة سريعة على النظرية التشاورية والممارسات البرلمانية.

Jamieson, Kathleen H. "Incivility and Its Discontents." *Carroll C. Arnold Distinguished Lecture Series*. Washington, D.C., 1999.

دراسة عن البراعة الخطابية في الكونجرس الأمريكي من واقع سجلاته الرسمية.

Katz, Peter. "What Makes a Good Urban Park?" In *The Essential Communitarian Reader*. Edited by Amitai Etzioni, pp.pp. 183–186. New York, 1998. مقال قصير لكنه مهم يتحدث عن ارتباط المجال العام بمدى إشراك المواطنين فيه

Kellner, Douglas. "Virilio, War and Technology." *Theory, Culture and Society* 16 (1999), pp.pp. 103–126. مقال نقدي حول الآثار التكنولوجية على الفهم السياسي وفكرة المشاركة.

Kemmis, Daniel. *Community and the Politics of Place*. Norman, Okla., 1990.

حجة حول أهمية المشاركة السياسية على المستوى المحلي

Mansbridge, Jane J. "Feminism and Democracy." *American Prospect* 1 (1990), pp.pp. 126–139.

تلفت الانتباه حول وعود الديمقراطية التشاورية وإخفاقاتها بالنسبة للنساء.

McCarthy, Thomas. "Kantian Constructivism and Reconstructivism: Rawls and Habermas in Dialogue." *Ethics* 105 (1994), pp.pp. 44–63.

مقال نظري يربط بين فلسفتي رولز وهابرماس وفلسفة كانط.

Mill, John Stuart. *Considerations on Representative Government*. Edited by Currin V. Shields. New York, 1958. First published 1861.

Nattrass, Nicoli, and Jeremy Seekings. "Democratic Institutions and Development in Post - apartheid South Africa." In *The Democratic Developmental State*, edited by Mark Robinson and Gordon White. Oxford, 1998.

نظرة عامة حول الديمقراطية الناشئة في جنوب أفريقيا.

Oliver, Robert Tarbell. *History of Public Speaking in America*. Boston, 1965.

عرض تاريخي للخطابات السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية.

Oliver, Robert Tarbell. *Public Speaking in the Reshaping of Great Britain*. Newark, Del., 1986.

Platz, M. *The History of Public Speaking: A Comparative Study of World Oratory*. New York, 1935.

لمحة عامة وطموحة حول فكرة التحدث أمام الجمهور في الديمقراطيات الغربية.

Putnam, Robert. *Bowling Alone: The Collapse and Revival of American Community*. New York, 2000.

Remer, Gary. "James Harrington's New Deliberative Rhetoric: Reflections of an Anti - classical Republicanism," *History of Political Thought* 16 (1995), pp.pp. 532–557. An

Sanders, Lynn. "Against Deliberation." *Political Theory* 25 (1997), pp.pp. 347–377.

Sennett, Richard. *The Fall of Public Man*. New York, 1977.

Snider, J. H. "Democracy On - line." *Futurist* 28 (1994), pp.pp. 15–19.

Urbinati, Nadia. "Rhetoric and Representation: The Politics of Advocacy." Presented at the 1998 Annual Meeting of the American Political Science Association, September 3–6.

ورقة بحثية تسعى لإثبات فرضية مفادها أن الديمقراطية التمثيلية أفضل بالنسبة للمواطن من الديمقراطية المباشرة.

Weale, A. "The Limits of Democracy." In *The Good Polity: Normative Analysis of the State*, edited by Alan Hamlin and Philip Pettit, pp.pp. 39–44. Oxford, 1989.

تأليف: Roderick P. Hart and Courtney L. Dillard

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الإلقـاء Delivery

الإلقاء هو خامس القوانين الكلاسيكية للبلاغة، وهو يُعلم أداء الحركات الجسدية بما فيها التحكم في الصوت والنفس والإيقاع وهدفه مساعدة الخطيب على الاتصال الفعال في موقف ما. ويشكل الإيقاع مع الأجزاء الأربعة الأخرى للبلاغة وهى الإبداع والترتيب والأسلوب والذاكرة نظاما مركبا يمكن أن يستخدم في كتابة وتحليل الخطبة. كان هذا التقسيم لأجزاء البلاغة واضحا في البلاغة الرومانية ابتداء من "الخطابة إلى هيرينيوس" (انظر 1.2.3, 3.11.19:) الذى كتب في القرن الأول قبل الميلاد. ولشدة تأثير هذا النص اللاتينى زعم بعض الشراح أن البلاغة اليونانية لم يفكر أصحابها في التقسيم إلى خمسة أجزاء آخرها الإلقاء. ومع هذا فاستنادا إلى الإشارات الباقية إلى أعمال تعد الآن مفقودة عن "الإلقاء"، فإن الدارسين يناصرون رأى سكاجاليونى Scagalione الذى زعم أن الجزء الخامس بالإضافة إلى الأجزاء الأربعة الأخرى كان جزءا مهمًا من البلاغة اليونانية. (ص ١٤، ١٩٧٢)

إن أقدم من وصل إلينا ما كتبه عن الإلقاء في البلاغة اليونانية، هو أرسطو وذلك من خلال كتابه "فن الخطابة" (3.1). هذا على الرغم من أن شيشرون قد زعم أن ديموثينيس الذى عاصر أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) وكان خطيبا، رفيع المقام، قد قال إن الإلقاء هو أول وثاني وثالث الأجزاء الأكثر أهمية في الخطبة (انظر: De oratore, 3.213). لم يذهب أرسطو إلى هذا الرأى نفسه، ولكنه قال بالفعل إن الإلقاء شيء أساسي في البلاغة ثم تكلم عن جهارة الصوت وطبقته والإيقاع على وجه الخصوص. ويقارن أرسطو

الإلقاء البلاغى بالإلقاء المسرحي ويؤكد على تأثير الإلقاء على الجماهير المختلفة وعلى أن فاعلية وملائمة الإلقاء تحدد نجاح الخطبة من عدمه. أما ثيوفراستوس Theophrastus، خليفة أرسطو في رئاسة مدرسته فقد كتب عملاً أسماه "عن الإلقاء" On Delivery لكنه ضاع، وهذا العمل أيضا أكد على تأثير الإلقاء الجيد. ومن الجائز أن يكون قد تأثر بمطلب أفلاطون أن يكون للبلاغة توجه نفسى.

أحد الأعمال التى تأثرت بثيوفراستوس هو كتاب "الخطابة إلى هيرينيوس" الذى سبق وأن ذكرناه وهو مجهول المؤلف. (لقد سبق أن نُسب هذا العمل إلى شيشرون لأنه يشبه من بعض الوجوه كتابه "عن الإبداع"، وهو عمل كتبه شيشرون في شبابه عن الجزء الأول من أجزاء البلاغة. وقد أثر كتاب "الخطابة إلى هيرينيوس" تأثيرا كبيرا على التراث البلاغي الذى تلاه. وقد جمع ما قيل عن الإلقاء حتى القرن الأول قبل الميلاد كما وسع التحليل النقدى للإلقاء. ويصف الكاتب (Kennedy, 1963, p. 383) (Lafactio) في تناوله للموضوع الإلقاء الصوتى وحركة الجسد أثناء إلقاء الخطبة (Kennedy, 1999, p. 110). الأجزاء الثلاثة الأكثر أهمية بالنسبة للصوت في هذا العمل هى جهارة الصوت والثبات والمرونة. ويؤكد المؤلف على ضرورة التدريب على الأجزاء الثلاثة. وبالنسبة للمرونة فهو يقسمها إلى ثلاثة أجزاء أيضا: إلى ١) المحادثة ٢) المناظرة ٣) والإفاضة. وتصاحب الإشارات هذه الأجزاء الثلاثة. كما يُضمن المؤلف وصفا لإستخدام الجسد أثناء إلقاء الخطاب. وكما هو الحال بالنسبة لشرح أرسطو للإلقاء، فإن كاتب "الخطابة إلى هيرينيوس" يؤكد أن مهارة الأداء في هذا الجزء من البلاغة تحدد نجاح الخطبة (3.11.19).

ويؤكد شيشرون على أهمية الإلقاء في عدة مواضع، وخصوصا "عن الخطابة" و"بروتس" و"الخطيب". ويذهب هو الآخر إلى أن الإلقاء هو أهم أجزاء الخطبة، ويزعم في "عن الخطابة" أن الإلقاء ضرورى لأفضل الخطباء وأن المتحدثين من أصحاب القدرات المتوسطة يستطيعون تحسين تأثير الخطبة إذا ما ألقوها إلقاء مناسبا، بما يحقق خصائص الجلال والجمال.

ولكن كل أجزاء الخطبة هذه تنجح تبعا لطريقة الإلقاء. فالإلقاء له السلطة الوحيدة والعليا في الخطابة وبدونه لن يحظى حتى المتحدث الذى أوتى أعلى القدرات العقلية بأى تقدير، بينما المتحدث ذو القدرات المتوسطة إذا ما امتلك القدرة على الإلقاء سيمكنه ذلك من التفوق حتى على من لهم أعلى المواهب (De Oratore, 3.213).

ويربط شيشرون الإلقاء، كما يربطه أرسطو، بالعاطفة، ويقول إن كل عاطفة تحضر معها شكلا ونبرة وإشارات فريدة، كما يربط نبرات الكلام بالنغمات الموسيقية (انظر: Pathos) ويُسهب شيشرون في توضيح الارتباط بين نبرات الصوت والعاطفة من ناحية والغضب والخوف والعنف والسرور والاضطراب من ناحية أخرى. وهو يختم هذا الجزء المهم عن الإلقاء بنقاش عملى عن الصوت باعتباره جزءا أساسيا من الإلقاء ويعتبر تنويع النبرات وتدريج الصوت وتقويته خصائص أساسية من برنامج شيشرون. وقد ذكر عددًا من هذه النقاط في كتابة "بروتس" الذى يعطى فيه أمثلة على الخطباء وأمثلة على بعض صفات معينة لهم. وكذلك فى كتابه "الخطيب" الذى يتم فيه الربط بين اللغة والجسد.

أما آخر المصادر الكلاسيكية المهمة عن نظرية الإلقاء فهو كينتليان الذى كتب في نهاية القرن الأول قبل الميلاد وهو يتناول الإلقاء في الجزء الثانى من كتابه Institutio oratoria ويناقش، كما ناقش شيشرون وأرسطو وآخرون، دور الإلقاء والعاطفة ويؤكد على الصوت والإشارة ويربط الأول بالأذن والأخيرة بالعين. وهو يكتب:

"إن طبيعة الخطاب الذى ألفناه داخل عقولنا ليست بأهمية الطريقة التى نلقيه بها، حيث إن عاطفة كل فرد في الجمهور سوف تعتمد على الانطباع الذى يقع على سمعه " (11.3.2.)

وهو يذكر بالإضافة إلى هذا حكاية ديموثينس واعتقاده بأن الإلقاء يعتبر الأول بين ثلاثة جوانب مهمة في الخطاب. إن ربط كينتليان المنتظم بين البلاغة الفعالة والصفات الأخلاقية يظهر أيضا في تعليقاته على الجزء البلاغي الخامس وفي ربطه بين الفصاحة عامة والفضائل المدنية للمتحدث. (انظر: الفصاحة)

لكن الإلقاء تدهور كثيرا في العصور الوسطي وفي عصر النهضة نتيجة لأن البلاغيين تجاهلوه لصالح مسائل بلاغية أخرى. إن الأنظمة السياسية والدينية القائمة في ذلك الوقت لم تجعل الإلقاء وظيفة ضرورية من وظائف البلاغة. وفى القرن السادس عشر أثر المعلم الفرنسي والكاتب عن البلاغة والجدل بيتروس راموسPetrus Ramus على وضع الإلقاء تأثيرا كبيرا عندما جعله هو والجزء الثالث من أجزاء البلاغة وهو الأسلوب، أجزاء من فن البلاغة، بينما أدرج الأجزاء الثلاثة الأخرى وهى الإبداع والترتيب والذاكرة ضمن فئة الجدل (انظر: الجدل). وهذا التقسيم لم يضعف الإلقاء وحده وإنما أضعف البلاغة بصفة عامة. ولا يزال الأثر المستمر لعزل راموس لثلاثة من الأجزاء الخمسة من البلاغة (في محاضراته بالجامعة، ومؤلفاته المنشوره، وبعضها كتب بمعاونة تاليوس Talius) محسوسا. ومن الممكن رؤية هذا التحول حتى الآن في العدد الكبير من كتب تدريس الكتابة (وهى المنحدرة من الكتب التعليمية التى كان يعارضها أفلاطون وأرسطو) التى أثرت على البلاغة وعلى أساليب ممارسة الكتابة في القرن العشرين. ولكن الكتب التعليمية التى كتبت بعد الثمانينيات بدأت في معارضة هذا التقسيم.

لقد أكد البلاغيون فى القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر على الجزء الخامس فأعادوا إحياء أهمية الإلقاء. (انظر بلاغة القرن الثامن عشر وبلاغة القرن التاسع عشر لمعرفة أهمية الإلقاء). ولقد تناولت سلسلة محاضرات توماس شيريدان Thomas Sheridan وهى بعنوان: "محاضرات عن الإلقاء"(Lectures on Elocution) الصوت بطرق تشبه المبادئ الموجودة في "الخطابة إلى هيرينيوس" وعند شيشرون. وتجرى مناقشة المهارة والثبات والمرونة في اللغة الانجليزية، ومن المهم أنه شرحت أيضا طرق تدريس هذه السمات. يعكس جزئيا هذا التأكيد على طرق التدريس اهتمام كينتليان من قبل بطبيعة المعلمين وبتدريبهم. وكتاب "عناصر الإلقاء" Elements of Elocution لجون ووكر John Walker (London, 1820) أكد على الإشارات والحركات الجسدية الأخرى. ولقد أدى انحسار اللغة اللاتينية باعتبارها اللغة التعليمية السائدة وظهور الإنجليزية كلغة رئيسية إلى إعادة التركيز على الإلقاء. فقد ظهرت حاجات جديدة جعلت اللغة المتحدثة أهم بكثير مما كانت عليه لعدة قرون.

وعندما نافست الطباعة (خصوصا بعد جوتنبرج في القرن الخامس عشر) الإلقاء الشفوي، حدثت عدة تغيرات للجزء البلاغي الخامس. لقد ضعف نتيجة للتغيرات المتعلقة بالرؤية والسمع فالطباعة تلغى العلاقة المباشرة بين المتحدث والمستمع وتجعل الصوت والإشارات أقل أهمية. وعندما تكون الطباعة هى وسيلة الاتصال، فإن الإلقاء يركز على طريقة العرض، وشكل الحروف، وطرق القراءة وما شابه ذلك. ولكن الإلقاء حصل على اهتمام جديد في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين بعد ظهور أشكال جديدة من تكنولوجيا الاتصالات جلبت قدرا كبيرا من الاهتمام بالإلقاء كوسيط. وبينما لا يزال الإلقاء يتضمن الصوت والإشارة والأفعال الجسدية الأخرى في الموقف الذى يتكلم فيه شخص ما، فإن الإلقاء

قد تطور ليشمل أيضا التكنولوجيا التى تنقل وفي بعض الأحيان تشكل الحدث البلاغي. ومن هذا المنطلق نفسه، مكن الاهتمام الحالي بتكنولوجيا الاتصال الدارسين من الاهتمام بوسائل نقل الحدث البلاغي، بحيث أصبح ممكنا استخدام الإلقاء لتحليل الأشكال الجديدة والمتكاثرة في الاتصال الإلكتروني (انظر: الاتصال).

وقد كان الإلقاء كذلك محلا لمناقشات عن "الجنوسة" (من حيث الذكورة والأنوثة) Gender في الماضي كما هو في الحاضر. فالتحليلات الحديثة "للجنوسة" مثلا التى قام بها إدى وآخرين، جوراك، وجلوين قد أنعشت الإلقاء لأنها حللت المصادر الذكورية التقليدية موضحة الهيمنة الذكورية في المصادر الأولية. كما أنها أعادت تأويل هذه النصوص بطرق تلقي الضوء على قضايا مثارة حاليا في دراسات الجنوسة من بينها دور النساء في الجزء الخامس من البلاغة وهو الإلقاء. وفي العصور القديمة كان الخطباء الرومان يشعرون بالقلق إزاء البعد الأدائى الموجود في إلقاء الخطبة الذى قد يسىء إليهم نتيجة للربط بينه وبين المسرح. وبالفعل، على الرغم من بعض التفاصيل الدرامية في التدريب على الإلقاء واستخدام مقارنة مأخوذة من المسرح في بعض الأحيان، فإن شيشرون والبلاغيين المتأخرين قد اهتموا بالتفرقة بين التدريب على الإلقاء وبين التمثيل على خشبة المسرح. فشيشرون يهيب بالخطيب أن يجعل إلقاءه قويا ورجوليا، وألا يستعير إشاراته من المسرح وممثلى الدرجة الثانية الذين يعجون فيه، بل عليه أن يأخذ إشاراته من الجمنازيوم (De oratore 3.220). ومع ذلك، فقد كان هذا انزلاقا إلى المسرحى (وبالتالى غير الرجولى) الذى لا يمكن أن يتسم به إلا الخطباء المغالين في استخدام العواطف، كما حدث مع الخطيب هوريتينسيوس Hortensius الذى عاصر شيشرون.

ولقد حظيت سمات الإلقاء المتعلقة بالجنوسة بالاهتمام في الثلاثين عاما الأخيرة من الموجة الثانية من الدراسات النسوية في الدراسات التى قامت بها النساء في شمال أمريكا الناطق بالإنجليزية، وفي الخمسة والعشرين عاما من الدراسات التى يشار إليها عادة تحت اسم (النسويات الفرنسية). لقد نظر البعض إلى الإلقاء على اعتبار أنه قضية متعلقة بتقسيم علاقات السلطة بين الرجال والنساء (وحتى بين الرجال من ذوى التوجهات الجنسية المغايرة، في العصور القديمة، (جليسون، ١٩٩٥). وتقوم الاختلافات بين أصوات وإشارات الرجال والنساء بتوجيه الكثير من الدارسين، ومن بينهم من يركزون على الجسد إلى بعض المواضع التى يمكن منها بحث الاختلافات في السلطة التى لاتزال مستمرة بين بعض المجموعات من الرجال وبعض المجموعات من النساء، وحتى داخل الجنوسة أيضا. ويرى ولترجي أونج Walter J. Ong (1977) وآخرون أن الإلقاء عندما يأخذ شكل تكنولوجيا الاتصال يظل أيضا مرتبطا بالجنوسة. وفقا لهذا الرأى، فإن تكنولوجيا الإلقاء ليست محايدة بأى معنى من المعانى، فالوسيلة تشمل مسائل الجنوسة ومسائل أخرى أيديولوجية تتعلق بالأشخاص الذين ابتكروا التكنولوجيا، والناس أيضا الذين يتفاعلون معهم.

إن الدراسات القوية الموجودة حاليا عن الإلقاء، وكلها تتعلق بالتاريخ الثرى المتعدد الجوانب له، توضح القوة المستمرة والدائمة لهذا الجزء من البلاغة والاستخدامات الهائلة التى يمكن أن يُستغل فيها، بما في ذلك الاتصال الشفاهي الشخصي الذى قام بتحليله أرسطو ومؤلف "الخطابة إلى هيرينيوس" (أنظر: البلاغة الكلاسيكية)، وشيشرون، وكينتليان.

Bibliography

Anonymous. Rhetorica ad Herennium. Translated by Harry Caplan. Cambridge, Mass., 1954.

رسالة رومانية مجهولة المؤلف مؤلفة من أربعة كتب عن أجزاء البلاغة الخمسة كتبت فى القرن الأول قبل الميلاد. نص واسع التأثير كان يعزى إلى شيشرون حتى القرن الخامس عشر.

Aristotle. On Rhetoric: A Theory of Civil Discourse. Translated by George A. Kennedy. New Yor

الترجمة الإنجليزية معتمدة. تتضمن أقدم عمل باق عن الإلقاء فى الجزء الثالث.

Cicero. On Oratory and Orators. Translated by J. S. Watson. Carbondale, Ill., 1970. I

تحتوى على الترجمات الكاملة لكتاب "عن الخطابة والخطباء" و"بروتس"

Cicero, De oratore. Translated by E. W. Sutton. Cambridge, Mass., 1979.

DuBois, Page. "Violence and the Rhetoric of Philosophy." In Rethinking the History of Rhetoric:

Multidisciplinary Essays on the Rhetorical Tradition. Edited by Takis Poulakos, pp.pp. 119–134. Boulder, 1993.

Ede, Lisa, Cheryl Glenn, and Andrea Lunsford. "Border Crossings: Intersections of Rhetoric and Feminism." Rhetorica 8.4 (1995), pp.pp. 401–441.

يستخدم الأجزاء الخمسة من البلاغة لتنظيم التفاعل بين البلاغة والنسوية.

Enders, Jody. The Medieval Theatre of Cruelty: Rhetoric, Violence, and Representation in France. Ithaca, N.Y., 1998.

Gleason, Maud W. Making Men: Sophists and Self - Presentation in Ancient Rome. Princeton, 1995.

Gurak, Laura J. Persuasion and Privacy in Cyberspace. New Haven, 1997.

يؤكد البلاغة في المساحات الإلكترونية وعلاقتها بمفهوم المصداقية عند أرسطو كما هو مشروح في كتاب "البلاغة".

Kennedy, George A. The Art of Persuasion in Greece. Princeton, 1963.

Kennedy, George A. Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern

Times. 2d ed. Chapel Hill, N.C., 1999.

Ong, Walter J. "Transformations of the Word." In Interfaces of the Word. Ithaca, N.Y., 1977.

Quintilian. Institutio oratoria. 4 vols. Translated by H. E. Butler. Cambridge, U.K., 1922–1933.

Reynolds, John Fredrick, ed. Rhetorical Memory and Delivery: Classical Concepts for Contemporary

Composition and Communication. Hillsdale, N.J., 1993.

يطبق الجزء الخامس على مجموعة من وسائل الإعلام بما فيها الوسائل المطبوعة والرقمية وأخلاقيات الإلقاء في مجموعة متنوعة من وسائل الإعلام

Scaglione, Aldo. The Classical Theory of Composition from Its Origins to the Present: A Historical Survey.

Chapel Hill, N.C. 1972.

Welch, Kathleen E. Electric Rhetoric: Classical Rhetoric, Oralism, and a New Literacy. Cambridge, Mass., 1999.

يدرس الإلقاء في سياق الحاسبات والتليفزيون ويحلل ثقافة الشاشة كبلاغة سائدة.

تأليف: Kathleen E. Welch

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

الوصف (Description) (*Descriptio*)(*ekphrasis*):

"مسمى عام للعديد من أنواع الأوصاف، ويتحقق الوصف عندما يقوم الخطيب- عبر الجمع الدؤوب للملابسات- بالتعبير عن أمر شديد التجسد لدرجة أنه يبدو وكأنه مرسوم على الطاولة، ومن ثمَّ يفصح عنه بالكلمات..." (هنري بيشمان Henry Peacham، ١٥٩٣، ص ١٣٢). ومع أن الوصف في أصله فكرة، فإنه اعتبر لاحقا أسلوبا للاستطراد. وبالتالي فقد قسِّم إلى أنواع مختلفة تبعًا للموصوف:

١- وصف الأشياء *Descriptio rei* (*pragmatographia*): على سبيل المثال، وصف درع أخيل في إلياذة هوميروس، أو الأحداث من قبيل المعارك والاستيلاء على المدن (كينتيليان، *Institutio oratoria*، 8.3.67)، والكوارث الطبيعية والأوبئة والولائم واحتفالات النصر. هذا النوع من الوصف معتاد في الاستطراد الملحمي وتقارير الرسل في الدراما. ومن الأمثلة على ذلك لدى شكسبير وصف كومينيوس لاستيلاء كوريولانوس على مدينة كوريوليس بمفرده (كوريولانوس، 2.2.112).

٢- وصف الأشخاص *Descriptio personae* (*prosōpographia*): وصف شخص عن طريق "الظروف" الخاصة به (بلد- بلدة- طبقة اجتماعية- نسب)، أوعن طريق الصفات (جميل- محظوظ- فارس- حياة سياسية- سمعة)، أوعن طريق الخصال (الثقافة- الفضائل- العظمة- البسالة...إلخ). وغالبا ما يستخدم هذا النوع من الأوصاف لأغراض تربوية، كما في التصوير اللفظي للشخصيات الأسطورية والبطولية. [انظر **Epideictic genre** و **Panegyric**].

٣- وصف المكان *Descriptio loci* (*topographia, topothesia*): سماه جورج بوتنهام "المكان الظاهر" (The Art of English Poesie, 1589)، وهو وصف: (أ) مكان حقيقي (*topographia*) من قبيل مدينة أو قصر أو حديقة، ويستخدم عادة في الاستطراد الملحمي؛ و(ب) مكان خيالي (*topothesia*) من قبيل مشهد طبيعي مثالي (*locus amoenus*) (فيرجيل، *القصيدة الرعوية* Virgil، القرن الأول قبل الميلاد؛ السير فيليب سيدني Sir Philip Sidney، *أركاديا Arcadia*، ١٥٨٠) ومدينة طوباوية (توماس مور، *يوتوبيا*، ١٥١٦؛ توماسو كامبينيلا، *مدينة الشمس*، ١٦٠٢؛ فرنسيس بيكون، *أتلانتيس الجديدة*، ١٦٢٧).

٤- وصف الزمان *Descriptio temporis* (*chronographia*): سماه بوتنهام "الزمان الظاهر" (The Art of English Poesie, 1589)، وهو وصف لزمان، من قبيل وصف الفصول كما في شعر جيمس تومبسون (١٧٢٦ - ١٧٣٠) وعمل فرانتس جوزيف هايدن المسمى *الفصول Die Jahreszeiten* (١٨٠١). وفي الاستهلالات الشعرية في القرون الوسطى، حيث يتكرر وصف الربيع، على سبيل المثال، في مقدّمة *حكايات كانتربري* لتشوسر (١٣٩٠).

تحت تأثير القول المأثور لهوراس *الشعر كصورة ut pictura poesis* (القرن الأول قبل الميلاد) والحِكَم السيموندية ومنها "التصوير شعر صامت والشعر صورة تتكلم" (القرن الخامس قبل الميلاد)، صار الشعر في منافسة (*مقارنة*) مع التصوير على المكانة الأهم فنيا. من هنا نشأ الأدب التصويري والتصوير الأدبي، الذي ساد في الفترة من عصر النهضة وحتى الكلاسيكية الجديدة. وهكذا كانت مجموعة *Eikones* "الصور الغريبة" الكلاسيكية المتأخرة، وهي مجموعة من توصيفات اللوحات (القرن الثالث الميلادي) وضعها اثنان من السوفسطائيين المعروفين باسم *Philostrati*، وكان هناك الكثير من الأعمال التي سارت على نهجها نفسها. وفي ظل هذا التصور للشعر لم يكن الوصف

ينظر إليه على أنه مجرد مجاز ولكنه كان على صلة وثيقة (أو يسلط الضوء على) بمبدأ المحاكاة، أي إنه تمثيل للشيء الذي يظهر للخيال، وكأنما هو حاضر بل وكذلك حي. [انظر **Imitation** و **Style**]. وعلى ذلك نجد في وصف الشعر بأنه "الصورة المتكلمة" (السير فيليب سيدني، ١٥٩٥) في *ekphrasis* مصدرًا للتضليل. ولكن قيام ليسنج في *كتابه (لاكوؤن: مقالات على حدود الشعر والرسم)* بالتمييز بين اللوحة بوصفها فنا مكانيا والشعر بوصفه فنا زمانيا، قد أنهى المنافسة المحتدمة بين الفن البصري والفن السمعي.

[انظر كذلك **Amplification** و **Figures of speech**].

المراجع

Becker, Andrew Sprague. *The Shield of Achilles and the Poetics of Ekphrasis*. Lanham, Md., 1995.

Boehm, Gottfried, and Pfotenhauer, Helmut, eds. *Bescheibungskunst, Kunstbeschreibung: Ekphrasis von der Antike bis zur Gegenwart*. Munich, 1995.

Borinski, Karl. *Die Antike in Poetik und Kunsttheorie*. 2 vols. Leipzig, 1914. Reprinted Darmstadt, 1965.

Faral, Edmond. *Les arts poétiques du XIIe et du XIIIe siècle*. Paris, 1923. Reprinted in Paris, 1971.

Farmer, Norman K. *Poetry and the Visual Arts in Renaissance England*. Austin, Tex., 1984.

Gent, Lucy. *Picture and Poetry, 1560–1620*. Leamington Spa, U.K., 1981.

Hagstrum, Jean H. *The Sister Arts: The Tradition of Literary Pictorialism and English Poetry from Dryden to Gray*. Chicago, 1958, 1968.

Peacham, Henry. *The Garden of Eloquence* (1593), edited with an introduction and commentary by B. - M. Koll. Frankfurt, 1996.

Scholz, Bernhard F. "*Ekphrasis* and *Enargeia* in Quintilian's *Institutionis oratoriae libri xii*." In *RHETORICA MOVET: Studies in Historical and Modern Rhetoric in Honour of Heinrich F. Plett*, edited by Peter L.Oesterreich and Thomas O. Sloane. Leiden, 1999, pp.pp. 3–24

تأليف: Heinrich F. Plett

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

Dialectic ديالكتيك

يصور لنا أفلاطون (٤٢٨ – ٣٤٧ ق م) في جورجياس (471e - 472d) سقراط ساخطا وهو يحاول أن يوضح لبولوس Polus الأحمق أنّ هناك نوعين من الحجاج. يسعى المتكلم في النوع الأول ومن خلال خطب مطولة لإقناع مجموعة كبيرة من الناس بالحقيقة عبر الاستعانة برأي قائم. وهنا يفترض المتكلم أن الحقيقة تكمن في ما تعتقده الأغلبية. ومن جهة أخرى، يقوم سقراط باستدعاء شاهد وحيد– وهو الشخص الذي يستجوبه– ويفترض أنه سيجد الحقيقة بمجرد أن يوافقه هذا المستجوب. إن سقراط يرى أن محاولة الوصول إلى الحقيقة من خلال الخطب المطولة، والتي تؤكد على رأي الأغلبية مثال جيد على الأساليب البلاغية التي تتصف بالقصور وانعدام المهارة. في مقابل المحاولة الموجهة للانتقال إلى مستوى أعلى من الفهم عبر أسلوب السؤال والجواب حيث يتم استشفاف روح وآراء الفرد المستجوب، وهو ما يمثل الجدل (الديالكتيك). وبينما يعترف فن الخطابة بسلطة الرأي العام، فإن الديالكتيك يهدف إلى تجاوز عالم الخبرة الانطباعية وصولا إلى حقائق أكثر رسوخا بعدما انتخبت من خلال إعمال العقل فيها. وبالتالي فإن البلاغة والجدل الديالكتيكي، يقدمان نظرتين متعارضتين جدا للوصول إلى الحقيقة.

يكمن الاستدلال والابتكار في لب العلاقة بين البلاغة والديالكتيك. [انظر **Inference** و **Invention**]. حيث يرى بعض المنظرين أن هناك اختلافاً بين البلاغة والديالكتيك من حيث الهدف والموضوع، بينما يرى البعض

الآخر أنهما مرتبطان بطريقة تراتبية؛ بينما يعتبرهما فريق ثالث فنًا يفتقد الشرعية. أما أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) فقد نظر إلى الديالكتيك والبلاغة على أنهما يقدمان أنماطا مختلفة من الاستدلال، ويتعاملان مع موضوعات مختلفة، وينبعان من مصدري بحث منفصلين. [انظر **Casuistry** و **Classical rhetoric**]. واعتبر منظرون- ومنهم أفلاطون وبويثيوس (٤٨٠ - ٥٢٤) وأجريكولا (١٤٤٤ - ١٤٨٥) وراموس (١٥١٥ - ١٥٧٢) - على ما بينهم من اختلافات- أن العلاقة بين الفنين تراتبية، ويقصد بالتراتبية هنا الوظيفة الإبستمولوجية التي تؤسس المعرفة على أرضية اليقين أو الاحتمال. [انظر مقالات عامة حول **Medieval rhetoric** و **Renaissance rhetoric**]. ونهايةً نقول بأن منظرين من أمثال إيزوقراط (٤٣٦ - ٣٣٨ ق م) وشيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق م) رفضوا مشروعية الديالكتيك، مقترحين أنه قد لا يكون مصدرًا للمعرفة الأصيلة، بينما انتقدت شخصيات- بدءا من أفلاطون وحتّى كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤)- البلاغة بوصفها شكلا خدّاعا ومراوغا من أشكال الخطاب.

ورأى أرسطو أن زينون الإيلي (٤٩٥ - ٤٣٠ ق م) هو أول من ابتكر الديالكتيك. وعلى الرغم من عدم توافر معلومات تاريخية بهذا الصدد، فإن التاريخ يرجع إلى زينون وضع أسلوب جدلي يدحض موقف الآخر من خلال الكشف عن استحالة صحة رأيه منطقيا. وظل هذا النمط المولع بالجدل جزءًا من تدريب الطلاب على أن يكونوا مجادلين مهرة. [انظر **Eristic**]. واستخدم سوفسطائيون مثل بروتاجوراس (٤٨٥ - ٤١٠ ق م) أشكال الديالكتيك عندما قاموا بتعليم طلابهم كيفية الجدال لإثبات وجهتي النظر المتناقضتين بشأن أي موضوع. [انظر **Sophists**]. وخرج من عباءة هذا الأسلوب - القائم على مساءلة أي موقف حتى يتم إثبات عدم تماسكه- التطبيق الذي سمي فيما بعد (الديالكتيك الأفلاطوني).

ففي محاورة *فيدروس* (التي اعتبرت مراجعة لرأيه المبكر والسلبي حول فن البلاغة في محاورة *جورجياس*)، يقول أفلاطون على لسان سقراط بأن الديالكتيك يتيح لممارسيه التمييز المنهجي بين الممكن والمستحيل واستغلال ذلك في اكتشاف هوية الموضوع. ويقول سقراط بأن المجادل الديالكتيكي الحق أشبه بجزار ماهر قادر على فصل اللحم من عند المفاصل وعدم الاكتفاء بفعل ذلك عن طريق تهشيم عشوائي للعظام. ويقوم المجادل هنا بعمليتي جمع وتقسيم، ومن خلال ممارسة هذا الفن يستطيع اكتشاف ما في التعددية من وحدة. ويرى سقراط أن من يرغب في ممارسة فن الخطابة يلزمه أن يتعلم أولا فن الديالكتيك، فمن دونه لن يستطيع الخطيب تبين المحتوى المناسب لما يقوله. ولأن البلاغة وحدها غير قادرة على استشفاف طبيعة الأشياء، فلن تمتلك قدرة أصيلة ولكن ستبقى مكتفية بالتلاعب بكل ما هو عادي مألوف.

وإذ بدا سقراط غير حاسم في مدحه للديالكتيك، فإن المحاورة توحي بوجود حدود لتطبيقها. ففي خطابه الثاني، عودته إلى إيروس، لا يعتمد سقراط بالأساس على الديالكتيك في تأويله للنفس، ولكنه يعتمد بدلا من ذلك على تصوير أشكال النفس الممتدة كأنها مجنحة والنفس كأنها عربة حربية. وبالتالي نجد في دراما المحاورة تنافرا واضحا بين الإعلاء من شأن الديالكتيك وبين وظيفته الفعلية. وبالإضافة إلى ما يحيط بالديالكتيك في محاورة *فيدروس* من تناقضات، فإن أفلاطون يزيدها تعقيدا في محاورة *مينون* عندما يقول بأن له صورتين: الديالكتيك المثالي الذي يطبق خلال مناقشات الأصدقاء والديالكتيك من أجل الجدل الذي يظهر في مناقشات عدوين أو خصمين. ففي النوع الثاني يسعى كل طرف إلى تقويض موقف الطرف الآخر من الأساس. وعلى النقيض من الديالكتيك– الذي ينبع من تنافس المتجادلين سعيا نحو بحث متبادل عن الحقيقة– فإن طرفي الديالكتيك

الهادف للجدل يسعيان نحو هدف سلبي يتمثل في أن يدحض كل منهما موقف الآخر أيًا كان. وبالتالي فإن الديالكتيك الجدلي عبارة عن نزاع لفظي يقارب نمطًا من أنماط البلاغة التي تعتمد على النزال والعراك. ويكون الهدف هنا ليس الحقيقة أو درجة أعلى من الفهم، بل الانتصار فحسب.

ويتم في الديالكتيك الحقيقي فرز المماثل من غير المماثل من خلال تصور يستند إلى التجربة لفهم البنية الفكرية التي تسعى للكشف عما هو غير جلي في العالم. وأشهر الأمثلة على ذلك قصة الكهف الرمزية التي يوردها أفلاطون في محاورة *الجمهورية* (514a - 518d.). فلكي يغدو الديالكتيك ناجحا لابد أن يساعد المرء على فهم تلك الأنماط التي أتاحت له أن يكون وجودا عاقلا. وسيكون هذا الفهم بمثابة عملية تذكر (an *anamnēsis*) لما يتوجب علينا أن نعرفه في وقت من الأوقات حتى نفهم بعضًا مما هو غير مفهوم لنا في هذا العالم. وتمثل الصور أو المثل الأفلاطونية اشتراطا منطقيا مسبقا يكون ضروريا في حال أردنا تقييم قدرتنا على التعميم من خلال الخبرة الحسية. ولكن وكما تقترح كلٌ من أسطورة الكهف ومحاورة *فيدروس*، فإن الوصول ديالكتيكيا إلى فهم أفكار معينة لا يمثل ضمانا لأن ينجح المرء في توصيل هذا الفهم للآخرين، ويعود هذا، من بين أسباب أخرى، إلى قلة عدد القادرين على هذه الممارسة الديالكتيكية الشاقة. وهكذا يبدو أن الديالكتيك بحاجة حتمية إلى البلاغة حتى يتمكن من توصيل ما ينشده من حقائق.

إذا كان تقييم أفلاطون للديالكتيك يتسم بالتعقيد، فإن بيان أرسطو للعلاقة بين البلاغة والديالكتيك أثار تاريخًا من الجدل حوله. وقد كان سبب ذلك افتتاحية كتاب *الخطابة* لأرسطو التي يقول فيها: "البلاغة والديالكتيك صنوان، فكلاهما مهتم – إلى حد ما – بماهية الأشياء ضمن معارف الناس كافة، وكلاهما ينتمي إلى علم واحد محدد" (1354a، ترجمة كينيدي، ص ٢٨ – ٢٩). ولم يقم أرسطو

بتوضيح مقصده من هذه الجملة، وترك الأمر للمعلقين كي يحددوا الطريقة التي تصوّر بها أرسطو العلاقة بين البلاغة والديالكتيك. على أنه يقول بأن العامة ربطوا بين الفنين بوصفهما يستخدمان معا في المبارزة الكلامية. غير أن السؤال الجلي هنا: هل علاقة هذين الفنين تراتبية، حيث يقدم أحدهما مبادئ ومبررات الفن الآخر، أم أنهما نمطان متوازيان من البرهان يمكن التمييز بينهما لكونهما يتعاملان مع نوعين مختلفين من العبارات؟ يبدو لنا أن أرسطو قد اعتقد أنهما يجمعان بين هذا وذاك.

ففي معرض شرحه لكون الحجاج مصدرا من مصادر البرهان، يصف أرسطو البلاغة بوصفها ندا للديالكتيك، ولكن على أساس أنها فرع من أفرعه *paraphuēs* (1365a). [انظر **Logos**]. وهو الأمر الذي يدفع للاعتقاد بأن الديالكتيك مصطلح شامل، وأنه من الممكن لنا أن نفهم البلاغة على أنها واحدة من الفروع المشتقة منه. ولكن أرسطو لم يقل بهذا أبدًا؛ بل هو يضع البلاغة وسطا بين الديالكتيك والسياسة. وبالتالي فإن البلاغة نوع مميز من أنواع التفكير. وهي تشترك مع الديالكتيك في أطوار الاستدلال؛ وما يميزها عن الديالكتيك هو نوع الفروض المنطقية التي تتعامل معها. حيث يتعامل الديالكتيك مع الفروض المنطقية العامة، بينما تتعامل البلاغة مع فروض منطقية تثبت في الغالب حقيقتها. وعَمِل أرسطو على مزيد من التنقيح لهذا التناقض من خلال المزاوجة بين القياس المنطقي الاستنتاجي في الحجة الديالكتيكية والقياس الإضماري في البلاغة وبين الحجة الاستدلالية الديالكتيكية والحجة البلاغية. [انظر **Enthymeme**: **Exemplum** و **Syllogism**]. أما ما يوحد بين الديالكتيك والبلاغة فهو الاستدلال. فكلاهما طريقتان للانتقال من المظاهر أو الآراء الحالية إلى مواقف أكثر رسوخا. ففي الديالكتيك يؤدي مثل هذا الإجراء إلى الفروض المنطقية العامة التي تشكل أساس التفكير

العلمي لدى أرسطو. أما في البلاغة فيؤدي الاستدلال إلى البراهين (المبدأ العقلاني) الكلامية. حيث يمثل هذا المبدأ العقلاني كيفية فهم المتلقي لموقف معين، بالنظر إلى آراء هذا المتلقي والأساليب المتنوعة التي يظهر بها الموقف أمامه. وبهذا المعنى يكون الديالكتيك علامة على كل من العملية الاستدلالية الأكبر، وكذلك على نوع معين من الاستدلال. وبالتالي فإن البلاغة تجمع بين كونها جزءًا من الديالكتيك وكذلك كونها منفصلة عنها.

ويمكننا أن نعتبر مركب أرسطو هذا- والذي يسعى بصورة غير محددة للتمييز بين الديالكتيك والبلاغة- محاولة للربط بين البلاغة والفلسفة. حيث يرى بعض المعلقين في اختياره لمصطلح *تناظر* *antistrophos* إشارة ضمنية مباشرة إلى أفلاطون في محاورة *جورجياس* الذي حدد البلاغة كنظير لعملية تحضير الطعام [الطبخ]. وبالتالي فهم يرون في عبارة أرسطو الافتتاحية محاولة لضبط العلاقة بين البلاغة والفلسفة وإيجاد مشروعية للبلاغة.

كما يمكننا فهم افتتاحية أرسطو على أنها تحدٍ لبلاغة إيزوقراط التي سعت إلى التعامل مع الابتكار ليس من خلال تبرير نسق تقني للابتكار، ولكن من خلال خلق خطيب واسع الثقافة قادر على الاعتماد على ثقافته الليبرالية الثرية في اكتشاف ما هو ملائم لخطاب معين. ومن منطلق هذا الفكر يغدو الديالكتيك موضع ريبة لكونه يفضي في النهاية إلى شكلية فارغة. فنجد على سبيل المثال شيشرون في كتابه *في الخطابة*- والذي يسير على نفس نهج إيزوقراط- يكتب أن كراسوس يلوم سقراط على الفصل بين الحكمة والملاءمة، ويقول بأن ممارسة الصورة الديالكتيكية للفكر انفصلت عن الاهتمام بالمسؤولية السياسية، وبالتالي فإنها قالب فكري مفكك قام بتحويل التفكير الجاد إلى آخر ليس له هدف سوى التسلية (٣,١٥).

وفي ظل هذا التراث الخطابي يوجد خلاف بين أولئك الذين يعتبرون الابتكار *inventio* مرتبطا بخلفية الخطيب الفكرية والتي تشكلت عن طريق تربية ليبرالية ثرية وأولئك الذين يقولون بأن الابتكار مسألة تقنية وأن الأهم هو ملاءمة القالب الاستدلالي. وفي كتابه، يتحدى بويثيوس (أوائل القرن السادس، وقد كان قنصلا تحت إمرة الإمبراطور ثيودوريك ومؤلف كتاب "في عزاء الفلسفة"، والذي ألفه في السجن أثناء انتظاره تنفيذ حكم الإعدام بعد اتهامه بالتآمر ضد الإمبراطور) الرأي الخاص بالديالكتيك والذي اعتنقه كراسوس شيشرون؛ وقال بدلاً من ذلك بأن الديالكتيك هو الفن الأهم لكونه يحكم عمليات الاستدلال. وقد ميز بويثيوس بين الموضوعات الديالكتيكية والخطابية، ملحقا البلاغة بالديالكتيك. ويستند هذا الإلحاق على ثلاثة عوامل: (١) يتعامل الديالكتيك مع المسائل والأطروحات العامة في حين تتعامل البلاغة مع مسائل وفرضيات معينة؛ (٢) منطلق الديالكتيك هو استخدام القياس المنطقي التام في حين توظف البلاغة القياسات الإضمارية، وهي قياسات منطقية تستبعد خطوات بعينها؛ (٣) في الديالكتيك يتشارك المتناقشون، بينما يسعى الخطيب إلى إقناع من بيده الحكم. وحيث إن الديالكتيك يرصد فئة من المسائل الأوسع نطاقا ينتج عنها سلسلة كاملة من الاستنتاجات، فإنه سابق منطقيا على البلاغة. والبلاغة ترتد فعليا، في اهتمامها بقضايا محددة، إلى مرحلة من مراحل الديالكتيك. أما ما يضمن استنتاجات المبحث البلاغي فهي قواعد الاستدلال العامة، والتي تعد فرعًا من فروع الديالكتيك.

وقد سادت وجهة نظر بويثيوس Boethius عن الديالكتيك خلال العصور الوسطى. غير أن رودولف أجريكولا Rodolphus Agricola (مفكر هولندي من القرن الخامس عشر) قام – من خلال إعادة تعريف جذرية لتقييم

بويثيوس للاكتشاف – بقلب تراتبية الديالكتيك والبلاغة. فبينما تركز وجهة نظر أجريكولا في *الابتكار الجدلي* *De inventione dialectica* بشكل خاص على الابتكار الديالكتيكي، فإنه يقدم معاني جديدة لمصطلحات رئيسة من قبيل الديالكتيك والابتكار والمألوف، فيعيد إلحاق الإبداع إلى البلاغة. إن أجريكولا يعيد تحديد الهدف من الديالكتيك، فبدلا من توفير وسيلة لضمان صحة الحجج المنطقية يكون الهدف تقديم طريقة للتحقيق في المسائل المتنازع عليها أو المشكوك فيها. وقد اهتم أجريكولا بالطريقة التي يلازم بها المحمول الموضوع، واعتقد أن المعرفة بالموضوعات والمحمولات تأتي من حقول معرفية متخصصة. فما يكتشفه الديالكتيك عبارة عن حجج تسمح بتقديم هذين الحدين في علاقة دالة. وقد اهتم هذا الاكتشاف أو الابتكار بالمحددات، فالبحث في نقاط اتفاق أو اختلاف محددة قادر على أن يؤسس علاقة بين الموضوع والمحمول. وحتى نتمكن من اكتشاف هذه المحددات يتطلب الأمر الذهاب إلى *الحيز المكاني* (أماكن أو موضوعات). [انظرTopics]. ونظرا للعدد الكبير من نقاط الخلاف والاتفاق، فإن أجريكولا يرى أنه من غير الممكن أبدا أن تكون المعرفة يقينية، بل هي محض احتمال. وهكذا فإن البرهان لا يصح بصحة القياس المنطقي، كما هو الحال في نسق بوثيوس، ولكن من خلال تراكم شواهد محددة. وبالتالي، فحتى إذا وصف أجريكولا هذه العملية بالديالكتيك، فإنه يكون قد غيّر معنى المصطلح وأعاد تعريفه بوصفه عملية خطابية ذات ابتكار موضوعي.

لقد ظن بيتر راموس Peter Ramus، وهو أستاذ فرنسي من القرن السادس عشر، أنه يقوم بتطوير حجة أجريكولا، ولكنه قام مرة أخرى بتغيير العلاقة بين البلاغة والجدل. كان راموس يعتبر نفسه مصلحا تربويا تتمثل

مهمته في فرض النظام على برامج دراسية فوضوية وغير منظمة. واعتقد أن شيشرون وكينتيليان (٣٥ – ١٠٠) قاما بتوسيع نطاق البلاغة ليتعدى تلك الصياغة المقبولة لأرسطو، وأن من الضروري إعادة تأسيس العلاقة بين المنطق والبلاغة. وحتى يقوم بتفعيل عملية إعادة التنظيم هذه، نقل راموس الابتكار من حقل البلاغة وألحقه بالديالكتيك. وجعل اهتمام البلاغة منصبا على تزيين الأسلوب وطريقة الأداء. بينما يتحدد محتوى الكلام بالمنطق. ومن خلال الديالكتيك يمكن للمرء أن يكتشف الحقائق التي كانت سائدة، وبالتالي يكون الحكم مدعوما من العقل. ويمكن أن يكون لهذا الفن المعدل تبعات مهمة في الوصول بالعقل إلى فهم الخالق الذي وضع كل هذه الحقائق الشاملة. وكان هذا هو الجانب الذي جذب الخطباء البيوريتانيين Puritan إلى فكر راموس. [انظر Homiletics و Renaissance rhetoric ومقال عن **Rhetoric in the Age of Reformation and Counter - Reformation**].

كان انحصار البلاغة في دراسة الاستعارة والمجاز سببًا في اضمحلالها في نهاية المطاف. فقد اعتبر العلم الوضعي التطوري ونقاد عصر التنوير أن البلاغة وسيلة لتضليل المتلقي من خلال ما تحمله الألاعيب اللغوية من خداع مطلق، حسب وصف كانط، يؤدي إلى التعمية على الحقائق بهدف استعباد الجمهور (*Critique of Judgment*، القسم ٥٣).

لم يقف كانط عند رأي واحد بصدد الديالكتيك. فهو من ناحية قد قام بدراسة نوع منها يرتدي زيفا رداء المنطق، ويمكن أن يجلب الحقائق التي كانت مستقلة عن التجربة وتستند فقط على عمل العقل، ومن ناحية أخرى كان يستخدم المنطق الجدلي لعرض تناقضات العقل. وقد عمد هيجل، الفيلسوف الألماني من القرن التاسع عشر (١٧٧٠ – ١٨٣١)، إلى تكييف هذا المعنى الأخير للديالكتيك ليزعم أن التاريخ قد جسد حركة العقل من

خلال القضاء على هذه التناقضات. وبدوره قام كارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣) بتطبيق منطق الديالكتيك ليس على التناقضات داخل الأفكار ولكن على التناقضات داخل البنى الاجتماعية التي تتجسد في نضال الطبقات. فالديالكتيك بالتالي لم يعد يعمل كمصدر لاكتشاف الفجوات الواردة في حجة ما أو كأساس للابتكار أو لترسيم نموذج استنتاجي، وإنما انفصل عن التقاليد البلاغية البالية ليصبح وسيلة لتحديد التناقضات داخل النظام الاجتماعي. وفي القرن العشرين قام كينيث بيرك Kenneth Burke (١٨٩٧ – ١٩٩٣)، وهو شخصية محورية في إعادة النهوض بعلم البلاغة في الولايات المتحدة، بالتوحيد بين الخطاب البلاغي والديالكتيك مرة أخرى، على أساس أن البلاغة حددت موقع تنافس الأفعال الرمزية بينما حدد الديالكتيك تجاوز تلك المنافسة باكتشاف مصطلح أعم يمكنه أن يجسد ويوفق بين المواقف المتعارضة. [انظر Modern rhetoric].

وبوصفه مصطلحا متأصلا في ذلك السجال بين البلاغة والفلسفة، فإن *الديالكتيك* حلبة صراع قائمة دوما، ويعد استخدام أحد المنظرين له مؤشرًا جيدًا ينم عن الكيفية التي يرى بها هذا المفكر كلاً من الابتكار والاستدلال. [انظر Philosophy ومقال عن **Perennial topics and terms**]. ومع تغير معناه عبر تاريخ البلاغة، فقد استخدم الديالكتيك في الهجوم على البلاغة وتقييدها وتسويغ البرهان الاحتمالي الذي هو صلب الخطاب البلاغي. ولكن الاعتراف بعدم استقرار مصطلح "ديالكتيك" يمثل في حد ذاته تفكيرا بلاغيا وتأكيدا بأن معناه غير محدد وأن اكتسابه لقيمة ما مرهون فقط بالكيفية التي يستخدم بها.

المراجع

Aristotle. *On Rhetoric: A Theory of Civic Discourse*. Translated with Introduction, notes, and appendixes by George A. Kennedy. New York, 1991. First published 330 bce.

يتضمن قائمة من المراجع المهمة.

Boethius. *De topicis differentiis*. Translated, with notes and essays on the text by Eleonore Stump. Ithaca, N.Y., 1978.

Cicero, Marcus Tullius. *On the Making of an Orator*. Translated by E. W. Sutton and H. Rackham. 2 vols. Cambridge, Mass., 1942. First published c.55 bce. English translation of *De oratore*.

Conley, Thomas M. *Rhetoric in the European Tradition*. New York, 1990.

مجلد واحد متميز حول تاريخ البلاغة.

Cogan, Marc. "Rodolphus Agricola and the Semantic Revolutions of the History of Invention." *Rhetorica 2* (1984), pp.pp. 163–194. An

مقال لا غنى عنه لفهم إسهامات أجريكولا في مناقشة البلاغة والديالكتيك.

Duhamel, Pierre Albert. "The Logic and Rhetoric of Peter Ramus." *Modern philology* 46 (1949), pp.pp. 163–171.

Green, Lawrence D. "Aristotelian Rhetoric, Dialectic, and the Traditions of *Antistrophos*." *Rhetorica* 8 (1990), pp.pp. 5–27.

عرض تاريخي متميز للمناقشات التي دارت حول علاقة البلاغة بالديالكتيك عند أرسطو.

Isocrates. *Isocrates*, vol. 2, *Antidosis*. Translated by George Norlin, pp.pp. 181–365. Cambridge, Mass, 1929. First published c.354–353 bce.

Kennedy, George. *The Art of Persuasion in Greece*. Princeton, 1963. Leff, Michael C. "Boethius and the History of Medieval Rhetoric." *Central States Speech Journal* 25 (1974), pp.pp. 135–141.

مقدمة متميزة حول إسهامات بوثيوس في تاريخ البلاغة.

Ong, Walter J., S.J. *Ramus: Method and Decay of Dialogue*. Cambridge, Mass, 1958.

يقدم الخلفيات الرئيسة اللازمة لإعادة تقييم دور راموس ومكانته في تاريخ البلاغة.

Plato. *Gorgias*. Translated by Donald J. Zeyl. In *Plato: Complete Works*. Edited, with an introduction and notes. by John M. Cooper; Associate Editor, D. S. Hutchinson, pp.pp. 791–869. Indianapolis, 1997.

Plato. *Meno*. Translated by G. M. A. Grube. pp.pp. 870–897. In *Plato: Complete Works*. Indianapolis, 1997.

Plato. *Phaedrus*. Translated by Alexander Nehamas and Paul Woodruff, pp.pp. 506–556. In *Plato: Complete Works*. Indianapolis, 1997.

Ramus, Peter. *Arguments in Rhetoric against Quintilian*. Introduction by James J. Murphy; translation by Carole Newlands. Dekalb, Ill., 1986; translation of *Rhetoricae Distinctiones Quintilianum*, first published in 1549.

Ryle, Gilbert. *Plato's Progress*. Cambridge, U.K., 1966.

تحليل متميز للأفلاطونية والجدل السوفسطائي ومصادرهما في الفلسفات السابقة على سقراط.

تأليف: James L. Kastely

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الاستطراد Digression

(*parekbasis*، *egressio*، *egressus* باليونانية واللاتينية). إضافة نصية تعرّف بكونها إدراجًا لجزء مستقل ومطوّل داخلٍ نص تكون على ارتباط به، وإن تفاوتت درجة هذا الارتباط. وقد أورده كل من شيشرون (*De oratore*, 55 bce, 3.53.203) وكينتيليان (Institutio oratoria, first century ce 4.3.12) ضمن فنون البلاغة. وقد أوصى كينتيليان باستخدام هذه الأداة بغرض الإقناع وذلك في المناسبات التالية: مديح الأشخاص والأماكن (*laus hominum locorumque*)، وصف المناطق (*descriptio regionum*)، تسجيل وقائع تاريخية معينة، حتى ولو كانت ذات طابع أسطوري (*expositio quarundam rerum gestarum, licet etiam fabulosarum*). وكانت الوظيفة الرئيسة للاستطراد لدى علماء بلاغة عصر النهضة (كما في كتاب *النسخة* *De copia* لإراسموس Erasmus، ١٥١٢) هي الإسهاب في الخطاب [انظر **Amplification**].

ويمكن للاستطراد أن يكون جزءًا لا يتجزأ من مكونات الرواية السردية، والتي تفقد بالتالي وحدتها البنيوية لصالح حبكات فرعية وتعليقات من المؤلف، وهلم جرا. وفي مطلع القرن السادس عشر ظهرت عدة قوى معارضة لهيمنة الاستطراد [انظر Copia]. وطالب ممثلو الحركة الكلاسيكية بالحد من هذه التجاوزات في الأدب والعودة إلى مثال أرسطو "الواحد والكل" (*hen kai holon*). وطالب توماس سبارت Thomas Spart في كتابه "تاريخ المجتمع الملكي" *History of the Royal Society* (١٦٦٧) باتخاذ "قرار ثابت، يرفض كل تطويل واستطراد وترهل في الأسلوب". أما جوناثان سويفت، الذي استخدم بإفراط هذا الأسلوب الاستطرادي، فقد سخر منه في مقال بعنوان "استطراد في مديح الاستطراد" A digression in praise of digressions حول روايته *قصة مغطس* *A Tale of a Tub* (١٧٠٤). [انظر **Figures of speech**].

المراجع

Härter, Andreas. *Digressionen: Studien über das Verhältnis von Ordnung und Abweichung in Rhetorik und Poetik*. Munich, 2000.

وهو بمثابة دراسة عن نظرية الاستطراد في البلاغة الكلاسيكية والنظرية الشعرية الألمانية من عصر النهضة مرورا بالنزعة الرومانسية.

تأليف: Heinrich F. Plett

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

كلمات مختلفة Dissoi logoi.

انظر **Ambiguity**؛ **Judgment**؛ **Logos**؛ **Occasion**؛ **Persuasion**؛ **Thesis and antithesis**.

دراما Drama.

انظر **Law**؛ **Pathos**؛ **Poetry**.

تربية Education.

انظر **Classical rhetoric**؛ **Composition**، **History of English departments in the United States**؛ **Humanism**؛ **Imitation**؛ **Poetry**؛ **Renaissance rhetoric**؛ **Speech**.

بلاغة القرن الثامن عشر Eighteenth - century rhetoric

بدأت بلاغة القرن الثامن عشر بنظريات كلاسيكية جديدة في الأسلوب، كانت قد ترسخت في القرون السابقة، وانتهت إلى إعادة تعريف التراث الكلاسيكي كله تبعا لما عرف بـــ"علم الطبيعة البشرية". كان بيتر راموس- المصلح البروتستانتي في القرن السادس عشر- قد عرَّف المنطق بأنه فن الجدال وكذلك البرهان، رابطا البلاغة إلى حد كبير بالأسلوب. وجاء القرن السابع عشر ليعيد تكرار نفس المعنى المتسع للبلاغة من خلال المفكرين الكلاسيكيين الجُدد من قبيل جيراردوس يوهانيس فوسيوس Gerardus Johannes Vossius. وظلت البلاغة الأسلوبية والبلاغة الكلاسيكية الجديدة حاضرة في القرن الثامن عشر، غير أن الدراسات توسعت لتركز على الأدب المعاصر والاهتمامات السيكولوجية. وقد نشرت أهم الأعمال في البلاغة في العقود التي شهدت ولادة الإمبراطوريات العالمية وتحدي النظم التقليدية بالتغيرات الاجتماعية الثورية، مما خلق مواقف بلاغية تتناسب وهذه اللحظات التاريخية. على أن أهم منظري البلاغة في عصر التنوير ظلوا متحفظين تجاه الخطب والمنشورات التي تثير العواطف في عصورهم، متحولين بدلاً من ذلك إلى فلاسفة التعليم الجديد. وبتأثير من نيوتن وديكارت وبيكون ولوك، أُعيد توجيه البلاغة نحو دراسة منطق الخبرات الفردية ومبادئ الإنجليزية السليمة والتحكم في الذات.

ومع أن كتاب ديكارت *مقال عن المنهج* *Discourse de la méthode* (١٦٣٧) قد استبعد البلاغة من بين الفنون، لاهتمامها بالاحتمالات الخالصة

وليس اليقين البديهي الأساسي للمعرفة الحقة، فإن دعاة التنوير البريطانيين اقتنعوا بأمر مفاده أنه إذا كان المنطق يفصح عن العقل فإن البلاغة ضرورة لاستثارة إرادة الفعل. وكما اقترح بيكون في كتابه *تقدم المعرفة* *Advancement of Learning* (١٦٠٥)، فإن نموذج الملكات الفكرية هذا قد رسخ الإطار العام لمرجعية جهود تعريف البلاغة وفقا لأساليب الوعي الفردي. فقد رفض بيكون تمييزات راموس الصارمة بين المنطق والبلاغة من خلال تحديد المنطق بوصفه فن البحث المكتسب بالتعلم وتحديد البلاغة بوصفها فن ابتكار المواد المطلوبة للتوجيه والحجاج. وبتحديده لأنواع المعرفة من خلال الملكات التي يعالجها كل نوع، ربط بيكون الفلسفة بالعقل والشعر بالخيال والتاريخ بالذاكرة والبلاغة بالإرادة. ومثله مثل من جاءوا بعده – كجون لوك – كان بيكون أحد الخطباء السياسيين في عصره، وقادته الخبرة العملية إلى إدراك أن البلاغة جزء لا غنى عنه في الحياة المدنية. وعلى الرغم من أن مقال لوك *حول الفهم البشري* *Essay Concerning Human Understanding* (١٦٩٠) قد انتقد البلاغة لكونها تعتمد على الألاعيب اللغوية بغرض الترويج للانقسام وتعزيز الخلاف، فإن لوك عاد ليلقي محاضرة حول البلاغة في أكسفورد عام ١٦٦٣، متجاوبا في ذلك مع الاهتمام الشعبي بقدرات الإقناع والتي تغلبت كثيرا على التحفظات الفلسفية تجاه البلاغة في فترات الحراك السياسي. [انظر المقال حول **Renaissance rhetoric**].

لقد كان القرن الثامن عشر واحدًا من تلك الفترات، وكان مقال لوك مصدرا مهمًا بالنسبة لمنظري البلاغة. إن إعادة تعريف البلاغة والمنطق تبعا لمناهج وقيم العلوم الحديثة محور أساس لكل تقييم شامل لتلك الفترة، ومن أهم تلك التقييمات كتاب و. س. هويل S. Howell *المنطق والبلاغة البريطانية في القرن الثامن عشر* *Eighteenth - Century British Logic and*

Rhetoric (برنستون، ١٩٧١). لقد عمد هويل إلى مراجعة شاملة للعديد من الأعمال البريطانية والأوروبية؛ ومن ثم تحديد كل عمل على أساس مدى تجاوزه وتقدمه على قواعد المنطق لدى أرسطو وقواعد البلاغة لدى شيشرون. ويرى هويل أن الأرسطيين في القرن السابع عشر قد نظروا إلى المنطق الاستدلالي للحجاج القياسي كنموذج إرشادي لكلٍ من البحث والتواصل. حيث افترض المنطق "القديم" أن التفكير في موضوعات من قبيل التعريف والتصنيف والمقارنة هو السبيل الأنسب لفحص ما إذا كانت مواضع الخلاف متسقة مع ما هو راسخ من معتقدات أم لا، وبالتالي ما إذا كانت صحيحة أم لا. [انظر الديالكتيك]. أما المنطق "الجديد" فقد ميز الملاحظة والتواصل. وصارت التعميمات الاستدلالية من التجارب نموذج البحث العلمي، والتي منها يتم التوصل إلى الحقائق العامة عبر وقائع تمت ملاحظتها. وفي موازة الاتجاهات المنطقية السائدة ركزت الاتجاهات الجديدة في البلاغة الكلاسيكية على فن الحديث في المنتديات والمحافل التشاورية. وقد استخدم هذا الفن أنماطا "فنية" للبرهان، ومنها الموضوعات التي تبتكر البرهان من معتقدات تم تلقيها ومن ثم تطويرها في قياسات إضمارية أو قياسات منطقية مختصرة تم التوصل إليها في صورة خطب ذات بِنَى مجازية بصورة مفرطة ومحكمة بشكل متقن ومكونة من ستة أجزاء أساسية (المقدمة، والسرد، والتقسيم، والإثبات، والدحض، والخاتمة المنمقة). [انظر **Arrangement**، ومقال عن **Traditional arrangement**؛ و**Enthymeme**]. وقد قامت البلاغة الجديدة بالتوسع في هذه الدراسة لتتجاوز مسألة الإقناع الجماهيري إلى الخطاب الأدبي المعرفي. وقد كان للحقائق التي أحرزها هذا التوجه أولوية على البراهين الفنية المستمدة من احتمالات الحس المشترك، وقد أعيد تعريف الخطاب هنا وفقا للمنطق الاستقرائي والبنية الواضحة والأسلوب العلمي الصارم.

وهناك تقييمات أخرى- ومنها المقال المهم لهورنر وبارتون Horner and Barton (١٩٩٠)- قامت باستعراض فن البلاغة في القرن الثامن عشر على أساس تصنيفات ذات قيم متعددة. فقد صُنفت نظريات البلاغة لتلك الفترة في فئات عدة متداخلة: فهناك الأعمال الأسلوبية الكلاسيكية الجديدة التي قامت على أساس من التقاليد الراسخة، وهناك الأعمال الخطابية التي تجاوبت مع المطامح الجماهيرية، والخطب الجمالية، والخطب الإبستمولوجية التي أعادت تعريف الفرضيات الكلاسيكية تبعا للملكات الفكرية التابعة لها. وكانت تلك التصنيفات مقدمة لتفاعل بلاغة القرن الثامن عشر ديناميكيا مع المنطق والحديث والتأليف والمفاهيم الحديثة في الأدب وعلم النفس. ولكن التركيز الابستمولوجي على البلاغة "الجديدة" كان ميالا إلى أن يطغى على العلاقات المدنية للبلاغة والفلسفة الأخلاقية التي ظلت محتفظة بأهميتها في القرن الثامن عشر. ومن خلال المنظور المدني تصبح البلاغة مهتمة بالكيفية التي يترجم بها المواطن ما يتلقاه من معتقدات إلى أفعال عملية تلبي احتياجاته. وتكمن فائدة هذا المنظور في كونه نقطة مرجعية مناسبة عندما ننتقل من فحص نظريات تلك الفترة لنربطها بالممارسة البلاغية، ليس فقط من حيث تأثيرها على ممارسي البلاغة، ولكن كذلك من حيث الكيفية التي كان يتم بها صياغة الخطب وإلقاؤها بطرق تحدد الاشتراطات المنطقية للحداثة.

البلاغة الأسلوبية والبلاغة الكلاسيكية الجديدة

القاسم المشترك بين النوعين إخلاصهما لمبادئ شيشرون، على الرغم من الاختلاف في فهم تلك المبادئ. فهناك قائمة مطولة من الأعمال التي تحدثت عن البلاغة الأسلوبية من قبيل *نظام البلاغة* *System of Rhetoric* (١٧٣٣) لجون ستيرلينج J. Stirling، وكتاب *البلاغة أو نظرة على أشكالها*

المجازية الرئيسة *Rhetoric; or, a View of Its Principal Tropes Figures*، الصادر عام (١٧٦٧) لتوماس جيبون Thomas Gibbons، *ومقدمة في الأعمال الكلاسيكية* *Introduction to the Classics* (١٧١٨) لأنتوني بلاكوول Anthony Blackwall. بشكل عام لم تقم البلاغة الأسلوبية بتناول العملية الفعلية لتأليف الخطاب، بل ركزت اهتمامها على التنقيحات الأسلوبية، وأهملت الرؤية المدنية التي حققت لمبادئ شيشرون البلاغية الغرض منها. ولكن هذا الأمر لا ينطبق على كل الأعمال البلاغية الأسلوبية، فمن هذه ما ركز على التوجهات المعاصرة. فقد اعتمد سيزار شسنو دومارساي César - Chesneau DuMarsais على تلاميذ ديكارت في تصنيف الاستعارة والمجاز تبعا لمبادئ التداعي الفكري وذلك في كتابه *المجازات* *Des Tropes* (١٧٣٠). كما انخرط بلاغيو الكلاسيكية الجديدة الفرنسيين في الافتراضات والأذواق المعاصرة في مقابل دعاة القديم من البريطانيين. حيث استخدم دومينيك بونور Dominique Bonhours في *كيف يمكن التفكير جيدا في أعمال العقل* *De la manière de bien penser dans les ouvrages de l'esprit* (١٦٨٧) وكلود بوفي في *مقالة في البيان* *Traité de l'éloquence* (١٧٢٨) المبادئ الكلاسيكية كأهداف عملية في التأليف وقدما نماذج للأدب الحديث مع نماذج المحاكاة الكلاسيكية. وصدر من عمل بونور عشرين طبعة حتى العام ١٨٠٠، في حين كان بوفي رائدًا مبكرًا لفلسفة الحس المشترك والتي أثرت في البلاغة الإبستمولوجية – تلك التي سنناقشها لاحقا. [انظر **Style**].

ومن بين الأعمال البريطانية التي روجت بصورة أكبر للبلاغة الكلاسيكية: عمل جون وارد John Ward *نظام الخطابة* System of Oratory (١٧٥٩)، وكتاب قواعد اللغة المدرسي لجون هولمز John Holmes المسمى بـفن *صناعة المقال البليغ* The Art of Rhetoric Made Essay (١٧٥٥)،

وكتاب جون لاوسون المهم *دروس متعلقة بالخطابة* Lectures Concerning Oratory (١٧٥٨). حيث يقع عمل وارد في ثمانمائة صفحة تقدم مسحا كاملا للنظريات الكلاسيكية حول الخطاب التشاوري والجدلي والاحتفالي، وكذلك الإستراتيجيات العملية لابتكار الحجة وترتيبها وتقديمها؛ والعوامل المساعدة على حفظها؛ كما قدم نصائح مستفيضة حول الأسلوب. [انظر **Deliberative genre**؛ **Epideictic genre**؛ و**Forensic genre**]. إن نص هولمز عبارة عن تلخيص لبلاغة شيشرون وكتاب لونجينوس *عن الجليل* *On the Sublime* (القرن الأول)، وقد نظمه في مقاطع شعرية بحيث يمكن حفظه بسهولة. [انظر **Sublime, the**]. أما كتاب لاوسون فهو أول مجموعة محاضرات في البلاغة والآداب يتم نشرها مطبوعة. ولأنه كان أستاذاً للخطابة والتاريخ في كلية ترينيتي في دبلن (١٧٥٣ – ١٧٥٩)، فقد استعرض لاوسون النظريات الكلاسيكية، ولكنه قام أيضا بتدريس فن الكتابة الإنجليزية والأدب الإنجليزي وعلق عليهما، في حين يدين رد الفعل الشعبي الغاضب تجاه الدراسات الحديثة. ويرجع هذا التناقض إلى حقيقة أنه قام بتدريس ذلك في معقل الثقافة الأيرلندية الأنجليكانية التي التزمت بالتقاليد التعليمية الإنجليزية. ومثلها مثل أكسفورد وكامبريدج، فقد كانت ترينيتي موصدة الأبواب في وجه الكاثوليك والمنشقين، وقد سيطرت الكلاسيكيات على المناهج. وعلى الرغم من أن طلابها أيرلنديون، لكنهم كانوا يريدون التحدث بطلاقة الإنجليز ولباقتهم. وفي حين تطرق نص لاوسون إلى الاهتمامات المعاصرة، مثل فن الخطابة الإنجليزي، فإن الكتاب لا يتناول الأذواق والاهتمامات الشعبية بصورة مباشرة كالتي كانت عليها الكتب المدرسية التي جاءت من دورات اللغة الإنجليزية الأولى في أسكتلندا، ومثل كتاب وارد، لم يعاد طبع محاضرات لاوسون ثانيةً في القرن الثامن عشر.

وعلى الرغم من أن وجهة نظر جيامباتيستا فيكو Giambattista Vico (١٦٨٨ - ١٧٤٤) الكلاسيكية الجديدة تجاه البلاغة لم تكن ذا تأثير يفوق بقية وجهات النظر التي ظهرت في بريطانيا، فإنه يُنظر إليه اليوم على أنه أكثر كتاب القرن الثامن عشر دراسة على نطاق واسع بين المهتمين بفن الخطابة. فأثناء عمله أستاذاً للبلاغة في جامعة نابولي (١٦٩٩ - ١٧٤١)، قام فيكو بنشر العديد من الأعمال التي ردت على الازدراء الديكارتي للاحتمالات الخالصة. ففي العلم الجديد (ساينتستا نوفا) (1725)، وكتابات أخرى، رفض فيكو ادعاء المنطق الجديد بأنه منهج الطبيعة، وكرر المعنى الكلاسيكي لمصطلح *لوجوس* logos بوصفه خلق المعنى في اللغة. [انظر Logos]. وانطلاقا من فرضية أن البشر لا يمكن أن يفهموا إلا ما حققوه سويا في الحياة المدنية على مر الزمن، يذهب فيكو بأن دراسة تاريخ اللغة والثقافة والمؤسسات المدنية وحدها هي التي تمكن المرء من أن يفهم الطبيعة البشرية، والأهم فهم طبيعة الخالق. ومن خلال تقديمه لما هو سائد من فنون الاستعارة باعتبارها تجسيدًا للخيال المدني عبر عصور مختلفة، وضع فيكو تاريخا تفصيليا للتطور المتعاقب للغات والمؤسسات الاجتماعية والثقافية ولأساليب الفهم، منتقلا من العصر الشعري حيث عاش الناس كما البهائم ووضعوا تصوراتهم للآلهة، ومرورا بالعصر البطولي عندما أقام المجتمع سيادة القانون، ووصولا إلى المجتمع المدني وقيمته وما يواجهه من تهديد من قبل مطامح فردية. ولقلة عدد من قرأ له في عصره، ظل فيكو مجهولا حتى أضفت الأنثروبولوجيا الثقافية دلالة جديدة لعمله وعادت الصور المجازية لتكون خاصية من خصائص الخطابة، بدلا من كونها انحرافاً عن طابعها المرجعي. ولقد لاقى نقد فيكو لديكارت الرفض في عصره واعتُبر رد فعل مناهض للتقدم المعرفي، وعزز أسلوبه الاستطرادي غير الممنهج، حقيقة أنه كان يكتب لجمهور عفا عليه الزمن.

البلاغات الخطابية

تتوجه البلاغات الخطابية وكذلك البلاغات الأدبية نحو المطامح العملية لجمهور القراء وذلك بصورة مباشرة. وللمفارقة فإن كليهما اعتمد على مصادر فرنسية بغرض تعزيز الاهتمام بالإنجليزية. ولقد أرسى المزاج الفرنسي المعايير والأسس العالمية عبر أرجاء أوروبا، وكانت اللغة الفرنسية أول لغة تنافس اللاتينية على مكانتها كلغة للثقافة العالمية حينئذ. وحسبما ذكر كونلي Conley (١٩٩٠)، فقد أسهمت التأثيرات الفرنسية كذلك في أعمال كان لها أثرها في تقدم الكتابة والدراسات الأدبية في ألمانيا وإسبانيا، وأهمها كتابي يوهان كريشتوف *الخطاب الكامل* *Ausführliche Redekunst* (١٧٣٦) وجريجوري مايانتسي Gregorio Mayáns *البلاغة* *Rhetorica* (١٧٥٧). بدأ الاهتمام البريطاني بالبلاغة مع اطلاعهم على مقدمة كتاب فوشو Faucheur *أطروحة في الفعل الخطابي* *Traitté de l'action de l'orateur* (١٦٥٧)، والذي ظهر في ثلاث ترجمات منفصلة، كما اعتبر أصلا لعمل بريطاني رابع عن الخطابة في منتصف القرن الثامن عشر. وقد نظر فوشو للأدب الجميل Belles lettres بوصفه وسطا بين معنى كلاسيكي للفنون الحرة والمفهوم الحديث للأدب، وقد اكتسب أهمية في بريطانيا بعد ترجمة كتاب تشارلز رولين Charles Rollin *كيفية تدريس ودراسة الأدب الجميل* *De la maniére d'enseigner et d'étudier les belles lettres* (١٧٢٦ – ١٧٢٨). وقد وصل عدد طبعات كُتب رولين المدرسية للمعلمين إلى ٢٧ طبعة، بما في ذلك ١٠ طبعات في اللغة الإنجليزية، بعد ظهور الطبعة الأولى في العام ١٧٣٤. وقد جمع رولين بين كونه مناصرا لشيشرون وكونه مصلحًا تربويًا. وقد أدرج الأدب الحديث جنبا إلى جنب مع النصوص الكلاسيكية لأنه رأى أن الغرض من الدراسات البلاغية إكساب الطلاب مهارات الكلام والكتابة بطريقة

واضحة ومباشرة، سواء أكان هذا من فوق منصة أم من داخل الحانة. ولتحقيق هذا الغرض، نشر ترجمة مختصرة من كتاب كينتيليان *تكوين الخطابة* *Institutio oratoria* في عام ١٧١٥. وفي حين ساعد على تبسيط النصوص التقليدية بلغة مفهومة للعامة، فإن رولين ومعاصريه شعروا بالقلق حيال انتشار الدراسات الدارجة وسهولتها حتى إن من شأنها أن تقوض احترام القدماء الذي ترسخ من خلال دراسات اللغات الكلاسيكية.

وما زانها العقد الذي فوق نحرها ولكم لها نحر يزين بالعقد

لقد انتشرت الدراسات الإنجليزية مع تأسيس علم الخطابة، بنظرياته ومناهجه وطرقه. وقد اشتق مصطلح elocution من كلمة elocutio اللاتينية (الأسلوب)، وكما هو الحال في البلاغة الأسلوبية، فقد مالت كتابات هذا العلم إلى الفصل بين الشكل والمضمون. ومن أكثر تلك الكتابات تأثيرا كتاب جون ماسون "مقالات في الخطابة" *Essay on Elocution* (١٧٤٨) وكتاب جيمس بورج *فن الكلام* *The Art of Speaking* (١٧٦١)، وكتاب توماس شيريدان *محاضرات في الخطابة* *Lectures on Elocution* (١٧٦٢)، وجون رايس *مقدمة في فن القراءة* *An Introduction to the Art of Reading* (١٧٦٥)، وجوشوا ستيل مقال *لتأسيس النغم والوزن للكلام من خلال الرموز الخاصة كيما يكون معبرا ومؤثرا* *An Essay towards Establishing the Melody and Measure of Speech to be Expressed and Perpetuated by Peculiar Symbols* (١٧٧٥)، ووليام كوكين *فن إلقاء اللغة المكتوبة* *The Art of Delivering Written Language* (١٧٧٥)، وجون ووكر وكتابه *أسس البيان* *Elements of Elocution* (١٧٨١). حيث تقدم تلك الأعمال توجيهات حول كيفية إيصال العواطف من خلال نبرات الصوت المناسبة وتعبيرات الوجه وإيماءات الجسد. وتعلم الطلاب إلقاء النصوص، ومنها ما ورد في كتاب ويليام إنفيلد

المتكلم *The Speaker* (١٧٧٤) ونواه ويبستر *مختارات أمريكي من دروس في القراءة والكتابة* *An American Selection of Lessons in Reading and Speaking* (١٧٨٥)، وماري وولستون كرافت *القارئ الأنثوي* *The Female Reader* (والذي نشر عام ١٧٨٩ تحت اسم مستعار: "السيد. كريسويك، معلم الخطابة"). وقد كان لتلك الكتابات قاعدة عريضة من القراء: حيث صدرت أربعين طبعة من كتاب ويبستر، وما يفوق الستين طبعة من كتاب إنفيلد. وقد ساعدت كتب تعليم الإلقاء على انتشار الذوق المثقف بين القراء من خلال تلقي الجماعات المهمشة في المجتمع والمرأة دروسا في كيفية القراءة والتحدث برباطة جأش ولياقة.

تعد حركة الخطابة هذه أوضح مثال على أن الشعبية التي تمتعت بها البلاغة ارتبطت بانتشار القراءة والكتابة والمعارف المكتسبة. وبينما احتج بعض علماء الخطابة الأوائل، من أمثال توماس شيريدان Thomas Sheridan، على سلطة التقاليد الكلاسيكية، فإنهم أدانوا اتهام اللغات الكلاسيكية بكونها تحول دون انتشار المعرفة وارتقاء أفراد من طبقات أخرى كانوا هم أنفسهم ينتمون إليها. كما انتقد شيريدان لوك وفلاسفة آخرين بسبب التركيز على تقديم الأفكار عن طريق الكتابة وتجاهل الكلام- على الرغم من أن مهمة اللغة الطبيعية التعبير عن الوجدان. فيمكن اعتبار حركة الخطابة تمجيدًا للشفاهة في عصر الطباعة، حيث صارت المطبوعة سمة من سمات الحياة العامة. ومع أنهم قدموا الكلام بوصفه الطور الطبيعي لتبادل الأحاسيس، فإنهم اهتموا أكثر بإلقاء ما يقرأونه مقارنة بالنقاش أو صياغة الخطب. وكما تشير عناوين النصوص التي ذكرناها أعلاه، فلقد ساوى مؤلفوها بين الكلام العام والقراءة أمام الجمهور، وقاموا بشكل منهجي بتدوين الكلام مع دلالاته في نصوص مكتوبة. وقد كانوا، ومنهم شيريدان الذي نادى بأسلوب "طبيعي"

للإلقاء، على طرفي نقيض مع من قدموا تأويلات "آلية" للوجدانيات، على أن أغلبهم زعموا أنهم يُعلمون الطلبة كيفية التحدث بصورة طبيعية، بينما هم يعيدون صياغة الكيفية التي يتحدثون بها بصورة طبيعية. وكانت ذروة هذه الحركة متمثلة في جلبرت أوستن Gilbert Austin وكتابه *أطروحة في الإلقاء البليغ* Chironomia أو *a Treatise on Rhetorical Delivery* (١٨٠٦). فقد قام من خلال بعض الصفحات المصورة بعرض طرق الوقوف الصحيحة للرجال والنساء أثناء حديثهم والأساليب التي يمكنهم بها التعبير عن مكنون وجدانهم، استطاع أوستن التعريف بلغة الجسد، بوصفها لغة الطبيعة في كتاب كان محل قراءة عن كثب من قبل كل من يسعى للتحدث بإنجليزية سليمة أو لكل من سعت في أن تظهر كامرأة مثقفة.

صارت الخطابة فرعًا راسخًا في الوقت ذاته الذي سعت فيه أعمال ضخمة في قواعد اللغة والمعاجم والأطروحات اللغوية لصياغة الذوق والثقافة واستخدام اللغة. حيث صدر ما يربو عن أربعمائة طبعة من قواعد اللغة وحوالي ٢١٥ طبعة من المعاجم الإنجليزية قبيل ١٧٥٠. أما فيما بعد العام ١٧٥٠، فقد وصل عدد ما صدر من معاجم وكتب في قواعد اللغة إلى خمسة أضعاف ما صدر طوال النصف الأول من ذلك القرن. وأدى انتشار الطباعة إلى اتساع قاعدة قراء الإنجليزية، ورسخ بالتالي نموذج اللغة الإنجليزية البليغة. وتضاعف عدد ما يصدر من كتب سنويًا مرات أربع خلال النصف الثاني من القرن. وتضاعفت مبيعات الصحف بمقدار ثلاث مرات في الفترة ما بين ١٧١١ و١٧٥٣، ثم عادت لتتضاعف من جديد لتصل إلى حوالي ١٤ مليون نسخة سنويا بحلول العام ١٧٨٠. وهكذا لم يعد اقتراح سويفت بتصحيح اللسان الإنجليزي وتطويره وتثبيته Proposal for Correcting, Improving, and Ascertaining the English Tongue (١٧١٢) مجرد

هواية لأدباء الكلاسيكيات الحديثة، بل أصبح مهنة فئة كاملة من النقاد وواضعي المعاجم والنحاة وأهل البلاغة وأساتذة اللغة. وفي حين ظلت مراكز تعليم اللغة الإنجليزية بعيدة عن أن تكون توجها شعبيا، فقد تأسس كرسي لتدريس الأدب الإنجليزي والكتابة والخطابة في كل من آيرلندا وأسكتلندا وأمريكا، وكذلك في الأكاديميات التي أسسها المنشقون في الوقت الذي ساد فيه المزاج الديني بين طلاب وأعضاء هيئة التدريس في جامعة أكسفورد وكامبريدج خلال عصر الإصلاح. [انظر Composition، ومقال عن History of English departments in the United States؛ و Speech].

البلاغة الأدبية

يتضح أثر هذه التوجهات في الاتجاه الجمالي الذي اتسمت به الأعمال البلاغية على نطاق واسع في تلك الفترة، ومنها عمل هيو بلير الشهير *محاضرات في البلاغة والآداب الجميلة* (١٧٨٩). وقد صدر منه ما يزيد عن ١١٠ طبعة، ما بين طبعة كاملة ومختصرة، ليغدو النص الأساسي في الحلقات الدراسية التي كانت أول من جعل من الإنجليزية موضوع للدراسة الرسمية في مرحلة التعليم العالي. وكان من الطبيعي أن ينال بلير رسميا كرسي الأستاذية الملكي في البلاغة والآداب الجميلة بجامعة إدنبره في ١٧٦٢. وعمل كل من هنري هوم ولورد كيمس، الذي نشر نصًا آخر مؤثرًا باعتباره نصًا أدبيًا ذو حرفية عالية، هو *أسس النقد* *The Elements of Criticism*، في العام نفسه الذي حصل فيه بلير على جائزة الأستاذية الملكية. وكان هيوم قد أقنع آدم سميث بأن يلقي سلسلة من المحاضرات العامة حول البلاغة والفنون الأدبية الجمالية في إدنبره في الفترة من ١٧٤٨ – ١٧٥١. وحينما نال سميث وخليفته– روبرت واطسون– كرسي الأستاذية في عدد من الجامعات الأسكتلندية، استمر بلير محاضرا في إدنبره عامي ١٧٥٩

و ١٧٦٠، ومن ثم محاضرا في الجامعة ذاتها إلى أن نال الأستاذية بشكل رسمي، وقد كان هذا لدوره القيادي في الجناح المعتدل بالكنيسة الأسكتلندية. وبدعم من نبلاء من أمثال اللورد كيمس Kames الذي نظر إلى هذا الصقل الثقافي بوصفه نوعًا من التقدم الاجتماعي، استطاع المعتدلون تقليص التقليد الكهنوتي لرجال الدين. وقد تعلم الطلاب من محاضرات بلير عن البلاغة والآداب الجمالية - بالإضافة للمحاضرات التي ألقاها سميث حول هذا الموضوع في جلاسكو وقتما كان أستاذًا للمنطق ومن بعدها للفلسفة الأخلاقية- محاكاة الذوق وطرق استخدام الألفاظ وأنماط السلوك السائدة في المجتمع الإنجليزي الراقي، وبالتالي اكتسبوا القدرة على أن ينأوا بأنفسهم عن تلك التقاليد الشفاهية والسياسات الانقسامية في مجتمعهم.

أما الهدف من تكريس هذا الذوق الأدبي فهو أن يكون نقطة محورية للانتقال من التركيز التقليدي على الخطاب المقنع إلى التركيز الحديث على التأويل النقدي. حيث تبدأ محاضرات بلير برثاء المعنى التقليدي للبلاغة والذي ربط بين *العقل* ratio *والخطابة* oratio على افتراض أن القدرة على التشاور من ضرورات المواطنة وأساسيات المجتمع المتحضر. ثم ينتقل بلير إلى توضيح مفاهيمه الأساسية: الذوق، العبقرية، والمشاعر السامية التي تجعل من كل هذا ممكنًا. وبعد ترسيم معالم التقدم من العبقرية البدائية إلى الذوق الراقي، ينتقل بلير إلى العمل على تكريس هذه المفاهيم عبر نقد القول بأن الأسلوب ينم عن الشخصية. فقد خصص ما بين خمس عشرة إلى خمس وعشرين محاضرة في الجزء الأول للتعليق على الخواص الدقيقة لبناء الجملة الإنجليزية. وقام بتحليل مقالاتٍ عن ذوق وآداب سلوك المتفرج بوصفها نماذج للأسلوب والشخصية المعتدلة، كما امتدح سويفت باعتباره نموذجًا قيمًا يمكن محاكاته. أما المجلد الثاني من محاضرات بلير فيبدأ

بالطرق الخطابية: فوق المنبر، داخل الحانات، ووسط التجمعات والمجالس، على الرغم من أن النصوص الحديثة الوحيدة التي تمت مناقشتها هنا هي الخطب التي تلقى في المحافل العامة. ثم يقوم بدراسة تفصيلية للأجزاء التقليدية في الخطابة الكلاسيكية وفن الالقاء، ووسائل التحسين البلاغي. أما في النصف الثاني من المجلد الثاني فيستفيض في دراسة الخطابة بأسلوب جمالي مميز فيتناول الأنواع التي تتراوح ما بين التاريخ والفلسفة وأنواع مختلفة من الشعر والدراما.

مثل غيره من أنصار البلاغة الجديدة، رفض بلير *فن الابتكار الكلاسيكي* inventio لأنه يفترض [أي بلير] أن كلام المرء ما هو إلا قدرة طبيعية لا يمكن اكتسابها. وفي حين يشيد هويل بهذا الاتجاه العام واتساقه مع منطق العلوم، فإن مثل هذه الافتراضات تتعامل مع أولئك الذين يواجهون مشكلات في اكتشاف الأفكار وتطويرها بكونهم ليسوا بلغاءً بطبعهم، بدلا من أن يكون ببساطة في حاجة إلى أن يكتسبوها. وعن طريق تحديد العملية الإبداعية بوصفها أمرًا يتعلق بالعبقرية الطبيعية والتركيز على الملكات الأسلوبية، فإن علم أصول التدريس الذي يؤسس له بلير هنا أدى إلى أن يشعر الطلاب بالغربة تجاه المصادر الإنتاجية للخطاب. فقد زودت البلاغة الكلاسيكية الطلاب بالاستدلالات (المواضيع، الأماكن) اللازمة لتبيان ما كان يقال عن مسألة ما، وتقييم موقف جدلي معين عن طريق تحديد ما إذا كان قد نجم عنه مسألة واقعية أو تعريف أو تقييم أو إجراء ما. وكان رفض القرن الثامن عشر لمثل هذه الموضوعات متسقا مع الاعتقاد الحديث بوجوب أن تتحدث الحقائق عن نفسها، ومن المفارقات أنه كان متسقا كذلك مع التعليقات الرومانسية الجمالية حول القوة السامية للعبقرية الفطرية. [انظر **Stasis**؛ و**Topics**]. ومع ذلك، فقد أدت مثل هذه المعتقدات إلى غموض عملية إنتاج

الخطاب بطريقة أنهكت طلبة الأقاليم الذين شكل أغلبهم جزءا كبيرا من الجمهور الأساسي لهذه البلاغة. وقد أدى هذا المزج الأدبي بين الصورة البدائية وآداب الذوق على إسكات الذين لا يمتلكون القدرة على التحدث بشكل صحيح، مع تراجع قيمة التراث الشفاهي وفقا للقيم الثقافية السائدة. والمثال الأكثر شهرة هنا هو أطروحة بلير *أطروحة نقدية عن أوسيان* *Critical Dissertation on Ossian* (١٧٦٣). فقد اكتسب بلير شهرة عالمية بسبب دفاعه الرومانسي عن الأصالة الثقافية للشاعر الريفي القديم أوسيان Ossian، على الرغم من أن ربيبه جيمس ماكفرسون هو من اختلق كل الكتابات والأشعار التي نسبت إليه. لم يكن بلير يعرف ثقافة أهل الجبال أو لغتهم، ولكن عندما بلغته الترجمة عام ١٧٥٩ لم يتوان عن الدفاع عنها بوصفها نموذجًا على القوة السامية للفطرة البدائية، وقد رسخت محاضراته حولها دعائم شهرته ككاتب معلق على الذوق الراقي.

مثله مثل المعلمين الأسكتلنديين الآخرين للغة الإنجليزية – كآدم سميث وجيمس بيتي– قام بلير بالتدريس للطلاب القرويين الذين كانوا يقفون على مسافة من مراكز السلطة السياسية، وقد حول التهميش السياسي إلى استفادة إيجابية من خلال تقديم نموذج "الرجل ذو الذوق" الذي يحافظ على مسافة نقدية من الخطاب الطائفي الانقسامي للسياسات الحزبية. وقد تمثل هذا المثل الأعلى فيما أسماه آدم سميث في كتابه *نظرية المشاعر الأخلاقية* *Theory of Moral Sentiments* (١٧٥٩) "المشاهد المحايد" impartial spectator، والذي يعتبر، إلى جانب كتابه الأشهر *ثروة الأمم* *The Wealth of Nations* (١٧٧٦)، عماد ما قام بتدريسه وهو يشغل منصب أستاذ الفلسفة الأخلاقية في جلاسكو في الفترة من ١٧٥١ – ١٧٦٣. كما واصل سميث محاضراته عن البلاغة والأدب الجميل والتي كان قد بدأها في إدنبره. (كان قد أوصى عند وفاته بأن

يتم إحراق الملاحظات التي دونها حول المحاضرات، ولم يتم العثور على نسخ من تلك الملاحظات إلا عام ١٩٥٨). وفي حين اعتبرت محاضرات سميث حول البلاغة والمحسنات الجمالية أصل البلاغة "الجديدة" والدراسات الإنجليزية على المستوى الجامعي، فقد بقى تأثيره المباشر على البلاغة من خلال محاضرات خليفته الأشهر، هيو بلير، والذي أقر بكونه قد اعتمد على ما قام به سلفه من استخدام النقد الأسلوبي بهدف ترسيخ الشخصية. ولقد كان لسميث– وبقية الفلاسفة الأخلاقيين الأسكتلنديين من أمثال فرنسيس هتشيسون وديفيد هيوم وتوماس ريد– تأثير على تطور البلاغة بصورة غير مباشرة من خلال التأسيس لفلسفة الطبيعة البشرية التي صاغت الفرضيات الموجهة للأعمال التي تناولت الخطابة من منطلق إبستمولوجي.

البلاغة الإبستمولوجية

لطالما اعتبر التحول نحو الإبستمولوجيا الابتكار الأكثر أهمية في بلاغة القرن الثامن عشر. وقد كان كتاب جورج كامبيل George Campbell *فلسفة البلاغة* *Philosophy of Rhetoric* (١٧٧٦) العمل الأشد تأثيرًا نحو إعادة تعريف البلاغة تبعًا لفكرة "علم الطبيعة البشرية"، ولا يضاهيه سوى كتاب جوزيف برستلي Joseph Priestley *سلسلة محاضرات في الخطابة والنقد* *A Course of Lectures on Oratory and Criticism* (١٧٧٧). وفي حين بدأ برستلي تدريس البلاغة بأكاديمية ديسنتنج في وارنجتون في العام ١٧٦٢، فإنه اشتهر بوصفه مكتشفًا لغاز الأكسجين، وكذلك بكونه أحد مناصري التيار الوحدوي، وعالم البلاغة الذي عارض الوحدة الدستورية البريطانية بين الكنيسة والدولة، ودافع عن حقوق المستعمرات الأمريكية. فقد كان كامبيل أستاذًا في أبردين وعلى ارتباط وثيق بفلاسفة الحس المشترك؛ توماس ريد وألكسندر جيرارد وجيمس بيتي. وقد وُصف كتابه بأنه "ربما كان المعالجة

الأصلية الأشمل للبلاغة منذ المرحلة الكلاسيكية"، وذلك في السفر المهم والقيم الذي حققه جيمس ل. جولدن James L. Golden وإدوارد ب. ج. كوربيت Edward P. J. Corbett بعنوان *بلاغة بلير وكامبيل وواتلي* *The Rhetoric of Blair, Campbell and Whately* (نيويورك، ١٩٦٨، ص ١٤٠). قام كامبيل بإعادة تعريف الاهتمام الكلاسيكي بالغايات بوصفها العنصر الموجه للخطاب، وقد قام بربط تلك الغايات بالملكات الذهنية الفردية. فحينما تكون الغاية هي "التنوير" يكون الخطاب موجهًا إلى العقل. وحينما يكون الهدف هو التسلية يخاطب الخيال، وعندما تكون الغاية هي التحفيز يخاطب العاطفة، أما حينما يكون الغرض هو الإقناع فإنه يخاطب الإرادة. واستنادًا إلى بيكون ولوك بالإضافة إلى هيوم وسميث وريد، فقد تصور كامبيل التواصل على أنه مرآة الإدراك الحسي وتداعي الانطباعات من خلال التشابه والتماس والسبب والمسبب، مع ضرورة الإرادة لتحفيز العقل على الفعل.

أعاد كامبيل وبصورة منهجية تأويل كل جزء من أجزاء ثلاثية (قواعد اللغة، المنطق، البلاغة) بأسلوب علمي. وتبعًا لهويل، فقد كان كامبيل المناصر الرئيس للمنطق الاستقرائي وكذلك البلاغة "الجديدة". وقد وجه نقده للقياس المنطقي لأنه ينصب على الأهواء اللغوية لا بدفع عجلة المعرفة في العالم، فقد قدم كامبيل الاستقراء كأسلوب تفكير طبيعي بدءًا من البحث التجريبي وحتى القوانين الطبيعية. وفي حين تظهر المقاربة الإبستمولوجية لبلاغة كامبيل كأهم جانب من جوانبها، فإن الفصول التي تتحدث عن كيفية تحقيق البلاغة لأهدافها المرجوة في مناسبات بعينها وتجاه جمهور بعينه تعد النصوص التي قطعت الصلة مع المبادئ الكلاسيكية. غير أنه من المؤسف أن تكون هذه النصوص هي الأقصر في كتاب *فلسفة البلاغة*. فمن خلال ممارسته لدور تجريبي تأملي، يبقى كامبيل في إطار نموذجه التجريدي للعقل المنعزل ولا يفحص الأمثلة المعاصرة للخطاب الحصيف والجدلي والديني.

ومع أن نظريات كامبيل في البلاغة والمنطق لاقت الاهتمام الأكبر، فقد كان له إسهام أشد تأثيرًا في دراسة قواعد اللغة. لم ينافس كامبيل سوى برستلي على ريادة دعاوى القرن الثامن عشر إلى تأسيس قواعد اللغة على توصيف منهجي لمعتقدات المثقفين. فقد رفض آراءً حول وجود قواعد لغوية شاملة وأعاد تعريف قواعد اللغة باعتبارها دراسة للاستخدام المعاصر والقومي والقيم للغة – وبكونها معايير تقويم التشاور الذي احتفظ بسلطويته حتى القرن العشرين. وقد خصّص معظم "فلسفة البلاغة" لموضوع "النقد اللفظي" والذي اهتم بوضع "قانون للغة" من خلال تعميم لمعتقدات جمهور القراء على المبادئ التي يمكن استعمالها لتكون اللغة وسيطًا ذو شفافية لتوصيل "حيوية" الانطباعات الحسية.

تتضح قيود المنظور الإبستمولوجي على البلاغة في الكيفية التي قام بها كامبيل وغيره بتعريف الحس المشترك تعريفا سيكولوجيا بكونه ملكة طبيعية لا مسألة سوسيولوجية تتعلق بالمعتقدات المشتركة لمجموعة أو عصر معين. ولكونه مؤسس على السلطة الطبيعية، فمن الممكن استحضار الحس المشترك للتعامل مع أي تحد للوضع الراهن. وقد لاقى كتاب كامبيل انتقادات لمساهمته في تأسيس واقعية الحس المشترك التي سادت علوم التربية في القرن التاسع عشر في أمريكا، وفي أوروبا أيضًا، كرد فعل ضد الثورة الفرنسية. وفي المقابل كان برستلي أول من انتقد الفلاسفة الأخلاقيين الأسكتلنديين بسبب رؤيتهم للحس المشترك بوصفه ملكة طبيعية. ولكونه معارضًا، لم يرغب في رؤية التقاليد المستقرة وقد اكتسبت سلطة طبيعية، ولكونه أحد التجريبيين الصارمين فقد رفض الوصول بأي ظاهرة إلى أبعد من مجال الدراسة العلمية. إن هذا الجدال حول الحس المشترك يمثل ترسيما واسع النطاق للتحول الإبستمولوجي في بلاغة القرن الثامن عشر. ولأنهم قرويون عملوا عن قصد على اكتساب الذوق والعادات الإنجليزية، فقد امتلك

الفلاسفة الأخلاقيين ودارسو علم البلاغة الأسكتلنديين وعيًا ديالكتيكيًا باختلاف العادات الثقافية، وتبنى عصر التنوير بالتبعية توجهًا أكثر سوسيولوجية في أسكتلندا مقارنة بإنجلترا. إلا أن "علم الإنسان" قدم أساسًا شاملاً ومنهجًا محايدًا لاحتواء الوعي بالفوارق اللغوية التي اتسعت مع تنامي الإمبراطورية البريطانية وتحول الإنجليزية لتكون لغة عالمية.

البلاغة المدنية

في حين نجد أن التوجه السيكولوجي لعلم البلاغة "الجديد" من بين الإسهامات المعروفة عن البلاغة الحديثة، فإنه لم يكن هناك سوى اهتمام يسير بالكيفية التي انفصل بها التحول الإبستمولوجي عن الخط البلاغي التقليدي ذي الاهتمامات المدنية بالفلسفة الأخلاقية. وقد قام هيوم في *مبحث في الفهم الإنساني* (١٧٥١) بتعريف الفلسفة الأخلاقية بكونها "علم الطبيعة البشرية" حتى يميز مقاربته عن تلك المقاربات التي- من خلال "تعاملها مع الإنسان بوصفه كائنًا مولودًا في الأساس حتى يفعل"- أدرجت فن "الخطابة" وربطته بتحفيز المتلقي من خلال مشاهد من "الحياة المعتادة". لقد علّم هيوم قارئه أن يبحث في ذاته ويفحص ما يعتمل في نفسه بمجهر الذات (إنديانابولس، ١٩٥٥، ص ١٥ - ١٦، ص ٧٤). ولقد كان هيوم يشير إلى فلاسفة أخلاقيين من أمثال فرنسيس هتشيسون Francis Hutcheson، الذي كان يحاضر في الخطابة والأخلاق العملية بجامعة جلاسجو وقتما كان سميث تلميذا بها. وظلت الفلسفة الأخلاقية الأسكتلندية فرعًا انتقائيًا، يتراوح بين الأخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس والتاريخ والقانون، إلى أن تطورت العلوم الاجتماعية اعتمادا عليها في القرن التالي. ويصعب علينا أن نفهم أعمال شخص مثل آدم سميث في الأخلاق والاقتصاد السياسي والبلاغة والأدب كجزء من مشروع موحد، ذلك لأننا نقرأها من خلال

التطورات التي لحقت بها. على أن طلبة ذلك العصر غالبًا ما كانوا يدرسون البلاغة والفلسفة الأخلاقية معًا، وقد نُظر إلى شيشرون وأرسطو على أنهما رمزان كلاسيكيان في هذين المجالين. وقد أفضى هذا الأسلوب الذاتي لهيوم، ومن جاء بعده، إلى ابتعاد علم البلاغة عن التركيز المفرط على الشؤون العملية للحياة، وقد أدى هذا التحول على نحو كبير إلى إضعاف النظرية البلاغية المتعلقة بتضمين المدني في الممارسة الخطابية.

لقد قدم البلاغيون الكلاسيكيون الجدد مبررات مدنية للدراسات البلاغية، ولطالما كرر بلير وبقية هؤلاء تلك المبررات في مقدمات كتاباتهم لأجل وضع البلاغة والمحسنات الجمالية في مكان الفن الليبرالي ذي القيمة لدى المواطن. غير أن البلاغي المهم الوحيد الذي توصل إلى فلسفة مدنية من خلال البلاغة كان جون ويذرسبون John Witherspoon. فبعد تخرجه برفقة بلير في جامعة إدنبره عام ١٧٣٩، صار ويذرسبون رئيس مجلس الكهنوت البروتستانتي الذي عارض تغيير نظام تعيين القساوسة. وفي العام ١٧٦٨ أقنعه بنيامين رش بأن يكون رئيسًا لجامعة برنستون (التي تأسست في العام ١٧٤٦ في المستعمرة البريطانية التي صار اسمها فيما بعد نيوجيرسي). وقد حاضر هناك في موضوعين من الموضوعات التي سادت حقبة الإصلاحات التعليمية في أسكتلندا؛ وهما الفلسفة الأخلاقية والبلاغة. وقد درس جيمس ماديسون James Madison معه، وكذلك واصل ألكسندر هاملتون Alexander Hamilton وتوماس جيفرسون Thomas Jefferson تلك الدراسات لدى خريجين آخرين ينتمون إلى الجامعات الأسكتلندية.

وقد ساعد ويذرسبون على نشر فلسفة هتشيسون الأخلاقية، والتي مثلت الربط العملي بين الحقوق الطبيعية والواجبات المدنية التي ناصرت حقوق المستعمرات ورفضت العبودية. وقد غطت محاضرات ويذرسبون

الفن الكلاسيكي للخطابة الجماهيرية، وقدمت نصائح عملية في التأليف وتحسين الذوق ومبادئ الحس المشترك التي تناقض شكية هيوم. كما تناول المسائل المتعلقة بالجماليات والإبستمولوجيا، غير أنه ارتبط تاريخيا بالتطبيق أكثر منه بالتنظير. ومع أن ملاحظاته حول البلاغة والفلسفة الأخلاقية لم تُنشَر إلا بعد وفاته وفي طبعة منفصلة عام ١٨١٠، فإنه كان ناشطًا سياسيًا منذ وصوله إلى أمريكا. وقد قام بإلقاء العديد من الخطب الدينية التي تؤيد الاستقلال، وساعد على تأسيس مجالس إقليمية نظمت المقاومة، وصار الكنسي الوحيد الذي وقع على إعلان الاستقلال الأمريكي (١٧٧٦).

الممارسات البلاغية في القرن الثامن عشر

كان ويذرسبون – في محاضراته التي ألقاها في برنستون– يتوقف ليتساءل عن السبب الذي دفع مؤرخو البلاغة إلى التركيز على "معلمي ذلك الفن" وتجاهل "تطوره وتأثيره" بوصفه فنًا سياسيًا عمليًا (١٩٩٠، ص ٢٥٤). لقد كانت البلاغة السياسية في القرن الثامن عشر في واقع الأمر ذات أهمية تاريخية كبيرة تفوق الأعمال التي ناقشناها حتى الآن، ولا يمكننا أن نفهم تلك الأعمال على أنها أعمال بلاغية حينما نقرأها على أنها أعمال في فلسفة اللغة. فالوسيلة التقليدية لتبني موقف بلاغي من تاريخ البلاغة هو فحص المصادر الفلسفية والتعليمية التي أثَّرت في الخطيب والكاتب السياسي. ويقدم لنا القرن الثامن عشر عددًا كبيرًا من إمكان هذا البحث البيوجرافي والتحليل البلاغي للخطاب المدني. غير أن النظرية البلاغية ذاتها في هذا القرن كانت عبارة عن شكل من أشكال الممارسة الخطابية التي تحتاج إلى من يقرؤها عبر مقاربة بلاغية، وليس مجرد جزء من تاريخ الأفكار حول علم البلاغة. فلقد كانت عملية تحويل البلاغة إلى فرع أدبي حديث عملية بلاغية في الأساس. وقد اشتملت تلك العملية على تحويل المجال الجماهيري من خلال

تشجيع نشر الكتب ذات الطباعة الرخيصة، وهو الأمر الذي أتاح فرصًا جمة أمام قطاع كبير ممن كانوا لا يجدون الفرصة للتحدث أو الكتابة أمام جمهور، ولم ينظّر لهذه العملية وفنونها سوى القليل.

لقد خلق انتشار الطباعة احتياجًا إلى استيعاب نوعية من القراء الذين لم تكن لديهم منذ جيل مضى القدرة على شراء الكتاب أو قراءة دوريات تصدر بالخارج. وفي القرن الثامن عشر كانت الطباعة قد تعدت كونها تقنية لإعادة إنتاج النصوص، وصارت اقتصادًا قائمًا بذاته يهدف إلى نشر المعرفة. وقد أحدثت نقلة في المؤسسات العامة، بدءًا من الجامعات الإقليمية وحتى البريد البريطاني، والذي بدأ يرسل الصحف بالمجان إلى الأقاليم في العام ١٧٨٧، حتى وصل عدد النسخ التي يتم شحنها سنويًا من لندن إلى ٤,٥ مليون نسخة بحلول العام ١٧٩٠. وصاحب هذا التوسع في قاعدة القراء ظهور طبعات جديدة لإصدارات تهدف إلى التعريف بذوق القراءة السليم، وبالتالي حدث إعادة توجيه لفن البلاغة من ساحات الصراع السياسي إلى المنطق العقلي المنظم. وصار "علم الإنسان" مرادفا لفلسفة يتشارك فيها منظرين من قبيل بلير وكامبيل، غير أن الاستبطان يتعدى كونه مجرد فكرة، بل كان ممارسة خطابية. وحينما كانت تتم دعوة القراء لأداء تجارب ذهنية على أنفسهم - بغرض تقويم المزاعم التي أطلقها هيوم وبعض الفلاسفة والخطباء- سرعان ما أضحى الاستبطان تأويلاً للكيفية التي يفكر ويتجاوب ويقرأ بها الشخص المتعلم، وصارت تأصيلاً للطريقة المثلى للتفكير والتجاوب والقراءة. وقد ساعدت هذه العملية على صياغة وترسيخ روح شعبية *ēthos* حديثة صارت جزءًا من اقتصاد الطباعة، على النحو الذي ناقشه ميشيل فوكو في *الكلمات والأشياء* *Les mots et les choses* (١٩٦٦/١٩٧٠) ويورجن هابرماس في *التحولات البنيوية للأوضاع الجماهيرية* *Strukturwandel der öffentlichkeit*

(١٩٨٩/١٩٦٢). ومع أنها لم تلق في عصرها سوى التجاهل من قبل النظرية البلاغية، فإن بعضا من أقوى الخطب التي ألقيت بالإنجليزية كانت تعيد ترسيم هذا العالم من فوق أرضية مجلس العموم البريطاني.

عجز معلقو القرن الثامن عشر عن العثور على نماذج حديثة من الخطابة السياسية، مع أنهم كانوا في عصر إدموند بيرك Edmund Burke وتشارلز جيمس فوكسCharles James Fox ووليام بت الأصغر William Pitt the Younger وريتشارد شيريدان Richard Sheridan. واتبعت أعمال المؤرخين- من قبيل كتاب أوليفر *تأثير البلاغة في تشكيل بريطانيا العظمى* *The Influence of Rhetoric in the Shaping of Great Britain* (١٩٨٦)- نفس التقليد القديم الرامي إلى تشخيص عصر الإمبراطورية بكونه العصر الذهبي للخطابة. وقد كان أول اعتراف بمكانة خطباء البرلمان البريطاني في العام ١٨٥٢ من خلال *خطب بليغة بريطانية منتقاة* *Essays from Select British Eloquence* لتشونسي أ. جودريتش Chauncey A. Goodrich، أستاذ البلاغة بجامعة ييل في الفترة من ١٨١٧ وحتى ١٨٣٩. وقد رسخت تعليقات جودريتش المعروفة حول فنون الخطاب الجدلي والتشاوري أنماط النقد البلاغي والتي لم تلق دعمًا آخر إلا من خلال أبحاث البلاغة التي قام بها مفكرون أمريكيون بعد حوالي قرن من الزمان. (تمت إعادة طباعة مقالات جودريتش لتكون الجزء الأول من سلسلة أصدرتها مطبعة جامعة إيلينوي الجنوبية حول البلاغة والخطاب الجماهيري، فيما شكل في النهاية الطبعات الوحيدة لبلاغة القرن الثامن عشر في القرن العشرين). حيث قدم جودريتش الخطباء البرلمانيين بصفتهم مواطنين ذوي حكمة عملية، واختار بيرك ليكون أعظم هؤلاء الخطباء. ولكونه أيرلندي الأصل، فقد مثل بيرك نموذجًا لإمكان أن يقوم شخص بعيد عن اللغة بالارتقاء بأعمال ثقافية بصورة أفضل من

أهلها. لقد تبنى بيرك- لكونه من أول أرض تشهد شراسة الإمبراطورية البريطانية- منظورًا ديالكتيكيًا تجاه السياسة والذوق البريطانيين، وهو ما يتضح في الطريقة التي يمكنه بها أن يحاكي لوردًا إنجليزيًا، لدرجة أن سخريته من اللورد بولنجبروك في *دفاع عن المجتمع الطبيعي* *A Vindication of Natural Society* (١٧٥٦) قرأت بوصفها دفاعًا عن الفضائل البدائية التي يسخر منها.

لقد ركز النقد البلاغي التقليدي على كيفية استخدام الفرد للفنون البلاغية في صياغة التاريخ، وليس على كيفية صياغة التاريخ لتلك الفنون؛ وبالتالي تحديد ما يمكن أن يقال ومن يقوله. وقد تبنت الفترات المحورية في تاريخ البلاغة - مثل القرن الثامن عشر- معنى جديدًا، وخاصة حينما تقرأ من الهوامش حيث يتم التركيز على التجارب التاريخية لجماعات كانت على هامش ثقافة مهيمنة. وقد بدأت المرأة في القرن الثامن عشر في الكتابة ومراسلة الصحف والمطالبة بحقهن في إلقاء الخطب أمام الجماهير وذلك بصورة غير مسبوقة. فبعد عمل مارجريت فوكس Margaret Fox *كلام المرأة مبرر ومثبت ومسموح به في النصوص المقدسة* *Women's Speaking Justified, Proved and Allowed by the Scriptures* (١٦٦٦) وكتاب ماري أستيل Mary Astell *مقترح جاد موجه للسيدات - الجزء الثاني* *A Serious Proposal to the Ladies, Part II* (١٦٩٧)، طالبت النساء بمزيد من فرص التعليم وقمن بإلقاء الكرة بملعب الحياة العامة من خلال الاعتماد على تراث من الفكر المعارض الذي كان يرى أن صفات المرأة تتناسب والدراسات المهذبة. وتعد ماري وولستنكرافت Mary Wollstonecraft من نماذج المرأة المؤثرة التي نالت استقلاليتها عبر الكتابة إلى الصحف. وقبل أن تكتسب شهرة بسبب ردودها على بيرك في *دفاع عن حقوق الرجال* *A Vindication of*

the Rights of Men (١٧٩٠) *ودفاع عن حقوق المرأة* *A Vindication of the Rights of Woman* (١٧٩٢)، قامت وولستنكرافت بالتدريس في المدارس وكتابة المقالات حول سبل تطوير الذات، وأصدرت كتبًا عملية من قبيل *أفكار حول تعليم البنات* *Thoughts on the Education of Daughters* (١٧٨٧).
وكما ذكرنا آنفا، فحينما نشرت وولستنكرافت كتابًا دراسيًا في فن الإلقاء كان لزاما عليها أن تقدم نفسها بوصفها رجلا. وبوصفها عالم بلاغة وخطابة، فإن وولستنكرافت كانت هي الشخصية المناسبة لتكون محور فهمنا لتاريخ البلاغة، بعدما توسعت لتتجاوز فلسفة البلاغة وصولاً إلى فحص الممارسات البلاغية التي استخدمتها الجماعات المضطهدة للتعبير عن رأيها على الرغم من التقاليد السائدة. [انظر **Feminist rhetoric**].

المراجع

Bender, John, and David E. Wellbery. "Rhetoricality: On the Modernist Return of Rhetoric." In *The Ends of Rhetoric: History, Theory, and Practice*, edited by John Bender and David E. Wellbery, pp.pp. 3–39. Stanford, Calif., 1990.

Blair, Hugh. *Lectures on Rhetoric and Belles Lettres*. 2 vols. Edinburgh, 1783, edited by Harold F. Harding, Carbondale, Ill., 1965.

Campbell, George. *The Philosophy of Rhetoric*. Edinburgh, 1776: Edited by Lloyd Bitzer, rev. ed. Carbondale, Ill., 1988.

تتناول مقدمة بيتزر مصادر كامبل الفلسفية والسياق التاريخي الذي ظهر فيه. مقدمة بيتزر ومقدمة فنسنت بيفيلاكوا لطبعته من محاضرات بريستلي عن *الخطابة والنقد* لا تزال متميزة، على الرغم من نفاد جميع أجزائه.

Conley, Thomas M. *Rhetoric in the European Tradition*. New York, 1990; reprinted Chicago, 1993.

Eighteenth - Century British and Continental Rhetoric and Elocution. Ann Arbor, 1953.

عبارة عن ستة عشر من الميكروفيلم تحتوي على ١٤٣ عملا عن البلاغة يعودون إلى القرن الثامن عشر

Halloran, S. Michael. "Rhetoric in the American College Curriculum: The Decline of Public Discourse."*Pretext* 3 (1982): pp.pp. 245–269.

موضوع هذا المقال يرصد تحول البلاغة من دراسة الحالة المدنية إلى دراسة فنون الأدب وذلك بعد الثورة الأمريكية.

Horner, Winifred Bryan, and Kerri Morris Barton. "The Eighteenth Century." In *The Present State of Scholarship in Historical and Contemporary Rhetoric*, edited by Winifred Bryan Horner, pp.pp. 117–151.Revised edition. Columbia, Mo., 1990. Howell, Wilbur Samuel. *Eighteenth - Century British Logic and Rhetoric*. Princeton, 1971.

Kennedy, George A. *Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times*. Rev. ed. Chapel Hill, N.C., 1999.

Michael, Ian. *The Teaching of English: From the Sixteenth Century to 1870*. Cambridge, U. K., 1987.

McIntosh, Carey. *The Evolution of English Prose, 1700–1800, Style, Politeness, and Print Culture*. Cambridge, U.K., 1998.

Miller, Thomas P. *The Formation of College English: Rhetoric and Belles Lettres in the British Cultural Provinces*. Pittsburgh, 1997.

Robert Crawford's *Devolving English Literature* (Oxford, 1992) and Franklin E. Court's *Institutionalizing English Literature: The Culture and Politics of Literary Study, 1750–1900* (Stanford, Calif., 1992).

Moran, Michael G., ed. *Eighteenth - Century British and American Rhetorics and Rhetoricians*. Westport, Conn., 1994.

Smith, Adam. *Lectures on Rhetoric and Belles Lettres*, edited by J. C. Bryce. *Glasgow Edition of the Works and Correspondence of Adam Smith*. New York, 1983.

Ulman, H. Lewis. *Things, Thoughts, Words and Actions, The Problem of Language in Late Eighteenth - Century British Rhetorical Theory*. Carbondale, Ill., 1994.

Vico, Giambattista. *On the Study Methods of Our Time*. Indianapolis, 1965. Vico's writings have generated considerable scholarly interest, including a journal, *New Vico Studies*, and such books as Michael Mooney's *Vico in the Tradition of Rhetoric* (Princeton, c.1985) and Brian Vickers's *In Defence of Rhetoric* (Oxford, 1988),

Paul de Man. Warnick, Barbara. *The Sixth Canon: Belletristic Rhetorical Theory and Its French Antecedent*. Columbia, S.C., 1993.

Witherspoon, John Witherspoon. *Selected Writings*, edited by Thomas Miller. Carbondale, Ill., 1990.

تأليف: Thomas P. Miller

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الحذف التقديري Ellipsis (*defectio* باللاتينية)

هو ما أسماه بوتنهام "الإهمال" (فن الشعر الإنجليزي، ١٥٨٩)، وهو حذف أجزاء من الجمل أو أشباه الجمل بغرض الاختصار. ويُستعمل بصورة شائعة في اللافتات العامة واللغة العسكرية والإعلانات وكذلك في الشعر:

"خفقة مباغتة: الأجنحة العظيمة تنبض ما تزال / فوق الفتاة الذاهلة، تداعب فخذيها / ومع إلقاء الظلام لشباكه، أمسك مؤخر عنقها بمنقاره / محتضناً صدرها اليائس على صدره"

"A sudden blow: the great wings beating still / Above the staggering girl, her thighs caressed / By the dark webs, her nape caught in his bill, / He holds her helpless breast upon his breast"

(ييتس، ليدا والبجعة).

ويتراوح تأثير هذا الأسلوب ما بين الإيجاز القاطع والغموض المتعمد.

[انظر كذلك **Figures of speech** و **Style**].

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

البيـان (الكلام المنمق) Eloquance

يطبَّق الاستخدام الحديث مفهوم البيان بطرق متنوعة، في الأوقات التي يُستدل فيها على وجود انعدام للثقة، كما لو أنه لابد من الاختيار بين الفن والإخلاص. لكننا لو اعتبرنا البيان واحدًا من الغايات الجوهرية للخطابة الرسمية، وذلك في مقابل استهداف الإقناع، فإنه سوف يشير بشكل أساسي إلى التعبيرات الفنية في الكلام في مقابل حججه. [انظر الإقناع]. ومع ذلك فإن التعبيرات الفنية هي شيء أكبر من مجرد الأسلوب، ويجب ألا تكون مقصورة على زخارف مجازات الكلام أو الفكر؛ بل إنها بدلا من ذلك قد تنطوي على التعبير عن الفكر المعقد بلغة بسيطة. [انظر مدخل الأسلوب style] وهكذا فإن البيان يمكن أن يتضمن الابتكار، لكونه يضفي عمقًا وأهمية للموضوعات الرئيسية التي توجد في الكلام. [انظر الابتكار Invention] وقد ينطوي بشكل دقيق تمامًا على الإسهاب expansion والاستطرادات digressions، والأقوال المأثورة أو الملاحظات الشائعة commonplaces التي طورها الخطباء القدماء في الاستخدام العام. أحد التقييدات الأولية هو أن مفهوم البيان لا ينطبق بشكل عام على النصوص الأدبية، أي إنه لا ينطبق على الشعر أو السرد الفني إلا حين يمثلان كلامًا رسميًا أو عامًا.

موجز تاريخي ونقدي: البلاغة التقليدية

هل وجد مفهوم البيان قبل أن تُنحت كلمة *eloquentia* اللاتينية، التي يرجع أول تسجيل لها إلى القرن الثاني قبل الميلاد؟ لا يوجد أي اسم مفرد

يتضمن دلالة التعبير الفني بأي شكل لدى المؤلفين اليونانيين الرئيسيين عن البلاغة في أثناء الثورة الفكرية في القرن الرابع قبل الميلاد وما تلاها من عداء بين البلاغة والفلسفة. وبدلا من ذلك فإن كل متحدي - بدءًا من السوفسطائي جورجياس (Gorgias (c. 483– c. 376 bce، الذي تحداه أفلاطون Plato (c. 428–c. 347 bce) إلى إيزوقراط Isocrates (436–338 bce) تلميذ جورجياس المعمَّر الذي تحداه أرسطو Aristotle (384–322 bce) - تحدث مستحسنًا أو مستهجنًا سحر أو سلطة القول *logoi* (الذي يعني الكلام، لكنه يعني أيضًا الحجج والمسلمات وحتى المفردات). [انظر Logos]

الرواد اليونانيون "للبيان"

مع ذلك فقد تأمل كل المفكرين اليونانيين الرواد فن التعبير من وجهات نظر متنوعة. وكما يعلق جاكلين الروميلي Jacqueline de Romilly في كتابه **السحر والبلاغة في اليونان القديمة** فإنه "تم تحويل المعنى الأولي لقوة الكلام في نسق جورجياس.. من خلال الإظهار الصريح للرابط بين الشعر والبلاغة، وهو رابط متصل بغاياتهما ووسائلهما". لقد ألح جورجياس في كتابه *Encomium of Helen* - بالإضافة إلى الإقناع - على القوة شبه السحرية للوجوس في السيطرة على الروح، وهو شكل من الخداع يُنجز كثيرًا بواسطة الإيقاع rhythm والتوازي والطباق، كما يُنجز بواسطة الحجاج. هذا النوع من التأثير النفسي *psychagōgia*، أو الإرباك الذهني mind - bending، أثار غضب أفلاطون لأن جورجياس تباهى بلا خجل بكونه قادرًا على قلب الحقيقة؛ ومن ثم شن أفلاطون حملة إدانة لجورجياس وللبلاغة السياسية في محاورة "جورجياس Gorgias". وقد تعرض أفلاطون فيما بعد في محاورته "فيدروس" لفن التعبير في سياق عرضه لمراجعة سقراط لكتب البلاغة التعليمية

السابقة[1]. ومع ذلك فإن أيًا من الكتيبات البلاغية الشاملة أو القواعد البلاغية – بما فيها كتاب بولس مختارات فنية من الأقوال "Artistic Collection of *Logoi*" – لم يستدع بأي شكل ما يشبه البيان. يقترح أرسطو بدلا من ذلك بلاغة مؤسَّسة على تحليل المفاهيم ونوعًا جديدًا من التأثير النفسي مؤسسًا على الاختيارات النفسية للحجج لكي تؤثر وتقنع الجمهور. ويصبح لدينا اهتمام واضح بالتعبير عن أفكار الخطيب مع إيزوقراط فقط. وسوف يرى القرَّاء كلمة بيان *eloquence* على نحو متكرر في ترجمة طبعة لويب لكتاب إيزوقراط ***"على سبيل التبادل"*** (354–353 bce) *On the Exchange*، ومع ذلك فإن إيزوقراط لم تكن لديه أى كلمة مفردة توحي بالمفهوم – فيما عدا كلمة "قول" Logio التي تُستخدم لكل الأغراض – أو مركب مثل "قوة القول أو القوة على القول، "the power of / over *logoi*"، أو "استخدام القول جماليًا "using *logoi* beautifully"، أو المركب الأكثر دلالة وهو "المهارة في استخدام القول". ويتناظر هذا مع الاستخدام الازدرائي الحديث لكلمة "بياني "eloquent" أو "بيان "eloquence"، لكي يعني استعراضًا للفن هدفه إخفاء الحقائق أو تشويهها. مع ذلك، فسوف يكون من الظلم تجاهل إصرار إيزوقراط على الحاجة لمحتوى فلسفي، للجمع بين التفكير الصالح والتعبير الجيد (On the Exchange 308)، وسوف يتكرر ذلك ثانية في التراث الشيشروني Ciceronian.

قدَّم كتيب مدرسة إيزوقراط المعنون بـــ"ضد السوفسطائيين *Against the Sophists*" تعريفًا معقدًا للبيان. فهو يصرح عندما عرض مثله العليا في تعليم البيان أنه سوف يُعلم تلاميذه: ١) أن يتكلموا بطريقة منسجمة مع

---

(1) (*Phaedrus* 266–267)

موضوع الكلام، و٢) أن يكتشفوا فيه أفكارًا لم يصل إليها متكلمون آخرون. ويضيف إلى هذين المعيارين الخاصين بسمات الأسلوب وأصالة المعالجة نوعًا آخر من السمات هو مطابقة مقتضى الحال. [انظر Decorum] لكنه يقترب مما يمكن أن نربطه بالبيان في سياق وعده بأن يُعلم "كيف نزخرف الكلام على نحو مناسب بالأفكار الآخاذة، ونجعله يتزين بالكلمات الفنية الزاهية، لكي يتكلم تلميذه على نحو أكثر أناقة وسحرًا من أي رجل آخر (Against the Sophists 16–17)". إن العنصر الأساسي المفقود في هذا الشرح هو عاطفة المتكلم التي سوف تستهدف تحقيق استجابة شعورية لدى السامعين. [انظر Pathos].

من بين الأنواع المعترف بها من البلاغة –وهي البلاغة القضائية أو النيابية forensic، والسياسية أو التشاورية deliberative، والبيانية أو الاحتفالية epideictic – فمما لا شك فيه أن البيان أكثر ضرورة وأقل إثارة للشكوك في البلاغة الاحتفالية، وهو نوع من الرثاء الجنائزي والوطني أو الإطراء اللطيف [انظر البلاغة التشاورية deliberative، والبلاغة البيانية (الاحتفالية) **Epideictic**، والبلاغة النيابية **Forensic**، **والتقريظية Banegyric]** تفتتح خطبة إيزوقراط النموذجية بمدح القائد الراحل إفاجوراس Evagoras (374 bce) بحجة متقنة حول أن القول يمكنه أن يضارع جمال الشعر وقوته، على الرغم من السحر المتعاظم للشكل الشعري، والحرية المتاحة للشعر في الوصف والمحتوى.

لكنه في المقطع الختامي يصل إلى ما هو أبعد من ذلك، ذاهبًا إلى أن تأبين الكلمات الأشبه برسم الشخصية، أكثر قدرة على التخليد من المنحوتات، التي هي مجرد تصوير مماثل للجسد، لأن الكلام "نقش للموضوع في كلمات" (*Evagoras* 73–76) يمكن أن ينتقل عبر المكان والزمان وبذلك يشتهر ويُحاكَى

بين بشر أكثر بكثير (لم يلق إيزوقراط خطبه الشخصية بل كتبها بشكل أساسي لكي تُقرأ همسًا أو جهرًا). وسوف يذهب شيشرون إلى الآراء نفسها بالنسبة للشعر والخطابة في خطبته عن الشاعر آرخياس، الذي كان مثار إعجاب عظيم واستشهاد كبير بشعره في عصر الإحياء.

البيان بوصفه نموذجًا معترفًا به عند شيشرون وقبله.

لقد ظهرت الكلمة اللاتينية eloquentia أول مرة في النصف الثاني قبل الميلاد مصحوبة بالمعنى البلاغي الكامل للمهارات الشخصية للكلام. لكنها ربما كانت في ذلك الحين موضعًا للشكوك. فمؤلف كتاب *Rhetorica ad Herennium* المجهول (بعد عام ٨٦ قبل الميلاد)، يتجنب كون البيان غاية، في كتابه الرابع حول الأسلوب، مفضلا القيم الأكثر صرامة للأناقة والتمايز (18 - 17 .4). وهو يستخدم كلمة eloquentia فقط في الاستشهاد بعبارة المدح الشائعة وهي أن الأعمال الشريفة تبز بيان كل المادحين 11 .6 (3).

وعلى خلاف ذلك، فإن كتيب التعليمات الثانوي الذي ألفه شيشرون في شبابه المبكر بعنوان "في الابتكار *De invention*"، يُفتتح بتأملات حول "طلاقة الكلام وحيازة البيان". وفي شكل من أشكال إعادة التأسيس الثقافي، يعزو شيشرون تكوين المجتمع المدني إلى بيان الإنسان الحكيم. وعلى نحو مشابه، فإن شيشرون سوف يُعرِّف البيان لاحقًا على أنه "حكمة يتم التعبير عنها بطلاقة" (*Partitiones oratoriae* 79). لكن على الرغم من جمع إيزوقراط بين البيان والحكمة التي تولِّد الحضارة فإن الجمع بينهما نفسه يشير إلى الدور المنفصل للمحتوى والشكل. ولأن البيان يتعامل مع الشكل كان بوسع شيشرون افتراض أمرين؛ الأول أن البيان يفقد مصداقيته حين يسيء أشرار الرجال استعماله لأجل حيازة الثروة والسلطة، وأن البيان يستحق الإطراء

لفوائده الجمة التي تعود على المتكلم وأصدقائه وبلده شريطة أن يكون مصحوبًا بالحكمة. إن دور الفن هو تعزيز البيان، والبلاغة نفسها تُعرَّف بأنها "بيان مؤسَّس على قواعد الفن" (الترجمة الإنجليزية من عمل هوبل Hubbell، *On Invention* 1. 6.). ومع ذلك، ففي عمل كُرِّس في الحقيقة للحجاج يصبح مفهوم البيان مساندًا لغرض الإقناع، وقد تُرِك أكثر عمومية مما نحتاج؛ وعلينا أن ننتظر حتى تظهر كتابات شيشرون الناضجة.

يُعرفً عملان من أعمال شيشرون الناضجة البيان بمعنى التعبير الفني artistic expression: أن المعالجة الأولى والأكمل تنتشر في صفحات كتبه الثلاثة المكوّنة لعمله المعنون بـــ"في الخطابة *De oratore* (٥٥ ق.م.)، ثم يعود لموضوع البيان من نقطة انطلاق مختلفة في كتابه "الخطيب *Orator*" (٤٦ ق.م.) حيث مناقشته لتنوع الأسلوب وخصائصه والإثراء الإيقاعي للأسلوب. وتقدم أربع مناقشات منفصلة، توجد في كتاب *De oratore*، الأبعاد التراكمية للبيان، وهي: التربية والتأهيل الفكري للخطيب، وامتلاك المهارة الفنية بواسطة المحاكاة وقوة المشاعر في الكلام (Book 2, 89–98 and 185–215)، وزخارف الكلام الكامنة والمضافة (Book 3).

في مقدمة العمل بأكمله (1. 17–19, cf 73)، يفصِّل شيشرون المعارف العامة التي تلزم لا تُصبح حزلقة اللغة سخيفة؛ وهي التي تشمل بالإضافة إلى الثقافة الأدبية، المعرفة بالتاريخ والأبطال القوميين الذين يقدمون مُثلا عليا، والمعرفة بالأعراف والقانون المدني. وسوف يضيف على نحو متكافئ إلى ذلك معرفة الفلسفة السياسية والأخلاقية. وحتى أنطونيو - الذي يرجح من كفة القوة التعبيرية، ويزعم أن الخطيب الجيد يستطيع اقتراض أى معرفة أينما وكيفما يحتاج إليها - يقدم ادعاءً بأنه التقى العديد من المتكلمين الماهرين، لكنه لم يعرف أي شخص بياني بحق.

الدور الذي يقوم به أنطونيو هو أن يوفر ملخصًا مقنعًا لقواعد الابتكار تأسيسًا على النسق الذي وضعه أرسطو "لتقنيات الإقناع" (*pisteis*). وفي حين أن الحجاج بالوقائع والسمات الشخصية غير وثيق الصلة بالبيان الفني، فإن القوة الانفعالية ضرورية – بحسب ما يقرر شيشرون – للكلام المؤثر: فإن شيشرون حقًا لا يرى الكلام السامي ممكنًا بدونها. ويوضح أنطونيو فكرته من خلال مجموعة مبادئ وذكريات شخصية. ويوضح تأثير محاكاة عظماء الخطباء على أجيال من المتكلمين اليونانيين، متذكرا كيف استفاد تلميذه السابق سولبيكيوس Sulpicius حين اتجه إلى اتخاذ كراسيوس Crassus أنموذجًا له.

وفيما يخص استخدام التأثير العاطفي، يوضح أنطونيو كيف أن الخطيب، تمامًا مثل الممثل، لابد أن يعايش المشاعر التي يرغب في نقلها وتحويلها إلى جمهوره. ولو استطاع جعل نفسه يتخيل الظروف الكاملة التي يقدمها لاستثارة استجابة استعطافية أو غاضبة، لتمكن من الشعور بالعاطفة ونقلها. ويبرهن على هذا أولا من اللحظة الحاسمة في النداء الطلبي الأخير؛ أي تلميحه المتصاعد لدمار موكله أكويليوس الذي كان بطلا يوما ما. وفيما بعد، في أثناء حواره مع سولبيكيوس، أوضح كيف دفع سولبيكيوس الجمهور بسهولة إلى حالة غضب ضد المدَّعى عليه الذي اتهم أكويليوس بإحداث شغب. وقد استطاع أنطونيوس في دفاعه عنه، التلاعب بمشاعر الجمهور وتوجيهها عكس ما كانت عليه. فقد هدأهم في حججه الافتتاحية، ثم استغل غضبهم ووجهه ضد الأخطاء التي ارتكبها أعداء موكله، وهكذا ما أن أصبح الجمهور ميالا بوضوح نحو تفضيل أفعال موكله، حتى استطاع أن يلعب على مشاعر تعاطفهم وتفهمهم. وفي أكثر من موضع، يتكلم شيشرون عن الجمهور بوصفهم آلة موسيقية، لابد أن يتعلم المتكلم العزف عليها.

وفي كتاب شيشرون اللاحق "الخطيب *Orator*" يعطي أمثلة على هذه الإدارة الدقيقة لكل من المشاعر السلبية والإيجابية من خطبة مشهورة للخطيب الأثيني ورجل الدولة البارز ديموستين، الذي اعتبره شيشرون ومعاصروه الخطيب الأعظم قوة ورحابة من بين الخطباء اليونان بفضل امتلاكه القدرة على التلاعب بالمشاعر. يتابع شيشرون أفلاطون وأرسطو في القول بأن الرجل المتحدث يمسك بخيوط المشاعر الرئيسية، وبنوع الحجج التي سوف تولِّد مشاعر سلبية أو إيجابية لدى جمهور معين.

الرجل الممتلك لزمام البيان بحق سوف يكون شبيهًا برجل الدولة العجوز الحكيم – كما في التشبيه الشهير لفرجيل في الإنيادة (*Aeneid* 1. 148–153) – الذي يستطيع السيطرة على قلوب الحشود الثائرة وتهدئتها بكلماته. إن القوة الانفعالية ضرورية بالنسبة للبيان الفني بنفس درجة ضرورتها بالنسبة للإقناع العملي. يقع الاستخدام الذي يجمع بين السخط، واستمالة النفس والسخرية المواتية – الذي اكتشفه شيشرون للمرة الأولى – في الكتاب السادس لكنتيليان *Institutio oratoria*، فيما بين تلخيصه لنظرية الابتكار ونظريته للأسلوب.

وفي نهاية الكتاب الثاني يدَّعي كراسوس، المتحدث باسم شيشرون، أن أنطونيو قد عالج موضوع الابتكار، لكنه لم يعالج "زخارف الكلام وذلك الكمال الذي يشتق منه البيان اسمه". فكلمتا *Eloquentia* و *elocution* اللاتينيتان هما مصطلحان بلاغيان قياسيان للدلالة على التعبير (الأسلوب) اشتُقا من نفس الفعل (يتحدث بوضوح speak out)، و(يعبِّر بشكل تام express fully).

يعرض الكتاب الثالث من "الخطيب" المقاربات الأكثر تنوعًا وتعددًا لجماليات الكلام؛ مطلقًا عليها "بيان" أو "تعبير" أو "أسلوب" أي أطروحة بلاغية. يبدأ هذا بالتمييز بين الأساليب المختلفة المناسبة للخطابة والدراما التراجيدية والكوميديا، والأنواع الأدبية المنطوقة، مضيفًا أساليب تحسين التعبيرات

الشخصية التي تميز الخطباء والشعراء فيما بينهم. ويبدّل شيشرون المقاربة بتطبيق المعايير التي طبقها تلميذ أرسطو الفيلسوف والناقد ثيوفراسطوس (٣٧٢ - ٢٨٧ قبل الميلاد)، والتي تسعى وراء أربع فضائل للكلام: الوضوح، ودقة استعمال اللغة، والملاءمة، والبديع. ثلاثة من هذه المعايير - على الأقل - تخص البعد التعبيري للبيان، لكنه يتوقف هنيهة بعد أن غطى المعيارين الأولين، بوصفهما شرطي الحد الأدنى، ليؤكد شمول البيان، الذي يصفه بأنه "إحدى الفضائل العظيمة.. قوة تختزن معرفة الأشياء وتشرح أفكارها ومقاصدها بشكل عظيم الفعالية إلى حد أنه يستطيع أن يوجه مستمعيه أي اتجاه يشاء". وعلى حين يؤجل معالجة المعيارين الأخيرين، يستطرد شيشرون في ذلك استطرادًا واضحًا. ويقدم - في مراجعة للمشهد الثقافي في "*De invention*" - تاريخًا للبلاغة والفلسفة، كان فيه فنا التفكير السليم والتعبير السليم فنًا واحدًا (كما أخبر بذلك طائر العنقاء في إلياذة هوميروس، وردد ذلك إيزوقراط)، ثم انفصلا انفصالا ضارًا نتيجة اتهامات سقراط وانتقاداته، وهو ما أدى إلى انسحاب الفلاسفة من التخصص في البلاغة بعيدًا عن الأخلاق amoral، كما مارسه السوفسطائيون وتلاميذهم السياسيون. [انظر السوفسطائيون **Sophists**]. كان غرض شيشرون هو أن يعيد دمج ما يسميه بالفلسفة ضمن عُدة الخطيب، ويثري البلاغة أخلاقيًا وجماليًا بواسطة تأملات أخلاقية ونفسية (منظورًا إليها هنا على أنها جزء من المهارة البيانية *elocutio*، وسبيلا للتنوع والكرامة، وليست مصدرًا للحجاج المقنع).

انتقلت مقاربة جديدة إلى التعبيرات الرهيفة التي توغلت في جسد الكلام اللطيف مثل الدم الذي يضخ الصحة والألق؛ وقد اعتمد هذا القسم على معانٍ أخرى لتوضيح الحاجة إلى تجنب طلاوة الكلام الزائدة عن الحد. فهناك حاجة إلى تنوع الصوت واللون والرائحة للحيلولة دون الإفراط أو الملل.

لقد أوضح شيشرون عند هذه النقطة أن التعبير يمكن أن يكون مميَّزًا دون الزينة الشكلية للمجازات وأشكال البديع. وبعد قسم حول تطبيق منهجيات تحليلية على كل من البلاغة العملية للحياة العامة والمناظرات النظرية، يصل المتكلم باسم شيشرون إلى المتطلَّبين الثالث والرابع لثيوفراسطس، وهما الملاءمة والبديع؛ اللذين يناقشهما بترتيب معكوس. ويقسم البديع إلى:

١) النطق الصوتي والاختيار البديعي للكلمات المفردة من سجلات مخصوصة (تراثية، شعرية، منحوتة)، أو المجازات مثل الاستعارة والكناية (3:149 - 172)؛

٢) الاستخدام البديعي للإيقاع، خاصة في حسن تقطيع الجمل (3:173 - 199)؛

٣) قائمة موجزة لأشكال البديع الشائعة في الكلام (مثل أنماط التكرار) وفي الفكر (مثل الطرق التي يستطيع المتكلم من خلالها أن يستبدل بجملة خبرية صيغًا تركيبية أخرى مثل السؤال أو الطلب أو التمني أو الوعيد) (199 204 -). من المحتمل أنه لا يوجد شرح وافٍ لكيفية جعل خطبة تتضمن حججًا جيدة بيانية بحق في تعبيراتها. وفي فقرات أخرى، يلح شيشرون في خطبته الدفاعية عن الشاعر آرخياس Archias على قوة البيان لجعل الغائب حيًا (تشتق كلمة "دليل evident" في الإنجليزية من كلمة "*evidential*"، وعلى نحو ما تُشتق كلمة "تمثيل representation" من "*re - praesentare*"): فالكلمات البيانية يمكن أن تعبر عن شخصية، بدرجة أكثر حيوية من رسم أو نحت ما، وربما تعيش إلى الأبد.

سوف يعود شيشرون إلى موضوع التعبير في عمل أخير له هو "الخطيب" فيما يتعلق بالدفاع عن نموذجه الشخصي للبيان أمام جيل جديد كان أميل إلى تفضيل الأسلوب الأقل زخرفة. ومن المهم أن نفهم طرافة حجج هذا البحث، وأن نلخصها؛ لأنها كانت ذات تأثير عظيم على تعاليم أوغسطين عن

البلاغة المسيحية. وقد حاول شيشرون فيها أن يرد على النقد الذي وجهته جماعة من الخطباء الطهوريين الجدد، الذين حاربوا من أجل البساطة الأتيكية Attic (في لهجة أثينا القديمة)، وعلى شكوك صديقه المتفلسف بروتس حول فائدة إلباس حجة أمينة ثوب التعبير الحسن [انظر، **Atticist–Asianist controversy**]. من المحتمل أن بروتس لم يكن مقتنعًا بالحجة الافتتاحية القائلة إنه لابد من وجود شكل أمثل للبيان، مقارنة بالأشكال الأفلاطونية للخير، لكن كان من مصلحة شيشرون أن يرفض توصياته لكونها مجرد انعكاس لأسلوبه هو الناجح. وفي الواقع، فإن البيان العام لدى شيشرون أصبح بعد سنة ٥٠ بعد الميلاد أكثر تبسيطًا، وأقل إثارة للحماس.

انطلق شيشرون من تشبيه أفلاطون للفلسفة بالتدريب الضروري للصحة العقلية، محاججًا بأنه لا يوجد أي شخص يستطيع أن يتحدث بثراء في الأمور المهمة بدون الفلسفة (Orator 15)؛ هذا الثراء أو اكتمال الكلام (Copia) هو أنموذجه الخاص، الذي حافظ عليه، حتى حينما أقر بالحاجة إلى ثلاثة مستويات من الأسلوب على الأقل، وبالحاجة إلى تكييف الأسلوب استجابة للحالة الانفعالية للجمهور وتوقعاتهم (24). [انظر **Copia**]. يصف هذا العمل مجموعة من الأساليب، الشخصي منها والعام، بحسب ما استخدمه الفلاسفة، والمتكلمون ذوو المظهر السوفسطائي sophistic display وحتى المؤرخون، الذين كتبوا عادة ليُقرأوا لا للعرض على العامة، وربما كانت هذه هي المرة الأولى التي يضع فيها ناقد بلاغي في اعتباره نوع البيان المناسب لنوع نثري مكتوب. لقد منح شيشرون لقب "بياني" فقط للرجل القادر بكلامه على إنجاز ثلاث وظائف هي إثبات حجته، وسحر جمهوره، وكسب مشاعرهم (69)؛ ويحاجج لصالح نوع من السيطرة على مستوى الأسلوب تحدده الملاءمة. لكن في حين أنه يرى أن البيان بوصفه مزجًا مهاريًا بين

المستويات الثلاثة للكلام، فإن أنموذجه يظل هو المستوى الأرفع، لأنه يدعي أن الرجل القادر على المستوى الأكمل من الكلام يمكنه أيضًا أن يستخدم الأسلوب الأوسط الأكثر تخفيفا والأسلوب بالغ الجفاف، الذي يصنع تقابلا مفيدًا. ويقدم في الواقع قسمان من هذا البحث - الأقرب إلى الشكلية - المكونات التي يرى أنها ضرورية للبيان؛ وفي البداية يأتي تصوير المستويات الثلاثة للأسلوب (75-90, 91-96, 97-100)، ثم أنواع البديع اللفظي المناسبة لكل نوع من الكلام الذي يصل إلى غايته في تصويره للـ "المتكلم الكامل، الثري، المصقول، المولع بالزخارف" الذي يملك ناصية البيان وتدفقه. والمكون الثاني هو التبرير والتقييم المطول للإيقاع في الكلام النثري. فالخطيب يحقق نجاحات جديدة حين يعطي لآذان الجماهير أهمية موازية للأهمية التي يعطيها لعقولهم. ولسوف تتغير النماذج الإيقاعية في العصور الوسطى، وما يتلوها، لكن التأثير السمعي للإيقاعات المحببة سوف يظل مكوِّنًا حيويًا للبيان، ولقد حُلِّل بعناية شديدة في هذا البحث.

ردود الفعل المؤيدة لشيشرون والمضادة له في القرن الأول

ما بين وفاة شيشرون وتجديد الشيشرونية على يد كينتليان، ظهرت ثلاثة أصوات جديدة مهمة في تطور البيان. مع ذلك، يبدو الصوت الأول لي سلبيًا تمامًا؛ والذي تمثل في طريقة تدريس تسمى *declamation*، حيث يُكلَّف فيها التلاميذ بعمل خطب حول مسألة قضائية أو سياسية، ثم تقام بينهم المنافسات لكي يبز كل منهم الآخرين في أصالته وتأثير خطبته [انظر، **Declamation**]. هذا النزوع نحو الأصالة قاد إلى حجج مفارقة وغريبة بشكل متزايد، والتعطش للتأثير أظهر نفسه بشكل رئيسي بجلاء في صك الحكم apothegms أو الأقوال المأثورة البديعة. والمقتطفات من الخطب التي حفظها لنا سينيكا الأكبر Seneca (c. 55 bce–c. 39 ce) تعكس أسلوبًا مضادًا للبيان،

يشتت السامع بتحولات فكرية مفاجئة، وبالتركيز الممجوج على المحسنات البديعية.

كان الصوت الأكثر إبداعية هو رد فعل ابنه، الشاعر التراجيدي والأخلاقي سينيكا Seneca (c. 4 bce–65 ce)، وهو صوت يظهر بجلاء في نقده للبيان الزائد عن الحاجة في "*خطاباته الأخلاقية الأربعة عشر*". لقد ذكر أن صديقه كان مسحورًا بالتأثير الهائل لأحد الأخلاقيين اليونانيين. فالفلسفة منشغلة بالحقيقة، وبشفاء العقول المريضة، ولابد أن تكون زخارفها بسيطة وغير مصطنعة، حتى تتسرب إلى الذهن: "لكي تهدئ الفلسفة من مخاوف البشر، وتنفِض عنهم ضلالاتهم، وتستعيد طمأنينة نفوسهم، وتدين جشعهم، لابد أن تهيئ لكلماتها مواقعها بعناية، ولا تقذفها حيثما يكون: ربما تُحلق الكلمات أحيانًا، لكن هذا لا يجب أن يصل إلى حد التقليل من نبالة المتكلم" (40.5, 7 - 8). هذا الأسلوب من الهجاء السينيكي، الذي يصل إلى الحد الأقصى من المضايقة، هو أساس أسلوب الإقناع بالمزايا والعيوب الذي أطلق عليه السوفسطائيون protreptic، وسوف يتم تبنيه مرارًا وتكرارًا بواسطة الوعاظ الفلاسفة والدينيين اللاحقين. وتشتمل الخطابات كذلك على مناقشة مؤثرة لممارسة المحاكاة، تدافع عن أن المتكلم/ الكاتب يشكل أسلوبه من خلال قراءة وهضم أنماط عديدة (الخطاب رقم ٨٤).

إن الخطاب رقم ١١٤، وهو أشهر خطابات سينيكا من زاوية ملاحظاته النقدية، كانت نقطة انطلاقه هي افتراض أن البيان قد فسد في فترات معينة بسبب انغماس المثقفين في أخطاء، مثل التشدق أو النطق المخنث. وهو يحاجج بأن أسلوب حياة البشر هو الذي يؤدي إلى تدهور أسلوب كلامهم، وبحسب ما يعكس شِعر ماسيناس انغماسه في الرفاهية، فإن نثر سالوست وأتباعه يُحدث خشونة مفاجئة ومبهمة. وكما أن العقل المريض

سوف ينتج سلوكًا فاسدًا، فإن العقل الصحي يكشف عن نفسه من خلال الكلام السليم. ومن المدعاة للسخرية، أن سينيكا نفسه أصبح مثالا جليًا للبيان الفاسد المفسد في الجيل التالي، بالقياس لكينتليان. ونظرًا لأننا فقدنا رسالة كينتليان المستقلة المعنونة بـــ "حول أسباب فساد البيان" (*Io* 5. 12. 23, 6. preface 3) يصبح تعليقه على سينيكا في *Institutio oratoria* (10. 1. 125–132) الدليل الرئيسي لرد الفعل الذي ندرسه.

التطور الثالث في النقد قُدم في رسالة "حول السمو *On The Sublime*" (يرجع إلى عام ٦٠ قبل الميلاد)، لمؤلف غير معروف، هو لونجينوس Longinus، الذي يقترح كون السمو هو الغاية الجديدة للبيان في الكتابة والكلام. يتضمن النص (الذي تآكل جزئيًا) ملاحظات وشروحًا لخمس وسائل يمكن من خلالها الوصول إلى تلك الفضيلة؛ (١) بواسطة الكلام عن موضوعات راقية، (٢) بواسطة تطبيق القوى العاطفية (Pathos)، (٣) بواسطة تطبيق المجازات، (٤) بواسطة استخدام حجج نبيلة، (٥) بواسطة الإنشاء المتميز والمنسجم. وعلى الرغم من أن هذه الرسالة الدقيقة كان يمكن أن تمارس تأثيرًا عظيمًا على قيم الأدب الأوروبي (ربما على الشعر أكثر من النثر) فإن النص اكتشف متأخرًا، ولم ينشر حتى عام ١٥٥٤، ويُرجع العلماء بداية تأثيره إلى زمن ظهور ترجمته عام ١٦٧٤، والتعقيبات النقدية عليه لنيكولاس بولاو – ديسبرو Boileau - Despréaux (1636–1711) عام ١٦٩٤، أي بعد وقت طويل من عصر النهضة.

لقد كان كينتليان (٣٥م – ١٠٠م) في زمنه مدرِّسًا أكثر منه خطيبًا. لكن إثر اكتشاف أعماله في القرن الخامس عشر أصبح بالغ التأثير على المثل العليا للبيان في عصر النهضة. لقد كان الكثير مما يدرِّسه من المبادئ صدى للمبادئ الشيشرونية. وفي الواقع لم يكن شيشرون بالنسبة لكينتليان

"مجرد اسم لرجل، بل عَلَمًا على البلاغة نفسها". وفي مفتتح عمله يبين كينتليان توقعاته من البيان، والعلاقة بين التخييل والقوى العاطفية" (10. 1. 116): فثمة قدر بالغ الضخامة من البيان يعتمد على التخييل: قلبُ المتكلم لابد أن ينبض، وأن يتخيل الأحداث، ويكيفها بما يتوافق مع طبيعة ما يصفه". فيما بعد، سوف يقدم مفهوم الصورة الذهنية، لكي يشرح كيف أن الخطيب ربما يستدعي لنفسه العواطف التي يتمنى أن يعايشها مستمعوه.

ولكن على الرغم من أن كينتليان حاكى شيشرون في التعريف التقليدي للبيان بوصفه مكونا من خمسة عناصر هي الابتكار والترتيب والأسلوب واستراتيجيات الحفظ والتذكر والإلقاء (3.3.7)، فإنه كذلك يقصر البيان بشكل أكثر دقة على روعة التعبير. ويكرس كتابين بأكملهما للمجازات ووجوه الخطاب والإيقاع، وكتابًا ثالثًا لإثراء بيان المرء بواسطة محاكاة النماذج المرغوبة، كما تتمثل في الكثير من النتاج الشعري والأدبي والبلاغي. وهناك فحسب فصل طويل لكنه متأخر ضمن كتابه الأخير ينشغل بالبيان بوصفه تعبيرًا شخصيًا. ويلخص مناقشته منتهيًا إلى أن "البيان له عديد من التجليات، لكن لكل شكل استخدامه السليم، شريطة أن يكون شكلا صحيحًا، ونفس والشيء نفسه يُسمى في العادة أسلوبًا (genus discendi) ليس مجرد شيء مفرد خاص بالخطيب: بل هو بالأحرى سيستخدم كل أسلوب بحسب ما تتطلبه لا بالنسبة لكل خطبة فحسب، بل أيضًا بالنسبة لكل جزء منها.

البيان إذن يعتمد على الاختيار الملائم من بين تنويعة من الأساليب. ومع ذلك فإننا في هذا المسح الذي يتتبع تطور البيان مررنا بمقاربتين قديمتين للبيان، تجددان بشكل ثابت بواسطة المنظرين القدماء: كان على الأول أن يركز على أهمية الإلقاء، وهي مهارة لا تقتصر فحسب على الأداء اللفظي، بل اعتبرها ديموستين، المتطلب الأول، إن لم يكن الوحيد، للكلام، وتابعه في ذلك كل لاحقيه بمن فيهم شيشرون وكينتليان.

والمقاربة الثانية دافعت عن مُثل البيان من خلال تقريظ الأسلوب السليم وإبعاد الخطيب من الطرق الأخرى المنبوذة. فقد حذّر شيشرون مَنْ يرغب في أن يكون خطيبًا من استخدام لغة الشعراء: فالخطباء لابد أن يتواصلوا بلغة وأفكار وقيم مألوفة بالفعل للجمهور، وعلى نحو مشابه، فإن عليهم أن يتجنبوا الحركات والتلميحات التي يستخدمها الممثلون، التي قد تكون مفتعلة أو مبتذلة.

وقد كان النقاد بالفعل - منذ السنوات الأخيرة لشيشرون وصولا إلى كونتليان وتاسيتوس (c. 56–c. 120 ce) - يستخدمون استعارات الجسد والنوع والزينة لوصف الأسلوب وإدانته: فقد وجد النقاد الشباب أن أسلوب شيشرون مخنث ومتصدع، أو مزهو، أو متكلف، وهو تقريبًا ألين من أن يكون لرجل حقيقي، في حين أن كينتليان يطلق على الأتيكيين الخُلّص "الجافين، مفتقدي الرونق والحيوية". في حين تحدث بلاغيون محافظون آخرون، مثل سينيكا الأكبر، عن الضفائر المعطرة والتي تزين الأسلوب الحديث.

يطور آبر Aper خطيب تاسيتوس الحداثي في "محاورة حول الخطباء العظام"، الاستعارة الجسدية بشكل تفصيلي: "الخطبة مثل جسد الإنسان، يكون جميلا فقط عندما لا تكون الأوردة معروقة، والعظام ناتئة، بل حين يملأ الدم النقي السليم الرئتين ويتسرب إلى العضلات، بينما تغطي اللمعة الوردية والجمالية تضاريس الجسد"، ومع ذلك فإنه يريد من بيان الخطيب أن يكون مجهزًا مثل بيت غني ببريق الذهب والجواهر، وأن يكون الخطيب نفسه متألقًا بلغته المصقولة". ويضع ميسالا Messala، خصمه المحافظ، المظهر الأمين للخطب البدائية المبكرة في مقابل "لي الألسنة، والزينة البراقة المزخرفة، والأردية المخنثة للخطابة الحديثة. فالمتكلمون المحدثون لا يوحون حتى بالأسلوب الرجولي، بل ينغّمون كلامهم، ويهتزون كممثلي المسارح".

إن النمط الاستعاري لكينتليان أقرب ما يكون إلى الحل الوسط: فهو يريد من الخطيب أن يتدرب لكي تكون له صلابة عضلات الجندي وشدة تحمله، وليس ليونة مفاصل الرياضي المحترف (10.1.33). وعلى الرغم من أنه يذم التأنق والفخامة، فإنه ينحاز إلى "الرجل المؤهل الجذاب ذى الأنفة الكريم، الذي يصل في مهنته إلى القمة لكي يقود ويسيطر (صورة عسكرية) على مصادره الغزيرة للبيان.. لكن وفرته لابد أن يحدها حد، فبدون ذلك، لن يستحق شيء المدحَ أو أن يكون صحيًا، فلابد أن يكون بريقه نتاج صقله الرجولي، وأن تظهر قوته الإبداعية حكمه الصالح" (12. 10. 79-80). كل هذه التمثيلات تعكس توترًا أصيلا بين الرغبة في إعطاء البيان دفعة قوية للأمام، والخوف من العبثية وافتقاد الكرامة الرجولية عبر المبالغة.

موجز تاريخي ونقدي: البلاغة المسيحية - الصياغة الأوغسطينية للبيان المسيحي

أدرك شيشرون في محاورته المفقودة *Hortensius* الحاجة للبيان في الوعظ الأخلاقي، وقد مارس الفيلسوف سينيكا الخطابة، والوعظ الأخلاقي، كما رأينا بالفعل. وقد احتفى سينيكا نفسه بالتأثير الأسلوبي والأخلاقي لفلاسفة مدرسة الستة اليونانية، ومدرسة فابيوس بابريانوس Papirianus المفقودة أعمالهما. لكن أحد الخيوط المهمة في تطور الخطابة التعليمية والوعظية قد نسجها نوع مغاير تمامًا من البلاغة اليونانية، وهي الخطب البيانية التي عادة ما أُطلق عليها السوفسطائية الثانية the Second Sophistic، التي ألقاها رجال من بلاد اليونان وآسيا الإغريقية التي احتلها اليونانيون، وكانوا يعرضون فيها سحر بيانهم بوصفهم سفراء لمدنهم، وكمحاضرين لجمهور من العامة المتعلمين البالغين في اليونان وروما، وكمؤلفين للمدائح والنقائض والمقالات المعدة للقراءة. كان من بين الأعلام البارزين ديو الكريسوستومي البروسي

(٤٠ - ١١٠م) Dio of "Chrysostom" Prusa، وفافورينوس الأرلي (٨٥ - ١٥٥م) Favorinus of Arles، وبوليمون اللاوديسي (٨٨ - ١٤٤م) Polemon of Laodicea، ولوسيان السموسطي في سوريا (١٢٠ - ١٨٠م)، الذي كتب لأجل القرّاء غالبًا، وآليوس أرستيديس (١٢٠ - ١٨٠م)، مؤلف "مدائح مهداة لروما". كل هؤلاء الرجال كانت غايتهم البيان المنمَّق والمزركش، الذي كان تأثيره على بلاغة ما بعد الكلاسيكية محدودًا، وذلك بسبب اكتشافهم المتأخر نسبيًا. ومع ذلك، فإن الوعاظ المسيحيين البارزين الذين تمرسوا على البلاغة الشيشرونية، في اللغة اللاتينية، وظفوا مستوى راقيًا من البيان في طقوسهم وبحوثهم: وكان الأكثر أهمية من بين هؤلاء الأفريقيان ترتوليان Tertullian (١٦٠ - ٢٢٠م)، ولاكتانتيوس (٢٤٠ - ٣٢٠م) Lactantius. ولكن مع أوغوستين فقط (٣٥٤ - ٤٣٠م) Aurelius Augustinus، وهو روماني آخر من أفريقيا، نجد إسهامًا دالا وباقيًا في تاريخ البيان. انظر [**Homiletics**]. وكان أوغسطين في الثلاثين من عمره بلاغيًا محترفًا ومولعًا بشيشرون، حين قرر أن يقلع عن الحياة المدنية كمعلم بلاغة ليكرِّس نفسه لنشر المسيحية. وعلى مدار أربعين عامًا ربَّى أتباعه المسيحيين بواسطة الطقوس والخطابات والرسائل، وأخيرًا بواسطة رسالة له هي "في البيان المسيحي" (*De doctrina christiana*)، مكونة من أربعة كتب.

على الرغم من أن الكتب الثلاثة الأول –حتى الفقرة ٣٥ من الكتاب الثالث - أُلِّفت حوالي عام ٣٩٧م، فإن الكتاب الرابع لم يكتمل إلا بعد ثلاثين عامًا. بدأ أوغسطين، مثل شيشرون، بالتأكيد على أن الواعظ لابد أن يعرف تمامًا ويفهم كلية ما الذي سيُعلمه، لكن هذه المعرفة محدودة بالكتب المقدسة باعتبارها كلمات الرب. وفيما يتعلق بالابتكار كان على أوغوستين أن يقدم مبدأ تأويليًا جديدًا للتمييز بين الكلمات والعلامات: ومن ثم فإنه حين يبدو

المعنى الحرفي للعبارة التوراتية غير أخلاقي أو غامضًا فإن هذا يرجع إلى أن كلمات النص هي مجرد علامات لشيء مختلف كلية، وتعكس حاجة الكتاب المقدس إلى الكلام بشكل متباين لجماهير يفترض ضمنيًا أنها متباينة، وذلك كنوع من الملاءمة.

الجزء الأكثر تأثيرًا في تراث أوغسطين كان هو الكتاب الرابع، الذي اتجه فيه إلى دراسة الشكل الذي يجب على الواعظ أن يقدم من خلاله كلمة الرب. وبوصفه معلمًا للبلاغة الوثنية، وقد عانى أوغسطين الشاب اغترابًا بسبب الخشونة اللغوية للترجمة اللاتينية المعتمدة آنذاك للتوراة، وافتقادها للبيان (*Confessions* 3. 5. 9)، لكنه حاجج في فترة نضجه بأن المتكلم المسيحي يجب عليه ألا يدع غياب الرونق من الترجمة يعمي المرء عن رسالتها، بل عليه أن يتخذ من كتاب مسيحيين مثل بولس الرسول أو "نبي العهد القديم" آموس نموذجين له.

ومع ذلك، فقد اضطلع على وجه الإجمال بإطار عمل شيشرون، على نحو ما ورد في رسالته "الخطيب"، وسوف يُعنى بالفضائل الأربع للكلام عند ثيوفراسطس، والوظائف الثلاثة للخطيب، التي تحددها ملاءمة استخدام كل مستوى من مستويات الأسلوب الثلاثة. ومن بين الفضائل الأربع، اعتبر الوضوح clarity والملاءمة appropriateness جوهريين بشكل واضح، وسوف يُعرَّف الأسلوب الصادق ببساطة من خلال فضيلة الوضوح التي يتحلى بها. والملاءمة هي مناط التمييز بين ما يجب أن يُقال أمام جمهور عام وما يمكن قوله في الكتب أو حتى في المحادثات الشخصية لأن الصعوبات والغوامض يمكن مناقشتها في المحادثات وشرحها في الكتب. هنا "يجب على المتكلم ألا يتوخى حسن البيان، بل وضوحه" (4. 23، ترجمه روبرتسون Robertson).

ومن ناحية أخرى لا تتطلب التعاليم المسيحية مجرد التفهم فحسب، بل أيضًا القبول والفعل: "عندما تتحتم ضرورة وضع ما تم تعلّمه موضع التنفيذ.. فإن حسن بيان الخطاب يحقق متعة بلا جدوى، ما لم يضع ما تعلمه موضع التنفيذ (14:92)". وبحسب ما يقرره كينيدي، فإن غرض البيان المسيحي هو "تعميق الفهم وتحويل المعتقدات إلى أعمال" (1999, p. 180). مع ذلك، فإن أوغسطين كان متشوقًا لاستخدام زخارف ملائمة في المستويات الثلاثة من الأسلوب: سوف يستخدم الواعظ كل أسلوب بحسب الحاجة، سوف يتكلم "بطريقة هادئة حين يدرس، وبطريقة معتدلة حين يمجد الرب، وبطريقة أخاذة حين يحرك عقلا معاندًا باتجاه الإيمان". (4.38). ويضرب أوغسطين أمثلة توضيحية على هذا بشكل درامي من خبرته الخاصة، واصفًا كيف أنه شرع في إقناع أهل مدينة موريتانيا بالإقلاع عن عادة شعائرية للذبح المدني، مستخدمًا طريقة آخاذة "لكي يجعلهم شغوفين بنزع هذا الشر من قلوبهم". كان هذا يتطلب قبولهم الفعلي: لذا فعندما صفقوا له، لم يصدق أنه قد أحرز أي نجاح، إلى أن جعلهم بالفعل يبكون (4. 53). وبالنسبة لأوغسطين فإن وظيفة البيان هي الإقناع؛ واختيار الأسلوب تحدده أفضل السبل لإنتاج الإقناع، وما لم يُقنع الخطيب "فإنه لم يحقق غاية البيان" (4.55). [انظر **Religion**].

البيان في العصور الوسطى وعصر النهضة

على مدار العصور الوسطى، كان رجال الدين يسعون وراء مستوى من التنويع الصوتي صقلته الصنعة لأجل الوعظ الشفهي، والمساجلات controversy، ولكتابة الرسائل كذلك. ويبدو أن التراث المأثور بكتيبات إعداد الرسائل dictamen قد ظهر أولا؛ وبدأ في حدود منتصف القرن الحادي عشر مع كتاب "أزهار البلاغة *Flowers of Rhetoric*" (حول الأشكال البلاغية)، وكتاب "الموجز *Breviarium*" (حول الإيقاع والتأليف)؛ وكلاهما من تأليف

ألبيرك من مونت كاسينو Alberic of Monte Cassino. وبدأت الكتب التمهيدية عن الوعظ في الظهور في القرن الثاني عشر، وأصبحت مهجورة بشكل متزايد تحت تأثير أنظمة الوعظ الفرنسيسكاني Franciscan والدومينيكاني Dominican بدءًا من القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر(١).

وعلى الرغم من أن البيان الشكلي كان ما يزال محصورا في اللغة اللاتينية، فإن دانتي استخدم اللاتينية ليدعِّم بقوة البيان المكتوب بلغة الحياة اليومية، وهو مستوى بالغ الشيوع من اللغة المحسنة من بين العديد من الصيغ المحلية للإيطالية، وذلك في مؤلفه (*De vulgari eloquentia*) الذي ظهر فيما بين عام ١٣٠٤ - ١٣٠٧). لكن اهتمامه المحوري كان يدور حول الشعر العامي: وفي كتابه الأول فقط حاكى المعيار الشيشروني للشكل الأرقى من اللغة: أي أن اللغة لابد أن تكون راقية، تُختار لتميزها، ووضوحها، واكتمالها، ورونقها، مع القدرة على تحريك قلوب الرجال لكي يصبح غير الراغب راغبًا (1. 16,17)، وتعامل مع موضوعات مرموقة وتستحق المعالجة (2. 1,2). وقد طور بترارك (1304–1374) بعده بمدة وجيزة اهتمامه بالبيان اليوناني في محكمة البابوية بأفينجون، حيث اكتشف مخطوطة شيشرون "من أجل آرخياس *On Behalf of Archias*"، التي يمدح فيها الشعر، وخطاباته لأتيكوس *Letters to Atticus*. قام بترارك بتجميع أعمال شيشرون وليفي وأوغسطين وشرحها، مقتفيًا في أعماله الخاصة النثرية باللاتينية أعمال أوغسطين (*Secretum*، ومحاورته لامتحان الذات(٢))، والأعمال الأخلاقية لسينيكا. لقد سعى بترارك وراء البيان في أعماله النثرية (بما فيها الخطابات

---

(١) الرهبنة الفرنسيسكانية رهبنة كاثوليكية أسسها القديس فرنسيس الأسيزي عام ١٢٠٨. أما الرهبنة الدومينكانية فهي رهبنة كاثوليكية أسسها القديس دومينيك عام ١٢١٦. (المترجم).

(٢) إشارة إلى كتاب أوغسطين "الاعترافات".

المألوفة الأخيرة، التي خاطب فيها شيشرون وسينيكا وغيرهما مِن الكتاب الكلاسيكيين، وكذلك في ملحمته الشعرية "أفريقيا"). ويمكن أن نمثّل للجيل التالي بعمدة فلورنسا سالوتاتي (1406–1331) Salutati، في مراسلاته الرسمية ودعمه الشخصي للبحث عن كتابات المؤلفين اليونانيين. فنتيجة لجهوده التحفيزية، اكتُشف النص الكامل لكينتليان في ١٤١٦، والنصوص الكاملة لشيشرون (حول الخطابة، وبروتس، والخطيب) في عام ١٤٢١، والكتب الثلاثة الأخيرة كانت من بين أوائل الكتب التي نشرت في إيطاليا في عام ١٤٦٥، في حين شهد أيضًا الحافز الشعبي على المهارة البلاغية النشر الأول لكتابي (*Rhetorica ad Herennium, De inventione*) وكُتب كينتليان عام ١٤٧٠.

هيمنت النزعة الإنسانية على إيطاليا في القرن الخامس عشر، التي عمل فيها رجال الدين المتعلمون في الكنيسة والدولة على نحو سواء، واشتغلوا خطباء وعلماء في الوقت ذاته. فقد نشر عمدة فلورنسا Bruni، على سبيل المثال، خطبة في مدح هذه المدينة عام ١٤٠٣، وترجم محاورتي جورجياس وفايدروس لأفلاطون، مع محاورات أخرى، إضافة إلى خطب ديموستين وآسشين "حول التاج". حُسِّنت التربية الإنسانية بواسطة مدرسين مثل جورينو من فيرونا(1460–1374) Guarino at Verona، وفيتورينو دي فيلترا من مانتوا (1446–1378) Vittorino da Feltre، وبواسطة الكتب الستة عن اللغة اللاتينية الأنيقة، للورنزو فالا Valla سكرتير البابا، التي تضم تعليمات بخصوص الاستخدام السليم للنحو. لقد احتفى آخرون بعمل فالا الضخم، الذي يتجاوز مجرد كونه كتابًا في النحو، للسبب نفسه الذي مدح لأجله كتابه بنفسه، فقد ادَّعى "أن الحفاظ على اللغة الرومانية" أداة حاسمة للحفاظ على الهيمنة الثقافية لإيطاليا على أوروبا. وقد شهد النصف الثاني من القرن طورًا جديدًا أكثر نقاوة من ترقي البيان الشكلي، بظهور الخلافات الأدبية حول

المحاكاة الكلاسيكية كأساس للأسلوب الشخصي. وهكذا اشتهر رفض الشاعر العالم بوليتيان (1454–1494) Politian محاكاة شيشرون، داعيًا إلى التعبير عن نفسه بدلا من ذلك. وحوالي عام ١٥١٢ تبادل الكاردينال بمبو Bembo (1470– 1547) والشاب جيان فرانسيسكو بيكو دو لا ميراندولا de la Mirandola خطابات عنيفة يدافع فيها الأول عن المحاكاة الأمينة لبيان شيشرون ويهاجمها الآخر.

لقد وصلت المحاكاة الحرفية لشيشرون، إلى حد تجنب أي صيغة للكلمة (وليس مجرد الكلمة) التي لا توجد في أعمال شيشرون، ووصلت إلى أقصى تطرفها على جانبي جبال الألب. وهكذا يسخر إرازموس (c. 1466–1536) Erasmus – الذي درس التراث الجدلي في ديفنتر على يد الإنساني الألماني أجريكولا (1444–1485) Agricola، وأتقن البيان اللاتيني المرن المؤسس على أعمال الكثير من المؤلفين – من الباريسي كرستوف دى لونجي Christophe de Longeuil (1488–1522)، بوصفه مولعًا بنوسوبونس، في محاورته "الشيشروني". إن المتحدث الشخصي باسمه يوصي على نحو طبيعي بمذهب إرازموسي انتخابي قائم على التمييز. فبالإضافة إلى نموذج إيراسموس *Colloquies*، ومجموعته الواسعة الانتشار *Adages*، وكتيب إرشاداته لكتابة الحروف *De conscribendis epistolis*, 1515. وهما عملان من أعمال إرازموس العديدة في تاريخ البلاغة تتطلب اهتمامًا خاصًا. وقد ألَّف في عام ١٥١١ كتابًا جامعًا من أجل صديقه جون كوليت، مؤسس مدرسة سانت بول بلندن، دُرس على نطاق واسع لفترة تزيد عن قرن من الزمان. هذا الكتاب يحمل عنوان "حول نوعي الإطناب في الكلمة والإحالة *De duplici copia verborum et rerum*. ويحاجج في مقدمته بأن متحدثي اللاتينية ومن يكتبون بها، يجدر بهم أن يقرأوا على نحو شامل الكتب الشهيرة ويحفظونها؛ فلو أنهم احتاجوا إلى الاختصار فإن المهارات نفسها التي مكنتهم من

الإسهاب في نصوصهم وتوسيعها هي التي ستمكنهم من إيجازها لو استلزم الأمر ذلك. انظر [Commonplaces and commonplace books]. يوضح الكتاب الأول كيف يمكن توسيع موضوع من خلال الإسهاب في الكلمات عبر تنويعة من المجازات والأشكال البلاغية؛ أما الثاني –الذي ربما يُعد أكثر أهمية – فيتناول كيف يمكن توسيع المحتوى. ويوصي إرازموس –مطوعًا درسه لما يطلق عليه في كتابه *Rhetorica ad Herennium* "الترشيح refining" (التلميح *expolitio*, 4. 54–57) – بإثراء الموضوع المناقش بواسطة "تجميع الحجج وشرحها وتوسيعها بواسطة استخدام الأمثلة والمقارنات والتشابهات والاختلافات، والتعارضات وغيرها من الإجراءات" (*Collected Works* 24. 1. p.7 301). كانت اللاتينية ما تزال مطلوبة كأداة للكلام الرسمي، وهذه التعليمات المقدمة لطلاب المدارس كانت تجعل من فضيلة التنوع مصدرًا للتأثير.

هناك كتاب مختلف للغاية – وتم تأجيل الحديث عنه طويلا – هو كتاب إرازموس "حول فن الوعظ *On the Art of Preaching* (1535)". كانت غاية إرازموس هي تقديم إرشادات لمن يعظون باللغات المحلية، بأن يضعوا في الاعتبار حاجتهم إلى مخاطبة جمهور يشمل الفلاحين والملوك؛ والواعظ يجب أن يخدم الملوك –على الرغم من سلطانهم – بوصفه أبا لهم ومعلمًا وموجهًا. يعرف الكتاب الأول دور الخطيب، مسترجعًا متطلبات شيشرون التعليمية، وأيضًا اهتمام أوغسطين بالتواصل الواضح. الكتابان الثاني والثالث يحذوان حذو إرشادات كتاب *Rhetorica ad Herennium* حول الحجاج والتعبير، والأداء. ويتعامل الجزء الأخير من الكتاب الثالث والكتاب الرابع على نحو واضح مع الشروح المسيحية، والمعاني المزدوجة للمجازات، مثل "جسد الكنيسة"، والمفاهيم الدينية الرئيسية التي يجب تعلمها. يحيل إرازموس غالبًا إلى عظات أوغسطين، ويحذو حذو كتابه "التعاليم المسيحية *De doctrina*

"Christiana، في انشغاله بالمصطلحات التوراتية بوصفها علامات. كان رد فعل إرازموس على الشيشرونية الحرفية والمبالغ فيها ما يزال شيشرونيًا في روحه، لكن ظهر رد فعل أقوى مع نزوع الجيزويت Jesuit لتفضيل تبني أسلوب سينيكا الثلاثي في عظاتهم الدينية الخاصة.

ويمكن النظر إلى كتاب نيكولاس كوزان Caussin "توازيات المقدس والبيان البشري *"Parallels of Sacred and Human Eloquence* (Paris, 1619) بوصفه نقطة تحول. وبحسب ما يبرهن فمارولي Fumaroli (1980) بالتفصيل فإن البيان الشعبي في القرن السابع عشر كان عليه أن يعبِّد طريقًا بين تراث التشدد الأوغسطيني والأذواق العلمانية الوثنية الموجودة في قاعات المحاكم. كانت البلاغة المقدسة قد تأثرت بالفعل بالممارسات الوثنية في زمن إرازموس، حين أطلق بعض الوعاظ على الرب "جوبيتر العظيم المتفائل" "Jupiter Optimus Maximus"، لكن الطبيعة المحنكة لوعظ النخبة سوف تؤدي على نحو متكرر إلى ما أُطلق عليه في النهاية وعظ رفيع القدر مقدس، وهو اتجاه تمت محاربته فقط بواسطة التعليم الإصلاحي للسويسري فيليب ميلانكتون Melanchthon (1497–1560)، أو بمواعظ جانسينستس من بور رويال Jansenistes of Port - Royal، وأيضًا بإلهيات ومواعظ اللاهوتيين في دول الكومنولث الإنجليزي والمستعمرات الأمريكية الجديدة. [انظر أيضًا: البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric، ومقالين تمهيديين لمدخل بلاغة العصور الوسيطة Medieval rhetoric ومدخل بلاغة عصر النهضة Renaissance rhetoric]

النصوص الأصلية الرئيسية المدروسة: طبعات بترجمات إنجليزية

Saint Augustine. *On Christian Doctrine / De doctrina christiana.* Translated by D. W. Robertson. Indianapolis, 1958.

[Cicero.] *Rhetorica ad Herennium*. Edited and translated by Harry Caplan. In *Cicero*, vol. 1. Cambridge, Mass., 1949.

Cicero. *De inventione*. Translated by H. M. Hubbell. In *Cicero*, vol. 2. Cambridge, Mass., 1954.

Cicero. *De oratore*. Translated by E. W. Sutton and H. Rackham, vols. 3 and 4. Cambridge, Mass., 1942.

Cicero. *Orator*. Translated by H. M. Hubbell, vol. 5. Cambridge, Mass., 1939.

Erasmus, Desiderius. Foundations of the Abundant Style. (De copia). Collected Works of Erasmus, vol. 24. Toronto, 1982.

Erasmus, Desiderius. The Ciceronian / Ciceronianus. Collected Works of Erasmus, vol. 28. Toronto, 1986.

Erasmus, Desiderius. *Ecclesiastes: On the Art of Preaching*. See modern studies.

Isocrates. *Antidosis/ On the Exchange, and Against the Sophists*, vol. 2. Edited by George Norlin. Cambridge, Mass., 1929.

Isocrates. *Evagoras*, vol. 3. Edited by George Norlin. Cambridge, Mass., 1945.

Quintilian. *On the Education of the Orator / Institutio oratoria*. Translated by H. E. Butler. 4 vols. London and Cambridge, Mass., 1920.

Seneca. *Moral Letters / Epistulae morales*. Translated by R. M. Gummere. 3 vols. Cambridge, Mass., 1917.

Tacitus. *Dialogus / Dialogue on Distinguished Orators*. Translated by W. Petersen and M. Winterbottom. Cambridge, Mass., 1980.

دراسات حديثة

Bowersock, G. W., ed. *Approaches to the Second Sophistic*. University Park, Pa., 1974.

خمس مقالات حول البلاغة اليونانية المحفلية ومحاضرات حول القرن الثاني للميلاد، مصحوبة بفهارس.

Brown, Peter. *Augustine of Hippo: A Biography*. Berkeley, 1969. The best account to date of Augustine"s life and work.

أفضل عرض حتى الآن لحياة أوغوستين وأعماله.

Burke, Peter. *The Italian Renaissance: Culture and Society*. Princeton, 1987. Revised edition of *Culture and* Society in Renaissance Italy, 1440–1520. London, 1972.

بحث يدرس سياق البيان الشفاهي والمكتوب في عالم الاستثمار والثقافة المرئية. نسخة منقحة من كتاب "Culture and Society in Renaissance Italy".

Caplan, Harry. "The Decline of Eloquence at Rome in the First Century A. D." In *Of Eloquence: Studies in Ancient and Medieval Rhetoric*. Edited by Anne North and Helen King. Ithaca, N. Y., 1970.

Chomarat, Jacques. Introduction. In *Erasmus: Ecclesiastes, Erasmi opera omnia*, vol. 5. Amsterdam, 1991.

المقدمة بالفرنسية والطبعة باللاتينية.

Fumaroli, Marc. *L"age d"eloquence*. Geneva, 1980.

دراسة شاملة لتطور البيان، خاصة الوعظ في فرنسا من عصر النهضة إلى القرن السابع عشر.

Gray, Hanna H. "Renaissance Humanism: The Pursuit of Eloquence." *Journal of the History of Ideas* 24 (1963). Reprinted in *Renaissance Essays*. Edited by P. O. Kristeller and Philip P. Weiner, pp. pp. 192–216. New York, 1968.

Kennedy, George. *The Art of Rhetoric in the Roman World, 300 B. C. –A. D. 300*. Princeton, 1972.

التاريخ الأكمل للبلاغة في الخطابة والنثر الأدبي والشعر في روما.

Kennedy, George. *Classical Rhetoric and its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times*. 2d ed., Chapel Hill, N. C., 1999.

مسح متصل وفريد للبيان منذ عصر اليونان مرورًا بروما ثم العصر الوسيط وعصر النهضة حتى الوقت الراهن.

Kleinhans, Robert G. "Ecclesiastes sive de ratione concionandi." In *Modern Essays on the works of Erasmus*. Edited by D. L. De Molen, pp. pp. 253–267. New Haven, 1978. See Chomarat (1991) above.

نقد موجز لكتيب غير مترجم يتضمن تعليمات إرازموس حول الوعظ.

Kristeller, P. O. *Renaissance Thought; The Classic, Scholastic, and Humanistic Strains*. New York, 1961.

مقالات حول الدمج بين الفكر الوثني والمسيحي في إيطاليا في عصر النهضة.

Leeman, Anton. *Orationis ratio: The stylistic Theories and Practice of the Roman Orators, Historians and Philosophers*. 2 vols. Amsterdam, 1963.

يختلف عن كتاب كينيدي "فن البلاغة" في تركيزه على الأسلوب، والكتاب يشرح بطريقة الاقتباسات المجتزأة.

Murphy J. J., ed. *Renaissance Eloquence; Studies in the Theory and Practice of Renaissance Rhetoric*. Berkeley, 1983.

مجموعة مفيدة من المقالات المتخصصة لمؤلفين عديدين.

O Malley, J. J. Praise and Blame in Renaissance Rome: Rhetoric, Doctrine and Reform in the Sacred Orators of the Papal Court, 1450–1521. Durham, N. C., 1988.

تبرير لتكامل الوعظ الراقي في عصر النهضة.

Siegel, Jerrold. Rhetoric and Philosophy in Renaissance Humanism: the Union of Eloquence and Wisdom, Petrarch to Valla. Princeton, 1968.

عن الإحياء الإيطالي للنماذج الشيشرونية البلاغية.

Weiss, Roberto. *The Spread of Italian Humanism*. London, 1964.

دراسة مسحية حول تأثير الخطباء والكتاب الإيطاليين على إعادة اكتشاف البيان الكلاسيكي.

Vickers, Brian, ed. *Rhetoric Revalued*. Binghampton, N. Y., 1981.

مجموعة من البحوث متعددة المؤلفين تغطي الفترات والأنواع الرئيسية من تاريخ البلاغة.

Vickers, Brian. *In Defense of Rhetoric*. Oxford, 1988. A strong

موقف شخصي قوي من الصراع المتصل بين البلاغة والفلسفة.

تأليف: Elaine Fantham

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

التبديل Enallage (*permutatio* باللاتينية)

يعرضه بوتنهام تحت المسمى نفسه (*فن الشعر الإنجليزي*، ١٥٨٩)، وهو عبارة عن إجراء تبديل لفظي يقوم باستبدال شكلاً من الأشكال النحوية بشكل (شخص، حالة، نوع، عدد، زمن). ومن الأمثلة على ذلك: الشخص: "آخذ جمعتي معي" "I *takes* my Friday with me" (ديفو، روبنسون كروزو، ١٧١٩)[١]. العدد: "المساواة في القوة المحلية / غذاء العصبة الشكاكة" (شكسبير، *أنطوني وكليوباترا*، ١,٣,٤٧). ونجد في النصوص الروائية أن أي تغيير لزمن حاضر بزمن ماضٍ مقبول، حينما يكون التأثير المقصود هو تمثيل حي (*enargeia*). والأمر ليس مجرد خروج عن العرف أو خطأ نحوي، بل يتم توظيف التبديل بمقصد وظيفي يمنحه صفة بلاغية[٢].

[انظر كذلك **Figures of speech**؛ و **Style**].

تأليف: Heinrich F. Plett

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

---

(١) الجملة في ظاهرها تنطوي على خطأ نحوي هو استخدام (S) المفرد الغائب مع الضمير I، والجملة النحوية في الأصل هي I take. ولابد من لفت الانتباه إلى أن Friday هو اسم إحدى الشخصيتين الأساسيتين في رواية "روبنسون كروز". (المراجع)

(٢) في البلاغة العربية الظاهرة القريبة من ظاهرة تنوع الأزمنة، كما يقدمها مؤلف المدخل هي ظاهرة حكاية الحال. (المراجع)

القياس الإضماري Enthymeme

منذ ظهور البلاغة بصفتها فنًا خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد فإن شغلها الشاغل كان الإقناع، وهي العملية التي من خلالها يتم إغواء البشر برموز تؤدي إلى إلزامهم بتوجهات وآراء معينة واتخاذ القرار خلال مجموعة أفعال معينة. وقد كانت الوسيلة المثلى للإقناع مسألة بحث ومثار جدل. وكان سوفسطائيو صقلية (كوراكس وتيسياس السيراكوزيين، وجورجياس الليونتيني) وفيما بعد سوفسطائيو أثينا (جورجياس، بروتاجوراس الأبديري، وثراسيماكوس الكالسيدوني، وبروديكوس السيوسي، وغيرهم ممن عاشوا وقاموا بالتدريس في أثينا خلال القرن الخامس) الرواد الأوائل لهذا الفن. وقد استشهدوا في تعاليمهم العملية بالتقاليد الشائعة وبراهين الاحتمالات وعملوا على استثارة وجدان المتلقي. وقد اتبع أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧ ق م)- الفيلسوف الأثيني العظيم - المنحى الفكري لأستاذه سقراط ورفض كلاً من تعويل السوفسطائيين على الرأي، وفكرة أن الاحتمالات قادرة على أن تولد المعرفة الأصيلة بالمسائل العملية. وبالتبعية، فقد أكد على ما يتصف به فن البلاغة الحق من مركزية البرهان الاستدلالي الدقيق المبني على الطبيعة المطلقة والثابتة للأشياء. وقد سعى أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) - الذي يعد كتابه *الخطابة*" أول طرح منهجي في فن الخطابة - إلى رتق الفجوة بين هذين التوجهين من خلال استحضار المنطق الاستدلالي الصارم وتحميله مسائل تتصف بطبيعتها بالاحتمال والقابلية للتحول. أما الرابط الرئيس في هذا الجسر فهو مفهوم القياس الإضماري.

لطالما كانت طبيعة هذا المفهوم محورية – ومثيرة للجدل – في مناقشات نظرية الإقناع الأرسطية، وبالتالي رأيه في البلاغة. على أن الاهتمام بالقياس الإضماري لم ينبع من معالجة أرسطو وتحليله له، بل من المكانة الأساسية التي يمنحه إياها بوصفها أحد فنون التحدث. وهدفي الآن شرح مفهوم أرسطو عن القياس الإضماري، وتقديم إيضاح مختصر لتأثيره على نظرية الحجاج وتطبيقاتها منذ الحقبة الكلاسيكية.

يقول أرسطو: "نظرًا لأننا نكون مقتنعين بشدة حينما نفترض أن شيئا ما تمت البرهنة عليه، فإن الدليل هو نوع من أنواع البرهان"، فالهم الرئيس لفن الحديث هو البراهين والإثباتات. ويشير قائلاً: "إن البرهنة البلاغية هي قياس إضماري، وهي بوجه عام أقوى أنواع الأدلة البلاغية" (الخطابة، القسم ١٣٥٥). والحقيقة أنه "متن (أو صلب) body الدليل" (١٣٥٤). وبالتالي فإن الإحاطة بالكيفية التي يتصور بها أرسطو القياس الإضماري تستدعي فهم الكيفية التي يرى بها طبيعة البلاغة ووظيفتها.

يفتتح أرسطو مناقشته من خلال تقرير أن "الخطابة نظير الديالكتيك". ونمط التفكير الملائم للديالكتيك هو القياس المنطقي، "البرهان الذي يتم فيه طرح أمور بعينها حتى يخرج منها وبالضرورة شيء غيرها" (الموضوعات ١٠٠). أما القياس الإضماري فهو "من أنواع القياس المنطقي" (البلاغة، ١٣٥٥). وبالتالي– وحتى نفهم القياس الإضماري– أي "القياس المنطقي البلاغي"– علينا أولاً أن نتبين الكيفية التي تصور بها أرسطو القياس المنطقي الديالكتيكي. إن أرسطو يعتبر الديالكتيك فن الجدل الفلسفي. حيث يتم توظيفه في فحص إشكاليات ذات طبيعة عامة، وبناء الأدلة على الآراء "التي يعتنقها الجميع، أو الأغلبية، أو الفلاسفة". وهي تخدم البراهين والقضايا النقدية المطروحة كرد على مسائل أو إشكاليات بعينها، ومن أمثلتها طبيعة الخير،

أو قضية أن "على المرء فعل الخير لأصدقائه واقتراف الشر تجاه أعدائه"، أو مسألة "هل ينبغي على المرء أن يطيع أبويه أم يطيع القانون، حال كان هناك اختلاف بينهما؟".

يتم فحص مثل هذه القضايا جدليا من خلال قيام أحد المتحدثين بتقرير طرح ما (مثال: "المتعة هي الخير الوحيد")، ثم يأتي متحدث ثان ليحاول دحض هذا الطرح. وما يقدَّم من أدلة هنا ينقسم بين أن يكون استقرائيًا أو قياسًا استنباطيا. فإذا كان الدليل من النوع الأول، فإنه يبدأ من العديد من الأمثلة المتشابهة وصولاً إلى استنتاج عام، بينما النوع الثاني من الأدلة يبدأ من مقدمات منطقية وصولاً إلى استنتاج، بحيث إن الاستنتاج ينبع بالضرورة من اشتراطات المقدمة المنطقية. وهكذا فإن القياس المنطقي ذو بنية عامة مكونة من مقدمة منطقية رئيسة ثم مقدمة منطقية ثانوية، ومن ثمَّ خاتمة استنتاجية، وحيث تكون المقدمة الرئيسة معتقدًا أو رأيًا مقبولاً في العموم (أو نتاج قياس منطقي سابق) بينما المقدمة الثانوية معتقد أو ملاحظة معينة تجاه الموضوع المطروح. ومن الأمثلة على القياس المنطقي في دراسات الأخلاق: "يعتقد الحكيم أن خير الإنسان شيء نهائي وذو قيمة في حد ذاته" (مقدمة رئيسة)؛ "قيمة الثروة لا تكمن فيها بل فيما تشتريه" (مقدمة ثانوية)؛ "نستنتج من ذلك أن الثروة لا يمكن أن تكون هي خير الإنسان" (استنتاج). [انظر **Dialectic**؛ و**Syllogism**].

أما القياس الإضماري– بوصفه نظير القياس المنطقي الديالكتيكي– فهو ذو بنية عامة: إنه نوع من أنواع التفكير الاستدلالي، على النقيض من المثال السابق، الذي يُعد استقراء بلاغيًا. [انظر **Exemplum**]. بالإضافة إلى هذا التشابه الصوري، فإن كلاً من القياس المنطقي والقياس الإضماري مبني على الرأي. فيقول أرسطو: "كما أن القياس المنطقي ديالكتيكي حينما يُستقى من

آراء مقبولة في العموم، فإن من الضروري أن تصاغ الأدلة والخطب [البلاغية] على أساس من [المعتقدات] السائدة" (*الخطابة* ١٣٥٥). ونهايةً، فإن بوسع كلاً من القياس المنطقي والقياس الإضماري استقاء المقدمات من الاحتمالات. [انظر **Contingency and probability**]. ولكن – ومع عناصر التشابه هذه – يختلف كليهما عن الآخر في عدة جوانب مهمة.

يتعلق أول اختلاف بتطبيقات وأهداف كلٍ منهما. حيث يتم تطبيق التفكير الديالكتيكي على الفحص النقدي للمسائل الأخلاقية العامة بحثًا عن اكتشاف القضايا التي تحتمل الدحض. بينما تتعلق البلاغة باكتشاف وسائل الإقناع المتاحة، ووسائل الغواية التي تدفع المرء للقيام بتصرف ما بدلا من آخر. وكما أن "المقنع يكون مقنعًا لشخص ما"، فإن على المتحدث صياغة قياساته الإضمارية مما يبدو حقيقة لجمع معين من المتلقين وليس بالنسبة "للكل أو الأغلبية أو الأكثر حكمة". فعلى الخطيب أن يضع نوعية المتلقين في الاعتبار عند بناء القياسات الإضمارية المقنعة، وأن يستقي مقدماته المنطقية من المعتقدات السائدة لديهم حتى ينال اقتناعهم.

يكمن الفارق الثاني بين القياس المنطقي الديالكتيكي والقياس الإضماري في أنواع الاستنتاجات. ففي حين يسعى القياس المنطقي إلى تقديم إجابة على مسألة عامة (من قبيل طبيعة الخير أو الاختيار بين طاعة الأبوين أو طاعة القوانين)، فإن القياس الإضماري– مثل الخطاب البلاغي عموما– ينطبق على مسائل بعينها (ما إذا كانت سياسة ما خيرًا أم شرًا، أو ما إذا كان هناك مبرر للفرد في مخالفته للقوانين). وبالتبعية، فإن القياس الإضماري يتعامل دومًا مع مسألة خاصة، وهو في ذلك مختلف عن القياس المنطقي الديالكتيكي.

وما زالت طبيعة المتلقي تلقي بالضوء على كيفية توظيف القياس الإضماري بوصفه وسيلة إقناع. حيث يتمثل هدف القياس الإضماري في تقديم الدليل على خطاب موجه إلى "الكثرة"؛ أناس عاجزون عن تصور برهان مركب أو تتبع سلسلة منطقية مطولة" (الخطابة، ١٣٥٧). ولأن المتلقي غير متمرس على التفكير الديالكتيكي فهو قادر فحسب على تتبع مسارات تفكير مقدمة ما بشكل مضمر. والبرهان القياسي الإضماري مبني على ما يعتنقه المتلقي من معارف ومعتقدات، يتم إدراجها بصورة غير واضحة في البرهان ذاته.

وهكذا نرى أن أحد سمات القياس الإضماري كونه "مستقى من مقدمات منطقية محدودة، وإن كان أحدها معروفًا لدى [المتلقي]، فليس هناك ضرورة من تقريره، حيث إن المستمع يكمل ذلك بنفسه" (١٣٥٧). وبصورة أعم نقول إن التفكير القياسي الإضماري لا يقوم بتقرير ما يمكن للمتلقي نفسه أن يوفره من مقدمات منطقية. وبالتالي يكون القياس الإضماري برهانا استدلاليا يساعد فيه المتلقي على بناء البراهين التي تسهم في إقناعه هو نفسه. [انظر **Tacit dimension, the**].

عليك أن تتخيل جمعًا عامًا، يقترع على انتخاب أمين خزانة للمدينة. فيقف أحد المواطنين ليقول: "إنني أساند فيلوبوليس، فهو رجل شريف وثري ومحب للمدينة". إن هذا البيان، رغم كونه موجزا، يمثل عملية تفكير مركبة ظلت فيها أغلب البراهين مضمرة. ولا يكون مثل هذا الإثبات فاعلاً إلا إذا كان لدى المتلقي بقية العناصر الغائبة، وبالتالي يتتبع مسار التفكير وصولا إلى الاقتناع. إن الدعم الواضح الوحيد - لهذا الزعم موجز الصياغة بأن فيلوبوليس هو الأصلح للمنصب- آتٍ في صورة ثلاث خصال ذكرت عن فيلوبوليس. أما ما لم يتم تقريره فهي القضايا العامة التي تربط بين هذه

الخصال والزعم؛ وتلك القضايا هي تحديدًا ما ينبغي على المتلقي- وفقًا لمعتقداته وقناعاته وآرائه- أن يقدمه حتى يتمم سلسلة التفكير المضمرة هذه. أما إذا كان على الديالكتيكي أن يتعامل مع هذا البرهان بأكمله، فسوف يتتبع ثلاثة مسارات استدلالية، يعتمد كلٌ منها على معتقدات المتلقي فيما يتعلق بطبيعة الشرف والعلاقة بين الثقة والمكانة المالية والوطنية. وهي أمور ظلت مضمرة في البرهان بالقياس الإضماري. وحتى يكتسب البرهان سمة الإقناع، يكون على المتلقي استحضار تلك العلاقات المضمرة. والأهم هو أنه لا يقوم بذلك عن وعي أو بصورة منهجية؛ وهو لا يسترجع ذهنيًا مسارات التفكير تلك، بل إن كل نسق من أنساق التبرير مستحضر آنيًا، وربما كان هذا في صورة بديهية من البديهيات: "لا حاجة للغني أن يسرق". فالمستمع هنا يدرك مقصد المتحدث؛ وبالتالي فلا حاجة به إلى المزيد حتى يتوصل إلى التأويل المناسب.

تلك هي إذن الخاصية الأساسية وذلك هو الفعل الرئيس للقياس الإضماري، مما استخلصناه من طرح أرسطو. فوظيفته- على غرار الهدف العام من البلاغة- هو توجيه القرار المتعلق "بأمور نتشاور حولها ولا نمتلك تجاهها أى قواعد منهجية" (البلاغة، ١٣٥٧). حيث يرى أرسطو أن الإقناع البلاغي عامة- والبرهان بالقياس الإضماري خاصة- يتعامل مع قرارات عملية تختص بمسائل تشريعية وجدلية سائدة. وبالتالي يشكل القياس الإضماري أحد صور التفكير العملي، وهي العملية التي من خلالها يتوصل البشر إلى قرارات بشأن ما ينبغي وما لا ينبغي القيام به.

تكون مهمة الخطيب الرئيسة في هذا الصدد اكتشاف أو ابتكار قياسات إضمارية مقنعة لجمهور معين حول مسألة تشريعية أو قضائية معينة. وهكذا يقوم نسق أرسطو الإبداعي بتحديد منظومة من الموضوعات لتكون وسيلة

اكتشاف المقدمات المنطقية ومسارات التفكير اللازمة لتقديم قياسات إضمارية تتناسب وكل من الأنواع الثلاثة للخطاب الجماهيري.

ومع أن من كتبوا في البلاغة والجدل لاحقا تجاهلوا المصطلح أو لم يفهموه على النحو الصحيح، فإن القياس الإضماري ظل الخيط الناظم الذي يمر عبر التراث البلاغي منذ أن جعل منه أرسطو "طريقة للإثبات"، ليصور تأثيره المستمر على تطور النظرية البلاغية. كما أنه يستمر في خدمة غرض توجيهي مفيد لكل من المتحدث ونقاده. ويظهر أن خلفاء أرسطو، ثيوفراستوس والفلاسفة المشائين، ومن بعدهم الرواقيون، لم يكونوا مؤيدين لهذه الفكرة. فمن بين ما كتب هؤلاء – والمعروف عنهم أنهم قدموا دراسات بلاغية – ما ينم عن اهتمام بالدقائق المنطقية للقياس المنطقي. وكان تأثير هيرماجوراس – الفيلسوف الرواقي (القرن الثاني قبل الميلاد) – على المنظرين البلاغيين الرومان، لا سيما شيشرون وكينتيليان، قد أدى إلى الخلط بين القياس الإضماري والقياس المنطقي. وقد تعامل المنظران مع القياس الإضماري، لكنهما لم يكونا مخلصين للمفهوم الأرسطي، وأدى التأثير اللاحق لعمل شيشرون المبكر *الابتكار* De invention على المذاهب اللاهوتية في القرون الوسطى إلى استمرار هذا الفهم في العصور الوسطى. فهناك كتاب في أوائل القرون الوسطى، من قبيل فورشناتيانوس Fortunatianus وكسيودوروس Cassiodorus نظروا إلى القياس الإضماري على أنه ناقص أو قياس منطقي غير مكتمل، وتطبيق القديس أوغسطين للبلاغة على فن الوعظ أكد على استخدام القياس المنطقي الجدلي بوصفه وسيلة للعرض الخطابي.

وقد استمر هذا الميل لعرض القياس الإضماري بوصفه قياسًا منطقيًا مقتطعًا أو ناقصًا في الأطروحات البلاغية خلال عصر النهضة والتنوير. وفي الوقت نفسه، تم الطعن في إمكان تطبيق المنطق الشكلي أو المنطق

القياسي على الأمور الاحتمالية والموضوعات الأخلاقية. ففي كتابه *فلسفة البلاغة* (١٧٧٦) The Philosophy of Rhetoric، على سبيل المثال، يصف جورج كامبل القياس الإضماري بكونه استدلالا "تم فيه قمع القضية الرئيسة". وهو يهاجم أيضا الأسلوب القياسي للإثبات لكونه "غير طبيعي ومسهبًا" حال استخدامه في مناقشة المسائل الأخلاقية. وفي الآونة الأخيرة شكك بعض النقاد في مفهوم الاستدلال نفسه لعدم وجود صلة بينه وبين الطريقة التي يفكر بها الناس في الواقع حول المسائل العملية والأخلاقية. فنجد على سبيل المثال أن ستيفن تولمن Stephen Toulmin يكرس معظم كتابه *أهداف البرهان* (١٩٥٨) لإثبات زعمه بعدم وجود صلة بين معايير صحة البرهان الصوري التحليلي ومنطق حياتنا اليومية. وفي الوقت نفسه، فقد سعى لإعادة تدشين طور غير رسمي من صناعة الاستدلال، حيث تكون المعارف المشتركة أرضية للتوصل إلى استنتاجات من قرائن محددة.

ويستمر القياس الإضماري على جدواه كأداة توجيهية لكل من المتكلم والناقد. حيث يقوم بتوجيه الاهتمام إلى المعتقدات والآراء والتوجهات الخاصة بالمتلقين بوصفها مصادر إقناع وعوامل لابد أن توضع في الاعتبار في تحليل الخطاب البلاغي وتقييمه. ومع تقادمه يبقى القياس الإضماري مفهومًا مهمًا في النظرية البلاغية.

[انظر كذلك **Classical rhetoric**؛ و **Logos**]

المراجع

Aristotle. *Nicomachean Ethics*. Translated by H. Rackham. Cambridge, Mass., 1934.

Aristotle. *Politics*. Translated by Benjamin Jowett. In *The Basic Works of Aristotle*, edited by Richard McKeon. New York, 1941.

Aristotle. *"Art" of Rhetoric*. Translated by John Henry Freese. Cambridge, Mass., 1932.

Aristotle. *On Rhetoric*. Translated by George A. Kennedy. Oxford, 1991.

Aristotle. *Topics*. Translated by W. A. Pickard - Cambridge. In *The Basic Works of Aristotle*, edited by Richard McKeon. New York, 1941.

Bitzer, Lloyd F. "Aristotle's Enthymeme Revisited." *Quarterly Journal of Speech* 45 (1959), pp.pp. 399– 408.

Conley, Thomas M. "The Enthymeme in Perspective." *Quarterly Journal of Speech* 70 (1984), pp.pp. 168–187.

Cronkhite, Gary. "Enthymeme as Deductive Rhetorical Argument." *Western Speech* 30 (Spring 1966), pp.pp. 129–134.

Gage, John T. *The Shape of Reason*. 2d ed. New York, 1991.

Gage, John T. "Towards a General Theory of the Enthymeme For Advanced Composition." In *Teaching Advanced Composition*, edited by Katherine H. Adams and John L. Adams, pp.pp. 161–178. Portsmouth, N.H., 1991.

Harper, Nancy. "An Analytical Description of Aristotle's Enthymeme." *Central States Speech Journal* 24 (1973), pp.pp. 304–309.

Lanigan, Richard L. "Enthymemes: The Rhetorical Species of Aristotle's Syllogism." *The Southern Speech Communication Journal* 39 (1974), pp.pp. 207–222.

McBurney, James H. "The Place of the Enthymeme in Rhetorical Theory." *Speech Monographs* 3 (1936). Miller, Arthur B., and John D. Bee. "Enthymemes: Body and Soul." *Philosophy and Rhetoric* 5 (1972), pp.pp. 201–214.

Wiley, Earl W. "Enthymeme: The Idiom of Persuasion." *Quarterly Journal of Speech* 42 (1959), pp.pp. 19–24.

تأليف: Christopher Lyle Johnstone

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

رد العجز على الصدر Epanalēpsis (*geminatio, resumptio* باللاتينية)

يسميه بوتنهام "رجع الصدى" (*فن الشعر الإنجليزي*، ١٥٨٩، ص ٢٠٠)، وهو تكرار بداية الكلام في نهايته. "افرحوا بالرب دومًا: وأقول لكم مجددًا افرحوا بالرب" (Phil. 4.4). ولكونه مصطلحا يشير إلى التكرار، فإن المضاعفة يشمل تكرار كلمات منفردة (*iteratio*)، وكذلك عبارات بأكملها (*repetitio*). وحينما يكون في بداية ونهاية قطعة مطولة يسمى الختم inclusion (Arthur Quinn. *Figures of Speech*, Davis, Calif.، ١٩٩٣، ص ٨٨). ومع أن الجملة أو الفقرة قد تكون مكتملة من دونه، فإن الغرض من التصدير هو استثارة عواطف من قبيل الحب أو الكراهية، والتأكيد على الكلام.

[انظر كذلك Figures of speech].

المراجع

Alsted, Johann Heinrich. *Encyclopaedia*. Herborn, 1630. Facsimile edition, 4 vols. Stuttgart, 1989.

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التقسيم Epanodos (*reversio* باللاتينية)

هو نوع من التشاكل اللفظي، تتكرر فيه كلمة أو أكثر بطريقة معكوسة. "ما هو لي لك، وما هو لك لي" (شكسبير، مسرحية "واحدة بواحدة"، 5.1.537)، وبالتالي يخلق نوعًا من التجانس، وهو أسلوب مؤثر دومًا. كما يسمى أيضا الجمع بين متناقضين لفظيين بهذا التجانس المعكوس "مقابلة" *antimetabolē*. "بسبب كراهية البرد، وبرودة الكراهية، أحتضر" (تشوسر، ترويلوس وكريسايد، ١,٤٢٠). وقد يحمل هذا تأثيرًا فجائيا مفارقا: "الجمال قذارة، والقذارة جمال" (شكسبير، ماكبث، ١,١,١١).

[انظر Antithesis و Figures of speech].

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الاتباع Epenthesis (interpositio باللاتينية).

أطلق عليه توماس ويلسون في *فن البلاغة* (١٥٦٠) "الحشو في المنتصف"، وهو عبارة عن إضافة حرف أو أكثر في منتصف الكلمة، كما في كلمة إضافة (di) في كلمة steaddifast، وأصلها steadfast. وقد يحدث هذا الانحراف عن الاستخدام الصحيح، بواسطة حشو حروف في المنتصف، ويكون ذلك لعدة أسباب، منها تسهيل نطق الكلمة (كما في إضافة حرب (b) في كلمة cham*b*er، وأصلها اللاتيني camera، أو حينما يتطلب الوزن الشعري إضافة مقطع (انظر: Heinrich F. Plett, *Systematische Rhetorik*, Munich، ٢٠٠٠). وهذا مسموح به كإجراء شعري في الحالة الأخيرة، إلا أن اللغويين من أنصار فكرة النقاء اللغوي والمعجميين لا يفضلونه في العموم.

[انظر **Figures of speech**].

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

النوع الوصفي Epideictic genre

حدد الكتاب القدامى، بدءًا من أرسطو، أنواعًا ثلاثة للخطاب البلاغي: التشاوري symbouleutic، الجدلي dicanic، والوصفي epideictic (انظر مثلا: Aristotle *Rhetoric* 1358a36 - 58b20; *Rhetorica ad Alexandrum* 1421b7; *Rhetorica ad Herennium* 1.2.2; Quintilian *Institutio oratoria* 3.3.14). ووفقًا لأرسطو، يتميز أول نوعين بكونهما أكثر تحديدًا فيما يتعلق بالسياق والغرض والمتلقي. فنجد أن البلاغة التشاورية Symbouleutic تحدث عمومًا في جمع عام، من قبيل المجالس السياسية– كالمجمع أو المجلس الأثيني– وتسعى إلى إقناع المتلقي– مثل شعب هذه المدينة - الدولة– بسلسلة مستقبلية من الأفعال المزمع القيام بها، بينما تكون البلاغة الجدلية مكتوبة كي تلقى في قاعات المحاكم بغرض إقناع المحكمين ببراءة أو اتهام أحد الأشخاص تجاه جرم قد وقع (*Rhetoric* 1358b1 - 20). [انظر **Deliberative genre** و **Forensic genre**]. أما النوع الثالث الوصفي epideictic (وأحيانا ما يسمى التوضيحي) فيتصف بعدم وجود مناسبة معينة يرتبط بها؛ فهو يتعلق في الغالب بالحاضر، ولكنه قد يستحضر الماضي والمستقبل كذلك (*Rhetoric* 1358b18 - 20)؛ وهو الأمر الذي لا يحصر نوعية المتلقي في فئة معينة. وقد أشار أرسطو إلى متلقي هذا النوع بلفظ "مشاهد" (*theōros; Rhetoric* 1358b6)، بينما وصف متلقي الخطاب التشاوري بـــ"رجل المجلس" (*ekklēsiastēs*)، ومتلقي الخطاب الجدلي بـــ"المحلّف" (*dikastēs; Rhetoric* 1358b4 - 6).

إن الصفة *وصفي* *epideictic* مشتقة من الفعل اليوناني يوضح *epideiknumi*، والذي يبدو حاملاً لمعنى غير تقني للفعل "يكشف" أو "يخبر"، في الخطابات القانونية بغرض تقديم كلمات الشهود (مثل: الخطيب ليسياس ١,٢٢). إلا أن من بين المعاني الأخرى للفعل نفسه "يعرض" أو "يبين"، والعرض والأداء محوريان بالنسبة لما يهدف إليه هذا النوع من الخطابات. لقد أقر المؤلفون اليونانيون والرومانيون – ممن ساروا على درب أرسطو – بأن البلاغة الإيضاحية تشتمل على المدح أو اللوم (*Rhetoric* 1358b12 - 13, 27 - 28; *Herennium* 1.2.2, 3.6.10; Cicero *De inventione* 1.5.7; *Laudandi et vituperandi officium*, Quintilian *Institutio oratoria* 3.4.3). وقد لاحظ كينتيليان فيما بعد أن المدح واللوم حاضران في كل نوع من أنواع البلاغة، ولكنهما أشد حضورًا في هذا النوع (٣,٤,١١). ويستطرد البلاغي الروماني ملاحظًا أن البعض يسمي هذا النوع بالخطاب "التأكيدي" (٣,٤,١٢). حيث يقوم الخطيب بمدح أو هجو أفعال أو أفراد أو خطب أو خصال أو يلفت انتباه المتلقين إلى ظروف خارجية أو صفات مادية أو شخصية أو يعزو خصائص معينة غير حاضرة وراهنة (*Alexandrum* 1425b38 and *Herennium* 3.6.10).

وحددت الأطروحات والنصوص اليونانية واللاتينية أساليب المديح واللوم ببعض التفصيل. حيث يُظهر الخطاب الوصفي البلاغة بوصفها لغة تحولات؛ من القديم إلى الجديد، ومن العظمة إلى الضآلة، ومن المألوف إلى غير المألوف، والعكس بالعكس (إيزوقراط ٤,٨؛ فيدروس أفلاطون ٢٦٧؛ "حياة الخطباء العشر" لبلوتارك ٨٣٨). وهو يشتمل على المبالغة في حال المديح، بينما لا يتم تسليط الضوء على ما هو مميز، مع تضخيم كل ما هو غير محترم في حال الذم واللوم (*Alexandrum* 1425b39 - 40, 1426b13 - 22).

[انظر **Amplification**]. ويؤكد إيزوقراط – خطيب القرن الرابع قبل الميلاد – على ذلك حينما يكتب أن الناس الذين يرغبون في المديح يضخمون ويبالغون في عدد الصفات الحميدة في موضوعهم، بينما من يرغب في الهجو والذم يفعل العكس تماما (إيزوقراط ١١,٤). ويجب أن تكون الموضوعات ملائمة في حال المدح وفي حال الهجو. فالرثاء يتعلق بما هو عادل ومشروع ونبيل ويمكن تحقيقه، بينما الذم يتعلق بعكس تلك الصفات (- *Alexandrum* 1425b40 - 9 26a4; 1426a8). ويرى المؤلف [المجهول] لكتاب *البلاغة إلى السكندريين* *Rhetorica ad Alexandrum* (القرن الرابع قبل الميلاد) أن المبالغة أو عدم المبالغة في صفات شخص ما تعكس رغبة الخطيب في تبيان كون هذا الشخص يفضي إلى نتائج أو خصال حميدة أو سيئة؛ وإلا كان عليه أن يقدم لنا حكما مسبقا على الشخص الذي يتحدث عنه، حتى يساعده على تأكيد ما يقول؛ أو أن يجمع بين أشياء متشابهة ولكنها مختلفة الفئات – من قبيل الرجال متوسطي القامة والرجال قصار القامة – حتى يلقي الضوء على صفات الموضوع؛ أو أن يقوم بترسيخ المقصد من أفعال قام بها الشخص الذي يتحدث عنه (1426a32 - 26b13).

يؤكد أرسطو– الذي اهتم بالأبعاد السيكولوجية للبلاغة – على وجوب إشراك المتلقي في الكلام بحيث يظن أن هذا المديح يتعلق به هو نفسه أو عائلته أو أفعاله أو أحد جوانب حياته الأخرى: وهكذا يلاحظ أن من السهل على الخطيب أن يمتدح الأثينيين أمام الأثينيين وليس أمام الإسبرطيين (البلاغة 32 - 1451b28). ويؤكد مؤلف *البلاغة إلى هيرنوس* *Rhetorica ad Herennium* في مقدمة الكتاب أهمية إشراك الخطيب أو الشخص الذي يتحدث عنه أو المتلقي، بحيث يتم توزيع المشاركة على قاعدة أكثر اتساعا (٣,٦,١١).

يقوم النوع الوصفي بتشكيل المادة التي يتعامل معها الخطيب والطريقة التي تقدم بها. فعلى غرار الخطباء الرومان- حيث اهتموا بمديح الرجال- يقوم أحدهم بتقديم سرد عن الشخص الذي يتحدث عنه، يتحدث فيه عن زمن ما قبل ميلاده، ثم حياته، وحتى الفترة التالية لوفاته. فيتعامل الخطيب مع موطنه وتربيته وأصله حتى يبين نبله أو أنه نال الشرف بعد أن كان ذا أصل متواضع. ثم يتناول أى نبوءات تعلقت بمنجزاته في المستقبل، من قبيل معجزة بطولة أخيل. وعند الحديث عن حياة الشخص الذي يتحدث عنه يقوم الخطيب بوصف تنشئته وتعليمه وشخصيته وصفاته البدنية، ويقسم المديح حسب كل صفة من الصفات؛ الشجاعة، العدل، التواضع..إلخ، مع تأويل استخدامه لهذه الصفات والخصال (هيرينيوم 3.8.15 - 3.7.13؛ كينتيليان 18 - 3.7.10). بينما يضيف كينتيليان أن بوسع الخطيب في مواقف معينة أن يتناول الشرف الممنوح لموضوعه بعد وفاته لكي يبين إسهامه في مجتمعه. أما إذا كان الذم هو غرض الخطاب، فعندها يكون على الخطيب القيام بالعكس، مبينا أن الشخص الذي يتحدث عنه ذو أصل متواضع، أو أنه قد خيب أمل أصله النبيل، مع إهمال خصاله أو الكشف عن كونها محدودة، وأنه قد ألحق الضرر بمجتمعه.

تقوم هذه الأطروحات بتقديم شكل الخطاب الوصفي على أساس من أمثلة سابقة. فالبنية الصورية للخطاب الوصفي ظاهرة بالفعل في النصوص الإغريقية السابقة من قبيل *مديح هيلين* *Encomium of Helen* الذي وضعه السوفسطائي جورجياس (القرن الخامس قبل الميلاد)، وهو عبارة عن دفاع عن هيلين، ولكن المفكرين يعتبرونه أحد أمثلة هذا النوع من الخطاب (Buchheit، ١٩٦٠، ص ٢٧ - ٣٨). حيث يعلن جورجياس في مبتدأ عمله أن هيلين كانت علامة بين الرجال والنساء، ويستطرد ليربط بداياتها غير

العادية بليدا وتندرايوس أو زيوس (٣ - ٥). بينما يسعى فيما تبقى من خطابه إلى تحصين هيلين من النقد عن طريق عزو مغادرتها لطروادة إلى قوى مادية ومعنوية لا قِبَل لها بها، أو ما أسماه "إيروس" eros. ونجد أن كتاب *إيفانجوراس* *Evagoras* لإيزوقراط - وهو أول مديح يُكتب نثرًا (٩,٨ - ١١) - يبدأ المرثية بذكر ميلاد ونسب إيفاجوراس (٩,١٢ - ١٩)، ومن ثم ينتقل للحديث عن شبابه وخصاله (٩,٢٢ - ٢٣)، بعدما يقرر أنه لن يتناول المعجزات التي حدثت في حياته. ويلي ذلك سرده لصفات إيفاجوراس (٢٣ - ٢٤)، ومنجزاته مع التركيز على صفاته الفكرية والأخلاقية (٢٥ - ٤٠)، واهتمامه بالحكم الإنساني (٤١ - ٦٤)، وإرثه (٧١ حتى النهاية)، بما يوحي أن الخطاب نموذج للبنية الوصفية.

كان أسلوب الخطاب الوصفي متميزًا. ويُعد جورجياس(٤٨٠ - ٣٨٠ ق م) أحد مبتكري هذا الأسلوب، وقد توصل إلى نظام رائع يعتمد على التضاد والتوازي ولا يقتصر ذلك بالضرورة على كتاباته الاحتفائية. [انظر Gorgianic figures]. ويعرب إيزوقراط عن أسفه لأن كُتاب النثر قد حرموا من اللغة الشعرية، كالنظم والاستعارات التي تزين الأبيات، وأصبح لزاما عليهم أن يستخدموا بدلا من ذلك اللغة والأفكار التي لها علاقة بالمادة. ولكن يتوقف ذلك على مقدرة القارئ في أن يكون متيقظا لسياقه، فالخطيب هنا لا يزال مصرًا على أنه يحاول تقديم تأبين نثري لموضوعه، إيفاجوراس (٩,١٠ - ١١). ويعلن أرسطو أن الأسلوب الوصفي هو أحد أهم الأساليب الأدبية (*graphikotatē; Rhetoric* 1414aa18 - 19). ويلاحظ كينتليان- الذي يكتب في العصر الروماني - أن هذا النوع يستوعب الكثير من الزخارف والألاعيب اللفظية مقارنة بغيره، وخصوصا الخطابة الاحتفائية التي تهدف إلى إمتاع المتلقين (٨,١,٤٨).

قيم الخطاب الوصفي

تكمن أهمية هذا النوع – الذي يستمد وجوده من الهجاء والثناء – في انفتاحه على وجهات نظر مختلفة، حتى تلك التي يقول بها الكتاب أنفسهم، ولهذا علاقة بمرونة هذا النوع الذي لا يرتبط بمناسبة خطابية أو جمهور خاص أو وظيفة معينة. فنجد أن مؤلفين مختلفين يربطون بين الوصف "خطاب يهدف للعرض" ومختلف أنواع الخطاب، ويعزون وظائف معينة له بما يتوافق وتوجهاتهم المختلفة، ومن هذه الاستخدامات للكلمة من الممكن تقديم منظور اجتماعي لهذا النوع. فمن جهة يظهر أن الخطاب الوصفي تنحصر فائدته في تحقيق المتعة للمتلقي، وبالتالي فلا فائدة مرجوة منه. وقد قارن المؤرخ الأثيني ثوسيديديس (٤٦٥ – ٤٠٠ ق م) بين تاريخه– والذي يعتبره تفردا أبديا يمكن من خلاله تقديم نموذج سلوك سياسي معين للمجتمع– وبين نصوص الآخرين التي لم يبق منها أثر (١,٢٢,٤). وفيما بعد وفي كتابه التاريخ *History* يقدم كليون Cleon نقدًا لخطباء أثينا، ويعتبر الخطابة على علاقة وثيقة بالمشاهدة حيث يعتاد المتفرج على مشاهدة الخطب وسماع البيانات (٣,٣٨,٤ – ٥). ويرى سليون أن الأثينيين صاروا أشبه بمتفرجي النزالات السوفسطائية التي يفوز بها من يستطيع أن يمتعهم بالكلام أكثر (٣,٣٨,٧). ولاحقًا في العصر الروماني، يكتب شيشرون في *الخطابة De oratore* أن أنطونيو يرى هذا النوع مناسبا أكثر للقراءة والتسلية عن استخدامه في الحياة العامة، ويربط بينه وبين المتعة (انظر *delectare* (2.84.340؛ وانظر 8 - 61.207 ;12.42 ;12.38 ;11.37 *Orator* وفايكرز، ١٩٨٨، ص ٥٧). ويصف شيشرون في كتابه الخطب الوصفية بكونها قطعًا للتسلية ليس لها من غرض سوى الإمتاع (انظر *delectationis causa*, 11.37; *ad voluptatem aurium*, 12.38; 12.42; 61.207 - 8; *Brutus* 12.47). وفي موضع

آخر يعتبرها شكلا من المحسنات البلاغية يهدف إلى التسلية (*Herennium*، 4.23.32)، ويكتب كينتليان أن هذا النوع مناسب للإمتاع ويسعى إلى تحقيق السعادة للمتلقي (3.4.6; 8.3.11; 10.1.28).

وقد يعود التقليل من قيمة الخطاب الوصفي إلى ارتباطه بسوفسطائيي الإغريق، وإلى استخداماته وسط النخبة الاجتماعية، والتي كانت تنظر إلى نفسها بوصفها الطبقة الأفضل. وقد كتب شيشرون عن هذا النوع بوصفه "يعود إلى السوفسطائيين" (*proprium sophistarum*)، بل وحدد أسماء أوائل من استخدموه سواء في المديح أو الهجاء: ثراسيماكوس وجورجياس (بروتوس، ١٢,٤٧)، وثيودوروس البيزنطي الذي اعتبره سقراط "صانعًا للكلمات" (*logodaidalos*) وذلك في محاورة فيدروس (266e4 - 5؛ 12.39, 13.42). وقد ارتبطت أسماء هؤلاء المعلمين بخطب حول موضوعات تعتمد على المفارقة ولكنها تخلو من القيمة (Pease، ١٩٢٦). فنجدهم يمتدحون النحل الطنان أو الملح، أي موضوعات تبدو بلا معنى وبغير ذات هدف، وقد يمتدح معلم الخطابة أحيانًا أحد الحكام، كما فعل إيزوقراط في إيفاجوراس أو أكسينوفون في أجيسلاوس *Agesilaos* (انظر إيزوقراط ١٠,١٢؛ ومحاورة *المأدبة* لأفلاطون 177b1 - c3). وفي موضع آخر– مقدمة كتابه عن *هيلين*– ينتقد إيزوقراط الأفراد الذين يزجون الوقت في مجادلات لا طائل من ورائها؛ فيزعجون بها من حولهم(١). ويستطرد الخطيب فيتحدث عن بروتاجوراس ومعاصريه من السوفسطائيين– جورجياس وزينون وميليسوس– الذين خلفوا وراءهم قطعًا "مزعجة" (٢ – ٣). فإن كان هؤلاء المعلمين السوفسطائيين قد نجحوا في تقديم أي شيء، فإنهم لم يقدموا سوى إمكان أن يقوم المرء بتقديم خطب زائفة (٤).

في *أنتيدوس* *Antidosis* (٢٦٩) يورد إيزوقراط تلميحات للخطاب السوفسطائي وتعاليمه، حيث يشير إلى "عدم النفع" (حرفيا "على نحو مفرط") و"الإسهاب" (*perittologia*)، وكذلك في *باناثينيكوس (١)* *Panathenaicus(1)*، حيث يذكر "الخيال" (*pseudologia*) ويضعه في مقابل الكلام السياسي *logos politikos* (Too، ١٩٩٥، ص ٣٠). [انظر **Sophists**].

يبدو أن الكلام الوصفي يشكل أساس المنهج السوفسطائي. والمفكرون من أمثال كينيدي (١٩٥٩، ص ١٦٩ - ١٧٠)، وبوخيت (١٩٦٠، ص ٣٩)، وأوبر Ober (١٩٨٩، ص ٤٨)، وكولي Cole (١٩٩١، ص ٨١) يعتقدون أن المعلمين اعتادوا تقديم نص مكتوب لطلابهم، وعادة ما يكون هذا النص ذا طابع وصفي يصلح كنموذج يمكن محاكاته. لذا، فهم ينظرون إلى *هيلين*، و*بالاميديس* *Palamedes* لجورجياس، و*أياكس* *Ajax* و*أوديسيوس* *Odysseus* لأنتيسين Antisthenes، و*أوديسيوس* *Odysseus* لألكيداماس Alcidamas، و*تترالوجيس* *Tetralogies* لأنتيفون Antiphon، و*هيلين* و*بوسيريس* *Busiris* وإيفاجوراس لإيزوقراط بوصفها خطبًا نموذجية للدارسين كيما يتعلمونها ويحفظونها عن ظهر قلب، ويقلدونها عند كتابة المؤلفات الخاصة بهم. ويقول توماس كول (١٩٩١، ص ٧٨)، على سبيل المثال، إنه ينبغي النظر إلى هيلين لجورجياس على أنه نص تقريظي وليس مجرد تسلية (paignion، انظر هيلين ٢١)، وإذا كان فيه ثمة تسلية فهي تعليمية، أي أنه في النهاية نصا تدريسيًا. كما يقترح كول (١٩٩١، ص ٨١، وانظر أيضا Too، ١٩٩٥، ص ١٦٤ - ١٧١) أن النصوص السوفسطائية قد تشكل أسلوبًا في يد المعلم، ونعني بهذا "المهارة" و"الفن" و"الأطروحة"، وعلاوة على ذلك يلاحظ كول أن هذا يعزى في المقام الأول للعديد من المعلمين الأثينيين الكلاسيكيين، ومن بينهم أنتيفون، وليسياس Lysias، وثيرامينيس Theramenes، وإيزوقراط، ويقترح اعتبار *هيلين* و*بلاتيسيوس* و*أرخيداموس* لإيزوقراط أمثلة على الأسلوب الوصفي البليغ.

ولهذا الأسلوب دور مهم في الثقافة السوفسطائية، إذ عوّل عليه بصورة رئيسة في إغراء التلميذ للدخول في علاقة تربوية مع المعلم، من خلال إبراز المعلم لمهارته. فبلاغته هنا ليست خطابا يرشد إلى الفضيلة وأهميتها (راجع ليسياس ٢,٥٦) بقدر ما هي دعاية، أو وعد، من المعلم بقدراته العقلية.

يذكر لنا سقراط (٤٦٩ – ٣٩٩ قبل الميلاد) أن جورجياس قدم بنفسه نماذج (epideixeis) على مهاراته الخطابية، وقد جنى المال من قضاء بعض الوقت في تعليم الشبان (*هيبياس الكبرى* لأفلاطون 9 - 282b4). وفي محاورات أخرى يصور أفلاطون هذا السوفسطائي المشهور، أو ذا السمعة السيئة، بكونه شديد الحرص دائما على أن يعرض بضاعته (*جورجياس*، ٤٤٧). ثم يوصف إيثيديموس وديونيسودوروس، وهما سوفسطائيان في محاورة إيثيديموس لأفلاطون، بكونهما "يقدمان دعاية لنفسيهما" (٢٧٣). وفي بروتاجوراس، نجد أن سوفسطائي أبديرا يقدم إعلانه (epangelma) كدليل على قدراته في تدريس المهارة السياسية، أي الفن الذي يجعل من الرجال مواطنين صالحين (٣١٩ a ٤ – ٧). ووفقا لأرسطو في كتابه عن *الخطابة* (25 - 1402a23)، فإن دعاية بروتاجوراس تقوم على وعد بتعضيد وتدعيم الحجة الأضعف.

قد يكون وصف البيان epideixis كنوع عديم الفائدة يهدف إلى المتعة يعود في جزء كبير منه إلى السوفسطائيين أنفسهم – المعلمين المحترفين – الذين وفدوا في معظم الأحوال من خارج الدولة – المدينة بهدف تحقيق منفعة مادية عبر غواية الشباب بدعوى التعليم، وهم بذلك لم يسهموا بشيء ذي بال للمجتمع الذي يفدوا إليه. ولقد بيَّن سقراط أن السوفسطائي أشبه بتاجر أو صاحب متجر يمجد ويمتدح ما يبيع، وهو يزعم أنه يقدم غذاءً

للروح، لكنه في الواقع يقوم بالخداع ولا يختلف في شيء عن التاجر أو صاحب المتجر الذي يرمي لبيع الأشياء التي تغذي الجسم (*هيبياس الكبرى*، ٣١٣). ويتحدث أرسطو عن السوفسطائي بوصفه فردًا يكتسب المال من عائدات "حكمة ظاهرية" لا حكمة حقيقية (*التفنيدات السوفسطائية*، ١٦٥). وهو في *الأخلاق إلى نيقوماخوس* *Nicomachean Ethics*، يصف السوفسطائيين بأنهم لا يفعلون أيًّا من الأشياء التي يعدون بها، واصفا وعودهم بـ"المفرطة"، وهو يشير هنا، وبلا شك، إلى مضمون عروضهم الوصفية (1164a27 - 29; also 1180b35, 1181a12)؛ وانظر أيضا (*Euthydemus* 273d8 - 9 and 274a3 - 4).

السياسة الوصفية

من ناحية أخرى، يعزو الكتاب الآخرون وظيفة تربوية للخطاب الوصفي، الذي يختلف تماما عن سياقه السوفسطائي، وهم يمتلكون مبررات هذا. فالخطاب الوصفي بوصفه وسيلة تعليمية له أصول تعود إلى المديح قبل منحاه البلاغي الذي يبدأ مع السوفسطائيين. ويعد شعر بيندار (٥٢٢ – ٤٤٣ ق م) الذي احتفل بانتصارات الرياضيين وأبطالهم، جديرًا بالاهتمام لكونه يقدم نموذجًا لأدب المديح باعتباره شكلا من أشكال التعليم. وعادة تكون التعاليم الأسطورية أو السردية أو الأخلاقية جزءا لا يتجزأ من داخل بنية المديح بهدف تحذير متلقي القصيدة من بعض الأمور الشائكة، ومن ذلك على سبيل المثال الفخر والغرور ومعصية الآلهة، والتي تسعى في المجمل للحفاظ على صورة المجتمع المنتصر كمجتمع منظم يعرف كل عضو فيه مكانه الصحيح وواجباته. والشاهد هنا هو توضيح أن هذا الأسلوب صيغة من صيغ المديح، ونموذج لسلوك جمهور المتلقين بوجه عام.

وفي وقت لاحق، يقر أفلاطون بأن المدح والهجاء فاعلان في تثقيف الصغار والكبار (راجع *الجمهورية* ٤٩٢؛ *بروتاجوراس* ٣٢٦؛ *القوانين* ٧٣٠؛ 801e - 2a; 822d - 3a; 829c - e؛ جور*جياس*). ومديح الأبطال والأجداد كنماذج ينبغي أن يحاكيها الشباب، هو وظيفة يراها إيزوقراط مناسبة لتأبين الملك القبرصي إيفاجوراس (٩,٧٣ – ٧٧). بينما يقر أرسطو ببعد أخلاقي متميز للمديح والهجاء عندما يعلن أن الهدف من هذا النوع هو الثناء على ما هو جيد (to kalon)، وإلقاء اللوم على ما هو سيئ (to aischron) (*الخطابة*، 1358b28)؛ ومع ذلك، يعلن كينتليان أن كلا من الفيلسوف وثيوفراستوس (٣٧٢ – ٢٨٧ ق م) قد ابتعدا عن مجال الحياة العامة والسياسية (٣,٧,١). ويعزز شيشرون البرنامج الأخلاقي للخطاب الوصفي، ملاحظا أن ذلك يشجع الرجال على الفضيلة ويبعدهم عن الرذيلة (*De oratore* 2.9.35)، في حين يلاحظ في موضع آخر أنه لا يمكن أن يكون هناك شكل من أشكال الخطاب أكثر فائدة للدولة المدينة من الشكل الذي يشارك فيه الخطيب في الاعتراف بالفضائل والرذائل، وهذا هو الشكل الوصفي (*De partitione oratoria* 20.69؛ وكذلك 21.70). ومع التأكيد على أن متعة الجمهور هي الهدف من الخطاب الوصفي، فلا يزال كينتليان يشهد على أهميته عندما يثبت أن خطبة بانيجيريك، وهي نموذج لخطب المدح واللوم، تُعالج ما هو نافع لليونان (٣,٤,١٤). [انظر **Panegyric**]. وفي الواقع فإن خطبة بانيجيريك لإيزوقراط قد تناولت فوائد الإمبراطورية (*archē*) لأثينا (٤,٢٠ – ١٢٨)، وذهب إيزوقراط فيها إلى أن خسارة الإمبراطورية بداية انحدار الدولة – المدينة (٤,١١٩).

وقد قال بوخنر (١٩٥٨، ص ٧) بأن خطبة *التأبين* هي النوع البلاغي الأكثر اتصافا بالبيان بين الأنواع البلاغية لكونها تأبينا ومديحا لقتلى الحرب، ولكنها كذلك شكل من أشكال التعبير الوصفي يتميز بمنحى سياسي واضح

(لورو Loraux ١٩٨٦؛ وأوبر ١٩٨٩؛ ص ٤٧ - ٤٨). فإذا كان جمهور العرض السوفسطائي جمهورًا نخبويًا، فإن جمهور خطبة التأبين جمهور عريض، يضم مواطنين ونساء metics وليس مجرد نخبة محدودة كتلك التي توجد في البلاغة الاستعراضية. وتفرض طبيعة الجمهور كون أن هذا النموذج البلاغي هو نموذج أثيني خاص، حيث يشيد الأثيني بأثينيين آخرين في سياق عام بشكل صريح. ويلاحظ لورو (١٩٨٦، ص ٤٢ - - ٤٤) أن خطب المديح الرومانية funebris laudatio قد نبعت من النموذج اليوناني، ولكنها على عكس نظيرتها الأثينية تمثل احتفاءً بالبطل الفرد وعائلته في سياق خاص.

هناك ستة نماذج وصفية موجودة منذ الفترة اليونانية الكلاسيكية: خطبة جورجياس المكونة من ٢٢ سطرًا والمحفوظة في "ديونيسيوس" هاليكارناسوس؛ وخطبة تأبين بريكليس في كتاب ثيوسيديدس الثاني؛ وليسياس الثاني؛ ومينيكسينوس Menexenus لأفلاطون؛ وديموستيني (الخطبة رقم ٦)، وهيبريديس Hyperides (الخطبة رقم ٦) (كينيدي، ١٩٦٣، ص ١٥٤ - ١٥٥). ومن بين هذه كانت الخطبة الأشهر هي خطبة التأبين التي ألقاها بريكليس، والموجودة في الجزء الثاني من كتاب *التاريخ* لثيوسيديدس، وقيل إنها ألقيت في نهاية السنة الأولى من الحرب، ٤٣١ قبل الميلاد (٢،٣٥ - ٤٦). حيث قدم بريكليس الخطبة كشكل من أشكال التعاليم السياسية، وهو يقدم نفسه بوصفه معلمًا مدنيًا، ويعلن أن أثينا لا تحتاج إلى أمثال هوميروس أو أي شاعر آخر يكتب لأجل المتعة، مما يعني أنه بصفته مادحًا للمدينة يرفض المعلمين التقليديين للمدينة (٢,٤١,٤؛ راجع محاورة *الجمهورية* لأفلاطون ٦٠٦). وعلاوة على ذلك، فإنه يؤكد أن الخطاب يقدم درسا لأثينا (didaskalia) بشأن صراعها مع إسبرطة (٢,٤٢,١)؛ حيث يكون تأبين قتلى الحرب الأخيرة مثل درس في الماضي القريب من أجل تعريف الأثينيين بكيفية التعامل مع

مستجدات الحرب. فيطلب من الأهالي تذكر أبنائهم والاحتفاء بشرفهم الذي حققوه، ويدعوهم - إن لم يكونوا كبارا جدا في السن - لإنجاب المزيد من الأطفال، ويستحث الأبناء والأشقاء على أن يحذوا حذوهم؛ والأرامل على تذكر الفضيلة والحفاظ على أنفسهن (2.44.2 - 2.45.2).

ومما أدركته الجمعية العامة أن أثينا في ذاتها "معلم" لليونان بأسرها؛ بوصفها المدينة التي تعتبر نموذجا تحتذي به الدول الأخرى (٢,٣٧,١ و ٢,٤١,١). ويربط بريكليس بين أثينا والمهارة والمعرفة، ولكنه علاوة على ذلك أيضا يشدد على الوضع المهيمن لهذه المدينة الدولة، فكونها "معلمة" اليونان سيعضد المكانة البارزة لها سواء على المستوى الثقافي أو العسكري. والخطاب يسوِّغ أسباب هذه الهيمنة من خلال الجزء التاريخي الذي يُشيد فيه بالأجداد لما أبدوه من شجاعة عظيمة في الدفاع عن المدينة الدولة ضد أعدائها من البرابرة وغيرهم (٢,٣٦,٢ - ٤). والتاريخ هنا هو الشكل السائد في *خطبة التأبين*، ويقدم ليسياس (٤٤٥ - ٣٨٠ ق م) سردًا تاريخيًا أوسع من ذلك بكثير في خطبة التأبين التي ألقاها، حيث يتناول عددًا من الشخصيات الأسطورية، بما في ذلك النساء الأمازونيات، وسبعة ضد طيبة the Seven against Thebes، وهرقل (٢,٤ - ١٦) وبعد ذلك يعرض للحظات تاريخية كبرى تشهد على تفوق أثينا، مثل النصر في الماراثون (٢٠ - ٢٦) وهزيمة زركسيس (٢٧ - ٤٣). وفي خطبة ثيسيديدن Thucydideane، يتحدث بريكليس عن سلطة أثينا، بالإضافة إلى أنه يحدد معالم التعليم والدستور وطبيعة الأثينيين (٢,٣٦,٤): فالتعليم والخصائص موضوعان يتناولهما في القسمين ٤٩ و ٥٠ من *بانيجيريكوس Panegyricus* لإيزوقراط، وقد ربط بين هذا الخطاب وخطبة التأبين (بوخنر، ١٩٥٨، ص ٧؛ ١٩٩٥، ص ٨٠،١٤٦ - ١٤٧). فهو يتحدث عن المدينة الدولة بوصفها الكيان الذي يُسن فيه القوانين التي تخدم مصالح الجميع (٢,٣٧)، حيث توجد المؤسسات الثقافية والدينية للترفيه عن الناس (٢,٣٨)، وحيث يهدف التدريب والتعليم

إلى تأهيل الناس للحرب على نحو كاف من دون إرهاقهم كما هو الحال في إسبرطة (2.39) فأثينا هي المدينة التي تحب الجمال والفلسفة (٢,٤٠,١)، والتي تعترف بالكلام والمنطق وتقدمهما على الفعل، وبالتالي تتوازن كفتا الحسابات والمخاطر (راجع eklogizesthai) (على سبيل المثال، ٢,٤٠,٢ - ٣).

الخاتمة

تشكل البلاغة الوصفية نوعًا يتسم بالمرونة والانفتاح على الحوار بقدر يفوق نظيراتها الأخرى من أنواع البلاغة، وهي شكل من أشكال الخطابة يمكن أن يُلقى في الأماكن الخاصة وسط النخبة (كما هو الحال مع العروض "السوفسطائية") وكذلك في المناسبات العامة الكبيرة، وأهمها مناسبات تأبين قتلى الحرب (كما هو الحال مع خطب التأبين). بل هو شكل من أشكال الخطابة يجمع بين كونه عديم الجدوى لتركيزه على إمتاع الجمهور، وبين كونه يؤدي وظيفة مهمة باعتباره وسيلة لتكريس العقيدة والتاريخ المدني في تلك الجماهير.

ولأنه لم يكن مرتبطا أبدا بموقع محدد من حيث الأداء، فإن هذا النوع عاد من تلقاء نفسه بعد تراجع الصورة الكلاسيكية للدولة المدينة. فبعد سقوط أثينا أصبح الشكل الوصفي epideictic هو الشكل البارز للخطابة إلى حد أنه فرض نفسه على جميع أشكال الخطاب الأخرى - الشعر والتاريخ والفلسفة- بدءًا من الفترة الهللينية، والتي اتسمت بالثقافة البلاغية العالية. واهتمت بصياغة استراتيجيات المديح في التدريبات المدرسية فيما عرف باسم المناورات progymnasmata، والتي أصبحت ركيزة أساسية في تعليم البلاغة داخل الإمبراطورية الرومانية (١٩٥٦، ص ٢٦٨ - ٢٦٩، ٢٧٥ - ٢٧٧؛ كينيدي، ١٩٦٣، ص ٢٦٠ - ٢٦١). وفي الفترة الإمبراطورية اللاحقة، أحيا السوفسطائيون الجدد، مثل لوسيان (١١٧ - ١٨٠ م) (في مديح الذبابة)،

المديح السوفسطائي الذي يعتمد على المفارقة ويهدف إلى استعراض مواهبهم، كذلك استغل كتاب مسيحيون، مثل يوسابيوس مؤرخ الكنيسة في القرن الرابع (مديح بولينوسPaulinus، أسقف صور، التاريخ الكنسي ٤,١٠)، الأسلوب الوصفي خاصة وأنهم استعانوا ببلاغة الخطاب الوثني لتحقيق أغراضهم الخاصة.

في وقت لاحق، في العصور الوسطى وعصر النهضة، طغت البلاغة الوصفية على النوعين الآخرين: فاندرجت جميع الكتابات تحت تصنيف المديح والهجاء (فيكرز، ١٩٨٨، ص ٥٤). وفي عصر النهضة كان هناك وجودًا قويًا لبلاغة المديح والهجاء في مواضع مختلفة من الثقافة الأدبية. وسعت الخطب الكنسية لإقناع الجماهير بتبني السلوك الأخلاقي من خلال مدح الفضيلة وهجاء جميع الأنشطة غير الأخلاقية (فيكرز، ١٩٨٨، ص ٢٩١)؛ أما في الدراما، فيمكن العثور على الوصف في فقرات داخل خطبة التأبين لمارك أنطونيو في رائعة شكسبير "يوليوس قيصر" (١٥٩٩)، وفي الشعر كان المديح واضحا في أعمال مثل "قصيدة في صباح يوم ميلاد المسيح" (١٦٢٩) لميلتون، أو درايدن "أغنية عيد القديسة سيسيليا" (١٦٨٧)، وقصائد مكتوبة في مديح عشيقة، أو في قدحٍ ساخر لموضوعات مثل الحب، في حين تجدد النمط السوفسطائي للمديح الذي يعتمد على المفارقة بشكل ملحوظ في أعمالِ من قبيل "مديح الحماقة" لديسيديريوس إيرازموس (١٥١١)، حيث تَمتدح الحماقة نفسها. [انظر **Renaissance rhetoric**، ومقال حول**Rhetoric in Renaissance language and literature**].

إن الخطاب الوصفي يظهر حيثما يوجد المديح أو الهجاء، وهو اليوم حاضر في أشكال مثل الدعاية السياسية والإعلانات، حيث تسوّق "فضائل" المنتج للجمهور. [انظر أيضا **Classical rhetoric**؛ و **Epideictic genre** و **Sophists**].

المراجع

Buchheit, V. *Untersuchungen zur Theorie des Genos Epideiktikon von Gorgias bis Aristoteles*. Munich, 1960.

دراسة مهمة عن النوع الوصفي

Buchner, E. *Der Panegyrikos des Isokrates. Eine historich - philologische Untersuchung*. Wiesbaden, Germany, 1958.

Burgess, T. C. *Epideictic Literature, Studies in Classical Philology*, vol. 3. Chicago, 1902.

Cole, T. *The Origins of Rhetoric in Ancient Greece*. Baltimore, 1991

دراسة مبنية على فرضية مفادها أن البلاغة بدأت مع أفلاطون

Kennedy, G. "The Earliest Rhetorical Handbooks." *American Journal of Philology* 80 (1959), pp.pp. 169–78.

Kennedy, G. *The Art of Persuasion in Greece*. Princeton, 1963.

دراسة مهمة عن البلاغة اليونانية لكنها ربما يكون قد عفا عليها الزمن الآن.

Loraux, N. *The Invention of Athens: The Funeral Oration in the Classical City*. Translated by A. Sheridan. Cambridge, Mass., 1986. A translation of *L' Invention d' Athènes: Histoire de l' oraison funèbre dans la "cité classique,"* a thorough study of funeral epideixis in classical Athens.

Marrou, H. I. *A History of Education in Antiquity*, translated by G. Lamb. New York, 1956. Nightingale, A. W. *Genres in Dialogue: Plato and the Construction of Philosophy*. Cambridge, U.K., 1995.

Ober, J. *Mass and Elite in Democratic Athens: Rhetoric, Ideology and the Power of the People*. Princeton, 1989.

دراسة قيمة عن التعارضات بين المصالح الشعبية والنخبة السياسية في أثينا.

Pease, A. S. "Things without Honour." *Classical Philology* 21 (1926), pp.pp. 27–42.

Russell, D. *Greek Declamation*. Cambridge, U.K., 1983.

دراسة ممتازة عن الإلقاء الخطابي في الخطابة اليونانية

Too, Yun Lee. *The Rhetoric of Identity in Isocrates: Text, Power, Pedagogy*. Cambridge, U.K., 1995.

Vickers, B. *In Defence of Rhetoric*. Oxford, 1988.

تأليف: YunLeeToo

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التكرار Epiphora (conversio باللاتينية)

هو الذي يسميه بوتنهام في كتابه سالف الذكر "النقلة المضادة"، وهو تكرار كلمة أو أكثر عند نهاية أشباه الجمل أو الجمل أو الأبيات الشعرية المتتالية. "عندما كنت طفلا، تحدثت كطفل، وفهمت كطفل، وفكرت كطفل: ولكني حينما صرت رجلا تخليت عن أمور الطفولة" (*1 Cor.* 13.11). حيث يقوم الموضع البارز في النهاية مع التكرار بالتأكيد بشدة على موضوع ما، وبالتالي تستطيع جذب انتباه المتلقي. "سألتزم بعهدي! لا تتحدث عن عهدي! فلقد أقسمت قسمًا على أن ألتزم بعهدي" (شكسبير، تاجر البندقية، 5 - 3.3.4).

[انظر كذلك **Epistrophē**؛ و **Figures of speech**].

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

بلاغة الرسائل Epistolary rhetoric

إذا عُرِّفت بلاغة الرسائل بأنها إرشادات واضحة في كيفية تأليف الرسائل، فلا يوجد بالتالي سوى القليل من التاريخ المدوَّن عنها قبل العصور الوسطى. ومن بين الخطباء الإغريق الذين تم الحفاظ على أعمالهم لا يوجد من تعامل مع الرسائل سوى يوليوس فيكتور Julius Victor، وذلك في ملحق موجز لكتابه *فن البلاغة Ars rhetorica* (القرن الرابع قبل الميلاد)، ولم يكن لهذا العمل سوى تأثير محدود للغاية. ومن المؤكد أن كُتاب الرسائل القدماء قد تلقوا نوعا من التدريب، ولكن إذا كانت هناك كتب تعليمية في هذا الصدد فمن المؤكد أيضا أنها قد فُقدت. والأهم لتاريخ هذا النوع هو تلك الإرشادات التي قدمها بصورة غير مباشرة مؤلفون كبار عبر التاريخ. فهناك رسائل سينيكا الأصغر Seneca the Younger (٤ ق م- ٦٥ م) وبليني الأصغر Pliny the Younger (٦١ م- ١١٣ م)، ومن قبلهم شيشرون، وهي التي مثلت النماذج الرئيسة بالنسبة لمفكري عصر النهضة الذين جاءت بلاغتهم الرسائلية مختلفة مع تلك التي كانت سائدة في العصور الوسطى.

لقد اعتمدت رسائل العصور الوسطى على البلاغة الرسمية. وقد أسس فن كتابة الرسائل في العصور الوسطى (*ars dictaminis*) لهذه الصلة عبر تحليل بنية الرسالة بالتماثل مع أجزاء من خطب شيشرون، ومن خلال التركيز على وظيفتها الإقناعية في سياق اجتماعي تراتبي، وعبر فرض قواعد لغتها وأسلوبها. وقد ظلت التنويعات على الأعراف والطقوس الهيكلية والأسلوبية سجينة قيود صارمة: لم يتم التركيز على أصالة أو تفرد الشخص، فكل من المرسل والمتلقي يعتبران عضوين في فئة أو طبقة اجتماعية استنادا

إلى مكانة كلٌ منهما (أعلى أو مساوٍ أو أدنى). وغالبا ما كانت الرسائل تقرأ بصوت عال أمام العامة، حتى تلك التي لم تؤلف على النحو الذي ينبغي أن تكونه. أما الرسالة السرية فقد كانت تبلغ شفاهةً عن طريق حامل الرسالة وليس عبر نص مكتوب، مما يكفل عدم إفشاء السر وقت أن كان نظام نقل الرسالة يفتقد الأمان. [انظر **Ars dictaminis**].

أما التحول الجذري الذي يميز بلاغة الرسائل في العصر الحديث عنها في العصور الوسطى فيتمثل في فكرة أن الرسائل غدت شأنًا شخصيًا غير رسمي، تتسم بالخصوصية وليست شأنًا رسميًا عامًا. وقد زاد من تعقيد هذه النقلة الأساسية حدوث تغيرات مهمة تدريجية في صورة الرسائل ووظيفتها، مع بقاء آثار ضئيلة للنموذج الأقدم حتى يومنا هذا. ولأغراض هذا العرض نقول بأن من الممكن تقسيم تطور بلاغة الرسائل في أوروبا الغربية وأمريكا منذ العصور الوسطى إلى ثلاث مراحل تاريخية رئيسة:

(١) العودة إلى النماذج الكلاسيكية في الفكر الإنساني لعصر النهضة؛

(٢) "العصر الذهبي" لكتابة الرسائل خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر؛

(٣) عصر التقنية بدءًا من القرن التاسع عشر وحتى الآن.

وكانت أول خطوة مهمة بعيدا عن مفهوم العصور الوسطى للرسالة – وكونها نوعا متطورا من الخطابة– هي العودة في عصر النهضة إلى المفهوم الكلاسيكي للرسالة وكونها– وفق كلمات إيرازموس Erasmus– حوارًا بين صديقين لا يرى كلٌ منهما الآخر. وكان الحافز على هذا التغير إعادة اكتشاف مجموعتي رسائل لشيشرون هما *رسائل إلى الأثيني* *Epistolae ad Atticum* التي اكتشفها بيترارك Petrarch في العام ١٣٤٥، و*رسائل حميمية* *Epistolae Familiares* التي اكتشفها كولوتشيو سالوتاتي Coluccio Salutati في العام ١٣٩٢. ولأنها كانت نماذج مثالية لكتابة الرسائل الإنسانية، فقد مثلت رسائل شيشرون الدعامة الأساسية

لأسلوب "قائم على الحوار" تخلص من اللاتينية "البربرية" التي سادت في العصور الوسطى كما في *فن الكتابة والأسلوب* *ars dictaminis* [موجز إرشادي لكتابة الخطابات في القرون الوسطى بأوروبا]. على أن أطروحات النهضويين في كتابة الرسائل احتفظت عند التطبيق بالكثير من إرشادات الأسلاف، مع استبدال رسائل نموذجية برسائل شيشرون كتبها معلمو العصور الوسطى، وهم ينظمون هذا الفن بنفس القدر من الصرامة. وكان كتاب إيرازموس *في كتابة الرسائل* ١٥٢٢ *De conscribendis epistolis* من بين العوامل التي عضدت من الهيمنة الشيشرونية، حيث ينادي بأسلوب وبنية أكثر مرونة تحددها طبيعة المراسلات والموضوع والمناسبة، وتعتمد على قراءة مستفيضة للكتاب الكلاسيكيين. على أن إيرازموس بدوره اعتبر الرسائل جزءًا من البلاغة التقليدية، ويدل على ذلك تصنيفه للرسائل إلى رسائل تشاورية واستعراضية وقضائية ورسائل مألوفة وأخرى غرائبية، مع التنويعات الثلاثة للبلاغة القديمة. [انظر **Renaissance rhetoric**].

لقد كان العديد من الممارسين الأوائل للأسلوب النهضوي [في كتابة الرسائل]– وبالأخص في إيطاليا– من أمناء السر وكتاب العدل الذين استمروا في توظيف أسلوب *فن الكتابة والأسلوب* *ars dictaminis* في مراسلاتهم الرسمية بينما طبقوا الأسلوب الأحدث في مراسلاتهم الشخصية. وما أن أصبح الأسلوب النهضوي أساس جميع أنواع الرسائل حتى صارت الاختلافات بين المراسلات الشخصية وتلك الرسمية طفيفة. ومع زيادة مركزية السلطة السياسية لعبت الرسائل دورًا أكثر أهمية في بلاط الحكم. فقد استغل الساسة الطموحون تقاليد بلاغة الرسائل في صياغة صورة جذابة لشخصياتهم تمكنهم من الالتحاق بالأقوى بجميع طرق المداهنة السياسية. وعلى الرغم من أن تلك الرسائل كانت مثل عرائض لأمور بعينها، فإن العديد منها لم يكن له من غرض سوى إقامة أو تعضيد العلاقات الاجتماعية أو الأيديولوجية: ومن ذلك الرسائل بين أفراد الأسرة.

كما تشابه مصلحو عصر النهضة مع كتبة الرسائل المحترفين في العصور الوسطى من حيث استهداف النخبة الذكورية المسلحة بالثقافة اللاتينية. ومع أن إرشادات كتابة الرسائل الإيطالية كانت قد بدأت تظهر في القرن الثالث عشر، فإن الغالبية العظمى من أطروحات العصور الوسطى والأطروحات النهضوية كانت باللغة اللاتينية. وشاعت الأطروحات باللغة العامية الدارجة في القرن السادس عشر: فظهرت في البداية بالإنجليزية (ويليام فولوود William Fulwood، *The Enimie of Idlenesse*، ١٥٦٨)، وهي بدورها مترجمة عن الفرنسية. ولكن تلك الرسائل العامية لم تسُد بين مختلف طبقات المجتمع إلا في القرن السابع عشر، بما صحب ذلك من تبعات بلاغية هامة بين مختلف أطياف كُتاب الرسائل.

وصاحب تداول الرسائل بالعامية بين النخبة الأوروبية انتشار الرسالة الأسرية، والتي صارت مع أواخر القرن السابع عشر شكلا أدبيا مميزا. ورغم أن تلك الرسائل استمرت في كونها عامة وليست شخصية- كتبت مدام دي سيفين Madame de Sévigné رسائلها الشهيرة إلى ابنتها وهي تعلم أنها ستجمع وتطبع- فإن القواعد الأسلوبية التي حكمت كتابتها قد تغيرت بصورة كبيرة. وأضحى للتلقائية والبساطة قيمة تفوق تعمد الصنعة والتعقيد. وصارت سمات المحاورة الجيدة، من قبيل التنويع والحيوية والفطنة وسهولة اللغة ووضوحها، هي سمات الرسالة الجيدة. وحيث إن المحاورة كانت في حد ذاتها فناً، فإن بلاغة الرسائل صارت فن تصنع الوضوح والتلقائية والعفوية. وحتى نتبين مدى براعة وسذاجة كتاب الرسائل في القرن السابع عشر يكفي أن ننظر إلى مجموعة الرسائل الخاصة بجان لوي جوز دي بلزاك Jean - Louis Guez de Balzac (١٥٩٧ – ١٦٥٤) وكذلك فنسنت فويتي Vincent Voiture (١٥٩٧ – ١٦٤٨). لقد أصبحت الرسالة بوصفها مُنتَجًا أقل أهمية

من الرسالة كعملية [كممارسة]: حيث جاء الأسلوب السليم والبنية المنطقية بعد الإيقاعات البلاغية وقفزات تداعي المعاني. كما رفع قراء الرسالة من قيمتها كمصدر موثوق به. ومن ثم عمد كتاب الرسائل إلى اصطناع نغمة حقيقية يمكنها توليد نفس تأثير المحاورة المسموعة.

انتشرت إرشادات كتابة الرسائل كما لم تنتشر من قبل خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولمواكبة نماذج الرسائل الأسرية لم تعول تلك الإرشادات كثيرا على القواعد بل على أمثلة توضح مجموعة من التعبيرات الملائمة لمختلف الردود والظروف. وكانت المتعة واكتساب المعلومات هما هدف قراءة مجموعات تلك الرسائل، وشكلت جزءًا من إرشادات متكاملة حول السلوكيات والأخلاقيات. وتفسر نفس الوظيفة المزدوجة انتشار عملية تجميع الرسائل ونشرها، حتى من دون موافقة أصحابها. فتلك المجموعات حققت من جهة تلك المتعة التلصصية على أشياء نُزع عنها الحجاب، بالإضافة إلى قيمة الخطاب كمصدر موثوق به، وأتاحت من جهة أخرى نماذج للكتابة التعبيرية، بالإضافة إلى العواطف الراقية أو الأخلاقيات القويمة.

كما انبثقت عن أسلوب الرسائل الأسرية أنواع تهدف إلى التسلية المحضة، مثل تلك الرسائل التي تحوي رسائل خيالية صيغت وكأنها رسائل واقعية عُثر عليها بالمصادفة. وتعود أهمية المجموعة المبكرة لنيكولاس بريتون Nicholas Breton – *البريد ومجموعة من الرسائل* *A poste with a madde packet of letters* ١٦٠٢، والتي كتبت بالإنجليزية– إلى كونها تحوي رسائل لأشخاص من طبقات دنيا. كما أن الروايات التي صيغت على شكل رسائل كانت مهمة في إتاحة الفرصة لتقديم مجموعة متنوعة من التعبيرات، وبالأخص تلك النسائية، ضمن سياق عريض من الظروف المتفاوتة. وقامت

تلك الأعمال- مثل العديد من إرشادات كتابة الرسائل- بالربط بين بلاغة الرسائل والإرشادات الأخلاقية: فثمة ارتباط كبير بين روايتي الرسائل لصامويل ريتشاردسون-باميلا *Pamela* وكلاريسا *Clarissa*- وكتابه الإرشادي *رسائل مكتوبة لأصدقاء حميمين، في مناسبات بالغة الأهمية* *Letters Written to and for Particular Friends, on the Most Important Occasions* (١٧٤١).

بالإضافة إلى وظائفها التعبيرية، فقد استمرت الرسائل وبصورة طبيعية في القيام بوظائف أداتية، من قبيل التعريف بالأخبار والتعاملات التجارية وتعضيد العلاقات الأسرية والاجتماعية. وقد تداخلت الوظيفتان الأدائية والتعبيرية، ولكن بدءًا من أواخر عصر النهضة ظهر ميل متزايد إلى الفصل بين الرسالة التجارية وبين الرسالة الأسرية والتعامل معها من خلال قواعد خاصة. كانت مجموعات الوثائق التجارية والقانونية موجودة بالفعل في العصور الوسطى، وهي تنتشر حتى يومنا هذا. ومع انتشار التعليم والتوسع في التجارة زاد عدد هذه الأعمال بصورة كبيرة خلال الفترة الحديثة المبكرة. ولكونها موجهة إلى الطبقات العاملة والبرجوازية التجارية فقد قدمت قواعد براجماتية بوصفها نماذج يمكن تقليدها. وارتبطت بلاغة الرسائل- بوصفها مجموعة من القواعد أو التقاليد التي تحكم لغة الرسائل وصيغها- بالرسائل التي تنتمي إلى هذا النمط. والحقيقة أنه على الرغم من التنوع المتنامي لفن الرسالة المعاصرة، الدعاية بالبريد المباشر على سبيل المثال، فإن هذا التنوع محكوم بالقواعد البلاغية التي نصت عليها العديد من الإرشادات المتداولة حاليا. غير أن الرسالة التجارية لا تزال تعد في الفئة الثانية، بينما تبقى الرسالة الشخصية هي الأساس.

وقد شهد القرن الثامن عشر تحولا في طبيعة الرسالة الأسرية ومكانتها بسبب التقنيات الجديدة. فقد أسهم النظام البريدي السريع الآمن في تغيير بلاغة الرسائل عبر وسائل عدة، وربما كان أهمها أن الرسالة صارت ذات خصوصية تامة حقيقية. فقد اجتمعت عوامل سرعة النقل وتوافر خامات الكتابة والطوابع بثمن زهيد لتقلل من القيمة المعنوية للرسالة: فقد تعاظم عدد الرسائل المتبادلة، ولم يعد الكاتب أو حتى القارئ يخصص ذلك الوقت الكبير للرسالة والتركيز على فنونها البلاغية. ومع توفير وسيلة أكثر كفاءة للتعريف بالأخبار العامة، قللت وسائل الإعلام من احتمالات أن يقرأ الرسالة أشخاص آخرون خلاف الشخص الذي أُرسلت إليه. ولم تعد الرسائل تكتب بغرض النشر، سواءً الرسمي أو غير الرسمي.

وفي حين ساعدت ابتكارات تقنية معينة في إكساب الرسالة طابعها الخاص، فإن هناك أيضا ما ساعد على تقليل طابعها الشخصي. فهناك وسائل عديدة لإعادة الإنتاج آليا، ومنها الآلة الكاتبة وماكينة التصوير الضوئي ومعالج الكلمات مؤخرا، أدت إلى تغيير مكانة الرسالة بوصفها شيئًا متفردًا. وعلى خلاف ما كان سائدا، تعتبر الرسالة المكتوبة بخط اليد الآن رسالة شخصية استثنائية. وفي عصر الحملات البريدية أضحى "التأثير الشخصي" ذا قوة بلاغية لدرجة أن تقنية الحاسب الآلي تعمل على محاكاته. وكما عمدت الرسائل الأسرية في القرن الثامن عشر إلى أن تبدو في صيغة محاورة، فإن الحملات الدعائية البريدية الحديثة تعمد إلى أن تكون أشبه بالرسائل الشخصية.

وربما تمثل التغيير الأهم في الهاتف، الذي أنهى احتكار الرسالة بوصفها تحقيقا لمهمة التواصل عن بعد. فلما أصبح من الممكن للمرء أن يحاور صديقًا غائبًا عنه عبر الهاتف، كان من اللازم على الرسالة أن تنفذ

وظائف أخرى تتناسب وما تتصف به من طابع مادي دائم. أما تقنية الإنترنت التي- مثلها مثل الهاتف- أدت إلى إزالة ذلك الحاجز الزمني الذي كان لازما للتواصل عبر الرسائل، فتميزت بإمكان إرسال النص المكتوب وليس الصوت المسموع فحسب، إلا فيما يتعلق بحالة الرسائل غير المرغوب فيها، والتي لا تحمل ما يدل على مرسلها، حتى بعد طباعتها [وهي ما تعرف بالإنجليزية باسم spam]. ومع تقنية البريد الإلكتروني صرنا أقرب ما يكون إلى المحاورة المكتوبة، مع تجاوز نطاق وقيود ما يسمى بالرسالة.

المراجع

Altman, Janet Gurkin. *Epistolarity: Approaches to a Form*. Columbus, Ohio, 1982.

دراسة شهيرة عن أدب المراسلات تحاول تمييز هذا النوع البلاغي عن الأنواع الأخرى من الخطابات (see especially chapter 4, "Epistolary Discourse")

Camargo, Martin. *Ars Dictaminis, Ars Dictandi*. Typologie des sources du moyen âge occidental, 60. Turnhout, Belgium, 1991.

دفاع عن هذا النوع البلاغي ومحاولة لتتبع أصوله التاريخية.

Chartier, Roger, Alain Boureau, and Cécile Dauphin. *Correspondence: Models of Letter Writing from the Middle Ages to the Nineteenth Century*. Translated by Christopher Woodall. Princeton, 1997.

Earle, Rebecca, ed. *Epistolary Selves: Letters and Letter - Writers, 1600–1945*. Aldershot, U.K., 1999.

عشر مقالات تدور حول الوظائف الاجتماعية للرسائل.

Favret, Mary A. *Romantic Correspondence: Women, Politics and the Fiction of Letters*. Cambridge, U.K., 1993.

يدور حول الرسائل الخاصة والعامة التي تركز على التوجهات السياسية والأيديولوجية خلال الفترة من ١٧٩٠ – ١٨٤٠.

Hornbeak, Katherine Gee. *The Complete Letter Writer in English, 1568–1800*. Smith College Studies in Modern Languages, vol. 15, nos. 3–4. Northampton, Mass., 1934.

دراسة تتتبع أهم الرسائل المكتوبة باللغة الإنجليزية في المراحل المبكرة.

Irving, William Henry. *The Providence of Wit in the English Letter Writers.* Durham, N.C., 1955.

دراسة استقصائية عن أهم الكتاب الكلاسيكيين والأوروبيين الذين أثروا على طريقة كتابة الرسائل الإنجليزية.

Mitchell, Linda, and Carol Poster. eds. *Letter - Writing Manuals from Antiquity to the Present.* Forthcoming.The fullest, most up - to - date survey of the topic.

يحتوي على تسعة عشر مقال بالإضافة إلى قوائم مستقلة.

Murphy, James J., ed. *Renaissance Eloquence: Studies in the Theory and Practice of Renaissance Rhetoric.* Berkeley, 1983.

ثلاثة وعشرون مقال تدور حول البلاغة الرسائلية.

Redford, Bruce. *The Converse of the Pen: Acts of Intimacy in the Eighteenth - Century Familiar Letter.* Chicago, 1986.

دراسات حول خطابات الليدي ماري ورتلى، ومونتاجو، ووليام كوبر، وتوماس جراي، وجيمس بوزويل، وصموئيل جونسون.

Robertson, Jean. *The Art of Letter Writing: An Essay on the Handbooks Published in England during the Sixteenth and Seventeenth Centuries.* Liverpool, U.K., 1942.

Stewart, Keith. "Towards Defining an Aesthetic for the Familiar Letter in Eighteenth Century England." *Prose Studies* 5 (1982), pp.pp. 179–192.

دراسة توضح ما تتضمنه الرسائل من قيمة تتعلق بمضمونها ومعاني الكلمات المستخدمة.

Whigham, Frank. "The Rhetoric of Elizabethan Suitors' Letters." *Proceedings of the Modern Language Association* 96 (1981), pp.pp. 864–882.

دراسة متميزة عن رسائل رجال البلاط وعلاقتها بالسياق الاجتماعي والسياسي.

Zaczek, Barbara Maria. *Censored Sentiments: Letters and Censorship in Epistolary Novels and Conduct Materials*. Newark, Del., 1997.

يعالج الروابط المهمة بين الرسائل والكتابات الإجرائية.

النكوص Epistrophē (*epiphora* بالإغريقية؛ *reversio* باللاتينية)

هو الذي يسميه بوتنهام في كتابه "التحول العكسي" (ص ١٩٨)، وهو مصطلح نادر يدل على التكافؤ المورفولوجي، والذي من خلاله تنتهي عدة أشباه جمل أو جمل بنفس الكلمة أو الكلمات. ومن ذلك ما ورد في الكتاب المقدس "عندما كنت طفلا، تحدثت كطفل، وفهمت كطفل، وفكرت كطفل: ولكني حينما صرت رجلا تخليت عن أمور الطفولة" (*1 Cor* 13.11). بينما يفضل بيلت Plett وآخرون تسمية المصطلح، وذلك حينما ناقشه في كتابه *البلاغة النسقية Systematische Rhetorik* (ميونخ، ٢٠٠٠)، بالتكافؤ المرتب وفقا للوضع والإطالة والتكرار وبقية المعايير. [انظر كذلك **Epiphora**؛ و **Figures of speech**].

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التكرار التأكيدي Epizeuxis (باللاتينية geminatio)

هو تشاكل صوتي يتكون من تكرار كلمة أو عبارة دون الالتفات إلى العناصر الأخرى المكونة للجملة. ويمكن تكرار الكلمات في بداية الآية أو الجملة: "يا إلهي، يا إلهي، لماذا تركتني؟" (*Mt.* 27.46)؛ أو في منتصفها: "هيا، حرك، حرك، حرك! لقد صاح الديك الثاني" (شكسبير، روميو وجولييت، 4 - 4.4.3)؛ أو في النهاية: "يالزابينا المسكينة! مليكتي، مليكتي!" (كريستوفر مارلو، تامبورلين، الجزء الأول، 5.2.212). فالتكرار التوكيدي يضفي على الكلام تأثيرا قويًا يهدف إلى إثارة الوجدان. [انظر كذلك **Figures of speech**؛ و **Poetry**].

تأليف: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

جدالي Eristic

هي كلمة مشتقة من eris اليونانية، وتعني النزاع [الصراع]، وتنتمي الكلمة إلى الأخلاق الجدلية التي تهدف إلى الانتصار. ويستخدم [المفهوم] في كتب البلاغة الكلاسيكية، ليصف أسلوب حجاج يسعى إلى الانتصار بأية طريقة كانت. ومن بين الأساليب النموذجية للجدال المخالفة والدحض والتناقض. حيث يحاول الجدالي في العموم التغلب على منافسه عن طريق الإيقاع به في فخاخ منطقية، وإرباكه بالأحاجي والمفارقات المنطقية، مع التلاعب بالألفاظ اللغوية المبهمة، والاستعانة بالمغالطات الفكرية، والكشف عما تفضي إليه حجة الطرف الآخر من بطلان. ومن بين الأمثلة التي توضح ذلك: حينما يصدُق أحدهم في كلامه عن الكذب، فهو بالتالي يكذب؛ إذا كنت تعرف أباك، ولكن لا تعرف الشخص الذي يخفي وجهه أمامك، فأنت بالتالي تعرف ولا تعرف الشخص نفسه؛ إذا لم تكن قد فقدت شيئًا فأنت بالتأكيد تملكه؛ أنت لم تفقد الأبواق وبالتالي أنت تمتلكها. وقدمت أمثلة على الممارسات الجدالية من خلال الشخصيتين إيوثيدمس وديونيسودوروس في محاورة إيوثيديموس *Euthydemus* لأفلاطون.

وفقا لدايوجينس لايرتيوس Diogenes Laertius (القرن الثالث الميلادي)، يشكل الجداليون مدرسة فكرية جذورها ترجع إلى الفلسفة الإيلية Eleatic، والتي تفترض، على غرار ما ذهب إليه بارمنيدس، دوام الوجود ووحداه. وقد ازدهرت تلك المدرسة، التي عرفت وبشكل عام في العصور القديمة باسم "الميجاريين" Megarians، في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد.

وضمت شخصيات مثل إقليديس Euclides، واستلبو Stilpo، وإبوليديس Eubulides، وأليكسينوس Alexinus. ومن الناحية العملية تشبه المجادلة ألعاب القوى أو النزال. وقد قام أرسطو، على سبيل المثال، في *التفنيدات السوفسطائية* بوصفه اعتمادا على القياس الاستنباطي:

"كما أن للغش في اللعب والقتال بغير شرف طابعا مميزا معينا، فهكذا هو حال الجدالي في أي جدال. في الحالة الأولى لا يتوقف أولئك الذين عقدوا العزم على الفوز عند أي شيء، والشيء نفسه ينطبق على المجادلين. فمن يجادل بهذه الطريقة سعيا للانتصار فحسب، يبدو محبا للجدال ومثيرا للجدل"(171b..)

كما نجد أفلاطون يستخدم مفردات الحرب عندما يقدم نصيحة سقراط لثياتيتوس بشأن المجادلين: يمكن للمحارب المرتزق في الحرب الكلامية أن يتربص بك متسلحا بألفٍ من [فخاخ] الأسئلة...فهو قادر على...أن يصيبك بالتخبط، ويعزز هجومه حتى يوقعك الافتتان بمهارته، التي لا حد لها، في شراكه، وعندئذ، وبعدما أسرك، لن يتركك إلا بعد أن يكبدك الفدية التي لن يسعك إلا أن توافق عليها (*Theaetetus* 165d - e).

ويفسر كل كاتب كلاسيكي الجدالي بأسلوبه. فنجد أرسطو مثلا يقول في *الخطابة* إن دافع الجدالي هو متعة تحقيق النصر: "بما أن النصر ممتع، فإن الألاعيب التنافسية الجدالية ممتعة بدورها، وذلك لما تحققه من نصر". كما يلاحظ في نفس الفقرة أن "ممارسة البلاغة القضائية والجدالية ممتعة لأولئك الذين ألفوها وتمكنوا منها باقتدار" (1371a). أما أفلاطون فيرى أن المجادلين يفعلون ذلك بسبب الجهل وسوء استخدام المنطق. وبالتالي فهو يؤكد على أنه "إذا وجد شخص المتعة في التلاعب بالكلمات وإلصاقها بأشياء مختلفة في أوقات مختلفة، متصورا أنه قد اكتشف شيئا يصعب تفسيره، فإن

برهاننا هنا هو أنه قد أخذ بكل جدية أمورا لا تستحق كل هذا القدر من الاهتمام؛ وبالتالي فلا هو ماهر ولا شديد المراس" (السوفسطائي 259c). ويستفيض أفلاطون في الاستهانة بما يفعله المجادل فيقول: "حين تعمد بصورة ما إلى إثبات أن الشيء شيء آخر وأن الآخر هو نفس الشيء، وأن الكبير صغير، وأن الشبيه غير شبيه، وأن تجد المتعة في طرح النقيض دوما خلال أي جدال، فإنك في الحقيقة لا تقوم بأي دحض فعلي، ولكن كل هذا ليس سوى وليد عقلية مازالت تتحسس خطاها في القبض على إشكالية الواقع والحقائق". (السوفسطائي 259d).

غالبا ما يتم الربط بين المجادلين والسوفسطائيين والجدليين ورافضي المنطق والميالين للمخالفة. والقاسم المشترك بين كل هذه الأنماط هو الاهتمام باللغة والجدال من أجل الإثبات والرد. إلا أن هناك اختلافات فيما بينهم كذلك. فيرى أرسطو أن ما يميز المجادلين عن السوفسطائيين ليس طريقة الجدل بل الغاية؛ حيث هم المجادل الرئيس لتحقيق النصر بينما يهتم السوفسطائي أكثر بـــ"الدعاية لنفسه والعائد المادي الذي يجنيه" (171b).

وقد نوه أفلاطون إلى أن الخيط الفاصل بين الديالكتيكي والمجادل رفيع جدا. [انظر <u>Dialectic</u>]. حيث يقوم الديالكتيكي "بتطبيق التقسيمات والتمييزات المناسبة على الموضوع الذي يدرسه" بينما لا يقوم المجادل بذلك. حيث يسعى المجادل إلى التناقضات اللفظية فحسب (الجمهورية، 454a). وبصفة عامة يؤكد أفلاطون أن: ما إن يتذوق الشباب طعم الخلاف حتى يستخدموه كنوع من الترويح عن النفس، ويكونوا دائمي الاستخدام له، بل ويحاكون المفندين في تفنيدهم لغيرهم. ويستمتعون كالجراء بمشاكسة كل من يتحداهم بالكلمات. (الجمهورية، 499b).

ويلاحظ أفلاطون أن النقاش الديالكتيكي (من الناحية الفلسفية) يبدأ بافتراض نموذج واحد لشيء ما ثم ما يلبث أن يبحث عن مثالين أو أكثر للشيء نفسه، وصولا إلى عدد لا يحصى له من الأمثلة. وعلى النقيض من ذلك، فإن نقاش المجادل يبدأ من المثال الواحد وصولا إلى العدد الذي لا يحصى له، دون وضع تلك المرحلة الوسيطة في الاعتبار (*Philebus* 16d - 17a). وإجمالا نقول إن المجادل في نظر أفلاطون يشغل نفسه بالمراوغة، وإثارة الاعتراضات التافهة، وكلها يؤدي إلى الصراع القائم على الرأي في قاعات المحاكم أو في المناقشات الخاصة. أما الفلاسفة فيسعون جاهدين إلى الحقيقة مهما كلفهم الأمر، وذلك نشدانا للمعرفة (*Republic* 499a).

وكثيرا ما ميز إيزوقراط في كتاباته البلاغية بين "أولئك الذين يختلفون بمكر حول الموضوعات التافهة"، وأولئك الذين كرسوا أنفسهم لدراسة الفلسفة والبلاغة (*Against the Sophists* 1, *Helen* 1, *To Nicocles* 39, *Letter* 5, 3 - 4). وهو مثل أفلاطون وأرسطو في إدانته لممارسات المجادلين، ولكن مع اختلاف الفكرة. فهو يرى تلك الممارسات بلا جدوى مقارنة بما هو أهم، ألا وهو الحكمة العملية في التعامل مع الشؤون العامة. وقد وجه إدانته إلى معلمي المجادلة وليس إلى تلامذتهم، فهم ولكونهم شبابا منجذبين بطبعهم إلى الأمور الشيقة غير المألوفة (*Helen*, 6). على أن إيزوقراط يتتبع المجادلة عبر مستويات عدة، تشمل الفلاسفة والديالكتيكيين والسوفسطائيين ورافضي المنطق، وكذلك لدى بعض الخطباء. كما أنه يثير اللبس عندما يضفي بعض القيمة التعليمية على المجادلة، مدعيا أنها تساعد في شحذ العقل بنفس الطريقة التي يفعلها علم الفلك وعلم الهندسة (أنتيدوسيس، ٢٦١ – ٢٦٥). وهو يرمي من ذلك إلى القول إن تلك الدراسات مفيدة لصغار السن، ولكنها ليست كذلك بالنسبة للأكبر سنا (*Panathenaicus* ٢٧ – ٢٨). [انظر كذلك **Classical rhetoric**؛ و **Sophists**].

المراجع

Kerferd, George B. "Dialectic, antilogic and eristic." In *The Sophistic Movement*, pp.pp. 59–67.

Cambridge, U.K., 1981. Offers fine discriminations between dialectic, antilogic, and eristic.

Kerferd, G. B. "Gorgias on Nature or That Which Is Not." *Phronesis* 1 (1955–1956), pp.pp. 3–25.

يناقش آراء جورجياس عن هوية وإنكار الأغراض البلاغية

Rankin, H. D. "Ouk estin antilegein." In *The Sophists and their Legacy*. Edited by G. B. Kerferd.

Wiesbaden, Germany, 1981.

يقدم نقاشا بناء حول السلب والتناقض في التقاليد السوفسطائية

Rankin, H. D. *Sophists, Socratics, and Cynics*. Croom Helm, U.K., 1983.

يقدم وصفا للكيفية التي ساهم بها الجدل في تطوير المنطق.

تأليف: John Poulakos

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الأخلاق Ethics

انظر **Casuistry**; **Conviction**; **Epideictic genre**; **ēthos**; **Judgment**; **Logos**; **Medieval rhetoric**، ومقال عن **Medieval grammar**; **Modern rhetoric**; **Philosophy**؛ و **Prudence**.

الانتحال [تقمص الشخصية] Ēthopoeia (notatio باللاتينية)

الوحدة النصية التي يتم فيها محاكاة الطبيعة المميزة لشخصية معينة من خلال نسبة كلام أو خطاب معين إليها. وتعد "كتب التعليم والتدريبات" الإغريقية القديمة *progymnasmata* أفضل نموذج لهذا الشكل. وبعيدا عن التعريف، يمكن تمييز أنواع مختلفة لها في تلك الكتب التعليمية، وفقا لمعايير متفاوتة. فهي من ناحية تميز بين إبداع الخطاب الذي يعزى إلى شخصيات حية حقيقية (*ēthopoeia*)، وذلك الذي يُعزى إلى شخصيات متوفاة (*eidōlopoeia*)، أو إلى شخصيات غير حقيقية (*prosōpopoeia*). ومن ناحية أخرى، فمن المعتاد التمييز بين التقمص الذي تكون فيه السيطرة للشخصية، والتقمص الوجداني الذي تسيطر عليه المشاعر؛ والنوع المركب الذي يجمع بين هذا وذاك.

ويصر الكُتاب - عند تنقيح تلك الأشكال- على ضرورة الالتزام بفضيلة اللياقة، بمعنى ملاءمة الأسلوب لعوامل اختلاف العمر والجنس والوضع الاجتماعي والأصل اللغوي للشخصية. كما يصرون على العلاقة بين محتويات الخطاب المتخيل وظروفه ومناسبته الفعلية [انظر كذلك Classical rhetoric؛ Decorum؛ ēthos؛ Figures of speech؛ و Prosōpopoeia].

المراجع

Lanham, R. A. *A Handlist of Rhetorical Terms*. Berkeley, 1991.

Lausberg, H. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. pp.P. 822; Munich, 1960.

Mayoral, J. A. *Figuras retóricas*. pp.P. 187. Madrid, 1994.

Morier, H. *Dictionnaire de Poétique et de Rhétorique*. Paris, 1981.

تأليف: José Antonio Mayoral؛ الترجمة إلى الإنجليزية: A. Ballesteros

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الإيتوس Ethos

منذ ابتدائها، أقامت البلاغة الكلاسية الإقناع على معرفة المتكلم بتنويعات وتعقيدات الطبيعة البشرية. [انظر: البلاغة الكلاسية] تؤهل هذه المعرفة المتكلم لتوصيل صورة مقبولة عن ذاته، كما تؤهله لصياغة حجج بطرق تلائم مختلف المتلقين والمناسبات. ويمكن إثبات أن معظم النظريات في تاريخ البلاغة انبثقت من المقدمات الفريدة المتعلقة بطبيعة النفس البشرية (وبشكل خاص العلاقات المتداخلة بين العقل والإرادة والانفعالات)؛ بالإضافة إلى ذلك، فإن معظم النظريات المبنية كلاسيًا تعترف بتأثيرات المنزلة الاجتماعية والثقافة التي تعرض المتلقين إلى سلسلة من الحوافز والقيم والأحكام المسبقة والمطالب النموذجية (وبالتالي القابلة للتنبؤ وللاستثمار). باختصار، معظم روايات البلاغة التاريخية انبثقت من "نظرية" سابقة (الإيديولوجية بلغة معاصرة) عن "الإنسان"؛ أعني انبثقت من مجموعة من الافتراضات، سواء الظاهرة أو غير المفحوصة، تأخذ في الاعتبار سيكولوجيا الإنسان والعلاقات الاجتماعية، تهب في كل حالة نموذجا متميزا للإيتوس الذي يمكن هنا تحديده، بشكل واسع ومؤقت، بوصفه "شخصية على نحو ما تبرز في اللغة". لا يرجع تعقيد دراستنا إلى تعدد معاني الإيتوس وتنافسها بل وتناقضها خلال تاريخ البلاغة، ولكنه يؤول إلى أن نماذج الشخصية و"الفردية" وسيكولوجية الإنسان استمرت في التطور منذ القدم؛ من هنا يختلف بشكل ملموس الإيتوس الهيليني الفعلي (من قبيل ما ابتدعه الخطيب اليوناني لوسياس أو ما نظَّر له الفيلسوف أرسطو) عن إيتوس الخطيب الروماني ورجل الدولة

شيشرون، والذي يختلف بدوره عن إيتوس القديس أوغسطين المسيحي المبكر، وإيتوس ميكيافيلي في عصر النهضة، وإيتوس كامبل في عصر الأنوار، وإيتوس بيرك الحديث، وإيتوس رولان بارت ما بعد الحداثي، وهلم جرا. في البحث الآتي، سيتم رسم تطور الإيتوس بوصفه مفهوما بلاغيا كلاسيا ورسم تحولاته اللاحقة، بتوافق مع التحول في المفهومات الثقافية للشخصية أو "الفردية".

الإيتوس في بلاغة لوسياس وأفلاطون وإيزوقراط.

على الرغم من أن صورة الشخصية الواقعية كانت لفترة طويلة سمة للشعر (ملاحم هوميروس شاهدة على هذا)، فإن مؤرخي البلاغة يعزون إلى كاتب الخطب لوسياس (c. 445 - 380 bce) تطوير تقنيات رسم الشخصية الإنسانية بوسائل الخطاب ethopoiea. [انظر: ethopoiea.] وقد وصل الأمر بالمحاكم الأثينية أن تجبر الأفراد على الحديث بالأصالة عن أنفسهم، من دون الاستفادة من الدفاع القانوني (على نحو ما سيصبح بعد ذلك العرف الروماني)، إنهم الأفراد الذين استفادوا من "حيل" الإقناع، وطلبوا التعلم من أستاذ أو كتاب مدرسي (من هنا تطور البلاغة "التقنية")؛ وبطريقة أخرى يمكنهم شراء خطاب من كاتب الخطب، ومن ثمَّ حفظه وإلقاؤه. بتكييف كتابته باسم مؤلف آخر للتعبير عن العصر والوضع وشخصية أي زبون، فإن شهرة لوسياس بوصفه كاتب خطب ترتكز على "مهارته في بناء وسائل الإقناع من الشخصية"، كما أشار دونيسيوس هاليكارناسوس Dionysius of Halicarnassus (Lysias 19. 3 - 4)، إنه يجعل شخصية زبونه "تظهر جديرة بالثقة بواسطة الإحالة إلى ظروف حياته ونسبه، وفي أحيان كثيرة بواسطة وصف أفعاله وأهدافه الماضية. وعندما تخفق الوقائع في تزويده بمثل هذه المادة، فإنه يبتدع نبرته الأخلاقية الخاصة، جاعلا شخصياته تبدو في خطبتهم جديرة بالثقة وشريفة".

ولقد خصص أفلاطون (c. 428 - c.347 bce)، ناقد لوسياس والسوفسطائيين، عديدا من المحاورات للبلاغة، أشهرها فايدروس التي يسأل فيها الناطق بلسانه سقراط عن فضيلة ethopoiea والكتابة باسم مؤلف آخر، وفي الواقع عن الكتابة بصفة عامة. وقد ألف سقراط في جوابه خطابين، منتقدا خطبة لوسياس عن الحب التي حفظها الشاب فايدروس وأنشدها، على الرغم من أنه مهد للخطاب الأول بتصريح يقول فيه: "سوف أغطي رأسي قبل أن أبدأ؛ ثم أهجم على خطبتي بسرعة لكي أتجنب الارتباك والخجل إذا نظرت إليك "(237a). إن فعل تغطية الرأس هو أكثر من تسليم بالعار (في هذا الخطاب الأول، يحاكي لوسياس في شتمه لإله الحب)؛ إنه يرمز إلى الانفصال بين الشخصية الأخلاقية للمتكلم وبين النص المكتوب باسم مؤلف آخر. وكما لاحظ جيمس بوملين James S. Baumlin في كتابه "وضع الإيتوس في النظرية التاريخية والمعاصرة"(١٩٩٤)، إن سقراط يتلفظ بالكلمات، ولكنه هو نفسه لا يظهر فيها؛ على هذا النحو فإن خطابه يحجب الذات ومقاصدها أكثر مما يكشف عنها.

بهذا يستحضر سقراط التشخيص أو التجسيد Prosopopoiea وهي صورة بلاغية شبيهة بـــethopoiea، ترتبط اشتقاقيا باللفظ اليوناني prosopon "الوجه" أو "القناع" (الذي يحتمل أن يكون قد اشتق منه اللفظ اللاتيني persona). [انظر: persona وProsopopoeia.] لا يمثل قناع الممثل مجرد مظهر من الملابس في الدراما، ولكنه يمنح أداة للعرض، تفخم صوته وتمدد (أو تثبت) تعبير وجهه. ومع ذلك فإن ارتداء اللباس يمحو هنا أكثر مما يثبت شخصية المتكلم. اعترضت سقراط "نظرة إلهية مألوفة" تطالب التكفير عن الإثم (242b) لأننا وجدنا أنه أذنب، ليس بسبِّه إله الحب، ولكن أيضا بتضليله قلة من البؤساء وكسبه تصفيقهم"(٢٤٣). بعد ذلك ألقى سقراط خطابه الثاني في مديح الحب (243b) معلنا استعادة العلاقة الأخلاقية بين المتكلم وكلماته.

من المسلم به أن أفلاطون لا يستخدم مصطلح الإيتوس بالمعنى البلاغي الذي شكله تلميذه أرسطو في ما بعد. وعلى الرغم من هذا، فإنه يمكن بواسطة الاستنتاج العمل بتعريف أفلاطون. إذا كانت "البلاغة الحقيقية" كما يصفها أفلاطون، تسعى إلى اكتشاف حقيقة النفس والتعبير عنها، فإن الإيتوس من ثم يصف التناغم الباطني بين اللغة والشخصية والحقيقة: يحدد الإيتوس الفضاء الذي تلتقي فيه اللغة والحقيقة وتتجسدان من خلال الفرد. ومن ثم فإن تحديد أفلاطون للإيتوس يفترض مقدمة أخلاقية، ويفترض بشكل أساس، اتصالا لاهوتيا بين الفاعل المتكلم وفعل الكلام. طوال المحاورة كان أفلاطون عنيدا في تأكيد هذه المعادلة: ينبغي للحقيقة أن تتجسد من خلال الفرد، وينبغي أن تعبر (أو تكتشف أولا) لغة الشخص عن هذه الحقيقة. وبشكل مخالف، تفضي أي محاولة لفصل خطاب الشخص عن شخصيته الفعلية إلى نفي المظهر التجسيدي للحقيقة والخطاب على حد سواء. على هذا النحو تصبح البلاغة قائدة للنفوس psychagogia أو هادية لها إلى الحقيقة. وكما قال سقراط لفايدروس: "ومن الواضح أن تعليم البلاغة إن كان يقدم بطريقة فنية فإنه سوف يظهر بدقة طبيعة الموضوع الذي تتعلق الخطابات به، وليس هذا الموضوع في الحقيقة إلا النفس"(270c).

من بين الإنجازات الضرورية الأخرى، علاوة على ذلك، ينبغي للخطيب أن "يصنف الخطابات في أنواع كما يصنف أنواع النفوس ليرى ميولها المختلفة ومدى اتفاق بعضها مع بعض، مبيِّنًا في ذلك الأسباب والنتائج في هذا الاتفاق ولماذا لا تتأثر بعض أنواع النفوس بنوع معين من الخطابات في حين تقتنع به بعض النفوس الأخرى" (فايدروس 271b) في الواقع تمثل معرفة مختلف "ضروب النفس" بوصفها مركز بلاغة أفلاطون المطهرة. في فقرة لاحقة (277b - c) ينصح سقراط الخطيب بـــ"ترتيب وتنظيم...خطاب"

يتوافق مع "أي أنواع النفوس فنقدم إلى النفس المعقدة خطابات مركبة معقدة، وعلى العكس من ذلك نقدم خطابات بسيطة للنفس البسيطة". هذا التمييز المبهم يسجل مدى تفسير أفلاطون لـــ"أنواع النفوس"، على الرغم من أنه من الجائز تماما أن "أسطورة العربة" المبكرة لدى سقراط ترمز إلى مختلف النفوس وقدراتها على الاعتدال والتواضع والنبل. ومن ناحية أخرى ترك أفلاطون للمؤلفين المتأخرين مهمة تصنيف مختلف النفوس ووسائلها في التلاؤم.

وقد تنوعت استجابة المنظرين لهجوم أفلاطون ضد أخلاقيات البلاغة السوفسطائية. في Antidosis سعى إيزوقراط (٤٣٦ - ٣٣٨ ق.م) إلى ضمان الشخصية الأخلاقية للمتكلم من خلال paidia، وهو تدريب مستمر مدى الحياة في الثقافة البلاغية اليونانية. لقد أقر بأنه لا وجود لـــ"فن يمكنه أن يغرس الشرف والعدل في طبائع فاسدة"، ولكنه يقول إنه على الرغم من ذلك "الطموح إلى الحديث الجيد" يمكن أن يجعل المرء "أحسن وأجدر بالثقة" (٣٣٧). سيبحث الخطيب عن النماذج النبيلة للتنافس "وسيشعر بتأثيرها ليس فقط عند إعداده لخطاب معين ولكن في جميع أفعال حياته" (٣٣٩). هكذا فإن "الرجل الذي يتمنى أن يقنع الناس ينبغي ألا يكون مهملا مثلا في مسألة الشخصية. فمن ذا الذي لا يعلم أن الكلمات التي يتلفظ بها أناس ذوو سمعة طيبة تحمل إقناعا أكبر من الكلمات التي يتلفظ بها أناس مشبوهون، وأن الحجة التي تدعمها تجارب الحياة أكثر وزنا من تلك التي تستمد من الكتب؟ (٣٣٩). في الواقع يؤكد إيزوقراط أن "القدرة على الكلام الجيد تؤخذ بوصفها المؤشر الأكثر وثوقا على صوت عاطف، وأن الخطاب الصادق والقانوني والعادل هو الصورة الخارجية للنفس الطيبة والمؤمنة" (٣٢٧)

على الرغم من كونه بطلا لـــpaidia، فإن الخطيب المثالي عند إيزوقراط غير كاف بالنسبة إلى مطالبة أفلاطون ببلاغة مطهرة تعتمد "معرفة بالنفس".

وأرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) الذي لم يكن أقل تداولية، يعترف ليس فقط بلاأخلاقية البلاغة، ولكن أيضا بدور المظاهر الخارجية في الإقناع: يؤكد إيزوقراط حاجة المتكلم إلى أن يكون خيِّرا، ويؤكد أرسطو كفاية المظهر الخارجي.

وبينما سعى أفلاطون إلى رفع البلاغة لتكون خادمة للحقيقة الأبدية والثابتة، أنزلها أرسطو لكي تعمل على اكتشاف الحجج المحتملة المتموقعة في عالم الأعمال الإنسانية والاجتماعية المتغيرة. وضع أرسطو، في تقابل مع اللاهوت الأفلاطوني، خطوط سوسيولوجيا للبلاغة مع تضمينات خاصة تتعلق بالإيتوس.

إيتوس أرسطو: تحديديات واشتقاقات.

إن الكتب المدرسية التي نظمت حول أجزاء الخطبة أو الخطاب من قبيل Rhetorica ad Alexandrum وRhetorica ad Herennium المنسوب إلى شيشرون، أحالت الإيتوس إلى استهلال الخطبة (حيث يروم المتكلم كسب ود الجمهور)، وأحالته بدرجة أقل، إلى تأثيرات الأسلوب، ونظير ذلك أحالت الكتب المدرسية الباتوس أو الاستجابة العاطفية إلى الخاتمة المثيرة. [انظر: الترتيب (الترتيب التقليدي)، والباتوس، والأسلوب]. وفي تعارض مع ذلك، تعامل كتاب أرسطو "الخطابة" مع الإيتوس بوصفه مظهرا للإيجاد، مؤكدا بذلك اكتشاف، "في كل حالة"، لـــ"وسائل الإقناع المتاحة"(١٣٥٥b) [انظر: الإيجاد]. من خلال نسق الإيجاد هذا، ينضم الإيتوس إلى اللوجوس والباتوس بوصفه أحد "الحجج الصناعية" الثلاث (١,٢,٢) [انظر: الباتوس واللوجوس]. هناك إقناع من خلال الشخصية متى نطق بالخطاب بطريقة تجعل المتكلم جديرا بالتصديق؛ لأننا نؤمن بالناس العادلين إلى حد كبير، وبطريقة أسرع [مما نفعل مع الآخرين] في كل الموضوعات عامة، وبشكل كامل في

الحالات التي لا توجد فيها معرفة دقيقة، ولكن يوجد متسع للشك. وهذا ينبغي أن ينتج عن الخطاب، وليس عن رأي مسبق بأن المتكلم ينتمي إلى نوع معين من الأشخاص؛ لأن ذلك ليس هو الواقع. كما اقترح بعض الكتاب التقنيين في معالجتهم لهذا الفن؛ فاتصاف المتكلم بالعدالة لا يسهم في الإقناعية؛ فالشخصية بالأحرى هي عامل ضابط في الإقناع، إذا جاز القول. (١٣٥٦a) وباتباع تحديد أرسطو المبكر للحجة الصناعية (١٣٥٥b - ١٣٥٦a)، فإن الشخصية الأخلاقية للمتكلم يتم تأسيسها أثناء الخطبة (وبواسطتها فحسب)، بغض النظر عن السمعة السابقة للمتكلم أو المعرفة المسبقة به من الجمهور، وبطريقة أخرى، كما أشار جورج أ. كينيدي في كتاب "البلاغة في العالم الروماني" (Princeton,1972)"إن سلطة المتكلم مماثلة لدور الشاهد، إنها شيء نستعمله ولا نصنعه" (ص ٨٢).

بالمقارنة مع إقرار إيزوقراط بأن "حياة الرجل أكثر وزنا" من كلماته (٣٣٩) فإن استبعاد أرسطو لسمعة المتكلم السابقة منح تجديدا مدهشا. كيف سنفهم هذا؟ فبينما يعبس القراء المعاصرون في وجه حياده الأخلاقي ويؤكدون على المظاهر، فإن أرسطو يتغاضى تماما عن تظاهر المتكلم أو نفاقه؛ هنا بالأحرى يوجز الفيلسوف، في فقرة فريدة تركز على الخطابة الاستشارية (بوصفها تقابل الخطابة القضائية)، الوسائل التي يستطيع بها المتكلم المفترض أنه مجهول من الجمهور، أن يمنح كل العلامات الدالة على قول الحقيقة. [انظر: النوع الاستشاري والنوع القضائي]. في كتابه "الإيتوس والباتوس من أرسطو إلى شيشرون" (١٩٨٩) يقترح جاكوب ويس Jacob Wisse تفسير ما يأتي: ما دامت البلاغة "معنية بأمور لا يمكن التيقن منها أو على الأقل يصعب التيقن" فإن الجمهور "ينبغي عادة أن يعتمد على انطباعه عن كون المتكلم جديرا بالثقة" (ص.٢٤٧). لهذا السبب "اتخذ [أرسطو] اقتناع الجمهور بأن ما يقوله المتكلم هو الحقيقة، هدفا جوهريا للإيتوس.. وبذلك

يمكن أن يتحدد الإيتوس بأنه عنصر يقدم المتكلم في الخطاب بصفته جديرا بالثقة" (ص ٣٢ - ٣٣).

وبتثبيته أهمية كون المتكلم جديرا بالثقة، يكون أرسطو قد وسع مناقشته لتضمين الشخصية الأخلاقية للقاضي في المحاضر الاستشارية والقضائية معًا، وبذلك يعترف بأن الاستعدادات المعينة للجمهور - وخاصة استعدادات المودة أو العداوة لأشخاص أو سياسات - ينبغي أيضا أن تكون ملائمة (٢,٢ - ٤).

ولكن مادامت البلاغة معنية بإنجاز حكم.. فمن الضروري ليس فقط النظر إلى الحجة، التي يمكنها أن تكون استدلالية أو إقناعية، ولكن أيضا [بالنسبة إلى المتكلم] بناء رؤية إلى الذات بوصفها نوعًا معينًا من الأشخاص وتهيئ القاضي؛ لأن ثمة فرقا فيما يتعلق بالإقناع..فالمتكلم يبدو نوعا معينا من الأشخاص، وأن مستمعيه يفترضون أنه نوع معين من الأشخاص، وأن مستمعيه يفترضون أنه مؤهل بشكل ما....(1377b).

بينما توحي ألفاظ مثل "يبدو" و"يفترض" و"يبني" [أو بناء] من جديد بلاأخلاقية النسق ونزعة التلاعب المحتملة، فإننا ينبغي أن نتذكر أن أرسطو هنا يصف تأثيرات الإيتوس بوصفها حجة صناعية، وبالتالي بوصفها تأثيرا يثيره الخطاب نفسه مفصولا عن أي اعتبارات تتعلق بالسمعة المسبقة للمتكلم أو صدق شخصيته الأخلاقية.

في فقرة لاحقة (٢. ٥ - ٧) يحدد أرسطو الخصائص الثلاث للإيتوس الصناعي: "هناك ثلاثة أمور تمنح الثقة في الخطيب في استقلال عن الاستدلالات المنطقية. وهي الفطنة السليمة والأخلاق السامية والنزعة إلى الخير؛ لأنه يمكن الابتعاد عن الحقيقة في الموضوع [بواسطة الكلام أو النصح]، أو بواسطة هذه

النقط الثلاث، أو بواسطة إحداها" (1378a). [انظر: الفطنة السليمة phronesis]. في كتاب "من أرسطو إلى ماديسون أفوني" (١٩٩٤، ص ١٧١ - ١٩٠) قدم جيمس كينيفيJames L. Kinnevy وسوزان وارشور Susan C. Warshauer التفسير الآتي. إن أرسطو بتقديمه "التعالق المعقد بين المتكلم والمستمع والموضوع" (ص ١٧٤) - وهي الألفاظ التي تعيد باختصار الحجج الثلاث الإيتوس والباتوس واللوجوس - يحيل الأخلاق السامية arete بشكل محدد إلى الشخصية الأخلاقية للمتكلم (مشيرا على هذا النحو إلى المكون "الأخلاقي" في الإيتوس بذاته)، ويحيل النزعة إلى الخير eunoia إلى ميله إلى الجمهور (موحيا بهذه الطريقة بالتداخل بين الإيتوس والباتوس)، ويحيل الفطنة السليمة phronesis إلى "ثقته بالنفس وخبرته" (وبذلك يبرز تحكم المتكلم في اللوجوس). وبينما تتمثل مهمة المتكلم في إبراز مثل هذه الصفات، فإن أي حكم على فعاليتها هو من اختصاص الجمهور فقط. على هذا النحو تستدعي بالضرورة الأخلاق السامية arete - اللفظ المرتبط اشتقاقيا بـــariston "النبيل" (أو "الأريستوقراطي" على وجه التقريب) - "نوعا من الإثارة الثقافية" كما يقترح كينيفي ووارشور، لأن المتكلم ينبغي أن يظهر الصفات التي "تحددها الجماعة وليس الفرد بوصفها أخلاقا سامية" (ص ١٧٤ - ١٧٥). وهذا في الواقع ينطوي على مقاربة محافظة للشخصية البلاغية، مقاربة أقرب إلى إيزوقراط منها إلى أفلاطون في امتثالها للعرف الاجتماعي. وتقتضي النزعة إلى الخير أيضا من المتكلمين أن "يتطابقوا مع الجمهور، ويعتنقوا بعض طموحاتهم الأساس، ويتكلموا لغتهم، ويشاطروا آراءهم المسبقة ويثبتوها إذا اقتضى الأمر ذلك"، لأن "أفراد الجمهور يقتنعون بالعواطف التي تشبه عواطفهم" (ص ١٧٦) كما أشار إلى ذلك كينيفي ووارشور.

ينبغي للمتكلم امتلاك معرفة بمختلف أنظمة الحكم والطبقات الاجتماعية وأطوار الحياة، لتلبية حاجاته إلى إبراز الصفات التي تقنع الجمهور الخاص

لأن أرسطو يقول لنا إن "الشرط الأهم في الإقناع والتداول بشكل ملائم، هو معرفة جميع أنواع أنظمة الحكم، والتمييز بين أخلاق وقوانين ومصالح كل منها" (1365b) وبما أن "غاية الديموقراطية الحرية، وغاية الأوليغارشية الغنى، وغاية الأرستوقراطية التربية الحسنة والقوانين، وغاية الطغيان الاحتفاظ بالسلطة. من البدهي إذن التمييز بين الأخلاق والقوانين والمصالح التي توافق غاية كل نظام من هذه الأنظمة، بما أن القرار المزمع اتخاذه سيأخذ في الاعتبار هذه الغاية" (1366a). هكذا يشكل المتكلم إيتوسه الخاص في استجابة مباشرة مع أنواع الشخصية السياسية لأي جمهور متغير.

مثل وصف إيزوقراط لشخصية المتكلم الأخلاقية، فإن أرسطو في مناقشته اللاحقة (٢. ١٢ – ١٧) لمختلف "أنواع الشخصية" قدم جوابا جزئيا عن مطلب أفلاطون بـــ"سيكولوجيا علمية لقيادة النفوس"(Wisse, p. 37)، وهي بلاغة موجهة إلى نفس الفرد، وبهذا فإنها تقوم على دراسة "أنواع النفس". ولكن بينما تحمل النفس عند أفلاطون دلالة لاهوتية، فإن "سيكولوجيا الجماعة" عند أرسطو تنزع اللغز عن النفس أو النفسيةpsyche، محولّة موضوعها إلى مجال العمليات الفيسيولوجية والضغوط الاجتماعية الإيديولوجية. باختزاله eide psyches الأفلاطوني إلى تصنيف للأدوار المقررة اجتماعيا، فإن الجزء الثاني من كتاب "الخطابة" يبدو مثل قائمة بالشخصيات المسرحية الهيلينية – العجوز الماكر الشحيح، والشاب المتهور المتبجح، والرجل الغاضب، والجبان البارد، والعاشق المتيم – التي تم تقديرها "بالانفعالات والعادات والأعمار والحظ السعيد أو السيئ... بما في ذلك أنواع الأمور التي يختارها أو يفعلها أي نوع من الأشخاص" (1388b). وفي النهاية، مجموعة من الفقرات المختصرة تتعلق بـــ"الإيتوس الأسلوبي" وethopoiea من قبيل مثلا:

ينبغي أن يكون السرد دالا على الشخصية [ethiken]. سيكون الأمر كذلك إذا عرفنا ما الذي يصنع الشخصية الأخلاقية [الإيتوس]. إحدى الطرق بالتأكيد، هي جعل الاختيار الاستشاري [proairesis] واضحا.. مؤشرات أخلاقية أخرى هي صفات لأي شخصية، على سبيل المثال، كأن يمضي شخص وهو يتكلم، لأن ذلك يجعل تكبر شخصيته وخشونتها أمرا واضحا" (1417a - b).

وكثيرا ما لاحظ الباحثون المحدثون عدم استقرار مصطلحات أرسطو، مما نجم عنه ترك تحديد الإيتوس ومجاله مشرَعين على الجدل. في الواقع، كان المرء يتمنى لو أن الفيلسوف الاستاجيري وضع تمييزات أوضح بين هذه التأثيرات العديدة، محتفظا بلفظ الإيتوس فقط للحجة الصناعية الموصوفة في الجزء الأول. ومع ذلك فإن حكم أرسطو يبدو صحيحا في ملاحظة أن الشخصية – ليس شخصية المتكلم فقط، ولكن شخصية القاضي في المحاكم القانونية والتجمعات، وشخصية المتلقين المتنوعين، وشخصيات مختلف الجماعات، وكما صورت في المحكي – تقوم بوظائف متنوعة في الخطاب. ويربط أرسطو بين هذه الوظائف المتنوعة بواسطة إقامة أصول "تشابهاتها العائلية" مثال ذلك: الإيتوس (كون صورة المتكلم عن ذاته المبنية بلاغيا جديرة بالثقة الواضحة)؛ الإيتوس (الشخصية الأخلاقية على نحو ما انعكست في "العرف" أو "العادة")؛ الشخصية السياسية (مختلف أنواع الشخصية المتطابقة مع أي جمهور، بما في ذلك شخصية السياسي والأحوال السياسية، وethopoiea، الرسم اللفظي للشخصية).

يفترض الإيتوس عند أرسطو، الذي عالجه بوصفه مظهرا بلاغيا، أن الطبيعة الإنسانية قابلة للتعرف وللاختزال إلى طبقة من الأنواع، ومهيئة للتلاعب بواسطة الخطاب. هنا مع ذلك، ينبغي تقدير ما إذا كانت النظرية

الكلاسية تتفق مع الفهم الأنثربولوجي السائد عن الشخصية الإنسانية وتطورها التاريخي. ولأنه "لا يوجد مثل هذا الشيء من قبيل الطبيعة البشرية مستقلا عن الثقافة" على نحو ما كتب الأنثربولوجي كليفورد جيرتز Clifford Geertz في كتابه "تأويل الثقافات" (نيويورك، ١٩٧٣)، فإن المعنى من خلال الثقافة ليس مجرد "مركبات لنماذج السلوك المحسوسة – العادات والأعراف والتقاليد وسلوك الجماعات" ولكنه أيضا، وبشكل أكثر دلالة، "مجموعة من آليات الضبط – خطط ووصفات وقواعد وتعاليم" (ص ٥١) تسعى إلى التحكم في السلوك. من المؤكد أن أرسطو والبلاغيين قبله أدمجوا وجوها من "قواعد" و"وصفات" ثقافاتهم في نصيحتهم المتعلقة بالإقناع. لقد قدم جيرتز من ثمَّ نظرة متبصرة في الأصول السوسيولوجية للإيتوس البلاغي، وهي أصول تمت إضاءتها، بدورها، بواسطة دراسات في أصول الألفاظ مثل دراسة شارل شامبرلان Charles Chamberlain (١٩٨٤) وآرثر ميلر .Arthur B Miller " العادات والشخصية عند أرسطو" (Speech Monographs ٤١، ١٩٧٤، ص ٣٠٩ – ٣١٦). وكما يشير شامبرلان، فإن الاستخدام الهوميري الأقدم يرجع الإيتوس إلى "المأوى" أو "معترك يتحرك فيه الناس والحيوانات" (ص ٩٩) مقدما صلته الأصلية بالأماكن.. (ص ١٠١) هذا الاستخدام الأخير يقترح أن "الكتاب في تفكيرهم في النفس والحالة معا يشعرون بالحاجة للتعبير عن نوع ما من مركز الانتماء" (شامبرلان، ص ١٠١). من ثم تشكل الدولة المدينية "مركز الانتماء" هذا، حيث الأفراد "مدربون على سلوك فاضل معتاد" كما عبر عن ذلك ميلر، وحيث " شخصية الفرد مشكلة" (ص ٣١١). بمثل هذا الاستدلال "يصور المرء الشخصية بشكل أفضل من خلال إظهار أصلها في الطبع والمزاج" (ميلر، ص ٣١١). وباستخدامه عادة في صيغة الجمع لوصف تنشئة الطفل الفعالة، ألمح أفلاطون وكتاب آخرون إلى أن "التراكم ethe الفردي يشكل نوعا من المحيط الأخلاقي الخاص بدولة مدنية

معينة والتي يحدث معظم تأثيرها المهم على أطفال ذلك المكان" (شامبرلان، ص ١٠٢) هكذا يرتبط ethe بالتعليم والتربية paideia.

ومن ثم تصبح الشخصية الفردية انعكاسا ليس فقط للطبع والمزاج الفرديين، ولكنها انعكاس للتربية الثقافية للمرء، التي تتنوع (كما أشار أرسطو في ١,٨,١) تبعا لتنوع المؤسسة السياسية. هذه هي سلسلة المعاني الكامنة في المصطلح الأرسطي. وتظل الحاجة إلى النظر فيما إذا كان الإيتوس يحمل نفس المعاني والتأثيرات في التراث البلاغي المتأخر.

تاريخ الفردية (الشخصية): من اليونان إلى روما.

بتأسيسه فقط على تأثيرات الخطاب والتخلي عن أي سمعة مسبقة، فإن الإيتوس بمفهومه الأرسطي "سيكون غير قابل للفهم بالنسبة إلى الروماني المنغمس في تراث mos maiorum، محاطا بنبل المكانة السامية، ومتأثرا بالافتراضات الثقافية العامة المتعلقة بالطبيعة الإنسانية والشخصية" (ماي ١٩٩٨، ص ٩). إن نظرة الروماني بالأحرى، كما لاحظ جيمس ماي James M. May (١٩٨٨) "تم التعبير عنها على نحو محكم، وإلى حد ما على نحو غير مباشر في كتاب شيشرون "De oratore": تكتسب الأحاسيس الإقناع بواسطة جدارة الرجل وإنجازاته وسمعته" (٢. ١٨٢). لقد كان تصور أرسطو عن الإيتوس المصور فقط من خلال الخطاب، بالنسبة إلى الخطيب الروماني، غير مقبول ولا ملائم" (ماي، ص ٩). ومن ثم مارست شخصية الفرد تأثيرا قويا في الممارسة البلاغية الرومانية. لم يكن مفترضا أن تظل الشخصية ثابتة فقط، محددة بذلك الاختيارات والأفعال الفردية؛ فالرومان أيضا افترضوا أن الشخصية "هبة من الطبيعة"، إذ لا يمكن للفرد "على حين غرة أو بإرادته تغيير أو تقنيع إيتوسه أو طريقته في الحياة لفترة طويلة" (ماي، ص ٦). بالإضافة إلى ذلك، كان الرومان يعتقدون أنه "في أكثر

الحالات تظل الشخصية ثابتة من جيل إلى آخر في العائلة الواحدة" (ماي، ص ٦). وكما اقترح الأنثربولوجي مارسيل ماوس في " A category of the The Category of the Person. Edited by Michael Carrithers.)"Human Mind ينبغي (Steve Collins, and Steve Lukes, Cambridge, U.K., 1985, pp. 1 - 25 لنا أن نأخذ مفهوم الإيتوس بوصفه "هبة" مأخذا حرفيا؛ لأن الشخصية الرومانية، تاريخيا، ارتبطت شرعيا باسم عائلتها. والمواطنة تمنح المرء حقوق الشخصية المدنية التي تنكرها، في المقابل، على العبد. وتبعا للقانون الروماني، " لا يملك العبد جسده، وليس له أجداد، ولا اسم، ولا لقب، أو ممتلكات شخصية" (ماوس، ص ١٧). هكذا تتجه الثقافة اليونانية نحو هوية فردية حديثة: بينما يؤكد الإيتوس اليوناني (الذي يرمز إلى "العرف" أو "العادة") تأثيرات الثقافة والتربية في الهوية الشخصية، تصف الشخصية الرومانية مفهوما شرعيا يحدد الحقوق الفردية للملكية الذاتية. وعلى نحو ما اقترح مارتين هوليس Martin Hollis في "عن الأقنعة والناس" (The Category of the Person ص ٢١٧ - ٢٣٣) "إن ذاتنا الحديثة والمقولية categorial لم تولد إلا مع الأفكار الشرعية عن الحقوق، والأفكار المسيحية عن النفس، والأفكار الكارتيزية عن الأنا" (ص ٢٢٣).

الإيتوس الروماني: شيشرون وكينتيليان.

مهما يكن النسق الحجاجي عند أرسطو مبتكرا، فإن البلاغة في الكتب المختصرة ستحجبه. فبعد وفاته في ٣٢٢ قبل الميلاد، ومع شيشرون في كتابه "De oratore" (٥٥ ق.م) سيتم إعادة الإيتوس إلى مكانته المركزية في النظرية، عندما تناوله من جديد بوصفه إحدى صيغ الحجاج الثلاث. من الاحتمالات البعيدة أن يكون شيشرون قد قرأ كتاب أرسطو"الخطابة" برمته (Wisse، ص ١٠٦ - ١٠٧)، على الرغم من أنه لا يستبعد أن يكون قد وقع على نسخة

منقحة أو على مصادر أرسطية أخرى. ومع ذلك فإن شيشرون زعم أنه كتب De oratore "على طريقة أرسطو" (ماي، ص ٣)، على نحو ما أظهر ذلك مختصر أنطونيو Antonius عن "واجبات" الخطيب. لأن "فن الحديث" – كما يقول لنا أنطونيو – "يعتمد في كليته على ثلاثة أشياء: الحجاج لادعاءاتنا، وكسب تأييد مستمعينا، وإثارة أحاسيسهم" (٢. ١١٥) – مستعيدا بذلك على التوالي النسق الأرسطي: اللوجوس والإيتوس والباتوس. وفي الواقع، فإن الواجبات الثلاثة التي تشكلت على نحو متنوع من قبيل الإفادة والإمتاع والتأثير probare /docere وconciliare/delectare وmovere/flectere وكررت من خلال قانون شيشرون (De oratore ٢. ١٨٢، ٣١٠، ٣. ١٠٤؛ Orator ٦٩؛ Brutus ١٨٥، ٢٧٦؛ DE optimo genere ٣) تعد مركزية في نظريته البلاغية.

ومع أن ماي أشار إلى مثل هذه التشابهات، فإنه استنتج أن "تحليل شيشرون للإيتوس ليس أرسطيا في تفاصيله بشكل واضح" (ص ٤). لأنه مادام شيشرون يملك ما يمكنه أن يقوله بصدد الشخصية والسلطة، فإنه تجاهل مفهوم أرسطو عن "الإيتوس العقلاني" (Wisse، ص ٣٣) أو "إيتوس الجدارة بالثقة"، وأكد، عوض ذلك، على "إيتوس المشاركة الوجدانية". وعلى عكس اعتبار الإيتوس إبرازا لصفتي الصدق أو الجدارة بالثقة، فإن إيتوس شيشرون يشبه الشكل المعتدل للباتوس.

لقد سوغت المناقشة المهمة لشيشرون (De oratore ٢. ١٨٢ – ١٨٤) العناية الخاصة؛ فقد أشار أنطونيوس في وصفه لدور الشخصية في الخطابة القضائية، إلى أن " أحد العوامل الفعالة في النجاح، إذن، بالنسبة إلى الشخصيات، المبادئ والسلوك وتيار الحياة.."(٢,١٨٢) " تكسب المشاعر بواسطة جدارة الرجل وإنجازاته وسمعته في الحياة، وهي صفات أيسر في التزيين، إذا كانت حقيقية، من أن يتم صنعها. غير أن الصفات المفيدة في

الدفاع تتمثل في النبرة المتوسطة، وفي ملامح التعبير عن التواضع، وفي اللغة الرقيقة، وفي القدرة على الظهور بمظهر من يتعامل على مضض وتحت الضغط مع شيء يقلقك حقا إثباته". (٢,١٨٢)

هكذا يكون تصور شيشرون، كما لاحظ ماي، "أوسع وأكثر شمولية من تصور أرسطو"؛ فالإيتوس عنده "يتناول الانفعالات، ومرتبط إلى حد بعيد بالباتوس ولكنه يتضمن الإحساسات الأكثر اعتدالا" وهو "يراعي بالأسلوب وأكثر توحدا معه على نحو يصعب حله"(ص ٥). وهو أيضا مكيف وفق الإجراء القانوني الروماني، بما أنه يجري على شخصية "المحامي وموكل المحامي أيضا" (٢. ١٨٢).

في مناقشته للشخصية، كما في مناقشته لمظاهر بلاغية أخرى، طور كينتيليان "تعاليم شيشرون [وجعلها] أكثر وضوحا" (كينيدي، ١٩٩٩، ص ٥٠٥). ومادام قد اتبع التقليد المبكر في مساواة الباتوس بـــ"الانفعالات الأكثر عنفا" والإيتوس بالانفعالات "الهادئة والوديعة" (٦. ٢. ٩)، فإن كتابه "نظام الخطابة" Institutio oratoria أقام الإيتوس بشكل أساس على إظهار الشخصية الأخلاقية، الموسومة "بالصلاح أكثر من أي شيء آخر" وحيث "المزية الرئيسة... تكمن في جعلها تبدو وكأن كل ما نقوله مشتق مباشرة من طبيعة الوقائع والأشخاص المعنيين، وتكمن في إظهار شخصية الخطيب بطريقة يمكن الجميع أن يتعرفها" (٦. ٢. ١٣). على هذا النحو يكون المثل البلاغي الأعلى عند كينتيليان، "الرجل الصالح حاذق في الحديث" إيزوقراطيا في العاطفة: لأن "الإيتوس في كل أشكاله يتطلب من المتكلم أن يكون رجلا طيبا ولطيفا" (٦. ٢. ١٨). أخيرا، ينبغي للخطيب نفسه أن يحس بالمشاعر التي يتمنى أن يثيرها في متلقيه: "إذا كنا نتمنى أن نمنح كلماتنا مظهر الصدق، ينبغي أن نتقمص انفعالات أولئك الذين تأثروا حقيقة، وينبغي لفصاحتنا أن

تنبثق من الإحساس نفسه الذي نرغب في إحداثه في ذهن القاضي" (٦. ٢. ٢٧). بالنسبة إلى كينتيليان، إذن، كما هو الأمر عند شيشرون، يظل الإيتوس والباتوس متداخلين بشكل كامل.

القديس أوغسطين والإيتوس المسيحي.

بالخروج من العصر القديم، نلاحظ الطرق التي تمثلت بها المسيحية البلاغة اليونانية - الرومانية، وخاصة نسق شيشرون. ويُعد القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) الأكثر تأثيرا في هذا التمثل، حيث أوجز في كتابه عن المذهب المسيحي De doctrina christiana (٤٢٧ ce) تركيبا كلاسيا بين التأويلية التوراتية وبين homiletics المسيحية. [انظر: Hermeneutics، وHomiletics و Religion.] ولقد اتبع في البداية، في مناقشته الرئيسة للإيتوس، شيشرون فيما يتعلق بالأساليب الثلاثة واستخداماتها وتأثيراتها النموذجية؛ غير أن أوغسطين رفض اختزال الإيتوس في المظهر الأسلوبي، مؤكدا أن "حياة المتكلم تمتلك وزنا أكبر في تحديد ما إذا كان مسموعا طوعا من أي فخامة في اللغة" (٤. ٥٩). والأصح أنه "سيفضل أن يرضي بالأشياء التي قيلت أكثر مما يرضي بالكلمات المستخدمة للتلفظ بها، وينبغي ألا يفكر بأن أي شيء يمكن أن يقال أفضل من ذلك الذي نُطق به حقا" (٤. ٦١). يوجه أوغسطين قضايا الإيتوس في كل مكان، وخاصة فيما يتعلق بقضية اللغة "الملهَمة"،لأن "هناك نوعا من الفصاحة يليق بالرجال ذوي الجدارة والسلطة الأعلى والملهمين بوضوح من الله. إن مؤلفينا يتحدثون بفصاحة من هذا النوع، ولا يمكن لأي نوع آخر أن يلائمهم" (٤. ٩). إن التمييز بين إيتوس "الأعمال الجيدة" وإيتوس الفصاحة الملهمة يخلق توترا ظاهرا بين الصيغ المتنافسة للسلطة المسيحية؛ فهو من جهة أولى، مكتسب بالتعلم وشيشروني بشكل ضمني - إنه في معظم النواحي، نسخة معتمدة للرجل المستقيم عند

الرومان – وهو من جهة أخرى ساحر للجماهير، وينفجر في خطاب مرتجل ومفعم بالروح. وفي موضع آخر (٤. ٣٢) قال أوغسطين ملاحظا (Mt. ١٠. ١٩ – ٢٠): "لا تفكر في ماذا ستتحدث ولا كيف، لأنك ستمنح في تلك اللحظة ما ستتحدث فيه؛ والسبب أنك لست من يتحدث، ولكنها روح أبيك التي تحدثت فيك." فقرات مثل هذه تخلط مفاهيم كلاسية للإيتوس، مادام المتكلم على حد سواء يعد، ولا يعد، المخلوق البشري الناطق باسم الروح.

من القرون الوسطى إلى عصر النهضة: ويلسون وميكيافيلي.

يعد إسهام مؤلفي القرون الوسطى في تراث الإيتوس البلاغي قليلا؛ فقد اتجهوا سواء إلى إثبات افتراض أوغسطين عن حياة المتكلم و"الأعمال الجيدة"، أو اتباع المختصرات الكلاسية (Rhetorica ad Hrennium وخاصة De inventione) بواسطة إحالة التوجه الأخلاقي إلى الاستهلال أو إلى مظاهر الأسلوب. [انظر المقال العام عن بلاغة القرون الوسطة]. ومع ذلك استمرت مفاهيم الفردية والهوية الثقافية في التطور طوال القرون الوسطى. ولهذا السبب، ظل هذا العصر مهما بالنسبة إلى تاريخ الإيتوس. وكما لاحظ روي بوميستر Roy F. Baumeister في كتاب "الهوية" "Identity" (١٩٨٦)، أن ثقافة القرون الوسطى "اعتبرت قيمة حياة الشخص كامنة في كيف أن هذه الحياة تقترب على نحو جيد" من المثل الأعلى المسيحي (ص ٣٠). لقد سعت تمثيلات الذات في العصر الوسيط إلى أن تكون نموذجية، تختصر في منزلة اجتماعية وحرفة؛ وظل الخلاص جماعيا، يتوقف على مشاركة المرء في عبادة مشتركة، وفي الأسرار المقدسة للكنيسة، أكثر مما يتوقف على أفعاله ومعتقداته الخاصة. غير أن تحولات ثقافية عديدة أفضت إلى الانتقال من "الذات الجماعية" للقرون الوسطى، إلى النزعة الفردية الحديثة؛ وأكثر هذه التحولات دلالة ازدياد الحركية الاجتماعية، بحيث إن المنزلة والوضع لن

يعتمدا طويلا وبشكل استثنائي على الأصل. مع ازدياد الحركية جاء الفهم بأن أفعال الفرد تؤثر في هوية المرء ووضعه أيضا. وبالتلازم مع ذلك، فإن الإصلاح البروتستانتي جعل كل فرد (وليس الكنيسة الكاثوليكية) مسئولا عن خلاصه أو خلاصها، والذي سيتحدد نفسه بالاختيارات الخصوصية (بما في ذلك اختيارات الاعتقاد) كما سيتحدد بالأفعال أيضا. وقد لاحظ بوميستر (ص ٣٥ - ٣٦) تأثيرات إضافية في تطور النزعة الفردية الحديثة، بما في ذلك "وعي مضاعف بإمكانية الفرد وتطوره"، غيرت المواقف من الموت، والتي اقترحت "اهتماما متزايدا بالمصير الفردي" و"مفهوما جديدا للذات الداخلية والخفية، يرمز إليه بواسطة العناية بالصدق والفروق بين المظاهر والحقائق المضمرة" - هذا التطور الأخير قاد مباشرة إلى "البلاغة الميكيافيلية" للنزعة الإنسانية في عصر النهضة. [انظر: النزعة الإنسانية.]

لقد ظل البلاغيون الإنسانويون أمثال توماس ويلسون (١٥٢٥ - c .١٥٨١) مخلصين بشكل كبير لممارسة شيشرون، وخاصة في تأكيدهم على "إيتوس المشاركة الوجدانية". في كتابه "فن البلاغة"(١٥٦٠ ونشر أول مرة سنة ١٥٥٣) الذي اتبع فيه تقليد الكتب المختصرة، خصص مناقشته الرئيسة للاستهلال أو "المدخل" (ص ١٣١)، كما يسميه، ناصحا بأنه "ينبغي لنا السيطرة على الميول الطيبة لمستمعينا بأربع طرق: سواء بالبدء بالحديث عن أنفسنا، أو عن خصومنا، أو عن المتكلم والرفقاء الحاضرين، أو أخيرا عن الجميع، إذا بدأنا بالمسألة نفسها"(ص ١٣٥). وكما يمكن أن نتوقع، إن مناقشة ويلسون لشخصية المتكلم ليست "صناعية" بالمعنى الأرسطي، بل إنها تقوم بالأحرى على سابق أعماله وسمعته بالمعنى الذي ساد عند شيشرون: "يجب أن نحصل على التأييد لأجلنا، إذا كنا سنبين بشكل متواضع واجباتنا الملزمة ونعلن عن خدمتنا المنجزة من دون كل شبهة تبجح، سواء للمصلحة

العامة، وفي خدمة الحروب خارج البلد أيضا، أو في معالجة الجنود داخل البيت تهم هدوء بلدنا، أو في مساعدة أصدقائنا وأقربائنا وجيراننا الفقراء.... (ص ١٣٥).

ولا ينبغي للمتكلمين التردد في إطراء القضاة، "أعمالهم الجديرة و.. المعاملة العادلة، والإخلاص في تنفيذ القانون" (ص ١٣٦). وعلى نحو مشابه يقدم ويلسون نصيحة شاملة في الانتقاص من الخصم، صانعا عنهم "تقريرا يجعل المستمعين يكرهون السماع عنهم" (ص ١٣٥). هنا وفي غيره من المواضع، يكيف ويلسون تعاليم شيشرون لتلائم الظروف الفريدة لمحكمة تيودور.

إذا كان ويلسون يمثل عصر نزعة شيشرون، فإن المفكر الأكثر إثارة للجدل كان هو نيكولا ميكيافيلي Nicolo Machia - velli (١٤٦٩ - ١٥٢٧) الذي أكد كتابه سيىء السمعة "الأمير" The prince (١٥١٣) أن الرجال "جاحدون ومتقلبون ومنافقون ومراءون ويتجنبون الأخطار ونهمون للمكاسب، والجميع في خدمتك مادمت تحسن إليهم... ويمنحونك دمهم، وممتلكاتهم، وحياتهم، والأطفال، عندما تكون الحاجة بعيدة، ولكنهم يثورون عندما تقترب" (ص ٨٩). بمنحه هذا الفساد في الطبيعة الأخلاقية البشرية، فإن "السيد الحصيف..لا يمكنه ولا ينبغي له أن يفي بوعده عندما يكون في غير صالحه" (ص ٩١). لقد أقر ميكيافيلي المختلف جدا عن بلاغة المظاهر عند أرسطو – في الواقع لقد أصبحت معه كل قضايا الأخلاق غير ملائمة – أنه "ليس ضروريا بالنسبة إلى أمير أن يمتلك مثل هذه الصفات كالرحمة والوفاء والشفقة والاستقامة والإيمان المسيحي، على الرغم من أنه "حقا يبدو من الضروري أن يمتلكها" (ص ٩٢)، لأن "الرجال، بشكل عام، يحكمون بعيونهم أكثر من أيديهم. كل واحد يرى ما تظهر عليه أنت، وقلة من يحسون بماذا تكون أنت، وهذه القلة لا تجرؤ على معارضة رأي عديد ممن يتمتعون

بسلطان دولة تدافع عنهم" (ص ٩٢). في مثل هذه الفقرات نجد التعريف بامتياز لنهضة ميكيافيلي الذي استثمر الانفصال بين إدراك العصر لـــ"ذات محجوبة" وبين تأسيس البلاغة على خلفية المظاهر.

الإيتوس من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر

حتى الآن ركزت مناقشتنا على الخطابة، بصرف النظر عن التعقيدات التي أدخلتها الكتابة على دراسة الإيتوس. ومع ذلك فإن ميشيل فوكو وصف التطور المعاصر نسبيا لأحد أصناف الخصوصية الفردية، "مفهوم المؤلف الذي يشكل وجوده اللحظة ذات الامتياز للخصوصية الفردية في تاريخ الأفكار، والمعرفة، والأدب، والفلسفة، والعلوم" (١٩٧٩، ص ١٤١). في الواقع،إن قضايا حقوق النشر، والانتحال، وملكية النص – وبجملة واحدة قضايا التأليف – أصبحت أولا كثيفة طوال عصر النهضة المتأخر والقرن الثامن عشر، وهي ليست عصور تزايد المعرفة بالقراءة والكتابة فقط، ولكنها عصور الرأسمالية المقاولاتية. إن تطور الفلسفة الكارتيزية تلاقى مع تطور الرأسمالية والملكية الخاصة، كما تعود الماركسيون على ملاحظة ذلك. في هذه المرحلة المتأخرة فقط تصبح النصوص موضوعات للملكية الخاصة؛ فالتعامل معها بوصفها تشييئات للذات في اللغة، يجعلها، على هذا النحو، صيغة للملكية الذاتية. في هذا الوقت نفسه، مثلت ولادة الرومانسية، من وجوه عدة، الازدهار الكبير للكارتيزية في الأدب. فقد قيل كثيرا إن الشعراء الرومانسيين سعوا إلى الكتابة بطريقة شخصية. لم يسبق للأدب أبدا أن عبر بقوة عن "عبادة" الفردية، وتجربة حضور الذات بمثل هذا العجب المفرط (Baumlin,1994,p.xx). وبتأكيد الرومانسية على التحقيق الشخصي لأي إمكانية فريدة للفرد، تكون قد وضعت القيمة المتزايدة في "العمل وخاصة التعبير الخلاق في الفن والأدب" وفي "الهوى الذاتي وخاصة الحب" (بومستير، ص ٦٠). بالإضافة إلى ذلك، "برز اهتمام مبهم ولكنه مهم

برعاية الصفات الداخلية للمرء" (ص ٦٠)، وهذا أكد الإسهام في تزايد نفور العصر من "صنعات" الأسلوب النيوكلاسي، ورفضه للزخرف البلاغي، وارتيابه في "التنكر" الاجتماعي المرتبط بـ"الذات المحجوبة". في الواقع، وكما لاحظت روزاليند غابين Rosalind j. Gabin في كتاب "الإيتوس والأخلاق" (Ethical Issues in College Writing. Edited by Fredric G. Gale ,Phillip Sipiora, and James L.Kinneavy, New York. 1999, pp.107 - 136) وحتى مفهوم التطابق مع الجمهور المركزي في النظرية الكلاسية، تلاشى من الممارسات البلاغية للعصر "لأن الجمهور قل شأنه أو انعدم، مادام المتكلم يركز على توصيل نبضات قلبه إلى المستمع بما أمكنه من دقة" (ص.١١٥).

ربما كان الإلحاح المتزايد على الحياة الخاصة للعائلة مع نهاية القرن التاسع عشر، الإسهام الفيكتوري في الفردية المعاصرة الأكثر دلالة "إن القيمة المسندة على الحياة العامة والشؤون العامة مرجحة جدا" (بومستير، ص ٧١)؛ وهذا الانفصال بين المجالات العامة والخاصة أسهم، كما لاحظ بومستير، في "تشظي الوعي" الفردي المعاصر، مادامت الحياة المعاصرة اليوم "تقسم نفسها بين العمل في المجال العمومي وبين الحياة الشخصية والعاطفية المتمركزة في الحياة الخاصة" (ض.٧٢). ونتيجة ذلك، أكدت الكتب المدرسية البلاغية للعصر على مهارات التعبير الذاتي المكتوب، والتمييز الأدبي الجمالي، وعلى الصحة النحوية، في كل حالة يُرجح فيها وضوح التواصل على قدرات الإقناع - كل ذلك مفيد، ولكنه بعيد جدا عن النماذج العليا العمومية والمدنية لإيزوقراط وشيشرون [انظر: بلاغة القرن السادس عشر وبلاغة القرن التاسع عشر].

لقد بترت بلاغات آخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر النظرية الكلاسية، مثال مدرسة فن الإلقاء التي يمثلها توماس شيريدان

Thomas Sheridan في كتابه "سلسلة قراءات في الإلقاء"(١٧٦٢) وجيلبرت أوستين Gilbert Austin في "Chironomia" (١٨٠٦)، التي تمحورت حول النطق والإلقاء، بينما ركزت البلاغة ذات النزعة الجمالية belletristic التي يمثلها هاف بلير Hugh Blair في كتاب "قراءات في البلاغة والآداب الجميلة" (١٧٨٣) على قضايا الترتيب والأسلوب وتطور "الذوق" الأدبي. [انظر: الترتيب، مقال عن الترتيب التقليدي.] في الواقع، لقد جعل انتزاع الإيجاد من معظم الكتب المدرسية الحجج pisteis – وهي المحور الأساس في النظرية الأرسطية – تقريبا خارج التقدير بشكل تام. [انظر: الإيجاد.] وستستمر هذه التوكيدات من خلال "البلاغات الإدارية" في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والتي اتجهت إلى اختزال الإيتوس في الشخصية الأدبية أو "مهارة قابلية التكيف الأسلوبي" (غابين، ١٩٩٩، ص ١١٤)، وفي الوقت نفسه، تحاشت أسئلة الأخلاق العمومية والأهداف التقليدية للخطاب المدني. وفي الواقع، إن اختصار البلاغة الكلاسية في تعليم الإنشاء المكتوب اختزل تاريخيا طموحات البلاغة العمومية والمدنية إلى مجرد نزعة جمالية belletrism.

وقد سعى جورج كامبل George Campbell (١٧١٩ - ١٧٩٦)، الذي رفض مثل هذه المختصرات، إلى التكيف الكامل مع النظرية الكلاسية؛ فكتابه "فلسفة البلاغة"(١٧٧٦)، الذي عالج الخطاب كما عالج الكتابة، يعد من بين أكثر الأبحاث تأثيرا في عصره. وبإبرازه لمناقشة واسعة حول الإيتوس المدني، انصب الكتاب على المشكلات التي تواجه الواعظ والسياسي والمحامي. في الفصل الثامن "عن التقدير الذي ينبغي للمتكلم امتلاكه عن السامعين بما هم رجال على نحو خاص"، لاحظ كامبل أن "الفرق بين جمهور وآخر كبير جدا، ليس في الإنجازات الثقافية فقط ولكن في الإنجازات الأخلاقية.."(ص ٢٢٣).

بينما تنبثق الفروق الرئيسة بين الجماهير من "الرعاية المختلفة للفهم"(ص ٢٢٣)، ومع ذلك، فإن "عادات مختلفة فيما بعد، وانشغالات مختلفة في الحياة، أعطت ميولات مختلفة، وجعلت المرء يذعن أكثر لأحد الأهواء، والآخر يذعن للهوى الآخر". وإن تكيف أي "هوى أثير" لدى الفرد يمنح "المتكلم الذكي مرورا أسهل نحو القلب..الحرية والاستقلال سيكونان دائما حوافز مع الجمهوريين، والأبهة والفخامة مع أولئك المرتبطين بالملكية". هكذا مزج كامبل مفهوم القرن الثامن عشر النموذجي عن "قرار الحكم" أو "الهوى الأثير" بـ"صفات الأحوال" عند أرسطو. في الفصل التاسع "عن التقدير الذي ينبغي للمتكلم أن يحمله عن نفسه"، يناقش كامبل إدراك الجمهور لشخصية المتكلم بوصفها تأثيرا "للمشاركة الوجدانية"(ص ٢٢٤)، هذا المصطلح الرومانسي الذي قصد به القدرة على إثارة الانفعالات نفسها المعبر عنها من خلال خطاب المتكلم؛ إنها بوضوح نسخة إنجليزية من عصر التنوير للحصول على الموافقة conciliare عند شيشرون، التي تتغيا ممارسة "السيطرة على أهواء" الجمهور (ص ٢٢٤).

سياقات القرن العشرين: السيكولوجيا والإيديولوجيا و"الذات المنقسمة".

على الرغم من أن النزعة الفردية البورجوازية ظلت في المركز الإيديولوجي للرأسمالية الحديثة، فإن بداية القرن العشرين سجلت شعورا متزايدا بالاستلاب الاجتماعي والعجز الاقتصادي، وقد بلغ أوجه في الاضطراب السياسي واسع الانتشار، وفي الثورة الاشتراكية، على الأقل مؤقتا في روسيا وغيرها. وبعد الكساد الكبير واسع النطاق، "كادت النماذج التقليدية للنزعة الفردية الصارمة والاستقلالية المكتفية بذاتها تصبح مهملة" كما لاحظ بوميستر (ص ٧٨). وبمنح الفرد الارتباط التام بالاقتصاد الموسع "فلا مجال للتفكير في المجتمع بوصفه مجموعة غير محكمة من الأفراد الذين

اتفق أن كان لهم اهتمامات مشتركة، عوضًا عن ذلك كان المجتمع مثل آلة، لا دور للفرد فيها ولا قيمة له، باستثناء عندما يعمل باعتباره جزءا من الكل" (ص ٧٨). وعلى نحو ما لاحظ روبرت كون ديفيس Robert Con Davis وديفيد جروس David S. Gross في كتاب "إيتوس الثانوي"(١٩٩٤) فإن النقد الثقافي المعاصر ذهب إلى حد رفض "نظرة التنوير إلى الفرد النبيل المعزول" محولا بذلك "مفهوم العامل الشخصي إلى شيء أكثر قربا من المعنى اليوناني القديم عن الإيتوس بوصفه "عادة"؛ يعني نموذجا للممارسة الاجتماعية التي لا تنفصل عن العلاقات الاجتماعية" (ص ٦٥). [انظر: النقد.] في الواقع عديد من التأثيرات الرئيسة في الفكر الحديث - خاصة فلسفة كارل ماركس السياسية (١٨١٨ - ١٨٨٣)، ونظرية فيرديناند دي سوسير اللغوية (١٨٥٧ - ١٩٣٩)، والتحليل النفسي لسيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) - عملت على تشظية الوعي الذاتي الكارتيزي ونقله من المركز. لا يستطيع أن يستمر الكوجيتو الكارتيزي أو "أنا" الخطاب في ادعاء "الكلام لذاته"، ويقف مثل أصل مكتف بذاته أو نقطة بيان؛ لقد أصبح الكوجيتو، بالأحرى، نقطة تلاقي مختلف القوى الثقافية واللغوية والنفسية، كل منها يتمدد بشكل واسع خلف الضبط الواعي للفرد.

لقد كان ميخائيل باختين (١٨٩٥ - ١٩٧٥)، الذي قام بالتوليف بين ماركس وسوسير وفرويد، رائدًا للتفاعل بين السيكولوجيا والسوسيولوجيا واللغة: وكما كتب في "الخطاب في الرواية"(١٩٣٥)، "إن اللغة بالنسبة إلى الوعي الفردي، مثل شيء حي وسوسيو - إيديولوجي محسوس، تقع على الحد الفاصل بين الأنا والآخر"، وجعل "الكلمة في اللغة" نصفها ذاتي "ونصفها غيري"، وذلك في كتابه "الماركسية وفلسفة اللغة"(١٩٢٩) فولوشينوف V. N. Volosinov (الاسم المستعار لباختين) يحاول أن يثبت على نحو مشابه مؤكدا أن "واقع النفس الداخلية يشبه واقع العلامة":

خارج مادية العلامات لا وجود للنفس... بواسطة طبيعتها الوجودية بالذات، فإن النفس تتموقع في مكان ما بين الكائن الحي والعالم الخارجي، على الحد الفاصل بين هذين المجالين للواقع. وهنا يحدث اللقاء بين الكائن الحي والعالم الخارجي، ولكنه لقاء غير فيزيقي: الكائن الحي والعالم الخارجي التقيا هنا في العلامة.(ص ٢٦)

يوجد الإيتوس، مثل "النفس الداخلية" التي يسعى إلى تمثيلها، "في مكان ما بين الكائن الحي والعالم الخارجي"، وليس هذا الـ"مكان ما بين" سوى خطاب تشكل لغته في جزء منها ملكيتنا الخاصة، ولكنها تشكل في جزء مساو معمار تاريخنا وثقافتنا.

من البدهي أن الإيتوس ما بعد الرأسمالي وما بعد الكارتيزي يجب أن يرتكز على "إيديولوجية حول الإنسان" مختلفة، وليس على تلك التي تفترض وعيا ذاتيا موحدا من مميزاته الحضور الذاتي والامتلاك الذاتي. ينبغي أيضا أن نلاحظ صعود النظرية ما بعد البنيوية يعاكس المفاهيم الكلاسية للإيتوس. إن الخلق "الصناعي" للإيتوس، كما وصفه أرسطو، هو ظاهرة لغوية في الجوهر، وبناء لفظي لصورة الذات. ومع ذلك فإن كتابه "في الخطابة" يصف دور الشخصية في الخطاب الشفاهي، وقد تولت المناقشات اللاحقة للإيتوس الأدبي على نحو نموذجي، القيام بمعادلة تقريبية بين الكتابة والكلام، متبعة في ذلك التقليد الكلاسي. وعلى نحو ما سبق الذكر، ينبغي أن نقدر بتفصيل أكبر الطرق التي تحول بها الكتابة الصورة الذاتية للمؤلف إلى نص، وفي الوقت نفسه تبعد الكتاب فيزيقيا وزمنيا عن خطابهم. إننا كثيرا ما نقول إن للنص "صوتا"، وتأليف الكتب المدرسية الحديثة يعلم الطلاب إيجاد أو تشكيل الشيء نفسه؛ في الواقع، كثيرا ما استخدم "الصوت" بشكل يقبل التبادل مع الإيتوس. [انظر: التواصل، والمقال العام عن التأليف.] ومع ذلك فإن اللفظ

اللاتيني vox لا يعني في الأصل أكثر من "كلمة" في صيغتها المنطوقة. في أصول الكلمة، vox هو ذلك الصوت الذي هو كلمة منطوقة، على الرغم من أننا نتجه الآن إلى مطابقته مع المتكلم وطريقته في الكلام (Baumlin, 1994, pp. xxiii - xxiv).

يصف الصوت إذن من منظور كارتيزي، نشاط الوعي داخل جسد إنساني، مفيدا من الأعضاء المادية للكلام وصانعا الوحدة الجوهرية للكلمة مع نقطة التلفظ بها. فالقول إن للنص "صوتا" إذن يلجأ إلى استعارة تجسيدية أساسا، حيث "يتكلم" النص المكتوب بوصفه وعيا موحدا ومتماسكا وذاتي الحضور - وكأنه يفترض كلاما حيا خاصا بالمؤلف. من منظور تجسيدي، يمكن للمرء أن يثبت أن كل خطاب موجه نحو (أو منبثق من) الجسد الإنساني؛ بهذا المعنى يشير الإيتوس إلى الحضور المادي والجسدي "الواقف قبل" النصوص" التي يتكلمها أو يكتبها. ولقد اقترح عالم اللاهوت آرثور فوجيل، الذي بين مثل هذا المنظور في كتابه "جسد اللاهوت" (نيويورك، ١٩٧٣)، أن الكلمات في الواقع هي "امتدادات للجسد" ونوع من "المعنى المطبوع، وموضع للحضور" - وبشكل حرفي، حضور مجسد. لأن المعنى في الكلمات، كما يدعي فوجيل "مثل وجودنا في أجسادنا، وبسبب أننا أجسادنا نستطيع أن "نَكُون" كلماتنا - أو، كما نعبر عادة، نعني ما نقول" (ص ٩٢).

تاريخيا، عززت الفلسفة الغربية الاعتقاد في هذا " التمركز الصوتي phonocentrism" كما اصطلح عليه جاك ديريدا في كتابه Grammatology (الذي ترجمه جاياتري شاكرافورتي سبيفاك Gayatri Chakravorty Spivak، بالتيمور، ١٩٧٤)[١]؛ فالمعنى النصي المتماثل مع "الصوت الداخلي" الذي

---

(١) صدرت النسخة العربية للكتاب بعنوان "عن علم الكتابة"، بترجمة أنور مغيث ومنى طلبة، ونشر بالمشروع القومي للترجمة في مصر.

"يسمعه المرء عند انسحابه إلى نفسه"، يفترض أن يعبر عن "الحضور الكامل والصادق للصوت الإلهي إلى شعورنا الداخلي" (ص ١٧). لقد استمر هذا التمركز الصوتي، ذو الصفة اللاهوتية، في تغذية اعتقادنا الثقافي في الحضور الذاتي للكوجيتو، وفي "الحضور معا للآخر والذات" (دريدا، ص ١٢)، وفي "الذاتية المتبادلة بوصفها ظاهرة قصدية للأنا" (ص ١٢). يبدي ديريدا بالطبع هذه الملاحظات على وجه الدقة لوضع الكتابة مقابل "فانتازيا" الحضور الذاتي للمؤلف، بصنيعه هذا يسائل الإمكانية الحقيقية لإيتوس موصوف أو منصوص (بوملين، ١٩٩٤، ص Xxiii - xxiv). هل الكتابة تدوين مخلص لكلام المؤلف الحي؟ أو إنها موت الكلام ومحو للصوت والحضور الذاتي، كما تنادي بذلك ما بعد البنيوية؟

على هذا النحو يعيدنا مشكل الكتابة، ليس بشكل مباغت، إلى فايدروس، وبشكل خاص إلى إنكار سقراط أن الكتابة تجسد القصد والمعنى الواعيين للمؤلف. يثبت سقراط أن الكلمات المكتوبة "يبدو أنها تتحدث إليك وكأنها كانت ذكية":

"ولكن إذا سألتها عن أي شيء مما تقوله، من منطلق الرغبة في التعلم، فإنها ستستمر في أن تقول لك فقط نفس الشيء إلى الأبد. وبمجرد وضع الشيء في الكتابة فإنها تجرف المكان لتصل إلى الذين يفهمونها وتتجاوزهم إلى الذين لا شأنه لهم بها".

إن النص المكتوب، الذي لا يصلح لأكثر من المحاكاة الصامتة لكلام المؤلف الحي أو النطق به من البطن، بوصفه "حرفا ميتا"، لا يفتقد فقط إلى الفهم الواعي، ولكن إلى المسؤولية الأخلاقية نحو تأثيراته في القراء.

ولقد مضت النظرية ما بعد البنيوية المعاصرة أبعد عندما اختزلت النص المكتوب في موت قناع مؤلفه. فالكتابة، كما كتب رولان بارت

(١٩١٥- ١٩٨٠) في "موت المؤلف"، "هي تحطيم كل صوت، وكل مصدر". في هذا الغموض "تتلاشى ذاتنا، في السواد والبياض تضيع هويتنا، والبداية بهوية الجسد الذي يكتب.." هكذا بواسطة الكتابة، "يفقد الصوت مصدره" و"يدخل المؤلف في موته الخاص" (ص ٤٩).

بإعلان بارت ضياع "الهوية الحقيقية للجسد الذي يكتب" تعرض سيميائيته رفض اللاهوتية التجسيدية للغة عند فوجل، وفي الوقت نفسه تشير إلى المعضلة التي تواجه القاصرين والكتاب "المهمشين" الذين يهدد "موتهم" أو "تحررهم من الجسد" المنصوصان بمحو الاختلافات الثمينة في اللون والنوع gender والتمييز الجنسي والصوت الثقافي. في كتاب "العالم والنص والناقد" (النظرية النقدية منذ أفلاطون. Edited by Hazard Adams, Fort Worth, Tex. ;1972, pp. 1210 - 1222) أكد الناقد الاستشراقي ما بعد الكولونيالي إدوارد سعيد أن الناقد (والمرء ينبغي أن يضيف الفنان الأدبي والبلاغي) يظل مسؤولا عن "تبيين هذه الأصوات المغلوبة، والمزاحة، أو المصمتة بواسطة نصية النصوص" (ص ١٢٢٢). بهذه الطريقة في الإثبات، يقف سعيد ضد تفكيكية ديريدا، مواجها النزعة اللاإنسانية التي تضمرها بواسطة إنكار أي اختلاف جوهري بين الكتابة والكلام وبواسطة صيانة العلاقة الأخلاقية بين الكتاب ونصوصهم؛ لأنه بهذه الوسائل فقط يمكن النصوص المكتوبة أن تظل محددة الهوية "بالكائنات الحية وخاصة الظروف التاريخية" كما لاحظ هازارد أدم (النظرية النقدية منذ أفلاطون، ص ١٢١٠). لكن تقييم سعيد للكلام على حساب الكتابة "لا يكفل مساواة كل صوت في النص أو حتى قدرة كل صوت على أن يُسمع" (آدم، ص ١٢١٠): بينما أقامت التعددية الحوارية باختين تساويا تقريبيا بين الأصوات الثقافية المتنافسة، يشير سعيد إلى الطرق التي تصف بها على الأقل بعض الكتابات "إرادة القوة المثبتة للذات"؛ معززة بذلك "العلاقة غير المتكافئة بين المستعمِر والمستعمَر" (ص ١٢١٠).

وكما أثبت باختين، ينبغي لكل أفعال الخطاب أن تتكلم أو تكتب نفسها ضد خلفية من الأصوات المسبقة، التي تطالب عديد منها بسلطة سياسية وثقافية ودينية لم تنتهك حرمتها. قبل أن يتكلم المرء، وبكلمات أخرى، يواجه المرء ما نطق به سابقا، والذي يمكنه أن يتخذ هيئات عديدة: يمكن أن يكون نصا، ومؤسسة، وتقليدا، ونظرية سائدة، أو بشكل أكثر مكرا، يمكن أن يكون نوعا ولونا وطبقة [انظر: البلاغة الأفرو- أمريكية، والبلاغة النسوية، والبلاغة الشاذة.] (تم التسوية بين المصطلحات منذ أرسطو: أن تمتلك الإيتوس يعني أن تكون ذا "سلطة"). على هذا النحو يثير إشكال السلطة أسئلة إضافية تتعلق بوضعية المتكلم المهمَّش والقاصر: إذا كانت السلطة تكمن في الصوت الثقافي المهيمن، فهل ينبغي لمثل هذا المتكلم أن يتقمص هذا الصوت، لأجل أن يصير مسموعا؟ وهل يعد هذا التقمص استسلاما أو تفويضا؟ هل يصلح ذلك لتهديم السلطة، أو فقط لإعادة إدراج الثقافة السياسية المهيمنة وصيانتها؟. وكما اقترح ديفيس وجروس (١٩٩٤)، إن ناقدا كولونياليا مثل سعيد يكتب عن "إيتوس أولئك الذين يتكلمون بينما هم يتموقعون في موقع الظلم الاجتماعي" (ص ٦٧) و"صعوبة تمثيل الآخر هي مشكلة تحديد مفهوم الإيتوس بطريقة تستجيب لناقد" السلطة الثقافية المهيمنة (ص ٦٨).

انبعاث أرسطو: كينيث بيرك والإيتوس (ما بعد) حداثي.

بهذا التشديد على الأصوات الثقافية المتنافسة وتحويل الصورة الذاتية إلى نصوص، ليس مفاجئا أن النظرية البلاغية للقرن العشرين استعادت الحجج pisteis الأرسطية، وخاصة مفهوم الإيتوس بوصفه "حجة صناعية". [انظر البلاغة الحديثة] بهذا الاعتبار أثرت تكنولوجيات وسائط الإعلام الجماهيرية بعمق في الخطاب الحديث، مخولة المتكلمين ليس فقط مضاعفة

المتلقين خارج مجتمعاتهم المحلية، ولكن أيضا تشكيل (وإعادة التشكيل باستمرار) لصورهم الذاتية في الفيلم والشريط التليفزيوني، ووسائط أخرى. ونتيجة لذلك، فإن فن "الإشهار (الإعلانات)" والعلاقات العامة جعلت مرة أخرى من التأليف لشخص آخر صناعة مربحة مع وكالات الإعلان - ومن بين زبائنهم اليوم: المشاهير والسياسيون والشركات - لتحل بذلك محل لوسياس والسوفسطائيين القدامى. نظرية التواصل الحديثة التمست المعطيات الكمية والتجريبية لاختبار وتعزيز استنتاجات أرسطو؛ وفي الوقت نفسه أعاد المنظرون الاستيلاء على نسقه البلاغي، محولين حججه pesteis من المنهج الاستكشافي إلى المنهج التأويلي. بهذه المعالجة منح الإيتوس عند أرسطو أداة للنقد الثقافي بقدر ما منح وسيلة للإيجاد البلاغي، ملقنا طلابه كيفية التحليل والنقد وحتى مقاومة تلاعب المتكلم بصورته الذاتية.

يقف كينيث بيرك (١٨٩٧ - ١٩٩٣) في طليعة هؤلاء المنظرين، وهو من أكبر بلاغيي القرن العشرين إثارة للجدل، حيث تعمل مفاهيمه عن التماهي "identification" و"consubstantiality " و"courtship" على (ما بعد) تحديث المعجم الأرسطي وإعادة بناء الإيتوس على أساس سيكولوجي [انظر: Identification]. وكما كتب بيرك في "بلاغة الموتيفات"(١٩٦٩):

"لن تتمكن من إقناع رجل إلا حين تتمكن من التحدث بلغته بواسطة الكلام والحركة والنبرة والأمر والصورة والموقف والفكرة، مطابقا طرقك مع طرقه. الإقناع بواسطة الإطراء هو مجرد حالة خاصة للإقناع عامة. ولكن الإطراء يمكنه أن يصلح بوصفه نموذجا مرشدا إذا ما نحن وسعنا معناه بشكل نسقي، لرؤية شروط المطابقة أو التوحد بشكل عام التي تقف خلفه. (ص ٥٥)"

في الواقع، يضع بيرك نظريته في الإقناع بوصفه تماهيًا، ضمن السيكولوجيا الاجتماعية لإلقاء المسؤولية على الآخرين، حيث تتقوى الهوية الطائفية communal بحضور وتهديد، سواء كانا واقعيين أو متخيلين، لـــ "لآخر" العرقي والعنصري أو الديني، والذي تحولت صورته الثقافية إلى شيطان، ويمكن أن تتوجه ضده موارد وجهود الجماعة المتعاونة. إن بيرك يعيد ضمنيا وصف "خصائص الأحوال" الأرسطية باعتبارها تلاعبا بلاغيا بالإيديولوجيات، والصور الثقافية النمطية، والإسقاطات غير الواعية، ووفقا لها تتحدد شخصية عنصرية وعرقية مؤمثلة بواسطة اختلافات مفترضة عن الأعداء المحتملين: إن مثل هذا الإيتوس أو الهوية الثقافية سنت من ثم جدلا خطيرا بين الذات والآخر؛ فالذات تحتاج إلى الآخر لتشكيل والدفاع عن صورتها الذاتية المؤمثلة. لقد أثبت مثل هذا الإيتوس عندما يكون بين يدي سلطة متلاعبة وكاريزمية، أنه قادر على كسب التأييد الجماهيري لأفعال العنف السياسي، قد تصل إلى درجة الإبادة الجماعية.

وقد عاد أوتيس وولتر(١٩٦٤) Otis M. Walter المدين بوضوح لبورك، بشكل مماثل إلى group psychology في تفسيره حفريات "الإيتوس السياسي". وكما كتب، فإن تأثيرات السلطة الكاريزمية تنشأ عن آليتين نفسيتين، "أولا، الرغبة في مخلِّص أو صورة الأب. ثانيا، المكبوتات التي تقتضيها الصورة المؤمثلة للمرء" (ص ٤١). وكما حاول وولتر أن يثبت، "إن مصدر الإيتوس، حاجة، ورغبة، وهدف، وعوز، وكبت، وضعف، وعجز، وأمل."

ولكن، مهما تكن الآلية التي يتحقق بها الإيتوس، فإن نقطة انطلاق الإيتوس هي الحاجة. بناء على ذلك، فالإيتوس ليس صيغة في الإقناع منفصلة، ينسق بين المنطق والانفعال؛ إنه بالأحرى، مظهر للتحفيز. لا تنشأ قوة الإيتوس عن "قوة ثالثة" خفية، ولكن عن قوى حوافز المرء المسؤولة عن

تنميط صورة الشخص إن متكلما معينا سيكون له نوع معين من الإيتوس الخاص بجمهور له مجموعة من الحاجات، ولكن ستكون له صورة من نوع مختلف إزاء جماهير ذات حاجات أخرى. (ص ٤١).

لا ينبغي للحاجة المبرزة التي ينطوي عليها الإيتوس، كما اقترح وولتر، أن تكون فقط كثيفة ومستقلة ومنتشرة، ولكن أن تكون أيضا نوعا "لا يمكن إرضاؤه بواسطة ذات المرء.. بالإضافة إلى ذلك، فالشخص الذي نمنحه الإيتوس لا ينبغي فقط أن يكون ممن يمكنه أن يرضى حاجة قوية، ولكنه ينبغي أن يحظى بنوع من الكفاءة الاستثنائية لإرضاء الحافز أو كفاءة إرضائه أفضل من الآخرين" (ص ٤٢). بمثل هذا الاستدلال فقط، يضيف وولتر: "يمكن للمرء أن يفهم انهيار الشعب الألماني المحتوم من أجل هتلر" (ص ٤٠). هكذا، فإن الدور الحاسم بالنسبة إلى النظرية المعاصرة، هو تطوير قدراتنا الثقافية إلى أبعد مدى، لتحديد ونقد ومقاومة مثل هذه الاستمالات الجماهيرية mass appeals؛ يعلن وولتر، في الواقع، حاجتنا إلى "التحصن ضد إيتوس"(ص ٤٣) السلطة السياسية الكاريزمية: "إذا كان الإيتوس يبرز في مواقف ميئوس منها فيما يبدو، حيث تتباين الحاجات، فأحد الدفاعات من ثم ينبغي أن يكون اختزال الحاجات التي تُعبد الطريق إلى التل الذي يصعد الرجل فوقه صهوة جواد" (ص ٤٤)

وبينما يصف بيرك الإيتوس بوصفه ممارسة عنيفة للتطابق الذاتي بشكل ضمني، بواسطة إلقاء المسؤولية على الآخرين (تحددت الذات الناطقة، مرة أخرى، باختلافها عن الآخر المهدد)، ويصفها وولتر بالباتولوجيا الاجتماعية التي ينبغي مقاومتها بكل الوسائل، فإن منظرين معاصرين آخرين لا يزالون يسعون إلى "إنقاذ" الإيتوس، مستعيدين استخداماته الأخلاقية الإيجابية، ومقللين من إمكانية إساءة استعماله. ولأن عصرنا هو عصر "التشظية والعزل"، كما

لاحظ ميخاييل هالوران (١٩٧٥) S. Michaael Halloran، عصر يمكن فيه الإيتوس أن ينجح فقط بالدرجة التي يستطيع فيها المتكلم "أن يعقد العزم ويكون قادرا على جعل عالمه منفتحا على الآخر"، وهكذا يخاطر بـــ"الذات والعالم بواسطة تمفصل صارم ومفتوح بينهما في حضور الآخر" (ص ٦٢٧ - ٦٢٨). الأصح من صيانة خبرة المتكلم وقوته وتفوقه على المتلقي، فإن هذه الصيغة النهائية تؤسس الإيتوس في الحضور المشترك للذات والآخر المتساوي والأخلاقي. كتب جيم كوردر(١٩٧٨) Jim W. Corder يصف هذه البلاغة بشكل مؤثر:

"إننا "متباعدون عن بعض"، ويمكن، كما يقول بورك، أن يكون الشيء الوحيد الذي نشترك فيه هو تباعدنا والمسافات المفتوحة بيننا. سنظل نحاول الدخول إلى عالمهم أو حملهم إلى عالمنا. كثيرا ما نخفق، ولكننا سنظل نحاول. ما يدعو إلى القلق هو أن كلامنا - الحاجة والقضية الأولية لأي مرحلة من العمر - معقد وغامض وغير مرتب، وكثيرا ما يخلق من المشاكل بقدر ما يحل. إن اللغة هي الطريق إلى صياغة أنفسنا. إنها أول خطنا في الدفاع وآخره، ونحن معرضون للأذى في كل خط. (ص ٢)"

على هذا النحو أثبت كوردر وهالوران المخاطرة المتبادلة التي تواجه المتكلمين والمتلقين على السواء، والحاجة كذلك إلى تطوير خطاب ملائم، حيث تصبح اللغة الوسيلة، ليس فقط لـــ "صياغة أنفسنا"، ولكن لجعل "عالمنا مفتوحا على الآخر"؛ أي فضاء مفتوح، إذا جاز القول، للحضور المشترك للذات والآخر، مادمنا "سنظل نحاول الدخول إلى عالمهم أو حملهم إلى عالمنا." هذا النموذج الوجودي في المضمر، يحول الإيتوس إلى نوع من التعاون، مرتقيا بالمتلقي لكي يصبح مشاركا مساويا، مقدرا البوح الذاتي الأخلاقي والتواصل فوق الإقناع، ومبعدا لغز إسقاطات السلطة الكاريزمية، ومقدرا صلاح المتلقي فوق الامتياز الشخصي للمتكلم.

قائمة مصادر ومراجع

Aristotle. *Aristotle on Rhetoric: A Theory of Civic Discourse*. Translated by George A. Kennedy. New York, 1991.

الكتاب أفضل شرح وترجمة معاصرة لأهم نص كلاسي عن الإيتوس.

Augustine. *On Christian Doctrine*. Translated by D. W. Robertson, Jr. Indianapolis, 1958.

Bakhtin, Mikhail M. *The Dialogic Imagination: Four Essays*. Edited by Michael Holquist, translated by Caryl Emerson and Michael Holquist. Austin, Tex., 1981.

Barthes, Roland. "The Death of the Author." In *The Rustle of Language*. Translated by Richard Howard, pp.pp. 49–55. New York, 1986.

الكتاب هو نقد ما بعد بنيوي "للحضور الذاتي" للمؤلف.

Baumeister, Roy F. *Identity: Cultural Change and the Struggle for Self*. Oxford, 1986.

يتناول الكتاب تاريخ تطور الذاتية الغربية الثقافي والسيكولوجي. وعلى الرغم من أنه لا يرتكز على البلاغة، فإن فحصه التاريخي يساعد على تفسير المفاهيم البلاغية المتطورة للإيتوس.

Baumlin, James S., and Tita French Baumlin, eds. *Ethos: New Essays in Rhetorical and Critical Theory*. Dallas, Tex., 1994.

Baumlin, James S. "Positioning *Ethos* in Historical and Contemporary Theory." In *Ethos: New Essays in Rhetorical and Critical Theory*, edited by James S. Baumlin and Tita French Baumlin, pp.pp. xi–xxxi. Dallas, Tex., 1994.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. Berkeley, 1969. First published 1950.

Campbell, George. The Philosophy of Rhetoric. In *The Rhetoric of Blair, Campbell, and Whately*. Edited by James L. Golden and Edward P. J. Corbett, pp.pp. 139–272. Carbondale, Ill., 1990. First published 1776.

نشر أولا سنة 1776. يحتوي على أغلب مناقشات كامبل حول الإيتوس والحجة الأخلاقية.

Carrithers, Michael, Steven Collins, and Steven Lukes. eds. *The Category of the Person: Anthropology, Philosophy, History*. Cambridge, U.K., 1985.

Chamberlain, Charles. "From Haunts to Character: The Meaning of Ethos and Its Relation to Ethics." *Helios* 11 (1984), pp.pp. 97–108.

الكتاب مناقشة موجزة قيمة عن الاشتقاق.

Cicero. *Cicero on Oratory and Orators*. Translated by J. S. Watson. Carbondale, Ill., 1970.

Cope, E. M. *The Rhetoric of Aristotle with a Commentary*. Edited and revised by J. E. Sandys. Dubuque, Iowa, 1966.

نشر لأول مرة عام ١٨٧٧ وهو مناقشة للإيتوس الأرسطي أحدث أثرا كبيرا في القرن العشرين.

Corder, Jim W. "Varieties of Ethical Argument." *Freshman English News* 6 (1978). pp.pp. 1–23.

أعادت هذه المحاولة المؤثرة بناء تصور حديث للإيتوس، وذلك لنظرها في ما بعد معجم ومقولات أرسطو.

Davis, Robert Con, and David S. Gross. "Gayatri Chakravorty Spivak and the *Ethos* of the Subaltern." In *Ethos: New Essays in Rhetorical and Critical Theory*, edited by James S. Baumlin and Tita French Baumlin, pp.pp. 65–89. Dallas, Tex., 1994.

Dionysius of Halicarnassus. *The Critical Essays*. 2 vols. Translated by Stephen Usher. Cambridge, Mass., 1974–1985.

Foucault, Michel. "What Is an Author?" *Textual Strategies: Perspectives in Post - Structuralist Criticism*. Edited by Josue V. Harari. pp.pp. 141–160. Ithaca, N.Y., 1979.

هذا الكتاب هو نقد ما بعد بنيوي للإيتوس الأدبي.

Gale, Fredric G., Phillip Sipiora, and James L. Kinneavy, eds. *Ethical Issues in the Teaching of Writing*. New York, 1999.

هو مجموعة من المقالات تكشف عن الإيتوس والحجة الأخلاقية في تعليم الكتابة المعاصرة.

Grimaldi, William A., S. J. "The Auditor's Role in Aristotelian Rhetoric." In *Oral and Written*

Communication: Historical Approaches. Edited by Richard Leo Enos, pp.pp. 65–81. Newbury Park, Calif.,1990.

كتاب يؤكد على أن صفة المستمع والمتكلم تشكلها وسائل الخطاب.

Halloran, S. Michael. "On the End of Rhetoric. Classical and Modern." *College English* 35 (1975), pp.pp. 621–631.

مناقشة مؤثرة حول الإيتوس الوجودي المعاصر.

Isocrates. *Isocrates*. Translated by George Norlin. Cambridge, Mass., 1968.

Kennedy, George A. *Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times*. 2d ed. Chapel Hill, N.C., 1999.

Kinneavy, James L., and Susan C. Warshauer. "From Aristotle to Madison Avenue: *Ethos* and the Ethics of Argument." In *Ethos: New Essays in Rhetorical and Critical Theory*, edited by James S. Baumlin and Tita French Baumlin, pp.pp. 171–190. Dallas, Tex., 1994.

Machiavelli, Niccolò. *The Prince*. Translated by Paul Sonnino. Atlantic Highlands, N.J., 1996.

May, James M. *Trials of Character: The Eloquence of Ciceronian Ethos*. Chapel Hill, N.C., 1988.

مناقشة عامة لنظرية شيشرون وممارسته.

Plato. *The Collected Dialogues*. Edited by Edith Hamilton and Huntington Cairns. Princeton, 1961.

نسخة قياسية من محاورتي أفلاطون الرئيسيتين عن البلاغة؛ محاورة جورجياس ومحاورة فيدروس.

Quintilian. *Institutio Oratoria*. Translated H. E. Butler. 4 vols. Cambridge, Mass., 1920–1922.

Solmsen, Friedrich. "The Aristotelian Tradition in Ancient Rhetoric." *American Journal of Philology* 62 (1941), pp.pp. 35–50, pp.169–190.

تعرض هذه المناقشة لتأثيرات مفاهيم أرسطو، وخاصة الحجج في النظرية اللاحقة.

Vološinov, V. N. *Marxism and the Philosophy of Language*. Translated by Ladislav Matejka and I. R. Titunik. Cambridge, Mass., 1986. First published 1929.

Walter, Otis M. "Toward an Analysis of Ethos." *Pennsylvania Speech Annual* 21 (1964). pp.pp. 37–45.

نقد شامل للبلاغة السياسية الحديثة، واستخدامها التلاعبي للإيتوس.

Wilson, Thomas. *The Art of Rhetoric (1560)*. Edited by Peter E. Medine. University Park, Pa., 1994.

Wisse, Jakob. *Ethos and Pathos from Aristotle to Cicero*. Amsterdam, 1989.

من المؤكد أن الكتاب يعد أهم مناقشة وأوفاها في التمييز بين الإيتوس عند أرسطو وشيشرون، وقد تضمن فحصا نقديا شاملا عن المعرفة البلاغية السابقة.

تأليف: James S. Baumlin

ترجمة: محمد مشبال

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الشاهد القصصي Exemplum أو example

عبارة عن شكل بلاغي قديم مازال حاضرا حتى الآن، رغم أنه أقل انتشارا من الاستعارة، والتشبيه، والكناية. إن المصطلح اللاتيني الأصلي exemplum هو مصدر المصطلحين الحديثين example و exemplum. ومع أن الكلمة اللاتينية exemplum في العصر القديم والعصور الوسطى لم تكن إلا مقابلا ومشابهًا لكلمة example الإنجليزية، فإن كلمة exemplim وفقا للمعنى الشائع لها، والتي يبدو أنها ترجع إلى النقد الأدبي في القرن التاسع عشر، تستخدم للإشارة إلى الروايات الوعظية، التي تجسدت في الخطب الدينية خلال العصور الوسطى.

إن كلمة المثال الإغريقية paradeigma وصف في كتابي *الخطابة والشروح* Topics لأرسطو باعتبارها إحدى وسيلتي الإقناع. وفي السفر الأول من كتاب *الخطابة* لا يحدد أرسطو سوى وسيلتين من وسائل الإقناع وهما المثال (paradeigma) والقياس الإضماري enthymeme (1356b). (انظر Enthymeme). وترتبط الأمثلة هنا بالاستقراء لأنها تربط حالات خاصة بقاعدة عامة. وعلى أي حال، فإنه يجب توسيع نطاق تعريف أرسطو لأن الشاهد القصصي استخدم لفترة طويلة جدا ليس كوسيلة للبرهنة فقط، ولكن للتوضيح أو ببساطة في مساعدة الجمهور على تذكر مقترح عام، ويمكن أن تكون هذه الاستخدمات الإضافية هي التمييز الرئيس بين الشاهد القصصي البلاغي والاستقراء الجدلي (أو المنطقي).

ويقسم أرسطو الأمثلة إلى شواهد قصصية واقعية وأخرى خيالية، وتعتمد القصص الواقعية على التجربة التاريخية بينما وضعت القصص الخيالية لدعم الرأي. وتنقسم هذه القصص الموضوعية بدورها إلى "مقارنات" (propabole) وخرافي (fables) (Rhetoric 1393a - b). وهكذا فقد كانت هناك في البلاغة القديمة ثلاثة أنواع للشاهد القصصي: التاريخي، والرمزي (القائم على الحكاية الرمزية)، والخرافي، وهو الثلاثي الذي أسهب شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق.م.) في وصفه في مؤلفه *الابتكار*. في سياق تصنيفه للحكايات داخل الخطبة، يذكر شيشرون أن أحد أشكال الحكي هو ذِكر حقائق القضية من جهة، والثاني مجرد استطراد لتحقيق المتعة للمتفرجين، لكن الاستخدام الثالث، كما يصفه شيشرون "منفصل كليا عن القضايا العامة، التي لم تُرو أو تكتب للإمتاع فحسب، لكنها تقدم في الوقت ذاته تدريبا قيما". ويضع شيشرون داخل هذا النمط التاريخ historia بوصفه "رصدا للحوادث الحقيقية البعيدة عن ذاكرة عصرنا الحالي"؛ إن الحجاج argumentum "رواية افتراضية يمكن مع ذلك أن تتحقق"، والخرافة fabula هي "مصطلح يطبق على الحكي الذي تكون الأحداث فيه غير حقيقية وليس لها احتمال وقوع".

وتتوازي أنواع الحكي الثلاثة لشيشرون مع تصنيفات أرسطو للشاهد القصصي، لأن مضمون المقارنة ممكن على الرغم من أنه خيالي، بينما الخرافة في الحالتين خيالية ومستحيل وقوعها.

إن جمع تصنيفات الشاهد القصصي، الواقع التاريخي والخيال الشعري، يتم في إطار فكرتين رئيستين: أولهما هذه الخبرة المحددة، وخاصة عندما تكون مألوفة للجمهور، والتي تكون بالغة الدلالة؛ وثانيهما هذه الأشياء (سواء الأشياء أو الأحداث المادية) التي تكرر نفسها. ويظهر مارتن بلومر Martin Bloomer (١٩٩٢) قوة المألوف في تفضيل شيشرون للأمثلة الرومانية عن نظيرتها

الأجنبية، على الرغم من أنه في فترات محددة مثل عصر النهضة، كانت الشواهد القصصية القديمة أو الغريبة تفضل أحيانا على اعتبار أنها ذات ثقل وقدرة على البقاء في الذاكرة. إن الفكرة الرئيسة الثانية، وهي الاعتقاد في القدرة على توقع تكرار ما سبق وقوعه، تؤدي إلى التناقض الذي يعتمد الشاهد القصصي عليه في المادية التاريخية مع تهميشه وتفكيك سياقه لأهداف السياق جديد، من أجل نفي خصوصية أو فرادة الأحداث التاريخية.

هناك أنواع للطريقة التي تظهر بها الشواهد القصصية في الحديث. وتبدأ العديد من الشواهد بتعبيرات مثل "على سبيل الشاهد"، أو exempli gratia. وهي شواهد واضحة وصريحة. إن الجمع بين القاعدة العامة (وتطرح عامة في زمن المضارع) وحدث تاريخي بعينه (ويطرح عامة في الزمن الماضي) هو طريقة أخرى لإظهار الشاهد القصصي نفسه في النص. والنوع الثالث هو تجميع الشواهد القصصية داخل النص نفسه. وقد أشار أرسطو نفسه إلى التقاليد الخاصة بعدد الشواهد ومواقعها، مؤكدا أن أفضل استخدام للشواهد هو استخدامها بوصفها "نوعًا من الخاتمة للقياس الإضماري"، وإذا كانت الشواهد تأتي في البداية "فإنها تشبه عملية الاستقراء" وتكون بالتالي غير ملائمة للظروف التي تطلب بلاغة عالية؛ لكن إذا جاءت الأمثلة في النهاية "فإنها تشبه الشاهد، وكل شاهد في كل حالة يبدو أنه يحث على الاعتقاد". وفي هذا التصور الأخير يكون الشاهد القصصي الواحد ضروريا (The Art of Rhetoric 1394a).

إن تعليق أرسطو على ترتيب أساليب العرض دفع منظري القرن العشرين بيرلمان Perelman وأولبرخت – تيتكا Olbrechts - Tyteca (١٩٦٩) للتمييز بين الشاهد القصصي والبيان. وبعد تأكيدهما على أن ترتيب عرض قضية بعينها ليس أمرا مهمًا، فإنهما أكدا على أنه إذا جاء الشاهد القصصي

أو لا يكون ببساطة مجرد مثال، وهو الذي اعتبره أرسطو شيء مثل الحث أو التحفيز؛ وعندما تأتي الشواهد القصصية في النهاية فإنها تكون بيانية. وبالنسبة لكل من برلمان وأولبرخت - تيتكا فإن مصطلح (مثال) يكون أكثر ملاءمة لوصف الإعجاب بقضية خاصة وتأسيس تعميم بناء عليها عندما يكون هذا التعميم محل شك، حيث إن البيان يوضح ويطبق قاعدة ليست محل خلاف. وعلى الرغم من أن هذا الشرح للوصف الكلاسيكي للمثال قد لا يكون مفيدا في بعض السياقات النظرية، فإنه يبدو أنه ليست ثمة داع لفصل البيان عن الشاهد القصصي. وفي الاستخدام المعتاد للمصطلحات فإن البيان أحد أشكال الشاهد القصصي.

ازدهر الشاهد القصصي في أوروبا خلال العصور الوسطى في الكنيسة ليس كأساس للطقوس فحسب، ولكن كهمزة وصل بين الوعظ والفنون البصرية. وتظهر العديد من القصص التي تقوم مقام الأمثال، سواء من الكتاب المقدس أو من الأساطير، مثل ديفز ولازاروس أو زوجة العزيز، وكانت تظهر باستمرار في النوافذ الزجاجية المحلاة، والتماثيل، والمصابيح المنقوشة. (انظر المادة الشاملة حول بلاغة العصور الوسطى Medieval Rhetoric). وخلال عصر النهضة قدم العصر الكلاسيكي المبكر كما كبيرًا من الشواهد القصصية العملية، استخدمها بوفرة مؤلفون من أمثال ميكيافيللي ومونتين Montaigne، كما ألهمت العديد من الأعمال الأدبية التي قدمت قصصا جديدة تماما في شكل "قصص مثالية" (مثل *روايات الشاهد القصصي* لسرفانتس Cervantes's *Novellas ejemplares* *١٦١٢)* بدلا من الاعتماد على القصص الدينية أو التاريخية التقليدية. (انظر بلاغة عصر النهضة Renaissance rhetoric، مادة البلاغة في لغة عصر النهضة وأدبه). إن هذا الاستخدام للشاهد القصصي يحتوي على مفارقة في الغالب، لأن العالم الحديث المبكر، والذي كان قد اهتز جراء اكتشاف العالم الجديد وتحدّى

الفلسفة الديكارتية لضرورة العودة إلى العصر القديم لاكتساب العلم، كثيرا ما تساءل عما إذا كان يمكن التنبؤ بالنظرة الدورية، والتي كانت قد قدمت في وقت سابق للشاهد القصصي قيمته التي كانت لا تزال فعالة. لكن الشاهد القصصي لا يقوم على فكرة التكرار فحسب؛ بل هو أيضا، كما سبق القول، يستند على أساس من التجربة المادية. وفي القرن السادس عشر وما تلاه سيحدث تحول في طبيعة الشاهد القصصي نتيجة الصراعات الدينية والكشوف الجغرافية، والنزعة التجريبية العلمية وتزايد كتابة المذكرات التي قدمت مجموعة جديدة من التجارب الملموسة، والحديث القائم على الشاهد القصصي بوضوح، وخاصة في المناظرة أو الجدال. ولعل رواية فولتير Voltaire التي تحمل اسم *كانديد* *Candide* (١٧٥٩) هي سلسلة من الشواهد القصصية الأكثر خيالية وهجائية.

وفي القرن التاسع عشر، فإن الاهتمام الرومانسي بالاستعارة والرمز صرف اهتمام منظري البلاغة عن الشاهد القصصي. إن بعض الأعمال الرئيسة مثل كتاب بيير فونتان Pierre Fontanier المعنون بـــ *الأشكال المختلفة للمجاز* *Figures autres que tropes* (باريس ١٨٢٧) لا تذكر الشاهد القصصي. وبينما يحظى الشاهد القصصي الآن بقدر ضئيل من الاهتمام النظري، فإنه لا يزال أحد أهم الأشكال المجازية البلاغية الفاعلة في سياقات تمتد من الخطب السياسية وصولا إلى الصحافة التليفزيونية.

المراجع

Bloomer, W. Martin. *Valerius Maximus and the Rhetoric of the New Nobility*. Chapel Hill, N.C., 1992.

Croce, B. "L'efficacia dell'esempio." In *Etica e Politica*, pp.pp. 119–123. Rome, 1973. First published 1931.

Geremek, B. "L'*Exemplum* et la circulation de la culture au moyen âge." In *Mélanges de l'École Française de Rome*, pp.pp. 153–179. Rome, 1980.

Lyons, J. D. *Exemplum. The Rhetoric of Example in Early Modern France and Italy*. Princeton, 1989.

Perelman, C., and L. Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric*. Translated by John Wilkinson and Purcell Weaver, pp.pp. 350–410. Notre Dame, Ind., 1969.

Warminski, A. "Reading for Example: 'Sense - Certainty' in Hegel's *Phenomenology of Spirit*." *Diacritics* 11.2 (Summer 1981), pp.pp. 83–94.

تأليف: John D. Lyonsh

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الحث [النصح أو الوعظ] Exhortation

يمكن وصف النصح (وهو الشكل المكثف للكلمة اللاتينية hortari التي تعني من أجل التشجيع، وفقا لتعريف قاموس أكسفورد Oxford English Dictionary) بشكل عام، بأنه استخدام الوسائل البلاغية للتشجيع على المضي قدما في الإصلاح الأخلاقي، أو (وهو الأكثر آنية) لتشجيع عمل أخلاقي مميز على أساس من التجربة أو الاعتقاد أو الأمل المشترك. ويمكن أن يكون الحث صرفا عن القيام بفعل ما، لكونه مناقضًا لبعض الأفعال، أو إقناعيًا لكونه موجّها للمسؤولية تجاه عمل إيجابي ما. وفي ظل هذا التباين فإن الحث يتسم عادة بكونه تشجيع على الاعتقاد والتصرف وفقا لمبادئ أخلاقية، أو رؤية اجتماعية، أو تجربة دينية يتبناها المتكلم والمستمع معًا. ومن ثم فإنه يكون دعوة لتحول أخلاقي يحمل في الغالب آلية استمرارية محافظة، أو عودة إلى الفطرة السليمة. وهكذا فإن الحث لا يحتاج إلى جدل بشأن ادعاءات أو أعراف مختلف عليها. وهو يوجد بصورة أكبر في الحديث الذي يهدف إلى الدعم والنصح أكثر من التشاور. ومن ثم فإن الحث يمكن وصفه مجازيا بأنه إقناع يتوجه إلى القلب والأيدي أكثر من الرأس والأعين. وهو يهتم بزيادة الرابطة الشعورية بين أصحاب القلوب في المعرفة المشتركة وتعريف هذه الرابطة وربطها بالممارسات التي يتم التوصية بها.

وفي الحديث العادي فإن الحث يكون في الغالب مرتبطا بالوعظ أو استخدام النبرة "الشعائرية". وبالفعل فإن التقليد البلاغي قد فسر الوعظ باعتباره أمرًا نصحيًا تماما، لكن عندما ننظر من زاوية الأصوله الكلاسيكية

لهما وصولا إلى الوقت الحالي، فإن التواريخ الثرية للعلاقة بين النصح والوعظ تتجاوز الترادف المخل. وتتناول هذه المقالة الحث من خلال تلخيص الأمور المألوفة التي تتكرر مرارا في النصح الديني وغير الديني، ومناقشة المصطلحات ذات الصلة في الاستخدام القديم، وملاحظة التكيف والتحول للحث في الممارسة المسيحية المبكرة والوسطى. وعلى الرغم من وجود إشارات إلى ممارسة الحث عبر الثقافات وفي الوقت الراهن على حد سواء، فإن الأصول الإغريقية - الرومانية والمسيحية للحث تلقى اهتماما خاصا، حيث نجد مفردات تمكن بصورة كبيرة من تقديم تأملات نظرية بلاغية للممارسة.

السمات المتكررة للحث

بينما تملك لغة النصح أشكالا وأساليب ومستويات بلاغية مراوغة، فإن هذه اللغة تمثل غالبا حديثا مباشرًا بين المتكلم والمستمعين، وتضع هذا الكلام في أسلوب مشابه للكلام العادي لهؤلاء المشاركين في الحدث. ويمكن أن يكون السبب في ذلك هو أن النصح يعتمد في قبوله بدرجة كبيرة على الأخلاقethos والتي يمكن أن تكون قائمة على السلطة المتمثلة في شخص ثالث، أو على اعتقاد ديني أو فلسفي أو رؤية اجتماعية مشتركة، أو تجربة مشتركة، أو اتفاق على هدف ديني أو عسكري أو سياسي أو ما إلى ذلك من أهداف (انظر ethos).

يقوم النصح - الذي يأتي غالبا في خاتمة الحديث، أو عقب الحكي، أو كدليل مفصل - على التشجيع على العمل استنادًا إلى استثارة رغبة الجمهور للمشاركة في الأخلاق المشتركة التي يتم تمثيلها. (انظر Arrangement Pathos, Traditional Arrangement,). لهذا السبب فإن الحث يوجد بصورة عامة في الخطابة الطقوسية الكلاسيكية (الشعائرية، أو المقولات تجاه الشخصية أو

العمل بصدد شعور ما مشترك)، على الرغم من أن الخطابة الطقوسية تكون في الغالب مشيدة بأسلوب رفيع وبطريقة مجازية أكثر من كونها مباشرة. (انظر Epideictic genre). إن الانتقال من الأسلوب الرفيع إلى الأسلوب المجرد وغير الشخصي لخطاب مباشر في غمرة الإعجاب بالخطابة الطقوسية هو علامة شائعة للانتقال من الاحتفال أو الإدانة إلى الموعظة. ورغم ذلك فإذا كانت الرؤية المشتركة قوية فإن مصداقية الكاتب تكون عالية، كما تكون إدانة عمل معين هي الغاية الشاملة من الحديث، ومن ثمَّ فإن كل الحديث، بما في ذلك أجزاءً لا تلبي تحديات الحديث المباشر، أو الأسلوب المجرد، أو المرجعية الأخلاقية، يمكن أن تكون نوعا من "الحث". وتعد "عظات النصح" البابوية أمثلة للحث (انظر على سبيل المثال عظات يوحنا بولس الثاني John Paul II، ١٩٩٥). كما يمكن للمرء أيضا أن يجد أمثلة في أشكال من الحكي أو الشعر أو الموسيقى (مثل كاريجا وآخرون Karega et al، ١٩٨٩).

ومع هذا التركيز العام على الحديث المباشر، والأسلوب المجرد، والمرجعية الأخلاقية، وأخلاقيات المودة أو المعتقدات المشتركة، فإنه تأكد أن الرسائل شكل ذكي للغاية من أشكال النصح. وتتضمن الأمثلة القديمة رسائل سينيكا Seneca(٤ ق.م. – ٦٥م) إلى لوسيليوس Lucilius (مالرب Malherbe، ١٩٨٦، ص ص ٤٣ – ٤٦، و٦٩ – ٧١) والرسائل الإنجيلية للعهد الجديد. على أي حال، فإن التدريب البلاغي اللاحق أكد على الفصاحة والأسلوب في كتابة الرسائل بطريقة أقل مواتاة للنصح (ميرفي Murphy ،١٩٧٤، ص ص ١٩٤ – ٢٦٩). إن التدهور في الأدب الخالص سمح مجددا للرسائل بأن تكون شكلا مميزا للحث، وتعتبر رسالة مارتن لوثر كنج Martin Luther King المعنونة بـــ"رسالة من سجن برمنجهام" Letter from the Birmingham Jail عام ١٩٦٣ مثالا حديثا. فقد كان كنج قادرا، بروح هي مزيج من استحضار

الإيمان المشترك والرؤية أخلاقية، على استغلال الحماس المتقد وأسلوب الحديث المباشر في خطبه ليحوّل نقاط الرفض والحجاج إلى نقاط تنشد التوضيح والحث.

وقد أكد ويلسون Wilson (١٩٩٧) على أن النصح اليوناني الروماني يكشف عن ثلاث شخصيات. أولها الناصح أو "I" الخطاب المباشر. وثانيها، وهو الجمهور، محدد بصورة نسبية لأن البلاغة الخطابية نادرا ما تكون ذات توجه كلي، أوغير محدد. وتشمل الإحالة الثالثة أولئك الذين تشكل أعمالهم أو آرائهم إطارا لجوهر العمل الذي دعيت إليه أو جماعة التشكيل الأخلاقي التي تحرض عليه. وفي حالة الإعجاب بنص رسمي، مثل الكتاب المقدس، فإنه يمكن استخدام قصص العبرة من النص كأمثلة أو يمكن أن يتخذ الكتاب المقدس نفسه دلالة إعجاب "بشخص" ذي صفة رسمية، فيكون مكرّما. وكما هو مفهوم ضمنيًا، يمكن أن توجد الشخصية الثالثة في صورة شخصية مكرّمة (مثل تكريم الرفقاء الموتى بأن يقاتلوا حتى تحقيق النصر) أو نقيضها. كما يجب القول إيضا إن الشخص الخطيب نفسه يمكن تقديم نفسه أو نفسها محل الشخصية الأولى أو الثالثة في النصح مثل *1 Tm.* 1; انظر .(Fiore, 1986, pp. 184 - 190)

إن الموضوع المميز للنصح، وليس المحدد له، هو الشاهد القصصي (فيور Fiore ١٩٨٦). (انظر الشاهد القصصي **Exemplum**). وعلى سبيل المثال فإن توماس ويلسون Thomas Wilson (١٥٢٥ – ١٥٨١م) يتبع في مؤلفه *فن البلاغة* *Arte of Rhetorique* (١٥٦٠) إيرازموس Erasmus (١٤٦٦ – ١٥٣٦م) في تحديد سبعة أشياء معتادة في النصح وهي: مباركة الميت أو الشخص الذي يستحق الاقتداء به؛ توقع أن الآخرين يقومون بأعمال من صميم قلوبهم؛ ضمان مساعدة إلهية أو نصر بعينه؛ الرغبة في الاشتهار

بالتضحية؛ الخوف خجلا من رفض التضحية؛ الرغبة في جائزة أبدية لأعمال الخير؛ و"تكرار شواهد قصصية من جميع العصور، وخاصة الشواهد القصصية للأشياء التي وقعت مؤخرا" (١٩٩٣، ١٠٠). (انظر Commonplaces and commonplace books). ويمكن للشواهد القصصية أن تدعم كل موضوع في القائمة حتى في حالة استخدام الشواهد كموضوع خاص بذلك. وتتضمن الفنيات التصويرية الأخرى المشتركة في النصح المبالغة، والتضاد، والأقوال المأثورة، والتحذيرات (انظر التضاد Antithesis، والمبالغة Hyperbolē).

التنوع الكلاسيكي Classical Variation

إن المصطلحات القديمة المتعلقة بالوعظ تشمل التوسل *paraklēsis*، النصح *paraenesis* ، الحث *protreptic*، والخطبة الساخرة *diatribē*. ويجمع التوسل paraklesis في هذا الصدد مفاهيم التضرع والمواساة. إن ذلك يتواصل مع الممارسات القديمة لأن الخطاب التأبيني، على سبيل المثال، يمكن أن يتضمن تشجيع من يقومون بالدفن على تكريم الميت من خلال الشجاعة والفضيلة (*Theological Dictionary of the New Testament*, 5, p. 776). إن بقايا هذا الشكل من الوعظ الجنائزي موجودة في طقوس الدفن إلى اليوم.

ويستخدم مصطلح النصح *Paraenesis* بالتبادل مع مصطلح الوعظ، لكنه يشير في الغالب إلى فعل يستخدم الوعظ من بين أدوات تربوية أخرى لتشكيل مجموعة من التعاليم الأخلاقية في مدرسة أو وسط مشابه. ويحث النصح على مبادئ الفضيلة، ويشمل بطبيعة الحال رؤية متسعة للحياة الطيبة والسعيدة في شكل مبادئ يتم العيش وفقا لها (Malherbe، ١٩٨٦، ص ص ١٢٥ – ١٢٦). وقد أظهر كلارك Clarck الطريقة التي يتم بها استخدام مثل

هذه المبادئ في تعليم البلاغة (١٩٥٧، ص ص ١٨١ - ١٨٨). وتمت الاستفاضة في شرح هذه المبادئ من خلال اتخاذها شكل التدريبات المكتوبة [نوع من الكتابات كان معروفا باسم chreia] عبر استخدام موضوعات مألوفة في الوعظ اليوناني الروماني. ويجد المرء في النصح التطبيق العملي لفلسفة أو ثيولوجيا تعليم الأطفال أو ضبط النفس لدى الكبار (ماليرب Malherbe، ١٩٨٦، ص ص ٣٠ - ٣٣). واتسم النصح اليوناني الروماني بكونه متخذا وجهة أكثر فلسفية، في حين غلب الجانب التعليمي على نصح العصر المسيحي المبكر. (مثل Tit. 2).

عند النظر إلى النصح بعيدا عن صيغته التقنية القديمة فإنه يمكن للمرء أن يحدد نظائر له على امتداد العصور. وأحد أمثلة النصح هو كتاب *في التعليم Didascalicon (١١٢٨)* لهيو Hugh في القرن الثاني عشر، والذي جسد التربية الكنسية والحياة الأخلاقية من خلال قواعد القراءة، والتأمل، وتأويل النصوص. ويمكن أن تتضمن الأمثلة المعاصرة كتاب *العيش سويا* Life Together وهو مرشد عملي وضعه ديتريش بونوفر Dietrich Bonhoeffer لتدريب رجال الدين في "كنيسة الاعتراف" المناهضة للنازية بألمانيا (نيويورك ١٩٥٤)، أو يمكن أن يتمثل في الأنماط المنظمة للتدريب الأخلاقي الاجتماعي في حركة الحقوق المدنية الأمريكية. ويتضمن هذا الشكل التوجيهي التوسل الشعائري طلبا للمدد الإلهي والوعظ المتكرر بعدم استخدام القسوة في العمل الاجتماعي، وشرف التضحية بالنفس، والأمل في تحقيق النصر.

ويتم غالبا إدماج الإقناع والنصح معا، ومع ذلك يمكن التمييز بينهما في الاستخدام القديم من حيث درجة التركيز، الذي يكون بدرجة أقل، على الشكل البلاغي. ويهتم الإقناع بصورة عامة بنوع محدد من المعرفة وفضيلتها المحددة (فيور Fiore, 1990, p. 162)، وينظر مالرب للوعظ

الإقناعي لعمل ما أو نشاط ما من خلال الكشف عن حالة الشقاء التي يكون عليها المستمعين في مقابل سمو نمط الحياة الذي يتم الدفاع عنه (1986, p. 122). ويستخدم المصطلح بقصد الوعظ في الحياة الفلسفية، مثل كتاب أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م.) النصح لليونانيين *Protrepticus* أو كتاب إمبليكيس Iamblichus (٢٥٠ – ٣٣٠م) المعروف بعنوان وعظ الفلسفة the *Exhortation to Philosophy*.

وتعتبر الخطبة الساخرة *diatribē* شكلا شائعا من أشكال الوعظ (مالرب، ص ١٣٠). وهي عبارة عن حوار تربوي حي. وتُبنى الخطبة الساخرة من خلال إبراز التباين والتناقض، والتساؤل البلاغي، والتعجب، واللعب بالكلمات، والنقائض، وقوائم الرذائل والفضائل، وقوائم المعاناة (بين الفضائل والنقائص)، والاستجابات القصيرة والنهايات المفتوحة للمشكلات الماثلة. ويعتبر خطاب بولس الرسول إلى لارومان مثالا جيدا لاستخدام الخطبة الساخرة (أو النقد اللاذع). وبشكل بعيد تماما عن استخدامها المعاصر كمرادف للإهانة فإن الأشكال التي تكون الخطبة الساخرة تظل أدوات فعالة للوعظ.

وقد استخدم الوعظ اليهودي القديم مجموعات من الأمثال والأشعار والقصص للتربية الأخلاقية، مثل الأمثال والعمل *Proverbs* and *Job*. كما تحتوي الكتابات العبرية على وعظ بكلام مباشر (مثل *Tb.* 4; *Am.*5). إن القصائد الطقوسية التقليدية أو ما تعرف ببيووتيم *piyyutim* تعظ المستمعين أحيانا بحب التوراة. علاوة على ذلك فإن البعض أكد أن الروايات الموسعة لأدب الرؤيا العبري، مثل سفر زكريا، والتجليات المسيحية المرتبطة به، مثل رؤيا يوحنا أو راعي هيرماس، قدمت دورًا إرشاديًا معينًا خلال فترات الأزمات الاجتماعية الحادة والاضطهاد (أوزيك Osiek, 1986). (انظر **Hebrew rhetoric**). كما يحتوي الأدب الهندي القديم على الوعظ، وكذلك القرآن. ويعتمد الوعظ القرآني بقوة

على تناقضات الوعد والوعيد: ("مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ".) (فاطر - ١٠). ويستعرض عددا أقل من أشكال الوعظ اليوناني الروماني (انظر **Arabic rhetoric**).

التنقيح والتطوير المسيحي

توجد معظم أشكال الوعظ اليوناني الروماني في أدب العصر المسيحي المبكر. وبأي حال، فإن أشكال الوعظ آنذاك كانت متحررة وذات أهداف ضرورية. وتتضمن الأناجيل the Gospels قدرا كبيرا من البلاغة الوعظية التي تتخذ أشكال الحكايات الرمزية (مثل لوقا، ١٠. ٢٥ - ٣٧)، والتباين البلاغي (مثل متى ٥. ٢٠ - ٤٨)، والمبالغة (متى ٢٣. ٢٤)، والمشابهة. ولأن رسائل بولس ورسائل الأساقفة الأخرى موجهة أساسا لجمهور هيليني فإنها كانت غنية في الوعظ. ويفسر ويلسون Wilson (١٩٩٧) رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي *Colossians* باعتبارها شكلا من أشكال النصح، ونفس الأمر لدى مالرب (١٩٨٣، انظر الرسالة ١). إن التفسير المحتمل للأدب الدعوي بأنه نصح قد ذُكر سابقا. وهناك مثال آخر على الوعظ المسيحي المبكر وهو مؤلف أوريجين Origen *الحث على التضحية بالنفس* *Exhortation to Martyrdom* (٢٣٥م).

وقد أحدث الوعظ المسيحي المبكر تحولا في مصدر السلطة الوعظية. فبينما كانت الأدلة والأساليب الكلاسيكية واضحة، فإنها تجاوزت ذلك إلى البرهان المستمد من الشريعة اليهودية. ومن أجل ذلك تمت إضافة إشارات تمجيد القدرة الإلهية والتأكيد على غاية العمل الموصى به (مثل ١ كورنيثا، ١,٣٠). إن تحويل القديس أوغسطين للدليل البلاغي من خلال الحب *caritas* (الحب في الأداء، مع ما يتضمنه من سلوك أخلاقي) كان أمرا مميزا ومؤثرا (ميرفي Murphy, 1983, pp. 286 - 292).

بدءا من اتخاذ التفسير العلني الأسبوعي للكتاب المقدس كتقليد من تقاليد الممارسة التعبدية الجماعية، اتخذت الخطبة المسيحية شكلا وعظيا تماما، خاصة وأن كل محاضرة أخلاقية كان يتم دعمها من خلال الإحالة للكتاب المقدس و"الاعتبارات" الأخلاقية (ميرفي، ١٩٨٣، ص ٢٩٦). (انظر **Homiletics**). وظلت مسائل مثل النصوص الملائمة، وأشكال الدليل، والتوازن بين الالتماسات التربوية والدعوية، والأسلوب الفعال – هي وحدها التي شكلت توجها، ولم تشكل مسألة الدعوة كوعظ أيَّ توجه في هذا السياق. وفي أواخر القرن التاسع عشر يورد ريتشارد ويتلي R. Whately (١٧٨٧ – ١٨٦٣) في مؤلفه *مبادئ البلاغة* *Elements of Rhetoric* (الطبعة السابعة، ١٨٤٦؛ ١٩٦٣) رأيا مفاده أن معظم الاحتفالات "الجماهيرية تقام بوضوح وبصورة شبه مطلقة بهدف الوعظ" (١,٢,٢). وعلى الرغم من أنه يدعو لأسلوب أكثر تعليمية، فإنه يؤكد على أنه يفعل ذلك لأنه لا يجب أبدا استخدام مزيد من النهج "المنحرف" oblique؛ لأنه يفضي إلى نمط "تعنيفي" غير مقنع. وهكذا، فإنه يردد أن الهدف الأساسي للدعوة يتخذ شكل الوعظ، كما أنه يظهر الطريقة التي يتم من خلالها استخدام الوعظ بصورة شائعة على أنها قد اختزلت على امتداد قرون لتغدو مجرد أسلوب للزجر. وبأي حال، كما يظهر هنا، فإن تاريخ تلك الممارسة شديد التعقيد كما يمكن لنا أن نتوقع.

ولكونه سمة مميزة في التطورات الفلسفية خلال القرن العشرين، أرجع كل من كينيث بيرك Kenneth Burke وإيمانويل ليفيناس Emmanuel Levinas الوعظ إلى الأصل الظاهرياتي للوعي الإنساني نفسه (بيرك ١٩٦٨؛ ليفيناس، ١٩٨٧). وتعتبر تصوراتهما عن المخالطة الاجتماعية الإنسانية متأصلة في النصح السلبي ("لا تفعل!")، قبل التصور الأنطولوجي ("إنه ...")، وقد فتحت هذه التصورات مجالات جديدة مهمة لتناول هذا الموضوع. وهكذا فإن الحث يحث على المزيد من الدراسة.

المراجع

Bonhoeffer, Dietrich. *Life Together*. Translated by John W. Doberstein. New York, 1954. English translation of 1930s paraenetic text for training of clergy for anti - Nazi "confessing church," with an introduction by the translator.

Burke, Kenneth. *Language as Symbolic Action*. Berkeley, 1968.

Chroust, Anton - Hermann. *Aristotle: Protrepticus: A Reconstruction*. Notre Dame, Ind., 1964.

الوعظ الكلاسيكي في الحياة الفلسفية، وقد تم تجميعه من شذرات مع مقدمة.

Clark, Donald Lemen. *Rhetoric in Greco - Roman Education*. New York, 1957.

مصدر مفيد عن تاريخ الوعظ وخاصة في البلاغة القديمة.

Fiore, Benjamin, S. J. *The Function of Personal Example in the Socratic and Pastoral Epistles*. Analectica Biblica 105. Rome, 1986.

يعالج الطريقة التي استخدم بها المفكرون الأمثلة المسيحية في المرحلة الهلنستية المبكرة مع مناقشة مستفيضة للوعظ.

Fiore, Benjamin, S. J. "Paranesis and Protreptic." In *The Anchor Bible Dictionary*, vol. 5. Edited by David Noel Freedman, pp.pp. 162–165. New York, 1990.

نظرة عامة مختصرة مع مراجع وافية عن الموضوع.

Hugh of Saint Victor. *Didascalicon: A Medieval Guide to the Arts*. Translated by Jerome Taylor. New York, 1961. English translation of Latin paraenetic text of 1128, with introduction and notes. pp.pp. 21–112. Grand Rapids, Mich., 1988. First published 1907.

تحليل لنصوص في أوائل القرن الثاني.

John Paul II. *Ecclesia in Africa: Post - Synodal Apostolic Exhortation of the Holy Father to the Bishops, Priests and Deacons, Men and Women Religious, and all the Lay Faithful on the Church in Africa and Its Evangelizing Mission Towards the Year 2000.* Nairobi, Kenya, 1995.

مثال من الوعظ في الكتابات المعاصرة.

Karega, Muthoni et al., eds. *The River Without Frogs and Other Stories, Plays and Poems: An Anthology of Kenyan Writing in Exhortation of Child Survival and Development.* Nairobi, Kenya, 1989.

مختارات من قصائد أفريقية، قصص قصيرة، ومسرحيات للأطفال دون الثانية عشرة للعمل على تنمية الطفل الأفريقي. مثال على استخدام هذه الأشكال الأدبية في عملية الوعظ.

King, Martin Luther, Jr. "Letter From the Birmingham Jail." In *Testament of Hope: Essential Writings of Martin Luther King, Jr.* Edited by James Melvin Washington, pp.pp. 289–302. San Francisco, Calif., 1986.

توظيف معاصر للرسالة في الوعظ الشعبي.

Levinas, Emmanuel. *Collected Philosophical Papers.* Translated by Alphonso Lingis. Dordrecht, The Netherlands, 1987.

تجميع للعديد من المقالات لمؤلفين ينتمون للاتجاه الفينومينولوجي في اللغة، والأخلاق، والعلوم الاجتماعية.

Translated from French. The hortatory origin of human consciousness in the "command of the other" is investigated. See especially, "Freedom and Command," pp.pp. 15–24.

Malherbe, Abraham J. "Exhortation in First Thessalonians." *Novum Testamentum* 25 (1983), pp.pp. 238– 256.

Malherbe, Abraham J. *Moral Exhortation, A Greco - Roman Sourcebook.* Philadelphia, 1986.

يستعرض بدقة الخصائص الاجتماعية، والأشكال الخطابية، والموضوعات التقليدية للوعظ الأخلاقي اليوناني والروماني.

Murphy, James J. *Rhetoric in the Middle Ages: A History of Rhetorical Theory from Saint Augustine to the Renaissance.* Berkeley, 1974.

دراسة مفيدة للغاية عن مرحلة العصور الوسطى

Origen. "The Exhortation to Martyrdom." In *Ancient Christian Writers*, no. 19. Edited by Johannes Quasten and Joseph Plumpe, *Prayer. Exhortation to Martyrdom.* Translated and annotated by John J. O'Meara, pp.pp. 141–198. Westminister, Md., 1954. First published c.235 ce.

يناقش الوعظ المسيحي في المرحلة المبكرة.

Osiek, Carolyn. "The Genre and Function of the Shepherd of Hermas." In *Early Christian Apocalypticism: Genre and Social Setting*. Special issue guest edited by Adela Yarbro Collins. *Semeia* 36 (1986), pp.pp. 113–122. Explores the genre and function of early Christian apocalyptic. "Paraklesis." In *Theological Dictionary of the New Testament.* Edited by Gerhard Kittel and Gerhard Friedrich; translated by Geoffrey W. Bromiley. 10 vols. Grand Rapids, Mich., 1964–1976. Translated from a German article by Otto Schmitz and Gustav Stählin that examines Hebrew, Greek, Roman, and New Testament contexts.

Petuchowski, Jakob J. *Theology and Poetry: Studies in the Medieval Piyyut.* London, 1978.

تحليل وعرض لمفهوم الوعظ في الشعر اليهودي في مرحلة العصور الوسطى.

Whately, Richard. *Elements of Rhetoric.* Edited by Douglas Ehninger. Carbondale, Ill., 1963.

هذه الطبعة هي طبعة طبق الأصل من الطبعة السابعة الصادرة عام ١٨٤٦، مع مقدمة. الخطابة الإنجليزية في القرن التاسع عشر مع الاهتمام بالوعظ والإشارة إلى الموعظة بوصفها نوعا من الزجر.

Wilson, Thomas. *The Art of Rhetoric (1560)*. Edited by Peter E. Medine. University Park, Pa., 1993.

مناقشة مفهوم الوعظ في ضوء النظرية البلاغية الإنجليزية ذات التوجه الإنساني.

Wilson, Walter T. *The Hope of Glory: Education and Exhortation in the Epistle to the Colossians*. Leiden, 1997

الموعظة في رسائل المرحلة الهلنستية المسيحية مع استحضار للوعظ اليوناني والروماني.

تأليف: Wesley D. Avram

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

المصلحة Expediency

تلعب اعتبارات المصلحة دورًا رئيسًا في معالجة أرسطو للبلاغة التشاورية في اليونان القديمة. ويشير مصطلح البلاغة التشاورية إلى فن التحدث أمام المجالس التشريعية بخصوص المستقبل المناط تحقيقه عبر التشريعات التي يجري النظر فيها. ويكون هدف المتحدث هنا تحقيق المصلحة *sympheron*، والتي تعني الإفادة: أي كل ما يفيد المدينة - الدولة.

وبالنسبة لأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م.)، فإن المصلحة تتكون من جزأين؛ هما الوسائل والغايات. والغايات مثل التقدير، أو العدالة، أو الثروة ليست محل نزاع. كما أنها يمكن توقعها تماما وفقا لآراء الجمهور، ومتأصلة في أساليب الكلام المعتادة. أما ما يمكن أن يكون محل نقاش فهو طبيعة الغايات المستهدفة في حالة محددة (سواء التقدير أو العدالة أو الثروة على سبيل المثال). أما الوسائل فإنها بالأساس محل نقاش. فعادة ما تُطرح الأسئلة التي تتعلق بالوسيلة للتشاور مثل: فما هي أفضل وسيلة لتحقيق الغاية اقتصاديا، وكيف يمكن جلبها بأقل عدد من الخسائر...إلخ.

يحصي كتاب الخطابة لأرسطو خمسة موضوعات يتم تناولها في نوع التشاور: المالية، الحرب والسلام، الدفاع الوطني، الواردات والصادرات، وصياغة القوانين. ويحث أرسطو تلاميذه، الذين يتأهبون للحديث أمام أحد المجالس التشريعية بخصوص مصلحة الدولة، على طلب المعرفة والبحث في موضوعات محددة في سياقات معاصرة وتاريخية.

لكن كيف يتم تحقيق المصلحة؟ يقدم كل من أفلاطون وأرسطو إجابات مختلفة على هذا السؤال. فقد آمن أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧ ق.م.) بأن الإرادة الطيبة تصقل عندما يتولى الحكم ملكًا فيلسوفًا. وفي واحدة من أشهر محاوراته المعنونة *بالجمهورية Republic* يؤكد معلمه سقراط أن المهمة العملية الخاصة بالمقارنة بين المميزات والسلبيات في صنع القرارات من الأفضل ألا تُترك للطاغية، أو الشخص الذي يريد فرض سطوته على الآخرين، بل ينبغي أن تترك هذه الأمور للملك الفيلسوف. وهو الشخص الذي يكون أكثر تحررا من المصلحة الخاصة، وهو يمتلك الروح الأنقى بين أتباعه. وبالنسبة لأفلاطون فإن ذلك يعني أن المصلحة يتم الحكم عليها في ظل نظام يفضل حكم الفرد. وهناك في مثل هذا النظام مساحة صغيرة متاحة للحوار. وفي الواقع فإن جمهورية أفلاطون تستبعد الشعراء والبلاغيين كيما لا تشغل ثرثراتهم الفارغة المواطنين بعيدا عن كلمات الملك الفيلسوف أو تخلط عليهم الأمر بشأنها.

وعلى العكس من ذلك فإن أرسطو يرى أن حسابات المصلحة يمكن أن ترتقي عندما يتداولها أناس أكثر ذكاء وتهذبا. ويرفض أرسطو مصطلح الملك الفيلسوف الذي طرحه أفلاطون. وفي محاضراته حول *السياسة Politics* يتساءل أرسطو: من الذي يتسنى له الحكم بصورة أفضل على مبنى ما؟ إنه ليس المعماري الذي بناه بل السكان الذين يقطنونه. من الذي يتسنى له الحكم بصورة أفضل على الطعام؟ إنه ليس الطاهي بل من يأكلونه. ثم يصل إلى السؤال الرئيس: من الذي يتسنى له الحكم بصورة أفضل على القوانين؟ إنه ليس المشرع، بل المواطنين الذين عليهم العيش وفقا لقرارتهم.

وهكذا فإن أرسطو يرفض حكم الحزب الواحد، حتى لو كان حزبا شعبيا لأن الملوك الفلاسفة محدودون، ولأن مخاطر سوء استخدام السلطة

(الطغيان) مرتبط بحكم الفرد. ويدعو أرسطو إلى أن يحل حكم الأقلية (الأرستقراطية) محل حكم الحزب الواحد، والأقلية هنا بالنسبة له هي النخبة المتعلمة التي لها اهتمامات تضرب في صميم الدولة - المدينة.

ويأخذ الأرستقراطيون في اعتبارهم وجهات نظر الكثيرين، الممثلين للفقراء (الديموقراطيون)، ووجهات نظر القلة المهتمة بالثروة، وذلك بهدف التوصل لأرضية مشتركة. وهم يستهدفون من وراء ذلك، التوصل لحلول يمكن أن تكون عادلة (عادلة للجانبين)، والتي ستؤدي إلى قيادة الطبقات الوسطى للمواطنين النشيطين سياسيا والمنتمين لأيٍّ من الطرفين.

لقد انتقد المنظر والمعلم الروماني الكبير المتخصص في البلاغة كينتيليان Quintilian (٣٥ - ١٠٠م) الحل الذي طرحه أرسطو. وفي محيط الإمبراطورية الرومانية، أكد كينتيليان على أن المصلحة / الفائدة *utilitas* كانت تؤدي إلى تجاهل مطالب العدل. وأكد على أن مبدأ الاحترام *dignitas* يُستخدم لتنظيم المشاورات المتعلقة بالمصلحة وتقييمها. وقد أصّل للاحترام في النظام الاجتماعي، كما أنه وصف القيم التي تعتنقها الطبقات العليا، لذلك فإن أرستقراطية كينتيليان وضعت في حسابها الحكم على المشورة، والآراء، والحلول المقدمة معا مقابل المثل ideals التي تجمعهم سويا.

إن المشكلات العملية التي نجمت عن المعالجات المختلفة للمصلحة لدى أفلاطون، وأرسطو، وكينتيليان وجدت تعبيرا لها في عمل ثوسيديديس Thucydides الشهير *تاريخ الحرب البيلوبونيزية* *History of the Peloponnesian War*. وعلى الرغم من إتقانه فنون البلاغة، فإن ثوسيديديس (٤٦٠ - ٤٠٠ ق.م.) كان رجلا عمليًا. وقد انتُخب لمنصب رفيع في أثينا، وأصبح بعد ذلك قائدا في الجيش الأثيني. ونتيجة للتراجع العسكري، نُفي عن أثينا وكتب مؤلفه التاريخي العظيم خلال مدة العشرين عاما التى قضاها في المنفى.

من بين الأشياء العديدة التي أرَّخ لها ثوسيديديس ذلك الاعتماد المفرط على النجاح في مقابل تراجع أهمية المبدأ في المشاورات الأثينية للمنافع. ويتضمن عمله خطبًا ونقاشات مهمة في رواياته، يضعها في سياق أعم، ويقدم ملاحظات على ما تُفضي إليه. وربما الخطبة الأكثر شهرة في عمله هي خطبة التأبين لبركليس (٤٣١ ق.م). وقد كان بركليس قائدا للحزب الديموقراطي في أثينا وصاحب إستراتيجية التوسع الإمبراطوري.

في هذه الخطبة يتم الاحتفاء بأولئك الذين ضحوا بحياتهم من أجل بلادهم، ويبارك فيها بركليس المبادئ الأثينية. كما يبارك التزامها بالديموقراطية والحوار البناء، والذي يشير به إلى المناقشة الحرة، المفتوحة، كما يتضمن مشورة بعض العامة من العالمين بالأمور. وهكذا، كما يؤكد بيركليز، كانت أثينا ذات سياسات عادلة منضبطة، كما أن المدن التي تهيمن عليها أثينا ليس لديها مبرر للشكوى بدعوى أنها تُحكم من قبل ناس غير صالحين لتولي مسئولياتهم.

وقد أكد بركليس أنه يوجه حديثه لأولي الأمر – أولئك الذين ليس لديهم سببا وجيها للتذمر. وهكذا فإن رأيه بخصوص المصلحة قد امتد فيما وراء أثينا ليشمل شعوبا أخرى وغيرها من الدول – المدينة. وبعد عام، عندما انسحب الأثينيون خلف أسوارهم وفقدوا عشرات الآلاف جراء الأمراض، ينتهز بركليس الفرصة مرة أخرى (في *خطبة الطاعون* the *Plague Speech* ٤٣٠ ق.م) ليدافع عن مزايا الاستبداد. وفي وسط هذا التراجع المريع وغير المتوقع في ثروات أثينا، كان بركليس مضطرا إلى الاعتراف بأن الإمبريالية ليس بمقدورها إنقاذ الديموقراطية. إن الإمبراطورية، كما قد أضحى مفهوما، كانت مستبدة. ثم يتحول بركليس موجها حديثه لمنتقديه قائلا: إن أولئك الذين يركزون الآن على خطاياي السياسية، لا يشاركون في

حوار بناء. وقد كانوا أصدقاء في الأيام الخوالي، وهم مواطنون لا يرضون إلا أن يكونوا مواطنين في مدينة دولة تحكمها أثينا.

استمر هذا التراوح بين النجاح والتراجع عن المبدأ– ولا سيما المبادئ الديمقراطية– في الحوار الميتيلياني Mytilenian Debate (٤٢٧ ق م). وقد كان كليو، خليفة بريكليس وزعيم الحزب الديمقراطي في أثينا، يقوم بالتشاور حول ما يتعين القيام به للدولة – المدينة التي ترغب في الاستقلال عن الإمبراطورية. وقد نصح بإعدام جميع الذكور البالغين وبيع النساء والأطفال عبيدًا كعقاب مناسب لتمرد المدينة – الدولة ضد الحكم الأثيني. وصوت المجلس لتنفيذ توصياته، ولكن في اليوم التالي انعكس الموقف. فقد عاد كليو بتصريح يقول فيه إن الديمقراطية قد أصبحت عقبة في طريق الحكم. وإذا كان الأثينيون عازمين على التغلب على هذه العقبة ومواصلة مد نطاق نفوذهم، فإن على المواطنين توخي ثلاث قواعد للوفاء بمسؤولياتهم المدنية: عدم الاستسلام لمشاعر الشفقة، تجنب الانجراف نحو الحجج المقنعة؛ وعدم الاكتراث بالدعاوى الأخلاقية. وحذر قائلاً: "لا تقعوا في خطأ اقتراف تلك الأمور".

واستمر هذا التراجع عن المبدأ سعيًا وراء التفوق في المحاورة الميليانية Melian Dialogue (٤١٦ – ٤١٥ ق م). فقد كان الأثينيون على وشك غزو إحدى المدن التي– على الرغم من أن إسبرطة هي التي شيدتها– كانت محايدة أثناء الحرب. وقد أرسل الميليانى ون بعض السفراء لعرض قضيتهم على حكماء أثينا. فردوا قائلين بأنه من الظلم غزو ميلوس. وهو ظلم ليس فقط من وجهة نظرهم الشخصية، ولكن كذلك وفق المعايير التي تبنتها أثينا. غير أن القادة لم يلتفتوا إلى هذه الحجة، وبالتالي قلبوا مفهوم العدل رأسًا على عقب. وقالوا بأن العدل يرادف ما يفرضه القوي على الضعيف.

وبعد صراع عنيف انتصر الأثينيون. وعلاوة على ذلك، تمكنوا من توظيف هذا النصر ليكون بمثابة إنذار لغيرها من الدول - المدن. ولتأكيد هذا التحذير، أعدموا كل الذكور البالغين في ميلوس وباعوا النساء والأطفال عبيدًا. وقد كللت أثينا، من وجهة نظرها هي، بالانتصار. وكان التاريخ عادلا في منح انتصاراته للأقوياء ونال الضعفاء الهزائم. ولكن على المدى الطويل، أدت تلك الانتصارات في نهاية الأمر إلى تدمير أثينا؛ وقد حدث هذا على المستوى المعنوي، من خلال تخلي المجتمع عن الغايات التي كانت محور الحياة الأثينية، كما انعكس ذلك عسكريًا، مما أفضى إلى أن يتجه الآخرون إلى توسيع التحالف ومضاعفة الجهود لوقف التوسع الأثيني.

وبعد، فإن التصورات الحديثة للنفعية تختلف عن التعريفات الكلاسيكية. فلم يعد مفهوم الحوار يقتصر على السياسة العامة والمجالس النيابية. فقد توسع ليشمل المجالات الشخصية والتفكير الشخصي. وهذا الانتقال من النقاش العام إلى الفكر الذاتي monological وصعود الفرد كوحدة أساسية للفعل قد أضفى طابعا ذاتيا لمعاني المشاورات والمصلحية. كما ألقى ضوءًا سلبيًا على النفعية (كما في "النفعية الخالصة" أو "الانتهازية")، مما يجعلها مستهجنة كمعيار للعمل من الآن فصاعدا، سواء أكانت فردية أم اجتماعية. أما أسباب هذا التحول فهي جديرة بالنظر فيها.

لقد اقترح إيمانويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤) معيارا للحكم أطلق عليه "الواجب المطلق" categorical imperative. حيث يكون الفعل قاعدة ملزمة عندما ينطبق على أي شخص آخر يواجه وضعا مماثلا. وفي هذا استدعاء للقاعدة الذهبية في التراث المسيحي- عامل الآخرين بمثل ما تحب أن يعاملوك به. وهي تعول على الضمير الأخلاقي للفرد. وفي عصر الثورة والحرب الأهلية، فإنها أكدت أيضا على أهمية العدالة، على الرغم من أنها

صعبة التحقق في المهمة العملية للتشاور في أمور السياسة العامة. وكان الغرض من مساهمة المثالية الكانطية في مناقشات "الخير" النفعي هو إضفاء السمة العالمية على القيمة الأخلاقية، واستبعاد التفكير النفعي نفسه لكونه لا يستحق أن يكون في هذا المجال.

نادى الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر (١٨٨٩ - ١٩٧٦)، في معرض كتاباته في أعقاب الحرب العالمية الأولى، بموت الوجود. ومع الدخول في المكان والزمان وفي الوقت الذي يواجه خطر الموت الوشيك، فإن المرء يواجه الوجود الحقيقي ويكتشف أن الحديث العادي هو مجرد ثرثرة، وأن الغايات العادية عبث ومضيعة للوقت، وأن الفلسفة والشعر نتاج الوجود وحصاده. فالوجود يعلن نهاية التشاور بمعناه العام والاجتماعي. وتحديد منفعة النظام علامة على التفكير غير الفلسفي، وبالتالي فلا صلة لها بالموضوع. وقد قام النقاد الفرنسيون والأمريكيون، مستحضرين في ذلك هيدجر، بوضع اللغة في مواجهة الوجود. وقد استقروا في النهاية على الخبرة الشخصية المتعالية (المتعال). [انظر Sublime]. فقد يكون هناك ارتباط بين الخبرة والخطب التشاورية، من خلال نفيها لماهيتها. وهنا قد تفتح اللحظة التي يقال فيها "لا" في وجه واقع بائس عالمًا من الممكنات (ما ينبغي أن يكون ولم يكن بعد). على أن التعامل مع الوجود والمتعال كخبرة وسيطة يجعل منها نهاية التشاور العملي وبداية الإجلال والشعر والصمت المطبق.

وبالتوازي مع بزوغ الفردية في الخطب التشاورية في القرن التاسع عشر، ظهر تطور شامل لعملية صنع القرار. واعتُبرت الخطب التشاورية - وعلى نحو متزايد - أمرا يحدث في السياقات الخاصة والشخصية وليس في التجمعات العامة. ويندرج في هذا السياق كل من النفعية البريطانية والبراجماتية الأمريكية.

وقـــد روج النفعيـــون utilitarians البريطـــانيـــون، مثل جيرمي بنتام Jeremy Benthem (١٧٤٨ - ١٨٣٢) وجون ستيوارت مل John Stuart Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣)، للإصلاحات السياسية والاجتماعية، خلال صعود الثورة الصناعية وتفشي الفقر والمجاعة. وكانت حجتهم تقوم على أساس المزايا المستقبلية المدعومة بمبدأ محدد – أكبر قدر من الخير لأكبر عدد من البشر. وقد حاول بنتام حساب قيمة إصلاحاته من خلال عدد الأشخاص الذين تأثروا بها، ومقدار المتعة التي توفرت، ومقدار الألم الذي أمكن تجنبه. فقد رأى مل أن "المتعة" مصطلح غامض للغاية (فهي في لعب الورق وفي الشعر على حد سواء). وقد قدم مل رأيا حول طبيعة السعادة أو المتعة المتضمنة في الدعاوى الإصلاحية أو الحركات الاجتماعية.

وحاول البراجماتيون الأمريكيون الفكاك من قبضة المثل المجردة والفلسفة الأوروبية. وشددوا على القيمة العملية، أو ما أسماه وليام جيمس William James (١٨٤٢ - ١٩١٠) "القيمة النقدية" cash value للأفكار. وفي خضم الأزمة الاقتصادية العظمى خلال الثلاثينيات، دعى جون ديوي John Dewey لإجراء تجربة افتراضية للبدائل العملية باعتبارها وسيلة لحل المشكلات ذات الطبيعة المحددة. وعلى الرغم من الخلفية الدينية القوية لديوي، فإنه رأى أن الاعتماد على النصوص المقدسة والعالم الروحاني والصلاة في المسائل العملية قد أدى إلى تفكير مشوش وسياسة سيئة. ورأى أن النهج العلمي دقيق البحث قد أعطى أملاً أكثر واقعية في الإصلاح الاجتماعي والسياسي.

ومن جهة أخرى وفي ألمانيا- خلال العشرينيات والثلاثينيات- كافحت النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ضد الفاشية والنجاح المتزايد للحزب الوطني الاشتراكي (النازي). لقد كان التهديد حقيقيًا ومؤكدا. ودعت

المدرسة إلى الأبحاث ذات الوعي الاجتماعي والسبل النظرية لبناء تكتلات معارضة. وقد طور الجيل التالي لمنظري فرانكفورت، مثل يورجن هابرماس Jürgen Habermas، الحوار كوسيلة لتجاوز العقلانية التي تمركزت حول الذات (أي التفكير الفردي)، وتضليل وسائل الإعلام (حيث تعضد من مصالح النخبة وتعزز القوالب النمطية الاجتماعية)، وطغيان المؤسسات البيروقراطية (حيث بات الطغيان يشكل تهديدا؛ كما أكدت ذلك تجربتا هتلر وستالين).

لقد نظّر هابرماس لإمكانية التشاور العملي ("الفعل التواصلي" communicative action)، وبناء تحالف حول قضايا اجتماعية مهمة. وهو يحاجج ضد التخصص الأكاديمي (المنفصل عن العالم والحياة من حوله) والرطانة اللغوية (الرافضة للعالم والحياة من حولها) التي تجعل من عملية التشاور في اللغة العادية ضربًا من المحال.

وعضدت النفعية والبراجماتية الفائدة والمنحى العملي فيما يتعلق باحتياجات الكثرة، وحددت المنافع المادية الحقيقية التي قد تعود عليهم. وهم هنا يجترون آراء أرسطو، ولكن عبر كلمات بديلة (عملي ومفيد بدلاً من نفعي). ويمثل اهتمام هابرماس بالنطاق الجماهيري إحياء للحوار بعيدا عن النزعة الفردية. [انظر **Politics**، ومقالات عن **Rhetoric and legitimation** و**Rhetoric and power**]. على أن هذه الآراء تروّج للمصلحة والتوجه العملي والمنفعة في إطار مؤسسة افتراضية تشاورية- وهو المجتمع الذي يكون فيه كل فرد عضوًا من خلال مزية كونه بشرًا، أو على الأقل كونه وجودا بشريا مفكرا.

وإذ نشير إلى المناقشة السابقة لثيوسديدس، فيجوز لنا أن نسأل: "نفعي لمن؟ عملي لمن؟ العدد الأكبر من أي جماعة؟". فمبادئ النفعية والمصلحة

والبراجماتية حاليا مناط هجوم الباحثين والنقاد الذين يولون اهتماما بالحقوق الخاصة بجماعة أو مؤسسة ما في المداولات الاجتماعية والعامة.

يمكن لأكبر فائدة تتحقق لأكبر عدد ممكن من الناس أن تغطي على مطالب العدالة. فالبنغاليون، على سبيل المثال، أثناء الإمبريالية البريطانية وزعامة مل باعتباره كان المسؤول التنفيذي في شركة الهند الشرقية التي تسيطر على الهند، لم يكونوا ضمن هذا "العدد الأكبر". ومع ذلك، فإن التركيز على المصلحة والتبعات المستقبلية، هو الذي حث على التغير الاجتماعي في القرنين التاسع عشر والعشرين في مختلف أنحاء العالم.

وفي الولايات المتحدة، رأى منظرون من قبيل دبليو دو بوا W. Du Bois (١٨٦٨ - ١٩٦٣) - ممن تعاطفوا مع واقع استبعاد الزنوج من العملية التشاورية- أن المشكلة ليست مشكلة غايات ووسائل. [انظر **African - American rhetoric**، ومقال عن **Double - consciousness**]. وفي كفاحه للكشف عن العلاقة بين السلطة والمعرفة، لاحظ الفيلسوف الفرنسي والناشط السياسي ميشال فوكو Michel Foucault (١٩٧٢) أن الأقليات محور الكثير من الأحاديث، ولكنها نادرا ما تتاح لها فرصة التحدث عن أنفسها في المحافل العامة. وقد كشف كل من أودري لورد Audre Lorde، وهو شاعر أسود ومنظِّر اجتماعي، وإدوارد سعيد Edward Said، المنظر الأدبي الفلسطيني الأمريكي، وترين ت. مينج - ها Trinh T. Ming - Ha، المنظر الاجتماعي الفيتنامي الأمريكي، عن الاستبعاد من عملية التواصل ضمن إطار حركات الإصلاح الرامية إلى التغلب على الظلم الاجتماعي.

ومستدعيًا ذلك الانهيار الذي أصاب الحركة الطلابية في العام ١٩٦٨، شن جان فرانسوا ليوتار في كتابه *حالة ما بعد الحداثة* *The Postmodern Condition* (مينابوليس، ١٩٧٩) حربًا على اللغة ذاتها. وهو يزعم أن الانتصار في الحرب

ضد الكليشيهات الإيديولوجية قد يؤدي إلى أفكار جديدة وتواصل شخصي أشد فعالية. وعالم ما بعد الحداثة يدعو إلى الحوار المتحرر من أعباء الأفكار المجردة غير المقنعة (من قبيل الديمقراطية والماركسية والكاثوليكية...إلخ). فلم تعد تلك "السرديات" قادرة على حشد الناس حولها. والأسوأ هو أنها تخفي في الغالب قهرا مريعًا– فكم من البشر قُمعوا وانسحقوا تحت وطأة المُثل المجردة. وعلى اللغة أن تحترم– إن صح لنا أن نقول ذلك– الاختلاف وضرورة المساواة بين الجماعات المختلفة، فقط إذا أريد لهذه الجماعات أن تتعاون في حركات فعالة وحقيقية نحو التغيير السياسي والاجتماعي.

ومع حركة تنظير البلاغة والنفعية في الحياة المعاصرة، فإننا نواجه حقيقة جلية. ألا وهي أن النضال السياسي غالبًا ما يتجاهل آراء الفقراء والمهاجرين وزوجات وبنات الأقليات، وغير المتعلمين، والأجانب، والآخرين الذين سمحوا لغيرهم أن يتجاهلوهم ويستبعدوهم من الحسبان. وقد ظهرت حساسية أكبر تجاه سياق الحوار وجاءت بمثابة رد فعل على تاريخٍ من الاستبعاد الاجتماعي والقمع الاقتصادي والإبادة الإثنية والدينية والعرقية في عالمي الحداثة وما بعدها. [انظر **Classical rhetoric**, **Deliberative**, **genre**, **Politics**, **Utility**].

المراجع

Aristotle. *The Politics of Aristotle*. Translated by Ernest Barker. London, 1946.

ترجمة مقبولة مع التركيز، في الملاحق، على العلاقات المتداخلة بين الخطاب، والأخلاق، والسياسة.

Aristotle. *On Rhetoric: A Theory of Civic Discourse*. Translated by George A. Kennedy. New York, 1991.

كتاب مهم ومفيد يربط فيه أرسطو بين الشعر والأخلاق والسياسة.

Collins, Randall. *The Sociology of Philosophies: A Global Theory of Intellectual Change*. Cambridge, Mass., 1991.

جهد ضخم لتحديد مواقع الفلاسفة في السياقات التاريخية والثقافية، والاجتماعية.

Conner, W. Robert. *Thucydides*. Princeton, 1984.

مناقشة مفيدة ورائعة عن الإستراتيجيات الخطابية التي يستخدمها "المؤرخ"، وأهمية هذا الموضوع في السياسة المعاصرة.

Du Bois, W. E. B. *Color and Democracy: Colonies and Peace*. Millwood, N.Y., 1975. First published 1945.

بحث دقيق عن الديمقراطية، والإقصاء، والصراعات الدولية التي تستحضر ثيودوروس في العالم الحديث.

Foucault, Michel. *The Archaeology of Knowledge and the Discourse on Language*. Translated by A.M. Sheridan - Smith. New York, 1972.

طفرة في العلاقة بين اللغة والتاريخ والفكر، والسلطة..

Grassi, Ernesto. *Rhetoric as Philosophy*. University Park, Pa., 1980.

المؤلف أحد طلاب هيدجر، مثل هربرت ماركوز، وجان بول سارتر، وهنا أرندت، وقد أعاد توظيف مقولة الوجود في العالم ليجعلها تتخذ منحا سياسيا دقيقا ومختلفا.

Habermas, Jürgen. *The Structural Transformation of the Public Sphere: An Inquiry into a Category of Bourgeois Society*. Translated by Thomas Burger and Frederick Lawrence. Cambridge, Mass., 1989. First published in German, 1962.

Held, David. *Introduction to Critical Theory: Horkheimer to Habermas*. Berkeley, 1980.

يقدم ملخصًا ممتازًا عن أعمال مدرسة فرانكفورت.

Minh - ha, Trinh T. *Woman, Native, Other*. Bloomington, Ind., 1989.

احتجاج شعري ضد استبعاد النساء، والتمييز اللوني للنساء، وأهمية الاختلافات الثقافية..

Struever, Nancy S. *The Language of History in the Renaissance: Rhetoric and Historical Consciousness in Florentine Humanism*. Princeton, 1970.

دراسة مهمة تستعيد مساهمة السوفسطائين والحرب بين البلاغة والفلسفة في خضم التغيير الاجتماعي والصراع التاريخي..

Said, Edward W. *Culture and Imperialism*. New York, 1993.

دراسة عن الكيفية التي ينتج بها خطاب السلطة الوهم.

West, Cornel. *The American Evasion of Philosophy: A Genealogy of Pragmatism*. Madison, Wis., 1989.

الخطوط العريضة للفلسفة "الأمريكية" لإعادة التكامل بين المشاركة السياسية والتداول من أجل كسب تأييد الرأي العام.

تأليف: Phillip Wander

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مراجعة: عماد عبد اللطيف

بلاغة العرض والإيضاح والصحافة

Expository rhetoric and Journalism

بما أن الصحافيين يمثلون أدوات تسهيل المناقشة والجدل العموميين، فهم متورطون في كل مظهر من مظاهر النشاط البلاغي. إنهم ينوبون عن الجمهور المتلقي، يسجلون وينقلون الخبر للمناقشة العمومية، وهو الدور الذي يجعلهم الأكثر اضطلعًا من بين المواطنين. فهم يشاركون في المناقشة العمومية بما يوفرونه من افتتاحيات وتحاليل للأخبار، ويضطلعون بتوصيل كل البلاغة السياسية تقريبا.

يطبق الصحافيون البلاغة على الأقل في ثلاثة مستويات على الرغم من أنهم يمكنهم إنكار ذلك. أولا، للتواصل بُعدٌ بلاغي؛ فأي شخص يؤلف رسالة لإنتاج تأثير ينخرط في البلاغة، حتى ولو اقتصر التأثير المراد على الإخبار. ثانيا، يستعمل الصحافيون أسلوبا في الكتابة يبدو في الظاهر أنه مبني على موضوعية التحري العلمي، لكنه يفسح المجال للعمليات البلاغية التي تتحكم في طريقة اختيار وجمع وتوصيل الأخبار. ثالثا، عندما يؤلف الصحافيون رسائل إقناعية في شكل افتتاحيات وأعمدة وتحليلات، فإنهم يشاركون في الفن القديم المعروف بالخطبة العمومية.

الخطاب الإعلامي

صنف أرسطو البلاغة إلى ثلاثة أنواع modes: الاستشارية، والقضائية، والاحتفالية، وهي الأنواع التي تمثل الخطابات السياسية والقانونية والاحتفالية.

[انظر: النوع الاستشاري، النوع الاحتفالي، النوع القضائي.] يسعى المؤلف في أي صنف من هذه الأصناف إلى إقناع جمهور ما بتبني رأي أو حالة نفسية. اقترح ليود بيتزر Lioyd Bitzer (١٩٨٨) أن الصحافيين المعاصرين يمثلون الصنف الرابع من الخطاب الذي يتغيا الإخبار وليس الإقناع. إنهم يمدون بالخبر الآخرين المتورطين في الجدل، ويسجلون ويتوسطون الحجج وردود الفعل بين الفاعلين في الجدل العمومي وبين جماهيرهم. هكذا عندما يعمل الصحافيون بهذه الصفة، فإنهم يحاولون توصيل الخطاب العمومي من دون التأثير في نتيجته. يستخدم هذا النوع من البلاغة الاستراتيجية البلاغية لإنتاج تأثير لغاية إخبارية.

أعراف الموضوعية

أغلب أعراف الخطاب الإعلامي مستعارة من النظرات الشائعة للعلم. بينما تنبثق البلاغة السياسية عن افتراض أن هناك حاجة إلى الحجاج والحكم للكشف عن الحقيقة، فإن العلم يبدو أنه يفترض أن تجميع الوقائع أو المعطيات يكشف عن الحقيقة من دون حاجة إلى الحجاج. هكذا فإن الخطاب العلمي يركز في الظاهر ليس على الاستخدام الإقناعي للوقائع في الحجاج، ولكنه يركز بالأحرى على الإنتاج الموضوعي للوقائع ذاتها.[انظر: العلم] وعلى نحو مماثل يدعي الصحافيون نقل الأخبار بشكل موضوعي. إن أعراف التقرير الصحفي الموضوعي تحصر المراسل في توصيل الخبر الذي لاحظه أو نقله عن مصدر معلوم. على سبيل المثال، إذا كان بصدد البحث في موقع اصطدام الطائرة، فإن حادث الاصطدام يمكن نقله بوصفه واقعة على أساس الملاحظة المباشرة. وإذا ما حدث الاصطدام فوق قاعدة جوية عسكرية محصورة، وقام المراسل باستجواب شاهد، فإن ذلك يعني أنه قدم رواية عن الاصطدام. في الحالة الأولى، تتمثل الواقعة المنقولة في كون

الاصطدام قد حدث. وفي الحالة الأخرى، يتولى الشخص الذي ادعى أنه شاهد عيان بإفادتنا بالحادث. إن الصحافي إذن يشبه العالم، لا يسعى إلى إثبات نظرة، ولكنه بالأحرى ينقل فيما يبدو بشكل موضوعي الخبر القابل للاختبار.

ليس المثل الأعلى في التقرير الصحفي الموضوعي إذن السعي إلى إثبات التوافق، ولكن المثل الأعلى افتراض هذا التوافق. وقد أشار بيرلمان Pereleman وأولبرخت تيتيكا Olbrechts - Tyteca (١٩٦٩) إلى أن هذا وهم. فلا تصبح الوقائع وقائع إلا من خلال التوافق مع الجمهور. على هذا النحو يبدو العلم والصحافة شكلين من أشكال الاستدلال غير الصحيح. وفي الواقع تعد الصحافة شكلا حجاجيا يسميه بيرلمان وأولبرخت تتيكا بالخطاب التقريري.

وتتمثل أعراف الصحافة الأخرى التي تعطي الانطباع بالموضوعية، في ضمير السرد الغائب، وفي تحاشي الصحافي لآرائه الصريحة، وفي الهرم المعكوس لأسلوب الكتابة. فالعنصران الأول والثاني يتركان الصحافي حرفيا خارج القصة الإخبارية. فالتأثير هنا صادر عن الخبر الذي يكشف عن نفسه من دون تلوين العامل الإنساني. والهرم المعكوس هو منهج في الترتيب يقوم على تنظيم الأخبار حسب الأهمية. وهو يستخدم بشكل أساس في تنظيم الفقرات، لكنه في بعض الأحيان يظهر في الفقرة بل وحتى في بنية الجملة. إن الهرم المعكوس يمثل استبعادا للترتيب بوصفه إستراتيجية بلاغية. وبنفي التأثير الإستراتيجي للسياق فيما يبدو، فإن الصحافي يعزز بشكل أكثر الوهم بأن الوقائع تتحدث بنفسها. إن التأثير الإجمالي لهذه الأعراف الموضوعية في التقرير متعدد الأبعاد بالنسبة إلى مهنة تحول الخبر إلى سلعة. إن الخبر نفسه يظهر بشكل أجدر بالثقة، ويمكنه أن يكون مفيدا بالنسبة إلى مستهلكي الأخبار أصحاب الرأي المعاكس.

بدأ التحول شبه العلمي في تطور الصحافة في أواخر القرن التاسع عشر. وقد أسهم إلى حد ما في هذا التحول الحافز الاقتصادي الذي كان وراء جعل القصص الإخبارية تستجيب لأوسع نطاق من القراء. ولما كانت سابقا مئات من المنشورات الحزبية تستجيب لمئات الجماهير الفقيرة، حاولت نظريا الصحافة الأكثر حرصا على الكسب المالي تسويق القصص الإخبارية إلى جمهور أوسع مشكَّل من كل النزعات والمعتقدات السياسية. هكذا تطور الشكل الحديث للقصة الإخبارية الموجهة للقراءة وليس للإلقاء، الشكل القائم على الوقائع في ما يبدو والمجرد عن السياق السياسي. وقد أسهمت أيضا التكنولوجيا في بروز أعراف الصحافة الموضوعية. وقد أتاح التليغراف للصحافي المراسل في البداية تغطية الأخبار في مدينة واحدة وإرسال القصص الإخبارية إلى عدة صحف في مدن أخرى. وقد كان نوعا من الامتياز أن تظهر القصة الإخبارية بشكل موضوعي، مادامت الصحف في تلقيها للمادة الإخبارية يمكنها ألا تكون متجانسة سياسيا. بالإضافة إلى ذلك، فإن الثمن الباهظ لإرسال الرسائل التيليغرافية نجم عنه أن الصحافيين أخذوا الكتابة التقريرية إلى مستويات جديدة من التناثر. على هذا النحو بينما كانت الموضوعية الظاهرة والاختصار من قبل اختيارين أسلوبيين بالنسبة إلى البلاغي، فإن ظهور التكنولوجيا جعلهما تقريبا إجباريين بالنسبة إلى الصحافي.

الصحافة والدفاع

بينما تعد الصحافة الموضوعية في الظاهر المقولة الأكثر بروزا في النتاج الصحافي منذ سنة ١٩٠٠، فقد سبقها تاريخ طويل من الدفاع في تراث الخطبة العمومية. وتعد الافتتاحيات والأعمدة والمقالات التحليلية والرسائل إلى رئيس التحرير المعاصرة من بقايا فترة الانتقال في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، من الخطبة العمومية والنشرة المطبوعة. قبل أن تجعل

الصحافة الاستثمارية النشر الصحافي مسألة مربحة، كانت الصحف تنشر أساسا للتعبير عن الآراء السياسية الحزبية للناشرين. عندما كان المجال العمومي يتشكل في بريطانيا العظمى وفرنسا، باشر بعض المواطنين الجدل العمومي حول تطور الأنظمة الديموقراطية للحكومة بواسطة نشر آرائهم في نشرات وجرائد.

لم يكن محتوى هذه المنشورات الأخبار أو حتى الافتتاحيات كما تظهر اليوم، ولكن الخطابات المطبوعة والمقالات السجالية في شكل رسائل. وكان يقصد بالخطابات والرسائل معا أن تُقرأ بصوت مرتفع في المقاهي وفي تجمعات عمومية أخرى، وأن تكون مواد محفزة للجدل العمومي. وكانت تشمل هذه المنشورات في بريطانيا العظمى Tatler و Guardian و Spectator. كما نشرت مئات الجرائد في باريس خلال الثورة الفرنسية. وعلى نحو مماثل في الولايات المتحدة في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، كانت الخطابات في شكل رسائل موجهة إلى رئيس التحرير، العمود الأساس لمحتوى الصحيفة لأن كل فصيل تقريبا في أي حزب سياسي له منشوره الموالي الخاص. على هذا النحو تمتلك الصحافة الدفاعية أقوى ارتباط ممكن بالتراث الطويل للخطبة العمومية.

عندما أصبحت الصحف تسويقا تجاريا مربحا بالنسبة إلى جمهور أوسع في أواخر القرن التاسع عشر، بدأت تفصل البلاغة الإخبارية عن البلاغة السجالية. وقد اتخذ التقرير الصارم للأخبار مظهر الخطاب البلاغي، وانحصر الحجاج بوضوح في الافتتاحية ورسائل إلى صفحات المحرر. هكذا تطور التقليد الأحدث للخطاب الإعلامي المبني على مبدأ الموضوعية جنبا إلى جنب مع التقليد الحجاجي ذي الجذور اليونانية والرومانية. وتظل الافتتاحيات ورسائل إلى المحرر قريبة من تقليد الخطبة العمومية، وذلك

عندما تستعمل الإيجاد والترتيب والأسلوب. [انظر: الترتيب، والمقال عن الترتيب التقليدي، والإيجاد، والأسلوب.] أكثرها يمكن أن يقرأ بوصفه خطابات. والروابط بالتراث الشفاهي القديم جلية بشكل خاص في تلك اللحظات النادرة التي كانت تلقى فيها الافتتاحيات والردود في الإذاعة والتليفزيون. وتقع الأعمدة والمراجعات هي أيضا خارج إكراهات الصحافة الإعلامية، لكن لا أحد منهما يعد جزءا من تراث الخطبة العمومية على نحو ما انعكست في الافتتاحية والرسالة المكتوبة. فالافتتاحيات موسومة بالتقرير resoluteness بينما يتسم العمود في الغالب بالتأمل. ويحمل استعمال الإيجاد والترتيب والأسلوب في الأعمدة تشابها أكبر مع التقليد البلاغي للرسالة المكتوبة. [انظر بلاغة الرسائل.] وكانت المراجعات من جهة أخرى دائما جزءا من تراث النقد الأدبي والفلسفة. [انظر: النقد والفلسفة ومقالا عن المعاني المشتركة topics والمصطلحات المتواترة.]

أزمة الشرعية

لقد أدرك كل من بيتزر Bitzer (١٩٨٧) ودانييل هالين Daniel Hallin (١٩٨٥) أن هناك أزمة في الصحافة تولدت عن إبستيمولوجياتها المتصارعة في العلم والخطبة العمومية. لقد تتبع هالين ما أسماه بأزمة شرعية أخبار وسائل الاتصال في الولايات المتحدة الأمريكية حتى الستينيات عندما أصبح جليا أن أسلوب الأخبار الموضوعي لا يلائم نقل القضايا المحملة بالقيم مثل الحرب في فيتنام وحركة حقوق الإنسان. على سبيل المثال يمكن أن تنقل قصة إخبارية موضوعية؛ خبر خمسة وعشرين من الجنود الأمريكيين وثلاثة من المدنيين الفيتناميين قتلوا في المعركة، أو خبر مائتي مناهض للحرب خرجوا في مسيرة في قلب مدينة شيكاغو التجاري، ولكنها ستسقط الإشارة إلى الخطاب السياسي الجوهري عن قيمة الحياة الإنسانية باعتبار أهميتها

المناقضة للأهداف الدبلوماسية، أو إلى الشروط اللاإنسانية التي تعيشها أحياء الأقليات في المدن. لقد نظر جيمس كيري James Carey (١٩٨٦) إلى هذا بوصفه مسألة تتعلق بالسياق؛ فهو يسعى إلى إثبات أن معيار الموضوعية يخفي السياق الإيديولوجي للقصص الإخبارية، في حين أن القراء يحتاجون إلى السياق لأجل الفهم. ويشير هالين إلى أن الصحافيين أصبحوا واعين بهذا النقص في بلاغة الإعلام، ولكنهم يخفقون في إيجاد حل له بسبب قوة تعهدهم بالتزام الموضوعية. وبينما كان هناك تجريب فيما سمي بالصحافة الجديدة، فقد حاول الصحافيون مخاطبة حاجة الجمهور إلى السياق أساسا بتأليف نوع من التحليل الموضوعي الذي أخفق حتى الآن في التوجه إلى قضايا السياق الإيديولوجي وفي الوقت نفسه هدد بتسوية قواعد الموضوعية. وقد حاول هالين مستخدما نموذج نظرية النسق، أن يثبت حاجة القراء والمشاهدين إلى السياق، على الرغم من أن هدف الموضوعية يستبعد السياق. والنتيجة الحتمية هي أزمة الشرعية حيث تخفق مهنة الصحافة في الوفاء بمطالب بيئة القراء والمشاهدين، وتخفق بموازاة ذلك في الارتقاء إلى هدفها الموضوعي.

وبتعبير البلاغة التقليدية، يشير بيتزر إلى أن أي صنف من أصناف البلاغة يمتلك قيمة مهيمنة؛ المصلحة بالنسبة للبلاغة الاستشارية، والعدل بالنسبة للبلاغة القضائية، والشرف بالنسبة للبلاغة الاحتفالية. والقيمة المهيمنة - حسب بيتزر - بالنسبة إلى الصحافة هي الحقيقة. يبحث الصحافيون عن الوقائع الحقيقية لمساعدة الآخرين في تكوين الأحكام. إن فائدة الصحافيين بالنسبة إلى المجتمع تتوقف على مدى رؤية الآخرين لهم بوصفهم يمتلكون هذه القيمة. حسب بيتزر، ينبغي للصحافيين أن يصونوا تعهدهم بالحقيقة. وإذا أخفقوا في القيام بهذا، فإن هويتهم تلتبس بهويات السياسيين والمنشطين، وذلك يفقدهم ثقة الجمهور. وهذه هي أزمة الشرعية من جديد. إذا اكتفى الصحافيون بتقديم الوقائع الموضوعية، فإنهم يخفقون في

توفير السياق والمعنى لجمهورهم. وإذا وفروا السياق والمعنى من خلال الحجاج، فإنهم يتحولون إلى أنصار مشاركين في الجدل العمومي وبذلك يفقدون سلطتهم. بعبارة أخرى يقدم الصحافيون أحد الأدلة الأخلاقية المبنية على عمليتهم العلمية في إنتاج الأخبار، ودليلا أخلاقيا آخر بوصفهم أعضاء موالين في جدل عمومي. هذان الدليلان ينفي أحدهما الآخر؛ فأن يكون المرء موضوعيا يعني أنه لا يمكنه أن يكون مواليا، وأن يكون مواليا يعني أنه لا يمكنه أن يكون موضوعيا.

الصحافة والمجال العمومي

تعد افتتاحيات الصحف والقصص الإخبارية هجنة من الأعراف البلاغية التي تخدم المطالب الفريدة للخطاب العمومي في ديموقراطية الجمهور. لقد أخذ خطاب الأخبار مكانته في المنتدى العمومي، وانحصر في قضايا ذات الاهتمام العام، ومناهجه مقيدة بالتقاليد المعيارية والقوانين المأمولة للصحافة المهنية. يختار الصحافي موضوعا تدور حوله قصة إخبارية لأنه يثير اهتمام العموم. يتوقع القراء أن يتم بحث القصة من دون تحيز، ويتحقق الشكل النموذجي لذلك بواسطة استجواب الناطقين الممثلين للجهات المقابلة في قضية ما. ينبغي أن تكتب القصة مستقبلا على نحو موضوعي. وأخيرا يمكن أن يكون هناك توقع بأن موضع القصة الإخبارية في الصحيفة يعكس أهمية القصة بالمقارنة مع الأخبار الأخرى.

يقتضي الوضع النموذجي أنه عندما لا تكون هناك حكومة ديموقراطية، فإن الجمهور ينقصه الاضطلاع الجيد على قضايا الدولة. وليس للمواطنين العاديين حاجة كبيرة للمعلومات حول شؤون الدولة إذا لم يكن لآرائهم تأثير في أفعالها، ويمكن أن يكون لهم تأثير قليل على هذه الأفعال إذا لم يمتلكوا معلومات حول شؤون الدولة. ولا يتكسر هذا القفص الخطابي

سوى من خلال الدعاية لقضايا الدولة. لقد بدأ الجدل السياسي العمومي والمؤسسات الديموقراطية في التطور مع نهاية الحقبة الإقطاعية في أوروبا الغربية عندما مهدت التجارة بين المدن لتبادل المعلومات العامة.

عندما تتحول شؤون الدولة إلى شؤون عامة، فإن المواطنين يمكنهم أن يتركوا العالم الخاص والانخراط في الجدل العمومي لأجل التأثير في أفعال الدولة. إن العالم العمومي هو ما يسميه يورجين هابرماس Jurgen Habermas بالمجال العمومي (١٩٨٩). ولقد برز شكل محدود للمجال العمومي قديما في اليونان وروما، وبرز مجال عمومي أكثر شمولية بعد عصر التنوير، في إنجلترا وفرنسا أولا، ثم في أمريكا بعد ذلك. [انظر: السياسة، ومقالات عن: مجالات الحجة الشخصية والتقنية والعمومية، وعن البلاغة والشرعية.] إن انخراط أي شخص في الجدل العمومي حول قضية عامة، يعني أنه دخل في دنيا المجال العمومي. وتتمثل الخاصية المحددة للديموقراطية في أن قوانينها تحمي ولا تمنع وصول الناس إلى المعلومة الخاصة بالدولة. ومادامت تقريبا كل الديموقراطيات هي ديموقراطيات الجماهير، فإن الدعاية تتطلب تواصلا جماهيريا. وبينما لا يمتلك الصحافيون عادة حقوقا أكبر من حقوق المواطن العادي، فإنهم أصبحوا مالكي هذه العملية الدعائية. ومن البدهي في ديموقراطيات الجماهير أن على المرء أن يحشد وسائل الاتصال الجماهيرية للوصول برسالة سياسية إلى الجمهور الواسع.[انظر: Audience المقال عن Mass audiences.] غير أن الإكراهات الاقتصادية والتكنولوجية تجعل تبليغ الرسائل عبر وسائل الاتصال الجماهيرية مثل التليفزيون والإذاعة أصعب من إلقاء خطاب أو طبع وتوزيع نشرة مطوية. ومعظم أشكال الاتصال الجماهيري هي مؤسسات محكومة بمبادئ اقتصادية وحدود تقنية، ويديرها مهنيون أمثال الصحافيين الذين يمتلكون خطوطا توجه اختيارهم وتحريرهم

للخبر الموزع للعموم. هكذا ينبغي لمؤلف رسالة سياسية أن يفي بمعيار عمليات التوسط لأجل الوصول إلى الجماهير. في القرن العشرين كان الصحافيون مهنيين وأكثر مسؤولية لأجل الإشراف على جمع وتوزيع الخطاب البلاغي السياسي. لكن الوصول إلى التوسط الصحافي عملية في غاية التعقيد والمنع بالنسبة إلى المواطن العادي بحيث تطورت مهنة موازية هي العلاقات العمومية لمساعدة الخطباء في جعل رسائلهم أكثر جاذبية بالنسبة للصحافيين.

لقد حدد الباحثون في التواصل في الستينيات والسبعينيات وجها ثانيا للقوة: هو ترتيب قائمة الأولويات agenda - setting (Bachrach وBaratz ١٩٣٦، Macombs وShaw ١٩٧٢) [انظر: السياسة، المقال عن الوجه الثالث للقوة.] في اليونان قديما كان المواطن الذي يأمل التأثير في قرار سياسي يحتاج إلى الحديث إلى عدد قليل نسبيا من المواطنين الزملاء للتأثير في الإجماع العمومي. في المقابل نجد المواطن الذي يرغب اليوم في التأثير في قرار سياسي لا ينبغي فقط أن يمتلك رسالة تأثيرية، ولكنه ينبغي أن يمتلك موافقة ومساعدة أولئك الذين يعملون بوصفهم حراس تكنولوجيا التواصل الجماهيري. وتسمى ممارسة التحكم فيما يحدث في الصحيفة أو في الموجات الإذاعية بواسطة المحررين والمنتجين ترتيب قائمة الأولويات agenda setting. إن ممارسة القوة أعلى مستوى من خلق حجة عمومية لأن مَنْ يتحكم في برامج قناة ذات التواصل الجماهيري يمكنه أن يصوغ الحجة بطرق مسعفة أو مؤذية أو يمكنه أن يلغي الحجة تماما بواسطة رفض الوصول إلى الجمهور الواسع. وهكذا يمتلك من يتحكم في برنامج النقاش العمومي إمكانية أكبر للتأثير في القضايا وفي حصيلة الجدل العمومي إذا ما قورن بالمواطن الذي يؤلف رسالة سياسية.

خلاصة: مفارقة الموضوعية

تدين أهمية البلاغة الإعلامية في القرن العشرين أساسا إلى تكاثر الدول الديموقراطية وامتداد سكانها واتساع نطاق حقوق التصويت. ويتوقف الحكم الذاتي على مواطنين يتساوون في القدرة على الوصول إلى المنتديات العمومية بحيث يمكنهم الحصول على المعلومة والمشاركة في الجدل المدني، وتقريبا كل الديموقراطيات الحديثة هي ديموقراطيات الجماهير. فمن الضروري إذن أن يستخدم المواطنون في هذه الديموقراطيات مناهج التواصل الجماهيري. وقد قامت مهنة الصحافة بدور المالك في هذه العملية. وباستخدام تكنولوجيا الطباعة والإذاعة وتطبيق المناهج البلاغية التي تشكلت نماذجها بعد موضوعية معايير العلم، يقوم الصحافيون بجمع المعلومة وبثها إلى المواطنين. وهم مبدئيا لا يطبقون البلاغة التقريرية للإسهام في الجدل العمومي، ولكنهم يسعون إلى تيسيره. إن غرضهم حصد بلاغة الآخرين ونشرها.

وبينما لم يبرز منهج آخر في التيسير الديموقراطي للتواصل الجماهيري، فإن عدم ملاءمة عملية التوسط الصحافي أصبحت أكثر وضوحا. والحق أن النموذج التواصلي للخطبة العمومي غير التوسطي المستخدم في الديموقراطيات الكلاسية لا يمكن أن تخدم سكانا بملايين ومئات الملايين من المواطنين. إن تكنولوجيا التواصل مطلب للديموقراطيات الحديثة وليس عائقا، غير أنها لا توفر سوى نصف المعادلة الكلاسية للخطبة العمومية. يمكنها أن تبعث رسائل من خطيب إلى كل الجمهور، ولكن لا يمكنها أن تمنح أعضاء من الجمهور فرصة إرجاع الرسائل إلى المتكلم أو إلى بعضهم بعضا. بالإضافة إلى ذلك، يمتلك الشخص الذي ينتقي الرسائل لبثها عبر قنوات الاتصال الجماهيري، قوة أكبر من المواطنين الآخرين، ويمتلك، على نحو قابل للمناقشة، قوة أكبر من قوة أولئك الذين بُثت رسائلهم.

لقد كانت الغاية من مناهج البلاغة التقريرية التي استخدمها الصحافيون، حل هذه التفاوتات. ومن المفترض أنه ما دامت عمليات إنتاج بلاغة أنواع الخطاب الاستشاري والقضائي والاحتفالي تنتقي أحسن الوسائل المتاحة للإقناع، فإن عملية البلاغة الإعلامية تتوخى استقطار الوقائع الموضوعية ونبذ الإقناع. غير أن التواصل الإنساني كله وقرارات الصحفيين كلها ذات طبيعة ذاتية. وفي أحسن الأحوال يستخدم الصحافيون الموضوعية بوصفها معيارا للمساعدة في التقليل من تأثير التوسط. على هذا النحو لا يمكن للبلاغة الإعلامية إطلاقا أن تنتج تأثيرها المقصود – ولا يمكنها إطلاقا أن تخبر بشكل خالص. إن بلاغة الصحافة الموضوعية تخبر، ولكنها كذلك تضطلع بالحجاج. إن كلا من البلاغة الإعلامية والحجاج يحمل آراء. ولا يقوم بينهما اختلاف سوى في الدرجة والقصد المدعى. وفي نهاية التحليل، ينهض أساس الدولة الديموقراطية الحديثة على منهج يتسم بأنه أقرب إلى الوضوح منه إلى الواقعية.

قائمة المصادر والمراجع

Bachrach, Peter, and Morton S. Baratz. "The Two Faces of Power." *The American Political Science Review* 56 (1963), pp.pp. 947–952.

Bennett, W. Lance. *News: The Politics of Illusion*. 2d ed. New York, 1988.

يشتمل على تحليل لكيفية صنع الخبر ونقله واستهلاكه.

Bird, S. Elizabeth, and Robert W. Dardenne. "Myth, Chronicle, and Story: Exploring the Narrative; Qualities of News." In *Media, Myths, and Narratives: Television and the Press*, pp.pp. 67–86. Newbury Park, Calif., 1988.

Bitzer, Lloyd F. "Political Rhetoric." In *Landmark Essays on Con* Hendiadys *temporary Rhetoric*. Edited by Thomas B. Farrell, pp.pp. 1–22. Mahwah, N.J., 1998.

يشرح بيتزر مجال وطبيعة البلاغة السياسية ويتنبه بشكل خاص للدور الفريد الذي يضطلع به الصحافيون. وبخلاف نقاشات أخرى حول الصحافة والمجال العمومي، فإن هذا الشرح يتعلق كلية بسياق البلاغة التقليدية.

Bitzer, Lloyd F. "Rhetorical Public Communication." *Critical Studies in Mass Communication* 14 (1987), pp.pp. 425–428.

ينظر بيتزر إلى الصحافيين بوصفهم وسطاء بلاغيين للجدل العمومي.

Broder, David S. *Behind the Front Page: A Candid Look at How the News is Made*. New York, 1987.

يقدم هذا النص الذي كتبه أحد الصحافيين نظرة داخلية ذات طابع فكاهي إلى الصحافة.

Carey, James. "Why and How? The Dark Continent of American Journalism." In *Reading the News*. Edited by Robert Karl Manoff and Michael Schudson, pp.pp. 270–308. Baltimore, 1986.

Entman, Robert M. *Democracy Without Citizens: Media and the Decay of American Politics*. New York, 1989.

هذه الدراسة تنظر إلى نتائج الصحافة في إخفاقها في تحقيق معايير الموضوعية الخاصة بها.

Fallows, James. *Breaking the News: How the Media Undermine American Democracy*. New York, 1997.

Gans, Herbert J. *Deciding What's News: A Study of CBS Evening News, NBC Nightly News, Newsweek and Time*. New York, 1980.

هذه دراسة سوسيولوجية لكيفية تطبيق الصحفيين لمهاراتهم الصحفية.

Glasser, Theodore L., and James S. Ettema. "When the Facts Don't Speak for Themselves: A Study of the Use of Irony in Daily Journalism." *Critical Studies in Mass Communication* 10 (1993), pp.pp. 322–338.

Goldstein, Tom, ed. *Killing The Messenger: 100 Years of Media Criticism*. New York, 1989.

Habermas, Jürgen. *The Structural Transformation of the Public Sphere: An Inquiry Into a Category of Bourgeois Society*. Translated by Thomas Burger and Frederick Lawrence. Cambridge, Mass., 1989.

ينظر هابرماس إلى الصحافة بوصفها جزءا من عملية متنامية للتواصل السياسي.

Hallin, Daniel C. "The American News Media: A Critical Perspective." In *Critical Theory and Public Life*. Edited by J. Forester, pp.pp. 121–146. Cambridge, Mass., 1985.

يناقش هالين العلاقة بين قواعد أخبار وسائل الإعلام وبين الشرعية؛ إن هذا أيضا واحد من الإحالات الأولى إلى الوجه الثالث للقوة.

Macombs, Maxwell E., and Donald Shaw. "The Agenda - Setting Function of Mass Media." *Public Opinion Quarterly* 36 (1972), pp.pp. 176–187.

Paletz, David L., and Robert M. Entman. *Media Power Politics*. New York, 1981.

Perelman, Chaim, and L. Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation*. Translated by John Wilkinson and Pucell Weaver. Notre Dame, Ind., 1969. First published 1958.

بيرلمان وأولبرخت تيتيكا هما من أوائل من قدما موقفا بارزا من الخطاب التقريري بوصفه نوعًا بلاغيًا.

Schudson, Michael. *Discovering the News: A Social History of American Newspapers*. New York, 1978.

Tuchman, Gaye. "Objectivity as Strategic Ritual: An Examination of Newsmen's Notions of Objectivity." *American Journal of Sociology* 77 (1972), pp.p. 661.

تأليف: Thomas Jesse Roach

ترجمة: محمد مشبال

مراجعة: عماد عبد اللطيف

المراجعان والمترجمون فى سطور:

الدكتور بدر الدين مصطفى أحمد (مترجم)

مدرس فلسفة الجمال والفلسفة المعاصرة بقسم الفلسفة- كلية الآداب- جامعة القاهرة. قام بالتدريس في أكاديمية الفنون وجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا. نشر العديد من الأبحاث والمقالات في مصر والكويت والأردن وسلطنة عمان والجزائر. له ثلاثة كتب مؤلفة، وشارك في تأليف كتابين، كما ترجم منفردا وبالاشتراك العديد من الكتب في الفلسفة والنقد الأدبي والبلاغة والجغرافيا والثقافة البصرية. عضو لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضو الجمعية الفلسفية المصرية.

للتواصل: badrmostafa@hotmail.com

الدكتور حجاج أبو جبر (مترجم)

درس الأدب الإنجليزي بجامعة القاهرة، وحصل على الدكتوراه عن أطروحة في النقد الثقافي عند عبد الوهاب المسيري، قام بدراسات ما بعد الدكتوراه في ألمانيا بمعهد الدراسات المتقدمة وجامعة هومبولت، ويعمل مدرسًا بأكاديمية الفنون بمصر، صدر له كتاب **Mapping the Secular Mind** عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي بلندن.

للتواصل: hagagali@gmail.com

الدكتور حسام أحمد فرج (مترجم)

مدرس اللغويات بكلية اللغات والترجمة في جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، تخرج في كلية الآداب عام ١٩٩٢م، وحصل فيها على درجة الماجستير بتقدير ممتاز، ودرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى. شارك في العديد من المؤتمرات المحلية والدولية، وقد تخصصت أغلب دراساته في علم النص. ومن مؤلفاته: علم اللغة عند العرب؛ علم النص (رؤية منهجية في بناء النص النثري)؛ هذا بالإضافة إلى مجموعة من الأبحاث منها: الأداء النصي واختلاف طرق التأويل؛ النص- السورة (دراسة نصية في تحديد الأطر التواصلية للقرآن الكريم)؛ والعنوان الصحفي في صحافة ما بعد ثورة ٢٥ يناير – مقاربة نصية.

للتواصل: hosamahmed70@hotmail.com

الدكتور خالد توفيق (مترجم)

أستاذ الترجمة وعلم اللغة بقسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، وعضو اتحاد الكتاب. قام بالتدريس في عشر جامعات عربية وأجنبية، منها الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وجامعة الملك عبد العزيز، وجامعة الفيصل بالمملكة العربية السعودية، وجامعة سيتي، وجامعة نيويورك فرع القاهرة. قام بوضع العديد من المناهج الدراسية لأقسام اللغات والترجمة في بعض الجامعات العربية، كما قام بتقويم مناهج الترجمة التي تدرس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. صدر له أكثر من ثلاثين كتابًا، ما بين مؤلَّف ومترجم. وقام بالإشراف، والمشاركة في الإشراف، على عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراه.

للتواصل: kh_tawfiq@yahoo.com

الدكتورة عزة شبل محمد (مترجمة)

مدرس اللغويات بكلية الآداب في جامعة القاهرة، تخرجت في كلية الآداب عام ١٩٩٢م، وحصلت فيها على درجة الماجستير بتقدير ممتاز، ودرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى. أشرفت على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه، وشاركت في عدد من الندوات العلمية والمؤتمرات المحلية والدولية، ولها عدد من الدراسات في مجال علم النص منها: علم لغة النص: النظرية والتطبيق؛ نحو منهج مقترح لدراسة لغة النص الأدبي؛ وبنية التكرار في لغة القصة القصيرة عند يوسف إدريس؛ والسياق وإنتاج الدلالة: نماذج من النظريات اللسانية الغربية.

للتواصل: azza_shebl_cu@hotmail.com

الدكتور عماد عبد اللطيف (مراجع ومترجم)

درس البلاغة وتحليل الخطاب بجامعة القاهرة وجامعة لانكستر الإنجليزية. نشر أكثر من أربعين بحثًا بالعربية والإنجليزية، وله ستة كُتبٍ مؤلَّفة منفردًا هي: "لماذا يصفّق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير (٢٠٠٩)"، و"إستراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي" (٢٠١٢)، و"البلاغة والتواصل عبر الثقافات" (٢٠١٢)، و"تحليل الخطاب البلاغي: دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف" (٢٠١٤)، و"البلاغة: آفاق جديدة لحقل معرفي قديم" (٢٠١٥). وحصل كتابه "بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن

الثورة" (٢٠١٣) على جائزة أفضل كتاب عربي في العلوم الاجتماعية من معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٢٠١٣. مؤلِّف مشارك في موسوعة أكسفورد للشخصيات الأفريقية البارزة (أكسفورد)، ودائرة المعارف الإسلامية (ليدن). ترجم وراجع عددًا من الكتب المؤسِّسة في البلاغة وتحليل الخطاب. يعمل منذ عقدين من الزمان على تطوير اتجاه في الدرس البلاغي يُطلِق عليه "بلاغة المخاطَب (الجمهور)"؛ يُعزِّز من الترابط المعرفي بين البلاغة العربية ودراسات التواصل وتحليل الخطاب.

للتواصل: emad.abdulatif@gmail.com

الدكتور محمد الشرقاوي (مترجم)

أستاذ مساعد للغويات العربية بجامعة وين ستيت في الولايات المتحدة، حصل على الماجستير في تعليم العربية للناطقين بغيرها عام ١٩٩٧، عمل بالجامعة الأمريكية حتى انتقل لهولندا للحصول على شهادة الدكتوراه التي نالها عام ٢٠٠٥ من جامعة راد باود برسالة في تاريخ العربية. عمل في الجامعة الأمريكية في القاهرة وجامعة القاهرة وجامعة بايرويت في ألمانيا وجامعة براون وجامعة وين ستيت في الولايات المتحدة. له كتابان بالعربية هما: التعريب في القرن الأول الهجري عن المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٧؛ والفتوحات اللغوية عن دار التنوير عام ٢٠١٣، كما أن له عددًا من المقالات العلمية عن تاريخ العربية وعددًا آخر من الكتب المترجمة.

للتواصل: mtarek2000@hotmail.com

الدكتور محمد فوزي الغازي (مترجم)

دكتوراه في الترجمة ولغويات النص بجامعة القاهرة عام ٢٠٠٩، وزائر أكاديمي لدراسات ما بعد الدكتوراه بجامعة لندن (SOAS) بإنجلترا عام ٢٠١٠؛ وهو أستاذ الترجمة المساعد بجامعة الملك عبد العزيز حتى أواخر عام ٢٠١٣، ثم مدرس الترجمة واللغويات بجامعة الإسكندرية؛ وهو محاضر ومترجم دولي رُشح للأمم المتحدة بنيويورك عام ٢٠١٠.

للتواصل: muhammadfi@yahoo.com

الدكتور محمد مشبال (مترجم)

أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بكلية الآداب جامعة عبد المالك السعدي بتطوان المغرب، ومنسق فرقة البلاغة وتحليل الخطاب. أصدر مجموعة من الكتب والترجمات؛ منها: مقولات بلاغية في تحليل الشعر (١٩٩٣). الصورة في الرواية (ترجمة). بلاغة النادرة (١٩٩٧). أسرار النقد الأدبي (٢٠٠٢). الهوى المصري في المخيلة المغربية (٢٠٠٧). البلاغة والأصول (٢٠٠٧). البلاغة والسرد (٢٠١٠). البلاغة والأدب (٢٠١٠). الأدب والنقد والواقع (٢٠١٠). بلاغة النص التراثي (٢٠١٣). البلاغة والخطاب (٢٠١٤).

للتواصل: medchbal@hotmail.com

الدكتورة مريم أبو العز (مترجمة)

باحثة مصرية تخرجت فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الألسن جامعة عين شمس، وحصلت على الماجستير في الدراسات اللغوية من جامعة لانكستر بالمملكة المتحدة. تعمل مدرسًا مساعدًا بجامعة لانكستر حيث تُعِد درجة الدكتوراه. تتمحور اهتماماتها البحثية حول العلاقة بين الفصحى والعامية في مصر وكتابة العامية بحروف لاتينية وخطاب ثورة ٢٥ يناير، وقد نشرت عدة أوراق بحثية عن هذه الموضوعات.

للتواصل: mariam.aboelezz@gmail.com

الدكتورة مها عبد الحكيم حسان (مترجمة)

أستاذ الأدب المقارن بقسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة القاهرة. لها أبحاث عديدة منشورة فى مجالات النقد الأدبى ودراسات الترجمة والدراسات النسوية والأدب المقارن ونظرية ما بعد الكولونيالية. عملت مترجمةً حرة مع العديد من الهيئات المحلية والدولية ولها ترجمات منشورة. شاركت فى ترجمة أكثر من موسوعة، كما أسهمت بمجموعة من الأبحاث فى مؤتمرات عن الترجمة. وهى تقوم أيضا بتدريس الترجمة فى جامعة القاهرة وتدرس الترجمة والترجمة الفورية فى جامعات غير حكومية.

للتواصل: mahahassan2003@yahoo.com

الدكتور مصطفى لبيب عبد الغنى (مراجع)
أستاذ الفلسفة الإسلامية وتاريخ العلوم
كلية الآداب - جامعة القاهرة

- عضو مجمع اللغة العربية، وعضو الجمعية الدولية لفلسفة العصور الوسطى.
- حاصل على جائزة مؤسسة التقدم العلمي بالكويت عام ١٩٩٤.
- حاصل على جائزة رفاعة الطهطاوي في الترجمة من مصر عام ٢٠٠٦.

من أهم مؤلفاته

- دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب (١-٤).
- نظرات فى فكر الإمام محمد عبده.

من أهم تحقيقاته للنصوص

- "الشكوك على جالينوس" لأبى بكر الرازى.
- "مقدمة ابن خلدون".

من أهم ترجماته

- "فلسفة المتكلمين فى الإسلام" لـــ هارى ولفسون.
- "فلسفة محى الدين بن عربى" لأبى العلا عفيفى.
- "الفلسفة اليونانية" لـــ جوليا أنَّاس.

التصحيح اللغوى: **محمد محمود**

الإشــراف الفنى: **حســن كامل**